الموسوعة التاريخية الحديثة  الموسوعة التاريخية الحديثة



قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت



دار الفكر



قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تأليف

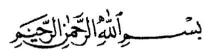
جماعة من المؤلفين الغربيين

تعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

أستاذ التاريخ الأوربي الحديث في جامعة الكويت

دار الفكر



تصوير ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
عن ط - ١٩٨١ م



طبع بالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص ب (٩٦٢) دمشق-سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

الى الفدائي

الذي يبذل الروح

دفاعاً عن الدار والخلاص من الاستعمار

المقدمة

يتمم هذا الكتاب « قضايا عصرنا » كتاب « تاريخ عصرنا » ويوضحه في شرح قضايا العصر الكبرى كقضية الخلاص من الاستعمار والعلاقات بين الشرق والغرب وتطور الحرب والتطور الاقتصادي والاجتماعي والديني والحياة اليومية ، وقضايا الدول الصغرى ، وقضية الحضارة المعاصرة وما أنجزته من تقدم علمي وتقني ؛ وغيرها من القضايا التي تميز عصرنا الحاضر وتفسره .

والأمل أن يتحقق به النفع المرجو والفائدة المتوخاة .

الفصل الأول

نهاية الاستعمار

او ستعمار

كانت المستعمرات تمتد ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، على خارطة الكرة الأرضية ، على أكثر من نصف القارات . ففي اوروبة ، كانت صخرتين بريطانيتين : جبل طارق ومالطة ؛ وفي شرقي المتوسط ، احتلت انكلترا قبرص ، وايطاليا رودس . وتحررت امريكا ، الولايات المتحدة وامريكا اللاتينية ، منذ اكثر من قرن ؛ ولكن بقيت كندا الواسعة ، الدومنيون البريطاني ، هوندوراس البريطانية ، جزر الآنتيل الصغرى والغويانة ، موزعة بين انكلترا وفرنسا وهولاندة ؛ وأخيراً بورتوريكو وآلاسكا وتتعلقان بالولايات المتحدة .

واستعمرت آسيا بشكل واسع كثيراً جداً : احتل فيها الروس الشمال كله والغرب ، سيبريا ، تركستان ، القوقاز ؛ وكان ملك انكلترا امبراطور الهند ويسيطر على سيلان ، بورما ، ماليزيا (مالايو) ، سنغافوره ، هونغ كونغ . وجعلت هولاندا من الهند الهولاندية ، اندونيسيا في المستقبل ، مستعمرة زراعية غنية ؛ وجمعت فرنسا فيت - نام ، كامبوديا ولاوس في الهند الصينية ؛ واستعمرت اليابان فورموزا ، كوريا ، ماندشوريا وبدأت بفتح الصين ؛ وكانت الصين فعلياً كثيراً أو قليلاً

سيدة تركستان الشرقية والتيبت ؛ وكانت مونغوليا مقسمة بين النفوذين الصيني والرومي . وقسمت البلاد العربية من جديد بين انكلترا ، التي استولت على جنوبي شبه الجزيرة العربية ، العراق وفلسطين ، وفرنسا التي احتلت سورية ولبنان ، بصفة انتداب في الغالب .

واستعمرت افريقية ، عدا ليبريا الصغرى ، البائسة جداً آنذاك ، بكاملها بصفات مختلفة : وكانت مصر التي انضمت اليها السودان باسجاء من السلطات البريطانية ، مستقلة نظرياً منذ ١٩٢٢ ، ولكن الجيش البريطاني يحتلها . وحققت انكلترا على هذا النحو حلم سيسيل رودس ، صابغة باللون الوردي البريطاني شرقي القارة كله ، « من الكاب الى القاهرة » بدومنيون جنوبي افريقية ، الروديسيتين ، تانغانيقا ، كينيا ، اوغندا والسودان الانكليزي المصري . وتملك ، عدا ذلك ، اربع مستعمرات في افريقية الغربية : غامبيا ، سيراليون ، ساحل الذهب ونيجيريا الواسعة ؛ وحول القارة ، على طول طريقي الهند ، احتلت بعض الجزر والمواقع البحرية : جزيرة الصعود ، القديسة — هيلانة ، زنجبار ، عدن ، موريس وجزر سيشيل .

وبعد أن ضمت فرنسا **الجزائر** اتمت وحدة المغرب بحمايتي **تونس ومراكش** . واحتلت اراضي واسعة ونظمتها وهي : افريقية الغربية الفرنسية (A.-O.F.) وافريقية الاستوائية الفرنسية (A.-E.F.) ، التي تمتد من الغابة العذراء الى القسم الاعظم من الصحراء الكبرى .

وانتدبت فرنسا ، فوق ذلك ، على المستعمرات الالمانية السابقة في توغو وكمرون ؛ وسيطرت ، في المحيط الهندي ، على مدغسكر ، وشاطىء الصومال الفرنسي وجزر الكومور .

وضم الملك ليؤبولد الثاني ، بصفة شخصية ، الكونغو وورثتها بلجيكا بعده . وحافظت البرتغال على فتوحاتها القديمة : جزر الرأس الأخضر ، غينة البرتغالية ، أراضي موزامبيك الواسعة وانغولا .. ولا توجــد اسبانيا إلا في شمالي مراكش وفي بضع نقاط من الشاطىء الصحراوي ، وتحت خط الاستواء ، في غينة الصغيرة الاسبانية . وكانت ايطاليا آخر قادمة ، واحتلت ليبيا والصومال ، واريترة ، ثم ضمت في العام ١٩٣٦ امبراطورية اثيوبيا (الحبشة) القديمة ؛ وكان هذا الحادث آخر فتح استعماري .

واستعمرت **اوقيانوسيا** بكاملها . وجزئت غينة ـ الجديدة ، أكبر جزيرة في العالم ، بين هولاندة وانكلترا واوستراليا . وحمت الولايات المتحدة جزر الفيليبين . وكانت انكلترا الوطن الأم (المتروبول) لدومنيوني اوستراليا وزيلاندة ـ الجديدة . وتتقاسم معها ومع فرنسا ارخبيلات ميلانيزيا وبولينيزيا الصغيرة ، وما من مكان ، حتى على اطراف القارة المتجمدة الجنوبية ، الا وأرادت الدول احتلاله والاستقرار فيه . وهكذا تم التقسيم الاستعماري للأرض .

فما هي المستعمرة إذن ؟ إنها بلد يتعلق سياسياً بالمتروبول . وكلمة « متروبول » ، أي « المدينة الأم » ، تدل على أصول النظام (المؤسسة): فقد نشرت المدن اليونانية في القديم « المعمرين » أي الفلاحين في البلاد « البربرية » ، أي في خارج بلاد اليونان ، مثل آسيا الصغرى أو جنوبي ايطاليا . ولم يكن هـذا النوع من « مستعمرة الاستيطان » غائباً عن الاستعمار الحديث ؛ وهذه هي حال الجزائر عندما كانت مستعمرة فرنسية ؛ وظلت الدومنيونات البريطانية نماذج لذلك أيضاً ؛ وكان بعضها في اكثره

ماهولاً بالمعمرين ؛ ولم يكن البيض في افريقية الجنوبية إلا أقلية قوية تستخدم عمل اكثرية ابناء البلاد الاصليين .

وفي أمكنة أخرى ، وبخاصة في المناطق المدارية ، لم يكن المستعمرون إلا عدداً ضعيفاً من العسكريين والاداريين ، وأعضاء البعثات التبشيرية ، والفلاحين والتجار يسيطرون ويوجهون الجماهير الكبرى من أبناء البلاد الأصليين . ومثل هذه المستعمرة يسمى « مستعمرة الاستغلال » ، وهو تعبير موروث من جزر قصب السكر في النظام القديم ويفترض هدفاً خاصاً للربح الاقتصادي بنتائجه غير الانسانية . وقد شجب الاشتراكيون هذا المظهر آنذاك على حق تحت اسم « الاستعمار » أو « الاستعمارية » كنظام . ولكن الواقع ليس بسيطاً . لأن المستعمرات لم تفد إلا بعض الافراد او بعض الجماعات . ولم تكن البتة عنصراً أساسياً في ازدهار البلاد الأم . لأن هذه الأخيرة انطلقت في الغالب في فتوحات بعيدة بداعي العظمة السياسية وبحسد جيرانها . وكانت فكرة « الرسالة المحضرة حيال المتوحشين الهمج » احياناً عذراً ، ولكنها كانت ايضاً بالنسبة للكثيرين من مكتشفين ومبشرين وموظفين واقعاً قوياً ، وكما غنى الشاعر الانكليزي كيبلنغ ، كانت عبء الانسان الابيض الذي أخذ على عاتقه تقدم الكوكب .

وليس هذا القول كلاماً عبثاً . إن تقدم البيض التقني ، الذي اتبعه اليابانيون بشدة وحمية ، جعلهم في القرن العشرين معلمين ومرشدين للمستعمَرين بعد أن وجدوهم في الغالب في مستوى العصر الوسيط او ما قبل التاريخ . ولكن الواقع ، بكونهم معلمين ، لا يحملهم على الاسراع بتحرير قاصريهم حتى ولا تصور هذا التحرير بوضوح . ومع ذلك فإن التماس الخارجي والتنظيم الاستعماري أثارا تغييراً بطيئاً في المجتمعات القديمة .

إن التهدئة والحدود الجديدة ووسائل المواصلات من موانيء وخطوط حديدية وطرق وطائرات ونمو المدن فجرت الأطر السياسية القديمة الضيقة وخلقت كيانات واسعة ومزجت الشعوب . فالى جانب اقتصاد العيش التقليدي المعتمد على الزراعات الغذائية انشيء اقتصاد تبادل مؤسس على المنتجات الجديدة كالسكر والكاكاؤ والقهوة والشاي والفول السوداني والقطن والكاوتشوك والكرمة ، الخ . أو على استغلال الموارد الطبيعية كالغابات والمناجم وغيرها . وهذا التصدير يتجه بخاصة نحو الوطن الأم الذي يرسل ، بالمقابل ، منتجاته المصنوعة ، معوضاً بسعر رخيص المصنوعات المحلية . ولا شك في أن هذا التغيير يحدث تحت تأثير التبعية المزدوجة السياسية والاقتصادية . إلا أنه يشكل على الاقل انقلاباً مادياً واجتماعياً ،ويضاف اليه انقلاب الافكار عند العناصر المثقفة على الطريقة الغربية ، « المتطورة » . وما زال هؤلاء قليلي العدد وبخاصة في افريقية وسيكونون خميرة العجينة وعمال المستقبل .

بوادر الخلاص من الاستعمار

وستسهم عقائديات مختلفة في هذه اليقظة . لقد علم المعلمون الفرنسيون الشعار « الحرية ، المساواة ، الاخاء » . ولقن المبشرون المسيحيون الاخاء البشري . والإسلام يدعو الى الاخاء الاسلامي . كما ان القومية ، التي حررت شعوب أوربه منذ قرن ، القت ببقعة الزيت في آسيا وفي البلاد العربية وذكرت بالامبراطوريات الكبرى والحضارات الوضاءة في القديم . وضربت اليابان المثل في التجديد الخارق والانتصارات على أوربه . وانتقلت هي نفسها إلى التسلط والامبريالية . وان عالم السيطرة البيضاء ، الذي غناه كيبلينغ ، بدأ يميل ، وبشّر لوثروب ستودارد بـ « المد الصاعد للعروق الملونة » .

إن أول تحويل عميق في امبراطورية استعمارية كان من عمل مستعمَر مالبث أن أصبح زعيم البلد المستعمِر ، الجيورجي جوزيف ستالين . فقد شجب الاشتراكيون « الاستعمارية » ، وبشر لينين بتحرير الشعوب المستعمرة ورأى فيه واسطة انهيار الرأسمالية . ومنذ استلامه السلطة نادى بـ « مساواة شعوب روسيا وسيادتها »

ومن هنا ظهر تفتح القوميات التي كادت أن تنسف هذا التجميع العظيم للبلاد ، هذا العمل الذي قام به القياصرة الروس خلال قرون . وشجب ستالين القومية كرجعية إذا كانت منبثقة عن الاقطاعيـــات والبورجوازيات المحلية ؛ وخول الشعوب من عروق أخرى بعض الاستقلال الذاتي السياسي والثقافي ، وأمن في الوقت نفسه تماسكها بالحزب الشيوعي وتنميتها بالخطط الخمسية . ومن ١٩١٤ إلى ١٩٣٤ ، عرف مذهبه وطبقه . وغلبت عقدة النقص على أمرها ، واستطاع المجموع الكبير الذي اطلق عليه اسم « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » أن ينطلق من جديد لحياة جديدة ، حياة القرن العشرين .

والولايات المتحدة ، المنبثقة عن ثورة استعمارية ، احتفظت بعقائدية قلما تصلح للامبراطوريات . فقد خول روزفلت ، منذ ١٩٣٤ ، الاستقلال الذاتي للفيليبين . والليبرالية الانكليزية التي أوحى بها التحرير الامريكي والعادة الداخلية للبرلمانية والاستقلالات الذاتية المحلية ، قبلت ، منذ زمن طويل ، « الحكم الذاتي » في المستعمرات الكبرى البيضاء التي أطلق عليها اسم « الدومنيونات » مثل كندا في ١٨٤٠ ، استراليا ١٩٠٠ ، زيلاندة — الجديدة ١٩٠٧ واتحاد جنوبي أفريقية ١٩١٠ . وكان نظام الاستقلال الذاتي الداخلي هذا يسمح لها بتسيير مصالحهـــا بواسطة حكومة وبرلمان وإدارة خاصة .

وظلت قضايا الدفاع والدبلوماسية المتعلقة بها في النطاق الخاص بحكومة لندن . وبين الحربين العالميتين أصبح المجموع « رابطة الشعوب البريطانية » ووضعت الهند على يد نخباتها المتحركة ، التي تثقفت في الجامعات الانكليزية قضية صعبة ؛ وكانت مجالس الأقاليم تنتخب الوزراء منذ ١٩١٩ ؛ وكان يتنبأ للآجل البعيد باتحاد مع سلطة مركزية . وأخذت مصر في ١٩٢٢ استقلالها من حيث المبدأ . وفي ١٩٣٢ تخلت انكلترا عن انتدابها على العراق ثم عن شرقي الأردن . وكانت البـــلاد المنخفضة عرضة لحركة قومية قوية في اندونيسيا ، فردت بعنف ولكنها اضطرت إلى البدء بإعداد برلمان محلي .

وفي فرنسا ، كان عدم الحركة غالباً . فقد أنشئت بعض المجالس الكالحة المحلية في الجزائر ، والهند الصينية ومدغشكر ، ولكنها كانت مجالس استشارية واقتصادية ويسيطر عليها الأوربيون .

وأعدت « الجبهة الشعبية » تحرير سورية ولبنان وتونس والتمثيل السياسي للنخبة الجزائرية ؛ ولكن سقوط ليون بلوم ، في ١٩٣٧ ، كان سبباً في في إخفاق هذا التحويل العاجل . ولم يكف تفتح القوميــة الفيتنامية ، التي تأكدت بثورة ين باي ، في ١٩٣٠ ، لفتح عيون المحافظين على مجيء الأزمنة الجديدة .

وسجلت الحرب العالمية الثانية قيام عالم كوكبي وخراب أوربه الغربية المستشرية على دمارها الخاص . وظهرت بين الغالبين دولتان في الصف الأول: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

وكانت الدولتان مناوءتين للاستعمار وتشجعان حركات التحرير . ولم تظهر هذه الحركات أثناء الحرب . وكونت العرقية المتلاربة الاتحاد ضدها

وما زالت الأطر الاستعمارية متينة بعد . وسببت الهند وحدها القلق للانكليز : فقد بشر غاندي بـ « اللاعنف » ، الذي توحي به التقاليد الهندية ، وعارض الدفاع ضد اليابانيين . وسجنه الانكليز مع تلميذه نهرو ، في آب ١٩٤٢ ، وحصلوا على تعاون الزعماء القوميين الآخرين . وخدم مليونا هندي في الجيش أو في المعامل ، ودحر اليابانيون . ولكن هذا النفير استخدم أيضاً في أماكن أخرى ، في آسيا أو في أفريقية ، وأعطى لمحاربي البلاد المستعمَرة العاطفة بقوتها وتقنية الحرب . فمن ذلك أن الأفارقة الذين انخرطوا في جيش الجنرال لوكليرك من ليبيا الى قلب ألمانيا حافظوا على عقلية فاتحين وقليلي الاستعداد للخضوع . ولذا فإن فكرة « الحرية » التي استنفرت بشكل واسع في النضال ضد النازية لم يعد بالامكان ردعها ووضعها في محلها .

وتحملت الدول الاستعمارية الكبرى خسائر مادية ومعنوية فقد احتلت البلاد المنخفضة من قبل الألمان ، وطردها اليابان من إيريانا الغربية ، وظلت خلال أربعة أعوام زائلة من الخارطة . وشهدت الامبراطورية البريطانية إغراق سفنها الحربية ، واستسلام حصن سنغافوره ، واجتياح ماليزيا وبورما ، والهند وجنوبي افريقية مسوقين بصعوبة إلى الحرب ، ومصر جامحة ثم مهددة ، والعراق ثائرة . وخرجت انكلترا من كفاحها الطويل منهكة وغير قادرة على توطيد سيطرة عالمية . وغلبت فرنسا عسكرياً ، واحتلها العدو ، وانقسمت افريقية الفرنسية خلال عامين بين « الفيشيين » و « الغوليين » ، واجتاح اليابانيون الهند الصينية ، كما اجتاحت الجيوش الحليفة افريقية الشمالية ومدغسكر ، وضرب اسطولها أو أغرق ، وتحررت أرضها القومية بحرب احتل فيها الامريكيون المكان الأول ، وخرجت من المحنة مهدمة وفي حالة سياسية قلقة وغير مستقرة .

ومن جهة الخصم ، كان الانهيار عظيماً أيضاً . وبدا أن العرقية بادت نهائياً مع النازية . وخسرت إيطاليا امبراطوريتها الجديدة . وطرحت اليابان من فتوحاتها بعد كفاح مرير ، ووجدت نفسها بقنبلة هيروشيما طريدة من مستعمراتها السابقة ومن الصين النصف محتلة . ولكن اليابانيين في جنوب شرقي آسيا الخاضع لهم منذ عدة سنوات ، بشروا بسقوط البيض و « آسيا للآسيويين » . وأنبتت هذه البذور نباتها . و « كسبت اليابان المغلوبة الحرب » .

وظهرت بين قصف القنابل والخرائب بعض أمارات العالم الجديد . ففي آب ١٩٤١ التقى تشرشل وروزفلت في البحر وعرفا «ميثاق الاطلسي» حيث يظهر بخاصة صدى بعيد للثورة الفرنسية ، « حق كل شعب في اختيار شكل الحكم الذي يجب أن يعيش فيه » . وفي الجزائر المدينة ، في ١٩٤٤ ، كانت الحكومة الفرنسية المؤقتة محرومة من قاعدة البلد الام ، فاعتمدت على المستعمرات ورسمت اتجاهات جديدة ؛ وخولت المواطنة الفرنسية إلى ٦٠٠٠٠ جزائري مع احتفاظهم بنظامهم المدني الاسلامي .

وفي برازافيل انعقد مؤتمر حكام افريقية السوداء ونادى بتمثيل واسع للمستعمرات في البرلمان الفرنسي والمجالس المحلية ، مع شجب فكرة الاستقلال الذاتي « حتى البعيدة » .

وشهدت العودة إلى السلام في سان فرنسيسكو ، في حزيران ١٩٤٥ ، إعداد ميثاق الامم المتحدة . أما الفكرة التي قال بها بعض الامريكيين في تحويل جميع المستعمرات الى وصايات مؤقتة فقد أبعدت بمعارضة الدول الاستعمارية . واكتفي بأن أطلق إسم « وصايات » على « انتدابات » عصبة الامم السابقة وبعض المستعمرات الايطالية واليابانية السابقة .

وكسبت دول انتدابات الشرق السابقة استقلالها بفضل التنافس الفرنسي - الانكليزي . وأخذ مجلس الوصاية ، في منظمة الامم المتحدة ، الذي يضم بالتساوي دولاً وصية ودولاً غير وصية ، منها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، يستقبل تقارير الأوصياء وملتمسات الشعوب الموصى عليها ويقوم بزيارات دورية لبلاد هذه الشعوب . ووجدت الدول الموجهة نفسها موضوعة تحت وصاية دقيقة . وعدا ذلك ، يجب أن توجه تقارير عن كافة البلاد « غير المستقلة ذاتياً » أي المستعمرات والمحميات غير الخاضعة للوصاية ، الى منظمة الامم المتحدة التي تضم جمعيتها العمومية أكثرية من أعضاء غير مستعمرين يسهل عداؤهم أو يصعب كسبهم . وما فتئت منظمة الامم المتحدة تدفع إلى التحرير وتسهله عندما تتوافر الظروف وتستقبل الامم المستقلة الجديدة مهما كانت رقيقة الحال أو سيئة التكوين . لقد بدأ جزر الاستعمار وأخذ قليلاً قليلاً يجرف كل شيء .

المرحلة الاولى

١٩٤٥ — ١٩٥٤

تحرير آسيا

سارت الهند بسرعة على طريق التحرير . كسب الحزب القومي ، حزب « المؤتمر » في جميع الانتخابات ، وأمكن للانكليز أن يقرأوا على جميع الجدران « غادروا الهند » . وأعطت الانتخابات البريطانية ، في تموز

١٩٤٥ ، السلطة إلى العماليين الذين قرروا منح الاستقلال ، ولكن موعده أبعد بسبب اختلافات الهند نفسها .

وصعدت وحدة الدين وشعبية غاندي ونهرو اختلاف الاعراق واللغات لصالح الاكثرية البرهمانية الواسعة : ولكن العصبة الاسلامية ، بزعيمها المحامي محمد علي جناح ، كانت تطالب بدولة مستقلة ، وقد أطلق عليها اسم « باكستان » .

وعندما أخفقت جميع محاولات المصالحة ، أعلم الوزير البريطاني الاول أتلي ، في شباط ١٩٤٧ ، بأن الانكليز سيغادرون الهند في السنة التالية عند أبعد حد . وهذا التهديد بترك البلاد للفوضى ساعد نائب الملك ، اللورد مونتباتن ، على تسوية « التقسيم » بين هندستان وباكستان . وفي ١٥ آب ١٩٤٧ ، أعلن الاستقلال ، وبقي البلدان في الكومنولث .

وكانت الطوالع العالمية تتنبأ منذ نصف قرن بأن الهند ستنفجر عند ذهاب الانكليز . وكانت البدايات ، والحق يقال ، مأساوية . فقد انطلقت ملايين اللاجئين وعبرت الحدود من دولة لاخرى . ولم تخل الحال من مجاعات ومذابح واسعة . وقد حرم اغتيال غاندي ، في كانون الثاني ١٩٤٨ وموت محمد علي جناح في أيلول البلدين قبل الاوان من مرشديها غير المنازعين . ومع ذلك فقد تجاوز كل من البلدين أخطار عمره الاول وقويا وحدتهما بسرعة . فالعصبة الاسلامية ، الحزب الوحيد في الباكستان الذي يعتمد على إيمان حي ويحافظ على عديد من الموظفين البريطانيين ، تغلبت على عوزها للملاكات (الكوادر) واختلافها اللغوي

وتجزئتها الارضية الغربية . وكانت دولة الهند، بـ٣٥٠ مليون نسمة واختلافاتهم وأباطيلهم ، وشقاقهم ، تتصرف بنخبة متأنكلزة : وكان زعيما المؤتمر نهرو وباتيل « جماعين » .

ان الـ ٥٥٠ دولة اميرية ، التي احترم الانكليز تكاثرها الذي يرجع إلى عهد العصور الوسطى ، التحقت شيئاً فشيئاً بالحكومة المركزية . إلا أن أميراً واحداً وهو نظام حيدر أباد ، الذي يحكم ١٧ مليوناً ، حاول أن يقاوم ولكنه أذعن بعد غزوه . وكشمير المسلحة ، التي تطالب بها باكستان واحتفظت بها الهند ، أصبحت شوكة مستديمة في العلاقات بين البلدين . وفي ١٩٥٤ التحقت مؤسسات الهند الفرنسية ، وهي رسم من بقايا القرن الثامن عشر ، بـ « الهند الام » برضى فرنسا . وأمن الدستور الهندي ، وان كان اتحادياً ، تفوق الحكومة المركزية التي يسيطر فيها حزب المؤتمر بشكل واسع . وهو يشجب التمييز في الدين والطبقة والجنس . وجنبت القطيعة اللغوية بخاصة بفضل اللغة الانكليزية التي ظلت لغة مشتركة للنخبة المثقفة . وفي ١٩٥٠ أصبحت الهند جمهورية دون أن تترك الكومنولث وتزعم نهرو ، في السياسة الخارجية ،الحزب المحايد .

وسيلان وبرمانيا المجاورتان للهند ، وهمافي أكثريتها بوذيتان ، انفصلتا في الوقت نفسه عن الامبراطورية البريطانية ، عام ١٩٤٧ ، وظلت الاولى وحدها في الكومنولث . وعرفت برمانيا أقبح المحن السياسية . وفي تموز ١٩٤٧ ، قذف مجلس الوزراء بالرشاش . إلا أن وزيراً واحداً ، أونو كان غائباً . واستلم السلطة وحاول ، باتباع طريق مزدوج ماركسي وبوذي ، أن يؤمن بقاء بلاده التي هدمتها الحرب ومزقتها الاشياع المسلحة العقائدية أو العرقية .

أمامالبزيا وسنغافوره بوضعهاالستراتيجي الاستثنائي ، وأهميتها الاقتصادية، نظراً لوجود القصدير والكاوتشوك ، وشعوبهما المختلفة جداً من ملاويين أصليين ومهاجرين صينيين ، فلم يتركها الانكليز بسهولة . فقد أنشأوا « اتحاداً » يضم الإمارات الملاوية مع مفوض سام بريطاني . وظلت سنغافورة جانباً « مستعمرة التاج » مع مجلس منتخب .

واندونيسيا (الهند الهولاندية) التي احتلها اليابانيون ، ثم الانكليز ، شهدت عودة الجيوش الهولاندية . ولكن ، في ١٧ آب ١٩٤٥ ، عند مغادرة اليابانيين ، قام المهندس سوكارنو ، زعيم الحزب الوطني ، منذ ١٩٢٧ ، وأعلن « الجمهورية الأندونيسية » ، واعترف الهولانديون بالجمهورية ، وحاولوا أن أن تقتصر على جاوا ، وانشأوا في غيرها دولاً مستقلة ذاتياً . وفي كانون الأول ١٩٤٨ استولوا على عاصمة الجمهورية ، جوكجاكارتا . وعندئذ قام نهرو واحتج أمام منظمة الأمم المتحدة التي دعت الطرفين إلى المفاوضة . وفي تشرين الثاني ١٩٤٩ أقرت معاهدة « الاتحاد الهولاندي ـ الأندونيسي » الذي وضعت فيه « الولايات المتحدة الأندونيسية » على قدم مساواة واحدة مع البلاد المنخفضة في نظـــام مؤتمرات شبيه بالكومنولث . وبدت هذه الرابطة السياسية ابداً غير محتملة في نظر القوميين . وبعد أن تغلب سوكارنو على ثورات هامشية وحقق بصعوبة الائتلافات الداخلية بين الاحزاب المسلحة، دفع ، في ١٩٥٠ ، إلى تبني دستور وحدوي. وفي ١٩٥٤، فسخ الاتحاد مع البلاد المنخفضة وطالب باريانة الغربية (غينة ـ الغربية الجديدة) التي احتفظ بها الاتحاد .

واحتل اليابانيون الهند الصينية الفرنسية وتركوا السلطات الفرنسية

في مكانها ، ثم انتزعوها منها ، في ٩ آذار ١٩٤٥ ، واعتقلوها . وعند مغادرتهم ، بعد هيروشيما ، تركوا المكان في فيت ـ نام لقوميي حزب فيت ـ منه المتعاطف مع الشيوعيين والذى يوجهه مفكرون ثقفوا الثقافة الفرنسية وبخاصة المحارب القديم هوشي منه والشاب جياب . ثم اتبع احتلال الجيوش الحليفة ، الانكليز في الشمال ، والصينيون في الجنوب ، باحتلال فرنسي جديد ، في كوشنشين أولاً ، ثم في تونكن . وفي ٦ آذار ١٩٤٦ ، وقعت معاهدة تعترف بـ « جمهورية فيت ـ نام دولة حرة ... تؤلف جزءاً من الاتحاد الفدرالي الهندي ـ الصيني والاتحاد الفرنسي » ؛ ومن ثم دخلت جيوش لوكليرك هانوي .

وعندئذ قامت مباحثات في فونتينبلو لتعريف الحالة السياسية الجديدة وطالب هوشي منه بالاستقلال وبكامل البلاد وبحلف سوامي ، بينا أراد الفرنسيون الحفاظ على الجيش والدبلوماسية والكوشنشين . وأخفق المؤتمر .

ومن ٢٣ تشرين الثاني إلى ١٩ كانون الأول ١٩٤٦ قامت الحرب في هايفونغ ، ثم في هانوي بين الجيوش الفيتنامية والفرنسية ، وحافظ الفرنسيون على هانوي واضطرت حكومة الفيت إلى الفرار .

ومنذ ذلك الحين قامت الحرب ودامت سبعة أعوام ونصف . احتل الفرنسيون الدلتا التونكينية والكوشنشين وقسماً من الأنام ؛ وأمسك الفيت ـ منه بغابات العواسج وقام بحرب عصابات لاتنقطع وما لبثت الحرب أن أصبحت حرباً منظمة انطلاقاً من ١٩٥٠ عندما انتصر الشيوعيون الصينيون في بلدهم وقدموا الأسلحة . وبحثت الحكومة الفرنسية عن حل سلمي ، وفي ٨ آذار ١٩٤٩ ، وقعت مع الامبراطور القديم باؤ داي اتفاقات تعترف باستقلال الفيت ـ نام ، المتحدة تحت تاجه والمرتبطة بالاتحاد

الفرنسي . وفي الواقع ، ظلت فرنسا تجهز الأسامي من المجهود العسكري (حتى ٢٣٠٠٠٠ محارب) والمالي (أكثر من ٥٠٠ مليار فرنك سنوياً) دون نتيجة حاسمة . وقام جياب بهجوم ، ولم يدفع إلا بمناورات الجنرال دولاتر دوتاسيني اللامعة . وعندئذ وجه جياب جهوده شطر بلاد تاي ، وهذا مادفع الجنرال نافار إلى إنشاء معسكر ديان بيان فو ، الذي اضطر إلى الاستسلام ، في ٧ أيار ١٩٥٤ . وانعقد مؤتمر في جونيف لعب فيه مانديس فرانس دوراً أساسياً . وقسم اتفاق ٢١ تموز ١٩٥٤ الفيت ـ نام إلى قسمين : الشمال الشيوعي ، والجنوب حيث خلف الرئيس نغو دينه ديم الامبراطور باؤداي .

وأصبحت لاوس وكمبوديا دولتين مشاركتين في الاتحاد الفرنسي في ١٩٤٦ وتطورتا نحـو مزيد من الاستقلال . وتنـازل ملك كمبوديا ، نورودوم سيهـانوك ، عن العرش ليحافظ على السلطة الفعلية بصفة رئيس لمجلس الوزراء . واجتاحت جيوش الفيت ـ منه لاوس مرتين ، واحتفظ الشيوعيون باقليمي الشمال الشرقي .

وتخلصت الصين من الاحتلال الياباني في آب ١٩٤٥ ، ومثلت بين الحلفاء المنتصرين ، والغت « المعاهدات غير المتكافئة » التي فرضها الغرب في بداية القرن . وعادت فيها الحرب الأهلية في ١٩٤٦ ؛ وفي كانون الأول ١٩٤٩ انتصر الشيوعيون ، رجال ماوتسه ـ تونغ ، وفر تشانغ ـ كاي ـ تشيك إلى جزيرة فورموزا (تاي وان) التي تحميها البحرية الامريكية . وزعم أنه يمثل الصين الحقيقية وحـافظ على مكانه في منظمة الأمم المتحدة . وزالت جميع المنـاطق والامتيازات الأجنبية من البلاد

عدا هونغ كونغ وماكاو . ولحل القضية الاستعمارية التي وضعتها الشعوب الخارجية الدخيلة ، تبنت « الصين الشعبية » مبادىء ستالين مع تكييفها . وإن دستور ١٩٥٤ يخول الاستقلال الذاتي للأقليات القومية . ولكن الجمعية (المجلس) كانت وحيدة . وانشال الشعب الصيني على سين — كيانغ (توكستان الشرقية) حيث تم ائتلاف من مختلف الشعوب تحت حماية بكين . وأصبح الزعماء المنغوليون منتخبين منذ الآن . واحتلت الجيوش الصينية التيبت في ١٩٥٠ . وأنشئت لجان مستقلة للأقليات الأخرى في نطاق الأقاليم الصينية . وإن اتجاه الصين الجديدة المناوىء لأمريكا بعنف ، وكلمات أمرها « المناوئة للاستعمار » و « المناوئة للامبريالية » ، وعملها في حرب كوريا (١٩٥٠ — ١٩٥٣) وجهودها لالتفاف « العالم الثالث » حولها ، قد أسهمت في تطور الشعوب الآسيوية وحتى الافريقية في المرحلة التالية .

الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية)

السياسة البريطانية مطبوعة بالجزيرية والذرائعية . فهي تهتم بالحفاظ على فرديتها وفردية الآخرين . وتحترم ما هو موجود ، وتحافظ عليه ما دامت التغييرات لا تفرض نفسها بشكل واضح . وتهتم أيضاً اهتمام التاجر الصالح بألا تلقي نفسها في نفقات غير منتجة ، ومن هنا يأتي اختلافها ومرونتها . وهي تثق ، مع ذلك ، بفضيلة النظم البرلمانيه التي أعدتها ، وبـ « الحكم الذاتي » المسؤول والتربية المعطاة في جامعاتها . ولقد طبع هذا المجموع من الطريقة التجريبية والمبادىء الطيبة خلاصها من الاستعمار .

لقد فهم الكومنولث في ١٩٣١ كصيغة مساواة وتعاون بين البلد الام والدومنيونات البيضاء : كندا ، اوستراليا ، زيلاندة — الجديدة ، جنوبي افريقية ، ولكل واحد منها ، تحت سيادة الملك ، برلمانه ،حكومته ، وحريته في القرار . وهو نادي سادة متماثلين أو على الاقل متقاربين بالعرق واللغة والثقافة ويفترض أن لهم مجموعة عواطف مشتركة . ولكن الكومنولث لا يعوض الامبراطورية البريطانية ، لأن هـــذه الامبراطورية ما زالت موجودة لجميع مستعمرات الملونين .

وعندما حرر العماليون الهند تصوروا توسيع النادي وذلك بأن قبلوا فيه غير اوربيين ، كواسطة للابقاء على الروابط السياسية على قدم مساواة واحدة . والحرية متاحة لدخول النادي : وقد دخلته الهند وباكستان وسيلان ثم ماليزيا ؛ ورفضت دخوله بورما . وجعل الحد الادنى من الثقافة الجامعية المشتركة بين النخبات الموجهة ، والعادات التي انشأتها التعاملات الادارية المتشابهة والعلاقات الاقتصادية الوثيقة هذا الحل الرياضي دائماً وناجعاً . ولم يكن ملك انكلترا ، الذي ظل سيداً في بعض الدومنيونات، من الوجهة الرسمية أكثر من « رمز » ، وشعاراً للنادي ، في الدول التي أصبحت جمهوريات . وعندما عاد المحافظون للسلطة ، تابعوا ، مع الكبح بخفة ، هذه السياسة الحكيمة التي تجنب الحملات العسكرية المكلفة وغير المفيدة ، وتبقي على العلاقات المربحة . ومن الممكن على هذا النحو تصفية الامبراطورية قليلاً قليلاً ، اما بحذف ، واما ، في الغالب ،بالحفاظ على روابط الكومنولث المرنة الشبيهة بخيط العنكبوت والقاصرة على مؤتمر سنوي ومشاورات شبه رسمية عند مقتضى الحاجة .

ولم يكن تطبيق هذا الحل في العالم العربي الذي تخامره عظمة وحدته

الماضية ، وبفضله حماسه الديني للاسلام عن أي تشكيل آخر . وسبق أن استخدم لورانس العروبة ضد الأتراك ، ودعمت انكلترا الجامعة العربية عندما تألفت في ١٩٤٥ . ولكن فلسطين ، التي تشكلت فيها نواة استيطان صهيوني تحت الانتداب الانكليزي ، وضعت قضية شائكة. وفي ١٩٤٨ غادرها الانكليز وتقاسم الاسرائيليون والملك عبد الله البلاد تاركين حالة حرب عتيدة بين الصهاينة والعالم العربي .

مصر . — وكانت مصر مستقلة مبدئياً وقصر الانكليز احتلالهم على منطقة القناة. وفي ١٩٥٢ خلع الملك فاروق جماعة من الضباط يمثلون الطبقة المتوسطة. بزعامة جمال عبد الناصر الذي استلم السلطة في ١٩٥٤ ، وحصل من انكلترا ، في تشرين الأول ، على الجلاء عن القناة .

وأخذ الانكليز ثأرهم في السودان التي وضعت تحت سيادة مشتركة انكليزية ـ مصرية منذ ١٨٩٩ ، وطالب بها الوطنيون المصريون . وفي ١٩٥٠ نادت الجمعية المصرية بفاروق « ملك مصر والسودان » . ودافعت انكلترا أمام منظمة الأمم المتحدة عن حق « الشعوب في تقرير مصيرها » وشجعت انصار استقلال السودان . ولم تستطع الجمهورية المصرية الجديدة أن تعارض تطبيق المبدأ الديموقراطي . إلا أن انصارها حصلوا على أكثرية عريضة ، ولكن ما أن استلموا السلطة إلا واتجهوا نحو الاستقلال .

الجنوب العربي . — وفي الجنوب العربي وجدت محميات حضرموت وعمان والخليج العربي ، سلطنات من شاكلة سلطنات العصور الوسطى، تسير قبائل الصحراء ، ولديها مستشارون انكليز ، وكذلك مستعمرة عدن ، هذا الموقع الستراتيجي الذي حافظت عليه انكلترا كما حافظت على سنغافوره بغيرة وشدة وتعلق .

افريقية السوداء . — وعلى خلاف هذه العـوالم العربية التي ظلت على الهامش ، تطورت افريقية السوداء في نطاق الامبراطورية والكومنولث، ولكن بتأخر ملحوظ عن آسيا التي بدأ تشكيلها الجامعي والبرلماني من قبل ، وأدى اختلاف الحالات الى اختلاف السياسات . فالمستعمرات ، التي يسكنها أبناؤها الاصليون وحدهم ولا يكـون فيها الاوربيون إلا كوادر ، كما في نيجيريا ، ساحل الذهب ، سيراليون ، غامبيا في افريقية الغربية ، اوغاندا في افريقية الشرقية ، عوملت بجرية أكثر من البلاد التي يشكل فيها المعمرون البيض اقليات هامة ومسيطرة سياسياً ، كما في اتحاد جنوبي افريقية ، روديسيا ، تانغانيقا ، كينيا .

في مستعمرات الفئـــة الأولى ، طبق البريطانيون « الادارة غير المباشرة » بوضعهم يبساطة عدداً صغيراً من الموظفين البيض فوق االزعماء الافـريقيين التقليديين . وهذا النظام الاقتصادي ، الذي لا يعكـر صفو العادات ، تحسن في الربـع الأول من القرن على يد أحد عظماء الاستعماريين الانكليز ، اللورد لوغارد الذي عزز حكم الزعماء بمنحهم موازنات ومحاكم بشكل يمكن الافريقيين « من التطور في خط حضارتهم الخاصة » . وهذا النظام ، الذي يحترم التسلسل كما كانت انكلترا في عهد الملكة فيكتوريا ، نجح الى الحد الاعظم في مناطق عرفت دولاً قوية مثل نيجيريا الشمالية أو ، في ساحل الذهب ، الاتحاد الكونفدرالي الاشانتي . وكشف فيما بعد عن ضعفه في مناطق الفوضى الثابتة ، أو الزعامات الضعيفة ، وبخاصة في المدن الشاطئية حيث نمت نخبة تثقفت في الجامعات الانكليزية أو الامريكية .

وادخلت هذه النخبة المستغربة شيئاً فشيئاً لتنافس الزعمـاء في المجالس التشريعية ، الهيئات الموضوعة لدى الحـكام ، ولكنها كانت استشارية

بصورة بحتة . وعارض فطنة هذه الاصلاحات بخاصة افريقيان عائدان من امريكا : نيكروما في ساحل الذهب و آزيكيويه في نيجيريا . أسس نكروما حزباً يستخدم عمل الجماهير ؛ وقامت مشادات في ١٩٤٨؛ وزج نكروما في السجن ، وخرج منه ، عندما ربح حزبه الانتخابات في ١٩٥٠ ، وأصبح الوزير الأول ؛ وتبنى لبلاده اسم « غانا » وحصل على استقلال ذاتي يكاد يكون تاماً . وأكثر آزيكيويه صحف المعارضة (« صحافة زيك ») ودعا « إلـه افريقية » ضد « الطغاة » الانكليز . وحضّر هؤلاء ، بعد تحقيقات واجتماعات عديدة ، اتحاداً فدرالياً مؤلفاً من ثلاث دول نيجيرية تحت اشرافهم .

سيراليون . —وحصلت سيراليون حى مجلس منتخب وحكومة افريقيين .

اوغندا . — وفي اوغندا عانى الانكليز مشقة في توحيد ممالك منفصلة تقليدياً أو متعادية . والمهم هو أن البوغاندا ، الملك متيسا الثاني، الطالب سابقاً في جامعة كمبردج ، طالب باستقلال خاص في ١٩٣٣ ، ونفي موقتاً .

اتحاد جنوبي افريقية . — إن النموذج المتطرف لبلد المعمرين هو اتحاد جنوبي افريقية . ففيه يشكل البيض خمس السكان ويسيطرون بشكل كامل على الجماهير السوداء . والاتحاد ، باعتباره دومنيون ، يتمتع إذن باستقلال ذاتي سيامي كامل ، وقد تبني نظام « العزل » أي الفصل المطلق للاعراق ، والتمييز العنصري . وفي شمال الاتحاد توجد ثلاث بلاد بريطانية ، روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند ، وقد ضمت ، في ١٩٥٣، في اتحاد فيدرالي بمبادهـــة روديسيا الجنوبية التي تضم عشر الاوربيين الموجهين للبلاد ، وتتطلع الى السيطرة على المجموع .

افويقية الشرقية . — وفي افريقية الشرقية كانت المعارضة أقل

وضوحاً وتمييزاً ، والمعمرون البيض أقل عدداً ، مع عنصر آسيوي يمسك بوضع وسيط . ويبدو أن تانغانيقا ، على كثرة الشعوب السوداء المتطورة قليلاً ، لا تضع قضايا ملحة ، ولكن الاستاذ جوليوس نيويري الكاثوليكي الملهم بالفكرة العمالية قد نجح ، مع ارتياح الانكليز ودون قلقهم، بتشكيل حزب جمع بسرعة أكثرية الأفارقة

كينيا . — وفي المستعمرة المجاورة ، كينيا ، وضعت قضية « الدولة المتعددة الأعراق » ، بالعكس ، بشكل مأساوي . فقد احتكر المعمرون الانكليز الاغنياء الاراضى العليا ، أفضل البلاد ؛ وسيطروا على الاقتصاد والمجلس التشريعي . ولم يكن للشعب الافريقي الاكثر عدداً ، شعب الكيكويو ، المقيم في المعازل ، ما يكفي من الاراضي ليجابه نموه . وقد كتب معلم اسمه جومو كينياتا ، كان قد عاش في انكلترا وفي الاتحاد السوفياتي ، كتاباً بعنوان « أمام جبل كينيا » عارض فيه سعادة الحياة السالفة بالبؤس الحالي ، والف حزب المعارضة. وفي ١٩٥٢ نشبت ثورة « الماوماو » ، وهي جمعية سرية تأسست على السحر ، وكانت تقتل البيض وتبيد مزروعاتهم . وتسلح المعمرون رجالاً ونساء ، واوقف جومو كينياتا . ودام القمع أربعة أعوام . وحسب أكثر من ١٥٠٠٠ قتيل واكثر من ١٥٠٠٠ معتقل .

ولم يكن بالامكان تجنب قضية كينيا . ووضعتها حركة ماوماو بشكل وحشي . ولكن الطرق الديموقراطية وحدها استطاعت أن تحلها سلمياً بالخاتمة التي توصلت اليها الحكومة الانكليزية وأحرار المعمرين البيض في الوقت نفسه مع الزنوج المتطورين .

الاتحاد الفرنسي

لقد بقي الفرنسي في سياسته الاستعمارية صاحب أطيان ، حقوقياً ، مهندساً . ويبـــدو أنه ورث عن اللاتينيين تذوق المنشآت الكبرى السياسية الوحيدة النمط ، وعن الغاليين بعض المزاج الفوضوي . وعنده فيض من الكرم وأساس من البخل الريفي ونفس طلعة تألف الأجانب وتأصل في عاداته الصغيرة . لقد ورث عن الثورة الفرنسية الحماسة المندفعة للحرية ، وعن لويس الرابع عشر ونابوليون دوار عظمـــة لم ينتصر عليه دوماً حسه السليم كفلاح . وأرسته الهزائم أكثر من الانتصارات في نعرة حذرة . وهو مناقش ولكنه طوعــاً غير معقول . والحسابات الفطنة والتجربة المتنوعة للسياسة الانـكليزية تبدو في عينيه وضيعة . إن ما يلزمه هو أفـكار عامة ، أو ، في حال فقدانها ، حروب . والمحافظون الانـكليز الماهرون في التنبؤ بالموازنات وبتكييف سياستهم حسبها ، يعارضهم الفرنسيون الذين يرون ان الشرف يقتضي من المرء الدفاع عشوائياً عما يملك ومهما كان الثمن ، حتى الخسران التام .

وفي الجمعيتـين التأسيسيتين ، جمعية ١٩٤٥ وجمعية ١٩٤٦ ، جـرى حادث جديد وذو أهمية لا يمـكن حسابها ، وذلك أن أكثر من عشر المقاعد قد احتلها ممثلو بلاد ما وراء البحار ؛ وفي بعض المستعمرات ، احتجز نظام « الهيئة المزدوجة » مقاعد للأوروبيين ، بيد أنهم لم يكونوا إلا أقلية . وقد لعب النائبان السنغاليان ، القاضي لامين غي والاستاذ سنغور ، المتقدمين بالتربية السياسية ، دوراً من المستوى الأول في المناقشة . وكان الاندفاع العام في فرنسا الى الحرية ، ولـكن أيضاً الى الوطنية الملحة . فكيف تحرر المستعمرات مع الحفاظ على الامبراطورية ؟ لقـد طلب

لامين غي التصويت بالاجماع على منح المواطنة الفرنسية لكل أبناء المستعمرات ، وانتصر التمثيل ، مذهب الجمهوريتين الفرنسيتين الاوليين ، وتكريس « فرنسا ما وراء البحار » التي صعدت العروق والقارات كما في العالم الروماني القديم ، جدها الأصلي . إنه لحلم جميل ، ولكن تحقيقه جاء بعد فوات الأوان . إن عالم ١٩٤٥ ذهب باتجاه معاكس نحو التفتت القومي . فمن ذلك أن النواب الجزائريين والمالغاشيين (من مدغشكر) رددوا صدى هذه النزعات الاستقلاليـــة بأن المحميات ليست ممثلة . وكان الزنوج انفسهم يريدون في آن واحد المشاركة في الجمهورية وإدارة قضاياهم الخاصة . وانقسمت الاحـزاب الفرنسية ، وأدى دستور ١٩٤٦ الى تسوية ، حل وسط .

تقول الديباجة : « يتألف الاتحـاد الفرنسي من أمم وشعوب تضع معاً وتنسق مواردها وجهودهـا لتنمية حضاراتها العائدة لكل منها وزيادة رفاهها وأمنها . » فالمساواة تبدو معلنه والتمثيل ملغى . وفي الواقع ، إن هذا التعريف لايطبق مباشرة إلا على « الدول المشاركة » ، المحميات القديمة . « والجمهورية الفرنسية » التي تحتوي المستعمرات هي « واحدة ولاتنقسم» وذات قومية واحدة وبرلمان واحد. ومعذلك ،فانممثلي المستعمرات التي أصبح اسمها « بلاد ماوراء البحار » ، ظلوا في باريس أقلية صغيرة ؛ وبالمقابل خولت لبلادهم مجالس تصوت على موازنتها الخاصة وتمارس رقابة على عدد من الأعمال الادارية . ويصوت البرلمان على تشريعهم من أجل المواد الهامة ، ولكنـه ظل خاصاً ، وتخضع القرارات التي يتخذها إلى « جمعية الاتحاد الفرنسي » حيث كان المنـــدوبون سواسية مع مندوبي فرنسا الام . أما « المستعمرات القديـة » الموروثة عن النظام القديم ،

مثل مارتينيك وغوا دیلوب ، ريونيون ، غويانه ، فقد أصبحت وحدها « مقاطعات ماوراء البحار » وتسير بومتها بالقوانين الفرنسية .

ويأخذ هذا النظام المعقد بعين الاعتبار في آن واحد العقائديات المختلفة والحالات المتنوعة ؛ ويبدو أنه يرضي الجميع ، وقد خرج منه ماوراء البحار مجدداً شبابه ديموقراطياً ، وعلى مايبدو ثابتاً متيناً . وفي الواقع ، ان الدستور انتهى إلى أعداد نخبات من أبناء البلاد الاصليين للعمل السياسي وأدى إلى الانفصال على مراحل .

ولقد رأينا ماتم لـ « الدول المشاركة » الثلاث في الهند الصينية . فقد مثلت في جمعية (مجلس) الاتحاد التي كانت غير خبيرة بكل مايتعلق بها ، وفي « مجلس الاتحـاد الاعلى » الدوري ، ومالبثت أن انساقت في تحرير آسيا التام .

إن بلاد ماوراء البحار » (T.O.M.) ، بقية من العادة الفرنسية في فرض وحدة هندسية على النظم كما هي الحال على الحدائق ، أخذت جميعاً نظاماً واحداً : فقد بقي الحاكم ، ولكن تساعده جمعية خاصة بالبلد ، تنتخبها ، عدا السنغال ، هيئة مزدوجة : من جهة الاوربيون ، ومن جهة أخرى ، عدد من حملة الشهادات من « مواطني النظام المحلي » أي من أبناء البلاد الاصليين .

وظلت بلاد أفريقية السوداء ، عدا ذلك ، مجمعة في أفريقية الغربية الفرنسية (A.-O·F.) وأفريقية الاستوائية الفرنسية (A.-E.F.) ، واحتفظ كل فريق بحاكم عام يساعده منذ الآن « مجلس أعلى » تسميه الجمعيات الوطنية أي الجمعيات الخاصة بكل بلد . وكان الحزب الاشتراكي ، وهو فرع من الـ S.F.I.O. (القطاع الفرنسي للاممية العمالية) يسيطر على السنغال . ولكن ،

في ساحل العاج ، المنافس تقليدياً ، انشأ الرئيس والطبيب **هوفويت - بوانيي** حزباً مستقلاً ، **التجمع الديموقراطي الافريقي R.D.A.** الذي تحالف مع الحزب الشيوعي والتي في كل افريقية كلمات الامر بمعارضة « الاستغلال الاستعماري » . وفي ١٩٥٠ ، بعد مشادات دامية ، تخلى التجمع الديموقراطي الافريقي ، بايحاء من الوزير **ميتران** عن التحالف الشيوعي وأخذ منذ الآن ينتشر بحرية في جميع البلاد . وهنالك تجمع آخر ، **مستقلو ماوراء البحار** ، وقد تألف بصورة موازية وباتجاهات استقلالية . وكان زعيمهم سنغور يطالب بـ : « الجمهورية واحدة ولا تنقسم » ؛ وسار التجمع الديموقراطي الافريقي خلفه . وأفاد النواب الزنوج من عددهم ، المتزايد رويداً رويداً ، ليخولوا مساندتهم البرلمانية لمختلف الحكومات الفرنسية ، مقابل تنازلات : زيادة سلطات مجالس بلادهم ، تناقص الهيئة المزدوجة وتوسيع الهيئة الانتخابية . وانتقلت الاكثرية على هذا الشكل من المدن المستغربة إلى الادغال التقليدية ، معجلة بذلك الانطلاق نحو الاستقلال الذاتي . وأسهم سنغور ثم هو فويت - بوانيي في الحكومة المركزية ، وألها بشكل عريض سياستها الافريقية . والاعتمادات ، التي خولتها فرنسا بصفة « صندوق التوظيف والتنمية » F.I.D.E.S ، صعدت ، من ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ ، إلى ٣٢٤ مليار فرنك .

والبلاد المشاركة (بلاد تحت الوصاية) ، بلاد توغو والكمرون ، لم يكن سكانها مواطنين فرنسيين ، ولكنها كانت تعامل بالضبط كبلاد ماوراء البحار وتتبع نفس التطور .

ومدغسكر الواقعة بين أفريقية وآسيا كانت تتابع حسب هواها تطور القارتين ، وقد كانت في القسم الاعظم منها موحدة قبل الحرب وبلغة واحدة وأعراف متقاربة جداً ، وكانت تنتخب نواباً استقلاليين لايرضيهم نظام بلاد ماوراء البحار . وقد أسسوا حزب M.D.R.M. وبما

في الادغال العوسجية . وفي ١٩٤٧ نشبت ثورة واتبعت بقمع . واختفت الحياة السياسية حتى ١٩٥٤ عندما حررت حكومة مانديس فرانس الموقف الفرنسي .

وأخذت المستعمرات الصغيرة المبعثرة نظام بلاد ماوراء البحار نفسه . وظهرت في تاهيتي وحدها حركة استقلالية ذاتية .

افريقية الشمالية . ـ وضعت افريقية الشمالية قضايا صعبة . وكانت للبلاد الثلاثة أنظمة مختلفة ، فقد كانت الجزائر مستعمرة مقسمة إلى مقاطعات ؛ وحافظت تونس و مراكش الدولتان المحميتان على ملكيها وعلى شبح من الحكم . وكان المعمرون الاوربيون ، وبخاصة الفرنسيون كثراً فيها : ١٦٠٠٠٠٠ ، منهم ١٠٠٠٠٠٠ في الجزائر وحدها ، مقابل ١٨٠٠٠٠٠٠ مسلم . وكانت الاختلافات الدينية والاخلاق والعادات وفي الغالب المستوى الاجتماعي تفصل الشعبين . ولم يشأ المعمرون التخلي في شيء عن تفوقهم : وظهرت في صفوف المسلمين حركات قومية .

وكان من اللازم أن تدخل المحميتان بشكل طبيعي في الاتحاد الفرنسي بصفة دول مشاركة . ولكن لم يحدث شيء من ذلك . وعالجت قضايا كل منها وزارة الشؤون الخارجية والحكومة الفرنسية ، دون تدخل البرلمان .

تونس

كانت في تونس، الاكثر عمراناً وحكماً مدنياً منذ تاريخ طويل حركة قومية ، حركة الدستور . وقد أخذ فرع منها وهو حركة« الدستور الجديد» المكان الاول بفضل زعيم نشيط ومجدد ، الحبيب بورقيبة ، وساندته النقابات وحركات الشبيبة والصيغ الديموقراطية . وكان بورقيبة يرى تحريراً باتفاق مع فرنسا . ولكن اصلاحات ١٩٤٧ التي أوجدت الوزير التونسي

الاول ، وحكومة نصف ـ فرنسية ، نصف ـ تونسية تحت إشراف المقيم الفرنسي ، بدت تافهة في نظر القوميين . وفي ١٩٥٠ بدأت محاولة جديدة نحو الاستقلال . فأوقفها المعمرون . وثارت عصابات مسلحة وأخذت تقوم باغتيالات ، فاتبعت بقمع . ولم يكن بالامكان وجود حكومة تونسية . وهيأ مانديس فرانس الحل ، فيقرطاجة ، في ٣١ تموز ١٩٥٤، بالاعتراف ، « دون فكرة خلفية » ، بالاستقلال الذاتي الداخلي ، مع موافقة بورقيبة . وعقدت المباحثات بين الطرفين .

مراكش . ـ وشهدت مراكش ، التي ظلت بعقلية العصور الوسطى ، وقبائلها الثائرة ، تشكيل حزب الاستقلال حديثاً على يد نخبة فكرية، وتابعه السلطان محمـــد الخامس بعطف . وعندما القى السلطان ، في ١٠ نيسان ١٩٤٧ ، في طنجة ، خطاباً حيا فيه الجامعة العربية وطالب باتحاد أقسام مراكش الثلاثة : الفرنسية والاسبانية والدولية ، سمت الحكومة الفرنسية مقيماً عاماً عسكرياً . واضطر السلطان أن يشجب حزب الاستقلال وبعد حركة معادية قام بها زعماء القبائل بتوجيه **الجلاوي** ، اضطر إلى التنازل عن العرش وأعتقل في مد غسكر ، وأصبح على هذا النحو شهيد القضية المراكشية . ولم يستطع خلفه **بن عرفة** أن يتغلب على العداء العام وتعددت الاضطرابات . وفي آخر ١٩٥٤ ، فكر بدعوة محمد الخامس .

الجزائر . ـ وفي الجزائر عارض فريق المعمرين المسيطر على الاقتصاد والسياسة ، الاصلاحات . وكما في المستعمرات الاخرى، أصبح الجزائريون، بواقع دستور ١٩٤٦ ، مواطنين . وبعد أن كانت النخبات الفكرية المستغربة، في السابق ممثلة ، انتقلت منذ الحرب إلى الحكم الذاتي وشهر زعيمها ، فرحات عباس ، بـ « اقطاعية » المعمرين . وقامت حركة من أصل

كادح ، حركة مصالي الحاج تطالب بالاستقلال . وفي ١٩٤٧ صوت على نظام يخول الجزائر مجلسا (جمعية) مؤلفاً من قسمين : احدهما يتفوق فيه الاوربيون ، والآخر جزائري محض ، مع بداية سلطة تشريعية . ولارضاء المعمرين أفسد التطبيق بطلب بانتخاب مرشحين « إداريين » . وأوقفت الاصلاحات الموعودة . ولم يعد المسلمون يثقون بالوعود الفرنسية وولوا وجههم شطر الجامعة العربية والعنف . وصرح فرحات عباس نفسه : « لايوجد حل إلا الرشيش » . وتشكل فريق جديد سري للعمل المباشر . وفي ١٩٥٤ ، انعقدت « جبهة التحرير الوطني » F.L.N. في القاهرة وقامت بالكفاح المسلح في سبيل « الاستقلال القومي » و « تصفية نظام الاستعمار » .

المرحلة الثانية

١٩٥٥ — ١٩٦٥

باوندونغ

برزت عن الجزر الاوربي أمم ناشئة وحاولت أن تقارب ضعفها على الصعيد الدولي في سبيل جبهة مشتركة . ومن آسيا ، المتحررة الاولى ، انطلقت المبادرة .

في ١٩٤٩ ، في دلهي ، جمع نهرو الآسيويين في موقف مشترك ضد التدخل الهولاندي في أندونيسيا . وفي السنة نفسها تألفت كتلة « عربية - آسيوية » في منظمة الأمم المتحدة ، وباشتراك ليبريا وأثيوبيا أصبحت فيما بعد

الكتلة « الأفرو آسية » . وفي ١٩٥٠ عقدت الفيليبين في باغيو أول مؤتمر آسيوي . وفي ١٩٥٤ ، بعد تقسيم الفيت ـ نام ، افتتح مؤتمر في مانيلا بإيحاء أمريكي وانتهى إلى إنشاء منظمة معاهدة جنوب ـ شرقي آسيا للدفاع ضد الشيوعية الصينية ؛ واشتركت فيه الباكستان والتايلاند ، مع الفيليبين ، والدول التي كانت مستعمرة سابقاً، ودومنيونات أوسترالازيا ؛ وألحق بالمعاهدة « ميثاق المحيط الهادىء » ويذكر بمبادىء « المساواة في الحقوق وحق الشعوب في تقرير مصيرها » . وقبل بضعة أشهر عقد مؤتمر، في كولومبو، وضم الهند وأندونيسيا وبرمانيا ، وشجب الاستعمار باعتباره « انتهاكاً للحقوق البشرية الأساسية وخيانة لسلام العالم » .

وفي كولومبو التقى رئيس وزراء أندونيسيا، ساسترو وآميجوجو ، فكرة مؤتمر أوسع آسيوي جامع وأفرو-آسيوي. ولم تكن الصعوبات الداخلية في بلده وضرورة إرجاع جاهه ونفوذه غريبة عن ذلك . وفي كانون الأول ١٩٥٤، قبل المبدأ في بوغور وثبت المقر في باندونغ ، أكبر مركز اصطياف في جزيرة جاوا ، « مدينة الأزهار » القريبة من البراكين . ودعيت بلاد الكتلة الأفرو آسية جميعاً . وأضيفت اليها اليابان والصين الشيوعية وتركيا وساحل الذهب ، وكان في طريق التحرير . ولم يدع إلى المؤتمر الاتحاد السوفياتي الذي يحتل نصف آسيا ، ولا اسرائيل .

وفي ١٨ نيسان ١٩٥٥ استقبل في باندونغ زعماء ٢٤ بلداً يمثلون ملياراً ونصف المليار من الناس ، بحماسة ، وبخاصة نهرو ، وجمال عبد الناصر ، ولا سيما وزير الشؤون الخارجية الصيني ، شوان لاي . وافتتح الرئيس الأندونيسي، سوكارنو ، الجلسة بقوله : « نعيش منطلقاً جديداً في تاريخ العالم » . وظلت خطابات مشاهير الرجال حذرة . ولكن مندوب العراق هاجم

بعنف في آن واحد الدول الاستعمارية « عدونا القذر » والشيوعية « شكل جديد للاستعمار وأكثر شدة من الاستعمار القديم » . وأعربت الباكستان وسيلان ، والتايلاند والفيليبين أيضاً عن حذرها من الصين . وبشر شوان لاي ، الثبت الجنان ، بالاستقلال ، والتفاهم ، والتسامح ، وأكثر المجاملات ودعا خصومه لزيارة بلاده . ونجح في عمل مؤانسته ، بينما كان نهرو عنيفـــاً متسلطاً ، تثقاً وخسر موقفه مرشداً .

وحاول البلاغ الختامي ، في ٢٤ نيسان ، أن يوفق بين جميع النزعات والاتجاهات ، وبشر بالتعاون الاقتصادي والثقـافي ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ومناوءة العنصرية ، والغاء الاستعمار ، « باعتباره شراً يجب وضع حد له بسرعة » ، وبالسلام .

وأعلم عن مؤتمر في المستقبل ولكنه لم ينعقد . ولم تكن نتائج مؤتمر باندونغ في هذا النص العديم اللون ، بل في واقع اجتماع الشعوب غير الأوربية لمناقشة قضايا عالمها غير المجهز ، (أممية الفقراء) ، كما قال جمال عبد الناصر ، ورمم عمل مشترك . وأصبح اللا استعمار ، وهو اتجاه بسيط مضطرب ، فكرة قوة لاتقاوم . حتى ان الدول الاستعمارية ، التي كانت تراقب مراحله ، فقدت رويداً رويداً مبادهتها . وأخذت عدوى الاستقلال تسري إلى افريقية .

وفي ٢٦ كانون الأول ١٩٥٧ ، دعا جمال عبد الناصر إلى مؤتمر القاهرة ليؤكد ، في التحام آسيا وأفريقية ، تضامن القارتين . ولم يكن هـذا المؤتمر باندونغ ثانية . لأن كثيراً من البلاد لم تكن « ممثلة » إلا بمنفيين غير مندوبين ، وفيه أخذ الاتحاد السوفياتي المكان الأول . وهذه المظاهر الجديدة ، كمزاعم جمال عبد الناصر في وضع نفسه مرشداً ، دفعت فيما

بعد البلاد السوداء إلى المبادرة بعقد مؤتمرات افريقية وتجمعات حسب وجهات نظر موحدة وواقعية .

الآسياوات

أظهرت باندونغ بعض المعارضات بين الآسيويين . وشوهد انبثاق أخرى كلما نشأت عن التحرر من الاستعمار أمم جديدة . وتجابهت القوميات بقوة الشباب . وقامت منازعات حول أقاليم وحدود ، حتى وأحياناً وضعت ، في الداخل ، قضايا شبه استعمارية للاقليات المضطربة . كما أن تنوع المجموعة الأسيوية العظيمة من جغرافيا وعروق ، ولغات ، وحضارات لم يساعدها ، من جهة ثانية ، على أي اتجاه نحو الوحدة .

وفي الكتلة الاسلامية في بلاد الجنـوب الغربي ، لم تبق الوصاية البريطانية إلا في الجنوب العربي ، القبلي والصحراوي . وفي تشرين الثاني ١٩٦٧ ، أعلن استقلال عدن ، وأخذت البلاد التي غادرت الكومنولث اسم « جمهورية جنوبي اليمن الديموقراطية الشعبية » . ولم يتوصل العراقيون العرب إلى الانتصار على الأكراد الثائرين دورياً في جبالهم . ولم تقبل الباكستان بسيطرة الهند على كشمير الاسلامية ؛ وهدد الخلاف بالانفجار غالباً . وأخفقت محاولات هنود الشمال لفرض الهندي لغة رسمية أمام معارضة التاموليين الفخورين بقدم لغتهم وثقافتهم . وفي ١٩٦١ احتلت المراكز البرتغالية . ولم تعش برمانيا إلا بالتنازل عن الحكم الذاتي الواسع للشعوب الاخرى من غير جنس في الاطراف المحيطة .

اندونيسيا

وكان على اندونيسيا التي يتقاتل فيها في الغالب القوميون ومسلمو اليمين

والشيوعيون ، أن تنتصر ، فوق ذلك ، على ثورات الاقليات في جزرها التي لا عد لها ، في الملوك وسومطره . وان قوة الأمة ، مع اللغة الرسمية « باهاسا اندونيسيا » المشتقة من اللغة المالوية ، هي الجيش بخاصة . ولقد تحمست العاطفة القومية بالمطالبة بايريانة الغربية (غينية ـ الجديدة الغربية) ، وقد ترك الهولانديون هذه الجزيرة المأهولة بشعب البابو للاندونيسيين في ١٩٦٣ مع وعد بحق تقرير المصير في عام ١٩٦٩ . وعندئذ جاء هدف آخر للقومية يعوض عنها : فقد قرر الانكليز أن تتحد ماليزيا وسنغافوره ومحمياتهم في شمال بورنيو لتشكيل دولة جديدة، ماليزيا ، (الملايو) ، وشهر سوكارنو بهذا الانشاء كمؤامرة امبريالية ؛ وتشكلت فرق مغاوير أندونيسيين في دغل بورنيو واضطروا الانكليز إلى إرسال جيوش . وأخيراً ، في ١٩٦٥، عندما تشكلت الماليزيا (الملايو) اصطناعياً للتوازن بين الملاويين والصينيين ، فقدت سنغافوره ، التي أصبحت مستقلة .

وخرجت كمبوديا ولاؤس من الاتحاد الفرنسي دون قول كلمة ، وحاولتا الحفاظ على وجودهما بالحياد . وعاشت الفيت ـ نام الشمالية تحت نظام شيوعي دقيق رويداً رويداً . وفي الفيت ـ نام الجنوبية ، طلب نغو دينه ديم ، في ١٩٥٦ ، جلاء الجيوش الفرنسية التي حل محلها الأمريكيون . وانتشرت فيها الفوضى: فقددخل البوذيون المعارضة ؛ وفي ١٩٦٣ ، قتل ديم وأقلق تقدم الفيت ـ كونغ (الشيوعيين) الامريكيين ، الذين وسعوا تدخلهم المسلح في ١٩٦٥ وقصفوا الفيت ـ نام الشمالية . وامتدت الحرب وما زالت قائمة .

وعلى نقيض مجموعات الغرب الاستعمارية استطاعت الامبراطوريتان الكبريان الروسية والصينية ، اللتان تحولتا بتعليم ستالين وقوة الحزب

الشيوعي ، أن تعيشا وأن تحققا تماسكاً متزايداً . فقد شاركت الجمهوريات الآسيوية في الاتحاد السوفياتي رويداً رويداً في الحياة السياسية والنمو الاقتصادي للمجموعة،دون فتح أزمات قومية وعانى الصينيون كثيراً من المشقة مع التيبت ، وظلت سيادتهم القديمة عليها نظرية ، حتى ان الدالاي ـ لاما الإله الحي ، زعيم تيوقراطية (مشيئية) الرهبان التيبتيين ، كان يبرم بحرية معاهدات دولية . وان احتلال البلاد من قبل الجيوش الصينية في ١٩٥٠قد اتبع بمحاولة تأنيس، ولكنها أخفقت.وفي ١٩٥٩ التجأ الدالاي ـ لاما في الهند . وقامت « اللجنة التحضيرية للمنطقة المستقلة » تعمل تحت رئاسة البانشن لاما.ولكن المقاومة التيبتية،المغلوبة في ١٩٥٩ ، ظلت محسوسة. وفي ١٩٦٥ طرد البانشن ـ لاما وبدأ التشريك (جعل البلاد إشتراكية) التسلطي في تحويل البلاد . وفي غضون ذلك ، في ١٩٦٢ ، رفضت الصين حدود الهند في هذه المناطق وقامت بحملة عسكرية في جبال هيمالايا . وكان الهياج عظيماً ، لا في الهند فحسب ، بل في العالم الثالث كله . ولئــــلا تظهر الصين بالمظهر الامبريالي أوقفت تقدمهـــا مع الحفاظ على مزاعمها .

تحرير افريقية المدارية

كانت السنوات الخمس ١٩٥٦ — ١٩٦٠ ، في افريقية السوداء، سنوات التحرير العظيم . لقد انتهت المستعمرات البريطانية في افريقية الغربية ، على مراحل ، إلى الحكم الذاتي ، وترك النظام الفرنسي الوحدوي المكان لاتحـــاد فدرالي زال بدوره . وأخيراً ، وفجأة ، تحررت الكونغو البلجيكية ، وشهدت السنوات التالية طفولة الأمم الجديدة ، ولم يخل

ذلك من أزمات ، ولا سيا في الكونغو ، وتحرير البلاد ذات المعمرين في افريقية الشرقية . وفي ١٩٦٤ ، توصلت افريقيـــة المدارية بكاملها تقريباً إلى الاستقلال .

غانا . — كانت غانا أول المستعمرات البريطانية التي تحررت . ففيها استلم نكروما السلطة من قبل ، باتفاق تام مع الحاكم . وفي ١٩٥٧ ، خول الاستقلال . وتركت الأشكال الديموقراطية ، المنسوخة عن البرلمانية القديمة الانكليزية ، المكان بسرعة لنظام تسلطي وشبه مقدس . وحذفت المعـــارضة . ولم يفقد نكروما جاذبيته كطالب سابق وأصبح رسمياً « اوساجيفو » (الفادي) ؛ وكان الوليد الأول للاستقلال . ونصب نفسة زعيماً لافريقية . ولكن المصـــاعب الداخلية تعاظمت ، وطرد العسكريون نكروما ، في شباط ١٩٦٦ .

نيجيريا . — وغانا ، رغم تقدمها السياسي وثروتها بالكاكاو ليست إلا بلداً صغيراً ،نفوسه ٦ ملايين نسمة ، إلى جانب نيجيريا الواسعة بنفوسها الـ ٥٥ مليون نسمة ووفرة مواردها . ومع ذلك ، فان تنوع الشعوب النيجرية ، باعتبـارها نوعاً من هند افريقية ، جعل من الصعب على الانكليز تنظيم الاستقلال . والمناطق الثلاث المجهزة من قبل بحكومات متميزة نالت استقلالها في العام ١٩٥٦ . وبفضل تفاهم بين الاحزاب المسيطرة على مناطق الشمال والشمال الشرقي استطاعت الحكومة الفدراليـة أن تسير وتعمل . وفي ١٩٦٠ ، أعلن الاستقلال في الكومنولث . وأصبح الزعيم المتحمس القديم ، آزيكيويه ، حاكماً عاماً ، ثم ، في ١٩٦٣ ، رئيساً للجمهورية النيجيرية . وفي كانون الثـاني ١٩٦٦ ، حدث انقلاب عسكري واستلم السلطة . وكانت مشكلة نيجيريا ، وهي خلق بريطاني ، تعايش شعوب

مختلفة جداً : مسلمون متسلسلون على طبقات في الشمال ، ومتطورون فوضويون سابقون ، ووثنيون في الجنوب . وفي ١٩٦٧ ، حاولت شعوب إيبو في الجنوب الشرقي الانفصال بانشاء جمهورية بيافرا . وفي سيراليون ، اختلف «الكريول» ، قدامى الارقاء المعتوقين في القرن التاسع عشر والمتأنكلزين ، مع شعوب الداخل الافريقية الاقحاح . وتغلب هؤلاء بعددهم وخول الاستقلال في العام ١٩٦١ . وغامبيا الصغيرة نفسها شهدت هذا الاستقلال يمنح لها في العام ١٩٦٥ .

افريقية الشرقية . — وفي افريقية الشرقية نجد أن اوغاندا ، التي تشكلت بالقوة بتجمع عدة ممالك ، لم تنج من الانفجار إلا بفضل عناد الانكليز . واستطاع النظام الفدرالي فيها أن يعمل ويسير ، وأعلن الاستقلال في ١٩٦٢ .

كينيا . — بعد قمع ثورة الماو ماو ، طالب بالسلطة سلمياً نقابي اسمه توم مبويا . وعقدت مائدة مستديرة في لندن في كانون الثاني ١٩٦٠ ؛ ولاقت عناءً في التغلب على معارضة المعمرين ، ولكن جناحاً ليبرالياً بينهم انتهى بقبول مبدأ جمعية (مجلس) بأكثرية افريقية وتصويت موسع . وعندئذ قام النزاع بين الأفارقة : أنصار الوحدة ضد أنصار اتحاد رخو لا تكون فيه القبائل أكثرية . وانتهت مائدة مستديرة جديدة ، في ١٩٦٣ ، إلى دستور حل وسط ، تسوية ، وإلى الاستقلال . وسحب جومو كينياتا من السجن وأصبح رئيس الحكومة .

تانغانيقا . — وتغلبت تانغانيقا ، بفضل المهارة المتواضعة والصابرة التي كان عليها يوليوس نيريري على مختلف الصعوبات . وانتصر حزبه

الذي يضم شعوباً لا تعد ، في انتخابات عـام ١٩٥٨ التي وضع الانكليز لهـا نظاماً أصيلاً وهو نظـــام القوائم الثلاثيـة (الافارقة ، الاوربيين الآسيويين) . وفي ١٩٦١ ، خـول الاستقلال . وعلى طول الساحل ، استقلت جزيرة زنجبـار ، المحمية البريطـانية القديمـة ، في كانون الاول ١٩٦٣ . وبالحال أخذ الأفارقة ، الذين يؤلفون الاكثرية ، يقتلون العرب الاقلية الموجهة منذ قرون وأعلنوا حكومة متعاطفة مع الصين الشيوعية . وفي ١٩٦٤ ، ذابت الدولتان معـــاً وأصبح نيريري رئيساً لجمهورية « تانزانيا » المتحدة .

اتحاد الروديسيتين ونياسالاند — بقيت تسوية مصير « اتحـــاد الروديسيتين ونياسالاند » وهو من انشاء المعمرين ، وقد قامت ضـده احزاب ونقابات أبناء البلاد الأصليين في البلاد الثلاثـة . وفي ١٩٥٩ تفجرت الاضطرابات الدامية في نياسالاند . وعقدت الحكومة البريطانية عـدة موائد مستديرة دون نجـاح ولم تستطع الظفر على معارضـة السير روي ويلينسكي ، وهو سائق سابق لقاطرة تجارية ثم أصبح رئيس الاتحاد . وفي ١٩٦٣ ، قوي الضغط الانكليزي . وحل الاتحاد وخولت أولاً نياسالاند الاستقلال وأصبحت «مالاوي» ثم خولته روديسيا الشمالية وأصبحت « زامبيا » .

أما الجمهورية الفرنسية التي لا تنقسم فقد خضعت في أراضيها الافريقية إلى تغيير كامل . وذلك أن الفكرة الاتحادية قبل بهـا معظم السياسيين الزنوج ، وفي الوقت نفسه رأى كثير من الفرنسيين بعد الصحافي ريمون كاردتيه أن التضحيات المالية التي يقدمها الوطن الأم لتنمية بلاد ما وراء البحـار مفرطـة . وأقنع الافارقة اليسار الفرنسي بالاستقلال ، كما قبل اليمين « الكاردتيرية »؛ وهكذا شجب الجانبان التمثل .

توغو — وفي ١٩٥٥ ، أخـذت توغو ، البلد المشارك ، نظـاماً خاصاً ، مع حكومة منتخبة وضعت لدى الحـاكم . وكان الخـوف من جذب غانا ، المتحررة من قبل ، تأثير في ذلك . ولكن المثل ما لبث أن تعمم في كل الحد الذي يسمح به دستور ١٩٤٦ . وتعاون هوفويت ـ بواني ، وزير الدولة ، مع ديفير وزير فرنسا الاشترا كي فيا وراء البحار ، لاعداد ، القانون ـ الكادر الذي صوت عليه في ١٩٥٦ ، والذي ينشيء « مجالس حكومة » تنتخبها جمعيات « مجالس » البلاد . وهكذا حصلت البلاد على سلطة تنفيذية ، لا على اتحاد فيدرالي . واحتج سنغور على هذه « البلقنة » في افريقية التي كانت ثأراً لساحل العـاج من التفوق السابق للسنغال .

وفي رأي الافارقة ، لم يكن هذا الوضع الجديد إلا مرحلة . فقد ظل الحاكمون رؤساء لمجالس الحكومات المنتخبة . وأراد بعضهم أن يظلوا حاكمين ، وآخرون ، في الواقع ، تركوا السلطة لنائب الرئيس ، زعيم الاكثرية . وعندما استلم الجنرال دوغول السلطة ، في حزيران ١٩٥٨ ، احتفظ بهوفويت ـ بواني في فريقه (جماعته) وقبل اتحادية لا يمكن اجتنابها . ووضع مشروع الدستور « أسرة » ، وبموجبه يمكن لكل بلد أن يحافظ على نظامه المندمج بالجمهورية الفرنسية أو أن يصبح جمهورية داخلة في الأسرة . وقام دوغول برحلة لتهيئة الاستفتاء على النظم الجديدة . واستقبـل بحماسة في تاناناريف ، في برازافيـل ، وعبيد جان ، ولكنه لاقى في كوناكري رفض سيكو توديه النقابي المتعاطف مع الماركسية ، كما لاقى ، في داكار ، أصواتاً معادية من قسم من الجمهور . ولكن مجموع البلاد عدا غينة أجاب « نعم » ؛ وأصبحت كلها جمهوريات مستقلة في « الأسرة » . غير أن بلاداً صغيرة جداً كالصومال والكومور صرحت بالحفاظ على « الوضع الراهن » .

وزال اتحادا افريقية الغربية الفرنسية (A. - O. F.) وافريقية الاستوائية الفرنسية (A. - E. F.) ولم يستطع سنغور الحفاظ معاً إلا على السنغال والسودان تحت اسم « اتحاد مالي » . ولكن استقلال غينة والماركسية حركا الزعماء السودانيين . وانتظمت « الاسرة » بشكل ضعيف : فقد تألف مجلس تنفيذي من رؤساء جميع الجمهوريات ينعقد دورياً ، مع اشتراك وزراء الشؤون العامة (الدفاع والشؤون الخارجية ، والمواصلات ، الخ .) .

وفي الاجتماع السادس للمجلس التنفيذي في **سان لوي** ـ السنغال ، في كانون الأول ١٩٥٩ ، طلبت مالي « بنقل صلاحيات الأسرة » أي عملياً الاستقلال . فقبل دوغول . ولم يقبل هوفويت – بواني أن يبقى في صف أدنى ، وانسحب من الأسرة متبوعاً بآخرين . وكانت هذه نهاية النظام .

وفي ١٩٦٠ ، أصبحت جميع الجمهوريات مستقلة ، ولم تعد الأسرة بالنسبة لبعضها إلا شكلاً للتحالف ، دون نظم مشتركة . وغدت « البلقنة » شاملة عندما انفصمت عرا اتحاد مالي نفسه في ١٩٦٠ وعادت كل من السنغال ومالي (السودان سابقاً) إلى حياتها المنفصلة الخاصة .

وهكذا توصلت المستعمرات الفرنسية إلى الاستقلال في نفس الوقت الذي توصلت اليه المستعمرات الانكليزية ، مع اختلاف الطرق . ولم يمنع هذا الاستقلال التعاون الذي عبر عنه من جانب فرنسا بمنح اعتمادات وارسال أساتذة وفنيين . هذا وان الحياة البرلمانية ، في المجالس الفرنسية ، كالاسهام في مجالس البلاد وفي الفرق الوزارية الاولى ، قد ساعدت في خمسة عشر عاماً ، على تشكيل موجهين اعتادوا الأشكال الديموقراطية والمسؤوليات . وقد جمع زعماء الأحزاب قليلاً قليلاً حولهم الجماهير المتكاثرة ،

وعندما وصلوا السلطة ، نزعوا إلى دمج أو إلى بعثرة المعارضات لاعادة جمع شعوبهم وتنظيم بلدهم . وبين هؤلاء الرؤساء في الجمهوريات الجديدة ، كان سنغور في السنغال، سيكو توريه في غينة ، هوفويت — بواني في ساحل العاج ، بوغاندا في جمهورية افريقية الوسطى ، تسيرانانا في مدغسكر ، معروفين أكثر من غيرهم في الخـــارج ، وكانوا أكثر تمثيلاً لشعوبهم ، كما كان تكوينهم الثقافي والسياسي فرنسياً .

ولكن التشكيل السياسي كان يعوز الكونغو البلجيكية . وهذا القلب « قلب الظلمات » العظيم ، كما كان يسميها جوزيف كونراد ، بسكانه القليلي العدد ، البدائيين ، المتناثرين عبر الغابات والسباسب لم يكن له من وحدة غير الادارة البلجيكية التي تساندها الشركات الرأسمالية الكبرى والبعثات التبشيرية المسيحية . ولم تكن هذه السيطرة الأبوية لتتصور تطوراً سياسياً ، أو ترى في الديموقراطية التي تنشرها فرنسا منذ ١٩٤٥ في الجانب الآخر من النهر ، إلا طيشاً خطراً . ومع هذا فان أفضل تلاميذ البعثات ، من صغـــار الموظفين ، ومستخدمي التجارة ، ورجال الأعمال ، والتجار ألفوا نخبة ضعيفة مطالبة . وأسس أحدهم ، كازافوبو ، في ١٩٥٠ ، في ليوبولدفيل ، حزباً اقليمياً ، الأباكو ؛ وأنشأ آخر ، لومومبا ، في ١٩٥٨ ، حزباً وحدوياً (الحركة الوطنية الكونغولية) مطبوعاً بطابع الجامعة الافريقية المتعاطفة مع الماركسية . وفي كانون الثاني ١٩٥٩ نشبت ثورة في العاصمة ونهبها الجمهور . وانتقل البلجيكيون فجأة من العجز السياسي إلى الوعود المتطرفة وبشروا بالاستقلال . وافتتحت مائدة مستديرة في بروكسل ظهرت فيها جميع المزايدات . وفي ٣٠ حزيران ١٩٦٠ أعلن الاستقلال ، بعد

انتخابات جعلت من كازا فوبو رئيساً للجمهورية ولومومبا رئيساً لمجلس الوزراء .

وكان لعدم التهيؤ للاستقلال الشبه التام نتيجة مباشرة وهي الفوضى . فقد ثار الجيش بعد سبعة أيام ، وغادر البلاد عدد من الأوروبيين دون أمن . ومزقت الانقسامات القبلية والعقائدية البلاد في كفاحات وحشية وفي حكومات مرتجلة . وأدى انفصال كاتانغا ، ثروة الكونغو المعدنية ، بايحاء من مومى تشومبه ، إلى تدخل الأمم المتحدة . وقتل لومومبا ولم يستطع أحد اقامة حكم مركزي يعترف به الجميع . وقامت محاولات لاعادة البناء ، ولكنها اتبعت بأزمات دامية زادتها الدعاية والأسلحة الأجنبية أواراً واشتعالاً .

وفي ربيع ١٩٦٤ ، بلغت الفوضى أقصاها . وقام تشومبه في باريس والعواصم الافريقية بدعاية شخصية كثيفة ، وأكثر الاتصالات ، وانتقد بشدة الجهاز الحكومي ، وبخاصة ، الجنرال موبوتو . وما زال هذا به حتى قدم له رئاسة مجلس الوزراء ، وفي شهر تموز دخل رئيس كاتانغا السابق العاصمة الكونغولية ظافراً ، ولم يدم حكمه أكثر من سنة . وفي تشرين الأول ١٩٦٥ ، خول موبوتو نفسه جميع السلطات . ولما رأى تشومبه حريته مهددة عاد وأخذ طريقه إلى المنفى ، ولم يتخل ، مع ذلك ، عن الأمل بثأر مدو ، وهيأ في مدريد عودته إلى الكونغو .

فهل تجمعت ظروف الانقلاب ، عندما طار ، في ٣١ آب ١٩٦٧ ، على متن طائرة ـ تاكسي ، صحبة أربعة من معاونيه ؟ وهل أحبطت المؤامرة ؟ الثابت هو أن الطائرة ، بعد أن حطت مرتين في بالما وفي ايبيزا ، اقلعت في الاول من ايلول نحو الساعة ١٨ وأخذت

طريقها نحو الجنوب ، واضطرت أن تعود إلى الأرض وان تحط على أرض بوفارق العسكرية ، على ٣٠ كيلو متراً من الجزائر العاصمة . وانتهت مغامرة تشومبه . وزج في السجن بأمر من الرئيس هواري بومدين ، الذي يبدو أنه قبل طلب موبوتو .

وبعد أن تحررت حكومة كينشاسا الكونغولية بهذا الرهن ، قامت باخضاع المناطق المنشقة وتقويم الحالة الاقتصادية والمالية . وأعقبت هذه الدرامة الكونغولية الشك عن غير حق بالكفاءة الافريقية على التنظيم . وليس الكونغوليون مسؤولين عن تأخر التطور الواضح جداً .

وفي ١٩٦٨ ، حصلت غينة الاستوائية على استقلالها بعد أن ظلت حتى ذلك الحين أرضاً اسبانية .

افريقية الشمالية والشمالية - الشرقية

تونس . — من بين بلاد المغرب الثلاثة ، شهدت تونس وحدها وضعها يدخل في تسوية تعاقدية . فقد نصت اتفاقات حزيران ١٩٥٥ على الانتقال التدريجي للصلاحيات وعلى بقاء التعاون . وبعد أن ظل الحبيب بورقيبة منفياً زمناً طويلاً ، عاد ظافراً ، ولكن اعتداله أثار معارضة صالح بن يوسف الذي أنكر مؤتمر حزب الدستور عليه عمله ، فقام بأعمال الارهاب ثم فرّ الى القاهرة . وساعد التطور السريع للقضية المراكشية بورقيبة على المطالبة بالانحياز . وفي آذار ١٩٤٦ ، اعترفت فرنسا باستقلال تونس . وأصبح بورقيبة رئيساً لمجلس الوزراء ثم رئيساً للجمهورية ، عندما اعلنت الجمعية (مجلس الأمة) سقوط الباي ، في تموز ١٩٥٧ ، وجمع جميع القوى السياسية والنقابية في داخل حزب الدستور الجديد ، وقام بحذف

الانظمة المتبقية عن العصور الوسطى كتعدد الزوجات ، وانحطاط المرأة، ومراعاة الصوم في رمضان ، ولم ينسج بعمله هذا من المهاجمة واتهامه بالتجديف في أمور الدين غير أن الاهتمام بالحفاظ على شعبيته وامتداد الحرب في الجزائر، حيث كان التونسيون يساعدون حركة التحرير الوطنية ، أديا الى عدة أزمات في العلاقات الفرنسية ـ التونسية .

ففي ١٩٥٧ ، علقت فرنسا المساعدة المالية . وفي شباط ١٩٥٨ قصفت الطائرات الفرنسية قرية ساقية سيدي بن يوسف التونسية بصفة أعمال انتقامية ، فأثارت تظلم بورقيبة الى منظمة الأمم المتحدة وطلبه بالانسحاب الكامل للجيوش الفرنسية . وفي ١٩٦١ ، هاجم التونسيون قاعدة بنزرت الفرنسية فأدى ذلك الى رد دام . وأخيراً تدخلت اتفاقات للجلاء عن بنزرت واستئناف العلاقات الدبلوماسية . ولكن اقتصاد تونس الفقير اضطرها الى الحفاظ دوماً على الاتصال بالغرب ، مع انضمامها الى الجامعة العربية ، وتمثل فيها العنصر المعتدل .

مراكش .— واذا سهلت الاتصالات السابقة بتركيا ، والبورجوازية المثقفة في المدن ، وإدارة بورقيبة الطالب الباريزي سابقاً ، التطور الحديث في تونس ، فإن مراكش ، باستقلال قبائلها الجبلية ، ومدنها التقليدية، وتاريخ تحويلات ليوتي الحديثة العهد ، واحترامها للسلطان ، الزعيم الديني والرابطة الزمنية الوحيدة ، تبدي منظوراً قديماً أخنى عليه الدهر . إن النخبات الدينية والفريق المستغرب الصغير ، اللذين يوجهان حزب الاستقلال، استخدما نفي محمد الخامس كخميرة للقومية . فقد تعممت الاضطرابات حتى ان الحكومة الفرنسية اضطرت، في آب ١٩٥٥ ، الى اطلاق سراح السلطان من منفاه . وبعد مروره بفرنسا ومناقشات على نظام مستقبل مراكش، عاد ، في تشرين الثاني ، في روعة الحماسة الشعبية .

وقدم الجلاوي نفسه لخضوعه . وفي آذار ١٩٥٦ ، اعترفت فرنسا باستقلال مراكش . وقام السلطان عندئذ بمفاوضات أدت ، في السنة نفسها ، الى تخلي اسبانيا عن الريف المراكشي والى الغاء نظام طنجة الدولي . وهكذا ، شهدت مراكش وحدتها الأرضية تعولها ، في وقت فسحت الانقسامات القبلية القديمة المجال الى التنظيم الوحدوي وتوفي محمد الخامس في ١٩٦١ . وخلفه ابنه البكر تحت اسم الحسن الثاني ملكاً على مراكش وزعيماً زمنياً لشعبه . وقد حاول هذا الأمير الشاب ، المربى حسب الانظمة الغربية ، أن يجعل من بلاده دولة حديثة مع تركيز السلطة في يده . ورغم انضمام مراكش الى الجامعة العربية ، فقد عرفت ، في كل حين ، كيف تحافظ على علاقاتها الطيبة مع فرنسا ومع الولايات المتحدة وتقبل منها مساعدة جوهرية .

الجزائر . — في عام ١٩٥٤ ، دخلت الجزائر الحرب ضد فرنسا ، وقسمت « جبهة التحرير الوطنية » البلاد الى ولايات مستقلة ، فرق صربة عسكرية وإدارية معاً . وفي آب ١٩٥٥ ، أدى قتل المعمرين المنظم في شمال قسنطينة الى أعمال انتقامية امتدت الى السكان المدنيين. وتعمقت الوهدة بين الاوروبيين والمسلمين . واستولى الفزع على انصار الحل المعتدل فشايعوا القومية الجزائرية . وكان المعمرون ، باتجاه من الحاكم العام سوستيل ، يبشرون بعد فوات الأوان بسياسة « الدمج» التي أطرحوها في الزمن الذي كان من الممكن أن تكون قابلة للحياة . وفي فرنسا ، تطورت حكومات اليسار باتجـــاه معاكس ونزعت الى الاعتراف بـ « الشخصية الجزائرية » . وجاء غي موليه الى الجزائر ، في ٦ شباط ١٩٥٦ ، فشتم ، وتأثر بالمتطرفين الاوروبيين . وزيد المجهود العسكري

وأتم بـ « البحث عن العناصـــر المناوئة من السكان والقبض عليها » .
فأجابت « جبهة التحرير الوطنية » بتنظيم أصولي وارهاب مدني أدى الى رد دراكوني في الجزائر العاصمة ، في ١٩٥٧ . ومع ذلك فقد كانت البلاد العربية تحاول البحث في القضية الجزائرية في كل عام في الامم المتحدة. وطلبت الحكومة الفرنسية من المجلس التصويت على تسوية تهيء بعض « الشخصية » لجزائر مقسمة الى أقاليم مستقلة تبدو موجهة لتقسيم أرضي ، فأثارت غضب كل من المعسكرين ، في شباط ١٩٥٨ ، وتشكلت فرق « نشيطة » اوربية للقيام بأعمال العنف .

وفي ١٣ أيار ١٩٥٨ ، احتل النشيطون الحكومة العامة وألفوا « لجنة السلام العام » . وتنازلت الحكومة الفرنسية والجمعية الفرنسية ونادتا الجنرال دوغول . وفي ٤ حزيران ، جاء هذا الى الجزائر والقى من ميدان المدينة على الثوار كلمته الشهيرة « فهمتكم » . وفي الواقع ، رفض الدمج وحاول صيغاً مختلفة ، وخولت « خطة قسنطينة » اعتمادات عظيمة للتقدم الاقتصادي ؛ وعرض « سلام الشجعان » ؛ وأخيراً « حق تقرير المصير » ، في ١٦ ايلول ١٩٥٩ ، بعد أن نجا بالضبط من تصويت معـــاد في الامم المتحدة . وفي كانون الثاني ١٩٦٠ ، قرر نشيطو الجزائر أنهم خينوا ، وهاجموا الدرك ، حرس الامن ، وأقاموا المتاريس خلال اسبوع . وجرت مفاوضات مع « جبهة التحرير الوطنية » انتهت بالاخفاق في **مولن** ، في حزيران ١٩٦٠ ، ثم عقدت في **ايفيان** ، في أيار ١٩٦١ ، بعد محاولة حركة عسكرية في الجزائر العاصمة ، في نيسان ١٩٦١ . وبدت المفاوضات صعبة . ومع ذلك فقد قتل نشيطو « منظمة الجيش السري » الموظفين ، وطبقوا « طرد العربي » ، وقاموا باغتيالات بالقنبلة في فرنسا نفسها ، دون أي نتيجة إلا تحويل الرأي ضدهم ، الذي

طلب السلام . وفي ١٨ آذار ١٩٦٢ ، ابرمت أخيراً اتفاقات ايفيان معترفة بسيادة الدولة الجزائرية ، مع بعض الضمانات للاوربيين . ولكن الحالة فسدت من جديد بعدة اغتيالات من منظمة الجيش السري (O.A.S) ، ورد من جبهة التحرير الوطنية ، والذعر عند الاوربيين وهجرتهم الكثيفة. وفي الاول من تموز جرى استفتاء نظم بموجب الاتفاقات واختار الجزائريون الاستقلال بكثافة . ولم يسد الاتفاق بينهم ، مع ذلك ، على الشكل النظامي الذي ستتبناه الدولة الجديدة . وتفاقم الاضطراب بمنافسات الاشخاص. وأخيراً ، حذف الوجهاء والثوريون القدامى ، من أمثال فرحات عباس ومصالي الحاج ، لصالح محاربي جبهة التحـــرير الوطنية و « شهداء » الحركة . واسندت رئاسة الجمهورية الجزائرية الفتية الى أحد هؤلاء الاواخر، احمد بن بلا . ودام حكمه قليلًا . وفي ١٩ حزيران ١٩٦٥ ، عزله انقلاب عسكري من وظائفه وأجبره على الاقامة المراقبة في منطقة بليدا ، وأخذ مكانه الكولونيل هواري بومدين قائد الجيش ومنظم الحركة .

وظلت المعونة الفرنسية الثقافية والفنية والمالية مقبولة في الدولة الجزائرية الجديدة، التي صنعتها الحرب ، والمتسلطة والمتجهة صوب العروبة وصوب الاشتراكية الفلاحية .

وزالت الامبراطورية الايطالية ، من جانبها ، مع الحرب ، وارجع استقلال اثيوبيا ، وتخلت ايطاليا عن مستعمراتها السابقة : ليبيا ، اريترة والصومال . ولاقى أعضاء منظمة الامم المتحدة عناء في الاتفاق على تقرير مستقبلها . فقد احتل الانكليز ليبيا الشمالية ، والفرنسيون فزان ، واستقبلت البلاد الامير السنوسي ملكاً . وأعلن استقلال ليبيا في ١٩٥١ .

وعاشت ، باعتبارها جزءاً من الصحراء الكبرى ، على المساعدات الانكليزية والامريكية حتى اكتشاف البترول .

وأصبحت اريتريه ، في ١٩٥٢ ، دولة متحدة مع اثيوبيا ، التي ضمتها في عام ١٩٦٠ . وعهد بالصومال الى الوصاية الايطالية التي أمنت تطورها الاداري والسياسي . وأعلن الاستقلال في ١٩٦٠ والتحقت بها الصومال الانكليزية . وطالبت الصومال بالاراضي المأهولة بالصوماليين في جميع البلاد المجاورة ؛ ولكنها في القسم الاعظم منها صحراوية ، وتتوصل الى العيش بمشقة .

وتحررت مصر تماماً من الاحتلال البريطاني ، ولكن شعبها ، المفرط في زيادته والبائس ، يتطلب جهوداً مكلفة للتصنيع . ولما لم ينل الرئيس جمال عبد الناصر اعتمادات غربية ، لبناء سد أسوان ، قرر تأميم قناة السويس ، في تموز ١٩٥٦ . وفي ٢٩ تشرين الأول ، هاجمت الجيوش الاسرائيلية المصريين واحتلت سيناء وتوصلت لحافة القناة . وفي وفي ٥ تشرين الثاني ، نزل جيش حملة فرنسي — انكليزي في بور سعيد وتدخلت منظمة الأمم المتحدة ببادهة اتفق عليها بين موسكو وواشنطون ، وفرضت انسحاب جميع القوات الأجنبية من مصر . واستعاد جمال عبد الناصر أرضه وحافظ على ملكية القناة . وفي شباط ١٩٥٨ ، ذابت مصر وسورية في « الجمهورية العربية المتحدة » ، ثم انسحبت منها سورية فيما بعد ، ولكن مصر حافظت موقتاً على ، اسم « الجمهورية العربية المتحدة » (ج . ع . م) وهي أيضاً مقر الجامعة العربية ، وتدخلت في اليمن لدعم الحركة الجمهورية . والغيت التسوية الانكليزيه ـ المصرية بشأن السودان في الفاتح من كانون الثاني ١٩٥٦ وأعلن استقلال السودان . وفي

السودان نفسها وضع حكم الجنوب النيلي والوثني ، من قبل مسلمي الشمال ، قضية مع ما يلازمها من ثورات وقمع ، ومازالت هذه القضية شائكة ولكنها في طريق الحل .

وفي الشرق الأوسط ما زالت اسرائيل دولة معتدية على حق عرب فلسطين بأرضهم . وفي ربيع ١٩٦٧ حاصر الرئيس جمال عبد الناصر خليج العقبة ومنع البحر الاحمر عن الملاحة الاسرائيلية وأبرم اتفاقاً عسكرياً مع الاردن . وفي ٥ حزيران هاجمت اسرائيل البلاد العربية المجاورة : مصر وسورية والاردن وسجلت في ستة أيام نصراً على جميع الجبهات ، واحتلت سيناء حتى قناة السويس ، والضفة الغربية لنهر الاردن ، والقطاع العربي في القدس ، ومرتفعات الجولان في سورية المشرفة على بحيرة طبرية ، والأراضي الزراعية الخصبة التي تحيط بها .

التجمعات الافريقية والمقاومات البيضاء

ليست القارات إلا تعبيراً جغرافياً يغطي وقائع مختلفة جداً وقلما تكون مصنوعة لتحريك العواطف الجماعية . ولذا فان الوحدة الافريقية (الجامعة الافريقية) ، التي أنشأها الخلاسي الامريكي دوبوا ، الذي دعا خمسة مؤتمرات من ١٩١٩ إلى ١٩٤٥ ، تتوجه إلى زنوج القارات الخمس في العالم . ومثل ذلك فكرة « الزنجية » التي أطلقها الانتيلي سيزير . وكذلك الجامعة العربية التي تأسست في العام ١٩٤٥ تضم بخاصة الشعوب الناطقة بالعربية من أفريقية الشمالية وجنوب – غربي آسيا . وبعد مؤتمري باندونغ والقاهرة أخذت فكرة الجامعة الافريقية شكل قارة متناظرة مع آسيا . وعقدت عدة مؤتمرات ضمت ممثلي الدول المستقلة في افريقية البيضاء والسوداء ، ومندوبين ، متطرفين عموماً ، عن الشعوب التي ما زالت

مستعمرة ؛ ومن هنا خرجت الشدة المناوئة لفرنسا في مؤتمر اكرا الاول ، في نيسان ١٩٥٨ وشجب المؤتمرات التي تلته لبقايا الاستعمار ، وبخاصة العرقية في جنوبي افريقية . وتوجت الحركة في أديس – أبابا في أيار ١٩٦٣ . وحضر رؤساء الدول الافريقية المستقلة بما يشبه الاجماع شخصياً هذا المؤتمر . وافترقوا بعد أن أنشأوا « منظمة الوحدة الافريقية » التي تقتضي احترام الحدود المتبادلة ، والتحكيم في حالة خلاف ، والانعقاد السنوي وأمانة عامة .

هذا وان سعة وتنوع القارة وكذلك الاتجاهات العقائدية للدول قد أبقت على الأقل تجمعات ضيقة . وكان اتحاد مالي الفيدرالي واتحاد غانا – غينة – مالي موقتين ، ولكن فريقي مونروفيا (عاصمة ليبريا) والدار البيضاء ، الأول نصير غربي ، والثاني أقل منه ، داما عدة سنوات . وقد أسس الاعضاء الناطقون بالفرنسية ، في الفريق الأول ، الاتحاد الافريقي والملغاشي لعمل دبلوماسي مشترك ؛ ثم زال هذا الاتحاد عند انشاء « منظمة الوحدة الافريقية » ، ولكنه عاد فتأسس في ١٩٦٤ تحت اسم « المنظمة المشتركة الافريقية والملغاشية (O. C. A. M.) . ويوجد أيضاً تفاهم اقليمي محدود ، مثل « تفاهم » شاطىء العاج – فولتا العليا – داهوميه – نيجر ، والتعاون الاقتصادي لدول افريقية الاستوائية الفرنسية سابقاً والكمرون ؛ وانشىء « اتحاد دول افريقية الوسطى » (كونغو – كينشاسا ، تشاد ، جمهورية افريقية الوسطى) ، في نيسان ١٩٦٨ . وبقيت الجامعة العربية مع تبعيتها للقارتين آسيا وافريقية .

ومع هذا فلم تبلغ بعد الجامعة الافريقية ولا حركة الاستقلالات

جنوب افريقية . وأصبح اتحاد جنوبي افريقية صخرة مقاومة المعمرين البيض . وتأصل هؤلاء ، وعددهم ٣ ملايين ، منذ قرون ، ويزعمون الاستمرار في حكم أكثر من ١٠ ملايين زنجي ، في معظمهم كادحين ومحرومين من الحقوق السياسية . و نظم الفصل العرقي المطلق في مذهب سياسي الدولة تحت اسم « التمييز » ؛ وأدى إلى تشكيل بعض « بانتوستان » ، أقاليم مأهولة بالزنوج ولها وزارات ، تحت رقابة الحكومة . وظلت احتجاجات الدول الافريقية والثورات الداخلية وشجب منظمة الأمم المتحدة (٧٨ من أجل جنوب - غربي افريقية وحده ، الذي توجهه افريقية الجنوبية) دون مفعول . وأصبح الاتحاد جمهورية في ١٩٦٠ وانفصل عن الكومنولث في ١٩٦١ . وقد وضعه تصنيعه ودخله القومي بوضوح جانباً بالنسبة للدول الافريقية الأخرى .

وتضم روديسيا الجنوبية ، التي أصبحت روديسيا ، ما يقارب عشر سكانها من الاوروبين ، ومعظمهم ولد في افريقية ، وقد خولت منذ ١٩٢٣ استقلالاً ذاتياً واسعاً وظل المعمرون يسيطرون عليها . وبعد قطيعة الاتحاد الفيدرالي ، رفضت توسيع التصويت الذي أرادت انكلترا أن تفرضه عليها ، وفي ١٩٦٥ أعلنت جانبياً استقلالها .

وحافظت الحكومة البريطانية على ثلاثة مناطق في اتحاد جنوبي افريقية وهي : بتشوانالاند ، باسوتولاند ، سوازيلاند التي أصبحت مستقلة من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٨ تحت اسم بوتسوانا وليسوتو من أجل المنطقتين الاولى والثانية .

ورفضت البرتغال ، من جانبها ، الدخول في طريق الانفصال عن مستعمراتها : غينة البرتغالية ، انغولا ، موزامبيق . وقامت منازعات

مسلحة، في المستعمرتين الاولى والثانية ، من قبل المنظمات الافريقية المحلية ، مع ردود فعل شديدة جداً من قبل الجيش البرتغالي المتزايد تدريجياً . وكان مبدأ حكومة سالازار يقصد أقاليم برتغالية صغيرة . وفي الواقع، لم يمس التمثيل السياسي إلا قسماً ضعيفاً من السكان .

اوربة ، امريكا ، اوقيانوسيا

اذا كان المستعمرون في الغالب بيضاً فيوجد مستعمَرين بيضاً أيضاً . إن مالطة المستعمرة الانكليزية منذ بونابرت طالبت في العام ١٩٥٣ بنظام الدومنيون وأصبحت ، في ١٩٥٢ ، دولة عضواً في الكومنولث واعلن استقلالها في أيار ١٩٦٤ . وإن جزر الدوديكانيز ، التي كسبتها ايطاليا في ١٩١٢ ، عادت الى الوطن الام ، اليونان ، في ١٩٤٨ . وجزيرة قبرص التي ضمها دزرائيلي ، لم يكن لها نفس المصير بالرغم من مطالبات اكثريتها اليونانية والاضطرابات المسلحة المتكررة دون انقطاع فقد عارضت الاقلية التركية والجيش الانكليزي في ذلك ، وأدت اتفاقات بين البلاد الثلاثة ، في ١٩٥٩ ، الى تبني الاستقلال مع مشاركة الاقلية في الحكومة التي لم تمنع قيام الخلاف . وفي كندا المستقلة ذاتياً والمزدوجة اللغة رأت الاقلية الفرنسية نفسها متصاغرة فطالبت باستقلال « كيبك » . وأصبحت آلاسكا ، في ١٩٥٨ ، الولاية التاسعة والاربعين في الولايات المتحدة .

وتضع بعثرة جزر الآنتيل قضايا سياسية صعبة . فقد أصبحت بورتوريكو ، منذ ١٩٥٢ ، دولة حرة مشاركة للولايات المتحدة . وأصبحت الآنتيل وغويانه الفرنسية ، بناء على طلبها ، في العام ١٩٤٦ مقاطعتين ، ولكن حركة استقلالية ظهرت فيها مقلدة الآنتيل البريطانية:

واستطاعت انكلترا ، في ١٩٥٨ ، أن تجمع الآنتيل البريطانية في اتحاد ما لبث أن انفجر ، بعد أربعة أعوام ، الى مجرة استقلالات ذاتية مريعة العطب ضعيفة . وتحررت كذلك غويانة الهولاندية وكوراساؤ .

وفي امتدادات المحيط الهادي المترامية الاطراف لم تساعد البعثرة اللا متناهية للارخبيلات الصغيرة على إشادة دول مستقلة يمكن أن تعيش. الا أن ارخبيلات ساموآ وحدها استقلت في ١٩٦١ . وقسمت غينة ـ الجديدة (ايريانه) بين اندونيسيا واوستراليا . أما كاليدونيا ـ الجديدة وتاهيتي فهما بلاد ما وراء البحار بالنسبة للجمهورية الفرنسية. وأصبحت هاواي الولاية الخمسين في الولايات المتحدة . وظلت كثير من الجزر مستعمرات أو مناطق احتلال. ولم تظهر أي حركة بولينيزية جامعة أو ميلانيزية جامعة . وبدت اساءة استعمال الاستقلالات المتناهية في الصغر وغير القابلة للحياة تتلاءم بصعوبة مع مايتطلبه العالم الحديث من دولة .

نتائج اللا استعمار

نهاية الامبراطوريات والاوطان الام

ماذا بقي في عام ١٩٦٨ من الامبراطوريات الاستعمارية ، من هذه البقع الملونة بألوان الاوطان الأم التي كانت ، في ١٩٣٩ ، تحتل مكاناً واسعاً على الكرة المسطحة ؟ إن الجواب بـ « لاشيء » مبالغٌ فيه . وإذا نظرنا الى الخارطة وجدنا أن الجزر واسع ، ولكنه غير شامل . والخارطة نفسها تطلب أن تفسر ، لأن الانظمة الجديدة ، في البلاد التي بقيت تابعة ، قد تحولت بصورة عميقة .

فالامبراطورية البرتغالية ، بالرغم من أن المستعمرات سميت « أقاليم » بقيت أقرب الى النظام الاستعماري القديم ، وهي تهاجم في آن واحد في الداخل من قبل الانصار المسلحين ، وفي الخارج بشجب اجماعي من البلاد المستقلة ، ولكنه في الغالب لفظي . والوضع العسكري الحالي يبدو راكداً .

والمجموعتان الكبيرتان الوحيدتان اللتان بقيتا على صلات قوية هما: من جهة، الاتحاد السوفياتي ؛ ومن جهة أخرى الصين وملحقاتها . فقد الغي فيها النظام الاستعماري . وحلت محلها استقلالات حكومية وثقافية . ولكن الوحدة قويت بدكتاتورية الحزب ، والانظمة المشتركة ، وتنفيذ الخطط الاقتصادية والمبادلات في شبه قارة واسعة اكتفائية . وهذا النظام التسلطي ، الذي يحمل دفعة ستالين كانت نتيجته انتزاع آسيا الوسطى بقوة من عصرها الوسيط الاقطاعي أوالقبلي وتجهيزها بعناصر حياة جديدة .

وليس الكومنولث أكثر من شبح للامبراطورية البريطانية. لقد بقيت كندا واوستراليا وزيلاندة — الجديدة ملونة بلون الورد وظلت الملكة سيدة لها ، ولكن هذا الرمز المخفف للاصول مازال يثير غضب الكثير من الكنديين الفرنسيين؛ لقد محت كندا الاتحاد الجاكي (علم المملكة المتحدة) من علمها لتنيب عنه ورقة شجرة الجَبْرُمْشَق أو القيقب . وفي الواقع ، ان البلاد الثلاثة لها حكومتها الخاصة وسياستها المستقلة . وقد تحرر باقي الامبراطورية كله عدا بعض الغبار من الجزر ونقاط الاستناد . وبقي العدد الا كبر من الجمهوريات المستقلة في الكومنولث بشكل طوعي ، وبالرغم من أنها تسلك سياسات مختلفة وأحياناً متعارضة بالسلاح ، كما هي حال الهند والباكستان ، فقد حافظت على عادة النادي البريطاني ، ولا تخلو هذه الاتصالات الدورية من فائدة .

وزالت « فرنسا ما وراء البحار » بتمامها تقريباً . ولم يبق الا بعض أراضي صغيرة ، بعضها مقاطعات من نوع الوطن الأم : مارتينيك غوادبلوب ، الاتحاد (ريئونيون) ، غويانة ، والاراضي الاخرى مستقلة : مثل القديس بطرس — و — ميكلون ، اراضي الآفار والايساس الفرنسية ، (وهو اسم اطلق على شاطىء الصومال الفرنسي في ١٩٦٧)، الكومور ، كاليدونيا ـ الجديدة ، بولينيزيا الفرنسية . ولما لم تستطع هذه المقاطعات والبلاد فيما وراء البحار أن تعيش حياة مستقلة فقد أفادت على هذا النحو من الخدمات والموازنات الفرنسية .

واطرحت الولايات المتحدة أو امتصت بعض مستعمراتها القديمة . وشهدت بلجيكا والبلاد المنخفضة وإيطاليا واليابان امحاء امبراطورياتها تماماً على الخارطة . والمواقع النادرة التي مازالت اسبانيـــا تمسك بها بعد على الشاطىء الافريقي هي مستقلة ذاتياً أو شبه خالية من السكان .

والقارة المتجمدة الجنوبيـة نفسها ، التي بدأت بقعتها العظيمة البيضاء غير البشرية تتلون ، على أطرافها ، بالوان الاوطان الام المختلفة ، قد حيدت باتفاق دولي وفتحت للبحث العلمي وحده .

إذن لقد انتهى العصر الاستعماري . فما هي نتائج هــذا الخسران بالنسبـة للاوطان الام ؟ لقد تصور لينين ثورة واسعة مسلحة تكون نتيجتها الهامة والاساسية دمار الدول الاستعمارية والعالم الرأسمالي . وفي الواقع ، ان الانعتاق ، باستثناء بعض الاحوال وحرب الهند الصينيـة والجزائر ، قد تم على الاكثر بصورة سلمية . ومن جهة أخرى ، إذا خسر بعض مواطنيها وظائف أو ملكيات فلا يبدو أن الاوطان الام في مجموعها ، قد شكت من ذلك بشكل عظيم وملحوظ . ذلك لان ازدهارها قائم على عملها وعلمها وتنظيمها ومواردها الخاصة وأقل بكثير مما

يظن على مستعمراتها . حتى ان هـذه المستعمرات ، مع خطط التنمية ، تنزع لان تكون أعباء . أمـا وقد تحررت الاوطان الام من « حمل الانسان الابيض » فبامكانها منذ الآن أن يكون لها اتجاهات مختلفـة ومتنوعـــة .

لقد تخلصت الدول ، فرنسا ، بلجيكا ، البلاد المنخفضة ، إيطاليا ، المانيا من مستعمراتها واستطاعت أن تندمج في السوق الاوربية المشتركة وبسهولة أكثر من انكلترا التي مازالت منهمكة في تبعيتها الكومنولث

هذا ولم تنقطع الصلات بين الاوطان الام الاوربية القديمة وبناتها فيما وراء البحار ، وإنما اتخذت طابعـاً حراً وتعاقدياً . ولا شك في أن المساواة ليست إلا اسطورة بين الاوطـــان الام السابقة الغنية برؤوس الاموال المتراكمة منذ عصور والتقنيات المتحسنة الكاملة ، والمستعمرات السابقة التي انسحبت منذ قليل من حالة التخلف والتي مازال مستوى حياتها العام ضعيفاً . ومن هنا خرج التعبير « الاستعمار الجديد » الذي استعمل أحياناً بشكل سيء لوصف العلاقات الجديدة . وفي الواقع ، ان « الاستعمار زال مع السيطرة ؛ ولم يبق إلا الرأسمالية والعلاقات التجارية ومساعدة الموازنة والمؤثرات السياسية والثقافية . وإن الدول الجديدة تستطيع أن توسع أو أن تضيق أهميتها تبعـاً لمنافعها وحسب ظروف حملها وهي في الغالب صعبة .

قضايا المتحررين من الاستعمار

في البلاد التي كانت في السابق دون وحـدة وذات بيئة قديمة ، ثم أبقت عليها الادارة الاستعمارية ، لم يكن الاستقلال ، في الواقع ، إلا نقطة انطلاق ؛ فقـد خول السماح وتقريباً الالزام بانشاء دول حديثـة تنزع إلى اللحاق بمستوى القرن العشرين . ومن هنا خرجت عدة قضايا .

الحدود . ـ لقد كان لدى الدول الناشئة في الغالب من الحكمة ما لم يجعلها تجادل في الحـــدود الموروثـة عن الاستعمار ، بالرغم من أن هذه الحدود كانت نتيجة صدف التقدم الكشفي أو العسكري. حتى ان المنازعات لم تثر تغيرات حاسمة : (مراكش ـ موريتانيا ، الجزائر ـ مراكش ، الصومال ـ اثيوبيا ، الهند ـ الباكستان ، اندونيسيا ـ الملايو) . وان تدخل منظمة الامم المتحدة أو منظمة الوحدة الافريقية أو الدول المعنية قد ساعد حتى الآن على الحفاظ بسهولة على «الوضع الراهن» .

الوحدة . ـ وهذه الحدود الاستعمارية تجمع في الغالب بلاداً عظيمة الاختلاف من الوجهة العرقية واللغوية والتاريخية . فكيف يكون الحفاظ على هذه الابنية الغريبة اللامتجانسة عند ذهاب السيد المشترك ؟

لقد كانت قضية الوحدة القضية الملحة أكثر من غيرها . وقد لاقت الهند عناء ومشقة في التغلب عليها واضطرت أن تقبل بـ « فصل » الباكستان.

واضطر سوكارنو أن يقمع الثورات في بعض الجزر . وفي افريقيـة السوداء ، قام النضال ، وأحياناً كان عنيفاً كما في كونغو ـ كينشاسا ، ضد « القبلية » أي النعرة العرقية ؛ وقد انيب الزعماء التقليديون بموظفين وأحياناً طرح اسم العرق . وجرت محاولات لان يناب مناب هـــذه الاوطـان في السابق اسم الوطن الكبير الذي هو الامة الجديدة ، مع رموزه : العَلَم ، النشيد الوطني ، الزعيم ، الشعارات ، والاعمار التاريخي من جديد . وفي بعض الحالات جمعت الحدود في دولة واحدة أكثرية وأقلية تتعارضان جملة ، وتضطران إلى مداراة جميع الظروف ، كما هي الحال في كندا ، أو تؤديان الى خلافات حادة كما في السودان والعراق وقبرص وبيافرا .

العمران السياسي والاداري ـ ان النظام الديموقراطي الذي نقله

الغربيون ، مع احترامه للمعارضة وازدهار الاحزاب ، لايتفق والحاجات الشديدة للبلاد المناضلة في سبيل وجودها وحياتها . لقد احترمت الاشكال الديموقراطية في الدساتير ، ولكن ، في الواقع، في غالب الاحوال ، تم التوصل إلى نظام الحزب الوحيد أو على الاقل المسيطر بشدة ويضم ممثلي جميع العناصر والنزعات المختلفة بغية التماسك والنفـــاذ . لقد استلمت نخبة صغيرة السلطة واحتفظت بها والفت أوليغارشية قليلة التجدد . ثم ان العقلية القديمة الباليـة للجماهير غير المثقفة وعاداتها القبلية الابوية أدت في الحالات القصوى إلى تمجيد رئيس الدولة الذي أصبح يعتبر رجلاً ارسلته العناية الإلهيّة . وبقيت الانتخابات طقوس دورية ، ولكن المرشحين كانوا يعينون سلفاً من قبل الحزب الذي يطهر نفسه من كل منافسة ممكنة . وردّ هامش حرية التعبير إذن إلى العدم . وليست الديموقراطيـة المستعارة إلا دكتاتورية تخاف من ظلها ومهددة وبالانقلاب . والجيش الوطني ، اداة النظام ، يمكن عندئذ أن ينقلب عليها ، وهذا ما حدث في عدد من الدول منذ ١٩٦٥ .

لقد افادت الادارة الاستعمارية كقالب للقيادات ، في البلدان التي كانت مستعمرة ، والمصالح التقنية . وأخذ الموظفون الملحقون القدامى والشبان المجازون ، الذين يحملون الدبلومات والشهادات ، مكان الاداريين الاوربيين بل وحتى طرقهم .

ولكن تدخلت في الغالب نظم موازية : فرع الحزب ، القومونات الريفية حيث تتدرب النخبات الصغيرة على تحمل المسؤليات المحلية .

التطور الاجتماعي والثقافي .ـ وفي الوقت نفسه قام الاعمار الاجتماعي ان المجتمعات القديمة ، بالهامها الديني أو السحري وقياداتها الوراثية ، وطبقاتها ، وتوازناتها الدقيقة بين العائلات ، وأصناف العمر ، والاجناس ، لاتتفق مع الازمنة الحديثة

ولا مع الحدود الموسعـــة . وهذه العوالم الصغيرة القديمة التي زعزعها الاستعمار كثيراً أو قليلا تتحمل صدمة الاستقلالات الحديثة . وعلى العموم، ان المجتمعات قاومت بأفضل من الملوك . لقـد حذف بانيل في الهند المهراجات لا الطبقات . ولكن ظهرت طبقات جديدة : الاغنياء ، الموظفون ، الكادحون . وخلف احترام التعليم احترامَ التقليد . والرقي الثقافي عام وكثيف وجماهيري ، والتربية العليا تستعمل لغـــات مشتركة ، وفي الغالب الانكليزية أو الفرنسية ، تساعد على التفـاهم بين العناصر والأعراق ، وتعرض وجهات نظر جديدة على الكوكب ، منتزعة الوجدانات من عالم الأجداد والاسلاف المغلق .

التنمية

ولكن في الغالب توضع قضية التقدم الاقتصادي بعجل ويظهر حلهـا أكثر عسراً من غيرها . لقد أدخل الاستعمار العالم الحديث في مجتمعات قديمة محافظة كانت تعيش في ملجأ عزلة نسبية ، في عاطفة استقرار وانسجام تعتمد على الاسلاف والدين . وتؤلف الاقطاعات ، والحروب المحلية والمجاعات جزءاً من هذا الاطار السلفي المقبـــول كأمر الطبيعة نفسه . واليوم ، انقلب هذا العالم وانكشف عالم آخر تتجه صوبه آمـال الأمم الجديدة التي شعرت بتخلفها الاقتصادي وضعف مستوى حياتها بالنسبة إلى البـلاد المتقدمة . و « الأمم الكادحة » تطالب بالمساواة أو على الأقل بالتقدم .

ويحسب أن ثلاثة أرباع البشرية متخلفة أي أن دخلهـا الكل فرد أخفض من الوسطي العالمي الذي هو ٥٠٠ دولار . وفي عدد من البـلاد الافريقية نجد الوسطي فيها أخفض من ١٠٠ دولار . وقـــد يكون من الصعب حساب الدخول في مناطق يلعب فيهـا اقتصاد المعيشة الدور

الأساسي دوماً . ولا يمتد التخلف فقط على المتحررين من الاستعمار حديثاً ، بل على بلاد مستقلة منذ الأزل كالصين والتايلاند وشبه جزيرة العرب وإيران، الخ .) وكل أفريقية عدا جنوبي أفريقية ، وكل آسيا الموسمية ، عدا اليابان ، وكل أمريكا اللاتينية ، عدا الارجنتين ، متخلفة على درجات مختلفة .

وأسباب هذا التخلف عديدة . وأكثرها يقيناً هي :

١ — تأخر في التطور من عدة قرون لايمكن تعويضه في بضع سنوات .

٢ — البنيات الاجتماعية غير المتكيفة ، مع فقدان أو عدم كفاية المحركين المنشطين ورؤوس الأموال .

٣ — الاقتصاد القديم البالي القائم على الزراعة بصورة أساسية .

٤ — الدورات التجارية والاستثمارات المالية التي تكون في أيدي الدول الأجنبية الصناعية التي تشهر أحياناً بأنها « استعمار جديد » .

٥ — الديمغرافية السريعة .

وقد ظهرت هذه الأخيرة فجأة في القرن العشرين . ويمكن أن يذكر بين أسبابها انتهاء الحروب المحلية والمجاعات ، إمكانات جديدة للاستخدام والمواصلات ، إنابة الطب الحديث مناب قدامى العرافين الشافين ، والكيمياء الصيدلانية التي ساعدت على معالجة الجماهير . وزاد التناسل ، وبخاصة تراجعت وفاة الأطفال العظيمة . ومن هنا خرج فائض شبه عام في الولادات على الوفيات وزيادة تتجاوز غالباً ٢٪ ، وحتى ٣٪ من السكان في العام . غير أن الموارد لاتنمو بنفس الوتيرة ، ومن هنا يتأتى خطر تضخم مستحكم لهذه الحالة . بل ومن الممكن الكلام ، في بعض الأحوال ، عن « بلاد في طريق التخلف » .

إن المجاعة الكوكبية والحروب المعوضة سيكونان المستقبل القريب نسبياً إذا لم تنقلب هذه الوتيرة إما برفع سد أمام مد السكان ، لأن بعض البلاد النادرة ، كاليابان ، دخلت في هذا الطريق الذي أخرته في بلاد أخرى القوميـــات والوراثات العقلية ، واما بتنمية الاقتصادات المحلية بسرعة .

إن فقر معظم الدول الجديدة لا يسمح لها بالانسحاب من التخلف بجهودها الوحيدة بوتيرة لائقة . ومن هنا يخرج اللجوء إلى المساعدة الأجنبية تحت شكل منح أو قروض على الأموال العامة ، والمساعدات بالأشخاص بارسال الفنيين والاستثمارات الفردية الخاصة . وتدخلت هيئات دولية كالبنك الدولي للاعمار والتنمية (B.I.R.D) ومختلف فروع منظمة الأمم المتحدة . ولكن الدول كانت لها الدور الهام . فمن ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥ وظفت الولايات المتحدة ٢٥ مليون دولار في البلاد المتخلفة ، وبخاصة في أمريكا اللاتينية وفي آسيا .

وتأتي فرنسا مباشرة بعد في هذا الطريق : فقد وظفت ٧٧٦٧٠٠٠ دولار في الدور نفسه . ويأتي جهدها أول جهد بالنسبة إلى ثروتها وعدد سكانها : ٢,٢٪ من الدخل القومي الفرنسي ، بينما بذل الولايات المتحدة يعادل ٩٪ من دخلها القومي . وقد انفصل عن فرنسا ٤٣٠٠٠ فرنسي للمعونة الفنية ، منهم ٢٩٠٠٠ للتعليم .

وكانت هذه المساعدة مستعملة الى ٩٠٪ منها في منطقة الفرنك . وهذه المنطقة هي إرث النظام الجمركي القديم في المستعمرات ثم في الاتحاد الفرنسي ولكنها تلعب اليوم بشكل واسع لصالح الدول التي أصبحت مستقلة : أفريقية الفرنسية سابقاً ، مقاطعات ماوراء البحار وبلاد ماوراء البحار .

والعملات في هذه المجموعة قابلة للتبادل تماماً . والتسويات مع الخارج تنسق وتقاص ، وما زالت توجد بعض التفضيلات الثنائية الجانب . وهكذا مازال يحافظ على الاقتصادات الضعيفة . حتى أن بعض البلاد ، التي خرجت من منطقة الفرنك مثل مالي وغينة ، تفكر بالدخول فيها ثانية .

وحاولت فرنسا في هذه السنوات الاخيرة أن تنقل قسماً من حملها إلى شركائها في السوق المشتركة وتنوع استخدامه . وما زالت المعونه إلى المتخلفين تحتل أكثر من ١و٥٪ من الدخل القومي الفرنسي ، و٧٠٪ من المساعدة تذهب نحو بلاد منطقة الفرنك .

وهنالك مظهر آخر للنضال ضـــد التخلف وهو إعداد خطط محلية وانشاء هيئات تعاونية وتابعة للدولة لتنفيذها . وتلجأ معظم الحكومات إلى المساعدة الأجنبية وإلى التحويل الداخلي . وقد اعتمد بعضها بادىء ذي بدء على تجنيد الدولة للقوى المنتجة ، من نوع شيوعي ، مع مساعدة الاتحاد السوفياتي أو الصين ، وسعتها محدودة ضيقة ، ولكنها لاتخلو من مفعول أو أثر . وحسبما تكون العقائدية ، إن لم يكن التطبيـــق ، معتمدة على هذا النظـــام أو ذاك ، تبدو الدول الجديدة ليبراليـــة أو اشتراكية .

المظاهر العالمية

ولا ترجع هذه الاختلافات في « العقائد » إلى ثروة البـلاد أو إلى فقرها ، ولا إلى حالتها الاجتماعية ، بل إلى التكوين الثقافي للفئة الموجهة مصطبغة بالماركسية أو غير مصطبغة . ومن هنا يخرج التعاطف مؤكداً كثيراً أو قليلاً مع الشرق أو الغرب وأحياناً ، كما في أفريقية السوداء، تخرج التجمعات والمعارضات . وفي الواقع ، مامن أحد من الموجهين

اللهم إلا في بلد شيوعي بشكل واضح مثل فيت ـ نام الشمالية ، بطرح بحرية المعونات من أي مكان أتت ، شريطة أن تكون مفيدة . ومن هنا تخرج تغيرات الموقف تبعاً للظروف . وليست مع ذلك حكرة « البلاد السائرة في طريق التنمية » ولكنها ضرورية لها تقريباً .

لا لأن الاستقلال خديعة . ولكن الواقع هو أن إمكان استخدام مثل هذه الحرية يبرهن على ذلك . ومن المؤكد أن معظم الدول الفتية المدارية في العالم الثالث (تعبير فقد قيمته) في الحالة الحاضرة هي في حالة انحطاط وضعف حيال الدول الكبرى البكر في المنطقة المعتدلة الشمالية : الولايات المتحدة ، أوربه ، الاتحاد السوفياتي ، الصين ، اليابان . وان العالم الاستعماري سابقاً سيظل عالماً تابعاً ما لم يبلغ مستوى القرن العشرين من وجهة نظر رباعية : إقتصادية ، مالية ، فنية وثقافية .

وما زالت هذه البلاد بعيدة عن ذلك ، لأنه لايمكن الصعود من قاع القرون في بضع سنوات . ولكن بعضهـــا ، بفضل الطبيعة والتنظيم الطيب ، تبدو أنها تستطيع التقدم بسرعة .

وهناك عقبة للتنمية وهي كثرة الحدود . ولا شك في أن دولاً واسعة مثل الهند وأندونيسيا ذات امكانيـــة جغرافية تؤمن تقدمها في حدودها إذا سمحت الوحدة والنظم (المؤسسات) بذلك .

ولكن كثيراً من الدول الجديدة تبدو محكوماً عليها ، بصغرها وطبيعتها القاسية وضعف سكانها ، بالتبعية طويلا للدول الشمالية أو لجيرانها، اللهم إلا إذا تغطت بكرامة في ركودها . لقد « تبلقنت » افريقيه على عكس تيار العالم . وإن الفيروس القومي، الذي أتت به أوربة ويعود اليها اليوم ، قد عدى الدول الجديدة . والشعارات القومية سهلة على

الموجهين لتحويل الرأي عن الصعوبات الداخلية والسماح لنمو الجيش ، سند السلطة وأحياناً خرابها . إن الصوفية الوطنية هي واسطة من وسائط صناعة الوحدة المحلية ، ولكنها تخاطر بخلق خلافات وتمنع من تشكل المجموعات الكبرى الوحيدة القابلة للحياة في حالة العالم الحاضرة .

إن صغر الكوكب بوسائط المواصلات الحديثة غير مستعد للعزلة . وإن حواجز المحيطات والصحارى والغابة العذراء قد أخضعت على أيدي الملاحين من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، ومن ثم على أيدي المكتشفين في القرن التاسع عشر . وزالت نهائياً بالخطوط الحديدية والطرق المعبدة ؛ والطائرة اليوم ، والصواريخ بعد قليل ، تلغي المسافات وتقرب الشعوب . ومنظمة الأمم المتحدة مقدمة متواضعة بعد ، لحكومة الكوكب . والدول الحديثة المنبثقة عن الخلاص من الاستعمار وجدت فيها مكانها . وكان هذا الاخاء ضرورياً لإزالة العرقية وعقدة النقص . وبقيت المساواة على الاقل ظاهراً ريثما تنتظم شروط الحياة المادية والفكر وتتوحد ويستطيع الناس السير بحق بخطوة واحد « نحو الازمنة الافضل » .

الفصل الثاني

العلاقات بين الشرق والغرب

نهاية الأحلاف

(١٩٤٥ ــ ١٩٤٧)

لقد انعقد في بوتسدام ، من ١٧ تموز الى ٢ آب ١٩٤٥ ، أول مؤتمر دولي بعد الحرب ، وفي الواقع ، آخر اللقاءات الكبرى لـ « ذروة » زمن الحرب ، ووجب انتظار عشرة أعوام ليرى من جديد اجتماع مماثل للكبار وفي المستوى نفسه .

لم تدع فرنسا الى المؤتمر : لأنها لم تستعد مكانتها بعد ، وحضرت بريطانيا ـ العظمى ، ولكن تشرشل ، أثناء الاعمال ، ترك المكان للميجر اتلي . وظاهر الامر ، لم يتغير شيء ، فقد تابع العمالي الاول وبيفن في وزارة الشؤون الخارجية الخط الذي رسمه تشرشل . ولكن الدفع لم يكن نفسه ، بواقع الرجال ، وأيضاً بواقع أن الامة البريطانية ، تحت دافع العماليين الذين رفعتهم الى السلطة لذلك ، كرست ما بقي لها من طاقة للقيام بثورة اقتصادية واجتماعية حولت ، خلال فترة من الزمن ، الانكليز عن العالم . وبعد قليل ، صرحت بريطانيا العظمى بعدم المشاركة : ففي شباط ١٩٤٧ ، أعلنت حكومتها بأنها غير قادرة على دعم الحكومة اليونانية . وفي ذلك اليوم ، القت الامبراطورية

المتغطرسة الصولجان رسمياً . ومن قبل ، ترك ممثلوها في بوتسدام الادوار الاولى لستالين وترومان .

ولم يحل كبير شيء في هذا المؤتمر . فقد استعجل الامريكيون بوضع النقطة النهائية للحرب . وأبدى ستالين قليلاً من العجلة لخلق شيء قطعي حيث يوجد ربح منتظر . وتقرر إنشاء « مجلس وزراء الشؤون الخارجية » ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، بريطانيا العظمى ، الصين وفرنسا ، ليقوم بأعداد معاهدات السلام مع الدول التابعة لألمانيا وهي : ايطاليا ، هونغاريا ، بلغاريا ، رومانيا ، فنلانده .

أما المعاهدة مع المانيا فستحضر فيما بعد . ولم يتفاهم إلا على التعويضات ، على أن تترك للاتحاد السوفياتي حصة الأسد التي كانت أيضاً حصة الفقير . وقد دعم الانغلو – ساكسون ، في مؤتمر السلام ، ضم الاتحاد السوفياتي لكونيغسبرغ وقسم من بروسيا الشرقية . وقبلوا بألا تعتبر الأراضي ، الواقعة في شرقي نهري الأودر والنايس ، جزءاً من المنطقة السوفياتية ، وأن يعهد بإدارتها موقتاً الى بولونيا ، وكان ستالين يعرف فضائل الموقت !

وأثار مصير رومانيا وبلغاريا صداماً يصور مستقبلاً قريباً . وكان الانكليز والامريكيون يشكون من أن السوفياتيين يمارسون فيها السلطة وحدهم ، دون أن يسمحوا للسكان بأن يضعوا لأنفسهم نظماً ديموقراطية ، ودون أن يتركوا لأعضاء البعثات الحليفة وسائل ممارسة وظيفتهم ، حتى ولا حق التجول : ويقال « إن ستاراً حديدياً » أسدل حولهم ، كما أكد تشرشل . ولم تنته الحرب في الشرق الأقصى ، ولم تمض ثلاثة أشهر على انتهائها في اوربة إلا وظهرت الصيغة التي تعبر بعد

قليل عن انفصال الحلفاء الى معسكرين ، وكل معسكر يضم جزءاً من الذين كسبت الحرب ضدهم .

أما الآن ، فلا يظهر الانفصال ، لأنه ، إلا في بعض الاحوال الثانوية ، لا يجر الى خلاف . وانطلق الكبيران العظيمان الحاميان في مشاريعهما ، حتى أصبح الصـــدام بينهما شبه مستحيل ، وعلى الأقل في الحـــال .

ماذا يريد الامريكيون ؟ تسريح الجيش ؟ إنهـــم يسرحونه : و « الاولاد » (الجنود) يعودون إلى بلادهم . وإعطاء العالم برلماناً للشعوب ؟ من ٢٥ نيسان إلى ٢٦ حزيران ١٩٤٥ ، وضع مؤتمر سان فرانسيسكو نظم منظمة الأمم المتحدة التي عقدت جلستها التدشينية في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٦ . وتهمهم آسيا أكثر بكثير من أوربة . وعليهم تقع مسؤولية « تربية » اليابان من جديد . وفي الصين كان مبعوثوهم الخاصون يحاولون بعناد أن يوفقوا بين الشيوعيين وحكومة تشانغ ـ كاي ـ تشيك. وقد خصص الجنرال مارشل لذلك سنة ١٩٤٦ . وكان يراد كثيراً ، في واشنطون ، وضع حد لما اعتبر آخر مرحلة من الحرب العالمية الثانية .

وكان موقف ستالين معارضاً . فهو لم يعلن الثورة العالمية ، ولا توسع الشيوعية ، ولكن أعماله ذهبت في هذا الاتجاه . فقد زاد الاتحاد السوفياتي رقعة أرضه في الغرب والشرق : وكان الدولة الوحيدة التي خرجت أرضياً موسعة بالخلاف . وكانت معاهدات السلام ، التي وقعت في باريس ، في ١٠ شباط ١٩٤٧ ، مع حلفاء المانيا الخمسة ، كذلك، فرصاً لامتداد سطح الشيوعية . وفيما يتعلق بايطاليا ، دعم ستالين مطاليب يوغوسلافيا الشيوعية في تريستا . وفي بوتسدام طالب بسيادة دولية مشتركة (كوندومنيوم) على ليبيا ، وكان ذلك منه أول محاولة لوضع

قدمه في أفريقية . وفي رومانيا ، وبلغـــاريا ، وهونغاريا ، خولت المعاهدات الاتحاد السوفياتي القدرة على الحفاظ « الى أجل غير مسمى » على جنود الاحتلال ، والحاق الاقتصاد بواسطة « شركات مختلطة » ، وفوق كل شيء ، رغم أن ذلك لم يكن مكتوباً في أي مكان ، تمكن الحزب الشيوعي السوفياتي من مساعدة الاحزاب الشقيقة الرومانية والبلغارية والهونغارية على الاستيلاء على السلطة .

ومع **بولونيا** ، بدت العملية دقيقة كثيراً : فقد وجدت حكومة بولونية في المنفى في لندن . وفي حزيران ١٩٤٥ ، قبل الانغلو ـ ساكسون بتجربة « حكومة موقتة بولونية لوحدة وطنيـــة » ، ولم يستطع ديها « بولونيو لندن » أن يلعبوا فيها الادور الرهـائن . أما « بولونيو موسكو » فقد كانت الجيوش السوفياتية تدعمهم بقوة ، واستطاعوا شيئاً فشيئاً السيطرة على السلطة والرأي . وأعطتهم انتخابات ١٩ كانون الثاني ١٩٤٧ أكثرية ساحقة .

وفي **تشيكوسلوفاكيا** ، احتل الشيوعيون ، مواقع قوية (٣٨ ٪ من أصوات انتخابات أيار ١٩٤٦) . وخيب الغربيون منذ قليل رجاء بنيش ، فعقد حلفاً وثيقاً مع الاتحاد السوفياتي ونادى بالتضامن السلافي ، وكان الاشتراكي **فيرلنغو** ، رئيس مجلس الوزراء ، « رفيق طريق » الشيوعيين .

وفي **يوغوسلافيا** ، أقام تيتو ، دون عناء ، السلطة الشيوعية : فمنذ ١٩٤٤ ، سحبت الحكومة البريطانية دعمها للجنرال ميهايلوفيتش لتعطيه الى زعيم الانصار الشيوعيين .

وفي **اليونان** ، استعرت الحرب الاهلية . فهل دفـع ستالين الشيوعيين اليونانيين الى حمل السلاح ؟ من الممكن أنهم عملوا بأنفسهم أو بدافـع

من الشيوعيين اليوغوسلافيين والبلغاريين ولكن انتصارهم كان على الاقل انتصاراً سوفياتياً .

واتضحت تطلعات الاتحاد السوفياتي على تركيا في الاشهر الأخيرة من الحرب . وفي يالطا ، طالب ستالين بالاشراف على المضايق . ولم يقترح ، في شهر آب وايلول ١٩٤٦ ، بأن تكون المضايق مفتوحة للجميع ، كما أوحى ترومان ، بل محمية من قبل تركيا والاتحاد السوفياتي معاً . وفسخ في آذار ١٩٤٥ المعاهدة السوفياتية ـ التركية لعام ١٩٣٥ وطالب بأراضي تركية كانت قديماً تابعة للامبراطورية الروسية .

وفي ايران ، رفض السوفياتيون الجلاء المسبق للجيوش الاجنبية الذي كانت تطالب به الحكومة ، وعجلوا الامور ، ودعوا الى تأليف « جمهورية أذربيجان المستقلة » على أيدي شيوعيي حزب توديه و « جمهورية شعبية كردية » في غرب ايران . حتى إنهم استطاعوا أن يفرضوا وجود ثلاثة شيوعيين في الحكومة المركزية . وكان رد الفعل البريطاني شديداً ، في آب ١٩٤٦ ، حتى تخلى السوفياتيون ، وحافظت ايران على سلامتها الارضية .

وفي الصين ، كانت سياسة ستالين غامضـــة . لقد نهبت الجيوش السوفياتية بجد مانشوريا . وعندما اجلت عنها ، تركت المكان للجيوش الشيوعية ، بالرغم من احتجاجات تشانغ ـ كاي ـ تشيك . ومر كل شيء كما لو كان يفكر في موسكو بأن يجعل من مانشوريا دولة مستقلة ديموقراطية شعبية . ووجدت العاطفة نفسها عندما دعا ستالين ، في تموز ١٩٤٩ ، كاوكانغ ، نائب ماو ، إلى مانشوريا ووقع معه معاهدة . وشهدت السنون نفسها محاولات تقـــارب بين منغوليا الخارجية تحت السيطرة السوفياتية ، ومونغوليا الداخلية .

وفي سين ـ كيانغ الغربية ، كانت الاقليات القازاك والقرغيز وغيرها هدفاً لدعاية مدعومة . فهل وضع ستالين مشروعاً لتجزئة جزئية للصين ؟

وفي ١٩٤٥ أو في ١٩٤٦ ، لايعلم ، نصح الشيوعيين الصينيين بالا يعاودوا فتح الحرب الاهلية . ووقع نفسه ، في آب ١٩٤٥ ، معاهدة مع تشانغ ـ كاي ـ تشيك ، وأقام لديه سفيراً حتى انتصار ماو . ولم يتخل عن الشيوعيين الصينيين الذين كانوا لايريدون الانفصال عنه ، ولكنه لم يعتقد بانتصارهم . وكان يخشى إثارة رد فعل أمريكيا . ونصح للسبب نفسه شيوعيي فرنسا وايطاليا بعدم القيام بالثورة ، وشجعهم على الوصول إلى السلطة بطريقة « حصان طرواده » وذهبت المحاولات التي تابعها الامريكيون في الصين في هذا الاتجاه . ولو نجحت لكان التطور نفسه في بكين وفارسوفيا (وارسو) أو براغ وربما كان هذا مشروع ستالين . فماذا كان يفكر ماو ؟ لقد قبل بالمفاوضة مع الحكومة الصينية تحت الحماية الامريكية ، ولكنه بدا صعباً شديداً . ومع ذلك ، فان تشانغ ـ كاي ـ تشيك ، بالرغم من الضغوط الامريكية احبط العملية .

وهكذا كان ستالين يوسع رقعة الشيوعية حول الاتحاد السوفياتي مستخدماً معاً وسائل الدولة السوفياتية والوسائل التي يتصرف بها باعتباره زعيماً غير منازع وقوياً ، رغم أنه كان دون صفة ، لجميع الاحزاب الشيوعية في العالم . وساعده هذا الارتباط على تغطية فتوحاته ، تحت ظواهر حركة عفوية نحو الشيوعية ، وارتبك الرد عليه . وكانت مقاومة الغربيين لهذا التقدم تافهة أو عدماً . وفي الصين ، ذهب امتناعهم حتى المجاملة . ولم يلق الدفع السوفياتي عقبات جديدة إلا في ايران وفي اليونان

حيث اصطدم ببريطانيا العظمى ؛ وفي المانيا ، حيث اضطر تضامن زمن الحرب الحلفاء السابقين على تسوية مصير المغلوب معاً .

وهل كان روزفلت يفكر بحذف القضية الالمانية باجبار المانيا على الاستسلام دون شرط ؟ ان الحوادث تكذب هذا الحساب . لقد كانت المانيا محرومة من كل سلطة يمكن أن تتكلم باسمها ، أو تأخذ باسمها تعهدات ، ولذا وقعت بكاملها على عاتق الحلفاء . وكان عليهم أن يقرروا كل شيء من أجلها ، نيابة عنها ، وحتى نظامها الداخلي . وطالبت فرنسا بتجزئتها : وذلك بأن تنفصل الضفة اليسرى لنهر الراين وتوضع تحت الاشراف السياسي لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى وبلجيكا والبلاد المنخفضة ؛ وان تقسم إلى بلاد لتصبح دولاً مستقلة . وان «تدول» منطقة الرور ؛ وان تلحق السار بفرنسا . وهكذا تقطع الالمانية بشكل واسع في الغرب كما هي الحال في الشرق . وما يبقى منها يدار بسلطة اتحادية لامركزية جداً .

وإذا استثنينا السار ، والرور ، جزئياً ، فان الانكليز والامريكيين لم يقبلوا المقترحات الفرنسية . وكان الفرنسيون يعتمدون على المساندة السوفياتية ؛ ولهذا وقعت جزئيا معاهدة ١٩٤٤ ، ولكن ، أثناء انعقاد مؤتمر باريس ، في تموز ١٩٤٦ ، خرج مولوتوف أخيراً من صمته ، وافاد بانه ضد النظريات الفرنسية من أجل وحدة المانيا السياسية . واعتبرت الحكومة الفرنسية اتحاد الثلاثة الكبار ضدها . وهذه هي النقطة الوحيدة التي كانوا على اتفاق بشأنها .

ومنذ ذلك الحين بدأ المظهر المزدوج للسياسة السوفياتية حيال المانيا . لقد ضمت حكومة موسكو أو أعطت إلى بولونيا أجزاء واسعة من الأرض الألمانية . وفي مؤتمر باريس عارضت توحيد المانيا الاقتصادي ، وأجبرت

الانكليز والامريكيين على العمل بشكل منفصل وعلى توحيد منطقتيهما اقتصادياً ، مقدمة لتقسيم ألمانيا . وفي الوقت نفسه ، قالت عن نفسها بأنها نصير الوحدة الألمانية ، وحكومة مركزية ألمانية . وشهرت بانشاء « المنطقة المزدوجة » كمحاولة تجزئة . وهكذا احتفظت بوسيلة تأثير على الرأي الألماني بغية « رابالو » جديدة : وكان على الألمان أن يعلموا بأن لهم في السوفياتيين حماة لوحدتهم القومية .

وعقد وزراء الشؤون الخارجية أيضاً مؤتمراً بشأن ألمانيا والنمسا في موسكو ، في شهري آذار ونيسان ١٩٤٧ ، ثم في لندن ، في تشرين الثاني وكانون الأول . ولم يكن ذلك إلا توكيداً وتعميقاً لاختلافاتهم . وعندما انعقد آخر هــذه المؤتمرات انتهى زمن الأحلاف . وبدأت « الحرب الباردة » .

الحرب الباردة (١٩٤٧ - ١٩٥٣)

في ١٢ آذار ١٩٤٧ ، طلب ترومان إلى الكونغرس اعتمادات لمساعدة اليونان ، لأن حكومتها لاتستطيع مجابهة الثورة الشيوعية . وكانت تركيا أيضاً بحاجة إلى نجدة ، وكان من اللازم تصور مد هذا الدعم إلى بلاد أخرى ، لأن الولايات المتحدة رأت من واجبها أن تساعد الشعوب على ألا تقع تحت نير « الانظمة الجمعية » ، كما حصل ذلك لشعوب رومانيا وبلغاريا وبولونيا . وقال ترومان :

« أعتقد أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تكون في دعم الشعوب الحرة التي تقاوم محاولات الاستعباد التي تكون بواقع أقليات مسلحة أو ضغوط أجنبية . وإني لأعتقد بأنه يجب علينا أن نساعد الشعوب الحرة على أن تصنع قدرها بأيديها الخاصة . إنني أعتقد أن مساعدتنا يجب أن

تقوم بصورة أساسية على دعم اقتصادي ومالي ، لاغنى عنـــه للاستقرار الاقتصادي والحياة سياسية منسجمة ومنتظمة ...

« إن بذور الانظمة الجمعيـة يغذيها البؤس والعدم . وتنمو وتتكاثر في تربة الفقر والفوضى الفاحلة . وتبلغ نموهـا الأقصى عندمـا يموت أمل الشعب بحياة أفضل . وهذا الأمل ، هو مايجب إبقاؤه على قيد الحياة . »

وهذه العقيدة هي « مذهب ترومان » . وكان نصه مفاجأة . فقد اعترف ليون بلوم بأنه لم يتذوق « التدليل على الخطاب ولا كلماته » وتمنى « لو تقطع مرة واحدة ، من الجهة الاخرى للاطلسي ، الصلة مع العادة الخطرة في في الدلالة بنفس النعوت على النظام الهتلري والنظام السوفياتي » .

والواقع أن الأمريكيين حكموا منذ ذلك الحين باستحالة إدخال الحكومة السوفياتية شريكاً يمكن أن يوثق به في سيادة مشتركة من اثنين أو أربعة ، وكان توسع الشيوعية يخيفهم .

وكان الاتحاد السوفياتي يحتفظ تحت الاعلام بجنود عظيمـة ، وتوارى من جديد عن الأنظار ، وكانت الأخبار التي تتسلل تكشف بأن لا أمل من الآمال المعقودة أثناء الحرب في رؤية نظمه وسياسته الداخلية تتطور نحو أشكال أكثر ليبرالية قد تحقق .

وكان تيتو سيداً في يوغوسلافيا . وكان رئيس حكومة براغ غوتفالد شيوعياً ، ورئيس حكومة وارسو بييروت شيوعياً أيضاً ورئيس حكومة صوفيا ، ديميتروف ، أميناً سابقاً للكومنترن (الشيوعية الدولية) . وفي هونغاريا ، بدأ الشيوعيون بالقضاء على حزب صغـار الملاك ، وكانت له الأكثرية في البلاد . وفي رومانيـا ، لم يكن غروتزا وتاتاريسكو إلا صورتين . وقد أوقف مانيو ، في تموز ، مثل بيتكوف في بلغاريا في ٥ حزيران . وبدا أن فنلانده كانت غـير قادرة على الخروج من الفلك

الشيوعي ، ووجد شيوعيون في حكومتها . ونجت إيران بمشقة من الفتح من الداخل . وحاول الشيوعيون أن يثيروا الثورات بين الشعب التركي. وفي اليونان ، بدا انتصار الثوار .

وفي الصين ، أخذت الجيوش الحكومية ين ـ نغان ، العاصمة الشيوعية ، في ١٩ آذار ١٩٤٧ ، ولكن القوات الشيوعية عاودت تجمعها . وفي ٣٠ حزيران قامت بهجوم لم يتوقف إلا بالنصر .

وكان التهديد يثقل أوربة الغربية . فقد طالب الشيوعيون بالمشاركة في الاشراف الدولي على الرور ، وقادهم هذا إلى الراين . وفي ايطاليا أبعد دوغاسبيري الشيوعيين عن الحكومة ، ولكن حزبهم ظل قوياً في البرلمان بفضل دعم اشتراكيي نينتي ، بفضل الاتحاد العام الايطالي للعمل . وفي فرنسا كان الحزب الشيوعي أول الأحزاب من حيث عدد أفراده ونفوذه الانتخابي . وكان زعيمه نائباً لرئيس مجلس الوزراء ، وأحد موجهيه وزيراً للدفاع الوطني . وفي ٥ أيار ١٩٤٧ ، أخرج الوزراء الشيوعيون من الحكومة ، ولكن ، في ٢٣ أيار ، امتنع ممثل فرنسا في منظمة الامم المتحدة عن التصويت بشأن اليونان ، رافضاً شجب المساعدة التي أتت بها الدول المجاورة على حدودها للمتمردين .

إلا أن الحكومة البريطانية وحدها الفت جبهة ، ولكن العبء كان ثقيلاً جداً . وفي شباط ١٩٤٧ ، اعلمت حكومة صاحب الجلالة واشنطون وآثينة بانهـــا مضطرة مادياً إلى التخلي عن اليونان ، في أبعد حد في الاول من نيسان .

وإذا لم يقم أحد مقامها ، فان بلداً آخر سيقع في تبعية الاتحاد السوفياتي ، ومعه ، قبل قليل ، شرقي البحر المتوسط كله . وعندئذ قام الامريكيون حقاً بعبء العالم الحر وتوجيهه . وفي هذا التاريخ لم يكن

مسموحاً لهم أكثر من التفكير بأنهم في دخولهم الحرب لا يقومون في السياسة العالمية إلا بغارة موقتة .

ويعتبر عادةً مشروع مارشل تطبيقاً ا « مذهب ترمان » . وفي الاصل، كان يستجيب لارادات مختلفة بصورة محسوسة .

في ٥ حزيران ١٩٤٧ ، صرح الجنرال مارشل بـــأن على الولايات المتحدة أن تساعد العالم لاستعادة صحته الاقتصادية ؛ وقال أيضاً ان الحكومات والاحزاب التي تحاول أن تطيل البؤس البشري لتجني منـه ربحاً ما ستصطدم بمقاومة الولايات المتحدة ، ولكنه أكد أيضاً بأن هذا العمل من الولايات المتحدة ليس « موجهاً ضد أي بلد ولا أي مذهب » . وأجاب على سؤال وجهه بيقن بأن أوربة كما كان يفهمها كانت « منطقة في غرب آسيا التي تضم الاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى معاً » .

وعندئذ ، في ١٧ و ١٨ حزيران ، اقترح وزير الشؤون الخارجية الفرنسي والبريطاني على مولوتوف أن يدرس معها هذه القضايا .

قبل ستالين . وافتتح المؤتمر في باريس في ٢٧ حزيران . وبدا خلال فترة ، كما كتب ترومان في مذكراتـه « أن الاقتراح الاقتصادي لم تكن له نتيجة واحدة وهي النهوض الاقتصـادي ، بل أيضاً رفع الستار الحديدي » . ولم يفقد الوهم تماماً في دمج الاتحاد السوفياتي في وحدة الامم ، وكانت خطـة مارشل آخر ظاهرة للفكر الروزفلتي . وقـد أعطاها رفض ستالين معنى آخر .

وجدة الاقتراح لاتعني عرض مساعـــدة اقتصادية لاوربة لان الامريكيين كانوا يساعدون الشعوب الاوربية منذ سنوات . ولكنهم كانوا يريدون أن يعطو منذ الآن إلى هذا العرض طابعاً عضوياً أكثر من قبل ولم يجيبوا الطلبات الفردية المقدمة من الحكومات . وكان على هذه الحكومات أن تتفق لتنسيق تنمية بلادها وتقديم مجموع حاجاتها معاً .

وهذا ماجعل ستالين يتراجع . لقد رحب بالمساعدة الامريكية ، ولكنه لم يكن ليريد أياً كان يتدخل في الشؤون الاقتصادية الداخليـة للاتحاد السوفياتي ، أو حتى يستعـلم بشكل دقيق عنها . وطلب مولوتوف بأن كل دولة حرة في تقديم قائمة بحاجاتها ، دون الاهتمام بالتنسيق الدولي ودون قبول تحقيق ولا مناقشة بشأنها .

ورفض الفرنسيون والبريطانيون ، ولا شك لان الامريكيين لم يقبلوا بأن تكون مساعدتهم بهذا الثمن . وكانت القطيعة .

ثم جاءت مرحلة ثانية فأسقطت الاوهام . لقد دعت حكومتا لندن وباريس الحكومات الاوربية ، إلا حكومة أسبانيا ، أن تمثل نفسها في مؤتمر يفتتح في باريس في ١٢ تموز . ومال اليوغوسلافيون والتشيكوسلوفاكيون والبولونيون والرومانيون إلى إجابة الدعوة الفرنسية ـ البريطانية بقبول حسن . حتى ان حكومتي براغ ووارسو (فارسوفيا) أرسلتا قبولهما .

وفجأة ، تدخل ستالين : فقد دعيت الحكومات التابعة لاتباع مثل الاتحاد السوفياتي . وبخاصة ، دعي غوتفالد ومازاريك إلى موسكو وعنفا كثيراً . وخضع الجميع . وهكذا تم الفصل بين الاوربتين .

وبرهنت ترددات حكومات « الحزام السوفياتي » على أن خضوعها للاتحاد السوفياتي لم يكن لا شاملا ولا مخلصاً أو غير قابل للردع . فقد أوشك الاتصال الطويل مع بلاد الغرب أن يشجع رغباتها بالاستقلال . وكذلك ، بمتابعة طريقة « حصان طروادة » زمناً طويلا ، ومحاولة لعب لعبة الديموقراطية البرلمانية ، أو شك شيوعيو البلاد الرأسمالية أن يتذوقوا حل التسوية ، ويفقدوا الروح الثورية ، وعاطفة « الامية الكادحة » التي كان أساسها التعلق غير المشروط من قبل كل حزب بالاتحاد السوفياتي .

وقد استطاع ستالين أن يحكم على حق بان الوقت قد حان لرد الفعل وأمر بقلب كامل لـ « الخط العام » .

دعا فجأة إلى بولونيا ، في ٢٢ ايلول ١٩٤٧ ، مندوبي تسعة أحزاب شيوعية أوربية : الاتحاد السوفياتي ، بلغاريا، هونغاريا ، بولونيا ، رومانيا، تشكيوسلوفاكيا ، يوغوسلافيا ، إيطاليا وفرنسا .

عرف جدانوف السياسة الجديدة بقوله : ان القوى التي تعمل على الصعيد العالمي انقسمت إلى معسكرين أساسين : المعسكر الامبريالي والمناوى للديموقراطية ، والمعسكر المناوى للامبريالية والديموقراطي ؛ وان الاشتراكيين « من نوع بلوم في فرنسا ، أتلي وبيفن في انكلترا ، شوماخر في المانيا ، رينيو في النمسا ، ساراغات في ايطاليا » ليسو إلا « أعوانا أمناء للامبرياليين » ، يخفون سياسة الاشقياء وقطاع الطرق [...] تحت قناع الديموقراطية والاسلوب الاشتراكي » .

واتهم ، بعده ، كاردلي وجيلاس رفقاءهما في فرنسا وايطاليا بأنهم لم يعرفوا الاستيلاء على السلطة بالقوة عندما كانت الظروف مواتية ، وافسدوا على هذا النحو توسع الشيوعية في اوربة .

إلى أي شيء أدى تحليل جدانوف ونقد اليوغوسلافيين المر العنيف ؟ أولا ، إلى تشكيل هيئة مشتركة ، مكتب استعلامات الاحزاب الشيوعية ، أو « كومنفورم » ثبت مقره في بلغراد ، وأعلن عن دوره بأنه كان أفضل تنسيق للعمل على المقياس الدولي . وبالتالي ، إلى ترك الوسائل السلمية والطرق البرلمانية ، وأذن إلى استئناف النضال ضد « اشتراكيي اليمين » .

ولم يمض شهران إلا وقام الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون الايطاليون باضرابات كبرى ثورية أدت إلى الهزيمة ، والشقاق النقابي ، وعزلة الاحزاب الشيوعية ، وباختصار إلى قلة وسائل تأثير الشيوعيين على الرأي

بل وأيضاً إلى شد أواصر نظام الحزب ، وصلابة الاقتناع ، وتمتين روابط كل حزب بموسكو

ولم تكن هذه السياسة قاصرة على أوربة الرأسمالية . ففي شهر أيار ١٩٤٨ ، قام الشيوعيون بثورة مسلحة في ماليزيا ؛ وفي أيلول، كان دور أندونيسيا ، ودولتي حيدر أباد ومادراس ، في الهند ، ثم دولة الفيليبين، وفي بداية ١٩٤٩ ، دولة بورمانيا .

وفي الهند الصينية ، اتسعت الحرب ، وما من شك في أن الشيوعيين كانوا محرضي الفيت — منه . ففي كل شهر ، كانت جيوش ماوتسه — تونغ تلقى نجاحات جديدة ، وفي الاول من تشرين الاول ١٩٤٩ ، دخلت الصين في المعسكر « الاشتراكي » . وفي ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، اجتازت قوات كوريا الشمالية خط العرض ٣٨ وانثالت على كوريا الجنوبية واضطرت الجيوش الامريكية الى الجلاء تماماً تقريباً . وفي تشرين الثاني جاء « متطوعون » صينيون لنجدة رفقائهم الكوريين .

وفي الطرف الاوربي للقارة العجوز ، أخذت المجابهة بين المعسكرين في المانيا شكلا دراميا .

وبعد مؤتمر لندن في ١٩٤٧ ، اتفق الغربيون على أن يهيئوا معاً نظام المناطق الغربية الثلاث في المانيا جواباً لذلك ، غادر السوفياتيون ، في آذار ١٩٤٧ ، المنظمات الرباعية في برلين وأقاموا اشرافاً عسكرياً على جميع العلاقات بين القطاعات الغربية من برلين والمناطق الغربية من المانيا . وأخيراً ، عندما وضعت العملة الجديدة ، الدويتش مارك في التداول في المناطق الثلاث في الغرب ، نظموا ، في آخر حزيران ، الحصار التام للقطاعات الغربية الثلاثة في برلين . ولولا « الجسر الجوي » الذي ساعد على تموين المدينة لكان من اللازم التنازل وترك برلين للسوفياتيين ، أو الجوء الى القوة .

وعندما رفع الحصار ، في أيار ١٩٤٩ ، قبيل المؤتمر الختامي لوزراء الشؤون الخارجية ، الذي عقـــد في باريس ، في أيار وحزيران ١٩٤٩ ، دون نتيجة ، أصبحت ألمانيا الغربية وألمانيـا الشرقية دولتين منفصلتين . وكان لكل واحدة منها عملتها . وحضر دستور جمهورية ألمانيا الاتحادية . وفي ٤ آب ١٩٤٩ ، أجريت انتخابات عامة في ألمانيا الغربية . وفي إيلول انتخب تيؤدور هويس رئيساً للجمهورية ، واديناور مستشاراً . وفي تشرين الاول ، أنشأ السوفياتيون جمهورية ديموقراطية ألمانية ، وخولت ظاهراً استقلالاً واسعاً وفي الواقع ، كانت أكثر الدول التابعة رقابة وبشكل وثيق .

وفي الوقت نفسه ، وبدافع سوفياتي ، دشنت الحركة الشيوعية الدولية حملات الاضطراب العالمية التي تؤلف طريقة من الطرق المميزة لـ « الحرب الباردة » . وفي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ، قطعت المنظمات النقابية الغربية العلاقات مع « الاتحاد النقابي العالمي » ، ولكن هذا الاتحاد حافظ في صفوفه على الاتحاد العام للعمل: .C.G.T الفرنسي وعلى .C.G.I.L ، وظل أداة ناجعة للعمل في العالم الحر . وفي آب ١٩٤٨ ، انعقد في فروكلاو (بريسلاو) ، مؤتمر عالمي للمفكرين من أجل السلام وولد حركة مناضلي السلام التي قامت ، في آذار ١٩٥٠ مع « نداء ستوكهولم » بحملة توقيعات واسعة لصالح « التحريم غير المشروط للسلاح الذري » فحصلت على ٥٠٠ مليون توقيـع ، وطالبت ، في تشرين الثاني ١٩٥٠ ، بميثاق سلام بين الخمسة الكبار والاعتراف بالصين الشيوعية . ومن الممكن أن فكر ستالين لحظة بأن يجعل من مجلس السلم العالمي نوعاً من منظمة منافسة لمنظمة الامم المتحدة : فقد ذكر هذا المشروع في اجتماع للمجلس العالمي ، في تشرين الثاني ١٩٥١ في فينا .

وهكذا ، قامت الكتلة الشيوعية خلال خمسة أعوام بهجوم عام ضد العالم الحر .

والحادث المميز : هو أن هذا الكفاح كان يحوم على محيط القـــارة العجوز . أما أفريقيـــة وأمريكا اللاتينية فقد تركتا جانباً ، أو ما يشبه ذلك .

ونظم المعسكران نفسيهما واشتدا لهذه المعركة . وعندئذ أصبح المعسكر الاشتراكي كتلة بحق . وعادت الايام الحالكة في الاتحـاد السوفيـاتي . وتدنى مستوى الحياة إلى الدرك الاسفل ، وعاث الارهاب من جديد وبأقوى مما كان . وكان المفكرون و « الآفاقيون » (اليهود) بخاصة هدفاً لذلك . لان أفكار الغرب يمكن أن تؤثر بهم بسهولة أكثر من غيرهم . وفي هونغاريا وبولونيا ورومانيا « صفى » الشيوعيون سياسياً حلفاءهم الاشتراكيين وسجنوا بعضهم ، وأجبروا الآخرين على الموافقة على صهر الحزبين العماليين في حزب واحد ، باسم وحدة الطبقة الكادحـة . وفي تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت مواقع الاشتراكيين متينة بخاصة ، أخذت القضية طوراً مسرحياً . وأثار الشيوعيون ، باعتبارهم سادة النقابات ، حركة شعبية وقاموا بانقلاب ، « ضربة براغ » . وجاء زورين ، النائب الاول لوزير الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفياتي ، لتوجيه العملية .

ووجهت الضربة الغاشمة ضد يوغوسلافيا . فقد أصبح تيتو مشبوهاً : ووجد مرات عديدة على خلاف مع ستالين ، من قبل ، أثنـاء الحرب . وكان الحزب الشيوعي اليوغوسلافي يقيم علاقات متلاحقة جداً مع الشيوعيين الغربيين ، كما كان الدعم الاساسي للشيوعيين اليونان في ثورة اعتبرها ستالين مجرد مغامرة . وكان تيتو يناصر فكرة اتحاد بلقاني يمكن أن يزيد في البلقان وفي العالم الشيوعي نفوذ يوغوسلافيا ونفوذه .

ولا شيء من هذا أدى إلى نتيجة مادام الحزب الشيوعي اليوغوسلافي معتبراً كابن بكر للكنيسة الشيوعية . ولكن عندما أصبح مشبوهاً دار

كل شيء ضده ، وأصبح كل شيء دليلاً على الخيانة . ففي أي تاريخ حدث هذا التغيير ؟ على مايبدو أن ستالين قرر أن يرد تيتو إلى حظيرة العقل عندما قرر انشاء الكومنفورم . ولهذا دفع اليوغوسلافيين إلى التشهير بعدم الكفاءة الثورية عند الايطاليين والفرنسيين .

وهكذا لم يستطع تيتو ، في وقت المحنة ، أن يعتمد على مساندتهم . ولهذا أيضاً اختيرت بلغراد لتكون مقراً للكومنفورم : وأقيمت ، في العاصمة اليوغوسلافية ، أركان شيوعية موالية للاتحاد السوفياتي .

فتح السوفياتيون العداء في ١٨ آذار . وأخبروا تيتو بأنهم سيستدعون فنييهم العسكريين من يوغوسلافيا . وتلا ذلك مراسلة سرية . لم يثر تيتو ، وأعرب عن خيبة أمله ، وحزنه ، وإرادته في أن يبقى أميناً لسياسة التضامن مع الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بالرغم من الشقاق. ومع ذلك ، رفض الشخوص إلى بخارست للمثول امام الكومنفورم ، وكان يعلم ما كان ينتظره إذا ما غادر البلاد .

وفي ٢٨ حزيران ١٩٤٨ ، وضع الكومنفورم قراراً عن « الحالة في الحزب الشيوعي في يوغوسلافيا » . وكان شجباً ، ولكنه شجب جماعي . ولم يكن السوفياتيون وحدهم في وضع هذه الانتقادات ، أو في القاء نداء إلى « القوات السليمة للحزب الشيوعي في يوغوسلافيا » « لتفرض خطاً جديداً للتوجيه » . بل وقفت كافة الاحزاب الشيوعية ضد الانحراف اليوغوسلافي .

وقال ستالين بأن ماعليه إلا أن يومىء باصبعه الصغيرة فلا يوجد تيتو . وما انهار تيتو . وتخلى عنه شيوعيو البلاد الأخرى . وغمر الحصار الاقتصادي، الذي قرر ضده ، البلاد في أحلك الشقاء . ومع ذلك فان ستالين كان يعتمد قبل كل شيء على « القوى السليمة » في الحزب

الشيوعي اليوغوسلافي ، على الشيوعيين اليوغوسلافيين الذين كانت مساعدتهم مقبولة عنده . وهكذا كان يعمل دوماً ضد الموجهين المقاومين في أقسام (شعب) الأممية : كان يثير ضدهم معارضين ، وكانت الكومنترون تلفظ تحكيمها لصالح هؤلاء المعارضين . وفي هذه المرة ، كانت قضيته مع واحد منهم ، ولم يكن هذا زعيما لحزب فحسب ، بل رئيس دولة ، وتحت تصرفه « وسائط إدارية » تعطل ضرر المعارضين ، وقد استخدمها دون أن يرتجف .

وجر شجب تيتو تطهيراً شديداً في أحزاب البلاد التابعة ، وتحت الاتهام بـ « التيتية » ، أوقف وحوكم وسجن وشنق أحياناً كل من أبدوا بعض الصفات « الموضوعية » للخيانة . وهكذا هلك الألباني دزوزديه ، والهونغاري راجك ، والبلغاري كوستوف ، والتشيكي سلانسكي ، وطرح البولوني غومولكا والرومانية آنا بوكر في السجن . وقوى زوال هؤلاء المعارضين المتوقعين والارهاب الذي نشره حذفهم تماسك الأحزاب وخضوعها لموسكو . وساد نوع من الحمى الجنونية من طرف لآخر في العالم الشيوعي ، من براغ الى بكين .

أما « معسكر الامبريالية » ، فلم يبد نفس الصفة الكثيفة . ومع ذلك ففي هذه السنوات نظم « الغرب » نفسه .

في آذار ١٩٤٨ تعهدت فرنسا وبريطانيا العظمى وبلاد البينيلوكس الثلاثة ، بميثاق بروكسل ، بأن تتعاون في حال عدوان . ومع ذلك فقد شعر الموقعون بضرورة تشكيل سياسة دفاعية أوسع . وطلبوا مساعدة الولايات المتحدة . وهكذا بدىء باعداد ميثاق الاطلسي ، الموقع في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، الذي ولد منظمة معاهدة شمالي الاطلسي ، هذه المعاهدة التي لم يخطىء السوفياتيون ، ولا شك ، عندما قالوا في مذكرة

احتجاجهم ، بأنها مناقضة المعاهدة الانكليزية ـ السوفياتية لعام ١٩٤٢ ، والمعاهدة الفرنسية ـ السوفياتية لعام ١٩٤٤ ، واتفاقات يالطا واتفاقات بوتسدام .

وفي الطرف الآخر من القارة أقامت الولايات المتحدة منظمة معاهدة جنوب شرقي آسيا ووقع الميثاق في مانيلا ، في ٨ ايلول ١٩٥٤ ، وضم الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، فرنسا ، أوستراليا ، زيلاندة الجديدة ، الفيليبين ، الباكستان ، التايلاند وانتهى تطويق الاتحاد السوفياتي نحو الجنوب بابرام حلف بغداد ، في ١٩٥٥ ، الذي ضم أولاً الباكستان ، إيران ، العراق ، تركيا وبريطانيا العظمى ، وأصبح في آب ١٩٥٩ ، بعد إنفكاك العراق ، منظمة المعاهدة المركزية ، سنتو .

وفي الحقيقة ، كانت الدائرة ضعيفة سريعة العطب وبخاصة في المركز فمن هذه التجمعات الاقليمية الواسعة ، ثبت واحد منها . فقد تطورت أوربه الغربية بسرعة نحو الوحدة بتراكم نظم (مؤسسات) : المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي (C.E.C.E.) التي انشئت بتطبيق خطة مارشل وشملت ١٧ بلداً ؛ مجلس أوربا (١٩٤٩) ؛ الاسرة الاوربيـــة للفحم والفولاذ (C.E.C.A.) التي اقترحت في العام ١٩٥٠ وتبنيت في ١٩٥١ و ١٩٥٢ . وابتداء من ١٩٥١ تم تصور إنشـاء جيش أوربي أوحت به الحكومة الفرنسية للوقاية من عودة تسلح ألمانيا الذي اقترحـــه الامريكيون ، لأن « الفراغ العسكري » في أوربه كان مخيفاً منذ افتتـــاح الحرب في كوريا .

وحتى ذلك الحين ، كان الامريكيون يعتقدون بأنهم قادرون بالتهديد والقيام بتدابير انتقامية ذرية على تثبيط كل عـدوان آت من الكتلة الشيوعية . وأوضحت حرب كوريا الاستحالة المعنوية بالمبـــادرة الى

الأسلحة الغامضة لتسوية خلاف موضعي . وشوهد ذلك بالهياج الذي أثاره عند الحلفاء الاوروبيين للولايات المتحدة وهم ترومان في استخدام محتمل للقنبلة الذرية في كوريا . وكان يحسن أن ترد الى الأسلحة التقليدية أهميتها .

والواقع ، أن السوفياتيين حاولوا بالحال أن ينزعوا من الاميركيين حصر السلاح الذري . وفي بوتسدام ، في تموز ١٩٤٥ ، عندما أعلم ترومان بأن الجيش الاميركي يتصرف بالقنابل الذرية ، لم يبد ستالين هياجاً ولا فضولاً ، كما لو لم يفهم أهمية الأمر . وفي الواقع ، كان السوفياتيون يقومون من قبل باصطياد العلماء الألمان تماماً كالاميركيين، وبعد ستة أسابيع ، في ايلول ١٩٤٥ ، كشفت مغادرة موظف في سفارة الاتحاد السوفياتي في كندا عن أن السوفياتيين كانوا يحاولون منذ سنوات الاستيلاء على السر الذري .

وكانت سياستهم في المادة الذرية طوال هذا الدور مزدوجة . فقد كانوا يحاولون أن يحرموا الولايات المتحدة من الافادة من تسلحها الذري . وفي منظمة الامم المتحدة ، التي وافقت جمعيتها ، في كانون الثاني١٩٤٦ ، على إنشاء « لجنة الطاقة الذرية » التي ستعمل حتى بداية ١٩٤٨ ، طلبوا وضع القنبلة خارج القانون ، وتدمير الأكداس ، وإبلاغ السر الذري إلى جميع أعضاء منظمة الامم المتحدة . وكانت هذه الاجراءات ، العامة ظاهراً، تهدف بصورة أساسية الى الولايات المتحدة ، وبصورة ثانوية الىبريطانيا العظمى وكندا . وفي الوقت نفسه ، كانت حركة السلم تقوم بحملة عبر العالم لتقيم بادىء بدء استنكار العالم ضد استعمال محتمل الوقوع للسلاح الذري .

ولم يمنع هذا الشجب للحرب النووية السوفياتيين من محاولة تسليح أنفسهم ذرياً . ففي أي تاريخ أصبحوا سادة الطاقة الذرية ؟ أكد

مولوتوف ، في ٦ تشرين الثاني ، من قبل ، بأن « سر القنبلة الذرية لم يكن واحداً منذ زمن طويل » . هل كان هذا منه كلام دعاية ؟ وهل كان يلمح إلى اكتشافات أصيلة للعلماء الذين يشتغلون في الاتحاد السوفياتي ، أو إلى كشوف من نوع آخر يقوم بها الجواسيس الذين ، أكدت فضائحهم الكثيرة المدوية على وجودها ، منذ قضية أوتاوا ؟ وفي ٢٣ ايلول ١٩٤٩ ، علم بأن قنبلة ذرية فجرت في الاتحاد السوفياتي . وبدأ سباق التسلح النووي .

وحافظ الامريكيون على تقدمهم ، ولكنهم خسروا حصر السلاح الذري . وتم التوصل إلى « توازن الارهاب » .

الانفراج (١٩٥٤ — ١٩٥٧)

في تموز ١٩٥٢ ظهر في موسكو آخر مؤلف لستالين وهو : « القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي » . وخصص فيه فصل لـ « حتمية الحروب بين البلاد الرأسمالية » .

إذا قارينا هذه النظرية من التحليل الذي قام به جدانوف ، في ايلول ١٩٤٧ ، لأخذت معناها كاملاً . إنها تعني بأنه يجب على الشيوعيين ألا يحفظوا ، كخط موجه ، الفكرة في أن العالم مقسم الى كتلتين حكم عليها بالمجابهة ، وربما بالسلاح ، بل أن يحلوا محلها نظرية أخرى تقول بأن إحدى الكتلتين ، الكتلة الرأسمالية ، مفعمة بالتناقضات العتيدة التي يحسن تفجيرها ، لأن الحكومات الرأسمالية إذا عارض بعضها بعضاً وضعفت بهذه الخلافات ، تحولت عن كل عدوان ضد الاتحاد السوفياتي وسهلت الثورة في بلادها الخاصة التي يحكم عليها سباق التسلح والحرب بالبؤس والشقاء .

وفي المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، عندما صنف خروتشوف مختلف البلاد إلى ثلاث فئات : البلاد الاشتراكية ؛ « البلاد المؤيدة للسلام » أو « البلاد المحايدة » (الهند ، برمانيا ، اندونيسيا ، افغانستان ، مصر ، سورية ، فنلاندة ، والنمسا) ؛ وأخيراً الفئة التي تؤلفها الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، فرنسا ، المانيا الغربية ، اليابان ، ايطاليا ، تركيا ، إيران والباكستان ، لم يفعل شيئاً سوى أنه أعطى تعبيراً حسياً مشخصاً لنظرية ستالين .

ولم يذكر ستالين هذه النظرية إلا ليبرر عقائدياً « المنعطف » الذي تهيأ وتمّ من قبل ولا شك .

ومن الممكن أن يفكر بأن الافتراح الذي قدمه ، في ٢٣ حزيران ١٩٥١ ، جاكوب مالك ، بالبدء بمحادثات بين المتحاربين في كوريا بغية الهدنة ، لا يخضع إلا للاهتمام بإنهاء العمليات العسكرية الباهظة التي توشك أن تدور بشكل سيء ؛ ولكن المفاوضات ، التي بدأت في ١٠ تموز ، دلت على أن الجانب الشيوعي لم يكن مستعجلاً في الانتهاء الى شيء . ومع ذلك فقد عاود مالك الصيغة القديمة في « امكانية التعايش السلمي للنظامين » . وفي ٣٠ تشرين الأول ١٩٥١ ، أخبرت جريدة « البرافدا » عن اجتماع لجنة مبادهة للدعوة إلى مؤتمر اقتصادي دولي يعقد في موسكو ، في نيسان ١٩٥٢ . وموضوعه ، إقامة « تعاون سلمي [...] بتنمية العلاقات الاقتصادية » ، يعبر عن الرغبة في قطع طرق الحرب الباردة . وربما يجب إعطاء المعنى نفسه لمؤتمر الشعوب من أجل السلام الذي دعي إلى فينّا ، في ١٢ كانون الأول ١٩٥٢ ، لدراسة الوسائط التي تسود فيها « المفاوضة السلمية » على « حلول القوة » . وعلى كل حال ، كان معنى المذكرة التي قدمها ستالين فجأة إلى الغربيين ، في ١٠ آذار ١٩٥٢ ، في موضوع المانيا ، واضحاً . فقد رسم فيها الخطوط الكبرى لمعاهدة

سلام مع الارادة الواضحة في خلق عواطف تعاطف حيال الاتحاد السوفياتي في الرأي الالماني . الم يقرأ فيها أن « الحقوق المدنية والسياسية يجب أن تحول [...] إلى قدامى العسكريين في الجيش الألماني ، ومن ضمنهم الضباط والجنرالات ، إلى قدامى النازيين ، باستثناء من عوقبوا على الجرائم التي ارتكبوها ، ليسمح لهم بالمشاركة في إشادة المانيا ديموقراطية ومسالمة » ؟

وهذا يعني مرة ثانية محاولة لأن يرى الألمان بأن سياسته في روح معاهدة رابالو والميثاق الجرماني – السوفياتي تبقى ممكنة .

وعجلت وفاة ستالين بقلب سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية . وكان خلفاؤه بحاجة ، لتدعيم سلطتهم ، إلى توتر أقل في الخارج ؛ وفضلاً عن ذلك أرخوا الوثاق الذي كان يشده الحزب والدولة على الشعب .

وفي مأتم ستالين ، أكد مالنكوف اخلاص السوفياتيين لـ « المبادىء اللينينية – الستالينية في امكانية التعايش الممدد والتنافس السلمي بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي » . وفي ٣٠ آذار ١٩٥٣ ، صرح شو ان – لاي ، لدى عودته من موسكو ، بأنه يقبل بأن يعهد بالجنود الصينيين الذين وقعوا أسرى في كوريا إلى دولة محايدة وأن يتركوا أحراراً في اختيار مصيرهم . وأمكن استئناف المفاوضات ، ووقع اتفاق الهدنة في ٢٧ تموز ١٩٥٣ .

وانطلاقاً من هذا التاريخ كثرت الحركات والفعال التي يمكن أن يعتقد بها بأن السياسة السوفياتية قد تغيرت . وفي ٤ آب ١٩٥٣ ، قبل السوفياتيون اقتراح مؤتمر أربعة لتسوية القضية الألمانية . وانعقد في برلين من ٢٥ كانون الثاني إلى ١٨ شباط ١٩٥٤ . ولم يسوّ فيه شيء . ولكن « الحوار » استؤنف .

وفي ١٩٥٤ ، بدا أن الدبلوماسية السوفياتيـة كانت مهتمة بموضوع واحد . وكان ذلك نصراً للاتحاد السوفياتي ، في ٢١ تموز ، عندما أبرمت اتفاقات جونيف التي كرست تقسيم فيت ـ نام .

ومع ذلك ، علق السوفياتيون كثيراً من الأهمية على أوربة . فقـد تجسد مشروع جيش اوربي . وتهيـــأت خطة أسرة الدفاع الاوربيـة (C. E. D.) . واستعمل خلفاء ستالين وسائط تقليدية لاخفاق المشروع ، طوراً بتقديم تحالف الاتحاد السوفياتي إلى فرنسا ، ضد عودة نشأة الخطر الألماني – كما فعل مالنكوف في ٨ آب ١٩٥٣ – ، وطوراً ، بتمثيلهم إلى الالمان ، في مذكرة ١٥ آب ١٩٥٣ ، ان أسرة الدفاع الاوربيـة تجعل من المانيا الغربية دولة تابعـة ، وتستعبد شعبها لسنوات طويلة . وفي فرنسا ، فشل انضمام الشيوعيين والوطنيين المشروع ، في ٣٠ آب ، ولكن اتفاقات لندن ، في ٣ تشرين الاول ، وباريس ، في ٢٣ تشرين الاول ، كرست دخول المانيا في منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي .

وبصفـــة رد انتقامي ، الغى السوفياتيون ، في ٧ أيار ١٩٥٥ ، المعاهدة الانكليزية – السوفياتية لعام ١٩٤٢ والمعاهدة الموقعة مع فرنسا في كانون الاول ١٩٤٤ . وللاجابة على انشاء المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي (O. E. C. E.) ، ألفوا ، في كانون الثاني ١٩٤٩ ، مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (الكوميكون) ، ووقعوا كذلك ، في أيار ١٩٥٥ ، في وارسو ، معاهدة التعاون العسكري بين البلاد الاشتراكية .

وهناك فعلان آخران يتعلقـان بهـذا الموضوع . ففي ١١ نيسان ١٩٥٥ ، شخص المستشار النمساوي إلى موسكو ، وتعهـد السوفياتيون بتوقيـع المعاهدة المتناقش بهـا منذ ثمانية أعوام . وفي ١٥ أيار ١٩٥٥ ،

عادت النمسا من جديد دولة مستقلة ، محدودة في مبادهاتها بتعهد بالحياد ، ولكنها مستقلة ذاتياً .

وبصورة موازية ، دعا السوفياتيون آديناور للشخوص إلى موسكو ، في ايلول ١٩٥٥ : وقبل الاتحاد السوفياتي إقامة علاقات دبلوماسية مع جمهورية المانيا الاتحادية . وظل الغربيون يجهلون سلطات بانكو[1] . ومرة أخرى حاول السوفياتيون أن يمحوا الانطباع الذي تركته الحملات ضد اعادة التسلح الالماني و « المطالبين بالثأر » في بون .

وكان التجديد في مكان آخر ، ولم يكن في انعقاد مؤتمر جديد للأربعة ، في جونيف ، في تموز ١٩٥٥ ، وعلى مستوى رؤساء الحكومات في هذه المرة ، لأنه لم يخرج من هـذا المؤتمر شيء حسي ، باستثناء الترخيص الذي أعطي للامريكيين في نشر مجلة في موسكو ، ولزم كل الفن الشيوعي في الدعاية للاعتقاد بظهور « روح جونيف » ، بل في رحلة بولغانين وخروتشوف وميكويان إلى يوغوسلافيا ، في أيار ١٩٤٥ .

ان فكرة معاودة عقد العلاقات مع اليوغوسلافيين يرجع تاريخها إلى ما بعد وفاة ستالين ، وربما كان المبادء في ذلك بيريا الذي أخذ عليه ، بعد « تصفيته » بأنه تواسل مع رانكوفيتش . وإذا كان الامر على هذه الحال فان من حذفوه استأنفوا برنامجه ، لأنهم أكثروا العروض باتجاه بلغراد ، وكفوا عن الهجوم على تيتو ، ودفعوا الامتيازات حتى أنهم قدموا علناً اعتذارهم : وعندما جاء خروتشوف إلى بلغراد صرح بأن مسؤولية القطيعة تقع على الاتحاد السوفياتي . و الصحيح أنه حمّل

---

(١) بانكو Pankow حي في برلين على نهر البانكه ، وهنا يعني مقر حكومة جمهورية المانيا الديموقراطية .

بيريا (« المصفى » في تموز ١٩٥٣) ، هذا الخطأ ، وهذا ما جعل تيتو يرفع كتفيه . واستؤنفت العلاقات بترحيب شيوعيي العالم كله : حتى ان ماو تسه - تونغ ، الذي لم يقم بعد علاقات دبلوماسية بين الصين الشيوعية ويوغوسلافيا ، أرسل سفيراً إلى بلغراد وهدايا إلى تيتو .

وبهذه المصالحة ، حاول السوفياتيون أن يعيدوا وحدة الكتلة الشيوعية ،بل وأيضاً أن يجردوا تيتو من السياسة الخارجية التي جعلت منه أحد محركي لعبة السياسة العالمية ويأخذوها لحسابهم من جديد .

وأراد تيتو بعد شجبه أن يظهر بأنه لم يكن خادم الامبرياليين فظل بعيداً عن الغربيين ، مضيفاً على هذا النحو حصاراً آخر طوعياً إلى الحصار السوفياتي . ولكن عوز يوغوسلافيا ، الذي كان يهدد بتهديم سلطته ، اضطره إلى قبول المساعدة من الغرب ، وبخاصة من الولايات المتحدة . وأخيراً ، ودون التخلي عن المبادىء ، وضع سياسة أصيلة .

لقد تقرب من الاشتراكيين الغربيين مفيداً من باطل ملامح أوجده بينهم شجب موسكو له والظاهر القومي والديموقراطي لاشتراكيته . وفي كانون الاول ١٩٥٢ ، أرسل بعثة طيبة الارادة إلى الهند وبرمانيا . وفي ١٩٥٤ ، قام بهذه الرحلة بدوره ، ثم ذهب إلى مصر وتكلم عن « مناطق سلام » خارجة عن الكتلتين .

وتبع السوفياتيون اليوغوسلافيين في هذين الطريقين . وقدموا عروضاً إلى الاشتراكيين الغربيين . واستقبل بولغانين وخروتشوف ، في لندن ، من قبل العماليين الذين ردوا لهما الزيارة ؛ وأرسل الاشتراكيون الفرنسيون أيضاً وفداً إلى موسكو ، في نيسان ١٩٥٦ ، بينما قام غي موليه وكريستيان بينو ، رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الشؤون الخارجية ،

في شهر أيار ، برحلة رسمية إلى الاتحاد السوفياتي . وفي المؤتمر العشرين ، أشار خروتشوف إلى « الاهمية الاستثنائية » لوحدة عمل الشيوعيين والاشتراكيين ، وليجعلها سهلة ، أكد بأن اللينينية لا تنفي « الطريق البرلماني » كوسيلة للمرور إلى الاشتراكية .

وحتى ١٩٥٤ ، لم يكن من الشيوعيين إلا التهكم اللاذع والشتم لزعماء الدول التابعة سابقاً وتقول عن نفسها بأنها محايدة . وكانت الطريقة التعبوية المتبعة آنذاك ألا يترك الاعتقاد بأن من لم يكن شيوعياً يمكنه أن يوجه ضربة إلى الامبريالية والرأسمالية . وإذا فعل ذلك ، فليخدع الجماهير ، وبهذا الواقع ، يكون عدواً أخطر ممن يزعم كفاحهم .

وقام الصينيون بمبادهة التقارب مع المحايدين ، ففي نيسان ١٩٥٤ ، وقعت حكومتا بكين ونيودلهي اتفاقاً على التيبت . وذكرت ديباجته النقاط الخمس للتعايش السلمي . وقامت الحكومتان مع حكومة برمانيا التي انضمت اليها بحملة لصالح هذا الميثاق الجديد . وكانت النتيجة ، المؤتمر الأفرو آسي الذي عقد في نيسان ١٩٥٥ ، في باندونغ ، حيث لعب شو ان ـ لاي الأدوار الاولى بين نهرو وجمال عبد الناصر . وتم التقارب باسم السلام وعدم تدخل الحكومات في القضايا الداخلية للبلاد الاخرى ، وفي الشهر التالي ، اقترح السوفياتيون على جمال عبد الناصر أن يبيعوه أسلحة .

وكرست رحلة بولغانين وخروتشوف المسرحية إلى الهند وبرمانيا ، في تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٥٥ ، تبني الستراتيجية الجديدة : وهي أن العالم مقسم إلى ثلاث فرق ؛ وما على بلاد آسيا وافريقية وامريكا اللاتينية ، التي كانت طويلاً أو التي ظلت تابعة أو تدور في فلك الدول

الكبرى الغربيـة ، إلا أن تعلن عن نفسها بأنها « محايـدة » ، « غير ملتزمة » لاضعاف الكتلة الرأسمالية ؛ ومن الممكن التأثير عليها اما بالوسائط الرسمية للدولة السوفياتية ، واما بواسطة الاحزاب الشيوعية المحلية ، للذهاب بها نحو الشرق لمتابعة حركة الاستقلال التي تفصلها عن الغرب .

ومنذ ذلك الحين ، أتى السوفياتيون بمساندتهم لكل حركات الاستقلال في افريقية انطلاقاً من ١٩٥٦ (في آسيا ، سويت قضية الاستقلال فيها عملياً في هـذا التـاريخ) ، ولحركات الاستقلال في امريكا اللاتينية . وعندئذ دشنت الحكومة السوفياتية أيضاً سياستها في العون الاقتصـادي للبلاد المتخلفة النامية وأعطتها أهمية كبرى نفسية وسياسية بتركيزها على بعض البلاد التي لعبت دور الشاهد أو الدليل ، بتعلقها بانجازات مسرحية ، وبالقيام بضجة كبرى حولها .

وكان ذلك لكل من كان يتلقى ، من الشرق أو من الغرب ، شكر العالم الثالث . وأعطيت اشارة المنافسة في تموز ١٩٥٥ ، عندما عقدت الصفقة التي كشف عنها جمال عبد الناصر في ٢٧ ايلول : فقـد رفض الغربيون أن يبيعوا أسلحة إلى الحكومة المصرية ، فأبرمت اتفـاقاً مع تشيكوسلوفاكيا على أن تقـدم لها مصر القطن والرز مقابل تجهيزاتها بالاسلحة . فردت الحكومة الامريكية مقترحة على عبد النـاصر عونها لبناء السد العالي في اسوان . ولكنها ، في ١٩ تموز ١٩٥٦ ، ردت على ارسال الاسلحة السوفياتية والتشيكية إلى مصر ، وعلى اعلان خبر اجتماع كبار الحياد الثلاثة : تيتو ، نهرو ، عبد الناصر ، وأعلمت بأنها سحبت عرضها في تمويل السد العالي في اسوان : وبعـد عامين ، في خريف ١٩٥٨ ، قامت الحكومة السوفياتية مقامها بانشاء هذا السد .

وبدا للقضية معنى أكثر دلالة ، لا سيما وان الولايات المتحدة ، منذ آخر الحرب ، بدت بأنها الدولة المناوئة للاستعمار . فقد كان الامريكيون أوفياء في هذا لتقاليدهم التاريخية وللتشجيعات والوعود التي كان يغدقها الرئيس روزفلت ، ولذا كانوا يدعمون حركات استقلال الشعوب المستعمرة بدعم، في الحقيقة، معنوي أكثر منه مادي ، ومعطى بشكل سري ، لأن الدول الاستعمارية المعنية كانت حليفة الولايات المتحدة ؛ ولذا لم يكن من قبيل الصدفة أن تركت معاهدة شمالي الاطلسي خارجاً عن المنطقة التي نظمت أمنها ، الامتدادات الامبراطورية لبلجيكا وبريطانيا العظمى والبرتغال .

وفي هذه السنة ١٩٥٦ ، أي في الوقت الذي أبعد فيه البريطانيون والفرنسيون تقريباً تماماً عن الشرق الادنى ، ووجد فيه الامريكيون المجال رحباً ، اصطدموا بالمنافسة السوفياتية .

ومنذ الآن فصاعداً ، سيكون العالم الثالث ميداناً من الميادين المفضلة للمجابهة بين الشرق والغرب .

وجرت العادة في أن تنسب العودة إلى مناخ الحرب الباردة ، التي كانت عظيمة بخاصة في آخر ١٩٥٦ وفي ١٩٥٧ ، إلى الهزات الدرامية التي آثارها « الخلاص من الستالينية » في العالم الشيوعي . وقد عمل الموجهون السوفياتيون على إثارة « تناقضات » بين مختلف دول الكتلة الامبريالية ، دون أن يشكوا في أنهم كانوا يثيرون شيئاً منها في معسكرهم الخاص ، حتى وجد أن النظام الشيوعي كان على شفا الانهيار في هونغاريا ، وتزلزل على قاعدته في بولونيا . ووطدوا الحال بسرعة

باستعمال الشكل الاقوى ، فأثار ذلك في الغرب كله رد فعل شديداً لاسيا وأنه كان يتصور كثيراً بأن « الشيوعيين قد تغيروا » .

ومع ذلك ، فان هذه الحوادث كانت الحوادث الصحيحة المعاصرة لـ « حرب السويس » التي أظهرت التناقض بين سياسة الانفراج التي يطبقها السوفياتيون حيال بريطانيا العظمى وفرنسا ، وسياستهم الجديدة حيال العالم الثالث . ولم يترددوا بين الاثنتين ، واختاروا الثانية . فقد تلقت بريطانيا العظمى وفرنسا واسرائيل من موسكو ، في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، مذكرات مهددة يلمح فيها إلى إرسال قذائف ذرية موجهة . وكانت التورفيج وألمانيا والدانيمرك هدفاً لتهديدات مماثلة في بداية ١٩٥٧ . ومضى زمن « الانفراج » .

وفي ٥ كانون الثاني ١٩٥٧ ، سمح الكونغرس الامريكي للرئيس بأن يتدخل في الشرق الأوسط في حالة هجوم شيوعي « مباشر » ، وأن يساعد مالياً بلاد هذه المنطقة من العالم التي تقبل على هذا النحو بأن تكون محمية ضد عدوان شيوعي . وهذا ماسمي بـ « مذهب آيزنهاور » ، قبل عشرة أعوام ، في بداية الحرب الباردة .

التعايش السلمي (١٩٥٧ - ١٩٦٣)

في تشرين الثاني ١٩٥٧ ، وبمناسبة الذكرى السنوية لثورة تشرين الأول ١٩١٧ ، عقد ممثلو ٦٤ حزباً شيوعياً في موسكو أعظم اجتماع شيوعي منذ المؤتمر السابع للكومنترن في ١٩٣٥ . وعرف « قرار الـ ١٢ حزباً » « الخط العام » للحركة الشيوعية الدولية .

لقد أكد فيه أن « المبدأ الليليني في التعايش السلمي للنظامين » الذي

« تستجيب له المبادىء الخمسة التي عبرت عنها معاً جمهورية الصين الشعبية وجمهورية الهند ، والاحكام التي تبناها مؤتمر بلاد آسيا وأفريقيه في باندونغ » تؤلف « الأساس الراسخ الذي لايتزعزع للسياسة الخارجية في البلاد الاشتراكية » .

و تأكد فيه أيضاً أن « الاوساط الامبريالية العدوانية في الولايات المتحدة تريد بسياستها ، « سياسة حالات القوة » ، إقامة سيطرتها على معظم بلاد العالم » . وأنها أصبحت « مركز رد الفعل الرجعي العالمي وأقبح أعداء الجماهير الشعبية » ، وانها ترفض تخفيض التسلح ، وتحريم استخدام وصنع الاسلحة الذرية ، وانها تخلق « بؤرة » خطيرة للحرب في قلب أوربة » بمساعدة توليد الروح العسكرية في ألمانيا الغربية ، كما تخلق أيضاً تهديداً للسلام في الشرق الأدنى بـ « مذهب آيزنهاور — دلّس الشهير » ، وانها تخلق به مركزاً آخر في جنوب — شرقي آسيا مع « الكتلة العدوانية لمنظمة معاهدة حلف جنوب شرقي آسيا » .

ويبدو أن جميع الشيوعيين اتفقوا على هاتين النظريتين . وساد التفاهم ظاهراً .

لم يقدر الموجهون الصينيون التشهير بجرائم ستالين . والتقوا ، في هذه النقطة ، مع توريز في فرنسا ، ومع تولياتي في ايطاليا ، ولكنهم ، خضعوا مثلهما إن الـ « تشرين الأول » البولوني والثورة الهونغارية ، والاخطار التي تعرضها هذه الهزات للحركة الشيوعية ، مبررةً تحفظاتهم ، ساعدتهم على زيادة سلطتهم . فقد دعموا السوفياتيين في تدخلهم المسلح في هونغاريا ، ومن الممكن أنهم أرادوا ذلك منذ منعوا المكتب السياسي للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي من الاستسلام . وفي ٦ كانون الثاني ١٩٦٧ ، قطع

شو ان ـ لاي رحلة كان يقوم بها في الهند ليذهب إلى موسكو ، وفارسوفيا ، وبودابست ويظهر فيها بأوضح شكل تضامن الحزبين .

وقارب جاه الحزب الشيوعي آنذاك من سمت الرأس . وظهر الحزب الثاني للأممية مساوياً للأول ، وكان السوفياتيون بحاجة لمساندة سلطته ليؤمنوا سلطتهم ، وقد دلت رحلة شو ان ـ لاي على ذلك ، وصححوا في الاتجاه الذي دل عليه الصينيون انتقاداتهم حيال ستالين وعبادة الشخصية . وفي ١٥ تشرين الاول ١٩٥٧ ، تعهدوا ، باتفاق سري ، أن يقدموا للصين نموذجاً للقنبلة الذرية والمعلومات الفنية الضرورية لصنعها . وجاء ماو شخصياً إلى المؤتمر الشيوعي الكبير في تشرين الثاني ١٩٥٧ وسجل فيه نقاطاً . مجد تفوق ريح الشرق على ريح الغرب ، وعجز القنبلة الذرية عن ايقاف حركة البشرية نحو الاشتراكية ، لأنه سيبقى ، بعد حرب حرارية – نووية ، ما يكفي من الرجال لبناء المجتمع الجديد . وبهذا التواضع المخادع أشار إلى تفوق الحزب الشيوعي السوفياتي بواقع تجربة ثورية ، تجربة الاتحاد السوفياتي بواقع القوة التقنية (ألم يطلق من أرضه وبعلمائه ، في ٤ تشرين الاول ١٩٥٧ ، أول « سبوتنيك »، قمر تابع ،) ؟ واتخذ من هذا التفوق حجة ليؤكد أن معسكر البلاد الاشتراكية يلزمه رأس ، وأن الحركة الشيوعية يلزمها زعيم ، وهذا الرأس ، هو الاتحاد السوفياتي ، وهذا الزعيم ، حزبه الشيوعي .

يبدو اذن أن الاتفاق تام . وفي الواقع بدأ الخلاف . لأن الاعتراف للحزب الشيوعي السوفياتي في الاتحاد السوفياتي بدور الموجه نفر شيوعي بلغراد . ولم يوقع الوفد اليوغوسلافي القرار . وهكذا عمل ماو على اخفاق محاولة التقارب مع يوغوسلافيا . ثم ان الاعتراف للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بدور الزعيم ، يعني ، أيضاً ، المطالبة بأن تجد الحركة

الشيوعية الدولية بنية عضوية شبيهة ببنية الكومنتون ، مع هذا الفارق ، وهو ، ان الحزب الشيوعي السوفياتي في هذه المرة ، لا يستطيع فرض إرادته بشكل سهل كما في السابق . لقد قدم ماو التاج للسوفياتيين ، ولكن لينتزع منهم واقع السلطة . ولقد فهموا ذلك ، حتى ان خروتشوف ، في المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، رفض بأن تكون للحزب صفة الزعيم ، واكتفى بصفة الطليعة . وفي هذا التاريخ ، وبالرغم من أنه لم يتسرب شيء إلى الخارج ، قام النزاع بين الطرفين .

وفي آخر تموز ١٩٥٨ ، ذهب خروتشوف فجأة إلى بكين . وظن بأن القصد كان قضايا عسكرية ، لأن المارشال مالينوفسكي كان في الرحلة . وفعلاً ، في ٢٣ آب ، بدأت القوات الصينية بضرب جزر كيموي وماتسو مدة ستة أسابيع ، دون نتائج ملموسة . وبدا أن الحكومة الصينية كانت تتأهب لاستعادة فورموزا . ولا شك في أن الدعاية شهرت بالعدوان الامريكي — الفورموزي ، وان السوفياتيين لعبوا دور الحلفاء الاوفياء ، فشاركوا في التظاهرة بتأخر ملحوظ : ففي ٨ ايلول ١٩٥٨ ، كتب خروتشوف إلى آيزنهاور « بأن العدوان على الصين [...] إنما يكون عدواناً على الاتحاد السوفياتي ... » .

وأثار الموجهون الصينيون هذه الأزمة ليخلقوا في البلاد الحمى النفسية الجماعية التي هم بحاجة اليها لمشروع من طبيعة أخرى تماماً . وعجل خروتشوف ليحاول إيقاف جنون « الوثبة الكبرى إلى الامام » و « القومونات الشعبية » . ولم يخش سوء الظن الذي بسببه للشيوعية إخفاق هذه المحاولات وأكثر من ذلك أثرها على الفلاحين السوفياتيين من التهديد الذي تثقل عليهم به هذه التجارب الصينية فحسب ، بل كان يعلم أيضاً بأن هذه التجارب كانت موجهة ضد الهيمنة السوفياتية

على الحركة الشيوعية العالمية . وحاول ماو أن يذهب إلى أبعد مما عمل في الاتحاد السوفياتي في « إنشاء الشيوعية » ليبرر ترشيح الحزب الشيوعي الصيني و « رئيسه » لدور الطليعة والزعيم .

وتجاوز ماو اعتراضات خروتشوف ، ولكن السوفياتيين أعلموا الحكومة الصينية ، في ٢٠ حزيران ١٩٥٩ ، بأنهم لن يقدموا لها المعلومات الموعودة المتعلقة بالقنبلة الذرية ؛ وفي آب ١٩٥٩ ، في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني كان ماو ، الذي أعلن في كانون الاول ١٩٥٨ بأنه لن يطلب تجديد انتدابه لرئاسة الجمهورية ، هدفاً لهجوم مفاجىء قام به الماريشال بنغ ، عضو المكتب السياسي ، وكان يعمل على ما يبدو باتفاق مع خروتشوف . وعندما علم ماو بذلك دفع الضربة ، وحذف خصومه . ولما جاء خروتشوف إلى بكين ، للاحتفال بالذكرى العاشرة للنصر الشيوعي في الصين ، كان بينه وبين ماو محادثات ينقصها اللطف والوداعة ، ولم يرِ الرجلان الواحد الآخر بعد ذلك .

ومنذ آخر ١٩٥٧ ، كان السوفياتيون أقوياء بالجاه الذي خولهم إياه إطلاق أول قمر اصطناعي ، سبوتنيك ، وأقوياء أيضاً بموافقة وتجنيد مؤتمر الاحزاب الشيوعية لسياسة التعايش السلمي ، فاستعادوا حيال الغرب سياسة الابتسام . وفي ٢ تشرين الاول ١٩٥٧ ، اقترحوا على منظمة الأمم المتحدة ، بواسطة وزير الشؤون الخارجية البولوني ، راباكي ، أن تنشأ في اوروبة منطقة يحرم فيها تخزين الاسلحة النووية . وفي كانون الاول ١٩٥٧ ، وجهوا إلى جميع الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة مذكرة ليوحوا بانعقاد مؤتمر عام في جونيف لنزع السلاح ، هذا الاقتراح الذي سيتحول بعد قليل إلى إقتراح مؤتمر ذروة . وفي ٣١ آذار اعلموا بأنهم علقوا تجاربهم النووية .

وهذا الاندفاع في سبيل السلام لم تعاكسه فحسب الازمة التي أثارتها في الشرق الأدنى اضطرابات لبنان والثورة العراقية ، في تموز ١٩٥٨ ، بل أيضاً ، محاولات الصينيين على كيموي وماتسو ، في آب وايلول ، وكان هذا أول تداخل للخلاف الصيني — السوفياتي في العلاقات بين الشرق والغرب . ثم استؤنف بعد قليل ، وشوهد في جونيف تعاقب المؤتمرات الدولية : المؤتمر الدري ، مؤتمر ايقاف التجارب النووية ،مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية بشأن برلين ، في أيار — آب ١٩٥٩ . وشوهد ما هو أكثر من ذلك : ففي ايلول ، ذهب خروتشوف إلى الولايات المتحدة . وكانت محادثاته مع آيزنهاور في معسكر ديفيد دون نتيجة ، ولكن الشيوعيين تكلموا بوفرة عن « روح معسكر ديفيد » كما كانوا قد تكلموا عن « روح جونيف » .

وفي الوقت نفسه ، قبل خروتشوف أن يزور فرنسا ، وجاءها في آذار ونيسان ١٩٦٠ ، محاولاً في كلامه الضرب على الوتر المناوىء لألمانيا .

وبينما كان السوفياتيون يتابعون هذا العمل الذي يزيد في جاههم في العالم ويسهل « التوغل الشيوعي » ، أثارت الحكومة الصينية عمليات عسكرية ، ضعيفة الاهمية في الحقيقة ، ضد الهند حيث التجأ الدالاي — لاما ، في آذار ١٩٥٩ ، وكان ذلك ، في رأي السوفياتيين ، « لمنع نقص التوتر الدولي » و « تعقيد الحالة قبيل تبادل الزيارات بين الرئيس آيزنهاوز ونيكيتا خروتشوف » ، حسب عبارات بلاغ لوكالة تاس ، في ٩ إيلول ١٩٥٩ ، طبقها على من يستغلون في هذا الاتجاه « حادث الحدود الصينية — الهندية » ، ولكن الصينيين اعتبروا على حق بأنها تعنيهم .

وإلى نشر هذا البلاغ يصعدون بالوقت الذي أصبحت فيه الاختلافات بين الاحزاب الشقيقة عامة . وللجواب ، نشروا ، في نيسان

١٩٦٠ ، تحت عنوان « لتعش اللينينية » شجباً لـ « إعادة النظر الحديثة » ؛ وكان المظهر البغيض في نظرهم لهذه السياسة « التعايش السلمي » الذي كانوا مع ذلك محركيه الرسميين .

ولعب هذا الهجوم دوره في إخفاق مؤتمر الذروة الذي كان عليه أن يفتتح في باريس في ١٦ أيار ١٩٦٠ . وأفاد خروتشوف من طائرة أمريكية اسقطت فوق أراضي الاتحاد السوفياتي ، في مهمة تجسس فوتوغرافي جوي ، ليمنع انعقاد المؤتمر . ولكن هذا التفجير كان يؤلف قبل كل شيء جواباً لاتهامات الصينيين ويؤكد ضدهم سلطة الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي في داخل الحركة الشيوعية الدولية .

* * *

وبعد أن تخلص خروتشوف من المؤتمر حاول أن يرد الصينيين إلى العجز . هاجمهم فجأة ، في حزيران ١٩٦٠ ، في بخارست ، أثناء الاجتماع الدولي الذي كان المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الروماني حجة له . وطلب التصويت ، من ممثلي الاحزاب الشقيقة المندوبين لهذا المؤتمر ، على نص يشجب المواقف الصينية ، ولكن الصينيين تجنبوا الشجب وقرروا الدعوة لمؤتمر جديد . وعقد هذا المؤتمر في موسكو ، في تشرين الثاني ١٩٦٠ . وفي غضون ذلك استدعى السوفياتيون ، في شهر تموز ، خبراءهم من الصين .

وانتهى مؤتمر الـ « ٨١ حزباً » على تصويت إجماعي . ولم يكن هذا الاجماع إلا واجهة . لأن الخلاف تفاقم . وشجب الصينيون من جديد « التعايش السلمي » الذي يقود إلى الاستسلام أمام المساومة الامريكية بالحرب ويثبط عزيمة الثوريين في البلاد الرأسمالية ، ودعموا أيضاً ، وبكثير من القوة ، بأن محرك الثورة العالمية لم يكن الثورة المناوئة للرأسمالية التي يقوم بها العمال الاوربيون ، « المتبرجزون » كثيراً ، بل حركة التحرير القومي

للشعوب المستعمرة والنصف تابعة ، هـذه « المنطقـة المتوسطة » التي هي أيضاً « منطقة الزوابع » . ونجحوا في أن ضموا إلى نظرياتهم الالبانيين والكوريين والفيتناميين والاندونيسيين والاوستراليين وأكثرية اليابانيين ، وقسماً هاماً من الحزب الشيوعي في الهند .

وتهيأ الانفصال في الأممية وبدا بانها تبنت خط صدع له صفة عرقية .

واستمر الخلاف في دائرة مغلقة حتى المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، في تشرين الأول ١٩٦١ ، الذي غادره شوان – لاي جهاراً ، لأن خروتشوف سمح لنفسه بمهاجمة الرفاق الالبانيين علناً .

وليحذف السوفياتيون أهمية الانتقادات الصينية ، ضاعفوا الدعم الذي ساندوا به الحركات الثورات في البلاد المتخلفة . وفي ١٩٦٠ ، فتحوا في موسكو « جامعة صداقة الشعوب » لطلاب العالم الثالث ، وأصبحت هذه الجامعة جامعة لومومبا بعد قتل الزعيم الكونغولي في شباط ١٩٦١ . والثورة التي حدثت في الكونغو ، في ٦ تموز ١٩٦٠ ، بعد بضعة أيام على إعلان الاستقلال ، استرعت اهتمامهم إلى هذه النقطة وهي أن دبلوماسييهم سيطردون من ليؤبولدفيل . وفي أيلول ، ذهب خرتشوف شخصياً إلى منظمة الامم المتحدة . ودور الحذاء الذي ضرب به درجه مشهور كثيراً ، ولكنه أقل معنى من زيارته لحي هارلم ، وقد زاره كاسترو قبله ، وكان في ذلك اسهام لم يخل من تأثير في يقظة « القضية السوداء » .

وفي ١٨ آب ١٩٦٠ جاء إلى لاهافانا أول سفير سوفياتي كان من الممكن أن يرى في كوبا منذ ١٩٥٢ ، حين كان كاسترو يحتفل ، في ٢٤ آب ،

بصداقـــة الاتحاد السوفياتي والصين . وهكذا توطد تطور عجلت به الحملة المناوئة لكاسترو في جون الخنازير ، في نيسان ١٩٦١ . وفي كانون الاول ١٩٦١ ، اعترف كاسترو علناً بالماركسية - اللينينية ، ومن بعد ذابت حركته « حركة ٢٦ تموز » مع الحزب الشيوعي لتعطي حزباً جديداً أصبحت له مكانته في الاممية الشيوعية .

ومنـذ الآن ، أصبح تحت تصرف الشيوعيين « قاعدة اضطراب » في امريكا اللاتينية ، وسيكرسون أفضل جهودهم لهذه القارة : فقد خيبت أفريقية آمالهم ، من سيكوتوريه إلى نيكروما إلى جمال عبد الناصر . وكانوا يرون أن القوة الامريكية ضعيفة بخاصة في هذا المكان من العالم . وفي ١٩٦١ ، انطلق الحزب الشيوعي الفينزويلي ، كما فعل كاسترو ، في الكفاح المسلح .

وعندما دخل كينيدي ، في كانون الثاني ١٩٦١ ، الى البيت الابيض مال إلى التفاهم مع الاتحاد السوفياتي ، وبتفكير في تقسيم العالم أقل من التفكير في الروح التي سادت ميلاد منظمة الامم المتحدة . ولا شك في أنه كان يعرف أيضاً الخلاف الذي يفرق الصينيين والسوفياتيين . أفلا يحسن القيام بتنازلات إلى السوفياتيين تمتن سلطتهم ، وتساعدهم على الدفاع لدى جماعتهم عن سياسة « التعايش السلمي » ومنع نمو نفوذ الصينيين ، الذين يؤلفون الحزب الذي يخشى أكثر من غيره في الحركة الشيوعية ، لانه أكثر ثورية ؟

وفي ٣ و ٤ حزيران ١٩٦١ . التقى كينيدي بخروتشوف في فينا وكانت المحادثة مخيبة واعترف كينيدي نفسه بان الحفرة لم تسد ، ولكنه أكد ، محتفظاً بالامل ، بأن طرقاً للاتصال قد فتحت .

ولم تكافأ هذه النوايا الطيبة . وربما حضت السوفياتين على استعمال الشدة : ومن الممكن أن يكون خروتشوف وزملاؤه قد تصوروا أن كينيدي

بعمل ويتكلم كما لو كان يفعل ذلك عن ضعف ! وفجأة ، في ١٣ آب ١٩٦١ ، آثار الشيوعيون في برلين أزمة شبيهـــة بأزمة ١٩٤٨ وفصلوا بجدار ، « جدار العار » نصفي المدينـة . وفي ٣٠ آب ، أعلنوا عن عزمهم على استئناف التجارب النووية . وأعلمت بعض التصريحات المهددة بعض الشعوب ، الايطاليين مثلاً ، بأنها ستحذف من الخارطة إذا تركت الامريكيين يقيمون قواعد ذرية على أراضيهم .

وبعد عام ، بلغ التوتر نقطة حرجة ، في تشرين الاول ١٩٦٢ ، بأزمة كوبا . وفي الربيع عاد المناخ السياسي الدولي صافيا من جديد ، ولكن ليخفي بشكل أفضل مشروعـاً خطيراً . فقد حصل خروتشوف من كاسترو على حق يمكن السوفياتيين من إقامة مراكز إطلاق للصواريخ في كوبا . وفي ١٨ تشرين الاول ، علم كينيدي بأنه الاهتمام منصرف في الجزيرة لانشاء عشرة مراكز للاطلاق ، وان ٢٥ سفينة شحن سوفياتية تحمل الصواريخ في طريقها إلى لاهافانا . فاطلق في الحـــال إنذاراً : بتقويض المراكز وعودة سفن الشحن ادراجهـــا . وقرر حصار كوبا وربما كان هذا الحادث أخطر مجابهة بين الشرق والغرب منذ الحرب . وتماسكت الكتلتان . ودعم الصينيون السوفياتيين رغم أنهم ، على وجه الدقة وفي نفس الوقت ، قاموا بهجوم جديد على الجبهة الهندية ، وأكدت الحكومات الاوربية تضامنها مع الولايات المتحدة .

وفي ٢٧ تشرين الاول ، تنازل السوفياتيون ، ولا شك بعد أن حصلوا على ضمانات سرية لكوبا . ومع ذلك ، فقد لاقوا اخفاقاً . وأنقذوا الظاهر مؤكدين بأنهم أنقذوا السلام .

واذا كان السلام في خطر فعلى من يعود الخطأ ؟ ولكن هل كان السلام حقاً في خطر ؟ لم يحاول السوفياتيون المجابهة . لقد كانوا يأملون

بتغيير توازن القوى بمفاجأة . وفكروا بانه إذا ما أقيمت صواريخهم في كوبا ، فان الامريكيين لايمكنهم أن يستخدموا القوة لاخراجهم منها . ولما لم تلعب المفاجأة دورها ، لم يكن عندهم على وجه التأكيد لحظة لاستخدام القوة لإتمام مشروعهم .

وبعد هذا الخطر ، كان من الممكن توقع عودة الحرب الباردة . ولكن الذي حصل ، بالعكس ، كان مظاهرات ودية . وبدا أن كينيدي كان يريد ان يفيد من ذلك لالتوجيه ضربات جديدة إلى السوفياتيين ، بل ليدفعهم إلى أن يطبقوا باخلاص قولهم الخاص في التعايش السلمي . وفي نيسان ١٩٦٣ ، قرر الامريكيون والسوفياتيون إقامة خط هاتفي مباشر بين واشنطون وموسكو « الهاتف الاحمر » . وفي ٢٥ تموز أبرمت في موسكو معاهدة وقعتها ، في ٥ آب ، الولايات المتحـــدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى لايقاف التجارب النووية . ولم يزل اغتيال كينيدي، في تشرين الثاني ١٩٦٣ ، مناخ هذا الانفراج . وفي ٢٠ نيسان ١٩٦٤، أعلنت الحكومات الثلاث نفسهـــا ، بمبادهة الرئيس جونسون ، تخفيض صنع الاسلحة الحرارية - النووية . وحتى في برلين ، بدا كل شيء يسير بشكل أفضل . ففي عيد الميلاد في ١٩٦٣ ، حصل السكان على وثيقة مرور لاجتياز « جدار العار » ؛ وفي أيلول ١٩٦٤ ، قضى اتفاق بان يفتح الجدار أربع مرات في الاثني عشر شهراً القادمة . وقرىء في صحيفة « الانسانية » ، في ٥ تشرين الثاني ١٩٦٤ : « في القول لا إلى غولد ووتر ، المرشح الجمهوري في انتخاب الرئاسة ، قال الشعب الامريكي لا إلى الفاشية وإلى الحرب » . وفي نيسان ١٩٦٣ « أتى البابا يوحنا الثالث عشر بدعم الكنيسة الكاثوليكية لهذه السياسة بنشره على اكليروس العالم الكاثوليكي رسالته الرسمية « على الارض السلام » .

آخر ما بعد الحرب

هل أبرم الكبيران اتفاقاً سرياً ؟ إن الشيوعيين الصينيين يتهمونهما بالتواطؤ. ودون الذهاب أيضاً إلى بعيد، أصبح من المبتذل تصور اتصالات سرية ، ومحادثات تثبت فيها الحدود التي يحترمها كل واحد منهما . ومن الأفضل الكلام عن تفاهم ضمني صادر عن طبيعة الأمور : لقد شل الأمريكيون والسوفياتيون بتوازن قواهما والاستحالة المعنوية في المبادرة إلى الأسلحة النووية ، وربما تقاربوا بوحدة المسؤوليات التي تثقل عليهم ، وكان موجهوهم ولا شك مأخوذين بنفس الاهتمام في منع بعثرة الأسلحة الذرية : لأن هذه البعثرة تخفض نسبياً قوتهم ولا تساعدهم في الإشراف على استخدام هذه الأسلحة ، والاستعمال الذي يقوم به أو يهدد به فريق ثالث يوشك أن يجرهم إلى حيث نجحوا حتى الآن بألا يذهبوا اليه .

ثم ان اهتمامات ومشاغل داخلية جنبت أيضاً حكومتهم عن المغامرات الخارجية . وتحملت الولايات المتحدة بخفة ونشاط ثقل المبادرة الى الأسلحة ولكن وصول الشعوب الافريقية إلى الاستقلال الوطني أيقظ بالمقابل ، « القضية السوداء » . وأخذت ثورة السود أشكالاً عنيفة خرج منها ماض ظن بأنه زال ، ممتزج باقتباسات عن حرب العصابات الثورية على أساس الارهاب . وبعد ذلك ، وبنوع من عدوى العنف ، جاءت حركة المعارضة في حرب فيت ـ نام ، وبخاصة في الأوساط الفكرية ، تزيد إضطرابات الشارع ، اضطراب الأفكار .

وفي الاتحاد السوفياتي ، لم يبلغ تراخي الاستبداد نسبياً تمكن الرأي ، إذا وجد ، من التأثير على السياسة الدولية للحزب ، ولكن الاقتصاد ضاقت أنفاسه . لأن جهد التسلح والاكتشاف الكوني لم يفتر ، ومتطلبات

السكان ، بدءاً بـ « الطبقة الجديدة » أخذت تتزايد دون انقطاع ويجب محاولة إشباعها وإرضائها .

إن نظام « الانسان الحر » المجرب منذ ربيع ١٩٦٤ ، والمعمم انطلاقاً من كانون الثاني ١٩٦٥ ، والمرسم ، أي الذي جعل رسمياً ، من قبل اللجنة المركزية في إيلول ١٩٦٥ ، كان عليه أن يحسن كماً وكيفاً انتاج السلع الاستهلاكية ، ولكن هذه الرجعة الجزئية في ممارسة اقتصاد السوق ، إذا دفعت اضطرابات داخلية ، فقد أفسدت جاه العقائدية الشيوعية في العالم ، وهددت ، في الاتحاد السوفياتي ، بفعل بقعة الزيت وبتجاوز النطاق الذي جهدت المحاولة في إبقائها فيه .

لقد تجنب الكبيران إذن المجابهات ، إما بتوقيع اتفاقات جديدة ، معاهدة في نزع سلاح الفضاء ، في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٧ ، وإما باستعمال الفطنة والحذر والتعقل للحفاظ على هيمنتها أو لزيادتها . ومهما يقل الشيوعيون الصينيون ، فإن السوفياتيين لم يتخلوا عن نصرة الشيوعية في العالم . فهم يبشرون دوماً بأن التعايش السلمي هو الشكل الحاضر لنزاع الطبقات على المقياس الدولي ، والطريقة التعبوية التي يوصون بها هي طريقة « الطريق السلمي » أو « البرلماني » ، وعلى الشيوعيين المحليين أن يعقدوا تحالفات واسعة لدخولهم من جديد في الحيـــاة السياسية السوية ووصولهم إلى السلطة بوسائل قانونية .

وبدت هذه الطريقة التعبوية ناجعة بعد أن ساعدتها تسوية علاقات معظم الدول الغربية مع الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية . ولم يبد في إيطاليا ، وفي فرنسا ، وفي بعض الأوقات في اليونان ، ان الشيوعيين أبعدوا عن الأمل بالسلطة . وفي شيلي ، قبل انتخابات الرئاسة ، في ٤ إيلول ١٩٦٤ ، أمكن الاعتقاد بانتصار المرشح الذي قدمه الشيوعيون

تحت عنوان الجبهة الشعبية . وفي فنلانده ، في ٢٧ أيار ١٩٦٦ ، ولأول مرة في أوروبة الغربية منذ ١٩٤٨ ، دخل ثلاثة شيوعيين الحكومة .

وتابعت الولايات المتحدة سياسة « الاحتواء »، وفي هذه المناطق من العالم التي لم يتفق فيها على خطوط تقسيم النفوذ كثيراً أو قليلاً بشكل رسمي غداة الحرب ، سجلت نجاحات عظيمة ، حتى انها قامت بالعملية بنفسها أو أن هذه العملية ذهبت في اتجاه سياستها دون أن تكون لها مباشرة يدٌ في شيء .

وفي الفاتح من نيسان ١٩٦٤ ، قلبت « الثورة الوطنية » ، التي قام بها الماريشال كاستيلو برانكو ، غولارت الذي كان الشيوعيون يعتمدون عليه للذهاب بالبرازيل إلى « الديموقراطية الوطنية » . وفي ١٩ حزيران ١٩٦٥ ، كان ابن بلا « بطل الاتحاد السوفياتي منذ رحلته التي قام بها إلى موسكو في ٢٥ نيسان ١٩٦٤ ، قد طرح سافلاً بانقلاب عسكري بدا انه انتزع الجزائر من جذب الشرق وفي ٣٠ إيلول ١٩٦٥ ، حاول الحزب الشيوعي الاندونيسي ، الذي يتباهى بأنه كان أقوى حزب في العالم الحر ، بناءً على نصيحة الموجهين الشيوعيين الصينيين وبمشاركة سوكارنو ، ضربة قوة كان اخفاقها سبباً في القضاء عليه ، ثم سقوط سوكارنو ، في ١٢ آذار ١٩٦٧ بعد أن أجل ثم عجل . وفي ٢٤ شباط ١٩٦٦ ، استولى الجيش على السلطة في اكرا في غياب نكروما الذي ذهب إلى الصين في رحلة رسمية : حتى انه لم يستطع الدخول ثانية إلى غانا . وفي اليونان ، البلد الذي حاول الشيوعيون ، منذ آخر الحرب ، جره تحت هيمنتهم ، قام قسم من الجيش واستحوذ على السلطة في ٢١ نيسان ١٩٦٧ .

وفي كل هذه الضربات ، كانت الـ .C.I.A موضع اتهام دون تقديم أي دليل مقبول ، ولكن هذه الضربات ، في الواقع ، ذهبت في اتجاه

السياسة الامريكية ، وعلى الأقل اذا لوحظت في خطوطها الكبرى . وقد حصل أن مشاريع لم يشجعها الامريكيون ولم يرجوها أضعفت أعداءهم ، من حكومات انضمت إلى معسكر السوفياتين أو أن السوفياتين وجدوا فيها وسيلة لاستخدام نفوذها: وهكذا في حزيران ١٩٦٧ ، أعطت حرب إسرائيل ضد العرب ، خلال فترة من الزمن ، ضربة توقف للتوغل السوفياتي في الشرق الأدنى وزعزعت سلطة جمال عبد الناصر ، ولحد قليل ، سلطة الحكومة السورية التي ظهر بين أعضائها شيوعي منذ الفاتح من آذار ١٩٦٦ .

ولفترة ، تحت ضربة أزمة تشرين الاول ١٩٦٢ ، ولا شك ، التي دلت على أن السوفياتين يحاولون إقامة قواعد عدوان بالقرب من أراضي الولايات المتحدة ، وربما أيضاً تحت تأثير اغتيال الرئيس كينيدي في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣ ، وتغيير الرئيس ، حصل تحول في الإدارة والرأي الامريكيين . و بدا أن الاوهام الروزفلتية و « أوهام الأمم المتحدة » أصبحت تابعة منذ الآن الماضي . ودل التدخل في سان - دومينغ على عدم ترك تشكيل كوبا ثانية في البحر الكريبي الذي قرر الشيوعيون اللاتينيون الامريكيون منذ اجتماع لاهافانا ، في تشرين الثـاني ١٩٦٤ ، تركيز جهودهم عليه .

وبنفس الروح وبنفس دعم الرأي قـام جونسون (المنتخب في ٣ تشرين الثاني ١٩٦٤) في ٧ شباط ١٩٦٥ ، بالقصف الجوي الاول لفيت - نام الشمالية التي تدعم فيها الحكومة حرب العصابات التي تقوم بها في الجنوب جبهة التحرير الوطنية ، وهي منظمة تابعة للحزب الشيوعي الفيتنامي . وهكذا بدأ ، وربما دون أن يراد في موسكو ، نزاع تجابه فيه الكبيران ، وكان أحدهما يعمل بشخص وسيط ، ولكن دون أن

يخفي نفسه ، ولم يستطيعا استخدام جميع وسائلهما ، خشية أن يوجدا مخاطرة بنزاع ذري . ولم يستطيعا الانسحاب ، لان انسحاب الامريكيين يمكن أن يأخذ ظاهرة اخفاق ويسبب ، على مايبدو ، اشتعال حرب العصابات في أمكنة أخرى ، في أمريكا اللاتينية ولا شك ، كما حصل ذلك في أفريقيه بعد هزيمة فرنسا في الهند الصينية ، ولأن السوفياتيين ، في الحالة الحاضرة للحركة الشيوعية الدولية ويعجلون ولا شك بتقويضها إذا ماسحبوا عن الشيوعيين الفيتناميين عونهم بالمال والعتاد والفنيين : وبالفعل ، فان الشيوعيين المناصرين للصينيين يأخـذون عليهم ضعفهم ، ويلمحون بأن « المتشككين » في موسكو لايحرصون ولا شك على انتصـار حزب يشايع ، إن لم يكن قد فعل ذلك ، فريق « الماركسيين ـ اللينينين » الحقيقيين .

والمثـال الدامـغ للشلل ، في حالة نزاع ، هـو أن توازن قوى الطرفين ضرب حس الكبيرين . حقاً لقد بدا أن السوفياتيين ، في هذا النوع من المجابهة الجامدة ، أحرزوا فائدة خفيفة ، لأنهم ، وليس لهم ما يخشون لا من الرأي العالمي ولا من الرأي غير الموجود في الاتحـاد السوفياتي ، اضطروا الامريكيين إلى زيادة جهـدهم دون انقطاع ، حتى ان ثمه بالرجال بدأ يحرك رأياً مرتبكاً بعد أن رأى البلاد منخرطة في طريق مسدود لأسباب لا تبدو له واضحة جداً ، وهذه الحالة بخـاصة مخيفة على الصعيد المعنوي لشعب اعتاد على التفكير بأن جميـع القضايا يمكن أن تحل وبسرعة .

وإذا جنبنا تهديد حرب عالمية ثالثة شغلت الافكار ، عن حق أو عن باطل ، فإن شلل الكبيرين أعاد إلى الدول الصغرى والمتوسطة حرية

العمل التي تخلى عنها بعض هذه الدول طوعاً أو جزئياً ، أو انتزعت من الأخرى .

ولم تلعب اللعبة الدولية فحسب بين واشنطون وموسكو ففيما كان يسميه الشيوعيون ، في زمن الحرب الباردة ، المعسكرين أو الكتلتين بدأت أو تأكدت شقاقات ؛ وارتسمت سياسات مستقلة ، كما بدأت مبادهات على نقيض إرادة الكبار . وارجعت استحالة الحرب الحرارية - النووية الحرب الكلاسيكية ، أي إلى الأسلحة التقليدية حقوقها . وانتهت الحالة التي وجدت غداة الحرب وكان الكبيران جامدين ، هذان اللذان ظلا حتى ذلك الحين في حركة دون انقطاع . وبتجميد احدهما للآخر سحب كل واحد منهما من الآخر جزئياً وسائط فرض الجمود نفسها على حلفائها أو على تابعيها . وكانت هذه نهاية ما بعد الحرب .

وعرف المعسكر السوفياتي نظاماً قاسياً جداً . وهو وحده يمثل بحق ظاهرة كتلة ، وإن انهياره يكون مسرحياً وضخماً بالنتائج المستقبلة .

وقدمت أزمة كوبا الشيوعيين الصينيين الفرصة للهجوم على خروتشوف « المغامر » . وأصبح الجدل بين موسكو وبكين عاماً وزاد عنفاً . وفي كل إجتماع منذ الآن للمنظمات الكبرى التابعة للحركة الشيوعية الدولية (F.S.M ، حركة السلام ، منظمة التضامن الافرو آسي وغيرها) يرى المندوبون الصينيون والمندوبون السوفياتيون في حالة نزاع . ولإرضاء العاطفة الوطنية وإضعاف سلطة الاتحاد السوفياتي في العالم الثالث ، طالب ماوتسه - تونغ بالاراضي التي تنازلت عنها الصين سابقاً إلى روسيا القياصرة . وفي تموز ١٩٦٤ ، صرح إلى إشتراكيين يابانيين بأن السوفياتيين يحتلون كثيراً من الاراضي التي ليست لهم في أوروبة وفي آسيا . وفي ١٦ تشرين الاول ١٩٦٤ انفجرت أول قنبلة صينية .

وبعد أن أبعد ماوتسه - تونغ نصف أبعاد عن السلطة في ١٩٥٨-

١٩٥٩ ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية ، انصرف الى الحركة الشيوعية الدوليه : وتشكلت على جميع القارات تجمعات شيوعية مناصرة للصينيين وتألفت أحياناً بشكل أحزاب . وكلها تعتز بمثل ماوتسه ـ تونغ، وسيقال فيما بعد بـ « فكره » . وهكذا ارتسمت إطـــاوات أممية شيوعية جديدة ، وأعطى الماريشال لين ـ بياؤ ، نائب رئيس المكتب السياسي ، لها كلمة الأمر ، في ايلول ١٩٦٥ ، وهي : تطويق الغرب بإثارة الحرب الأهلية في آسيا ، في أفريقية وفي أمريكا اللاتينية وبفضل لين ـ بياؤ ، وطد ماوتسه ـ تونغ نفوذه على الجيش الصيني ، وبمساعدته أثار ، في نيسان ١٩٦٦ ، لاستعادة كامل السلطة ، هـــذه « الثورة الثقافية » التي كان أثرها الثاني انتشار اسم و « فكر ماوتسه ـ تونغ » في كل مكان في العالم ؛ وأصبح كتابه « الكتاب الأحمر الصغير » إنجيل المناضلين الثوريين العديدين على جميع القارات .

وحاول السوفياتيون أن يردوا إلى الحركة الشيوعية تماسكها . واقترح خروتشوف عقد مؤتمر شيوعي دولي . ودعا إلى اجتماع تحضيري ، ورفضت كثير من الاحزاب المدعوة المجيء أو لم تجب. وربما يكون هذا الاخفاق هو الذي حمل زملاء خروتشوف على ابعاده ، في ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ ، وجعلوه مسؤولاً عن الدورة الحادة التي أخذها النزاع . والواقع، بعد ذهابه ، هو أن الجدل انقطع بعض الوقت ، ولكن رحلة كوسيغين إلى بكين وإلى هانوي ، في ٥ ـ ٦ شباط ١٩٦٥ ، أقنعت الجانبين بأن نواياهما المتبادلة ظلت نفسها ، واستؤنفت الهجمات بعنف، في آذار ١٩٦٥ ، في موسكو ، بعد انعقاد المؤتمر التحضيري الذي مثل فيه تسعة عشر حزباً من الـ ٢٦ حزباً المدعوة .

وفي تشرين الثاني ١٩٦٧ ، أثناء أعياد الذكرى الخمسين لثورة تشرين الاول (في التقويم الرومي) ، كان المؤتمر الدولي دوماً في حالة

تحضير ، وكثير من الاحزاب تجنبت شجب موجهي الحزب الشيوعي الصيني ، بينما بلغ حنق السوفياتيين نقطة الذروة، حتى انهم أظهروا في جرائدهم، في تشرين الاول ١٩٦٧ ، مقالاً بخروج الصين من صف البلاد الاشتراكية ويتهم « الطغمة العسكرية » التي توجهها بتحضير خطط عدوان شبيهة بـ « خطة تاناغا » في السيطرة على آسيا ثم على العالم .

ولم يؤد هذا الخلاف إلى تأسيس أحزاب من طاعة صينية ، بل ان بعض الاحزاب ، التي ظلت وفية لموسكو ، تشجعت لأخذ بعض الحريات حيال السوفياتيين . وفي ١٩٥٦ أذيعت فكرة اختلاف السياسات القومية لأن اختلاف الطرق التعبوية التي تتبناها مختلف الاحزاب الشيوعية لا يضر بالتماسك الاسامي للحركة . ولكن الشقاق الصيني شجع على الخروج على النظام ، وأفاد الكثيرون من ذلك ، ولم يستعمل السوفياتيون ضد بعضهم تدابير انتقامية مخافة أن يروهم يشايعون المعسكر الصيني ، وأوضح مثال على ذلك ، وليس الوحيد في نوعه ، الحزب الشيوعي الروماني ، لأن انشقاقه النصفي يذكر ، علاوة على ذلك ، بأن قضية القوميات لم تحل في أي مكان في اوربة الشرقية .

والى الشقاق الصيني يضاف شقاق آخر . فتحت الضغط السوفياتي قطع فيديل كاسترو العلاقات مع الشيوعيين الصينيين الذين تتجه شطرهم تفضيلاته المذهبية ، وخطب ضدهم خطاباً عنيفاً ، في ٦ شباط ١٩٦٦ . ولكن تشيعه لموسكو ، التي كانت مضطرة لمداراته ، لم يمنعه من أن يشجع في أي مكان في امريكا اللاتينية طرق حرب العصابات التي لم يجرأ الشيوعيون المناصرون للسوفياتيين أن يشجبوها ، بل قالوا بأنها قليلة النفاذ وضارة . ومن ٣١ تموز إلى ١٠ آب ١٩٦٧ ، عقد كاسترو في لاهافانا

مؤتمر منظمة التضامن اللاتينية ـ الامريكية (O. L. A. S) التي أرست قواعد أممية شيوعية ثالثة بين أممية موسكو وأممية بكين .

وفي آب ١٩٦٣ ، اقترح الثلاثة الموقعون على معاهدة موسكو أن يعرضوا المعاهدة على موافقة جميع الحكومات فرفضت الصين الشيوعية توقيعها ، وفرنسا أيضاً . وكان ذلك ، من جانب الحكومتين لأسباب مختلفة ، رغبة واحدة في اظهار الاستقلال حيال الدولة التي تمارس الهيمنة . وربما حضت وحدة الموقف هذه ، في فرنسا ، السلطة على تصور سياسة مشتركة مع الصين الشيوعية : ففي ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٤ ، اعترفت فرنسا بالصين الشعبية . وفي تموز ١٩٦٤ أكد رئيس الدولة الفرنسية بأن « التوزيع بين المعسكرين يتجاوب متناقصاً مع الحالة الواقعية » ، وينسب إليه مشروع تأليف « قوة ثالثة » ، وستكون أوربه ، وستنضم إليها بلاد أمريكا اللاتينية حيث قام برحلة في أيلول وتشرين الأول ١٩٦٤ .

وفي ٢١ شباط ١٩٦٦ ، أعلن دوغول انسحاب فرنسا من منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، وطلب من جيوش هذه المنظمة أن تجلو عن الارض القوميـــة . وفي ٣١ آب ، في رحلة إلى فنوم بينه ، نصح الامريكيين بالجلاء عن فيت ـ نام . وفي الوقت نفسه ، رسم تقارباً مع البلاد الشيوعية . وفي ٤ شباط ١٩٦٥ أتى على ذكر اوروبة التي تذهب من الاطلسي إلى الاورال . وفي حزيران ١٩٦٦ ، ذهب إلى الاتحاد السوفياتي ، وفي ايلول ١٩٦٧ إلى بولونيا ، وفي أيار ١٩٦٨ إلى رومانيا . وقامت الحكومة الالمانية ، من جانبها ، مقلدة فرنسا ، بسياسة تقارب مع الديموقراطيات الشعبية ، وكانت النتيجة المحسوسة الاولى المعاهدة التجارية الجرمانيــة ـ الرومانية لعام ١٩٦٧ ، التي زعزعت تضـــامن البلاد

الاشتراكية ، ورأى الشيوعيون في المانيا الشرقية أنهم خينوا بهذا الشكل من التعامل مع بون .

وفي الواقع ، إذا أثارت سياسة التقارب هذه مع الاتحاد السوفياتي تحسيناً خفيفاً في المبادلات التجارية والثقافية ، فقد اصطدمت باختلاف أساسي في الارادات . لقد كان السوفياتيون في كل لقاءاتهم مع ممثلي فرنسا يحاولون الحصول على تصريحات خاصة باثارة قطيعة بين فرنسا والمانيا ، ولا شك ، معاودة البدء مع المانيا بسياسة رابا للو ، كما حملت على الاعتقاد بذلك رحلة آجوبي إلى بون ، في ٢٨ تموز ١٩٦٤ ، لتهيئة زيارة خروتشوف . ولكن هذه الزيارة لم تقع .

وإذا عرفت العلاقات الفرنسية — الالمانية ، بالفعل ، بعض البرودة عندما كان ايرهارد مستشاراً ، في تشرين الاول ١٩٦٣ — كانون الاول ١٩٦٦ ، فان التحالف نفسه لم يبدأ ، والحكومة الفرنسية رفضت الاعتراف بأن يكون تقسيم المانيا قطعياً ، هذا التقسيم الذي يؤكد الشيوعيون ، على لسان غومولكا ، ضرورته في تشرين الاول ١٩٦٧ . ويتعلق بهذه القضية ولا شك بسط الاتحاد السوفياتي أو عدم بسط هيمنته على أوربة الغربية .

فهل تضع نهاية ما بعد الحرب من جديد وعلى الصعيد الاول القضية الفرنسية — الالمانية التي أصبحت الآن قديمة ؟ أو أن غزو تشيكوسلوفاكيا من قبل جيوش ميثاق وارسو (فارسوفيا) في آب ١٩٦٨ سيغير الحالة تماماً ؟ .

الفصل الثالث

تطور الحرب

١٩٤٥ ميراث الحرب العالمية الثانية

في ٩ آذار ١٩٤٥ ، اسقطت ٢٨٠ طائرة مقاتلة على طوكيو ١٦٧٠ طون من القنابل المحرقة في معظمها . ودمرت هذه « العاصفة النارية » ، التي دامت ست ساعات ، ٤٠ ك م٢ من المدينة . ووجد على إثرها ٨٤٠٠٠ قتيل على ٦،٧٠٠،٠٠٠ نسمة .

وفي ٦ آب ١٩٤٥ ، اسقطت طائرة مقاتلة على هيروشيما قنبلة واحدة انفجرت على ارتفاع ٤٠٠ م ، فحلقت ١١ كم٢ بهبوب الريح والنار . ووجد ٧٠٠٠٠ قتيل على ٢٤٥٠٠٠ نسمة . واطلقت طائرة مقاتلة أخرى قنبلة مماثلة على ناغازاكي بعد ثلاثة أيام : ووجد ٤٠٠٠٠ قتيل . وهذان البرقان الأكثر ضياءً من الف شمس أنهيا الحرب العالمية الثانية بتساوع عظيم طبع أيضاً نهاية عصر والدخول في عصر جديد . ولكن ، بعد أكثر من خمس سنوات من محن لا سابق لها ، كان الانفراج الذي سببه السلام عاماً . وقليل من الناس كانوا يتساءلون عما حدث بعيداً جداً . وأسمع البابا بيوس الثاني عشر ، وحده ، صوت القلق ، ومر هذا الصوت غير ملحوظ .

ومع ذلك ، فإن هذا السلاح المطلق ، دون رجوع ، سلاح العلماء، الذي كان من الممكن أن يختم الحرب بصورة مستقلة عن الحالة الستراتيجية والعسكرية في ذلك الحين ، قد صدر ، كهذه الأخيرة ، عن القوة العلمية والصناعية ، والاجتماعية أيضاً ، في المعسكر الغالب وعكسها . وكما في الحرب العالمية الأولى ، تغلبت بصورة قطعية هذه القوة الشاملة القادرة على دعم حرب الجماهير ، جماهير الرجال ، واكداس العتاد، حتى ظهر المعنى الستراتيجي والتعبوي أقل أهمية من ثقل الوسائط . لقد جند الاتحاد السوفياتي ١٩ مليون رجل ، والولايات المتحدة ١٤ مليون . وأنشأت هذه الأخيرة ٨ ملايين طون من السفن أثناء الحرب و ٢٩٦٠٠٠ طائرة (٤٥٠٠٠ في الخدمة في القوة الجوية وحدها في الولايات المتحدة في ١٩٤٥ ، أي ما يطابق ٣٣٠٠ طائرة فرنسية في ١٩١٨) . وبهذا ، فان المدرسة الستراتيجية الفرنسية القديمة في السنوات ٢٠ و ٣٠ (بيتن ، دوبيني ، ويغان ،الخ.) ترى وجهات نظرها مؤيدة فيما وراء مفاجآت المعارك الاولى . لأن « الحرب الخاطفة » ، لم تدم إلا عامين ، أي عندما لم يكن لهتلر علاقة إلا مع بلاد لم تكن مهيأة للحرب لا مادياً ولا معنوياً .

إن حرب ١٩٣٩ — ١٩٤١ كانت حرب حركة في ١٩١٤ مضاعفة بمحرك البنزين : وفيها نقلت معركة نهر المارن إلى بحر المانش والمتوسط .

وحرب ١٩٤١ — ١٩٤٣ كانت حرب استنزاف . فقد قدم السوفياتيون نفقاتها في البر ، ولكن دون استقرار في الجبهة بسبب امتدادها . وتحملها الانغلو — ساكسون في البحر . وكانت حرب تقدم أيضاً ، وفيها لعبت افريقية الشمالية دور الدردنيل وماكيدونيا في الحرب العالمية الأولى.

وحرب ١٩٤٤ — ١٩٤٥ كانت حرب ١٩١٨ ، وانتصار العدد والاحتياطيات الضخمة والقوة الهائلة . وقد أصبحت الستراتيجية بحق « فن

توزيع واستعمال الوسائل العسكرية لانجاز أهداف السياسة (ليدل هارت)[١].
وكان نموذج الستراتيجي الجنرال مارشل الذي أعطى ، في ١٩٤٢ ، الأولوية لأوربة على المحيط الهادىء . ولكن على نقيض ١٩١٤ — ١٩١٨ ، حيث كانت التجديدات الدبابات والطائرات بخاصة من مضمار الاختراع اليدوي والتقنية والتنظيم الصناعي ، في نشوء العمل المسلسل ، أضاف النزاع الأخير ، إلى تحسين الوتيرة الصناعية ، عمل المخابر المخطط والمنظم . وأدخلت أركان الجيش حساب الاحتمالات (بحث العمليات) في مزج وترتيب الاسلحة وتقييم الفن العسكري في قضايا نقل الجيوش وتموينها ، وحتى التنبؤات الجوية . وإذا كان « المتمم الروحي » يطلب الانتظار فان « تسارع التاريخ » يبدو بخاصة تسارعاً للعلوم وتطبيقاتها .

في البر . — زاد وزن الدبابة (احتى ٦٠ طن) لصالح التصفيح بالفولاذ (حتى ١٠٠ م م) ، وقطر فوهة المدفع (٧٥ ، ٨٨ أو ١٢٢ م م) ، بينما بلغت سرعتها ٤٥ كم في الساعة ، والمسافة الممكن قطعها لاستهلاك وقودها ١٥٠ إلى ٢٠٠ كم ، حدهما الأعظم ، لأن أعداءها تضاعفت عدداً وضبطاً (مدافع ، بازوكا ، مطاردات — مقاتلات) . ولم تعد المصفحات فارساً وحده ، بل اندغمت بالاسلحة الأخرى (المشاة ، المدفعية ، المدافع المضادة للطائرات ، م . ط ، ومصلحة الهندسة) في « تجمعات تعبوية » منقولة بكاملها (ناقلة واحدة لكل ٥ إلى ٧ رجال) ، وهذا يؤدي إلى وفرة الخدمات أي الدعم التمويني ، حيث نجد ٤٠ إلى ٤٥٪ من جنود الفرقة غير محاربين .

في البحر . — لم تعد « السفينة الرئيسية » مدرعة بل حاملة طائرات ، وعليها تقوم طائرة الانقضاض المطاردة والمقاتلة ، بمغامرات مشابهة بنتائجها

---

(١) ليدل هارت LIDDEL HART

لنتائج الطائرات القائمة على الأرض ، مقام الطائرة النسافة البطيئة ذات الجناحين .

والاساطيل ، من مجموعة سفن حربية و « تاسك فورسز »[١] حسب التعبير الامريكي ، تتألف من فريق من حاملات الطائرات (٢٠٠ أو ٣٠٠ طائرة) تحميها عمائر أخرى ذات مهمة مضادة للجو ومضادة للغواصات أو تموينية (طرادات ، مدمرات ، ناقلات بترول ، وسفن ورشات) . وشد تنظيم سير القوافل وتشكيلات الاساطيل لتأمين حماية شاملة بتركيز أعظمي للنيران والأجهزة الكشافة (كشاف الغواصات والاعماق ، والرادار) ضد الأعداء المهاجمين من طيارة وغواصة . وقد تحسنت هذه الاخيرة بعد أن زودت بمحرك ديزيل أكثر قدرة ، وأبعد مسافة ، شنورشيل[٢] ، المحرك الذي تبنته البحرية الألمانية في ١٩٤٣ ، وهو يساعد على تجديد الهواء دون الصعود إلى السطح .

في الجو . — لقد كسبت السرعة ٥٠٠ ك م في الساعة ، من أجل المطاردات في ١٩٣٩ ، أكثر من ١٠٠ ك م بقليل في الساعة . ولكن إذا بدأت الطائرات ذات المراوح تصل إلى اقصى امكاناتها ، فقد كسب الدفع النفاث دفعة واحدة ، في ١٩٤٥ ، ١٠٠ ك م إضافية في الساعة (غلوستر « ميتيور » البريطانية ، لوكهيد « شوتنغ ستار »[١] الامريكية) وحتى ٣٠٠ ك م في الساعة من أجل الـ Messerschmitt ME - 163 الألمانية (على حساب نطاق عملها ، أي المسافة القصوى التي يمكن أن تبتعد فيها عن نقطة تموينها بالمحروقات) . وهذه الزيادة في السرعة ترافقها زيادة

(١) تاسك فورسز Task Forces

(٢) شنورشيل SCHNORCHEL

(١) Gloster : « Meteor , Lockheed » Shooting Star

في الوزن ، محسوسة بخاصة عند المقاتلات : فقد بلغ وزن المقاتلة بمقدار عشرة أمثال . ولكن التطور الجوي العظيم الآخر كان في الصاروخ الالماني : فقد بلغ مدى الـ V2 ٣٥٠ كم وسرعته ٢٠٠٠ كم في الساعة. وهذا ما كان ، أثناء الاستسلام النازي ، سبباً في « اصطياد حقيقي للعلماء » في اوربة الوسطى من قبل السوفياتين والامريكين والبريطانين والفرنسين. لأن الغزو سيكون مثمراً للجميع .

ولكن الحالة الجغرافية السياسية والجيوستراتيجية هي التي ظهرت ، فضلاً عن ذلك ، جديدة لا سيا وإن الخلاف كان عاماً .

« في ١٩٤٥ ، كانت البنية الجغرافية السياسية للعالم ذات قطبين : فقد كان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية يسيطران على مناطق انهيار سياسي في اوربة وفي آسيا ، حيث أدى نفاد قوى الدول الكبرى العجوز الى قطع الروابط الاستعمارية القديمة »(لوسيان بواريه)[٢] واجتيح حلفاء « الكبيرين » ونهكت قوام كالمغلوبين . وزالت اوربة القديمة : « في اليوم الذي تعانق فيه الامريكيون من عام ١٩٤٥ بفرح في تورغاو ، على نهر الإلب ، فقدت أوربة استقلالها »[١] . إن الجيش الأحمر ، الذي يحتل ويسيطر على اوربة الوسطى والبلقانية ، عدا اليونان، كان على ٢٠٠ كم من الراين الفرنسي ، و ١٢٠٠ كم من جبال البيرينيه ، و ١٥٠ كم من استانبول ، و ١٢٠٠ كم من السويس ، و ١٠٠٠ كم من الخليج العربي . وفي آسيا ، يحتل ماندشوريا ، ويسيطر على كوريا الشمالية ، كما استقر في الكوريل وفي الجزء الجنوبي من ساخالين،

---

(١) لوسيان بواريه Lucien Poirier

(٢) ف . او . ميكش = F. O. Mikshe

على حساب اليابان المغلوبة التي برهنت سابقاً ، في فتوحاتها المــوقتة ، ولكن المدوية ، على ضعف النظام الاستعماري وضعف الانسان الأبيض.

من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩

تحت الحصر النووي الاومريكي

لقد رد التسريح من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ الأعداد العسكرية الامريكيــة في الجيش إلى ١،٥٠٠،٠٠٠ رجل ، أي بتخفيض ٨٩ ٪ ، والاعـداد السوفياتيـة إلى ٢،٨٠٠،٠٠٠ رجل ، أي بتخفيض ٧٥ ٪ ؛ وتفاقم أيضاً هذا الخلل الناشىء بالجغرافيه . لأن الجيش الأحمر ، الذي يسمى الآن « الجيش السوفيــاتي » يسيطر بكتلته ، كما رأينـا ، على اوربة والشرق الاوسط وقليل من آسيـا ، في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة لا تقيم فيه إلا أعداداً ضعيفة من جنود الاحتلال في المانيــا ، والنمسا واليابان . وكان معظم قواها ، بما بقي منها في الولايات المتحدة ، أي على أكثر من ٧٠٠٠ ك م من الراين وعلى ١٠٠٠٠ ك م من بحر الصين : « لقد عـاد الاولاد (الجنود) إلى الدار » . وكان الرئيس ترومان يتدرب على السلطة ، وبنى سياسته أيضاً على قرارات يالطـا : الجلاء لصالح الروس عن بعض المناطق الألمانية التي حررتها الـ G . I وعلى وعود منظمة الأمم المتحدة الناشئة التي أقيمت على الضفاف النيويوركية من ايست ريفر لتحريرها بشكل أفضل من الذكريات السيئة التي خلفتها عصبة الأمم في جونيف .

ولا شك في أن القنبلة الذرية كانت موجودة ، ولكن ولا شك أيضاً يحسن ، حوالي ١٩٤٦ ، الكلام عنها تقريباً بالمفرد . لقد كانت أداة

نادرة ومزعجة ولا يتصور أحد تهديداً باستخدام محتمل لها حيال حليف البارحة ، ولا سيما في مسالك السلطة في واشنطون ، حيث تتكاثر الطبقة المستنيرة المسماة « التقـدمية » . إلا أن ضربة بيرل هـاربر وعت من قرروا مصير هيروشيما وناغازاكي . ولعبت القنبلة الذرية ، عقب الحرب مباشرة ، دوراً بحياً تماماً ، وكان السوفياتيون يزايدون بالاقلال من أهميتها في نهاية النزاع .

واستأنف ستالين الآن سياسة القياصرة في الوصول إلى « البحار الدافئة » باقامة مفوضيات سياسية ، في العام ١٩٤٦ ، في الجيش . وفي المحيط الهادىء ، فكر بالبقـاء في ماندشوريا ، ولكن انتصار ماوتسه ـ تونغ ، الذي لم يعمل ستالين على تشجيعـــه ، قرع جرس هذا الامل الروسي بالتأكيد كما فعل بالسابق انتصار توغو على دوجستفانسكي في ١٩٠٥ . وفي الشرق الاوسط ، كان يأمل بالبقاء أيضاً في اذربيجان وفي كردستان الايرانية ، ودفع حزب اليسار المتطرف توديه ، الذي كان يشارك في الحكومـة الايرانية حتى طهران والخليج العربي . ولكن اليقظة البريطانية القديمة ، التي مازالت قوتها توهم بعد ، احبطت كلًا من هاتين المناورتين ، بينما رفضت تركيا أن تخاف بمناسبة المضائق . وفي أوروبة ، كان ستالين يرمي إلى مضيقي سكاجراك والـكاتيغات ، ولكنه لم يحصل الا على تحييد جزيرة بور نهولم الدانيماركية في البحر البالطيك ، حتى ولاعلى اكليركي باتجاه سبيتزبرغ . وفي البلقان ، أثار ودعم بواسطة دول تابعة (البانيا ، بلغاريا ، يوغوسلافيـــا) ثورة ماركوس اليونانيـة . ودون ان يتدخل مباشرة كان وجود الجيش السوفياتي بالقوة ، في أوروبـــة الوسطى ، يدعم تطور « النمو التـــاريخي » . وفي داخـل الجن الرومي ، اقيمت الحكـومـات التـابعـة بالرغـم من جميـع الاحـكـام

الانتخابية . وفي الخارج أسهمت الاحزاب الشيوعية في السلطة في فنلنده وفرنسا وايطاليا ، ولم يبق إلا الانتظار .

وفي فرنسا ، بالضبط . اخفقت الاضرابات العامة العنيفة في ١٩٤٧ . وفي اليونان . اتجهت الحكومة نحو واشنطون ، لان العون التقليـدي البريطاني لم يمتد . ولمجابهـــة هذه الحالة ، أذيـع ، في آذار ١٩٤٧ ، مذهب ترومان ، وبعد أن كانت الولايات المتحـدة منومة ، حتى ذلك الحين ، باتفاقات يالطا والاعمال الاولى لمنظمـــة الامم المتحدة ومجلس الامن (وقد جاء تبدد الوهم هنا من ٣٠ رفضاً سوفياتياً جمدت المناقشات حتى ١٩٤٩) ، وجدت نفسها مسوقة الى معاودة دور الحكم والدركي الشاق والصعب الذي تخلت عنه الدبلوماسية والبحريـة الملكية البريطانية مكرهــة .

وهذه المجابهة التي أخذت شكل الحرب الباردة تسارعت بحصار برلين و « ضربة براغ » في ١٩٤٨ . ومع ذلك ركب ستالين مركباً خشناً . وبعد أن أصبح الجنرال مارشل أميناً للدولة ، أكد اختياره في العام ١٩٤٢ : فقـد تخلى عن الصين الوطنية في آسيا ، وهذا ماساعد أيضاً على إحباط المزاعم السوفياتية في ماندشوريا ، كما رأينـــا ، وأعطى الأولوية لأوربة بانقاذ اقتصادها بـ (خطـة مارشل ١٩٤٧) . وفي حزيران ١٩٤٨ ، تبنى مجلس الشيوخ الامريكي قرار فاندنبرغ الذي يفضـل المشاركة في الاتفاقات الاقليمية .

ووقعت فرنسا ، بريطانيا ـ العظمى والبينيلوكس في آذار ميثاق العون في حالة عدوان . وهكـــذا قرع جرس (أي أعلن زوال) الانعزالية الامريكيـة التي جنبت في ١٩١٧ و ١٩٤١ . وفي ١٩٤٨ و

١٩٤٩ ، وضع موضع التنفيذ ، وبشكل موازٍ للعون الاقتصادي ، برنامج مساعدة عسكرية يستأنف روح قانون « الاعارة والتأجير » في العام ١٩٤١ . وكان تتويج هذه السياسة توقيع معاهدة حلف شمـــالي الاطلسي ، في واشنطون ، في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، من قبل اثني عشر بلداً غربياً : بلجيكا ، كندا ، الدانيارك ، الولايات المتحدة ، فرنسا ، بريطانيا ـ العظمى ، ايسلندة ، ايطاليـا ، اللوكسمبورغ ، النورفيج ، البلاد المنخفضة ، البرتغال . وتنص التعهدات المتخذة على التسوية السلمية للخلافات بين الدول الاعضـاء (المـادة ١) ؛ والتعاون الاقتصادي بين الموقعين (المادة ٢) ، وتعزيز وسائل مقاومة العدوان بالجهد الفردي والعون المتبادل (المادة ٤) والعون المتبادل في حالة عدوان (المادة ٥) .

وكانت هذه المعاهدة بعيدةعن تشجيع زيادة التوتر بين الشرق والغرب. وعلى العكس ، البعث بانفراج : ففي ١٢ أيار ، رفع الاتحاد السوفياتي حصار برلين وتماسكت « المدينة المقطعة » وقاومت بفضل « جسر جوي ». وفي ٢٣ أيار أدت مناقشات وزاريـة إلى المرونة في قضايا برلين والمانيـا والنمسا ؛ وفي آخر تشرين الاول ، تركت الثورة اليونانية وشأنها فانتهت .

وبالمقابل ، سجل التفجير التجريبي للقنبلة الذرية السوفياتية الاولى نهاية الحصر النووي الاميركي في أيلول ١٩٤٩ . ولبضع سنوات أيضاً ـ الزمن الذي تأخذ فيه القوة الذرية بعض الاشتداد ـ نجد أن الـ ٢٠٠ فرقة سوفياتية وتوابعها لاتتعادل إلا بقوى الولايات المتحدة الجوية ، ومن ضمنها طائرات B - 36 ، بمحركاتها الستة ذات العمل البعيد المدى ، القذائف المعينة للقنابل الذرية التي مازالت صغيرة الأبعاد. وقدبدأت هذه الطائرات منذ عهد قريب تحل محل القلاع القديمة العليا B - 29 . وبينما كان الروس منكبين بحرارة

وبسرية على نشاطهم النووي ، تركت الولايات المتحدة نفسها تفاجىء : ان الدراسات الاولى على الصاروخ « اطلس » يرجع تاريخها إلى عام ١٩٤٦ ، ولكنها أجلت ؛ وكان يعمل دون عجل على أجهزة قصيرة المدى (فايرستون « كوربورال »، ١٣٥ كم ؛ مارتن « لاكروس »، ٣٧ كم) التي لم تصبح عملية « قابلة للاستعمال في الكفاح) إلا بعد ١٩٥٥ .

وفي آسيا ، كانت صين ماو القارية البلد الشيوعي الوحيد (مع يوغوسلافيا المنشقة) دون حاميات سوفياتية ، وكانت تحد منذ الآن كوريا الشمالية والتونكن حيث اخذت الحرب ، التي كان يقودها جيش الحملة الفرنسية ضد الفيت - نام ، امتداداً آخر . أما تشانغ - كاي - تشيك ، فقد انطوى مع آخر جيوشه إلى فورموزا وبعض الجزيرات المجهولة التي دخلت على هذا النحو في التاريخ : كيموي ، وما تسو .

من ١٩٤٩ الى ١٩٥٤ : حرب باردة وخراجات حارة

إن تفجير أول قنبلة ذرية روسية يسجل أول تكاثر ذري وبداية سباق الاسلحة النووية . وإذا ظلت لجنة العالم أو بنهايمر ، المكلفة بدارسة امكان صنع جهاز حراري نووي،تقاوم، في تشرين الاول ١٩٤٩ ، طرح هذا الاحتمال كما فعلت فيالعام ١٩٤٦ (ولا يغفر ذلك لرئيسها ...) فان ترومان أخذ على عاتقه قرار هذا الانجاز في ٣١ كانون الثاني ١٩٥٠، تحت ضغط الكونغرس والرأي العام الامريكي معاً المقتنعين بحق ، أن السوفياتيين يضعون اللقم مزدوجة . وبينما كانت القنابل الذرية الامريكية الاولى تتوج وتختم مجهود حرب ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ، تفجرت

القنبلة الروسية في وقت فرضت الرسالة الشيوعية نظامها بالقوة على الجن الرومي وحاولت امتداد هذا الاخير ، وأثارت بشكل لايمكن اجتنابه أول سباق لتسلح مابعد الحرب . وهذا السباق ، كما سيرى ، إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة هذا التسلح ، سينمو دون اي توقف آخر إلا توقف العلم والتقنية ، وبشكل مستقل منذ الآن عن التطور الدبلوماسي : ففي القديم كان من الممكن التمهل ، وحتى ايقاف سلاسل الصنع ، وهذا يرى ويعيد الثقة ؛ واليوم يتعلق كل شيء بصورة أساسية بعقل العلماء الذي يصعب على الدبلوماسيين سبره .

وهذا « السلام العجيب » الذي يسمى جريباً على الألسن « الحرب الباردة » سيكون دراميا في « نقطة حارة » (هذا « العالم المنتهي » يولد ولاشك مفردات جديدة) ، من آسيا حيث تعتقد الحركة الشيوعية بأن اليقظة الغربية الناشئة فيها مخدوعة كثيراً . وهذه النقطة الحارة ستكون كوريا .

وبعد أن أمن الروس تابعهم ، كوريا الشمالية ، بتأسيس الجمهورية الشعبية و كيم ايل – سونغ رئيساً ، سحبوا جيوشهم . وكذلك فعل الامريكيون في كوريا الجنوبية ، في ١٩٤٩ ، ولكن بظاهر عدم الالتزام الذي حاوله كيم ايل – سونغ ، دون فطنة ، في إعادة توحيد البلاد لصالحه وبالقوة . ففي ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، اتخذت الجيوش الشمالية قراراً حاسماً وجريئاً واجتازت الخط الوهمي الفاصل لخط العرض ٣٨° [١] وانهالت نحو الجنوب . وأثار ترومان التدخل الامريكي

---

(١) في القديم كانت الستراتيجية ، من طبيعة جغرافية بخاصة ، تتكيف حسب

بعد ثلاثة أيام . ونجح الجنرال ماك آرثر « في الحد الأقصى » في التماسك في حصن فوزان ، ثم قام بهجوم معاكس ودمر جيش كوريا ـ الشمالية بفضل انزال « جنود بحرية » في انشون ، على ارتفاع سيؤول ، كما ألف جيشاً ممتازاً من كوريا الجنوبية . ودُفِعَتْ الفلول الشيوعية حتى نهر يالو ، على الحدود الصينية ، حيث فاجأها جيش « متطوعين »، ٣٠ فرقة ، ٣٠٠٠٠٠ رجل تحت قيـــادة لين - بياؤ : وكانت الجيوش والقيـادة صينيـة ، والعتاد روسياً . ولما هوجمت القوى الامريكية والجنوب ـ كورية ووجدت نفسها مبعثرة بشكل مروحة ، بعيداً عن قواعد تموينها ، مع ما التحق بها من وحدات وضعتها تحت تصرف منظمة الأمم المتحـدة ثلاثة عشر بلداً (بخاصة بريطانيا العظمى ، اوستراليا ، تركيا ، اثيوبيا ، فرنسا ، الفيليبين ، الخ .) ، اضطرت أن تتراجع في شروط صعبـة حتى ١٠٠ كم في جنوب خط العرض ٣٨° ، ثم وطدت الحـالة بنقل الجبهة رويداً رويداً إلى ارتفاع الحدود القديمة حيث استمر القتال . وأراد ماك آرثر أن ينقل الحرب الجوية وحتى الذرية إلى « المعبد الماندشوري » ولكن ترومان منعه . وأخيراً وقعت الهدنة في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، بعد أن توفي ستالين قبـــل بضعة أشهر وفاز ايزنهـاور في انتخابات الرئاسة على وعده بارجـاع « الاولاد إلى الدار » بأسرع وقت ، ودعم هجومه في السلام باعلامه الصينيين سراً بأنه سيلجأ ، عند الحـــاجة ، لقطع دابر

التقسيمات الدبلوماسية الاصطناعية ، في اتباع الأنهار ورؤوس الجبال شريطة أن تهتم برؤوس الجسر والمنافذ الممكنة في الحد الذي تسمح فيه حالة القوة . أما في هذا اليوم الذي غدت فيه الستراتيجية في خدمة الدوافع العقائدية المجردة ، فإن التقسيمات تتبع طوعاً خطوطاً خيالية (كخط عرض ٣٨° في كوريا ، وخط عرض ١٧° في فيت ـ نام) لم تكن لتفيد في القديم الجغرافيين والسياسيين إلا في تلافي « نقص » الطبيعة أو المعارف البشرية (كالحدود بين الولايات المتحدة وكندا وتقسيم الدول التي تؤلف الغرب الاقصى الامريكي) .

الخصام ، إلى الطريقتين اللتين فضلهما ماك آرثر قبل عزله . أما الحدود الجديدة ، التي تتبع الجبهة ، فقد ظلت بصورة محسوسة على ارتفاع خط العرض ٣٨° ، أي حافظت على الوضع الراهن قبل الحرب .

لقد اشترك ما يقارب ٥ ملايين رجل في هذه « الحرب المحدودة » التي دامت ثلاثة أعوام وكلفت ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ميت (٨٥٠ ٠٠٠ ما بين قتيل وجريح ومفقود في كوريا الجنوبية ، و ٥٢٠ ٠٠٠ في كوريا الشمالية) . وفي كوريا الجنوبية وحدها ، التي انثال عليها مليون ونصف كوري لاجيء من كوريا الشمالية حين الدفع نحو نهر يالو ، دمر ٤٠٪ من من الجهاز الزراعي ، و ٧٠ ٪ من القوة الصناعية . وقد كلف خطأ ستالين وكيم ايل — سونغ في الحساب البلاد غالياً ولا شك .

أما الفكرة الستراتيجية ، التي أمسكت بالامريكيين عن الاندفاع حتى الأعماق وشجبت مذهب ماك آرثر ، فقد لخصها الجنرال برادلي على هذا النحو : « ليست الصين الشيوعية بالأمة القوية التي تحاول السيطرة على العالم . وبصراحة ، حسب رأي زعماء أركان الجيش ، إن هذه الستراتيجية ، ستراتيجية ماك آرثر ، التي تبحث عن نصر عسكري ، ستحشرنا في حرب باطلة وفي أماكن مضلة ، وفي زمن خاطيء ، وضد عدو حاذق » .

لقد تطورت الأفكار منذ ذلك الحين ، ولكن في بداية سنوات الـ ٥٠ ، ظلت نظرية مارشل ، في أولوية أوربة ووضع سد أمام الاتحاد السوفياتي ، سائدة دوماً .

وفي أقل من ثلاثة أشهر بعد بداية حرب كوريا ، انعقد مجلس نواب وزراء الشؤون الخارجية في حلف الأطلسي لدراسة الدفاع عن المنطقة التي تغطيها منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ضد عدوان من

نفس النوع واتخذ « ستراتيجية الأمام » متنبئاً بدفاع أقرب ما يكون إلى « الستار الحديدي » للحيلولة دون أخذ رهائن فجأة . وأدى هذا الاختيار إلى عدد من النتائج .

إن ستراتيجية منظمة معاهدة شمالي الاطلسي ، وهي لغاية دفاعية بصورة أساسية ، أسست ، منذ الأصل ، على مفهوم مضلل مثبط للعزائم وهذا التضليل يعتمد على فكرة رد انتقامي ذري ، ولكن التهديد به لا تكون له صفة مطلقة إلا بعد بضع سنوات . وفي الحاضر يقوم الحساب على القوات الكلاسيكية . أما الـ ١٤ فرقة حليفة ، التي توجد في ذلك الحين في أوربة الغربية من رأس الشمال إلى تريستا ، فقد كانت بوضوح غير كافية لتلعب دوراً آخر غير دور سحب جرس الخطر ، دوراً يستطيع موظفو الجمرك أن يقوموا به بأقل النفقات . ولذا اعترف المجلس نفسه ، في ١٨ كانون الاول ١٩٥٠ ، بأن « اسهام المانيا سيكون من نتيجته تعزيز الدفاع عن اوربة » ، بينما نجد ، في ايلول ١٩٥١ ، أن اليونان وتركيا ، المنعزلتين حتى ذلك الحين ولكنهما مرتبطتان عسكرياً وجانبياً بالولايات المتحدة ، قد دعيتا للاشتراك بالحلف، وهذا ما تم في ١٨ شباط ١٩٥٢ .

وأدى إحباط فرنسا لأسرة الدفاع الأوربية(C. E. D.) ، وهي مع ذلك فكرة فرنسية ، بصورة معاكسة إلى تسلح ألماني جديد أكثر استقلالاً بفضل اتفاقات باريس ، في ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٤ ، التي كرست آخر نظام الاحتلال في ألمانيا الغربية ، ووصول هذا البلد وايطاليا إلى حلف الاطلسي ، وتعهد بريطانيا — العظمى في إبقاء أربع فرق وقوات جوية على القارة ، وإقامة تشكيل عسكري أكثر اندماجاً . أما الرئيس

آيزنهاور فهو ممنوع دستورياً من توقيع اتفاق يمكن أن يجر بصورة آلية بلده إلى الحرب (لأن اعلان الحرب امتياز للكونغرس) ، وقد تعهد علناً باسم الولايات المتحدة ، في ٥ آذار ١٩٥٥ ، في ابقاء قوات في شرقي الأطلسي « ما بدا ذلك ضرورياً » ، وعلى هذا فالجيوش الامريكية نوعاً ما رهائن تضامن الولايات المتحدة وأوربة . وقد أجاب الاتحاد السوفياتي على ذلك في ٤ أيار بابرام ميثاق وارسو (فارسوفيا) مع توابعه الأوربية ، ولم يكن ذلك في الواقع إلا تتويجاً شاملاً لـ ٢٥ معاهدة ثنائية سابقة .

وبدا بسرعة جداً في الغرب أن التخطيط الذي وضعه مؤتمر لشبونة في شباط ١٩٥٢ لا يمكن أن يدوم . حقاً ، لقد كانت فرنسا قد جندت مائة فرقة في ١٩٣٩ ، والمانيا ١٣٠ ، وبلجيكا وهولنده بين ٢٠ و ٣٠ . والـ ٥٠ فرقة والـ ٤٠٠٠ طائرة الموعودة يمكن أن تظهر هدفاً محدوداً بالنسبة للأفكار غير العليمة . ومع ذلك فقد كان هذا كثيراً جداً ، اذا أخذت بعين الاعتبار الامكانات المالية لمختلف البلاد ، والالتزامات الخارج - أوربية من بعضها (بريطانيا العظمى وفرنسا) وثمن العتاد العسكري الحديث ، فضلاً عن انه اختيرت ، لمجابهة الجماهير البشرية في الشرق وقوته الذرية الناشئة ، طريقة تعبوية مؤسسة على سهولة التحرك والانتشار ، أي على آلية برية تماماً شاملة تقريباً وارتباطات راديو مدفوعة للحد الأقصى [1] .

---

(١) ان إعاشة قطعة فرقة سوفياتية (٢٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠ رجل ، منها أكثر من ١٠٠٠٠ بقليل في الجبهة) كانت تكلف آنئذ من ٢٠ الى ٣٠ مليون دولار ، مقابل ٣٥٠ مليون لقطعة امريكية معادلة ، وتتطلب ١٥٠ الى ٢٠٠ طون من المؤن في يوم معركة ، مقابل ٦٠٠ الى ٨٠٠ طون لفرقة امريكية .

وهذه الحالة تسوق الى بعض الجدل . فقد استنتج ف . او . ميكش،وهو من أفضل الخبراء الغربيين،من هذا الثقل التمويني نقطة ضعف كبرى جداً ، بعد معرفة ماسينجم عن تنمية الاسلحة النووية ، وكلفة باهظة تمنع من تشكيل الوحدات العديدة الضرورية في حالة عدم اللجوء إلى الاسلحة الذرية .

ولكن المبادىء الامريكية تغلبت وبدىء باستعمال مدافع ذرية من ٢٨٠ مم ، وصواريخ قصيرة المدى (ردستون « هونيست جون » ، كرايسلر « ردستون » (٢٢ كم) وسبيري«مرجانت»[١] (١٣٥ كم) . وبالرغم من مناورة التحويل النفسي ضد الاسلحة النوويه التي تؤلفها حركات السلام منذ نداء ستوكهولم ، فان ستراتيجية « الاحتواء » الامريكية المعتمدة على انطلاق « محيطي » ، من قواعد عسكرية على محيط الاتحاد السوفياتي كله مع مجنه فتحت « المظلة الذرية » لآمرية الجو الستراتيجية (S.A.C.) وهذه الآمرية ، المجهزة بمقاتلات ذات أربع محركات نفاثة B - 47 يمكن تموينها وهي طائرة وتستطيع أن تدمر بضربة قنابل ذرية جميع الاهداف المعادية الكبرى ، اتخذت لنفسها شعاراً جريئاً ، « السلام حرفتنا »، بمجد الستراتيجية العامة الامريكية التي يكون طموحها بكسب الحرب المحتملة أقل من منع إثارتها وحماية « الوضع الراهن » .

ولكن ، في ١٢ آب ١٩٥٣ فجر السوفياتيون قنبلتهم الحرارية النووية الاولى (القنبلة الهيدروجينية) ، وبعد ستة أشهر منافسوهم الامريكيون : ومن الواضح للجميع ، منذ الآن ، أن الخصمين ، في الموضوع الذري ، متساويان تقريباً في البحث .

وفي الوقت نفسه انتهت في ديان بيان فو وفي جونيف حرب الهند

---

(١) ردستون Redstone ، هونيست جـون Honest John ، كرايسلر Chrysler ، سبيري Sperry « مرجانت Sergeant »

الصينية الاولى . وهذا النزاع الاستعماري ، انتحل رويداً رويداً إلى نزاع عقائدي والموسع بظهور الشيوعيين الصينيين على حــدود تونكن وبلاد التاي ، كان خارج قدرة وسائل فرنسا . ولقد دفعت هذه الدولة لحساب الغرب ، الذي يجهله بعد ، نفقات نوع من حرب لما ينته الكلام عنها .

والآن والفيت ـ نام منقسمة إلى قسمين : في شمال خط العرض ١٧° أقيم النظام الشيوعي . وفي الجنوب ، حيث اتى أكثر من مليون لاجىء بالرغم من الاخطار من كل نوع ، كما في كوريا ، تسلم ديم السلطة .

من ١٩٥٤ الى ١٩٥٩

تضليل ثنائي وحرب ثورية

في نطاق الحرب النووية المحتملة الوقوع يسجل ظهور القنبلة الهيدروجينية درجة تسارع عظيمة ، وهي تعبوياً هامة كظهور القنبلة الذرية ، وستراتيجياً أكثر أهمية أيضاً .

لقد انتقل قطر المنطقة الخطرة للتفجيرات من ٥ إلى ٥٠ كم ، والقوة التفجيرية من ألوف الاطنان إلى ملايين الاطنان ، والقوى المقاومة لتساقط النشاط الاشــعاعي من أقل من ١٠٠ إلى أكثر من (١٠٠٠) كم . ومنــذ الآن « ذاب فن الحرب في كل ماهـو مفرط وعجيب » (ادمون كومبو) [١] ، مفرط جداً وعجيب جداً حتى ان الضربات تحسب دون أن تعطى .

---

(١) ادمون كومبو Edmond Combaux

وإذا بدا هذا الفن عظيماً جداً وشاملا جداً حتى وثق به الستراتيجيون الجدد ، فالواقع هو أنه لم تحصل أي مجابهة بين الدول النووية ، بفضل مايسمون « توازن الارهاب » ، ويبقى أن سياء العالم مافتئت تتغير تحت ثقل عوامل أخرى ، مثل النزاع في الهند الصينية الذي انتهى وجنى منه بعض مئات « الزعماء العسكريين » موارد حربيـة غلبتهم وأقنعتهم . وفي الوقت الذي أعطت فيه العلوم الصحيحة إلى الناس سلاحاً نووياً جديداً وصاروخاً على مقياسه ، أعطت العلوم الانسانية طريقة كفاح مناسبة وتامة لكل من يتهمون النظام الاستعماري القديم أو يريدون الافادة من من انهياره : وهذه هي الحرب الثورية . إنها حرب ضروس، بربرية ، شاملة ، في متناول أفقر الناس والاقليات التي قررت بانها لن تخسر شيئاً بتخطئة الغرب الذي اعتـاد على رفاهه المعنوي والمادي وشل نفسه بـ « تناقضاته الداخلية » .

ودلت حرب الجزائر على ميكانيكيات النظام وحدوده ، لأنها دارت على باب فرنسا .

ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه الحرب التي دامت ثمانية أعوام ربما لعبت دوراً في المجابهة الستراتيجية العامة بين الشرق والغرب ، دوراً كان أخيراً لصالح فرنسا . فلو كانت الجزائر مستقلة قبل ١٩٥٩ ، مثل مصر جمال عبد الناصر ، لكان من الممكن ولا شك أن تظهر على مائدة الحرب الباردة وبذل القوى على حساب الغرب ، وبخاصة منظمة معاهـدة حلف شمالي الأطلسي المطوقة من الجنوب . ولو كانت مستقلة بعد عام ١٩٥٩ لنشأت بعد بداية « التعايش السلمي » . وإذ استقلت منذ ١٩٦٢ ، فقد جنبت ، قبل كوبا ، من أن تكون رهن « قضية الصواريخ » عندما كانت

الولايات المتحدة أقل تهيؤاً للتدخل بصورة نافذة ، وفرنسا في عسر من أمرها للقيام بهذا التدخل .

وفي كل هذا الدور ، كان الغرب ، في الواقع ، يتاقل متواجعاً . ويبدو أن الحركية الثورية وجدت ، بعد طرق الحوب ، أسلوباً سياسياً : وهو اسطورة باندونغ ، التي ولدت في مؤتمر الدول الافرو آسية في نيسان ١٩٥٥ ، مفتاح كلمات سحرية تضعها وقائع الاستقلال للبعض ، والشروط الخاصة الداخلية للجميع ، خلال بعض الوقت للاستعمال ، بضع سنوات كافية لتؤكد على الصعيد العسكري والستراتيجي ما أظهره تورغو [1] ، في ١٩٤٥ ، وهو الامحاء الفردي للوجود الاوربي .

وقد اعتمدت هذه الملاحظة في مضمار آخر بظهور أسلحة نووية تحول أبعاد نتائجها أولوية مطلقة للستراتيجية الجوية النووية التي تستطيع الولايات المتحدة وحدها استعمالها تجاه الاتحاد السوفياتي . والمخاطرة دون حد بـ « بيرل هاربر ذرية » ـ الواقع في السياسة ليس ارادة الخصم الحقيقية ، التي تجهل ولا يمكن إلا تقديرها ، ولكن الخوف الذي يوحي به حسب عديد من العوامل من كل نوع ـ مخاطرة ممكنة منذ الآن بواقع تنمية القوة النووية والجوية السوفياتية ، « بيرل هاربر » التي يمكن أن تجتاح البلاد وتزيل كل امكانية للرد ، وتخلق حالة خطرة للغاية . وقد حل الستراتيجيون والفنيون الامريكيون القضية بمساعدة منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، بتنمية نظام تنبيه خطوط الرادار ذات القوة العالية وسلاسل نقل الراديو في طبقات الجو الملامسة للارض وطبقات الجو العليا ، بل وأيضاً بالابقاء في حالة طيران بشكل دائم على قسم من مقاتلات آمرية الجو الستراتيجية التي

(١) تورغو Torgau .

تبعد عنها قواعد محيط (أطراف) الاتحاد السوفياتي بفضل تنمية تقنية التموين في حالة طيران . ولا تصبح القوات البرية أكثر من « نظام تنبيه على الارض مخصص لاثارة الرد الستراتيجي الكثيف ، نطـــاق إطلاق النار » كما يقول الجنرال بوفر [١] .

والنتيجة الاخرى لهذا المنفذ في المفرط هي إمكانية تحديد ذاتي ثنائي في استخدام الاسلحة النووية يذهب حتى عدم الاستخدام المطلق ، وهذا يمكن أن يعطي الاتحاد السوفياتي فائدة ستراتيجية عظيمة بفضل تفوقه بالوسائل البشرية والتقليـــدية على محيط القارة الاوراسية (الاوروبية — الآسيوية) كله .

ولقد أخذ فوستر دالس ، أمين الدولة في عهد الرئيس آيزنهاور، حوالي ١٩٥٥ ، على عاتقه مسؤولية نشر المذهب المسمى « الرد الانتقامي الكثيف »:

« سيكون الدفاع الموضعي هاماً دوماً ، ولكن لايوجد دفاع موضعي يستطيع وحده أن يحتوي قوة العالم الشيوعي البرية العظيمة . ولذا يجب أن يعزز الدفاع الموضعي بعنصر التثبيط والتضليل وصرف النظر عن العدوان الذي تؤلفه القدرة على ممارسة ردود انتقامية كثيفة » . وهكذا فان المفهوم النووي يستوعب في الغرب ، كل من الحرب : بموجب برنامج يسمى « MC - 70 (حسب رقم الوثيقة التي أقرته)،وقد بدأت دراسته في ١٩٥٦ وانتهت في ١٩٥٧ ، وكان الامريكيون يتنبأون بامكان إعطـــاء الجيوش الحليفة ، عند اللزوم ، أسلحة ذرية يحتفظ بها حتى ذلك الحين تحت إشرافهم ، ومن ضمنها أسلحة ذرية تعبوية تساعد الوحدات الكبرى

---

(١) بوفر Beaufre

للجيش البري ، القليلة العدد كثيراً ، على مجابهة الجماهير السوفياتية وهي وهي في حالة أقل نقص ممكن . ولهذه الغاية نظمت الفرق الامريكية المسماة «بانتوميك»[1] (وهي على خمسة وحدات ومجهزة باسلحة ذرية تعبوية) ، وفي فرنسا ، بعد التجريب المسمى تجريب « الرمح » (جافيلو)[2] وإنشاء الفرقة السابعة الميكانيكية السريعة ، نظمت الفرق المسماة « نموذج ١٩٥٩ » .

وفي الوقت نفسه ، ينضم الاكثر غرابة إلى الاكثر افراطاً . ان الرادارات الامريكية المقامة في تركيا تسجل مسارات صواريخ سوفياتية عديدة بشكل كاف لتدل على أن الاتحاد السوفياتي يعتبرها قذائف ممتازة لقوته الضاربة . وفي ١٩٥٧ سجلت مرامي من ٦٠٠٠ كم (من ١٠٠٠٠ كم حسب قول خروتشوف) وهي امكانيات أيدها أطلاق القمرين التابعين الاولين « سبوتنيك » في ٤ تشرين الاول و ٣ تشرين الثاني . وهذه النجاحات المثيرة حملت على الاعتقاد بأن السوفياتيين يملكون الآن سبقاً علمياً حاسماً على منافسيهم الذين تركوا المجال للاعتقاد بهذه النظرية التي قبل الكونغرس والشعب الامريكي بفضلها التضحيات والمجهودات التي حكم بأنها ضرورية . وهكذا فان الصواريخ المتوسطة المدى (I.R.B.M. من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ كم) دوغلاس « ثور » وكرايسلر « جوبيتر[3] » دخلت في الخدمة في الوقت نفسه . ووضعت ثلاثون من هذه الاخيرة في تركيا ، و١٥ في ايطاليا . وفي كانون الاول ، ١٩٥٧ ، نجح أول اطلاق للجهاز عابر القارات I.C.B.M بصاروخ جنرال ديناميكس « أطلس » بلغ مدى ١٠٠٠٠ كم في أيار ١٩٥٨ .

---

(١) بانتوميك Pentomiques

(٢) جافيلو Javelot

وفي شهر تموز من هذه السنـــة قامت أول غواصه بدفع نووي « نوتيلس »[١]، بجولة تحت جليد القطب الشمالي. وكانت الاولى من سلسلة جولات تولف مجموعة قواعد لاشبيه لها ولا يمكن الكشف عنها ، بفضل نفاذ وعناد الاميرال المساعد ريكوور[٢] ، وانشئت لاطلاق ١٦ صاروخ « بولاريس » تحت الماء . وأصبحت هذه الصواريخ الاخيرة (.I.R.B.M من مدى ١٦٠٠ الى ٢٠٠٠ كم) جاهزة للعمل في أيار ١٩٥٩ .

وهذا المفرط المدفوع بالعجيب يحث رجال الدولة على إعادة تقييم سياستهم . ففي خريف ١٩٥٦ ، ترك الغـرب الجيش السوفياتي يسحق الثورة الشعبية الهـونغارية ، في الوقت الذي اتفقت فيه واشنطون مـع موسكو على تعديل بريطانيا العظمى وفرنسا اللتين غامرتا في السويس كما في أجمل أيام العصر الاستعماري . ومنذ الآن ، تبـدو المحافظة على « الوضع الراهن » ، المستقر بالتضليل المزدوج القطب للولايات المتحـــدة والاتحاد السوفياتي ، أهم من أي اعتبار آخر . وقد كرس خروتشوف هذه السياسة وأعطاها اسم « التعايش السلمي » ، « مبدأ لينيني » ماوراء القبر ، وكذلك آيزنهاور في مقابلة معسكر ديفيد ، في ١٩٥٩ . وبعد أن أخذ رئيسا الدولة قياس العالم ، هـــذا « العالم المنتهي » ووسائل تدميرهما المتبادلة ، أقاما بين عاصمتيها « الهاتف الأحمـــر » الذي يجاور جهازه منذ الآن درج (قمطر) الضغط على زر الحرب .

ولكن هدوء الناس غير مقبول ، وستأتي منازعة هـذه السياسة من الخـــارج .

---

(١) نوتيلس Nautilus

(٢) ريكوور Rickower

من ١٩٥٩ الى أيامنا

التكاثر الذري ونزاع التضامن

وهذا الدور ، الذي فتح في معسكر ديفيد ، في ١٩٥٩ ، مطبوع أيضاً في أصله بعدة حوادث أخرى . ويأتي أولاً النزاع الصيني — السوفياتي ، الذي ظهر على الصعيد العسكري بسحب كل مساعدة فنية سوفياتية ، وبخاصة ، في حزيران ١٩٥٩ ، برفض تقديم معلومات موعودة وضرورية لانجاز القنبلة الذريه . وبصورة موازية للتشكيك الذي قامت به بكين بـ « زعامة » موسكو العقائدية ، أثارت باريس في الوقت نفسه قضية اصلاح منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي خلال قضية مجلس الادارة (الديركتوار) الذري . وتجسد هذان الجدلان بالافادة من التفجيرات النووية التجريبية في الصحراء الكبرى عام ١٩٦٠ ، التي سجلت بشكل ملموس إرادة فرنسا تشكيل قوة ضاربة قومية ؛ وبالافادة من النزاع الفيتنامي الثاني الذي نشأ من جديد في عام ١٩٥٧ وأخذ سعة جديدة نحو ١٩٥٩ .

ولا شك في أن بريطانيا العظمى تملك أيضاً منذ أكثر من خمسة أعوام قوة ضاربة ، ولكن هذه القوة تظهر عضوياً ودبلوماسياً ، متممة للقوة النووية الامريكية ومرتبطة بها قلبياً . أما باريس ، التي رفضت توقيع معاهدة موسكو في عدم التكاثر الذري ، فقد قدمت قوتها باستقلال كامل ، أداة سياسية ضد « الهيمنتين » ، ضد الازدواجية القطبية واشنطون — موسكو ، وكان آخر ظاهرة مدوية لـ « التناقضات الداخلية » في العالم الرأسمالي ، هذا العمل الفرنسي الذي تواجد مع النزاع العقائدي

موسكو - بكين » ، « تناقض داخلي » خاص بالعالم الشيوعي ، مدعوم هو أيضاً ، في ١٩٦٤ ، بأول محاولة نووية صينية .

وفي صعيد القوى المسماة « القديمة » أو « التقليدية » وعلى جنـــود مجندة مجموعها ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ رجل تقريباً ، يبلـغ الجيش البري السوفياتي ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ رجل موزعين إلى ١٤٠ فرقة ، وأقل من نصفها بقليل جنود كاملة النشاط . وإذا رابطت الأكثرية الضخمة من هذه الوحدات في بلاد تابعة وفي روسيا الأوربية ، فقد وجد الثلث في شرقي الأورال ، ويلاحظ ، منذ الأزمة الصينية - السوفياتية ، أن عدداً من الفرق انتقلت من اوربة إلى سيبريا . وطالب الصينيون بأقسام من بلد حليفهم السابق . ويستطيع الاتحاد السوفياتي ، بقوى البلاد التابعة ، أن يضع في صف القتال ، في نطاق ميثاق حلف وارسو ، ٣٫١٠٠٫٠٠٠ تقريباً في وحدات برية ، مقابل عدد من الجنود معادل تقريباً لجنود منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، التي تضع الولايات المتحدة في داخلها في الصف ١٫٥٠٠٫٠٠٠ رجـــل ((منها ٢٢٥٫٠٠٠ في أوربة) مقابل ٨٧٠٠٠٠ في ١٩٦١ و ٩٧٢٠٠٠ في ١٩٦٤ . وهـذه الزيادة ، في الجيش البري للولايات المتحدة تنجم بوضوح عن متطلبات الحرب في فيت ـ نام ، وتجعل الأعداد الكلية للقوات الامريكية تتجاوز منذ ١٩٦٦ اعداد القوات السوفياتية بمائة الف رجل تقريباً .

أما ما يتعلق بالقوات الجوية [١] ، فتحت تصرف الامريكيـــين ١٤٠٠٠ جهاز (طائرة) من كل نوع (٨٥٠٠٠٠ رجل في الكل للقوة

(١) ولا يدخل فيها الـ ٩٥٠٠ طائرة ($\frac{٢}{٣}$ ها هيليكوبتر) مرتبطة عضويا بالجيش البري والطيران البحري .

الجوية) ، مقابل ١١٠٠٠ للسوفياتيين ؛ ويجب أن يلاحظ أيضاً أن المطاردات - المقاتلات ، التي تدخل في هذا الصنف ، قادرة على حمل اسلحة ذرية وأن قوة النار الكلاسيكية أعلى من النار التي كانت تستطيع القاءها المقاتلات الثقيلة في الحرب العالمية الثانية .

ويخدم بحرية الولايات المتحدة ٧٦٢٠٠٠ رجل ، وكان عندها في العام ١٩٦٩ ، ١٥ حاملة طائرات ثقيلة مهاجمة ، وعشر حاملات - طائرات مضادة للغواصات تحمل ١٨٠٠ طائرة ، و٧ حاملات هيليكوبتر ، ٣٢٥ طراداً ومدمرة[1] ونحو مائة غواصة بدفع كلاسيكي ، دون حساب اسطول ذري من الصعب تقييمه بصورة مقبولة .

أما الاتحاد السوفياتي فان سقف اسطوله حول ٢٢٠ سفينه (طرادات ومدمرات) ، وهو يضم بخاصة أكثر من ٣٣٠ غواصة ذات دفع كلاسيكي . وعلة هذه البحرية الأخيرة هي ولا شك بعثرتها ، كما في عهد القياصرة ، بين البالطيك والمتجمد الشمالي والبحر الاسود والمحيط الهادىء .

ولكن هذه الأرقام ، - الهامة كنوع من عظمة ، لأنها تختلف كل سنة ، ويحسن أن نلاحظ أيضاً أن قدرة النار « الكلاسيكية » في الوحدات الجوية والبرية أو البحرية قد تضاعفت أو بلغت ثلاثة أضعافها منذ ١٩٤٥ وأضيفت إليها إمكانات استخدام الأسلحة الذرية (« التعبوية ») ، - ليست شيئاً دون معرفة المذاهب الستراتيجية عند البلاد الأخرى ، واختلافاتها ومعرفة الظروف الدولية أيضاً .

ويجب أن يفهم أن التضليل النووي كخط ماجينو يمكن أن

---

(١) منها ١٢ طراداً ، ٢٩ بارجه ، و٢٧ مدمرة مطلقة صواريخ مضادة للطائرات.

يكون ايجابياً لا سلبياً . وقد كتب الجنرال بوفر : « ان أساس الفكر التضليلي هو أنه يجب الا نطلق تنبؤاتنا في الدفاع من يوم ما ، بداية النزاع ، ففي ذلك الحين ، تكون الدوامة في الواقع كاملة ... أما مايتبعها فهم قليلا ، لانه لايوجد غالب ومغلوب ، بل خصمان مدمَّران بعمق . واللعبة الحاسمة تلعب قبل إثارة الاسلحة ، وهدفها منع هذه الاثارة مع حل الخلاف . ان ستراتيجية التضليل تقتضي أن يضع الخصم نفسه في وضع يهدد خصمه بخطورة ويخوفه من رد فعل خطر ، مع تجنب الحركات غير القابلة للرجوع إلى الوراء . »

والتصوير الشبه الكامل لستراتيجية التضليل هذه كان قضية كوبا في ١٩٦٢ : ان إقامة الصواريخ الروسية في هذه الجزيرة جعل عبثاً كل تشكيل للخطر والدفاع في الولايات المتحدة ، وكان بامكان هذه أن ترد باجتياح كوبا بالقوات الكلاسيكية في وقت كان فيه الاتحاد السوفياتي بعيداً جداً ولا يستطيع مساعدة الكاستريين بنفس النوع من الوسائل . وكان على موسكو أن تختار اما اجلاء صواريخها لتجنب غزو كوبا ، ومن الممكن بنفس الضربة تكنيس النظام الشيوعي ؛ واما القيام بمبادهة نزاع على أساس أسلحة نووية . وحلت القضية بانتخاب خرتشوف العنصر الاول من الاختيار .

وسيطرت المعطيات الستراتيجية نفسها على « حرب الايام الست » بين العرب واسرائيل ، فقد وجدت موسكو نفسها في استحالة من دعم العرب حتى الاعماق ، مع وفرة العتاد العسكري السوفياتي الموضوع تحت تصرفهم أمام خصم كان همه استخدام التقنية الحديثة في « حرب خاطفة » على طريقة روميل .

وفي وقت لم تتكامل فيه القوات الضاربة القومية بعد ، عدا الروسية والانغلور ساكسونيـــة ، ظلت قضايا كوبا والشرق الاوسط وقضية فيت - نام أيضاً أمثلة تضليل ثنائي في عالم نووي ومزدوج القطب أيضاً . ومن الواضح جيداً ، وقد أصبحت الميكانيكية أكثر تعقيداً انطلاقاً من الزمن الذي لعبت فيه اللعبة بثلاثة وأربعة ، الخ ،، ان « اللاعبين » الاولين السيدين المطلقـين في لعبتها لم يكونا مستعجلـين جـداً ، بالرغم من كل مايفصلها ، في رؤية تجسيد التكاثر الذري ، ومن هنا خرجت معاهدة موسكو .

وقـــد بين الجنرال بوفر في كتابه « تضليل وستراتيجية » الظرف الذي تتضمن فيه قوة ثالثة نووية فوائد ، أي بصورة أساسية استغـــلال الاحلاف في الحد الذي يستطيع فيه العمل المشترك المتجدد الدائم أن يذهب بالرفيق الاسامي إلى الحفاظ على سياسة الدفاع الشامل ، ومن ضمنها الدفاع عندما لاتكون مصالحه الحيوية داخلة مباشرة في القضية ، بل منافع حليفه .

وبهـذا الاعتبار أجابت القوة الضاربة البريطانية التعريف جيداً ، في سياق هذا التسلسل من الافكار . وفي الحد الذي أظهرت فيه الدبلوماسية الفرنسية الحاضرة إرادة عمل مستقلة بصورة مطلقة في أبعاد الروابط مع منظمة معاهدة شمالي الاطلسي ، وفي توكيدها ضد « الميمنتين »، الخ ، فسدت اللعبة ، ونشأ من جديد عدم استقرار العالم، لأن صعوبات حرب تألب ، وهي عظيمة في المستوى الكلاسيكي ، توجد هنا ، في زمن السلام ، متفاقمة بالبعد النووي للرهان . وهكذا تفكر الولايات المتحدة حيال فرنسا ، ولا يحكم الاتحاد السوفياتي على الصين بشكل آخر ، فيما وراء منازعات التشريفات العقائدية .

وأمام بلقنة[١] العالم الموروثة عن العصر الاستعماري في بـــلاد العالم الثالث ، والمتجددة بصعود القومية في أوربة ، والمدعومة بتـــكاثر ذري يحاول الأميريكيون والسوفياتيون كبح هذا التكاثر ، ويقلبون ستراتيجيتهم وقوتهم على ضوء حرب الفيت ـ نام التي أخذت عنها الدروس . والبلقنة هي الفوضى التي لا يمكن رصدها في عصر الديموغرافيات السائرة بخطا مريعة .

وتعززت آثار هذه البلقنة بتخفيف وتصغير أبعاد الاسلحة الكلاسيكية : مدافع هاون ضخمة ، مدافع دون رجعة ، بازوكا مضادة للدبابات والطائرات ، أسلحـــة آلية من كل نوع ، صواريخ بحر ـ بحر تطلق من سفن حربية صغيرة خفيفة ومريعة ، الخ وهذه الوسائل المتكيفة مع مالية وبساطة الشعوب الفقيرة يقابلها البسط الباذخ للقدرة الامريكية التي تقلدها كثيراً أو قليلاً الدول الصناعية الأخرى .

إن مردود الطائرات الحاملات الضخمة قد تضاعف بـ ٢٠ في ١٩٦٩ بطائرات C - 5 - A المقارنة بطائرات C - 124 في ١٩٥٠ . ففي أقل من ثلاثة أيام يمكن أن تنقل على هذا النحو فرقة إلى أوربة مع ٥٠٠ طن من العتاد. وبصورة موازية ، في نفس التاريخ ، دخلت الخدمة أساطيل شاحنات مريعة ومختصة حسب البرنامج « تموين الانتشار السريع » (F.D.L.) ، وهي أنواع من المعامل والمستودعات تتلاقى في البحر على الدوام وتساعد على تأمين الدعم التمويني للوحدات الأولى عند انزالها . وهذه العملية الأخيرة تشبه إذن قليلاً عملية « اوفرلورد » في حزيران ١٩٤٤ ، التي أصبحت ضعيفة أمام النار الذرية اليوم : إن السفن الأساسية تستطيع أن تبقى على ٣٠ كم من الشواطىء ، عوضاً عن ٣ كم ، ومن بطنهـــا تنطلق هوفر ـ كرافت على مخدة هواء تقطع من ٣٠ إلى ٤٠ عقدة عوضاً عن

(١) البلقنة كثرة الدول الصغيرة ، والكلمة مأخوذة من البلقان .

٨ عقد الزوارق القديمة . وفي البر ، وحدات منقولة بالهيليكوبتر ، من نوع الفرقة الأولى المنقولة جواً ورهن التجريب حالياً في فيت ـ نام الجنوبية، تثبت الخصم لتسحقه تحت نار المدفعية والطيران . وباختصار ، ستراتيجية وطرق تعبوية على مقياس « البلاد الغنية »

وهذا البذخ في الوسائل التقليدية يساعد على تجنب سياسة القواعد في الخارج ، غير الشعبية دوماً عند من يسيرها لأنها تكلف غالياً ، وعند من تنجز عنده لأنها تشخص الصفة المميزة للحماية والتبعية لحلف مع من هو أكبر منه . وكذلك ، تصبح هذه القوات بخاصة وسائل للحفاظ على « الوضع الراهن » بحصر « نيران الغابة » .

ويبدو أنه لايوجد مجموعة صواريخ مضادة للقذائف غير التي تصنعها موسكو متبوعة بواشنطون والتي تبدو ميزتها قاصرة بصورة أساسية على إحباط القوات الضاربة القليلة السعة ، أي للحفاظ ، على الأقل لبضع سنوات على الصفة المزدوجة القطب للحالة الستراتيجية العالمية . والغواصات المسماة « غواصات المطاردة » ذات الدفع النووي مدعوة ولا شك لأن تلعب نفس الدور حيال الغواصات مطلقة الصواريخ ، اما لحمايتها أو لتدميرها . ويملك الامريكيون ثلاثين عمارة من هذا النوع تستطيع لدى خروجها من قاعدتها أن تأخذ طريق بعض الغواصات مطلقة الصواريخ ذات القدرة النووية الصغيرة لتعديلها أو لتقويضها . وتملك بريطانيا العظمى منها كثيراً . وقد تخلت فرنسا عنها لبضع سنوات ، ولكن هذا يقيد قوتها الضاربة تحت المائية في المستقبل .

أما الاتحاد السوفياتي الاكثر تقليداً ، و الاكثر برية و الاكثر قارية ، فيقترب من المعطيات الامريكية . وفي حالة نزاع مع الصين ،

يكون لأول مرة في التاريخ الرومي ، في حالة نقص عددي ، وهذه الفرضية غير مستبعدة منذ الآن ، حتى ولو بدت بعيدة بعد .

وهذا البسط في الوسائل ، والطرق ، والامكانيات التعبوية والستراتيجية ترافقه بالبداهة « مصلحة تموين » فكري على مقياسه . ونحن منذ الآن بعيدون عن عصر الستراتيجيين أصحاب العبقرية الفردية من نوع جوميني وكلاوزويتز أو غيرهما . وإذا وجد أيضاً في أوروبه ، من هؤلاء الباحثين المنعزلين الذين تعتبر اسهاماتهم رئيسية في الغالب مثل : ريمون آرون ج. بوتول[١]، ف.أو. ميكش ، كميل روجرون[١]، مثلاً ، فقد نشأت مشاغل (ورشات) حرفية حقاً مثل معاهد الدراسات الستراتيجية في لندن وباريس ، وهي ذات صفة نصف ـ عامة . أما أمريكا التي لاتدخر شيئاً ظاهراً ، قطعاً ، فلديها « معامل » حقيقية للبحث الستراتيجي والعمليات ، مثل معمل راندكوربوريشن[١] الشهير أو معهد هدسون[٢] واشتهرت فيما وراء الاطلسي أسماء هرمان خان ، هنري كيسنغر ، برنارد برودي ، وليم كوفمان ... وان اخفاقهم النسبي في تحليل بعض مظاهر حرب فيت ـ نام يجب إلا يضلل ، لاننا مازلنا في التلمسات الاولى ولم يبرهن بعد على أن الموازنة الشاملة سلبية .

وفي داخل هيئات البحث والتحري هذه يعاون المهندسون والفنيون

---

(١) جوميني Jomini وكلاوزويتز Clausewitz

(٢) بوتول G. Bouthoul

(١) كميل روجرون Camille Rougeron

(٢) Rand Corporation

(٣) Hudson Institute

والعسكريون بنجدة كبيرة من الجذاذات المثقوبة . ووزن أفكارهم ، بالعقل الالكتروني ، أعظم في الغالب من وزن السلطات البرلمانية في القرار الذي يمكن أن يتخذه رئيس دولة . ولا يخلو الأمر من خطر ممكن على الدولة وعلى العلوم الانسانية التي تهدد بالانحطاط ، بالمقابل . ومع ذلك يبقى أمل « الخبراء بالانسانية » .

الفصل الرابع

التطور الاقتصادي والاجتماعي

مدخل

في ١٩٤٥ ، وجد أن سعة التعمير بعد هزيمة المانيا واليابان ، والخوف من رؤية عودة الدكتاتورية السياسية تحت غطاء الاكتفائية الاقتصادية ، والرغبة في الرفاه والرغد والامن والفراغ التي تملكت طبقات أوسع من السكان دوماً ، والارادة الاجماعية في السلام ، تتطاب عملياً التوسع المستمر في الانتاج والمبادلات ، والاستخدام الكامل ، والارتفاع المنتظم للاجور المباشرة وغير المباشرة ، والحماية ضد المرض والحوادث والشيخوخة والدفاع عن التوفير المكتسب بالعمل ، والجهد المشترك .

كيف الوصول الى ذلك ؟ إن الجواب عند الاتحاد السوفياتي حاضر تماماً : فهو يقول : إن اشتراكية ماركس وانغلز العلمية وحدها ، التي أعاد فيها النظر لينين وتمها ، تأتي بحل منطقي ، عادل ومطابق لتطلعات الشعوب . وإن الغرب الرأسمالي يرفض هذه النظرية ، ويبقى مخلصاً لمثل الحرية والملكية الفردية ، والمشروع الخاص ، ولكنه ليس صاحب القضية وحده . لأن تأثير العمال مافتىء في ازدياد . والاحزاب الشعبية ، ونقابات العمال تشهر بمساوىء البورجوازية ؛ وترفض قانون ازمات الاقتصاد الدورية الذي يوالي ، بدقة نواس الساعة ، الوفرة والعوز ، باعتباره مناوئاً للمجتمع ؛ وتنكر صفات العيار الذهبي كواسطة وحيدة لاستقرار العملات ، وحذف التضخم

النقدي ، وتنشيط الاعتماد ؛ وان التدخل المعمم للدولة ، التي فرضت نفسها منذ أزمة ١٩٢٩ وبخاصة أثناء الحرب لتنشيط انتاج التسلح ، وتجنب الاسراف وتقنين الاستهلاك ، يظهر لهم لاغنى عنه تماماً في زمن السلام أيضاً لرفع الدمار ، وتأمين التوسع الاقتصادي والعدالة الاجتماعية ، ووضع النظام في الاموال الداخلية والخارجية . ولما كانت هذه التيارات غير قابلة الرجوع فمن الواضح ان المشروع الخاص لايمكن أن يقوم بالمسؤوليات الثقيلة ، وإن أكثر الناس ترددا يقنعون أنفسهم أخيراً ويذعنون . ألم يبرهن اللورد كينز أن الازمات الاقتصادية التي اعتبرها كليات الحقوق حتمية ليست من صنع الافراط في الانتاج ، الذي يؤدي الى هبوط الاسعار ، والاجور ، وزيادة البطالة ، بل ، بالعكس ، تتأتى منطقياً عن سوء استهلاك دائم تستطيع الدولة أن تحذفه نهائياً بالزيادة المنتظمة في القوة الشرائيـة لدى الجماهير ؟ ألم يكن ايروين فيشر أول من شهر بأن الاستقرار المزعوم للعملة ليس إلا وهماً يدفع العمال تكاليفه ؟ والبرنامج الجديد الذي طبقه في العام ١٩٣٣ ف.د. روزفلت في اكثر الجمهوريات قوة وليبرالية ، ألم يبرهن على أن الدولة يمكن أن تتدخل بشكل شامل في جميع القضايا الاقتصادية والاجتماعية والنقدية دون تقويض المشروع الخاص ودون سوق البلاد الى الشيوعية ؟

ومنذ ذلك الحين ظهرت آخر وسوسات الغرب الرأسمالي : ان الليبرالية الكاملة لاتضم أكثر من ندرة من الاتباع ، والدولة ربة العمل تكتسب حق المدينة ، وتصبح المنشط أو الوصي على قطاعات الانتاج الواسعة ؛ والمشروع الخاص نفسه ، يطلب منها مساعدة وحماية . و « الاقتصاد المختلط » نشأ رسمياً منذ عهد قريب ، وليس بالضرورة اشتراكياً ؛ وهو يعتمد على دعامتين : القطاع العام ، والقطاع الخاص . وتختلف أهميتها النسبية بصورة

---

(١) ايروين فيشر Irwin Fisher

عظيمة من بلد لآخر حسب مزاج الشعوب ، والتقاليد التاريخية ، وضرورات الظروف السياسية والاجتماعية . ولا مفر لأمة ديموقراطية اليوم من أوامــــر النظام . هذا هو الحادث الأول الملحوظ بعد الحرب .

والحادث الملحوظ الثاني ، هو أن التنظيم الدولي الذي يجب أن يؤمن نمو الاقتصاد العالمي قد وجد ، في ١٩٤٥ ، على الورق على الاقـل ، على خلاف ماحدث في ١٩١٩ ، بالرغم من الجهود التي حاولها الرئيس ولسون في حينه ، واهميته في العام ١٩٤٥ هي أنه كان اكثر عقلانية وأكثر كمالاً من التنظيم الذي نجم عن معاهدة فرساي .

في ١٥ آب ١٩٤١ ، عرف رئيس الولايات المتحدة مبادىء هـــذا التعاون الدولي الجديد بتوقيع ميثاق الاطلسي مع ونستون تشرشل ؛ وهذا الميثـاق الذي قبلته ، في الأول من كانون الثاني ١٩٤٢ ، خمس وعشرون « أمة متحدة » ، ومن ضمنهـا الاتحاد السوفياتي ، يتنبأ بإقامة روابط سياسية بين جميع الأمم دون تمييز في العقائدية ، ودون اهتمام في حينه بما ستقرره الاسلحة ، بل ايضاً وبخاصة يوصي بالتعاون الدولي على الصعيد الاقتصادي ليؤمن للجميـع ظروف عمل أفضل ، وتقدما اقتصادياً وضماناً اجتماعياً » (المادة ٤) ، وتخويل « جميـع الدول الصغـرى والكـبرى ، الغالبة والمغلوبة ، وعلى قدم المساواة في الحقوق ، الوصول الى التجارة والمواد الاولية في العالم الضرورية لازدهارها الاقتصادي » (المادة ٥) . وما قيل سيعمل ، حتى قبل أن تنتهي الحرب وتتأسس منظمة الأمم لمتحدة في سان فرنسيسكو في حزيران ١٩٤٥ . ومنحت منظمـات مختصة ، مثـل منظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة (F.A.O.) ، المنظمة الدولية للعمـل (O.I.T.) ، منظمة الطيران المدني الدولية (O.A.C.I.) ، منظمة الصحة العالمية (O.M.S.) ، منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اونيسكو)

صندوق النقد الدولي (.F.M.I) ، البنك الدولي للاعمار والتنمية (B.I.RD) نظمها الاساسية او تهيأت لأخذها . أما الاتفاق على الاتفاقية العامة على التعرفات الجركية والتجاره أو .G.A.T.T [1] فقد وقعتة ٢٣ أمة في جونيف ، في ٢٧ تشرين الأول ١٩٤٧ .

وأخيراً ، لم يكن الاقتصاد العالمي بكل بساطة مسرحاً — ومن الممكن القول ميداناً مغلقاً - للمنازعات إلا منذ القرون التي انصرفت فيها بعض الدول التي كانت ، في القرن التاسع عشر ، توجه القضايا الدولية دون أن تهتم كثيراً بما تريد أو تفكر مئات الملايين من الناس الذين ردوا الى السكوت أو الى العجز ، أو على الأقل حشروا بالقوة في قضايا لا تتعلق بهم إلا من بعيد . ومنذ الآن ، ستصطدم دول الغرب شيئاً فشيئاً بعنف مع جماعات أخرى منظمة ، أو في طريق التنظيم ، ترجو أن تكون سيدة مصيرها . وهكذا تشكلت في عام ١٩٥٠ كتلة الدول الشيوعية التي تحــدت الدول الرأسمالية المتقدمة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي . وبعد عشر سنوات قامت البلاد السائرة في طريق التنمية ، أو العالم الثالث ، المتكاثرة دوماً كلما انهارت الامبراطوريات الاستعمارية ، وبحثت في الاستقلال عن الطريق التي تؤدي بها الى الازدهار .

ومنذ الآن ، ولاول مرة في تاريخ الانسانيـة ، ارتسمت ملامح اقتصاد عالمي حقيقي . ومازالت الحواشي بعد غير واضحــة والبنيات ضعيفة ، ومع ذلك لنؤمن أن الثورة الاقتصادية الحقيقية والاجتماعية لما بعد الحرب هي هنا . ومامن احد يستطيع بعد أن يتنبأ بأهميتها . وفي الظاهر ، ان سادة الامس هم أيضاً سادة اليوم ، ولكن ليس هذا إلا وهماً سيزول حسب الظروف والزمن .

---

(١) من GENERAL AGREEMENT ON TARIFFS AND TRADE

وهذه هي الاختلافات والتحولات ، ومنافسات العقائدية والمصلحة والجاه التي أتينا على ذكرها هنا باختصار . والتفسير الوحيد للاحصائيات المسماة « العالمية » لا يؤدي إلا إلى تأويل دون أســاس عملي ، لانه لاتوجد احصائيات عالمية لمجموع النشاطات الصناعية والزراعية والاجتماعية والنقدية ، والاحصائيات ، التي يدل عليها كما هي ، هي ناقصة تقريباً دوماً ، وقائمة على معطيات قابلة للمناقشة تضيف تحت عنوان واحد منتجات او قيماً لاتساعد طبيعتها وخواصها المتفرقة إلا على مقارنات سطحية .

١٩٤٥ — ١٩٥٠

التعمير

لنعد الى ١٩٤٥ . وقبل البحث عن تنمية الاقتصاد العالمي يجب تعمير ماخربته الحرب . ففي اوربه وفي آسيا ، سبب الكفاح والقصف واحتلال البلاد ، من قبل الغالبين الموقتين الكثيري الطلب ، خسائر بشرية مرتفعة للحد الأقصى (٥٠ مليون على الاقل من الجنود قتلوا في الحرب ، من مدنيين سحقوا تحت القصف ، ومنفيين اغتيلوا في معسكرات الاعتقال ، دون عـــد المفقودين ، والمشوهين) ، وتخريبات مادية يستحيل الكشف عن حسابها .

وكان التعمير وقلب اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام ، مع ذلك ، سريعين جداً ، ووجد الغالبون والمغلوبون بعض التوازن الاقتصادي والاجتماعي في أقل من خمسة أعوام . إلا أن التضخم النقدي وحده الذى سببته نفقات الحرب ترك آثاراً عميقة لما تنمح بعد .

الاتحاد السوفياتي

كانت الخسائر السوفياتية ثقيلة : ٢٠ مليون من العسكريين والمدنيين قتلوا او فقدوا ، ١٧٠٠ مدينة ، ٧٠٠٠٠ قرية ، ٣٢٠٠٠ معمل ومصنع تمثل ٦٠٪ من الانتاج الصناعي كانت بحاجة الى تعمير . وبالاجمال ، ضاعت ٦٧٩ مليار روبل .

ومنذ الفاتح من كانون الثاني ١٩٤٦ ، أطلق ستالين الخطة الخمسية الرابعة « خطة النصر والتعمير » . ووضع ٢٥٠ مليار روبل تحت تصرف الاقتصاد من أجل وسائل الانتاج الجديدة .

وأوقف الاصلاح النقدي ، في كانون الأول ١٩٤٧ ، التضخم النقدي وفرضت على السكان تضحيات ثقيلة . وبادلت الدولة مبدئياً ١٠ روبلات قديمة مقابل روبل واحد جديد ، مع تفاوت مشهود كان الكولخوزيون، الذين اتهموا بتدبير ارتفاع الاسعار بالسوق السوداء ، ضحاياه الأساسية .

وأنجزت الخطة الرابعة في أربعة أعوام ونصف . فقد انشىء أو جدد أكثر من ٥٢٠٠ معمل ؛ وساعدت الـ ١٣٠٠ مشروع ، التي نقلت اثناء الحرب إلى الاورال ، سيبريا الغربية وقازاكستان ، على زيادة سعة الانتاج بشكل عظيم بالنسبة الى ماقبل الحرب . وفي ١٩٥٠ ، تجاوز استخراج الفحم ٢٦٠ مليون طن ، أي ٥٠٪ أكثر مما كان في ١٩٤٠ ، وأصبح حوض الدونتز من جديد « موقد الاتحاد السوفياتي » . وتضاعفت رحبة الآلات الصانعة . وكان الانتاج الصناعي ، في ١٩٤٩ ، أعلى بـ ٤١٪ من انتاج ١٩٤٠ . وتبعت الزراعة الحركة ، ولكن بأكثر بطءاً وكانت التقارير الرسمية متفائلة ، وتؤكد بانه عمل شيء جديد ، وأن السير مريع ، ويعمل أفضل . واعدت الخطة الخامسة وكانت تتوقع زيادة القدرة الصناعية من ٧٠ الى ٨٠٪ ؛ وهذا يساعد الاتحاد السوفياتي على إدراك ، او حتى تجاوز ، البلاد الرأسمالية الاكثر تقدماً من غيرها .

بريطانيا العظمى

كلف المجهود الحربي بريطانيا العظمى ١٤ مليار جنيه . وغطت الواردات الضريبية منها الثلث (٥٫٥ مليار) ؛ وسدت بيوع الحقيبة الخارجية (٢٫٥ مليار) ، وتصفية الرأسمال القومي (٣ مليارات) والتضخم النقدي الفرق .

لقد قصفت مدن عديدة ومعامل كثيرة بشكل خطير . وخسر الاسطول التجاري ثلثي وزنه ، والاحتياطيات النقدية ، المرتفعة قليلاً نسبياً في ١٩٣٩ ، نقصت بمقدار النصف ؛ ولم تبلغ صادرات ١٩٤٤ إلا ثلث حجم ١٩٣٨ ، وصعدت الديون الخارجية حتى ٥ مليارات جنيه أثناء الحرب ، وفي ١٩٤٥ ، ارتفعت أيضاً الى ٣٥٠٠ مليون ، منها ٢٥٠٠ مليون لاعتياد الكومنولث . وأصبحت المملكة المتحدة دولة مدينة لأول مرة منذ اكثر من قرن ؛ وبلغ رقم ديونها الداخلية ٢٠ مليار جنيه .

وواجهت المملكة المتحدة دور التقتير الاقتصادي بضربة مسرح سياسية . فقد كرست الانتخابات العامة في تموز ١٩٤٥ هزيمة محافظي ونستون تشرشل . وبعد أن أصبح الميجر اتلي زعيم حزب العمال الوزير الاول ، حاول تطبيق برنامج « الديموقراطية الصناعية » الذي حضر قبل الحرب العالمية الثانية ووضح أثناء الحملة الانتخابية في عام ١٩٤٥ . وأصبح بنك انكلترا ، مناجم الفحم ، الكهرباء ، الغاز ، الطاقة الذرية ، النقليات ، الطيران المدني والراديو مباشرة أو تقريباً « ملكية عامة » . وكانت ردود الفعل ضعيفة . ووافق كثير من الانكليز بيفن ، وزير الشؤون الخارجية المقبل في الحكومة العمالية ، على اتهامه ، في ٧ نيسان ١٩٤٥ ، المحافظين بسوق البلاد منذ عشرين عاماً الى الهاوية .

وفي الواقع ، لم يعرف القطاع الخاص ، بين الحربين ، الحفاظ على الصناعات الأساسية في مستوى المنافسة الدولية . ولم تعط مناجم الفحم الحجري ، العديدة جداً ، إلا مردوداً ضعيفاً . وسعر كلفتها مرتفع . وكانت الصناعة الحديدية أقدم صناعة في أوربه وتضم ٤٠٠ فرن عال بطلت موضتها ، ضعيفة القدرة ، وقليلة المردود . ووجدت الصناعة النسيجية سيدها : اليابان ، الخ .

وبالرغم من مقاومة الجناح الأيمن العمالي ، أممت صناعة الحديد بدورها في ١٩٤٩ ، ونجت صناعة النسيج من التأميم لأنها متنوعة كثيرا . واكتفت الحكومة برقابة سوق القطن الخام وحرصت بريطانيا العظمى قبل كل شيء على استرداد تفوقها النقدي . فلم تتوصل لذلك . وفي ١٨ ايلول ١٩٤٩ ، خفضت قيمة الجنيه الاسترليني مرة ثانية ، وانتقل تعادله بالنسبة للدولار من ٤،٠٣ إلى ٢،٨٠ دولار ، وهذا يكرس قطعاً تفوق الدولار . ومع ذلك ، وبفضل نظام الشعب ، والتضحيات التي فرضها على نفسه والمساعدة الامريكية ، تحاشت بريطانيا العظمى رقابة القطع ، وتمسكت بتعهداتها الخارجية ، ووطدت بالتدريج توازن ميزان حساباتها . حتى ان العجز ، الذي بلغ ٢٩٨ مليون جنيه في ١٩٤٦ ، و٤٤٣ مليون في ١٩٤٧ زال في ١٩٤٨ وتحول إلى فائض في ١٩٤٩ (٣١ مليون) ، وفي ١٩٥٠ (٣٠٠ مليون) . ولم تتجاوز احتياطيات القطع ملياراً من الجنيهات ، ولكن الحكومة أنبأت بأنها ستستغني في المستقبل عن مشروع مارشل . ولم تسمح لعبة البوكر هذه للجنيه بأن يجد ثانية قابليته الحرة للتبادل . ولكنها حركت الرأي الدولي بشكل ملائم ، وهذه هي الغاية المتوخاة .

فرنسا

كان في فرنسا ٦٠٠٠٠٠ قتيل عسكريين ومدنيين ، ٣٠٠٠٠٠ مقعد ، ملايين الأسرى والمنفيين ، المتناقصين بالحرمان أو بالجروح ؛ ٧٤ مقاطعة منكوبة ، ٢١٥٠٠٠ مشروع صناعي وتجاري ، ٦١٠٠٠ مستغل زراعي خرب أو تضرر ، وفرغت البلاد من جوهرها الاقتصادي . وتمثل الخرائب رأسمال يقدر بـ ٣٥٠٠٠ مليار . وارتفعت نفقات الاحتلال إلى ٨٥٦ مليار فرنك . والمصاريف الكلية للحرب (١٩٦٠ مليار) وقد غطي ثلثها بواردات الموازنة ، والباقي بقروض قصيرة ومتوسطة الأجل، وبسلف من بنك الاصدار .

وقبل أن تنتهي المعارك ، دخلت فرنسا بعزم في طريق التأميم . وطالب مجلس المقاومة القومي وأحزاب اليسار والنقابات بمصادرة الاموال التي كسبها الخونة وتجار السوق السوداء ، وكذلك حرمان « الاقطاعيات الاقتصادية والمالية » من حقوقها ، وكان ذلك في فكر اليسار ، يدعو إلى الاختلاط دون تمييز .

وفي الفاتح من تشرين الأول ١٩٤٤ ، وافق الجنرال دوغول على هذه السياسة مع بعض الفروق الدقيقة وأكد بقوله : « يجب على الدولة أن تأخذ على عاتقها ادارة المصادر الكبرى للثروة العامة ، مع الحفاظ على وسائل العمل الكبرى التي هي في نشاط الناس المبادهة والربح المشروع » . وفي كانون الأول ١٩٤٤ ، أممت مناجم فحم الشمال وبا - دو - كاليه وخطوط الملاحة . وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٤٥ ،

---

(١) با - دو - كاليه - PAS - DE - Calais

كان دور معامل رينو[١] . وفي ١٩ أيار ، غنوم والرون ، وفي ٢٥ حزيران ، الطيران الفرنسي ، الطيران الازرق ، الطيران الفرنسي عابر الاطلسي ؛ وفي الفاتح من كانون الاول ، بنك فرنسا وأربعة بنوك كبرى للودائع . كريدي ليونيه ، الشركة العمومية ، المؤسسة القومية الحسم ، والبنك القومي للتجارة الداخلية ؛ وفي ٨ نيسان ١٩٤٦ ، الكهرباء والغاز ؛ وفي ٢٥ نيسان التالي ، ثلاثين شركة تأمين .

واردات أحزاب اليسار والنقابات أن تمتد التجربة إلى نشاطات أخرى ، وبخاصة إلى جميع أشكال التأمين ، والصناعة الحديدية ، وبنوك المصالح ، وتمنت أكثرية الرأي العام ، بالعكس ، أن يكبح جماح تشريك الاقتصاد مخافة أن تدمره الاشتراكية .

واعتقد عديد من النقابيين وأعضاء اليسار ، بتأثرهم بالدعاية ، أن « الاحتكارات » المؤممة تملك في صناديقها كنوزاً مخبأة ؛ والواقع ، ان الصناديق فارغة ؛ وان تعميرها وتحديثها يتطلبان توظيفات كثيفة . ومع ذلك ، فقد نجحت العملية بفضل خطة التحديث والتجهيز ، ومبادلة المساعدة الامريكية ، التي قدمت بصفة خطة مارشل (أكثر من ٧٠٠ مليار فرنك) بالفرنكات ، وإلى كفاءة واعتدال نظرة الفنيين المكلفين بهذا العمل الدقيق ، بعد أن أثارت النقابات بعض الاضرابات المثيرة دون غد مباشر .

واختلفت الآراء على أفضل طريقة لامتصاص التضخم النقدي وتثبيت العملة والاسعار ، فقد امتدحت أحزاب اليسار استخدام الوسائل الميكانيكية ، من تجميد الحسابات ، واقتطاع كثيف على الاموال ،

---

(١) رينو Renault

ورقابة القطع ، وسياسة التقشف . وأتت على ذكر المثل البريطاني وفي الغالب على الاكثر أيضاً التجربة البلجيكية التي تحمل اسم وزير المالية في حينه ، كميل غوت . وأنكرت الاحزاب المعتدلة نفاذ هذه الوسائط الميكانيكية في بلد تحمل تضحيات ثقيلة جداً أثناء الحرب ، ولا يفهم بأن يحرم من التوفير الذي جمعه بقوة الظروف أثناء الاحتلال ، ويرى بأن يستخدمها لتعمير تموينه وتحسين مستوى حياته . وتقول : ان تجميد هذا التوفير ، ولو كان يخفض القيمة ، يعطي الفرنسيين انطباعاً بأنه يحرمهم من حقهم ويخيبهم ويزعجهم ويسيء معاملتهم . وان بريطانيا — العظمى لم تذهب إلى أبعد من ذلك . والتجربة البلجيكية لا يمكن أن تفيد مثالاً ، لأن بلجيكا عمرت أكداسها مباشرة بفضل اعتماد المليارين دولار اللذين تملكتها بموجب التنظيم الامريكي للاعارة والتأجير . ولكن هذه الحالة ليست نفسها بالنسبة لفرنسا ، المدينة بـ ١٩ مليار دولار ، ولا يوجد عندها ما تدفعه .

أخذت الحكومة بين هذين الاتجاهين المتعاكسين واختارت حلاً وسطاً . وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، أعلن بليفين [١] تجنيد الاموال الفرنسية في الخارج ؛ وصرح « بأن الفرصة متاحة لمهاجري الحدود لأن يقوموا بما يلزم ويكونوا في الحالة التي يتطلبها القانون » . وفي ٣ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، طرح م . لوبيرك ، وزير المالية ، قرض التحرير الأكبر (دخل دائم ٣٪ بالقيمة الاسمية) . وتجاوزت النتائج الآمال : ففي يوم الختام ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، اكتتبت ١٦٤٫٤ مليار ، منها ١٢٧٫٢ مليار نقداً حديثاً و ٣٧٫٢ مليار أسناداً على الخزينة ، من أكثر

---

(١) بليفين Pleven

(٢) لوبيرك Lepercq

من ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ موفر ، وهـذا ما سمح بالاقلال من التداول النقدي وتحويل قسم من الدين الداخلي القصير الاجل إلى دين طويل الاجل . وفي ٢٩ و ٣٠ آذار ١٩٤٥ ، بوشر بمبادلة الاوراق النقـدية ، دون اقتطاع ولا تجميد ، فرنكاً مقابل فرنك . وبعد بضعة أسابيع ، قررت ضريبة قومية استثنائية على رأس المـال ، تضرب بشكل ثقيل أغنياء الحرب وتدفع أرباعاً ، وصوت على القانون بالاجماع إلا صوتاً ، في ٣٠ تموز ١٩٤٥ . ولم تعط العمليتان الفوائد المرتجاة . لقد أملت الحكومة بالا يجرأ المستغلون على تبديل أوراقهم النقدية ؛ والواقع أن ما يقـارب كامل الاوراق النقدية الملغاة قد قدم إلى كوات الخزينـة للاستبدال . وأتت الضريبة على رأس المال بـ ١١٨ مليـار فرنك في أربعـة أعوام و « خمسة » أرباع ، ولكنها أصبحت غير شعبية جداً حتى ان الموفرين لم يكتتبوا في اصدارات اسناد الخزينة واضطرت وزارة المالية أن تتعهد بحذف كل أثر للاضبارات في محفوظاتهـا . وظل اليسار ، مع ذلك ، يطـالب بالكثير من الشدة على المستغلين ، وصنف بينهم في مكان جيد المزارعين الذين ، كما تقول الاشاعات ، خبأوا الاوراق النقدية من فئة الـ ٥٠٠٠ فرنك في أوعية غسيلهم .

وصدقت الحكومة القول . وفي صباح يوم من شهر كانون الثاني ١٩٤٨ قررت تبديل هذه الاوراق بقيمتها الاسمية . وكان القرار غير شعبي وغير مفيد . ولم توجد أوراق نقدية في أوعية الغسيل ، وكل ما وجد يكاد يكون ورقتين للعائلة في المناطق الزراعية ؛ ودخلت مباشرة إلى الصناديق العامة ٣١٥ مليار على ٣٢٠ مصدرة . وكانت العملية خاسرة .

ولم يوقف التضخم النقدي ؛ واستمرت أسعار المفرق في صعود ، وانتقلت

قرينتها (نسبتها) من ٤٠٠ في ١٩٤٥ إلى ١٠٠٠ في ١٩٤٧ . وتحملت فرنسا عندئذ تخفيضات نقدية متتابعة : في ٢٦ كانون الاول ١٩٤٥ ، كان الدولار يساوي ١١٩ « فرنك بليفين » ؛ وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٨ ، ٢١٤ « فرنك ماير » ؛ وفي ١٧ تشرين الاول من السنة نفسها ٢٦٣و٥ « فرنك كوي » ، وفي السعر الموازي صعد الدولار إلى ٣٥٠ فرنك .

ومع ذلك تحسنت الحالة الاقتصادية في فرنسا بفضل جهد البلاد ، وأيضاً بالمساعدة الخارجية التي قدمتها الولايات المتحدة . وهبط عجز ميزان الحسابات من ١٧٣٨ مليون دولار في ١٩٤٨ إلى ٧٠٦ مليون في ١٩٤٩ وإلى ٢٣٨ مليون في ١٩٥٠ .

المانيا

في ٨ أيار ١٩٤٥ ، لامست المانيا قاع الهاوية : لم يكن لها دولة ، أو ادارة ، أو حدود . وانهار اقتصادها : وسحق الطيران بالقنابل مدنها الكبرى كلها ، وخسرت ٦٠ إلى ٩٠٪ من رأسمالها غير المنقول . وبالجملة وجد ٣ ملايين مسكن بحاجة إلى إعادة بناء . وكلفتها الحرب ٥٥ مليار رايخشمارك (د م) . وكان منظور المستقبل قاتماً . كانت الخطة الامريكية التي وضعها ه . مورغنتاو [١] وزير الخزانة ، وقبلها ف . د . روزفلت ، لتتنبأ بحذف الصناعات الاساسية : الصناعات الحديدية ، والميكانيكية ، والكيمياء ، رمز عسكريتها ؛ وعلى أن تكرس في المستقبل طاقتها إلى أعمال الحقول او إلى بعض الصناعات التحويلية ؛ وأن

---

(١) ه . مورغنتاو H . Morgentau

تفك معامل سلاحها الاساسية ، وأن تحل مؤسساتها الصناعية الكبرى (كونتسرن)[١] .

وقسمت اتفاقات بوتسدام ، في آب ١٩٤٥ ، المانيا إلى أربع مناطق ، ولكنها أوصت بأن تصان وحدة الامة الاقتصادية ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً .

وفي غضون ذلك ، عاش الشعب عيش البؤس . وكتب رئيس الولايات المتحدة السابق هربرت هوفر : « لم يعرف شعب اوربي منذ قرون حالة بائسة كهذه الحالة » . ولم تكن بطاقات التغذية لتعطي حقاً إلا بما يعادل ٧٠٠ الى ٨٠٠ حرور (كالوري) في اليوم ؛ وكانت وسائل التدفئة غير كافية . واستعمل الغضار مقام الصابون . وكانت الاجور في المنطقة البريطانية التي تشمل الرور تساعد نظرياً على شراء بدلة كل أربعين عاماً ، وقميص كل عشرة أعوام ، وزوج من الاحذية كل ثلاثة أعوام ورفع التضخم عملياً كل قوة شرائية للرايخشمارك ؛ وكانت السيجارة الامريكية أو الانكليزية تقوم بوظيفة العيار النقدي . وفي طفرة تضامن قومي استشرى أرباب العمل والعمال على رفع الانقاض ، وتجديد وسائل الانتاج . وخولتهم سلطات الحلفاء دعماً ثميناً .

وفي ٢٠ حزيران ١٩٤٨ ، سحب الرايخشمارك من التداول وعوض بالدويتش مارك (د . م) ، مضموناً بالدولار . وكالسحر ، خرجت السلع المكدسة سراً من مكمنها ؛ وغصت المخازن بالمنتجات الغذائية ، والألبسة ، والأحذية ، والتبغ . وأصبح تحت تصرف أصحاب المشاريع والعمال نقد له قوة شرائية ، فعاودوا تذوق الجهد الانشائي . وبعد قليل بدأ ما أسمي بـ « المعجزة الألمانية » .

---

(٢) كونتسرن Konzern

اليابان

في ايلول ١٩٤٥ ، كان في اليابان ١٠ ملايين منكوب ؛ ٢،٢٠٠،٠٠٠ دار هدمها قصف القنابل . ونفدت اكداس السلع الغذائية والمواد الأولية ، ولكن القنبلة الذرية نجت البلاد من خراب شامل . وحث الابقاء على الامبراطور على رأس الأمة البلاد على النظام وعلى الجهد . وفي ١١ ايلول ١٩٤٥ ، اعلم الجنرال مارك آرثر اليابانيين أن الاشراف الاقتصادي الذي فرضه عليهم سيقتصر على الضرورات الخاصة بالاحتلال .

وسرح الجيش في زمن قياسي . وفي تشرين الأول ، سمح لليابان أن تتاجر مع الخارج ، على ألا تستورد ماهي قادرة على انتاجه بنفسها . وبعد شهر ، حلت التروستات (الاحتكارات) الأربعة الكبرى : ميتسوي ، ميتسوبيشي ، ياسود ، سوميموتو . ووضع مشروع اصلاح زراعي يحدد سطح كل مستغل بخمسة هكتارات .

واستمرت الولايات المتحدة في تخفيف الاعباء التي فرضتها الهزيمة . و تخرب الـ ٥٠٥ معامل المسجلة في القائمة السوداء . وكانت تصفية التروستات ظاهرية أكثر منها حقيقية .

وفي ١٩٤٨ ، استعادت الزراعة رقماً انتاجياً يساوي ٩٠٪ مما كان قبل الحرب ؛ وقدمت ٠٠٠ ٢٥٠ ١١ طن من الرز مقابل ١٢،١٥٥،٠٠٠ طن في ١٩٣٩ - ٤٠ ؛ والمجاعة، التي جعلها ضياع بعض المصادر التقليدية في التموين (مثل ماندشوريا ، كوريا ، فورموزا) والعودة الكثيفة للجنود الذين كانوا يعيشون في الخارج، وتزايد السكان (نحو ٨٠ مليون نسمة) حتمية ، قد جنبت . وفي ١٩٤٦ ، كان ثلثا اسطول الصيد في حالة تمكن من معاودة الحياة البحرية . وبالرغم من معارضة بريطانيا العظمى والهند ،

استعادت الصناعة النسيجية في العام ١٩٥٠ نصف قدرتها الانتاجية التي كانت قبل الحرب . وزادت نقابات العمال بشكل عظيم عدد المشتركين (٦ ملايين في ١٩٥٠ مقابل نحو ٥٠٠٫٠٠٠ في ١٩٤٦) ؛ ولكنها بدت سهلة المراس . وفي ٢٥ نيسان ١٩٤٩ ، استقر الين على أساس ٣٦٠ ين في الدولار الواحد ، وهذا ما أنهى التضخم النقدي الذي شهد الكتلة النقدية تنتقل من ٣٫٧ مليار ين في ١٩٣٩ إلى ٢٢١ مليار في ١٩٤٩ .

١٩٥٠ — ١٩٦٠

التوسع الاقتصادي والاجتماعي يسيطر عليه النزاع بين الكبيرين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي

في ١٩٥٠ ، خلفت التنميةُ التعميرَ . واستعدت جميع الدول لتجريب هذه المغامرة،التي تمثلها الزيادة المنتظمة للانتاج ، والتجارة،والدخول،والانخفاض الذي لايقل عنها انتظاماً في أسعار الكلفة ،واستقرار الأسعار،والتي تجعل القضايا الاقتصادية والاجتماعية والنقدية تأخذ بالتدريج القسط الأوفى من الاهتمامات الحكومية .

ولما كان التنظيم الدولي غير قادر بعد على تنسيق الجهود فقد حاولت كل حكومة أن تجد الحل على شاكلتها .

وهكذا فتح عهد جديد لمنازعات دون هوادة ، موشاة بـ « المعجزات » يدمغه لاول وهلة التجابه المثير والأصيل مما لم يحدث له في الماضي نظير بين أقوى أمتين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . اللتان تتنازعان

في سبيل التفوق العالمي ، لا بالسلاح ، بل بالانتاج الصناعي ، وان كشوف النصر يعبر عنها بالاحصائيات وبالنسب المئوية .

الاتحاد السوفياتي

لقد اختار السوفياتي هـذا الصعيد لأن العقائدية الماركسية تأمره بذلك . فحتى ١٩٣٩ عاش منطوياً على نفسه ؛ وظل البلد الاشتراكي الوحيد في العالم . ومن ١٩٢٨ إلى ١٩٣٩ ، لم يكن للخطط الخمسية من هدف آخر غير تحويل الاقتصاد الزراعي للاتحاد السوفياتي إلى اقتصاد صناعي مجهز بصناعات قوية أساسية . وقد اقتصرت في ذلك العصر اطماع الكرملن على اللحاق بالمانيا في انتاج الفحم ، الفولاذ ، الخ . ، دون أن يهتم كثيراً بما يفعله جيرانه . ولم يهتم بذلك ما دام ماركس ، وآنغلز ، ولينين أوضحوا التناقضات الاساسية للرأسمالية التي تقود هذه الاخيرة إلى خسرانها ، وعرفوا قوانين الاشتراكية العلمية ، التي تحذف نزاع الطبقات والبطالة والأزمات ، ولتعوض روح الكسب بالمنافسة الاشتراكية ، وتوفق بين جميع النشاطات الاقتصادية والاجتماعية بالتخطيط الشامل وتسوق الشعوب ، على مراحل ، إلى الشيوعية . وعندئذ تزول الدولة لأنه لا جدوى منها ، ويصبح التوسع الاقتصادي انعكاساً طبيعياً للمجتمع ، وتفرض النعمى والحرية نفسها نهائياً ، لأن كل إنسان يعمل حسب طاقاته ويأخذ حسب حاجاته .

واعتقد الاتحاد السوفياتي أن الحرب العالمية الثانية اتاحت له حظاً غير مؤمل في نجاح القدر . وقد اعترف بذلك علناً كل من ستالين ومولوتوف وقالا ، بأن النتيجة الوحيدة والدائمة لهذا النزاع ستكون انتشار الاشتراكية في العالم . وبعد نصر ستالينغراد ، في شباط ١٩٤٣ ، حررت الجيوش السوفياتية بالتدريج أوربه الشرقية والوسطى واقامت فيها حكومات

موالية للكرملن . وعندئذ لم يعد الاتحاد السوفياتي وحده يمثل الاشتراكية في العـالم ، فقد أوجد زبائن من الديموقراطيات الشعبية : بولونيا تشيكوسلوفاكيا ، هونغاريا ، منطقة الاحتلال الألمانية ، رومانيا ، بلغاريا ، التي ظلت وفية له أما يوغوسلافيا فقد استعادت حريتها في ١٩٤٨ ؛ والبانيا تقربت فيما بعد من الصين . وبفضل هذا الظرف الثمين ستحاول بسعادة كثيرة أو قليلة تحقيق « التقسيم الدولي للعمل الاشتراكي بالتخطيط المتعدد الجوانب » في قلب الكوميكون [1] ، جواب خطة مارشل والمنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادي (O. E. C. E) .

ومهما تكن أهمية الدور الذي تمسك به الدول التـابعة لموسكو ، وبالمقـابل مهما يكن عدد وقيمة البلاد الغربية التي تجمعت في العصر وراء الولايات المتحدة بواسطة خطة مارشل أو ميثاق شمالي الاطلسي ، فالنقاش تسيطر عليه المنافسة المباشرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، في سبيل التفوق الصناعي الذي لا يحسب بالحجم فقط ، بل برأس السكان. وهذا هو رهان التعايش السلمي . ويقول الاتحاد السوفياتي عن نفسه بأنه واثق من أنه سيغلب ، لأن انتاجية الاشتراكية ستكون في رأيه أقوى من انتاجية الرأسمـالية . ويبدو أن الولايات المتحدة غير مقررة أصلاً أن تقدم له الدلائل على ذلك .

---

(١) في البدء كان الكوميكون يضم الاتحاد السوفياتي ، بلغاريا ، هونغاريا ، بولونيا ، رومانيا وتشيكوسلوفاكيا . واشتركت فيه البانيا في ١٩٤٩ ، (وخرجت منه في ١٩٦٢) والمانيا الشرقية في ١٩٥٠ ، ومنغوليا الخارجية في ١٩٦٢ ، ويوغوسلافيا منذ ١٩٦٤ مع نظام خاص . ويضم الكوميكون اليوم الاتحاد السوفيـاتي والست دول التابعة الاوربية ، ويوغوسلافيا ومنغوليا الخارجية .

الولايات المتحدة

لقد كان التطور الاقتصادي للولايات المتحدة مستقيماً تقريباً منذ ١٩٥٠ ؛ وحذفت نوبات الركود أو التوسع الاقتصادي المهدد بالتضخم النقدي على العموم بسرعة . ولم تسبب الحرب العالمية الثانية خسائر جدية . فالخسائر بالرجال كانت نسبياً ضعيفة (٢٩١٠٠٠ قتيل في الحرب على ١٢ مليون مجنداً) ؛ وتم التغيير من جديد بسرعة ودون حادث عظيم ؛ وطالبت النقابات باسبوع ٤٠ ساعة ، وزيادات كثيفة في الاجور ، التي زادت ، مع ذلك ، من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥ من ٢٤ دولار في الاسبوع وسطياً إلى ٤٤،٥ دولار ؛ واظهرت مزاجها السيء باضرابات في مناجم الفحم ، والصناعة الحديدية ، وصناعة السيارات والخطوط الحديدية ، ولكن الحكومة قاومت جيداً . وبقي ١٨٥ مليار من التضخم النقدي جاهزة للامتصاص . وبلغت نفقات الحرب ٣٤٢ مليار دولار ، قدمت منها الواردات الضريبية ١٥٧ مليار فقط ؛ وانتقل الدين العام من ٤٠ مليار في ١٩٣٩ إلى ٢٦٠ في ١٩٤٥ ؛ وأتت الولايات المتحدة بمساعدة كثيفة إلى حلفائها الاوربيين . وبالرغم من الاعباء ، فقد بدأ التوسع الاقتصادي دون صعوبة واستمر بوتيرة مرضية . وسيطرت الولايات المتحدة دوماً على الدول الصناعية الأخرى ، في الانتاج ، والمبادلات ، ومستوى الحياة ، ولا يهدد أحد تفوقها . فهي تحتل المكانة الاولى في العالم في انتاج فحم البيتوم والانتراسيت (٤٧٤ مليون طن في ١٩٦٧) والبترول (٤٠٠ مليون طن) ، والكهرباء (١١٥٦ مليار كيلو وات ساعي) والفولاذ (١١٨ مليون طن) ، والالومنيوم (٢،٥ مليون طن) ، والاسمنت (٦٣ مليون طن) ، والسيارات (١١ مليون سيارة) ، الخ . وانتقل الانتاج القومي الخام من ٢١٥ مليار في ١٩٤٦ إلى ٣٨٩ مليار دولار في ١٩٥٥ وإلى ٨٤٠ مليار في ١٩٦٨ .

ويتمتع كل امريكي بدخل سنوي متوسط يساوى ٣٣٠٠ دولار ، مقابل ١٠٠٠ دولار وسطياً للأوربي . وزادت أسعار المفرق وسطياً من ١،٥ إلى ٢،٥٪ كل سنة . وافادت الشركات الاقتصادية القوية كحديد الرمح . فانتاجها الصناعي يساوي ربع الانتاج العالمي . والولايات المتحدة دوماً أول مصدر ومستورد في العالم . وارتفعت النفقات ، التي تخصصها للبحث العلمي ، من ٥ مليارات دولار في ١٩٥٤ — ٥٥ إلى أكثر من ٢٥ مليار في ١٩٦٧ — ٦٨ . وزادت انتاجية الاقتصاد . بـ ٦٧٪ بين ١٩٤٧ و١٩٦٤ بينا لم يزد عدد الرجال الساعين في الوقت نفسه إلا ٤،٥٪ ؛ وفي ١٩٦٨ ، خصصت ما يقارب ٨٠ مليار دولار إلى الدفاع الوطني ، دون أن يتلف التضخم النقدي النقد بصورة رصينة .

وهذا التفوق ، تنسبه الولايات المتحدة إلى الثروات الطبيعية في أرضها (٩،٣ مليون كم٢) ، وإلى حركية سكانها (٢٠٠ مليون) ، وإلى الثقة التي تخولها إلى المبادهة الفردية وإلى المشروع الحر .

ورفضت الولايات المتحدة كل عقائدية ترجع إلى الدولة لتأخذ على عاتقها ادارة كل شيء وعارضت تخطيط اقتصادها وتقول ان الدستور أعطى السلطات للشعب ، وإلى الكونغرس ، وإلى الرئيس ، ولم يعطها للموظفين ، وتضيف : التخطيط كلام فارغ اقتصادي ، والأرض واسعة جداً ، وشروط الانتاج والحاجات مختلفة كثيراً جداً ليصبح من الممكن « بصورة مسبقة » تثبيت نظام للعمل ، والتنبؤ بما سيحدث في خمسة أو عشرة أعوام . وان التخطيط المحدود في الزمان والمكان يجب أن يكفي المشروعات والسلطات العامة ؛ ولهذه على الاقل حق التدخل إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك . ولما كان جميع الناس على اتفاق في هذه النقطة فلا خوف عليهم من الخطأ .

ورغم هذه النتائج المرضية، فإن خصوم الرأسمالية الامريكية يظلون يؤكدون بأن تناقضات الرأسمالية تسوق الولايات المتحدة حتماً إلى تجشم أزمة جديدة أو إلى عطف اقتصادها نحو الاشتراكية . ويقولون : التناقض الرأسمالي مشهود في الزراعة ؛ وان حركة تركيز المستغلات تتابع بانتظام . والمكننة تزيد الانتاج فلا يجد منافذ ؛ وأسعار البيع غير كافية ؛ وعلى الدولة أن تمنح مساعدة مالية آخذة بالتوسع من سنة لسنة (٧٠٠مليون دولار في ١٩٦٠، ٣مليارات في ١٩٦٦) ؛ ويستدين المزارعون بازدياد من سنة إلى أخرى (٢٣ مليار في ١٩٥٩ ، ٣٦ مليار في ١٩٦٥) .

ولا تجد الزراعة الامريكية بعض التوازن إلا في زمن الحرب ؛ ففي زمن السلم ، تعيش في حالة ازمة مستديمة ، مقنعة بالنتائج البراقة التي حصلت عليها الصناعة والتجارة . ولكن هذه النتائج ، كما يضيف الخصوم ، لا تبرق إلا على السطح ، ويحاولون البرهنة على ذلك . وتتولى الاحتكارات التوسع الاقتصادي . وقد انتقل نصيبها في رقم الاعمال الوطني من ٣٠٪ في ١٩٤٦ إلى أكثر من ٤٠٪ في ١٩٦٨ ؛ وتحذف تدريجياً المشاريع الصغيرة والمتوسطة ؛ وتحكم على قسم من العمال بالبطالة ، وازدادت هذه الأخيرة بشكل لا يمكن اجتنابه في السنوات التالية ، بسبب صعود الأتمتة [١] (الآلية) وآثارها . ان ثلاثة إلى أربعة ملايين أمريكي على الأقل دون عمل . والنسبة المئوية للعاطلين لا تنزل تحت ٤٪ من الشعب العامل ؛ وتصعد حتى ٢٥٪ بين الزنوج وفي المناطق المحرومة . ويؤكد الخبراء ، بأن الانتاج القومي الخام السنوي ، إذا كان الناس يعملون، سيكون أعلى من ٣٠ إلى ٤٠ مليار دولار مما هو اليوم ، ولكن هذا ليس إلا فرضية . ومن ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ ازداد عدد الشباب في سن العمل بـ ٢٠ مليون ؛

---

(١) الأتمتة Automation

وحتى إذا حل هؤلاء الشبان محل العمال الذين بلغهم حد السن ، بمنافسة ٧ مليون ، يبقى أيضاً ١٣ مليون استخدام جديد للانشاء . وفي الواقع ، يلزم أكثر من ذلك (على الأقل ٢ إلى ٣ مليون) إذا تعممت الأتمتة « المعامل دون رجال » وطرحت في البطالة عمالاً هم على كل حال محمين بشكل مسيء ضد البطالة والمرض والشيخوخة . والضمان (الأمن) الاجتماعي مازال ناشئاً والنفقات الطبية وطب الأسنان غير مدفوعة ؛ ومعاشات التقاعد والعجز عن العمل غير مؤمنة إلا لمن سجلوا عقوداً لدى شركات التأمين أو التضامن (التكافل) . وواقع التبعية لشركة من شركات التضامن لأخذ التقاعد يربط العامل بالمشروع الذي يشغله ويحذف كل مرونة لسوق العمل .

ويتابع المراقبون : ان الدولار لا يسيطر على الاسواق النقدية بعد أن أضعفه التضخم النقدي . وقد لوحظت الاعراض : ان ميزان الحسابات في عجز بشكل ثقيل منذ ١٩٥٨ : ٣،٥ مليارات إلى ٢،٥ مليار حسب السنوات ؛ وسقطت احتياطيات الذهب في البنوك الاتحادية في عشرة أعوام من ٢٣،٥ مليار إلى أقل من ١١ مليار . والأسعار الداخلية تميل إلى الزيادة . ونفقات الحرب (نحو ١٠٪ من الانتاج القومي الخام) تغذي التوسع الاقتصادي ؛ والتثميرات في الخارج (٤ إلى ٦ مليار دولار في العام) تسهل التصدير ، ولكن هذه مخارج اصطناعية وخطرة : فالأولى تولد التضخم النقدي ؛ والثانية البطالة ، لأن فروع الاحتكارات المقامة في الخارج ، بدفع أجور أخفض ، تنافس منافسة مخيفة الشركات في الوطن الأم ، التي تصدر في شروط حسنة أقل .

وهذه الدعاية التي تتعمم ، لم تترك الحكومة والشعب الامريكيين لا مبالين . إن بعض الأحداث التي ذكرت في أعلاه لا تستحق المناقشة ؛

ولكن الشيء القابل للنقاش أكثر من غيره بكثير ، ربما يكون التفسير الذي يعطى عنه .

ما من أحد ينكر خلل توازن الزراعة ، ولكن النتائج بالنسبة للأمة أقل خطراً مما يراد أن يقال ، لأن عدد الزراعيين نسبياً ضعيف بالنسبة لمجموع الشعب العامل (يكاد يكون ٥٪) . ونصيب الشركات الكبرى في رقم أعمال الأمة يزداد بانتظام ، ولكن ليس بالضرورة على حساب المشروعات الصغرى (التي تضم أقل من ٢٥٠ مستخدم) التي تحميها الحكومة بالقانون المضاد للاحتكارات ، والتي تستفيد في الغالب من نشاط الاحتكارات ، باعتبارها مساعدة لها .

والبطالة هي دون منازع النقطة الضعيفة في الاقتصاد الامريكي ، ولكنها تميل إلى التناقص منذ بضع سنوات . والضمان الاجتماعي غير كاف ، ولكن عدد المستخدمين التابعين لصناديق معاش خاصة ما زال بازدياد : فقد كان ٤ ملايين في ١٩٤٠ ، وانتقل إلى ٢٥ مليون في ١٩٦٥ ؛ وسيكون ٤٢ مليون في ١٩٨٠ ، وبشكل تكون فيه الصناديق مضمونة برأسمال ٢٢٥ مليار دولار .

ومر الدولار بأدوار كان فيها فارغاً من محتواه بشكل رصين . ولكن تفوقه لم يبد مهدداً البتة . وكان ميزان التجارة فائضاً عن الحد باستمرار (٤ إلى ٦ مليـــار دولار) ، وأقلق عجز ميزان الحسابات السلطات الدولية ؛ ومن الممكن أن يخفض ، ولكن ربما كان ذلك على حساب الاقتصاد العالمي ، الذي يرى على هذا النحو ضمور احتياطيات القطع التي يتصرف بها ؛ أما التثميرات المباشرة وغير المباشرة للولايات المتحدة في الخارج ، فهي تتجاوز ٦٠ مليار دولار ومن الممكن على وجه الاحتمال أن تفيد كضمان للنقد .

وفي الواقع ، ان الانتقادات التي توجه إلى السياسة الاقتصــادية والاجتماعية للولايات المتحدة لا تصدر عن اتجاهـات قوية في الرأي العـام الامريكي . إن النقابية الامريكية الممثلة بـ « **الاتحـاد الامريكي للعمل**»[١] و **كونغرس المنظمة الصناعية**[٢] والتي تضم ١٨ إلى ٢٠ مليون مشترك ، تناضل لزيادة الاجور ، وتجديد الاتفاقات الجماعية (أكثر من ١٥٠٠٠٠) ، وامتداد الضمان الاجتماعي والتقاعد ، والاستخدام الكامل . وتشهر بأخطار الأتمتة دون أن تنتقد مبادئها ، وتطـالب لتجنب ذلك بالثقافة المسلكية المتسارعة وبخـاصة اسبوع الخمس وثلاثين ساعة . وقال جورج ميني[١] ، رئيس الاتحـاد الامريكي للعمل وكونغرس المنظمة الصناعية ، يوماً مازحاً : ليس لواشنطون اختيار : وعليها أن تفرض اسبوع الخمس وثلاثين ســاعة أو أن تعـدم بالرصاص قسماً من اليد العاملة الامريكية . وبالمقابل ، ان النقابات لا تشكك في نظام المشروع الحر ، بل وأفضل من ذلك ، تدافع عن مبدئه ، حتى في الخـارج ، ولكن ليس هذا من ذوق « جـذريي اليسار الجـديد » ، الذين يأخذون على موجهي الحزب الديموقراطي والنقابات بأنهم مسنون كثيراً ومحـافظون كثيراً ؛ ولكن هـؤلاء الجذريين (الراديكاليين) ، المنتقين من بين المفكرين ، لا يهتمون بالرأي العام وربما أقل من ذلك . أيضــاً بالعمال المتطورين « ذوي الياقات البيضاء » .

---

(١) الاتحاد الامريكي للعمل :
American Federation of Labor (A . F . L .)

(٢) كونغرس المنظمة الصناعية :
Congress of Industrial Organisation (C . I . O .)

في ١٩٥٥ ، اتحد المركزان مع بعضهما ، وفي ١٩٦٨ عادا عملياً الى حريتها .

(١) جورج ميني George Meany

ومع ذلك ، فان الحكومة والشعب في حالة قلق دائم . فالشيوعية أطلقت تحديها : ولكنها أزالاه . ولهذا السبب فان « المجتمع العظيم » الذي امتدحه ل . ب . جونسون يذكر في كثير من النقاط بالبرنامج الجديد الذي طبقه الرئيس ف . د . روزفلت . والبرنامجان يعلنان الحرب على الفقر ، مقدرين بأن ٣٠ إلى ٣٥ مليون امريكي « فقراء » لأن دخلهم السنوي أقل من ١٥٠٠ دولار (في اندونيسيا يكاد يصل إلى ٣٠ دولار في العام) .

إن الاقتصاد الامريكي في كامل توسعه . والانتاج القومي الخام يزداد من ٣٠ إلى ٤٠ مليار في العام . وفي كل سنة توظف المشاريع الخاصة ٨٠ مليار دولار وتحقق أرباحاً مرتفعة أيضاً أي ما يعادل تقريباً الانتاج القومي الخام في فرنسا . ولم تفسد نفقات الحرب في فيت ـ نام التوازن الاقتصادي واستقرار النقد .

ولتحافظ الولايات المتحدة على تفوقها ، ترى نفسها مع ذلك مضطرة لأن تضع اقتصادها القومي في الاقتصاد الدولي ؛ وهي بحاجة إلى البلاد السائرة في طريق النمو لتجهزها بالمواد الاولية التي تنقصها ، كما هي بحاجة للبلاد المصنعة لتشتري منتجاتها المنتهية ، وتستمر في تحويل اقتصادها بغية تخفيض سعر الكلفة ، وتوزيع الدخول بشكل عادل ، ولتفتح منافذ جديدة ، مع بقائها وفية للحرية والملكية الفرديين . وفي هذه النقطة الأخيرة ، تمنعها سياسة الكتلة الشيوعية من قلب كل شيء وجعله خاضعاً لادارة الدولة وتوجيهها دون أن تنكر ذاتها وتفقد ايمانها بنفسها ، ولكن تعقيد الاتجاهات المتضاربة التي تجتاز العالم تضطرها تدريجياً لأن تقبل بأن أفضل طريقة للحفاظ على التفوق الاقتصادي وعلى جاهها السياسي تقتضي التخلي ، كما فهم الرئيس ج . ا . كينيدي ذلك ، عن فكرة « الزعامة »

في سبيل « الزمالة » المعقولة والمقبولة ، لأن الأمم المستقلة تريد أن تنصح وأن تساعد ، ولكنها ترفض أن تكون مقادة .

الاتحاد السوفياتي

هل يستطيع الاتحاد السوفياتي كسب الرهان في اللحاق يوماً بـ « البلاد الرأسمالية الاكثر تقدماً من غيرها » وينصر الاشتراكيه ؟ الجواب ، بالنسبة للموجهين ، ايجابي دوماً ، ويحاولون اثباته بالأرقام[1] . فمن ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨ ، انتقل الانتاج السوفياتي للكهرباء من ٢٣٥ مليار كيلووات ساعي إلى ٥٠٩ مليار ؛ وانتاج الفولاذ من ٥٥ مليون طن الى ١٠٢ طن ؛ وانتاج البترول من ١١٣ مليون طن إلى ٢٨٩ مليون ؛ وانتاج الغاز الطبيعي من ٣٠ مليار م^3 إلى ١٣٠ مليار . وفي غضون ذلك ، تضاعف رقم اعمال الانشاء الميكانيكي والصناعة الكيميائية . وإذا أخذنا بقول كوسيغين ، رئيس مجلس الوزراء ، نجد أن وتيرة التوسع الاقتصادي وسطياً ١٠،٩٪ في العام في الاتحاد السوفياتي ، مقابل ٣،٩٪ في الولايات المتحدة ، ٣،٥٪ في بريطانيا العظمى ، ٥،٦٪ في فرنسا و ٦،٣٪ في جمهورية المانيا الاتحادية . وبصورة منتظمة ، يتناقص وقت العمل (٤٠ ساعة في الاسبوع ، دون ساعات اضافية) ، وتزداد الاجور ، وتنخفض الضرائب غير المباشرة .

---

(١) ولسوء الحظ ، ان الاحصائيات الصادرة عن الشرق ، واكثر من ذلك أيضاً الاحصائيات التي يرسلها الشرق الأقصى الشيوعي للغرب ، هي مقتطفات ، دون امكانية تحقيق ورصد . فهي تتكلم طوعاً عن الانتاج الصناعي ، لا عن التجارة الخارجية ، وميزان الحسابات ، والاحتياطيات النقدية ، والانتاج القومي الخام ، ومستوى الحياة . وإذا اعطت دلائل مرقة فيجب الحذر منها ايضاً ، لأن الروبل رسمياً يعادل الدولار ، ولكن فقط لأن الحكومة السوفياتية قررت ذلك وحدها على هذا النحو .

وإذا أضيف إلى انتاج الاتحاد السوفياتي نشاط الاعضاء الآخرين في الكوميكون ، فإن الانتاج الصناعي للكتلة الشيوعية العالميه يمثل أكثر من ٤٠٪ من الانتاج العالمي ؛ والكوميكون يجهز ١٣٥ مليون طن من من الفولاذ ، ٦٨٠ مليار كيلوات ساعي ، ٣١٠ مليون طن من البترول ، ١٢٢ مليون طن من الاسمنت . وتنبأت الخطة الخمسية الجديدة للاتحاد السوفياتي (١٩٦٦ - ١٩٧٠) بأن الاتحاد السوفياتي في ١٩٧٠ ينتج وحده ٦٧٥ مليون طن من البترول ، ٢٤٠ مليار م^3 من الغاز الطبيعي ، ١٢٩ طن من الفولاذ ، ١٥٠٠٠٠٠ سيارة ، ١٠٥ مليون طن من الاسمنت ، الخ .

وهذه الأرقام الأخيرة يمكن أن تثير ، بيد أنها غير قابلة للرصد ، حتى انها إذا طابقت الحقيقة يوماً ما ،تبقى أخفض من الأرقام التي تطابقها في الولايات المتحدة .

لقد حسبت المجلة الامريكية الكبرى « اخبار الولايات المتحدة وتقرير عن العالم[١] » في عددها الصادر ، في ٣١ كانون الثاني ١٩٦٦ ، ان الانتاج القومي للكتلة الاوربية (الاتحاد السوفياتي وتوابعه الستة) من ١٩٥٥ — ١٩٦٥ ، انتقل من ١٩٠ مليار دولار إلى ٣٧٠ مليار ، وهذا يكاد يعادل نصف ما كان عليه الانتاج القومي الخام للولايات المتحدة في في ١٩٦٦ . ويرى خبراء آخرون ، على عكس التوكيدات الشيوعية ، ان الانتاج الصناعي للكوميكون ، وتدخل فيه الصين الشيوعية ، لا يتجاوز ثلث الانتاج العالمي . ولما كان كل تحقيق رصين مستحيلاً ، فلا يوجد الا يقين للحفظ ، وهو أن الاقتصاد السوفياتي ، منذ ١٩٥٠ ، نما بانتظام اكيد ؛ وقد يدهش العكس : لأن الاتحـاد السوفياتي يتصرف بـ $\frac{1}{6}$ سطح الارض (٢٢٫٥ مليون كم^2) ؛ ويضم تحت تربته ثروات لا حد لها . وشعبه

---

(١) « U.S. News and World Report »

عديد (٢٣٥ مليون) ، وشاب وخصب . ومن الجلي أيضاً أن هذا التطور لم يتم ، لولا الصفاء الذي تؤمنه له منطقياً الاشتراكية العلمية وعدم نزاع الطبقات وحماسة المنافسة الاشتراكية .

ومن حيث المبدأ ، تحذف سياسة التخطيط الشامل ، في الواقع ، البطالة والأزمات الاقتصادية . وإذا لم يوجد بطالة في الاتحاد السوفياتي ، على اعتبار أن جميع الناس ، مبدئياً ، مجبورون على العمل ، فالاقتصاد السوفياتي غير معفى من الأزمات ، ومن خلل التوازن الدائم بين الانتاج والاستهلاك ، وعدم كفاية العرض بالنسبة للطلب ، والتضخم النقدي العتيد ، والاسراف ، وسوء الصنع ، والعجز في داخل المشاريع . وللاقتناع بذلك ، يكفي أن تقرأ التقارير الرسمية المنشورة منذ ١٩٥٣ ، وأحدث من ذلك ، التقارير التي قدمها اليكسي كوسيغين وليونيد بريجنيف إلى دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (٢٧ إلى ٢٩ ايلول ١٩٦٥) وفي المؤتمر الثالث والعشرين المنعقد في موسكو في آذار — نيسان ١٩٦٦ . لأن أكثر من نصف المشاريع السوفياتية في حالة عجز : لأن قواعد الانتاج ومبادئه غير محترمة ، واذا احترمت فكثير من المشاريع لا تهتم في معرفة ما إذا كان الانتاج يطابق الحاجات

ان الزراعة السوفياتية ، التي كانت مصدرة تحت حكم القياصرة ، لم تصل إلى تغطية حاجات السكان . والكولخوزيون يفضلون زراعة قطعة الارض التي خصصت لهم شخصياً (٢٥ آر في الحد الاعظم) ، والعناية بقطيع الماشية الذي يخصهم أكثر من تكريس كل جهودهم لأعمال التعاونية الزراعية . و« الانتاج التجاري » الذي يصدر عن هذا العمل الشخصي ، والذي لم يجرأ ستالين نفسه على حذفه ، مازال يغذي الأسواق الحرة ؛ ويمثل من

٣٠ إلى ٥٠٪ من مبيعات الاستهلاك ، بالرغم من الاسعار المرتفعة المطبقة فيها . وفي هذه السنوات الاخيرة ، وحتى ١٩٦٦ ، اضطرت الحكومة السوفياتية ، لتأمين اللحمة بين انتاج العام السابق واللاحق ، أن تستورد الحبوب من أمريكا الشمالية ومن أوربة وأن تدفع هذه المشتريات ذهباً . ويرى الخبراء الغربيون ان خروج الذهب الرومي باتجاه الغرب قد ارتفع من١٩٥٥ إلى ١٩٦٥إلى ٣ مليارات دولار ؛ وان احتياطيات المعدن الاصفر التي يتصرف بها الاتحاد السوفياتي هبطت إلى ٢ مليار دولار، وهذا المبلغ ضعيف نسبياً بالنسبة إلى بلد يتطلع لأن يلعب دوراً دولياً .

ان سياسة زرع الاراضي العذراء (٤٠ مليون هكتار) أو حتى التنمية الصناعية لبلاد الشرق (الاورال ، سيبريا الغربية ، سيبريا الشرقية) لم تعط النتائج المتوخاة . ولم تكن نسبة توسع هذه الاراضي أعلى من نسبة روسيا الاوربية القديمة ، بالرغم من رؤوس الاموال التي خصصت لها . وتمت التنمية الصناعية فيها على حساب التنمية الزراعية .

وأخطر من ذلك أيضاً ، ان سياسة التخطيط نفسها عرفت مصيراً متغيراً . فقد تمسك ستالين بشدة بشكل الخطط الخمسية . وتخلى بولغانين عن المبدأ في ١٩٥٦ ، وبعد صمت بضعة أشهر ، أطلق خروتشوف الخطة السبعية ١٩٥٩ — ١٩٦٥ ، مضاعفة بخطة منظور إلى المستقبل من ١٥ إلى ٢٠ عاماً . وفي ١٩٦٥ ، عاد كوسيغين وبريجنيف إلى شكل الخطة الخمسية .

وتجشمت البنيات الادارية والمسلكية تغييرات لا تنقطع . وأعطى ستالين الاولوية إلى التنظيم الشاقولي الذي يعتمد في الذروة على

الغوسبلان [١] والوزارات الفنية ، التي توجه كل واحدة منها في اختصاصها ، مجموع الانتاج السوفياتي . وفي ١٩٥٧ ، شهر خروتشوف بمساوىء النظام الموصوف بأنه مناوىء للديموقراطية وغير ناجع ، ووضع التنظيم الصناعي في المناطق تحت رقابة مجالس المناطق الاقتصادية « سوفنار خوز » [٢] . وفي ١٩٦٥ ، حذف كوسيغين وبريجنيف مجالس المنـــاطق الاقتصادية « سوفنار خوز » وأقام الوزارات الفنية .

وقاومت المكتبية (الديوانية) أي البورووقراطية وحدها كل هـذه التغييرات التي لعنها تبـاعاً لينين ثم بولغانين ، وخروتشوف وكوسيغين باتهامها بوضع الحواجز في طريق الاقتصاد وتثبيط المنافسة الاشتراكية .

وتلقت البلاد الاشتراكية التابعة الشكاوى نفسها لأنهـا تحملت نفس الآلام التي تحملها الاتحاد السوفياتي ، وطبقت العلاجات نفسها . ولانعاش المنافسة الاشتراكية رأت الاحزاب الشيوعية نفسها مضطرة ، في العـام ١٩٦٥ ، لأن تعيد ثانيـة توطيد أفكار الربح ، والرقابة الشديدة جداً على أسعار الكلفة ، والكيفية ، والمرونة في الانتاج وفي البيـع ، حسب طرق الاستاذ ليبرمان .

ومـا زال الاتحاد السوفياتي وتوابعه بعيدة جداً عن تحقيق الشيوعية وحتى الاشتراكية الكاملة . ومن الممكن أن يتساءل ما اذا كانت تتوصل اليها دات يوم وما إذا لم يوجد تناقض أساسي بين سياسة التأميم وسياسة التخطيط المعممين وتحقيق اقتصاد منسجم تطابق نشاطاته حاجات السكان المختلف بعضها عن بعض بازدياد . إن سياسة التخطيط وحتى البورووقراطية

---

(١) الغوسبلان Gosplan (مجلس التخطيط)

(٢) سوفنار خوز Sovnarkhoz

يمكن أن يكون لها بعض النفـــاذ عندما يراد انشاء صناعات أساسية (الطاقة ، الحديد ، الاسمنت ، المعادن) في بلد متأخر بعد ، يتصرف مع ذلك بيـد عاملة واسعة وبثروات طبيعية وافرة . وطرق الصنع في هذه الصناعـــات بسيطة نسبياً : لأن الآلات حلت محل الانسان بسهولة . وما دامت الخطط الخمسية تتابع هـذا الهدف وحـــده ، في العصر الستاليني ، فقد حصلت على نتائج ايجابية وحتى مثيرة ؛ ومنذ أن اتسعت الحاجات في سلع الاستهلاك ، شعرت سياسة التخطيط بصعوبات جدية في التكيف ، وغاصت البوروقراطية في اللامبالاة والعجز بسبب نقص التصور والتخيل والمرونة . ولذا يجب ألا نعجب إذا لم تزد صناعات التحويل السوفياتية انتاجها إلا بـ ٥٠٪ أثناء الخطة السبعية (١٩٥٩ — ١٩٦٥) ، وان الصناعة الكيميائية تبدي تأخراً عظيماً ، وان صنع وتوزيع السلع الاستهلاكية (منسوجات ، أحـذية ، الخ ..) كانا معيبين وغـــير متكيفين ، ومتأخرين بشكل عريض جـداً عن صنع وتوزيع البلاد الرأسمالية ، وان احتياطيات المخازن تغص بالبضائع الكاسدة ، كما اعترف بذلك اليكسي كوسيغين أمام لجنـة الحزب الشيوعي ، دون أن يعجب أحد من ذلك .

وفي الواقع ، انتهت الخطة السبعيه بنصف إخفاق . فقد شيدت مساكن غطت ٥٥٦ مليون متر مربع ، ولكن وعـد بـ ١٠٠ مليون زيادة . وكان يجب اعطاء التفضيل لصناعات السلـــع الاستهلاكية ، إلا أن نصيب سلع الانتاج في مجموع الانتـــاج ، صعد ، بالعكس ، من ٦٨،٨٪ في ١٩٥٠ الى ٧٤،٨٪ في ١٩٦٤ . والأهداف المتوقعة في ١٩٥٨ لأجل ١٩٦٥ لم تبلغ بالنسبة للفحم ، الغاز ، المنسوجات الاصطناعية ، السيارات ، الدراجات النارية ، الاسمنت ، الاحـذية ، وأجهـزة الراديو

والتلفزيون ، الخ . ولهذا اقترحت الخطة الخمسية الجديدة للعام ١٩٧٠ أهدافاً أكثر تواضعاً من الاهداف التي تنبىء بها في الأصل .

هذا ولما كان التوسع الاقتصادي سبب وجود النظام نفسه والقوة الضاربة لدعايته ، فقد حاول الاتحاد السوفياتي أن يسد نقص صناعاته التحويلية والاستهلاكية بمبادلات ، في داخل الكوميكون ، ومع البلاد السائرة في طريق التنمية ، وأخيراً بشراء أجهزة من البلاد المصنعة الغربية .

ومن ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ ، زادت التجارة بين بلاد الوحدة الشيوعية بـ ٤٥٠٪ ومثلت ، في ١٩٦٨ ، ٧٢٪ من التجارة الخارجية لجميع الاعضاء . وبحسب الاتفاقات المبرمة حديثاً بين الاتحاد السوفياتي وبلاد الكوميكون الأخرى ، يجب أن تبلغ المبادلات السوفياتية ، في الدور الخمسي (١٩٦٦ — ١٩٧٠) ، ١٥٫٢ مليار دولار مع جمهورية المانيا الديموقراطية ، ١١ مليار مع تشيكوسلوفاكيا ، ٩٫٥ مليار مع بولونيا ، ٧٫٨ مليار مع بلغاريا ، ٤٫٢ مليار مع رومانيا و ٦٫٣ مليار مع هونغاريا . وهذه الارقام مرتفعة جداً وربما تكون وهمية . والكوميكون ليس وحدة (اسرة) أعضاؤها متضامنون بشكل وثيق وشديد . إن خطة التقسيم الدولي للعمل الاشتراكي لم تحصل على الاجماع . وان رومانيا ، وهونغاريا وحتى بولونيا لا تريد ، في المضمار الصناعي ، ان تترك المجال لجمهورية ألمانيا الديموقراطية أو تشيكوسلوفاكيا . وأكثرها حرماناً تحرص على تنمية صناعاتها الاساسية والتحويلية بشكل لا تكون فيه « بستاني » الديموقراطيات الشعبية الاخرى ، كما قال في ذلك ممثل رومانيا في دورة من دورات الكوميكون .

والمساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفياتي منذ ١٩٥٠ إلى الشعوب

السائرة في طريق التنمية — بضعة مليارات دولار — هي ثنائية الجانب ، ومؤسسة مبدئياً على المقايضة . ولما لم يكن للبلاد المتخلفة ما تقدمه إلا المواد الاولية ولا تستطيع أن تفي مشترياتها بالعملات القومية ، فإن العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث محدودة .

ولذا وجب على الاتحاد السوفياتي أن يتجه شطر الولايات المتحدة ، وأوربة الغربية واليابان للحصول على التجهيزات التي تنقصه . والدول التابعة تضغط ضغطاً شديداً على موسكو في هذا الاتجاه . والدول الغربية لا تترك فرصة مناسبة تمر لزيادة منافذها ؛ ووقعت معاهدات تجارية عديدة مع بلاد الشرق ، ولما كانت هذه الأخيرة تدفع وارداتها بصادراتها ، فان امكانيات التبادل قليلة أيضاً ، وبخاصة مع الولايات المتحدة . ومع ذلك ، فإن هذه المبادلات تفتح في حصن الكوميكون ثغرة توشك أن تتسع إذا ما قبلت الدول الغربية أن تبيع بالاعتماد بلاد الشرق معامل مجهزة بكاملها . وقد جازف الاتحاد السوفياتي ، وضرب المثل : فقد أنشأ في داخل اقتصاده الاكتفائي مشاريع مهمتها التجارة مع الغرب باستخدام طرق مشابهة في سير العمل والتمويل .

وهذا التطور في الاقتصاد السوفياتي نحو بعض « الليبرالية » في داخل المشروع وفي علاقاته مع الخارج لا يسمح بأن نستنتج أن الاتحاد السوفياتي يرجع تدريجياً إلى شكل ما من أشكال الرأسمالية . ان موجهي موسكو ينعون ذلك عن أنفسهم بشدة . والحزب يحافظ على جميع سلطات القرار ، وسياسة التخطيط مستمرة في تنظيم الانتاج والمبادلات والحياة الاجتماعية . والرأسمالية البورجوازية تبقى عدواً يجب كفاحه ، وليس للتعايش السلمي هدف آخر . والاتحاد السوفياتي يحتل بقوة المكان الثاني بين الأمم الصناعية . وليس له أي حظ في مستقبل قريب في ثل عرش الولايات المتحدة .

١٩٦٠ – ١٩٦٨

اضطراب البنيات

يرى منذ ١٩٥٨ ، ان النزاع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لا يحتكر الانتباه الدولي ، وفقد جاذبية المفاجيء الذي انتقل مباشرة نحو قارات أخرى . وبفضل خطة مارشل ، والمنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي ، والاتحاد الاوربي للمدفوعات ،استعادت أوربه الغربية قواما : فالجنيه الاسترليني ، والفرنك الفرنسي ، والمارك الألماني ومعظم العملات الاوربية الاخرى وجدت في ١٩٥٨ قوة مبادلتها الحرة . ومنذ ١٩٥٣ أقامت الأسرة الاوربية للفحم والفولاذ همزة وصل بين فرنسا ، وجمهورية المانيا الاتحادية ، وايطاليا وبلاد البينيلوكس الثلاثة ، ثم جاء دور السوق المشتركة في محاولة التوحيد التام للقوى الاقتصادية في الدول الست ، في ١٩٥٨ ؛ وفي السنة التالية ، أسست بريطانيا العظمى ، مع السويد ، النورفيج ، الدانمارك ، النمسا ، سويسرا والبرتغال ، الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة[1] .

وفي آسيا ، عادت اليابان والصين إلى مكانها في المحفل الدولي ؛ وأخيراً، حرر انحلال الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى معظم الشعوب الآسيوية والافريقية من الوصاية الاوربية ، واهتزت امريكا الجنوبية بدورها لا برغبة الاستقلال السياسي الذي كسبته مبدئياً منذ قرن ، وانما بارادة التغلب على البؤس الذي يقهرها . ومنذ هذا الحين بدأ ما أسميناه انقلاب البنيات الاقتصادية والاجتماعية .

---

(١) كانت فنلدة دولة شريكة في هذه الرابطة .

التنافس في على المكان العالمي الثالث

بين المعجزتين : المانيا واليابان

إذا كان المكان الاول والثاني بين الدول الصناعية تحتلها بقوة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، فان المكان الثالث موضع منافسة حديثة العهد ، لا هوادة فيها ظاهراً ، بين جمهورية ألمانيا الاتحادية واليابان وإذا وصلت هاتان الدولتان إلى قمة التسلسل فلا عجب في ذلك . وما هو أكثر من ذلك ، الدرس الذي يخرج من هذا الصعود . ففي القديم تنشب الحرب لكفاح الخصم وقصاصه ، ونهبه ، ومنعه من الضرر . وقد علمتنا الحرب العالمية الثانية أن يميز منذ الآن بين الحكومات والشعوب، وأن يهيأ كل شيء لتدمير الحكومات ، وأن يبادر من بعد إلى النهوض بالشعوب . وهكذا خول إلى المغلوبين حظ غير مؤمل فيه ليجدوا أنفسهم بعد الهزيمة أقوياء ، إن لم يكونوا أكثر من ذلك ، كما كانوا قبل الحرب ، والأكثر من ذلك هو أن جمهورية ألمانيا الاتحادية واليابان تظهر ان بظهر « معجزتين » بنفس الاسلحة الاقتصادية والنفسية والفنية . يقول المانيو الغرب طوعاً : لسنا ألا أمة صغيرة ؛ لقد اقتطع من أرضنا، في ١٩٤٥ ، ٤٨٪ من السطح الذي كانت تحتله في ٣١ كانون الاول ١٩٣٧ . وهي لا تساوي، بـ ٢٤٨٠٠٠ كـ م٢ ، نصف الارض الفرنسية، وأكبر بقليل من ولاية أوريغون في الولايات المتحدة ؛ وتنقصها المواد الأولية ، إذا استثني الفحم ، والليغنيت والبوتاس ؛ والزراعة ، وإن كانت كثيفة ، لا تغطي الحاجات . وشعبها ، ٥٩ مليون نسمة، لا يساوي ثلث شعب الولايات المتحدة أو ربع الاتحاد السوفياتي . وبالرغم من هذا التواضع الظاهر والخسارة الحقيقية في الاراضي والسكان ، فقد سمت

جمهورية ألمانيا الاتحادية ، في بضع سنوات ، إلى الصف العالمي الثالث في الانتاج الصناعي ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وإلى الصف الثاني في التجارة بعد الولايات المتحدة ، وقبل بريطانيا العظمى ، بعد أن تجاوزتها في ١٩٥٨ .

لقد فاجأ التوطد السريع للاقتصاد الألماني زملاءه في الغرب كما أقلق الاتحاد السوفياتي وتوابعه . ولذا فقد جرى الكلام لأول مرة في موضوع المعجزة الاقتصادية . ومع ذلك فالايضاح سهل .

لقد كانت ألمانيا بصورة تقليدية مشغلاً صناعياً . وتنتج بضائع ممتازة بأسعار كلفة تنافس غيرها ، وتحاول أن تبيع قسماً هاماً منها في الخارج ، مؤمنة لشعبها مستوى حياة مرتفعاً . وإذا وجدت معجزة ، فهي هنا . ورغماً عن المواد الضعيفة الطبيعية ، واستلهاماً من المبادىء ، وتطبيقاً للطرق التي تذكر في بعض النقاط الطرق التي هي في موضع الشرف في في الولايات المتحدة ، وجدت ألمانيا الحل لهذه القضية المزدوجة التي مازالت ، بالنسبة للآخرين ، حلقة مفرغة .

وجمهورية ألمانيا الاتحادية منذ ١٩٤٩ ديموقراطية برلمانية تنفذ في الصعيد الاقتصادي إلى « الاقتصاد الاجتماعي للسوق » الذي اقترحه عليها ل . ارهارد في ١٩٤٩ . وهذه العبارة صيغة معقدة « تحاول أن توفق بين الاقتصاد الحر ، والمنافسة الحرة ، والمبادهة الخاصة مع المثل الاعلى للتقدم الاجتماعي » . والألماني يؤمن دوماً بمناقب الدولة ، شريطة أن تكون هذه الأخيرة متعددة الأشكال واتحادية . والدولة الاتحادية اليوم ناظمة ، وحامية ، وحاسبة تتقاسم بعض الصلاحيات الأساسية (المالية ، التعليم ، الشرطة) مع الأقاليم الحريصة على امتيازاتها . وتطرح كل تخطيط منظم للاقتصاد ؛

وتثق بالمبادهه الخاصة الفردية ، وتشجع سير العرض والطلب وتتدخل إذا كانت المصلحة العامة داخلة في القضية . وتلعب « الكونتسرن » الكبرى في جمهورية ألمانيا الاتحادية دوراً يشبه قليلاً دور التروستات في الولايات المتحدة : وهي قليلة العدد ، وتؤمن الانتاج بكثرة كماً وكيفاً . وبعض هذه الكونتسرن (فولكسفاغن ، سيمنس ، تيسّين ، دايملر — بنز ، باير كروب ، هوش ، غوتهوفنونغس — هوت ، A . E . G ، باديشه - آنيلين ، الخ) ، التي يتنوع رقم أعمالها بين ٦ و ١٠ مليار دويتش مارك ، تتمتع بشهرة عالمية . وتتصرف بأجهزة فنية حديثة جداً وتحصل على نسبة انتاجية مرتفعة (٥ إلى ٦ ٪ في العام ؛ وتدخر وسائل مالية قوية تطلقها في المعركة الاقتصادية ، متأكدة من المساندة غير المشروطة التي تخولها إياها المصارف الكبرى الخاصة (دويتش بانك ، درسدنر بانك ، الخ .) .

ومنذ ١٩٤٩ والشعب الألماني يكافح في سبيل رخائه وازدهاره . وكانت البدايات صعبة : من ١٩٤٩ إلى ١٩٥١ كانت التجارة الخارجية في عجز ، والأسعار ترتفع بسرعة ، وعدد العاطلين مليونان . ومنذ ١٩٥٢ ، اتضح التوسع الاقتصادي ، وتسارعت وتيرته بانتظام في السنوات التالية . وانتقل رقم الأعمال في الصناعة من ٨٠ مليار دويتش مارك في ١٩٥٠ إلى ٣٥٠ في ١٩٦٤ ، والانتاج القومي الخام من ١١٣ مليار في ١٩٥٠إلى ٢٨٢ مليار في ١٩٥٠ وإلى ٤٥٠ مليار في ١٩٦٧ . ومنذ ١٩٥٣ ، والتجارة الخارجية رابحة باستمرار : فقد صعدت الصادرات من ١٦،١ مليار دويتش مارك في ١٩٥٢ إلى ٨٦ مليار في ١٩٦٧ ؛ والواردات ، من ١٦،٢ مليار إلى ٧٠ مليار . والدويتش مارك نقد من أقوى

العملات في العالم ؛ وبلغت احتياطيات القطع في البنك الاتحادي ٣٥ مليار دويتش مارك في تموز ١٩٦٨ .

وجمهورية المانيا الاتحادية مدينة بنجاحها الاقتصادي والاجتماعي إلى الطرق التي أمنت في ١٩١٤ قوة الامبراطورية : العمل والبيع ، مع النظام والجد والثبات والحركية التي لا يثبطها عزمها شيء ، وهي تلقي بكل قواها في المعركة ، مع القناعة الحازمة التي حرص فالتر راتيناو [١] على حقيقتها حين قال إلى أبناء وطنه : « الاقتصاد قدرنا » .

ولكن المداليا ، مع ذلك ، لها قفا من عدم الاستقرار والقلق الدائم . والالمان لا يقومون عادة بنصف العمل : فاما أن يغرقوا في التشاؤم أو أن يصبحوا معجبين بأنفسهم . وهم ، إذا تطلبت الظروف ، قادرون على تضحية الفضل بل الضروري شريطة أن يؤمنوا بعدالة قضيتهم وأن يثقوا بزعمائهم ؛ وإذا أحسوا بالازدهار على بابهم ، أرادوا أن يستخلصوا منه كل الربح . وإذا قرروا الانطلاق إلى فتح المنافذ الخارجية ، فان « كونتسرناتهم » ومصارفهم تجازف بكل الاخطار : يعرضون اعتمادات واسعة طويلة الأجل ، وعندئذ يكونون تحت رحمة أزمة (وهذه حالة كروب) أو حتى تقهقر ، ولدى الاعراض الاولى يتملكهم الخوف .

والأمثلة على ذلك كثيرة في سياق تاريخهم . ولكن ، منذ ١٩٥٨ ، بدأ الإنذار الجدي في ١٩٦٥ : إن الطلب الداخلي القوي للسلع الاستهلاكية ، والرغبة النشيطة في النعمى والرفاه ، وزيادة الاجور ، والمطر الغزير من « الهدايا الانتخابية » للعمال ، إلى أصحاب الدخل ،

---

(١) فالتر راتيناو Walter Rathenau

إلى الخطوط الحديدية ، إلى المتقاعدين ، الخ ، قبل اقتراع ايلول ١٩٦٥ ، أثارت أزمة تضخم اقتصادي ، وهبط فائض التجارة الخارجية ، اثر الواردات الكثيفة ، الى ٩٫٢ مليار في ١٩٦٥ : وصعد الى ١٧ مليار في ١٩٦٧ . ولأول مرة منذ زمن طويل ظهر في الموازنة الاتحادية ، في ١٩٦٦ ، عجز ٧٫٢ مليار . وفجأة ، ما كان بالأمس « معجزة » أصبح بالنسبة للكثيرين « سراباً » . وتجشمت حكومة ارهارد انتقادات شديدة ، واستقالت وحلت محلها في آخر عام ١٩٦٦ حكومة « الائتلاف الكبير » بين الديموقراطيين – المسيحيين والاشتراكيين ، برأسها المستشار كيسينغر [١] ثم تحسنت الحالة الاقتصادية في ١٩٦٧ . ومع ذلك ، فان اقتصاد جمهورية المانيا الاتحادية آخذ بالتحويل لأسباب داخلية وخارجية .

لقد ظل « الاقتصاد الاجتماعي للسوق » رمز الازدهار ، ولكن تيارات فكرية وعملية جديدة ظهرت وأوشكت أن تغير نسب القوة بين الدولة وأصحاب العمل والعمال .

إن جمهورية المانيا الاتحادية ليبرالية ، ولكن الواقع ، هو أن الدولة الاتحادية والاقاليم تشرف مباشرة ، بواسطة مؤسسات الدولة ، وشركات الحق العام ، والمشاريع المختلطة ، على قسم هام في بعض النشاطات الأساسية : ٦٠٪ من الفحم والليغنيت ، ٣٨٪ من فلز الحديد ، ٧٠٪ من الالومنيوم ، ٦٠٪ من انتاج الكهرباء ، ٤٥٪ من صناعة السيارات ، و ٦٠٪ من المصرف . وان موجهي بعض الفروع ، وبخاصة مناجم الفحم الخاصة ، يرجون أن تتدخل الدولة أيضاً وبنشاط أكثر ، ودون الذهاب حتى التخطيط ، وتؤمن تنسيقاً طويل الأجل للاقتصاد ، بغية تجنب الاسراف ، والمنافسات العقيمة أو الافضل توزيع التثميرات ببرامج انتاج

---

(١) كيسينغر Kiesinger

متكيفة مع الاستهلاك . وقد ذهبت نقابات العمال إلى أبعد من ذلك أيضاً : فقد طالبت ، باسم الديموقراطية ، بحق المشاركة في تسيير المشروعات الخاصة ، والعامة أو الجماعية ، والتخطيط إلى أجل متوسط وإلى أجل طويل لكل الاقتصاد . وتبدي نقابات العمال في جمهورية المانيا الاتحادية بعض الاصالة : أولاً ، انها وحدوية ، متجمعة حول « اتحاد رابطات العمل الالمانية »[1] . وتأسس هذا الاتحاد في العام ١٩٤٩ ، ويضم اليوم ٦٫٥ مليون مشترك . أي أكثر من ثلث المأجورين . والاتحادات المسلكية التي تؤلفه وقعت اتفاقات جماعية مع أصحاب العمل . ولذا فهو يتمتع بقوة سياسية واجتماعية عظيمة تتضاعف بقوة اقتصادية خاصة به .

ويسير اتحاد رابطات العمل الالمانية واتحاداته الست عشرة ثروة تقارب المليار دويتش مارك . وفي ١٩٦٤ ، صعدت الحصص ، التي يدفعها الاعضاء وحدهم ، إلى ٤٥٠ مليون دويتش مارك . وبعد أن تدفع جميع النفقات الجارية ، يبقى له كل سنة فائض نفقات من ١٥ إلى ٢٠٪ . ولذا تحول اتحاد رابطات العمل الالمانية الى صاحب مصرف ، ومؤمن ، وتاجر ، وقائم على بناء مساكن ، وصياد في مد البحر . ويحتل مصرف النقابات الصف الرابع بين مؤسسات الاعتماد الكبرى برقم أعمال ٤٫٥ مليار دويتش مارك . وفي ١٩٦٥ ، أتت شركات تأمين النقابات في الصف الاول للتأمين على الحياة وفي الصف الثالث لمجموع نشاطات هذا الفرع . وشادت شركتها الاساسية للانشاء ، منذ ١٩٤٥ ، أكثر من ٢٣٠٠٠٠ مسكن من أجل تثمير بلغ ٢٫٥ مليار دويتش

---

(١) Deutscher Gewerkschaftsbund (D G.B.)

مارك . وبلغ رقم أعمال شركتها في تجارة الجملة نحو ٢ مليار دويتش مارك سنوياً ؛ وهي أهم مشروع الماني لتجارة المنتجات الغـذائية ، وفي الوقت نفســه صانع هـام جداً للسلع الاستهلاكية ، من المنسوجات إلى الاشربة الروحية . وتسير النقابات الصناديق التي اوكلت اليها كمشروع رأسمالي . ولا تتردد في الاسهام في تعـــويم الشركات الموجودة في صعوبة إذا كانت مصلحة العمال داخلة في القضية . وفي الوقت نفسه ، تدافع بشدة عن الحقوق الاجتماعية للمشتركين فيها . وتناضل في سبيل زيادة الأجور (٨٪ في ١٩٦٥) ، وامتداد العطل المأجورة ، ومنح اجرة الشهر الثالث عشر .

وفي سنوات الشباب الاولى للجمهورية ، كبحت النقابات مطالبها : وحضت مشتركيهـا على التضحية بغية تشجيع نهوض الاقتصـاد القومي . ومن ثم ، لم تعارض في نزع التأميم عن رأسمال بعض المشاريع الضخمة (فولكسفاقن ، بروساغ ، فيبا)[1] وبيع اسهامات الدولة بشكل قسائم لرأسمال ضعيف تحت اسم « الأسهم الشعبية » ، وتخلي عنها بالأولوية بأسعار منخفضة جداً لكل من يبررون دخلاً متواضعاً . واليوم وقد عاد الازدهار ، ترى النقـابات أن للعمال الحق في أن يأخذوا تعويضـاً عن التضحيات التي قبلوا بها في دور العوز ، تحت شكل اسهام واسع بالارباح ، وأن يتقـاسموا مع أصحـاب العمل مسؤولية المشاريع . وقال الرئيس لودفيـغ روزانبرغ « التعاون في التسيير يعني نهاية الدكتاتورية الموجودة في كل مكان لجماعة واحدة ، وتحقيق ما يسمى الالتزام الاجتماعي للملكية الخاصة . وفيما يتعلق بالنقابات ، يكون التسيير المشترك تاماً إذا كان لهذا التسيير امكانية الاشراف على القدرة الاقتصـادية . وقد تعلمت شيئاً من

---

volkswagen , Preussag , veba (١)

الماضي وعرفت أن الخطر يوجد كلما كانت القدرة الاقتصادية مستغلة من جديد على الصعيد السياسي » . وطبق التسيير المشترك في المناجم والصناعة الحديدية منذ ١٩٥١ . والتوسع الذي يطالب به اتحاد رابطات العمل الألمانية يقلق أرباب العمل والحكومة الديموقراطية ـ المسيحية ، لأنه يزيد أيضاً في قدرة النقابات الاقتصادية والمالية حتى يجعلها عملياً صاحبة الانتاج الصناعي . وهذا ما تقوله هيئة أرباب العمل على الأقل . ولكن النقابات على غير وفاق معها في هذا الرأي ، والنقاش ما زال بعد في أوله

والظل الآخر في لوحة المشاريع هو نقص اليد العاملة . يوجد أكثر من مليون أجنبي يعملون في المعامل الألمانية ؛ ويلزمها مليونان ، ولكن اسهامهم غير قابل للتوسع ؛ والمصادر تنضب ، وعدد الألمان الشبان الذين سيدخلون خلال السنوات القادمة في الحياة المسلكية سيكون أقل ارتفاعاً من عدد العمال الذين سيتقاعدون . وهذا التطور ، الذي يعارض ما نراه في الولايات المتحدة وفي البلاد الأخرى ، يمكن أن يؤلف ضرراً ثقيلاً جداً بالنسبه لاقتصاد جمهورية ألمانيا الاتحادية: فإذا قل العمال ضعف التوسع (٣٪ وسطياً مقابل ٦ إلى ٧٪ في ١٩٦٥) ؛ وارتفعت الاجور ، وتزايد خطر التضخم النقدي . والتضخم النقدي والبطالة وباءان يخشاهما الألمان . لأنهما ، خلال مرتين ، في ١٩١٩ — ١٩٢٣ و١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، دمرا الطبقات الوسطى وقاداها إلى اليأس . وتعتمد ألمانيا على زيادة الانتاجية لمتابعة توسعها .

وأخيراً ، ان جمهورية ألمانيا الاتحادية لا تنسى بأنها جزء من أجزاء ألمانيا ١٩٣٧ . ففي الجهة الأخرى للخط اودير ـ نايس يعيش ١٧ مليون الماني تحت سيطرة السوفياتيين . وجمهورية المانيا الديموقراطية تحتل المكان الثامن في أوروبه بين الأمم الصناعية والثالث عشر في العالم في التجارة

الخارجية (٣ مليارات دور قيمة الصادرات في ١٩٦٤) : وانتاجها القومي الخام يتجاوز سنوياً ٤٠ مليار دولار . ولا تمتنع جمهورية المانيا الاتحادية عن التفكير فيما اذا كان بالامكان حذف هذه « البقعة البيضاء » من خارطتها السياسية ، لان اعادة الوحدة تعطي المانيا المتشكلة من جديد قوة اقتصادية وتجارية تساعدها على مقارنة نفسها مع الاتحاد السوفياتي في الانتاج وربما مع الولايات المتحدة في التجارة الخارجية .

وعندما يهدد الخطر ، يميل الألمان إلى التجمع من جديد والاتحاد للمجابهة في مجتمع مبني ، حسب كلمة المستشار السابق ارهارد ، نوع من وحدة اقتصادية واجتماعية مهيأة لحذف نزاع الطبقات نهائياً بتعاون جميع القوى الاقتصادية بغية هدف واحد ؛ وتحريك الازدهار الاقتصادي ، والعدالة الاجتماعية ، وتعزيز القوة السياسية ، باتفاق مع جيرانهم المباشرين والبعيدين ، وعند الحاجة بدونهم اذا تطلبت الظروف ذلك بشكل مطلق .

اليابان

في خمسة عشر عاماً ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً خارقاً يصعب تفسيره وايضاحه . وكانت حرب كوريا ، في ١٩٥٠ ، نقطة الانطلاق . فقد ارخت الولايات المتحدة رقابتها واشرافها وسمحت بتنمية الصناعات الاساسية . ومنذ ذلك الحين ، زاد الانتاج القومي الخام وسطياً بـ ١٠٪ في العام ، أي بوتيرة مضاعفة لوتيرة المانيا وفرنسا ، وثلاثة اضعاف وتيرة الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى . وفي عشرة أعوام ، ازدادت الصادرات بـ ٤٣٠ ٪ مقابل ٢٧٥ ٪ في المانيا ، و ٢٠٠ ٪ في فرنسا ، ١٣١ ٪ في بريطانيا العظمى ، والتثميرات المقارنة في اللانتاج القومي

الخـــام اهم برتين مما في مجموع بلاد منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين O.C.D.E (٣٢ ٪ مقابل ١٦ ٪) . وفجأة ، عرف العالم المعجب منذ ١٩٦٦ ان اليابان تحتل من بعيد جداً المكان الاول في الانشاءات البحرية (بأكثر من ٤٥ ٪ من الوزن المطلق في البحر) ، وفي صنع الترانزيستورات ؛ والثاني في الالكترونيات بعد الولايات المتحدة (الاتحاد السوفياتي موضوع جانباً) وانتاج السيارات (قرابة ٤ ملايين سيارة) ؛ والثالث في انتاج الفولاذ (اكثر من ٦٣ مليون طن في ١٩٦٧) ، بعد الولايات المتحدة والفولاذ (أكثر من ٦٣ مليون طن في ١٩٦٧) ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وقبل جمهورية المانيا الاتحادية ؛ والرابع في الصناعة الكيميائية ، والميكانيك ، بعد الولايات المتحدة ، وجمهورية المانيا الاتحادية وبريطانيا العظمى .

وهذا النجاح الذي حققتـــه اليابان يرجع الى نظامها الاقتصـــادي والاجتماعي اكثر مما يرجع الى ثرواتهـا المادية الضعيفة نسبياً . إن تربتها فقيرة بمصادر الطاقة وبالفلزات المعدنية .ان مايقارب١٦٪ من اراضيها صالح للزراعة ، والزراعة فيها لاتغطي إلا ٨٠٪ من الحاجات الغذائية لـ ١٠٠ مليون ياباني يتزاحمون على ٣٧٠٠٠٠ كم٢ . وبالمقابل ، يزعم اليابانيون بأنهم يملكون افضل تقنية في العالم بفضل مشاريعهم الكبرى وقدرتهم الاسطورية على تطبيق أفكار الآخرين ، والى ثبات ومهارة مايسمون ، ساموراني [1] الاقتصاد [2] .

والى الزايباتزو [2] (الاحتكارات) القديمة (ميتسوي ، ميتسو بيشي ،

---

(١) الساموراني عضو طبقة المحاربين في التنظيم الياباني قبل ١٨٦٨

(٢) الزايباتزو Zalbatzu

سوميموتو التي اعيد بناؤها بعد ١٩٥٠ ، انضمت احتكارات كبرى مستقلة كثيراً أو قليلاً ، وبخاصـــة في الصناعة الحديدية (ياواتا ، سيتيتسو ، فوجيزيتيتسو ، نيبون كوكان ، الخ (٣)) ، وفي المنشآت البحرية (ميتسو بيشي يوكوجيو ، الخ) ، وفي صناعة الآلات والتجهيزات الكهربائية (هيتاشي ، سيباكوشو ، توكيو شيبافرا ، دينكي ، الخ) . والاقتصاد حر ليبرالي ، ولكن اليابان ، على خلاف جمهورية المانيا الاتحادية ، تبنت نظام التخطيط الاكثر او الاقل مرونة ، وهو يبدي على الأقل صفة خاصة وجيهة . فمنذ ١٩٤٥ ، هيأت اليابان سبع خطط مختلفة بمدتها وأهدافها . ولم تتوصل واحدة منها الى الحد الذي ثبت لها في الاصل . فمن ١٩٤٨ الى ١٩٥٢ ، كان الاقتصاد الياباني خاضعاً من حيث المبدأ لـ « خطة إعادة الاعتبار الاقتصادي الاولى » ، وزالت هذه الخطة منذ ١٩٤٩ لصالح « خطة اعادة الاعتبـار الاقتصادي الثانيـة » (١٩٤٩ - ١٩٥٣) ، ولكن في ١٩٥١ استعيض عن هذه الاخيرة بـ « خطة الاستقلال الاقتصادي » (١٩٥١ - ١٩٥٣) . وفي ١٩٥٥ دخلت في حيز التطبيق « خطة الاقتصاد الكلي الداخلي (١٩٥٥ - ١٩٦٠) » التي تركت المكان ، في ١٩٥٦ « إلى خطة خمسية اولى (١٩٥٦ - ١٩٦٠) وحلت محلها في ١٩٥٨ خطة خمسية ثانية (١٩٥٨ - ١٩٦٢) . وفي أيار ١٩٦١ اعلنت الحكومة بأنها تنوي مضاعفة الدخل القومي بفضل خطة عشرية (١٩٦١ - ١٩٧٠) عززت في ١٩٦٤ بخطة وسيطة (١٩٦٤ - ١٩٦٨) ذات أهداف محدودة كثيراً .

وتتمتع اليابان حتى الآن بيد عاملة فتية غزيرة وقليلة الطلب غـير ملحاحة ، وتقتضي التقاليد اليابانية من الياباني الذي يدخل في مشروع ان يبقى فيه حتى تقاعده (٥٥ عاماً) او وفاته . ولا يسرح ، حتى ولو اعوزته

(٣) Yawata, Sietetsu, Fujiseitetsu, Nıpon Kokan

الكفاءة او النفاذ . ويتقاضى اجراً منخفضاً نسبياً ، يتمم بفوائد غـير مباشرة : مسكن مجاني ، مصاريف انتقال ، مكافآت على الارباح . ومع الزمن يرى ان اجرته ترتفع (مبدئياً ٥٪ في العام) تبعاً لقيمته المسلكية أقل مما ترتفع لقدمه واعبائه العائلية .

وبفضل التوفير الذي يجمعه العمال ، اسـتطاعت اليابان أن تطبق سياسة التثميرات الكثيفة التي دفعت الانتاج وساعدت على زيادة دخول اليابانيين وعلى تراكم وفر عتيد جاهز للتوظيف من جديد ، حسب تطور وصفته منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين بأنه « حلقة مملأة » .

واليوم ألا تخاطر هـذه الحلقة المملأة بأن تتحـول الى حلقة مفرغة ؟

وخلافاً للظواهر ، ينمو الشعب الياباني بسرعة أقل نسبياً من الشعب الاميركي ، والسوفياتي أو الفرنسي . والهجرة الريفية كانت هامة جداً في السنوات الأخيرة (٧٠٠ ٠٠٠ وسطياً في العام) ، واليوم ، يتردد فائض اليد العاملة الزراعية في الذهاب الى المدن المحرومة من المساكن الجاهزة . والشبان ، في إزدياد عظيم ، يتابعون دراسات طويلة ، ويتأخر دخولهم في الحياة المسلكية . وتقلل سلطـة ارباب العمل في المشاريع مرونة سوق العمل . وتطالب النقـابات باجور مرتفعة وبتوسيع الضمان الاجتماعي ، وتخفيض زمن العمل . وكلما تلاحق التوسع ، أراد الياباني أن يعيش بشكل أفضل ويشتري الكثير من السلع الاستهلاكية ، ونمت السوق الداخليـة وتضخم طلب الواردات ، وجفت احتياطيات القطع ، وتضاءل الوفر ، وقلت إمكانيات التوظيف التي يغذيها هذا الوفر . وبنفس الشكل ترتفع الاسعار الداخلية ، ويهدد التضخم النقدي ، ويصبح التصدير صعباً ، وتزداد الواردات .

والموجهون اليابانيون يدركون الخطر ، ولكن ليس لهم خيار . وليس لهم إلا حل واحد : الفرار إلى الأمام ، والانتاج والبيع دوماً بازدياد ، كما تنبأت بذلك الخطة العشرية ١٩٦١ - ١٩٧٠ .

والنتائج الحاصلة اليوم مثيرة : لقد بلغ الانتاج القومي الخام قرابة ٧٠ مليار دولار في ١٩٦٤ ، وتجاوز ١١٥ مليار في ١٩٦٧ وقارب انتاج المانيا الاتحادية . والدخل القومي الخام بحسب رأس كل ساكن ، بعد ان كان أعلى بقليل من ثلث دخل فرنسا وألمانيا ، هو في سبيل اللحاق بهذين البلدين مع ٩٢٥ دولار مقابل ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ .

والياباني يناضل في سبيل مشاريعه كما يناضل عندما تكون الامة في خطر . والعلاقات بين الشركات الكبرى والدولة ، في الحالة الحاضرة ، مرضية لأن كلًا من الطرفين لايستطيع الاستغناء عن الآخر .

ومع ذلك تبقى بعض نقاط سوداء . ان الشركات الكبرى جداً مزدهرة ، ولكن كتلة الشركات الصغرى والمتوسطة تحيا حياة ضنكاً ، ولا تؤمن لأشخاصها إلا عطاءً ضعيفاً .

والاقتصاد الياباني تعوزه رؤوس الأموال لمتابعة توسعه ، وهو يزيد في تثميراته في الخارج بغية تأمين حاجاته بالمواد الأولية (وبخاصة الطاقة) والمنافذ التي تنقصه . ولكن هذه الرغبة الشديدة في الاستقلال القومي لاتجعله يرحب بالتثميرات الخارجية :

ان المليارين دولار اللذين تتصرف بهما البلاد في العام ١٩٦٨ كاحتياطي نقدي لايكفيان لاطفاء نتائج تراجع محتمل للتجارة الخارجية .

وقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت المنسوجات تسهم باكثر من نصف صادراتها . واليوم تسهم الآلات والمنتجات المعدنية والاجهزة من كل

الانواع ، وبخاصة الآلات البصرية والترانزيستورات باقساط متساوية في المبيعات في الخارج . ومنذ بعض الوقت كان « الانتاج الياباني » مرادفاً لشيء قليل القيمة ؛ واليوم تستطيع البضاعة اليابانية ان تنافس بجودتها البضائع الاوروبية والامريكيـــة . ويجب ايضاً ايجاد مشترين . ومصير اليابان يتعلق بجهزيها وبخاصة بعملائها الاجانب ، كما يتعلق ايضاً بتطلبات شعبها . واليابان أيضاً بلد يستهلك قليلا ويثمر كثيراً . وهذا منوط بمعجزة . ولكن هل تتجدد المعجزات حسب المراد وعند الطلب ؟

تنافس بريطانيا العظمى وفرنسا على المكان الخامس

بريطانيا العظمى

إن النضال على المكان الخامس والسادس يضع بريطانيـا العظمى في حالة تنـافس ومعارضة مع فرنسا . وهـذا النضال لا يدور في شروط مستقيمة كالشرط الذي يضع جمهورية المانيا الاتحادية في مجابهة مع اليابان . أولاً لأن العوامل الأساسية تختلف . إن بريطانيا العظمى بمورفولوجيتها ونشاطاتها الصناعية والتجارية أقرب إلى جمهورية المانيـــا الاتحادية من فرنسا . والأمتان بالرغم من كل شيء لهما نقاط مشتركة : الانتاج القومي الخام متعادل تقريباً في كلا البلدين ، وبخاصة ، الاهتمامات القومية متشابهة ، وتمتزج فيها السياسة بالاقتصاد بشكل دائم . وهما تريدان أن تكونا قويتين ومحبوبتين ومحترمتين . وتحاولان أن ترتبطا بعملاء من أمم أقل أهمية تسير خلفها . ولكل منهما تجربة قديمة في القضايا الدولية الاستعمارية .

ولا تنتجان معجزات ، ولذلك تدركان اليوم أن ماضيها الوجيه لا يضمن لها المستقبل .

إن أرض المملكة المتحدة ضيقة (٢٤٢٤٤٣ ك م٢) وتضم شعباً عديداً (٥٥ مليون نسمة) وكثيفاً (٢٢٢ نسمة في الكيلو متر المربع) . والصناعة تشغل ٤٨٪ من الشعب العامل (٢٥ مليون مأجور) . وقد بلغ الانتاج القومي الخام ١٠٥ مليارات دولار في ١٩٦٧ .

وصادرات المملكة المتحدة أخفض بوضوح (١٢٫٣ مليار دولار) من صادرات جمهورية ألمانيا الاتحادية (١٦٫٢) ؛ والواردات أعلى بصورة خفيفة (١٥٫٤ مليار في بريطانيا العظمى ، ١٤٫٥ في جمهورية المانيا الاتحادية) . وتعطي المملكة المتحدة انطباعاً في أنها لا تعيش إلا من أجل نقدها . والجنيه الاسترليني لا يرمز فحسب إلى قدرة الصناعة ، واشعاع التجارة ، وجاه مدينة لندن في العالم ، بل يرتفع تقريباً إلى صف الإلهة . وفي ايلول ١٩٣١ ، عندما خفضت بريطانيا العظمى ،لأول مرة في تاريخها ، قيمة الجنيه الاسترليني ، كان رد الفعل الاجماعي للانكليز : « الذهب يصعد » ، لأنه لا يستطيع أحد في انكلترا أن يشك بثبات النقد . ولذا لم تلق الاسعار الداخلية ارتفاعاً وجيهاً . وعند أقل انذار ، يهرع البريطانيون إلى « سرير الام المريضة » ويقبلون بنفس التضحيات التي تفرضها الحكومات عمالية كانت أو محافظة : زيادة الضرائب لتوازن الموازنة ، تخفيض الواردات ، واذن تخفيض مستوى الحيـــاة ، لاقلال العجز في الميزان التجاري ، النقد أغلى ، بسبب ارتفـاع سعر الحسم الذي تعلن عنه الصحافة الكبرى بأحرف الاعلان ؛ كبح رفع الاجور ، الخ . وهذا ما يسمى فيما وراء بحر المانش « تطبيق سياسة التقشف » .

ومنه يستخلص بعض العزة على اعتبار أن هذه السياسة نجحت في انقاذ جاه الجنيه . ولسوء الحظ كانت هذه السياسة شبه دائمة . ولها محاذير اقتصادية واجتماعية جدية . فهي تكسر اندفاع المشاريع ، وتقلل هوامش التمويل الذاتي ؛ وتؤخر تحديث المعامل ، وتضعف قدرة المنافسة حيال الخارج ، وتسبب استياء العمال . والضمور النقدي بعيار قوي له في الغالب اصداء وانعكاسات مشؤومة أكثر من التضخم المعتدل . والارقام تؤكد ذلك : إن وتيرة التوسع الاقتصادي أضعف بكثير في بريطانيا العظمى (٢ إلى ٣ ٪ في العام وسطياً) مما في بلاد السوق المشتركة (٤ إلى ٦ ٪) ؛ وسعر الكلفة في كثير من الصناعات يكون مرتفعاً كثيراً جداً ؛ وعجز التجارة الخارجية يثقل باستمرار على ميزان الحسابات ، وبالتالي على تماسك الجنيه . واحتياطيات القطع ضعيفة : فعند أقل انذار تجد الحكومة نفسها مضطرة لطلب المساعدات الخارجية . وعندئذ يتكلم عن أفول : ومع ذلك فان بريطانيا العظمى تخرج دوماً من المشكلة ناجحة ، والايضاح بسيط أيضاً .

لقد بنت بريطانيا العظمى شهرتها الاقتصادية والمالية أولاً على قدرة صناعتها (لقد كانت في القرن التاسع عشر أول مشغل في العالم) ، ثم على قدرة تجارتها الخارجية التي تعتمد على اسطول يسيطر على المحيطات ، لأنها تتصرف بشحنات الذهاب والاياب ، وأخيراً ، على نظام مصرفي ليس له أي معادل بسعة وتنوع الخدمات التي يستطيع تقديمها . إن الليبرالية التي كانت انكلترا أول من تبنتها منذ ١٨٤٤ وآخر من تخلى عنها في ١٩٣١ — ٣٢ ، خولتها التفوق الصناعي والتجاري ، مع تضحية زراعتها . وكان من الممكن في لندن شراء وبيع أي نوع من البضاعة آتية من أي بلد وبأي مبلغ من المال .

وفي الصعيد المالي ، حافظت بريطانيا العظمى على بقايا جميلة ، بالرغم من عودة الحماية الجمركية التي فرضها الكومنولث ومنطقة الاسترليني منذ ١٩٣٢ ، وبالرغم من المنافسة المتزايدة القوية لرؤوس الأموال الامريكية والدولار منذ ١٩٤٥ ، وبالرغم من الخسائر المالية التي سببتها الحرب العالمية الثانية . ومن المؤكد ، ان احتياطيات القطع (الذهب والدولارات) غير كافية دوماً لتسمح للجنيه بأن يمسك بالدور الصعب كثاني نقد عالمي للاحتياطي ، بعد الدولار . ففي آخر ١٩٦٧ ، لاستئناف المقارنة مع منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين ، كانت هذه الاحتياطيات أخفض بما يزيد عن ٥٠٪ من احتياطيات فرنسا (٢٫٧ مليار دولار مقابل ٦٫١ مليار) ومساوية تقريباً إلى احتياطيات سويسرا (٢٫٨ مليار) ، وأضعف من احتياطيات ايطاليا (٥٫٤ مليار) ؛ وقد أرادت الظروف ذلك على هذا النحو ، وأيضاً تقليد يبدو أن بنك انكلترا تمسك به بالرغم مما يبدي من أخطار جدية . وبالمقابل ، ان مدينة لندن تملك دوماً كفلاء . ونظامها المصرفي أفضل نظام منظم في العالم ؛ فالتثميرات المباشرة المخصصة إلى الخارج بلغت أيضاً مبلغاً مرتفعاً جداً من ٤ إلى ٥ مليارات جنيه ، وإن كان من الصعب تقدير مبلغها بدقة وضبط . والتثميرات الخاصة بالخارج في بريطانيا العظمى لا تتجاوز ٤٫١ مليار جنيه ، والديون واعتمادات الحكومة البريطانية الطويلة الاجل تقع تقريباً قليلاً في المستوى نفسه . ولا تريد بريطانيا العظمى أن تتخلى عن هذه التوظيفات الخارجية ، حتى انها تحاول أن تزيدها . وهذا الخروج لرؤوس الاموال يثقل ميزان الحسابات ، ولكن الفوائد والدفوع تعطي بشكل مستديم تغطيات جوهرية . والكل يسهم في الحفاظ على اشعاعها المالي في العالم .

ولهذا توحي بريطانيا العظمى أيضاً بالثقة إلى دائنيها وإلى كل من يحررون عقودهم التجارية بالجنيهات الاسترلينية . ولهذا أيضاً ، ليس لأحد مصلحة في سقوط الجنيه يسبب في العالم كله خسائر جوهرية وأحياناً غير قابلة للاصلاح .

والخطر هو أن الهرم يعتمد اليوم على قاعدة اقتصادية ضعيفة جداً . فاذا أرادت بريطانيا العظمى أن تستعيد توازنها وجب عليها السير في الطريق المعاكس للطريق الذي قادها إلى التفوق المالي في القرن التاسع عشر . يجب عليها بناء صناعاتها من جديد لتجعلها أكثر منافسة ، وزيادة صادراتها ، وانعاش زراعتها من جديد لتقلل الضغط الذي تمارسه واردات السلع الغذائية على ميزان التجارة ، وفتح منافذ جديدة لتعوض التي فقدتها في الكومنولث ومنطقة الاسترليني ، التي يدور أعضاؤها في فلك الولايات المتحدة أو الأمم الصناعية الأخرى . وقامت بجهد محمود وايجابي في الصعيد الزراعي : فزراعتها هي الزراعة التي تحتل نسبياً أضعف نسبة مئوية في عالم الشعب العامل (٤٪) ، إذا استثنينا موناكو ومدينة الفاتيكان ، كما ذكر بسخرية أمين سر وزارة الخارجية المساعد في بداية عام ١٩٦٦ . ولكنها تمكنت بقوة وزادت انتاجها بانتظام ، بفضل مساعدة السلطات العامة الجوهرية (نحو ٢٥٠ مليون جنيه في العام) . وبعض الفروع الصناعية تتحمل المقارنة مع فروع الخارج (البترول ، الصناعة الكيميائية ، الملاحة الجوية ، الالكترونيك ، الخ .) ، ولكن التوسع الاقتصادي يصطدم عموماً بعقبات عظيمة: من هيئة أرباب عمل تنقصها الحركية ؛ ونقابات عمال تتعلق بالشكليات وملحاحة كثيرة الطلب ؛ ودولة تبحث دوماً عن التوازن بين القطاع الخاص والقطاع العام .

والانتاجية البريطانية تبقى ضعيفة ، ٢ إلى ٣٪ في العام ، وهذا

ما منع المأجورين من الحصول في ١٩٦٧ على زيادات أكثر من ٨٪ .
وان نقابات العمال المتجمعة حول مركزها [١] (كونغرس اتحاد العمل)،
الذي يضم ٩ ملايين مشترك ، تدافع بجدة عن حقوقها ، فيما يتعلق
بالاجور ، والضمان الاجتماعي ، والاستخدام الكامل ، ومعاشات التقاعد .
ولا أحد يلومها على هذا الموقف إذا كان شعورها بالمصلحة العامة واضحاً،
ولا تؤدي متطلباتها رأساً إلى التضخم النقدي . وان هيئة أرباب العمل
تعتبرها ضيقة التفكير أنانية ، ومتعلقة بالشكليات ، وحبيسة التقاليد
البالية . والاحزاب السياسية تطالب باصلاح بنياتها لتتجنب تشكيل دولة
في الدولة . وهي في الواقع مركزية جداً عندما يراد نضال مبـــدأ .
وتبقى مختلفة جداً عندما يناقش مطاليب عملية . والقطاعات المحلية تحرص
على استقلالها . ونقابات الفروع ، التي هي في حالة توسع ، لا تهتم بالقطاعات
التي ما زالت متخلفة وغير نامية . وبحسب الرأي العام تجتاحها بورقرواطية
تضيع وقت الناس . ويعتبر عمال الخطوط الحديدية أكثر العمال شغباً
وعمال المناجم اكثرهم تعقلاً وحكمة .

وليس لبريطانيا العظمى مذهب اقتصادي واجتماعي معين ومعرف
« بصورة مسبقة » كالولايات المتحدة وألمانيا الاتحادية . إن عمل الدولة
يتعلق بالحزب الذي يحصل على الاكثرية في مجلس العموم . ويبقى
حزب المحافظين وفياً للمشروع الحر ؛ ومشجعاً لزيادة الانتاجية ، وتخفيض
الضرائب المباشرة ، ومنح ميثاق يكفل للعمال ضمان الاستخدام ، وتحسين
شروط الحياة ، والترقية بالاستحقاق وحتى المشاركة في الارباح . والحزب
العمالي يحلم بديموقراطية صناعية مؤسسة على تأميم الصناعات الأساسية ،

---

(١) Trade Union Congress

واستملاك الاراضي وبلدنتها ، وتدخل السلطات العامة في جميع النشاطات لتحريك التوسع والاستخدام الكامل ، وارتفاع الاجور بانتظام ، دون افساد استقرار النقد ، الخ .

وظلت صناعة الحديد حتى هذا اليوم الضحية الأساسيه لسياسة « قف وانطلق » حسب نتائج الاستشارات الانتخابية . ويبدو على الأقل أن الكل متفقون على تدخل مدعوم ونافذ من قبل الدولة ، بغية اعطاء الاقتصاد البريطاني الدفع الذي ينقصه . وقد سمى المحافظون في ١٩٦٢ مجلس التنمية الاقتصادية القومية [١] لتحريك سياسة التوسع . وأنشأ حزب العمال وزارة الاقتصاد القومي لتطبيق خطة طويلة الأجل (١٩٦٤ — ١٩٧٠) حسب الطريقة الفرنسية . وتوقعت هذه الخطة وتيرة توسع اقتصادي بـ ٤٪ تقريباً في العام ، وفائض ٢٥ مليون جنيه في ميزان التجارة ، و ٢٥٠ مليون جنيه في ميزان الحسابات في ١٩٧٠ ، وانشاء مليونين استخدام جديد ، وزيادة الانتاج القومي الخام الذي انتقل من ٣٢٫٨ مليار جنيه ١٩٦٤ إلى ٤١ مليار في ١٩٧٠ .

وعندما وصل العماليون إلى السلطة ، في خريف ١٩٦٤ ، كانت الحالة المالية خطيرة : كان عجز الميزان التجاري في ١٩٦٤ يتجاوز ٥٦٠ مليون حنيه ، وعجز ميزان الحسابات ٧٥٠ مليون . وبفضل المساعدة الخارجية (من الولايات المتحدة ، جمهورية المانيا الاتحادية ، فرنسا ، ايطاليا ، وبنك النقد الدولي ، الخ .) التي وضعت ٤ مليارات دولار تحت تصرف بريطانيا العظمى ، تغلبت الحكومة العمالية موقتاً على الازمة المالية بالطرق الكلاسيكية في التقشف . ولكن المساعدة الخارجية ، عند

(١) National Economic Development Council

قول الاقتصادي الامريكي الشهير ، روبرت تريفن (٢) ، ليست إلا مهدئاً ، وسياسة التقشف ليست إلا مخرجاً . وكان على الشعب الانكليزي أن يختار بين تدخل سلطة الدولة وتوجيهها (ايتاتيسم) والحرية ، وان يعين سياسة مختلفة عن الماضي بعد أن انهارت قواعده التقليدية ، لأن الكومنولث ومنطقة الاسترليني تترنحان . وتلقت بريطانيا العظمى من قبل انذارات جدية : فمنذ ١٩٥٨ ، لم تكن لتشغل إلا المكان الثالث في العالم في التجارة العالمية ، والمكان الخامس بين الأمم الصناعية ، بعد الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، وجمهورية المانيا الاتحادية ، واليابان ، واضطرت للمرة الثالثة أن تخفض قيمة الجنيه بـ ١٥٪ في تشرين الثاني ١٩٦٧ .

إن بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تصعد المنحدر ثانيةً إلا ببسط تجارتها الخارجية . وقد حاولت ، في ١٩٥٨ ، أن تجد التوازن بين الكومنولث ، الذي يتمتع بمجانية جمركية لبضائعه عند دخولها إلى الوطن الأم ، وبلاد أوربة القارية ، التي قدمت لها ميدان عمل رحباً ، من أجل صادراتها ، ولكن ستة من بينها ، لم تكن قليلة الشأن ، أنشأت السوق المشتركة ومهرته بتعرفة خارجية واحدة . وفي ١٩٥٨ ، حاولت بريطانيا العظمى أن تدور حول العقبة ، واقترحت أن ينشأ في قلب منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين .O . C . D . E منطقة مبادلة حرة واسعة ، فعارضت فرنسا رفضها . وعندما يئست المملكة المتحدة من القضية ، وقعت في ١٩٥٩ ، في ستوكهولم ، مع ست أمم أوربية أخرى ، ميثاق الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة .A . E . L . E ، دون أن

Robert Triffin (٢)

تقطع علاقاتها من أجل ذلك مع السوق المشتركة ؛ وحاولت في ١٩٦١ ، أن تقبل في داخل هذه السوق شريطة ألا يغير هذا الدخول في شيء علاقاتها مع الكومنولث . وللمرة الثانية أيضـــاً ، رفضت فرنسا في ١٩٦٣ ، ولم تيأس بريطانيا العظمى لذلك . ولما كان ثلث صادراتها على الاقل يذهب نحـو بلاد الوحدة الاقتصادية الاوربية .C.E.E وبلاد الرابطة الأوربية للمبادلة الحرة ، فقد ألقت بفكرة تقـارب وثيق بين أوربه الست وأوربه السبع ، على أمل أن تكون المستفيد الاساسي من العملية وتفرض مدينة لندن كمركز مالي لاوربة المبادلة الحرة هذه . ثم كرر هارولد ولسون ، الوزير الأول ، طلبه للقبول في السوق المشتركة . واعتمدت بريطانيا العظمى ، في هذه المرة ، على ان لاتقيم فرنسا عثرة في سبيلها ، لأن باريس ، مثل لندن ، ترفض كل فكـرة فوقمية . وهـذا وهم ، ولكن في الواقع ، ان اجل احترام قدمته السوق المشتركة لبريطانيا العظمى هو الاعتراف بأن دخولها في الوحدة الاقتصادية الاوربية سيقلب المعطيات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية وستدخل السوق المشتركة في بداية العام ١٩٧٣

فرنسا

تحتل فرنسا مكاناً خاصاً في الاقتصاد الدولي . ففي اوربة الغربية ، تحتل الصف الاول في امتداد أرضها (٥٥١٠٠٠ ك م٢) ؛ وتربتهـا غنية ، ومناخها متنوع ، وموقعها الجغرافي استثنائي .. ولكن تحت — تربتها فقير بالمواد الاولية الطاقية ، وفلزها الحديدي آخذ بالنفاد ، ونسبة الحديد فيه ضعيفة ، وكثافتها الديموغرافية (٥٠ مليون نسمة ، أي بمعدل ٨٨ نسمة في الكيلومتر المربع) أدنى جداً من كثافة البلاد المنخفضة وبلجيكا وجمهورية المانيا الاتحادية ، وايطاليا أو بريطانيا العظمى . وهذا

يوضح ، في جزء على الاقل ، سلوك الفرنسي أمام القضايا الاقتصادية والاجتماعية أو النقدية .

والفرنسي ، بحسب موهبته واستعداده ، ليس صاحب مصرف ، أو تاجراً ، أو صناعياً ، بل هو صاحب أطيان ، وقد انقاد للفتوحات الاستعمارية ؛ ولم يبحث عنها . وهو يعلم أو يعتقد بأنه يستطيع العيش برفاهية على أرض ميلاده ، فلماذا يذهب ويفرض على ذاته تضحيات بنفي نفسه نحو قارات مغايرة أو معادية ؟ ان نخبة الشباب الانكليزي تعتبر منذ عهد قريب بأنها تتسربل بالعار إذا لم تجب نواحي الامبراطورية ؛ والشاب الالماني يتعلم طوعاً اللغات الاجنبية ليذهب ويفتح المنافذ الخارجية ؛ أما الشاب الفرنسي فيجرب أولاً حظه في الوطن الأم .

والاقتصاد في خيال فرنسا ؛ فهي زراعية ، ثم صناعية ، ثم تاجرة . وتبقى في حالة توازن بين هذه النشاطات المنتجة المختلفة ، وهذا يخفض الازمات ويشجع على النهوض السريع . ففي فرنسا ، لا يتكلم مطلقاً عن معجزة اقتصادية ، لأن التوسع يتقدم على أفضل وجه ، وبقدرات تجديد مدهشة ، بعد تقهقر أو أزمة سياسية ، بفضل قيمة فنييها ، ويدها العاملة ، وتصور باحثيها ، وارادتها في الغلاب إذا كانت العزة القومية داخلة في القضية . وعندما كانت القضية تأسيس السوق المشتركة للدول الست ، في ١٩٥٥ ، قال خصوم الوحدة الاقتصادية الاوربية : إن فرنسا لا تستطيع أن تتحمل منافسة المانيا الصناعية ، وان بنياتها ضعيفة جداً ؛ وحركيتها غير كافية . وفكر الالمان ، دون أن يقولوا كثيراً ، أن من الصعب عليهم التفاهم مع « صناع وأصحاب دكاكين » . وبرهنت النتيجة على أن الاقتصاد الفرنسي انسحب بدقة ومهارة من القضية ، واضطر

الالمان أنفسهم إلى الاعتراف بأن التقنية الفرنسية في كثير من المواطن كانت على الاقل مساوية لتقنيتهم بالرغم من أن كونتسرناتهم تتصرف بوسائل اقتصادية ومالية أعلى من وسائل المشاريع الفرنسية .

ويؤكد الاحصاء الدولي تقريباً دوماً بأن فرنسا تتجنب الحدود المتطرفة لتضع نفسها في وسطي مشرف جداً في جميع الميادين تقريباً ، وهذا يسمح لها بالقبض غالباً في القضايا الدولية على دور الحكم والناظم ، والمسيّر . فلا عجب اذن من أن الفرنسيين لا تستهويهم كالامريكيين والانكليز والالمان واليابانيين القضايا الاقتصادية أو النقدية ، لأن توالي الركود والازدهار ، لم يسبب في زمن السلام نكبات ويهدد أسس ازدهارها ورفاهها ، كما في البلاد المجاورة الاخرى ، لدى أقل الاخطاء السياسية الثقيلة جداً ، كما كانت الحالة بعد الازمة العالمية في عام ١٩٢٩ . وإذا ردت ملايين الفرنسيين ، كما في المانيا ، بالتضخم النقدي إلى حالة البؤس ، لكانت أكثر حساسية بكثير بارتفاع الاسعار، واذا اعتقدوا أن عملهم يتعلق فقط بقوة تقدم أو ضخامة منافذهم الخارجية ، كالبريطانيين ، أقاموا سدوداً قوية ضد هبوط قيمة النقد أو ناضلوا بكثير من الحماسة في سبيل التجارة الخارجية .

الفرنسي فردي ، لأنه يحب أن يحكم في جميع القضايا ، وأن يفهم شخصياً معطياتها ، ويقدر الحلول التي تقترح عليه ، ويحكم مباشرة على النتائج ، ولكنه لا ينتقد بانتظام تدخل الدولة . واذا أخذ انطباعاً في أن الدولة تخدم مصالحه الخاصة ، دعمها ؛ وبالمقابل ، إذا أرادت الدولة أن تفرض عليه التزامات يرى بأنها ضارة له ، ثار ، ولا تفوته الفرصة في اظهار استيائه . واذا أوحى اليه وزير المالية (بوانكاريه ، بينية مثلاً)

بالثقة ، قبل بأن يقرضه كل وفره ، وإذا أعدت الحكومة ضريبة على رأس المال أو هددت ماله ، كنز المال بالحال وانتظر . وإن « جدار المال » ، الذي اصطدمت به حكومة اليسار ، لا يؤلف في الواقع إلا كثرة من صغار الموفرين الذين يخافون .

ولذا فمن الصعب جداً التحديد بضبط حواشي الاقتصاد المختلط كما يعمل في فرنسا . والمشروع الخاص فيهايسيطر ، ولكنه يتواءم مع الصناعات المؤممة التي كانت الدولة تمارس عليها رقابة شديدة جداً عندما كانت خاصة .

ومع ذلك ، فقد غيرت فرنسا بشكل عميق ، منذ بضع سنوات سلوكها وطرق تفكيرها وعملها .

لقد جربت أولاً أن تنظم اقتصادها وأن تضع نوعاً ما نظاماً بين القطاع العام ، والقطاع الخاص ، وأرباب العمل ، والملاكات (الكادرات) والعمال والدولة بالتخطيط المرن . وهذه عبارة أصيلة تحاول ، منذ ١٩٤٦ — ٤٧ ، أن توحي ، وأن تنور ، وأن تقنع أكثر من أن تفرض توجيهات صلبة . وقد أعطت الخطط الأربع الاولى (١٩٤٧ — ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ — ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ — ١٩٦١ مع خطة وسيطة ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، ١٩٦٢ — ١٩٦٥ ، نتائج قاطعة ومقنعة ، وحصلت على مشايعة شبه اجماعية في فرنسا ، وحضت على تقليدات أمينة كثيراً أو قليلاً في بريطانيا العظمى ، وبلجيكا ، والبلاد المنخفضة وايطاليا ، الخ . ودخلت الخطة الخامسة في حيز التنفيذ في عام ١٩٦٦ ؛ وفيها وسعت الحكومة بصورة محسوسة أهدافها وذلك بأن عهدت إليها بعمل دقيق بتوزيع الدخول بشكل أفضل ، وفي ذلك ما يخاطر بالمعارضة أكثر من الاتحاد . وفي هذه الفرضية ، يجب بالفعل أن يؤخذ من البعض ما يعطى للآخرين ، على

حين أن المهمة الأساسية للتخطيط حتى الآن كانت تحريك التوسع الاقتصادي الذي يهتم به كل الناس .

لقد أشعر ضياع الامبراطورية الاستعمارية ، الذي تم بين ١٩٥٨ و١٩٦٠ ، باستقلال افريقية السوداء ، وبدء تنفيذ السوق المشتركة فرنسا بأنه من غير الممكن أن تنطوي على صعيدها بعد أن ضاعت منافذ ما وراء البحار أو تعرضت للخطر وفسدت ؛ وأن الرفيقات الخمس في الوحـــدة الاقتصادية الأوربية .C . E. E سيكون لها طريق حر على أسواقها ؛ ولذا لا مندوحة عن الاستعداد للنضال ، وبالتالي التنظيم . وهذا ما حاولت أن تفعله . ومنذ قيـــام الجمهورية الخامسة ، بحثت عن وضـــع لعدم الاستقرار النقدي . وأعطت خطتها في الاستقرار ، التي طبقت في ايلول ١٩٦٣ ، بعض نتائج ظاهرية بالتنظيم التسلطي لأسعار البيع دون أن تخفف الاعباء التي تثقل أسعار الكلفة .

ووضعت الأزمة الاجتماعية ، في أيار — حزيران ، كل شيء على بساط البحث من جديد بارتفاع الأجور (١٥٪ وسطياً) وما طابقها من زيادة في الاعباء العامة والخاصة .

وعرفت فرنسا منذ ١٩٥٠ توسعاً اقتصادياً تساوي وتيرته تقريباً وتيرة الدول الأوربية الأخرى ، وأعلى من وتيرة الانغلو — ساكسون ؛ ولكن الحرب الاستعمارية التي اضطرت فرنسا لدعمها حتى وصول الجنرال دوغول إلى السلطة ، وحتى اتفاقات ايفيان في ١٩٦٢ ، أفسدت بشكل رصين توازن اموالها الخارجية والداخلية . فمن ١٩٥٢ إلى ١٩٥٥ كان ميزان الحسابات فائضاً . وفي ١٩٥٦ ، ارتفعت خسائر القطع إلى ٧٥٠ مليون

دولار وإلى ١٣٧٠ مليون في ١٩٥٧ . ونفدت الاحتياطيات عملياً . ولم يرجع الفرنسيون الأموال إلى الوطن بالقطع النادر ، ولم يثق الخارج بالفرنك . وبفضل المساعدة الخارجية التي قدمتها المصارف الامريكية والأوربية بسرعة ، وصندوق النقد الدولي F.M.I. الخ ، وبتخفيض النقد بنحو ٢٠٪ ، وعودة الثقة ، سقط عجز ميزان الحسابات إلى ١٠٠ مليون دولار في ١٩٥٨ وتحول إلى فائض ١١٥٤ مليون في السنة التالية .

ومنذ ١٩٦٠ ، زاد مستوى حياة الفرنسيين بانتظام نحو ٥٪ حسب الاحصائيات الرسمية . وبلغ الانتاج القومي الخام ٥٠٠ مليار فرنك في ١٩٦٧ ، مقابل ٩٠ مليار في ١٩٥٠ ؛ ولم توازن التجارة الخارجية الواردات (٦١٫٢ مليار في ١٩٦٧) والصادرات (٥٦٫٢ مليار) ، وأبدى ميزان الحسابات في ١٩٦٧ فائض ٥٫٥ مليار . وفرنسا ، بحسب رأس كل ساكن ، هي البلد الذي يبذل جهداً كبيراً لصالح البلاد السائرة في طريق التنمية (١٫٤ مليار دولار في ١٩٦٤) ؛ واحتياطياتها من القطع ترقم بما يزيد على ٣٠ مليار فرنك، وكلها تقريباً محسوبة ذهباً (٥٠٠٠ طن) أثناء أزمة أيار ١٩٦٨ .

واليوم تجابه فرنسا بالمنافسة الدولية ولا يمكنها التخلص منها لتزدهر .

والنجاحات التي حصلت عليها لا يمكن أن تخفي ضعف بنيانها ٪ :

إن زراعتها التي تشغل ١٩٪ من الشعب العامل ، ما زالت مجزأة كثيراً . ومشاريعها الصناعية ضعيفة الأبعاد كثيراً جداً . وينقصها في الغالب روح المبادهة ، ولا تجرأ مصارفها على تحمل الاخطار التي تقع عادة عليها.

إن مسؤوليات القرار والتنفيذ خاصة بادارة متكاثرة الفروع أكثر مما هي خاصة بممثلي الشعب . والحركة النقابية فيها ليست وحدوية كما هي في بريطانيا العظمى ، وفي ألمانيا . والمراكز العمالية الثلاثة :

الاتحاد العام للعمل ، والاتحاد الفرنسي الديموقراطي للعمل، وفرنسا العمالية تجمع على الأساس عندما يجب انتزاع ارتفاع اجور وفوائد اجتماعية أخرى من الدولة أو من القطاع الخاص . ولكن الاتحاد الفرنسي الديموقراطي للعمل وفرنسا العمالية لا يرغبان بالاختلاط ، أو الوحدة ، كما يقترح عليها الاتحاد العام للعمل دورياً . ولا يرجو أحد هذه الثلاثة قيام حكم الاصناف المهنية ، أو يمدح المشاركة في التسيير كما في المانيا. وهي تحرص على توكيد استقلالها حيال الأحزاب السياسية — حتى الاتحاد العام للعمل الذي يعرف بتعاطفه مع الحزب الشيوعي . وتحذر الدولة وما تسميه « تكنوقراطيها » (فنييها) الذين يمارسون سلطتهم بناء على دراساتهم النظرية في الميكانيكيات الاقتصادية دونما نظر كاف إلى العوامل البشرية . وقد حافظ موجهوها على صفات العاطفية التي نشطت رواد القرن التاسع عشر . ويضمون بين صفوفهم قليلاً من الاقتصاديين المختصين ، على خلاف النقابات الامريكية والالمانية . ويهتمون بالتوزيع العادل للثروات المكتسبة أكثر بكثير من شروط الانتاج التي يتركون الاهتمام بها إلى القطاع الخاص أو إلى الدولة .

وربما عرفت فرنسا منذ أن فقدت امبراطوريتها أكثر من بريطانيا العظمى الطريق الذي يجب أن تسلكه لتنمية اقتصادها ، وهذا يعني تنظيم أوربه وفتح المنافذ الخارجية بالاتحاد . ولكنها ما زالت مترددة ، كبريطانيا العظمى ، على اختيار سياسة ، على الصفات العائدة للقطاع الخاص والعام . وحسب مزاج الحكومة أو حكم الانتخابات العامة ، تعطي التفضيل لاحدهما أو للآخر ، دون أن تدرك بأن هذا هو أفضل وسيلة لتثبيط نشاط كل منهما . وفرنسا ، كبريطانيا العظمى ، ترفض بأن تقبل بأن الاقتصاد هو السبب الأكبر للعيش والأمل .

سرّاء الصين الشيوعية وضراؤها

يسمع في الغالب ما يقال في الغرب ان الصعوبات السياسية ، التي تفصل جمهورية الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي ، وكلاهما ماركسيتان - لينينيتان ، تتأتى بشكل أساسي عن الفاصل بين تطورهما الاقتصادي والاجتماعي . فقد تأخرت الصين تاريخياً بثلاثين عاماً عن الاتحاد السوفياتي، وتحكم على الأمور كما كان السوفياتيون يحكمون عليها أيضاً في زمن شيوعية الحرب ، والسياسة الاقتصادية الجديدة (النيب = N.E.P.) ، أو حتى خطة ستالين الخمسية الاولى ، بينما تجاوز الاتحاد السوفياتي مرحلة الثورة الكادحة ليستقر في نظام أكثر تطوراً ، وأكثر وعياً لمسؤولياته الدولية ، بعد أن أنضجته التجارب التي تحثه على المرونة والصبر حيال الرأي العام الخاص به وبالعالم الخارجي . ومنذ تشرين الاول ١٩٤٩ ، الذي يسجل قيام نظام ماوتسه - تونغ ، مر التاريخ الاقتصادي للصين الشعبية بأربع مراحل متميزة :

١ - في المرحلة الاولى التي تذهب من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٧ ، نسخت الصين حرفياً طرق الاتحاد السوفياتي . وظهرت نفسها كتابع أو تلميذ لموسكو .

وفي ١٩٥٣ ، ألقت خطتها الخمسية الاولى (١٩٥٣ - ١٩٥٧) المخصصة لاقامة « أساس تصنيع البلاد والدفاع الوطني الحديث » . واعتمدت على قوتها الديموغرافية (٧٠٠ مليون نسمة) واحتياطياتها بالمواد الاولية التي تقدرها بسخاء بـ ٢٠٠٠٠ مليار طن من الفحم ، ١٠ مليارات طن من فلز الحديد ، ٢ إلى ٣ مليار طن من البترول ، ٢٠ مليون طن من المانغانيز ، أكثر من مليوني طن من التانغستين ، الخ . ، موزعة على الـ ١٠ ملايين كيلومتر مربع التي تغطيها أرضها .

وبالرغم من المساعدة الفنية والمالية من الاتحاد السوفياتي ، فان نتائج الخطة الخمسية الاولى لم تطابق الآمال : ركدت الزراعة ؛ وبقي « فلاحو الاربعين قرناً » متعلقين بشدة بقطعة الارض التي أعطاهم إياها الاصلاح الزراعي الصادر في ٢٨ حزيران ١٩٥٠ ، وبينياتهم العائلية ، وحتى بطرقهم الزراعية القديمة في الغالب ، لعدم وجود الاسمدة والآلات ورؤوس الاموال ؛ ولم يقبلوا إلا مع الحذر والتردد والمقاومة الرقابة الاشتراكية لتعاونيات الانتاج . ولم تسر الصناعة والتجارة بأفضل من الزراعة . والتسميرات ضعيفة . والملاكات غير موجودة . ووسائل النقل غير الكافية تؤمن بشكل سيء الارتباطات الضرورية بين أقاليم واسعة ومختلفة . وعند الصين من الخطوط الحديدية ما يقارب ٢٥٠٠٠ كم ومن الطرق المعبدة ١١٢٠٠٠ كم ، بينما نجد في فرنسا ان طول الخطوط الحديدية ٤١٠٠٠ كم ، وطول الطرق المعبدة ٧٢٠٠٠٠ كم .

٢ — في ١٩٥٧ ، استعدت الصين لطرح خطتها الخمسية الثانية (١٩٥٨ — ١٩٦٢) . وكانت هذه بداية المرحلة الثانية . وكانت هذه الخطة تستلهم دوماً من الطرق السوفياتية . وتعطي الاولوية أيضاً إلى الصناعات الثقيلة : فقد صعد استخراج الفحم من ١٢٠ مليون طن في ١٩٥٧ ، إلى ٢٣٠ مليون طن في ١٩٦٢ ؛ وانتاج الفولاذ من ٥،٣ مليون طن إلى ١٢ مليون ؛ وفي الوقت نفسه يجب أن تنتقل المحاصيل من ١٥٤ مليون طن إلى ٢٤٠ مليون . ولكن الحماسة كانت مفقودة . وفجأة استأنفت بكين علناً وبشكل مفتوح حريتها حيال الاتحاد السوفياتي ، ربما لأن هذا الاخير رفض زيادة مساعدته وحتى الابقاء عليها في مستوى السنوات السابقة ، وأعلنت أن الصين تواجه المرحلة الثانية من ثورتها : « القفزة إلى أمام » وتنظيم القومونات الشعبية . و « القفزة إلى أمام »

تفترض أن الصين تسير على ساقيها : الزراعة والصناعة ، كما قال ماوتسه — تونغ في آب ١٩٥٧ . ولا تعتقد الصين أن الطريق الوحيد للتقدم ينطلق من التصنيع الكثيف والسريع للبلاد ، كما فعل ستالين في ١٩٢٨ . فهي لا تريد أن تضحي الزراعة في سبيل الصناعة ، بل يجب أن تسير الصناعة والزراعة معاً . وتوطد التواقت في داخل القومون الشعبية . وأصبحت القومون الشعبية ، « حيث وضع كل شيء بالمشاركة بغية تدمير كل أثر للملكية الخاصة » ، « الوحـــدة الأساسية لسلطة الدولة الاشتراكية » ؛ وهي تشمل كل النشاطات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعائلية والسياسية والادارية ، وتخطط على المقيـــاس المحلي الانتاج الزراعي والصناعي ، والمبادلات ، والتوزيع والتثميرات . وفي الحقيقة ، إن النظرية مطابقة تماماً لتوصيات لينين الذي يحبذ القومون أكثر من المشروع لاقامة الخلايا الاساسية .

ومن الوجهة العملية ، لم تعط القفزة إلى أمام النتائج المرتجاة . ورأت الصين أن تزيد انتاجها الصناعي بـ ٦٥٪ في العـام بحملة الفولاذ الشعبي ، التي جندت ٦٠ مليون عامل . وشادت كل قومون أفراناً عالية ولكن نقص الكفاءة الفنية وضعف الوسائل الموضوعة تحت تصرف العمال ، والجزع (عدم الصبر) ، الذي تحمل به الشعب نظام القومونات الشعبية الشديد جداً ، أدت إلى اخفاق حاد . ولذا يجب فك الأفران العالية على عجل واعتبار ٣مليون طن من الحديد الصلب دون قيمة . ولزيادة المصيبة كانت محاصيل الأرياف في ١٩٥٩ — ٦٠ — ٦١ في حالة عجز واضح بسبب الفيضانات والجفاف . ومع ذلك فقدأوتيت التجربة ثمارها: فقد تحمل النظام الصدمة ؛ ووجد الجدب ولكن دون مجاعة . ولم تنم الصناعة حسب الوتيرة المؤملة ، ولكن البلاد مهرت بشبكة كهربائية

كثيفة نسبياً ، وعلى الأقل في المناطق الكثيفة السكان . وقبلت الحكومة المركزية ، بالمقابل ، بان يحصل على مزيد من المزارعين وان يترك لهم بعض الحرية في العمل وفي الحياة العائلية . وعاشت القومونات ، وفي ١٩٦٢ — ٦٣ — ٦٤ سجلت وفرة نسبية . وانتهت « الفترة الدرامية » في ١٩٦٤ .

٣ — وبعد صمت طويل ، قابلت الصين المرحلة الثالثة . وبدأت، في آخر ١٩٦٥ ، بتطبيق خطة خمسية جديدة (١٩٦٦ — ١٩٧٠) ؛ وألحت هذه الخطة على التصنيع (الكيمياء ، النقل ، الطاقة ، المنسوجات) دون إهمال البنيات الزراعية . ولم ترقم الحكومة ، لفطنة منها ، الأهداف التي يجب بلوغها ؛ ولذا لا يعلم على وجه الدقة الاقتصاد الصيني في بداية ١٩٦٦ وبحسب المعلومات الرسمية أو تعميمات الخبراء الغربيين ، بلغت وتيرة التوسع الصناعي ٥ إلى ٨٪ في ١٩٦٤ ، و١١٪ في ١٩٦٥ ؛ وصعد انتاج الفحم إلى ٢٢٠ مليون طن ، وانتاج الفولاذ إلى ٩ مليون طن ، وانتاج الكهرباء إلى ٣٢ مليار كيلو وات ساعي في ١٩٦٥ . وارتفعت المحاصيل في ١٩٦٤ إلى ٢٢٠ مليون طن ، وتحسنت في ١٩٦٥ .

ووجد الاقتصاد الصيني في ذلك العصر أيضاً في نزاع مع صعوبات جدية : لأن الزراعة تتعلق بشكل وثيق بطيش الطبيعة ، ولا تستطيع الصين أن تحقق اللحمة في المحصول إلا بفضل واردات سنوية من ٥ إلى ٦ مليون طن من الحبوب تأتيها من الغرب أو من اوستراليا . وفي ١٩٦٢ ، كانت ترى أن تلحق ، وحتى تتجاوز ، بريطانيا العظمى في الانتاج الصناعي ، ولكنها ما زالت بعيدة عن ذلك . وانتاجها القومي الخام ينمو بانتظام : وقد انتقل من ٢٠ مليار دولار في ١٩٥٠ إلى ٥٠ — ٦٠ مليار في ١٩٦٧ ، وهذا ضعيف جداً بالنسبة لبلد مأهول كالصين . وثلثا

مزارعها تقريباً مصنفان في فئة « الفلاحون الفقراء » ، وهذا يعني بأنه لايوجد عند الفلاحين ، للعيش ، إلا ما تعطيهم قطعة الارض النحيلة التي يتصرفون بها ، والعمل ، إلا وسائل عصر آخر .

واستنجدت الصين ، لتعجيل تنميتها الصناعية ، بالبلاد الرأسمالية ؛ وبحثت عندها عن معامل كاملة . وفي ١٩٦٥ ، رقمت تجارتها الخارجية ٣٫٥ مليار دولار كان ثلثاها مع البلاد غير الشيوعية . وتكاد تساوي هذه التجارة تجارة سويسرا . وليست أعلى إلا بقليل من تجارة ميناء هونغ كونغ (٢٫٥ مليار دولار) . ومستوى الحياة في الصين الشعبية أدنى بوضوح في وسطه من المستوى الذي تتمتع به البلاد الحرة ، مثل فورموزه أو هونغ كونغ (٥٨٠ دولار في العام لكل رأس ساكن) ، وهذا لا يشجع الدعاية الشيوعية في الشرق الاقصى .

٤ — وعندئذ واجهت الصين الشيوعية المرحلة الرابعة من تاريخها ، وربما كانت أصعب مرحلة : وهي مرحلة الثورة الثقافية . ولا يمكن معرفة نتائجها ، لأنها لم تنته : وقبل أن تبدأ ، جرت العادة في الصين ألا تنشر احصائيات رسمية ، وأن تترك الأمور تتكلم عن نفسها . ومن المبادىء الأساسية للثورة الثقافية أن الاقتصاد خادم متواضع للسياسة ، ولذا ، لئلا نأخذ إلا مثلاً واحداً ، فان الاجور تتعين حسب القناعات العقائدية للعامل ، قبل أن تؤخذ بعين الاعتبار قدراته المسلكية .

لقد غيرت الثورة الثقافية شروط العمل في الارض وفي المعمل وأشركت بجد شبكة طرق المواصلات وكانت قليلة الامتداد .

وتختلف تقديرات المحاصيل والانتاجات الصناعية حسب المصادر . ففي سنة ١٩٦٧ ، لم يتجاوز انتاج الحبوب ١٧٥ مليون طن . وصعدت

واردات الحبوب في ١٩٦٧ إلى أكثر من ٥ ملايين طن . وتختلف الاحصاءات بالنسبة للفولاذ بين ١٢،٥ و ٢٥ مليون طن ، والفحم بين ٢٤٠ و ٣٠٨ مليون طن ، والبترول بين ٨ و ١٢ مليون طن . والدخل بالنسبة لرأس الساكن ٩٠ دولار في العام .

ولذا لا يمكن الاعتماد إلا على افتراضات أو على تعميات لا تسمح باعطاء حكم على عمل ماو . واليقين الوحيد بالنسبة للمستقبل هو أن الصين خزان كبير للمواد الاولية واليد العاملة . والشعب ذكي ، شغال ، ويتكيف دون جهد مع التقنيات الحديثة . والتقدم الذي قامت به الصين على الصعيد النووي يقدم الدليل على ذلك . إلا أن هنالك نقطة سوداء على الصعيد الاقتصادي : وهي كيف الوصول إلى تغذية هذه الكتلة البشرية بشكل ملائم مع العلم أن نسبة الولادة فيها مرتفعة إلى الحد الأقصى . كما وأن هناك نقطة سوداء سياسية : كيف ينظم شعب يساق دوماً وباستمرار إلى الثورة ، أي إلى التغيير ، وليس عنده طبقة وسطى لتقيد كمسير . وشرط النجاح الاقتصادي ، قبل كل شيء ، الاستقرار السياسي .

إن مذهب ماو يدور في حلقة مفرغة .

قيام العالم الثالث والتضامن الدولي

إن آخر جزء في المجموعة هو العالم الثالث . والتعبير حديث ، ولقد ولد بمناسبة مؤتمر باندونغ ، في نيسان ١٩٥٥ . ولأول مرة في التاريخ يجتمع ٢٩ بلداً آسيوياً وافريقياً ، والآسيويون يسيطرون بعددهم بشكل واسع جداً ، لتؤكد أمام الدول الغربية والكتلة الشيوعية بانها منذ الآن سادةمصيرها، وانها تريد أن تنظم معاً اقتصادها ، ولكن دون أن تبعد

مساعدة الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى ، والاتحاد السوفياتي أو الصين الشيوعية ، وانها تطبق حيال الجميع ، حسب تعبير البانديت نهرو ، سياسة « الحياد الايجابي » . ثم ان بلاداً أخرى من آسيا وافريقية المتحررتين من الاستعمار ، وبلاد امريكا اللاتينية وحتى بعض البلاد الأوروبية جاءت تضخم كتائب العالم الثالث الذي يضم اليوم ٧٥ إلى ٨٠ أمة تتصف جميعها تقريباً بصفات واحدة وتعيش في الغالب من ثمرة الزراعة أو استخراج بعض المواد الاولية الصناعية . والاكثرية فيها تتعاطى بشكل فردي أو ما يقارب ذلك الزراعة ؛ ولا تتصرف باحتياطيات نقدية ؛ وتؤمن منافذها الخارجية أكبر قسط من وارداتها ، ولكن لما كانت هذه الأخيرة تأتي عن منافسة ثلثي بيوع المواد الأولية على الأقل ، لذا كانت متغيرة الحد الأقصى . ان ٦٠ إلى ٨٠٪ من الشعب أمي غير متعلم لا يعرف القراءة والكتابة . والبنيات السياسية والادارية غير مستقرة . والدخول بحسب الرأس وفي العام ضعيفة للغاية (٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار) . وفي البدء كان يقال عنها ، مع شيء من الاحتقار ، بأنها بلاد متخلفة غير قادرة بوسائلها الخاصة على الخروج من بؤسها ، مهما كان النظام السائد فيها رأسمالياً أو شيوعياً .

ثم أصبحت ، نحو ١٩٦٢ ، « بلاداً في طريق النمو » . ماذا جرى؟ هل المراد تغيير بسيط في التسمية ؟ لا على وجه الصحة . ان معاملتها بـ « متخلفة » أوجدت عندها عقدة نقص ، وشكت منها إلى السلطات الدولية .

وأجيب طلبها بنوع من اتفاق ضمني : ولكن هذا التغيير في الاسم يتفق أيضاً مع تغيير في الواقع . وقد حيت الدول الكبرى بشكل ملائم قيام العالم الثالث . وقررت أن تمده بالمعونة الاقتصادية والفنية والمالية

أو النقدية . وشدت « الأوطان الأم » مع المستعمرات القديمة أواصر ظهرت في المضمار الاقتصادي بخاصة مستحيلة الحل وإلا فإن هذه البلاد التي أصبحت مستقلة ، تنهار في الفوضى . واستمرت في مساعدتها بشكل أو بآخر ، وإلى جانب هذه المساعدة الثنائية وفي أكثريتها عامة ، أي من دولة إلى دولة ، نظمت أو عززت قليلاً قليلاً مساعدة متعددة الجوانب بوساطة الهيئات الدولية التي رأت بهذا الواقع تزايد أعمالها ومسؤولياتها بشكل عظيم .

وعاد الأمل إلى معسكر العالم الثالث بعد هذا الدعم الدولي من الدول الرأسمالية أو الدول الشيوعية ، واستحق أعضاؤه الوصف الأكثر تفاؤلاً وهو : « البلاد السائرة في طريق التنمية » .

إلى أي درجة يندفع هذا العون المباشر بأشكاله المختلفة ؟ ان لجنة معونة التنمية (C . A . D .) ، التي تعمل في داخل منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين (O . C . D . E .) تعطي معلومات دقيقة عن العمل الذي تقوم به الدول الكبرى في الغرب مع اليابان ؛ والمبلغ السنوي للمساعدة التي تقدمها هذه الدول يتراوح بين ٨ و١١ مليار دولار في العام ؛ ولكن هذه المساعدة تبدي صفات مميزة خاصة : فهي في ثلثيها تقريباً مساعدة عامه وثنائية وتمنح بصورة أساسية تحت شكل منح . وتقوم أربعة دول (الولايات المتحدة ، فرنسا ، بريطانيا العظمى ، جمهورية المانيا الاتحادية بالقسط الاكبر من الجهد المالي ، وتأتي فرنسا في الصف الاول في مبلغ المساعدة بالنسبة إلى دخلها القومي . ومساعدة البلاد الاعضاء في لجنة معونة التنمية (C . A . D .) هي نسبياً على حالها منذ بضع سنوات . ولا يعلم على وجه الصحة المساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفياتي والصين (جرى الكلام على مليار دولار في العام) ، لأن هذه المساعدة ثنائية فقط

وتحول غالباً بشكل مقايضات ومنح أو اعتمادات طويلة الاجل .

والمساعدة المتعددة الجوانب غير عظيمة بعد . وتميل إلى التوسع والنمو وبخاصة إلى التنظيم على الصعيد الاقليمي (كاتفاق اوربة الست مع ١٨ بلداً افريقياً ، مثلاً) ، أو على الصعيد العالمي (مثل البنك الدولي للاعمار والتنمية .B.I.R.D وفروعه ، وصندوق النقد الدولي F.M.I ، ومنظمة الامم المتحدة) .

وباتجاه من فرنسا ، أبرمت الوحدة الاقتصادية الاوربية ، في ٢٠ كانون الاول ١٩٦٢ ، في بروكسل ، ووقعت بالاحرف الاولى في ٢٠ تموز ١٩٦٣ في ياؤنده[1] ، مع ١٨ بلداً افريقياً زنجياً كان معظمها منذ قليل يؤلف جزءاً من الامبراطورية الفرنسية ، اتفاقاً ذهب حتى اقامة علاقات نظامية (من حيث المؤسسات) ، سياسية ، اقتصادية ومالية دائمة بين المتعاقدين ، بغية تشجيع أو حماية وصول المنتجات الافريقية إلى الاسواق الاوربية وشد الاواصر السياسية معها .

وعند الانطلاق ، كان المراد عدم التخلي عن البلاد التي أصبحت مستقلة ، ولكن اقتصادها يعيش من المساعدة المالية ومن المنافذ التي قبلت بها الاوطان الأم ، وبخاصة فرنسا والمملكة — المتحدة . ولو تركت هذه البلاد فجأة لنفسها ، لما استطاعت التغلب على الصعوبة التي يخلقها بصورة آلية الانتقال من الاستعمار إلى الاستقلال . وتهدف الاتفاقية إلى حث البلاد الافريقية على ادخال انتاجاتها في المنافسة على السوق العالمية ، وبخاصة على السوق الاوربية ، حيث تدخل المنتجات المدارية لهذه البلاد مجاناً ، كما كانت الحالة دوماً مع فرنسا . وبالتدريج ، حذفت أسعار التفضيل ، التي تستفيد منها هذه المنتجات في فرنسا . ومقابل ذلك ،

(١) Yaoundé

وضيت أوربة الست لزميلاتها الافريقيات بمساعدة خمسية من ٨٠٠ مليون دولار جملة ، منها ٦٨٠ مليون مساعدات خولها الصندوق الاوربي للتنمية لبلاد ما وراء البحار (F.E.D.O.M) . وهكذا تشكلت منطقة انتقال للبضائع بين اوربة الست و ١٨ بلداً افريقياً وصفها رئيس لجنة الوحدة الاقتصادية الاوربية .C.E.E بأنها حادث وحيد في التاريخ « لأن هذه هي المرة الاولى لبلاد اوربية كان لها مستعمرات وتشترك مع مستعمراتها السابقة التي أصبحت مستقلة ، على قدم مساواة كاملة من الحقوق » .

والبنك العالمي (أو البنك الدولي للاعمار والتنمية) وصندوق النقد الدولي ، اللذان أنشئا في بريتون وودز في ١٩٤٤ ، يقومان بعمل أوسع من عمل اتفاق اوربه الست — افريقية السوداء ، لأن عملها يمتد إلى جميع القارات .

ووجد البنك العالمي B.I.R.D وفرعه ، الرابطة الدولية للتنمية (A.I.D.) استعدادهما الحقيقي في العالم الثالث . فمنذ ١٩٤٧ ، أقرض البنك العالمي والرابطة الدولية للتنمية نحو ١٠ مليارات دولار ، نصفها إلى الشرق الاوسط ، إلى الشرق الاقصى ، وإلى افريقية ، بغية تنمية وسائل النقل ، وبناء السدود ، واشادة المعامل ، وتحسين الاراضي ، الخ . وبلغت الوتيرة السنوية ، لقروض البنك العالمي ، مليار دولار تقريباً . ويمول البنك قاطع أيضاً بالبعثات التي يرسلها إلى البلاد الجديدة للكشف عن مواردها ، ومساعدتها على استغلال ثرواتها الطبيعية وايجاد رؤوس الاموال الخاصة الضرورية لتوسعها .

ودخل صندوق النقد الدولي ، في ١٩٦٧ ، بشكل مثير في قضية العالم الثالث وبواسطة القضايا النقدية والذهب . فقدبحثت الدول النقدية الكبرى

في الغرب ، التي تسمى أيضاً جماعة العشرة (الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، كندا ، اليابان ، السويد ، والدول الاعضـــاء في السوق المشتركة ، عدا اللوكسمبـــورغ) ، منـذ عدة سنوات عن واسطة لزيادة السيولة الدولية على وجه الاحتمال . وقررت في ٢٩ ايلول ١٩٦٧ ، في ريو دو جانيرو ، في الجمعية العمومية لصندوق النقد الدولي ، الذي يضم ١٠٦ أمم ، أن تسمح لصندق النقد الدولي بزيادة « حقوق السحب » بانتظام ، أي سحب اعتماداته الجاهزة ، تبعاً لحاجات التجارة العالمية . ولا يراد من ذلك إلا بداية تنظيم دولي لأسواق رؤوس الاموال ، ولكن صندوق النقد الدولي رأى نفسه قد كرس ليكون محطة لا غنى عنها لتمويل وتجارة البلاد السائرة في طريق التنمية غير أن هذا القرار الذي اتخذ في ريودو جانيرو يمكن أن يكون منعطفاً في تطور المساعدة المتعددة الاطراف التي كانت ، كما قلنا آنفاً ، ضعيفة نسبياً .

وتناولت منظمة الامم المتحدة القضية من عل . وفي ١٩٦١ ، اقترحت على الجمعية العمومية ، تحت عنوان « عقد منظمة الامم المتحدة للتنمية ١٩٦٠ – ١٩٧٠ » ، برنامجاً واسعاً في « مكافحة الفقر والمرض ، والجهل » . وصوت على هـذا البرنامج في ٩ كانون الاول ١٩٦١ والهدف الذي يجب بلوغه هو التالي : رفع النسبة الصغرى لنمو العـالم الثالث إلى ٥٪ ، وحتى ، إذا كان ممكناً ، إلى ٦٪ في العـــام ، وبشكل يرى فيه أن مستوى حياة الشعوب المتخلفة قد تضاعف في عشرين أو ثلاثين عاماً ، إذا لم تختلف نسبة النمو الديموغرافي . وترى منظمة الامم المتحدة أن هذا الهدف غير مستحيل البلوغ : « ان التجربة المكتسبة في العقد الاخير (العشر سنوات) ، كما ورد في أحد التقارير تساعدنا على القول عن يقين شبه مطلق بأن جميع البلاد المتخلفة تقريباً ،

عندها ، بالقوة ، بمواردها الطبيعية والبشرية ، الوسائط التي تؤمن لشعبها مستوى حياة لائق » . ووسائط الوصول إلى ذلك متنوعة جداً ويجب أن تنسق : تخطيط قومي ، ثم اقليمي ، بين الأمم ؛ التعليم والثقافة المسلكية ؛ استقرار أسعار المواد الاولية ، بأسعار مجزية ، بانشاء الاكداس الناظمة ، وبتطبيق قرينة تركيبية أو سعر متوسط ، وبتمثيل انخفاض الاسعار في مصيبة مغطاة بالتأمين ، وبرفع منظم للاسعار باتفاق مع البلاد المستهلكة ، أو أيضاً بالتصفية المجانية ، أو بسعر رخيص جداً ، للفوائض ؛ تنمية الصادرات الصناعية للعالم الثالث في البلاد المصنعة ؛ زيادة المساعدة المالية للعالم الثالث ، التي ، يجب أن تتضاعف في عشرة أعوام ، وتنتقل من ٨ أو ٩ مليارات دولار إلى ١٦—١٨مليار ؛ تجنيد القوى البشرية ، بغية استعمال أفضل لليد العاملة ، وتحسينها كيفاً وصحة وتقنية .

أما الذين يرون أن هذا البرنامج الطموح يكلف غالياً ، فقد أجابتهم منظمة الامم المتحدة ، في شباط ١٩٦٢ ، بأن من السهل ايجاد رؤوس الاموال إذا قبلت البلاد السبعة (كندا ، الولايات المتحدة ، فرنسا ، جمهورية المانيا الاتحادية ، الصين الشعبية ، المملكة المتحدة ، والاتحاد السوفياتي) ، التي تجمع ٨٧٪ من النفقات الكلية للتسلح — أي ١٢٠ مليار دولار — أن تقيم السلام بينها ، وأن تخفض ، إن لم تحذف ، تسلحها ، ولكن هذا قصة أخرى .

وعندما قبل البرنامج ، طلبت الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة ، في كانون الاول ١٩٦١ ، إلى الأمين العام أن « يشاور أعضاء المنظمة فيما إذا كان من المناسب عقد مؤتمر دولي يتعلق بالتجارة » . وحاز هذا المشروع على موافقة العالم الثالث : وكان مطابقاً لبرنامج مطاليبه « تجارة

لا مساعدة » ، وهـذا يعني منافذ لا مساعدة مالية . وعرضت الصورة بشكل فج فلم تطابق على وجه الصحة ما يرجوه العالم الثالث . ولم يرفض هذا العالم الثالث تقبل المعونة الفنية والاقتصادية أو المالية ، ولكنه أراد أن تكون منسجمة مع امكانيات التنمية لتجارته الخارجية . والمساعدة المالية ، بخاصة ، عندما تأخذ شكل منحة، توجد عقدة تبعية والحاق ؟ أما امتداد المنافذ الخارجية فهو ، بالعكس ، علامة ازدهـــار وقدرة اقتصادية . ودعم الاتحاد السوفياتي بدوره المشروع : ولم تكن البلاد الصناعية في الغرب معادية له ، رغم ما مازج قبولهـا من خوف في أن المؤتمر قد يكون حجة لوضعها في موضع الاتهـام مرة أخرى أيضاً . وتقرر أن يكون المؤتمر في جونيف من ٢٣ آذار إلى ١٥ حزيران ١٩٦٤ .

وحضرت مائة وعشرون أمة هذا « المؤتمر الماموت » الذي لا سابق له : وانقسم المجموع بصـــورة طبيعية إلى ثلاث فرق : بلاد الغرب الصناعية ؛ البلاد الاشتراكية ، مع الاتحـاد السوفياتي ، وبولونيـــا وتشيكوسلوفاكيا كزعماء الصف ؛ والعالم الثالث ، المؤلف من ٧٥ بلداً على الاقل ماذا خرج من هذا المؤتمر ؟ أولاً توكيد منشط : فلم ينته باخفاق ككل المؤتمرات التي حاولت بقليل من الطموح ، قبل الحرب العالمية الثانية ، أو حتى بعده ، توطيد رابطة دائمة اقتصادية أو نقدية بين البلاد الواقعة بسويات مختلفة في التنمية ومستوى الحياة . وكان من الممكن أن نخشى صدامات عنيفة في الاتجاهات بين الفرق الثلاث ، ومتطلبات العـــالم الثالث التي قد تضطر البلاد المصنعة إلى رفض دون استثناف ، ومزايدة البلاد الاشتراكية . لا شيء من هـذا : لقد كانت النظريات متضاربة ، ولكنها عرضتْ مع الرغبة في الوصول إلى تفاهم ، أو على الأقل إلى تسوية على ما هو أساسي . وتنـاول القـرار الاكثر تشخيصاً

وتجسيداً الأحكام النظامية (من النظم) . وقرر مؤتمر الامم المتحدة في التجارة والتنمية أن يجتمع على فترات منظمة ، كل ثلاثة أعوام ، وأن ينشيء هيئة دائمة : مجلس التجارة والتنمية ، ويتألف من ٥٥ عضواً منتخباً .

وهذا المجلس يتصرف ، على الاقل ، بثلاث لجان : المنتجات الاساسية ، المواد المصنوعة ، « غير المنظورة أو اللامرئية والمرتبطة مالياً بالتجارة » . ولكل دولة ممثلة في المؤتمر صوت ، وتؤخذ قرارات المؤتمر في المشاكل العميقة بأكثرية ثلثي الممثلين الحاضرين . وتكفي الاكثرية البسيطة في قرارات المجلس الاخرى .

وكان من الممكن أن تعتبر هذه النتيجة مخيبة لو لم تلته المناقشات على هذا المشروع النظامي . وفي الواقع ، أبدى المؤتمر أهمية رئيسية ، من جهة ، لأنه كرس رسمياً وجود ، حتى ، ولحد ما ، حيوية العالم الثالث كرفيق للدول القديمة الصناعية في اوربة وامريكا أو آسيا ؛ ومن جهة أخرى ، لأنه وضع اهتمامات ومطاليب ، والكلمة ليست قوية ، البلاد المتخلفة التي لم تكن ممثلة هذه المرة بالامم المستعمرة القديمة ، والهيئات الدولية ، والخبراء أو الزعماء السياسيين ، بل مباشرة بمندوبي الدول التي تؤلف أكثر من نصف سكان الكرة الارضية . مـاذا يريد اذن هذا العالم الثالث ؟ انه يريد بصورة أساسية زيادة دخله بحسب رأس الساكن . وكيف الوصول إلى ذلك ؟ إن المساعدة المباشرة الثنائية لا تكفي ، لأن النتائج المخيبة التي تنجم عن ذلك تثير جدلاً في الرأي العام في البلاد المانحة ؛ وتقرب أيضاً من الاستعمار الجديد ؛ وبالمقابل ، ان المساعدة المتعددة الجوانب المرجوة هي أيضاً تافهة .

وقد أشار الصك النهائي للمؤتمر الأول للأمم المتحدة في التجارة والتنمية إلى هذه الاهتمامات المختلفة بدقة : « إن فائض الصادرات على الواردات ، الذي ظهر في البلاد السائرة في طريق التنمية في ١٩٥٠ ، قد تحول في ١٩٦٢ إلى عجز ٢٫٣ مليار دولار ، بينما كانت دفوعها الصافية عن واردات التثميرات والواردات غير المرئية قد صعدت ، نحو ١٩٦٠ ، إلى نحو ٣٫٣ مليار دولار . وغطي هذا العجز بالمساعدة المقدمة وبآتي مختلفة من رؤوس الأموال . ومع ذلك ، فان الفرق بين حاجات واردات البلاد السائرة في طريق التنمية ودخولها من الصادرات كان آخذاً بالتوسع. وأصبح ٢٠ مليار دولار في العام ، في ١٩٧٠ .

ولم تتغير الحال ، وعلى الاقل ظاهراً ، منذ ذلك العصر . والمؤتمر العالمي الثاني للتجارة والتنمية ، الذي عقد في ١٩٦٨ في نيودلهي ، لم يفعل شيئاً سوى أن أثبتها . ومع ذلك ، يقال الآن ان العالم الثالث مؤلف من « بلاد أقل تنمية » ، وهذا يعني أنه يلاحظ بعض التقدم في تطوره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وانه من الممكن أن يغذي الأمل بأن هذه الدول « الاقل تنمية ، ستلحق يوماً الدول المصنفة بين الدول النامية .

ما هو هذا التقدم ؟ لقد أشار إلى ذلك ج . د . وودز ، رئيس البنك الدولي للاعمار والتنمية ، في افتتاح المؤتمر في ريو دو جانيرو في عام ١٩٦٧ بقوله : إن التوسع الاقتصادى في العالم الثالث يتطور بوتيرة ٥٪ في العام ، وهذا يطابق تنبؤات عقد (العشر سنوات) منظمة الأمم المتحدة ويراد هنا الوسطي ، لأن نسبة التوسع ، بالنسبة لعشرة بلاد على الأقل ، تتجاوز ١٠٪ في العام . وبالمقابل ، بالنسبة للأخرى ، ما زالت هذه النسبة بعد ضعيفة كثيراً . والعالم الثالث ممهور تدريجياً بطبقة

تحتية عقلانية وحديثة ، وبصورة أساسية في مضمار الطـاقة والنقل . وما يسجل له هو ، ان يقظة وجدان بعض بلاد العالم الثالث بالمسؤوليات التي تقع عليها في تحويل حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، واستحالة اعتبار البلاد النامية كهيئات احسان يمكن أن تؤخذ معها كل الحريات حتى مصادرة فائدة ورأسمـال الاموال المستقرضة . وأخيراً وبخـاصة ، كما أشار أيضاً رئيس البنك العالمي ، « لقد قبل لأول مرة في التاريخ تحسين مصير البشرية كغاية وهدف ومسؤولية على السلم الدولي » . ولكن هذا الرصيد الذي له ، وإن كان جذاباً ساحراً ، يزن قليـلًا جداً بالنسبة للدين الذي عليه ومواقعه الأساسية هي : الديموغرافية القـافزة ، التعليم غير المكيف ، وعدم الامكانيه المباشرة في تنظيم المواد الاولية والمنتجات المنتهية على المستوى العالمي ، وأخيراً عدم الاستقرار السيامي .

إن الديموغرافية القافزة في العالم الثالث هي هَمُّ المؤسسات الدولية العظيم . فقـد بلغ سكان العالم أول مليـار في ١٨٥٠ ؛ والثاني ، بعد ثمانين عاماً تقريباً ، في ١٩٣٠ ، والثالث ، ثلاثين عاماً بعد الثاني ، في ١٩٦٠ ، والمليار الرابع يجب أن يتجاوز في ١٩٧٥ ، أي ما يقارب ١٥ عاماً بعد الثالث ؛ وفي العام ٢٠٠٠ سيكون سكان العالم ٦ إلى ٧ مليار نسمة ؛ وفي القرن التالي يتكلم عن ١٠ ، ٢٠ وحتى ٣٠ مليار ، حسب تقولات الحاسبين .

وتؤوي البلاد المتخلفة ثلثي سكان العالم . وفي آخر القرن ، سيكون سكان آسيا ٤ مليارات نسمة ، وافريقية أكثر من ٦٠٠ مليون ، وأمريكا اللاتينية أكثر من ٦٥٠ مليون ، وأوربه ٦٠٠ مليون ؛ والاتحاد السوفياتي ٤٢٠ مليون ، وأمريكا الشمالية نحو ٤٠٠ مليون .

بأي الوسائط يمكن تغذية هؤلاء السكان بشكل أفضل ، أو بكل

بساطة منعهم من الموت جوعاً ؟ إن منظمة الأغذية والزراعة [١] ترى بأنه يجب زيادة المحصول الزراعي الحالي بثلاثة أضعافه ، ويعترف موجهوها بأن هذه القضية تسبب لهم دواراً .

والموقع الثاني، لما يجب على العالم الثالث ، هو التعليم . فمن المستحيل تحريك وتنشيط التوسع الاقتصادي في عالم تتطور فيه التقنية دون انقطاع وتأمر بالتقدم وتوجه المنافسة ؛ والتعليم المعطى لشعوب العالم الثالث مخالف لهذا الاتجاه ، وهي تفتح المدارس الثانوية والكليات لدراسة الآداب أو الحقوق ، ويهمل كلياً التعليم الفني ، وهو الوحيد الذي يستطيع أن « ينتج » ، كما قال ج . د وودز ، مزارعين وصناعيين ، وفنيين ، ومعلمين ، لتأمين الثقافة المسلكية .

والموقـــع الثالث : هو الصعوبة القصوى التي يشعر بها في تنظيم التجارة العالمية لاجابة أمنية البلاد الأقل تنمية . وفي الوقت الحاضر ، يتم التطور باتجاه معاكس : إن الحصة العائدة لتجارة العالم الثالث في التجارة العالمية لاتمثل أكثر من ١٩ ٪ من الصادرات مقابل ٢٧ ٪ في ١٩٥٥ و ٢٢ ٪ في عام ١٩٦٠ .

وقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت بلاد آسيا وأفريقية وأمريكا الجنوبيـة تصدر ١١مليون طن من الحبوب في العالم . ومنذ بضع سنوات لاتصدر فحسب بل تجد نفسها مضطرة لاستيراد كميات من الحبوب متزايدة دومـاً (٢٥ مليون طن في العام) دون تجنب المجاعة مع ذلك .

وفي الهند لا يسجل ٦٠ مليون مزارع ، ولا من بعيد ، المحاصيل التي يحصل عليها على نفس السطح ٦ ملايين مزارع أمريكي .

والمواد الأوليـة ، كما رأينا ، هي العنصر المحرك ، وفي الوقت نفسه المثبت لاقتصادات العالم الثالث . فيجب أن تزداد منافذها وأسعارها بانتظام . ومنـذ آخر الحرب العالمية الثانية، أطلقت البلاد الأقل تنمية صوت الانذار ، ولم يسمع هذا الصوت حتى السنوات الأخيرة .

---

(١) F.A.O

إن الدول الأنغلو ساكسونية ، التي تراقب أو تشرف مباشرة أو بشكل غير مباشر على هذه الأسواق ، دعمت بأن من الوهم إرادة محاولة تنظيم على السلم الدولي . والأسباب التي ذكرت لصالح هذه النظرية عديدة : ان هذه الأسواق تسير وتعمل مبدئياً حسب قانون العرض والطلب . وتتحمل تحولات فنية دائمة بمنافسة المنتجات التركيبية ، وتطور الحاجات ، والموضة ، وتقدم الكيمياء، الخ ؛ وجرت محاولات تنظيم جماعي عديدة وأخفقت ، وحتى إذا نجح بعضها ، فليس له قيمة المثل ، لأن كل مادة أولية هي حالة خاصة جداً لها تقاليدها ، وقواعد سيرها ، وحركيتها الخاصة ، وأخيراً ، وبخاصة ، إن التنظيم الدولي للسوق الذي توجهه وتراقبه بالضرورة الدول ، يؤدي إلى توجيهية ضخمة تذهب باتجاه معاكس للغاية التي يبحث عنها .

وفي ١٩٦٠ ، مع ذلك ، اقترحت فرنسا خطة ، بخاصة من أجل الأسواق الزراعية ، ودافع عنها أمام الهيئات الدولية ولفريد بومغارتنر[١] ،ا بيزاني، أ . فور [١] . ولاقت نجاح التقدير والاعتبار ، رغم أن بعض البلاد الجديدة ، وبخاصة اوستراليا ، كندا ، الارجنتين ، صرحت بوضوح بأنها تحرص على الحفاظ على حريتها في العمل. غير أن التنظيم العقلاني للاسواق،مع ذلك، ضرورة: وسينتهي بفرض نفسه ، لأن البلاد السائرة في طريق التنمية تجعل منه أساساً لبرنامجها ، الذي يكتمل بضرورة فتح البلاد المصنعة حدودها كثيراً لمنتجات العالم الثالث المحوّلة .

ويبرهن ختام مؤتمر ريو ، وأعمال منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين ، وأعمال السوق المشتركة على السير في هذه الطريق . ففي ريو، طلب من صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي للاعمار والتنمية ، أن يقدما في الجمعية العمومية الآتية لصندوق النقد الدولي مشروعات تنظيم أسواق المواد الأولية التي تستطيع

---

(١) Wilfrid Baumgartner

(١) E . PISANI , E . FAURE

فيها هاتان الميثتان أن تمسكا بدور رئيسي . وفي داخل منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين درست الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وجمهورية المانيا الاتحادية وفرنسا معاً إمكانية شراء المزيد من منتجات العالم الثالث المنتهية .

ان البلاد السائرة في طريق التنمية تدفع نوعاً ما الفداء لاستقلالها ، وتدفعه غالياً وما فتئت تستدين كل يوم بازدياد . وانتقلت ديونها العامة من ٢٨ مليار دولار في ١٩٦٣ إلى ٣٣ مليار في آخر ١٩٦٤ ، وإلى ٣٦٫٤ مليار في آخر ١٩٦٥ وإلى أكثر من ٤٥ مليار في ١٩٦٨ وعندما كانت هذه البلاد تحت سيطرة الخارج السياسية أو الاقتصادية كان لها عند مقتضى الحال عذر في القاء وزن تخلفها على الاستعمار أو على أنانية « الاحتكارات » الرأسمالية . واليوم ، هي سيدة قراراتها ولكنها لا تحسن استعمال هذه الحرية . ولا يعلم أحد أيضاً ما اذا كانت كبرياء الموجهين ، المتفاقمة ببؤس سكانها ، ستؤدي إلى العقل أو إلى المغامرة . ومنظورات الاقتصاد العالمي تنفتح إذن على مجهول رهيب لا تحذفه العودة إلى رأسمالية القرن التاسع عشر ، ولا الانتساب غير المشروط إلى الاشتراكية الكلية الشاملة التي ضحت في سبيلها بعض الشعوب حريتها منذ بضعة عقود من السنين .

وأخيراً يبقى الأمل في أن الدروس القاسية من ماض مخيب ، وتقدم التقنية ، والمعرفة الأفضل للمعطيات الأساسية للاقتصاد العالمي ، والأهداف التي يجب بلوغها ، ستدفع الأمم النامية والأمم السائرة في طريق النمو لتوحيد جهودها في دفع التضامن والثقة للبرهنة على أن المساواة الاقتصادية بين من هم أغنياء ومن يريدون أن يكونوا مثلهم تبقى الأساس الأكيد للحرية السياسية والازدهار . وهي من أكثر المعجزات الاقتصادية صحة وأكثرها نفعاً والتي استطاع العالم أن يسجلها .

الفصل الخامس

التطور الديني

مدخل

العالم الديني ، مهما كان تسميته ، يتأثر بقوة بالتغيرات التي تحدث في العالم الدنيوي . وكانت هذه التغييرات عظيمة في جميع الميادين طوال النصف قرن الذي انقضى منذ تفجير الحرب العالمية الأولى . فقد كان العام ١٩١٤ بحق بداية عصر جديد . وظهر ذلك بوضوح بعد الحرب العالمية الثانية . وتتصف العشرون سنة ، التي خلت بين الحرب الأولى والثانية ، بأنها عصر متوسط ، وفيه حاول النظام القديم أن يتماسك على أي حال أو يعمر نفسه . ولكن وجود الاتحاد السوفياتي ، والفاشية في إيطاليا ، والنازية في المانيا ، خارج هذا النظام ، يبرهن بما يكفي على أن المراد هنا كان اصلاحاً مضطرباً وجزئياً ولاسيما بعد أن انعزلت الولايات المتحدة . وفي الدور نفسه ، تجسدت الحركات القومية في أجزاء العالم الواسعة التي ما زالت تسيطر عليها الدول الاستعمارية . وبحثت الصين بألم عن طريق استقلال ذاتي حقيقي ، وأدى التقدم السريع في التقنية ، في مختلف الميادين ، إلى حركات سكانية وتغييرات اجتماعية عظيمة .

وظهر كل هذا للانظار بعد الحرب العالمية الثانية . وشوهد عندئذ

انهيار الامبراطوريات الاستعمارية ، الواحدة بعد الأخرى ، ووصول الشعوب الجديدة إلى الاستقلال ، تارة بشكل سلمي وتارة بعد كفاح طويل ومرير. ويظهر ، من جهة أخرى ، أن ظرف الفلاح مال إلى التحول بعمق ، حتى إنه فقد معظم طباعه التقليدية ، في البلاد المتقدمة الاقتصاد . وإن الثروة الصناعية الجديدة التي يعتبر استعمال الحاسبة الالكترونية صفة من صفاتها الأساسية ، توجد ظروفاً اقتصادية واجتماعية جديدة ، وان العالم ينزع إلى الانقسام لا بحسب الاتجاهات العقائدية المعتادة ، بل بين بلاد متقدمة وبلاد في طريق التنمية . والبحث جار ، في كل مكان تقريباً ، عن نظام جديد لم تظهر قواعده بعد بوضوح جداً .

كل هذا يضع للأديان ، لكل الأديان ، قضايا بكاملها قديمة وجديدة معاً . أو ، إذا أريد ، مستديمة ، حتى ان الأديان ، التي تقترح ، في هذا المعنى على المؤمنين بها حقيقة غير زمنية ، اضطرت أن تتكيف مع تغيرات التاريخ المستمرة دون انقطاع . ولكن هذه التغيرات كانت سريعه كثيراً في العقود الأخيرة . ولم يكن هذا ، كما يدعم البعض وهماً بصرياً صرفاً . لأن التقدم المادي يتضخم باستمرار . وكلما تقدم عظم التقدم وانتهى بالتفتت ككرة الثلج عندما تصبح ثقيلة جداً . ولم نصل بعد إلى هذا الحد ، ولكننا بدأنا نخشاه .

ومهما تكن الأديان ، فالمطلوب منها أن تتكيف بسرعة أكثر فأكثر مع ضرورات تتحول دون انقطاع ، وهذا هو الجديد ، كالطبيعة الخاصة للقضايا . وهكذا ، حتى عصر حديث نسبياً ، ناضلت الأديان والمذاهب ، بخاصة ، بعضها ، وأحياناً ، وفي الغالب كثيراً ، والأسلحة بيدها . وهي اليوم مهددة كلها جميعاً بمنازعة عامة لا توفر واحدة منهن ، وتطرح على بساط البحث الحادث الديني نفسه ، وعليها جميعاً أن تحمي نفسها من إلحاد

قد لا يكون دوماً منظماً وعقائدياً ولكنه يكون على الأقل شديداً عندما يبدو تحت شكل رفض عملي وهادىء . وتستطيع بعض الأفكار بصورة شرعية أن تتساءل ما إذا كانت الحاجة الدينية لم تفقد هذه العمومية التي حرص التاريخ السالف كله أن يعترف لها بها وما على الديانات ، منذ الآن ، الا أن تبرهن على ضرورتها الدائمة ، وتبرر تعددها في عالم آخذ بالضيق

التغيرات المنجزة

العالم المسيحي

الكنيسة الكاثوليكية . لقد كان من صفات الكنيسة الكاثوليكية انها سبقت من بعيد حركة الخلاص من الاستعمار الحالية . فقد قدس البابا بيوس الحادي عشر منذ بداية حبريته (١٩٢٢ – ١٩٣٩) أساقفة ملونين ، واظهر في كثير من الحالات ، تحت طائلة اثارة استياء الدول الاستعمارية آنذاك ، إرادة الكنيسة بألا يتضامن العمل التبشيري مع المشاريع الاستعمارية ، كما كانت القاعدة في الماضي غالباً .

وأكثر من ذلك ، خلال الدور نفسه ، أن عدداً متعاظماً من المبشرين كانوا يظهرون كل أهمية تتعلق بالثقافات الأصلية الوطنية ، حتى ان أحدهم وهو الأب ليب كان يعتقد بأنه لا يستطيع تبشير الصين إلا إذا تصين أي جعل نفسه صينياً . وعلى مثاله، الأب مونشانن [١] من ليون، الذي تهند ليبشر الهند ، ولم يكن المراد بالنسبة إلى هؤلاء المبشرين ، تشكيل مسيحيين عديدين كثيراً أو قليلا ، بل مسيحيين منفصلين

---

(١) IE P. LEBBE

(٢) Montchanin

بمسيحيتهم نفسها عن بيئتهم المحيطة . فعوضاً عن جعل الصين والهند مسيحيتين ، كما كانت ترى في الماضي غاليا أو اسبانيا مسيحيتين ، ولا أقل غالية أو أو اسبانيــة لأنهما مسيحيتان ، بل أكثر من ذلك ، بالعكس . لقد تخلي تدريجياً في بلاد مــا وراء البحار عن إشادة كاتدرائيات باروكية ، أو غوطية — مستعارة أو بيزنطية — مستعارة بأسلوب كنيسة الكارمل في ليزيو أو القلب الأقدس في مونمارتر في باريس. ولكن بحث في البناء والتزيين عن إيضاح الرسالة المسيحية باستعمال الأساليب الوطنية الأصلية في البلاد . وهكذا نزعت الكنيسة إلى الانفصال عن الظرف المتوسطي والانساني في الغرب ، الذي كان ظرفها ، لتصب الشراب نفسه في كؤوس أخرى ، وبلغت عمومية مــا فتئت تنادي بهــا ولكنها كانت في الغالب عموميــة مخفية بأسلوب غربي بخاصة .

وبصورة موازية ، يلاحظ أن أشكالا أخرى من التبشير ضرورية في البلاد التي دانت بالمسيحية قديماً ، وإن مؤلف الأب غودن « فرنسا بلد رسالة » يبدد الوهم الذي كان يعيش عليه الكثير من الكاثوليكيين الفرنسيين ، وهو أن بلاد الغرب التي الفت في العصر الوسيط البلاد المسيحية ، هي بلاد كانت المسيحية فيهــا دين الأكثرية وإن دراسات تفصيلية ، ومن بينها التحقيقات الكبرى التي قام بها غبريل لوبرا [٣] ، أيدت وجهات نظــر الأب غودن وإذا كان الغرب اكثر مسيحية في الماضي مما هو عليه اليوم ، فذلك أمر يترك للمؤرخين البت فيه ، ولكن من المؤكد بأنه اليوم ، في أكثريته ، ليس كذلك ، إن في الأرياف ، عدا بعض

---

(١) ليزيو Lisieux مدينة في شمال فرنسا .

(٢) غودن Godin .

(٣) Gabriel LEBRAS.

الاستثناءات ، أو في المدن . وإذا أرادت الكنيسة أن تجد من جديد اشعاعها القديم فعليها ألا تعتبر نفسها بأنها قائمة ، ببنية الابرشيات والخورنيات في البلاد ، بل في حالة بعثة ارسالية ، وعليها أن تنقل الرسالة المسيحية إلى أناس نسوها ، بل وأيضاً إلى أشخاص لا عد لهم لم يعرفوها الا من الخارج ، بشكل ظاهرات تقليدية وغير مبررة في نظرهم . والأنجيل أيضاً جديد بالنسبة إلى جماهير العمال في المدن الكبرى ، كما كان كذلك بالنسبة لأرقاء القديم الوثني أو البرابرة الذين اجتاحوا الامبراطورية الرومانية .

وأبدى البروتستانت من جانبهم ملاحظات مماثلة ، وخاصة في البلاد التي يؤلفون فيها الأكثرية . والأقليات ، في الواقع ، مصونة ضد انتزاع المسيحية ، وأيضاً يجب الا يستعمل هذا الاصطلاح إلا مع الحيطة والحذر ، لأنه من الممكن الوصول إلى التساؤل هل هذه الجماهير غير المسيحية اليوم كانت بحق غير مسيحية في الماضي ، ومن جهة أخرى ، إن حركة الشعوب الحالين ، التي تقيم في مكان وتعمل في آخر ، والحركة العظيمة التي تخلي الأرياف لصالح المدن ، تجعلان التبشير المحلي عقيما كثيراً أو قليلاً ، حيث يستطيع جميع المؤمنين التابعين للكنيسة تشكيل طائفة . والطوائف اليوم ليست محلية بل مسلكية . ونشر الدين يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الوسط الاجتماعي أكثر من التأصل المحلي . وهذا أيضاً ما فهمه باعجاب بيوس الحادي عشر عندما أنشأ **العمل الكاثوليكي المتخصص** ، أي المنقسم إلى فروع بقدر ما يوجد أوساط اجتماعية كبرى .

ولكن تحريك هذا العمل الكاثوليكي ذهب إلى ماوراء هذه الضرورة البسيطة . فقد كان القصد أيضاً إشراك العلمانيين بصورة وثيقة في العمل التبشيري . وحتى ذلك الحين ، ومنذ قرون ، كانوا في الكنيسة عنصراً سلبياً . ويكتفون بأخذ كلام الله عن الأكليركيين ، ولكنهم لا

يحملونه بأنفسهم . ثم إن الصعوبات المتزايدة في سوق الكهنوتيين وأيضاً ، بخاصة ، إن كون الانسان لايقبل في أيامنا أن يعتبر قاصراً ، اضطرا إلى النظر في دور العلمانيين في الكنيسة وتخويلهم مسؤوليات خاصة في جهد التبشير في العالم . وبدرجات مختلفة ، ومع الأخذ بعين الاعتبار التقاليد المختلفة ، شوهد حدوث نفس الحوادث في المذاهب المسيحية الأخرى .

ولا شك في أن هذه المذاهب تأثرت بشكل متفاوت بالتغييرات الكبرى التي حدثت في أوربة منذ الثورة الروسية في العام ١٩١٧ . فقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية متحدة بالدولة بشكل وثيق . وبقيت في روسيا وحتى في الامبراطورية العثمانية القديمة على الحال التي أقرها في القديم الأباطرة البيزنطيون . ومنذ سنة ١٩١٧ ، انفصلت الكنيسة عن الدولة بصورة مطلقة أكثر مما كانت عليه الحال في الغرب . ووجدت ، فوق ذلك ، دون دفاع معرضة لمبادهات دولة مناوئة للدين رسمياً . ولم يكن بالامكان تصور تغير مفاجيء وجذري أكثر مما كان . كما ان تداعي الامبراطورية العثمانية في ١٩١٨ لم يكن له نتائج أقل خطراً ، مع الزمن ، على كنائس تركيا ويوغوسلافيا ورومانيا ، والكنيسة اليونانية هي اليوم تقريباً الوحيدة التي تتمتع بعد بنظامها القديم .

وبعد الحرب العالمية الثانية خضعت كنائس رومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا والبانيا إلى نظام مماثل ، مع بعض التفاصيل تقريباً ، لنظام الكنيسة السوفياتية . وما من كنيسة حتى بطريركية القسطنطينية إلا وتعاني صعوبات جدية داخل الجمهورية التركية . ومن الممكن القول ان كل هذه الكنائس تقريباً وضعت لها قضايا جديدة بصورة مطلقة ، وفي الغالب ، مع قليل من الوسائط ، لمجابهتها وحلها .

ومن جهة أخرى ، منذ الحرب العالمية الثانية ، إن تشكيل بولونيا

وألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا وهونغاريا بشكل ديموقراطيات شعبية تستلهم من عقائدية الاتحاد السوفياتي نفسها ، وضع كثيراً من الكاثوليك والبروتستانت في حالة مشابهة لحالة الأرثوذكس . والبروتستانت ، وبخاصة الكاثوليك ، كُثُرٌ في سلوفينيا وكرواتيا اليوغوسلافية وفي ترانسلفانيا الرومانية . والحق يقال ، إن حالة الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في بلاد الديموقراطيات الشعبية ليست على وجه الصحة مشابهة لحالة الأرثوذكس في الاتحاد السوفياتي . ويحصل أن فصل الكنائس والدولة فيها لا يكون بنفس الدقة كما في فرنسا ، ولكن عليها أن تجابه جميعاً دعاية رسمية مناوئة للدين ، وليست هذه حال الكنيسة في الغرب .

وليست هذه الدعاية إلا مظهراً شديداً لحالة واقع يمتد كثيراً أو قليلاً في كافة العالم ، ويؤثر بخاصة على الطبقة العاملة في البلاد المتقدمة أكثر من غيرها في الغرب وإذا كانت فرنسا ، كما يقول الأب غودن ، بالاجمال ، بلد رسالة ، فان هذه الرسالة في الأوساط العمالية تكون عاجلة وشاقة . وكما يجب على المبشر في الهند أن يجعل نفسه هندياً ، ليبشر أو فقط ليمس ، وفي الصين صينياً ، وفي افريقية افريقياً ، فلماذا لا يجعل المبشرون أنفسهم عمالاً في الأوساط العمالية .

ومن هنا خرجت تجربة الكهان – العمال الشهيرة ، التي قام بها أيضاً عدد من الرعاة البروتستانت . وقد انقطعت هذه التجربة ، ولم يتخل عنها ، وسمح بها قرار جديد لمجمع الفاتيكان الثاني . وهي تستجيب فعلاً لضرورة بديهية . ففي المجتمعات الصناعية المعاصرة ، أخذ عالم العمل أهمية لم تكن له في الماضي . وإن من يحولون بأيديهم وأدمغتهم العالم يظهرون كالجناح السائر للبشرية . ولذا صرح بيوس الحادي عشر بألم بأن أعظم محنة الكنيسة كانت في ضياع الطبقة العاملة .

وبعد ، أليس التوفيق ممكناً بين الكنيسة وعالم العلم الذي يرتبط بها بشكل وثيق ، وبشكل حيوي ، وهذا يعني التوفيق مع العالم الحديث بكل مـا عنده من نوعي ؟ وقد اعتقد الأب تيلارد دوشاردن[١] ان هذا التوفيق الضروري ممكن ، بل ويفرض نفسه شريطة أن تعود المسيحية إلى مصادرها الخاصة من جهة ، ومن جهة أخرى ، أن تشترك ، لا باستسلام وإذعان ، بل بحماسة ، في هذا المشروع العام في تحويل العالم الذي بين عصرنا . يجب الخروج بصراحة من كون ثابت ، كون اللاهوت التقليدي ، لمجابهة واقع كون حركي ، في حركة ، وفي تطور . والكنيسة لاتعـارض التغيـير أو تقاومـه مـادامت قادرة ، كما فعلت في القرن الماضي ، وشجبت الديموقراطية ، قبل أن تقبلها أو أحياناً أن تفخر بهـا ، وعليها ، بالعكس ، أن تظهر مستعدة لكل التحويلات التي تتلاءم مع سلامة رسالتها ، بل وأحياناً أن تسبقها . وليس باتجاهها نحو الماضي ، وعلى الأقل الماضي القريب ، بل باتجاهها نحو المستقبل ، الذي تستقبله بهذه الثقة ، ثقة من لا يشك في رسالتها الخاصة .

الإسلام

الاسلام منتشر في جميع أصقاع العالم ، ولكن كتلته الكبرى في آسيا وفي أفريقيه . وهو منقسم ما بين مسلمين سنيين ومسلمين شيعة وأكثر الشيعة تقريباً منتشرون في إيران وفي العراق . ولقد تغيرت حالة المسلمين منـذ سقوط الامبراطورية العثمانيـة وحذف الخلافة الاسلامية في عام ١٩٢٤ . ولا شك في أن ملك المملكة المغربية ظل خليفة ولكن سلطته لا تتجاوز حدود مملكته . وان زوال الامبراطورية العثمانية كان

---

(١) Le P . Teilhard De Chardin

من نتيجته تحرير العرب وإنشاء عدد من الدول العربية المستقلة . والخلاص من الاستعمار ، الذي تلا الحرب العالمية الثانية ، حرر الدول الاسلامية في أفريقيه الشمالية من المحيط الأطلسي حتى قناة السويس . وفي الشرق الأسط ، نجد الباكستان أيضاً دولة إسلاميـة ، وفي الشرق الأقصى ، في قسم على الأقـل ، ماليزيا وأندونيسيا . وبعض الدول في افريقية السوداء إسلامية أيضـاً بكاملهـا أو في قسم منها . ومن الممكن القول ان جميـع البلاد الاسلاميـة في الوقت الحاضر ، مستقلة عـــدا بعض الاستثناءات الطفيفة .

وهذا التغيير الذي أحدثه التحرير أيقظ المسلمين من رقادهم وركودهم ولكنه وضـع أمامهم قضايا عديدة تركهـا الاستعمار في حالة سبات . ولا يمكن مع ذلك أن نجهل أن اليقظة الاسلامية كانت سابقة لهـــذه الحوادث . ممنذ القرن الماضي بدت في مصر وفي الامبراطورية العثمانية ضرورة تحديث الاسلام ، إذا أراد المسلمون أن يتكيفوا مع التحويلات التي تحدث في باقي العالم . وكانت هـذه نزعة محمد علي باشا في مصر والسلطان محمود الثاني في الامبراطورية العثمانيـة . وهناك حركة أخرى ارتسمت في شبه جزيرة العرب منـذ آخر القرن الثامن عشر : وهي الحركة الوهابية التي خرجت عنها المملكة العربية السعودية . ولكن هذه المحاولة في تجديد الاسلام كانت ذات صفة دينية واضحة . ومن الممكن أن نربط بهـــا بشكل غير مباشر على الأقل حركة العلماء التي كانت عظيمة الأهمية في الجزائر منذ ١٩٣٠ . ولا شك أن القصد كان تحديث بل أيضاً إرجاع الاسلام إلى نقاوته البدائية بتخليصه من الشوائب والبدع التي علقت به منذ بضعة قرون . وقد قام العلماء في سبيل ذلك بنضال مستحر ضد النساك والفرق الدينية التي كانت تتعاون مع الادارة الفرنسية وحاولوا أن يعلموا اللغة العربية الفصحى لغة الأمة العربية كلها .

وهذا الجهد المبذول يظهر أن الاصلاح الاسلامي في البلاد العربية كان يرمي الى غايتين : الغاية الدينية والغاية القومية . واللغة العربية لغة الاسلام ، وبهذه الصفة لها قيمة دينية عظيمة ، كما هي لغة العرب جميعاً . وبعد الحرب العالمية الثانية تحرر العرب وانقسموا إلى دول مستقلة بعضها ملكي وبعضها جمهوري ، ولكنها جميعاً تتطلع الى الوحدة العربية الشاملة وكما ان العرب ليسوا كلهم مسلمين ، فكذلك المسلمون ليسوا كلهم عرباً ، ومازال الاسلام والعروبة في تعاطف مستمر ، والاسلام رسالة العرب.

وقد عرف الاسلام بين جميع الأديان الحالية ، في القرن الفائت ، نجاحاً تبشيرياً كبيراً ، وبفضل الحالة الجديدة التي أوجدها الاستعمار الأوربي في افريقيه السوداء ، انتشر الاسلام بسرعة على حساب عبادة الأرواح في داخل القارة السوداء ، بينما انتشرت المسيحية في الشواطيء . ونتج عن ذلك انقسام عميق بين شعوب من أصل واحد . فعندما يصبح بعضهم مسيحيين والآخرون مسلمين يولون ظهورهم لبعض . وهناك حادث غريب حدث عند زنوج الولايات المتحدة : وهو أن النزاع العنصري ، الذي يقسم البلاد ، دفع من اتخذوا موقفاً راديكالياً في هذه القضية إلى المناداة بالاسلام ، حتى ان هذا الدين أصبح بتأصله في أمريكا عاماً بشكل حقيقي . وما ذلك إلا لأن الاسلام في أصله دين تحرير وثورة على الظلم والاستعباد ودفاع عن كرامة الانسان .

وقد يشتبه في أن تكون القضايا الدينية ، التي يضعها توسع الاسلام العظيم ، خطيرة للغاية . لأن قوة الاسلام في بساطته الدقيقة التي تجعله مباشرة في متناول الأفكار الفجة وغير المصقولة . ومن جهة أخرى ، لا يرى المسلمون كالمسيحيين تفريقاً بين الروحي والزمني . بل ان هذين العنصرين يظلان مرتبطين بشكل وثيق وعلى الأصح غير متميزين .

والاسلام كالمسيحية يقاوم بشكل فريد النزعات المناوئة للدين ، كالعلمانية في تركيا ، ومنذ الحرب العالمية الثانية ، الماركسية التي نفذت إلى الطبقة المثقفة الاسلامية ، والنقاش مازال قائماً بين أنصار الاشتراكية وأضدادها . والقصد من كل هذا النقاش هو الانتقال السريع من حياة العصر الوسيط إلى المجتمع الصناعي الحديث . ولذا فان القضايا التي توضع للاسلام ليست أقل خطورة من القضايا التي تجابهها في الوقت نفسه المسيحية واليهودية ، وهي من حيث الأساس واحدة . لأن القضايا في أعماقها قضايا ثقافية أكثر منها دينية ، ولكن كيف يميز الثقافي من الديني ؟

اليهودية

اليهودية دين أقلية من الناس عرفت بكرهها للبشر وبكره البشر لها وما ذلك إلا لأن معتنقي هذا الدين يعتقدون بأن دينهم خير الأديان ، وأنهم خير البشر ، وأنهم طائفة ممتازة دون سائر الخلق جميعاً . وهذا ما جعلهم ينطوون على أنفسهم دون الاندماج في الأوساط التي يوجدون فيها . وكبرياؤهم الوهمية في أنهم شعب الله المختار أبعدت الناس عنهم . هذا فضلاً عن أن أنانيتهم دفعتهم إلى البحث عن منافعهم الخاصة على حساب الآخرين واضطهاد الحكومات والشعوب لهم . ومنذ القرن الفائت أخذت اليهودية شكلاً سياسياً عرف تحت اسم « الصهيونية » التي قامت بدعايتها بين يهود العالم للعودة إلى أرض الميعاد ، فلسطين ، ومكنتهم الامبريالية الاستعمارية والمنافع الدولية من احتلال هذا الجزء من الوطن العربي وتشكيل دولة « اسرائيل » على حساب العرب ؛ الأمر الذي يخالف طبائع الأشياء وخصائص هذا العصر .

واليوم نجد ثلاث طوائف يهودية كبرى :

١ — يهود الولايات المتحدة وعددهم أكثر من خمسة ملايين ، وبينهم عدد عظيم من اللاجئين من أوربة الوسطى .

٢ — يهود اسرائيل والاتحاد السوفياتي ، وعدد كل فريق في كلا البلدين مليونان .

٣ — يهود الشرق الأوسط وافريقية الشمالية

ويهاجر اليهود من مختلف بلاد العالم إلى اسرائيل ، واستعمال اللغة العبرية يساعد على تمثيل هذه العناصر اللامتجانسة .

وتوضع قضايا متشابهة في الطوائف الكبرى الثلاث ، التي أتينا على ذكرها ، وأيضاً في الطوائف الأقل عدداً وأهمية ولكنها عظيمة في فرنسا وبريطانيا العظمى . إن قسما عظيما من اليهود الحاليين تركوا دين أجدادهم. وهذا الحادث مماثل لحادث التنصل من المسيحية الذي تشكو منه مختلف المذاهب المسيحية ويظهر الخروج الذى بلغ كافة الأديان في العالم ، ويصف أدواء واحدة ويضع قضايا واحـــدة . واليهودية ، عدا ذلك ، منقسمة إلى نزعات مختلفة ومتعارضة ، من اليهودية المتشددة الأصلية الحذرة إلى الحرية الواسعة . ومنذ زوال المحكمة اليهودية العليا لا يوجد لليهودية سلطة مركزية تستطيع أن تشرع في الأمور الدينية .

الاديان الاخرى

وهذه الأديان الثلاثة المسيحية والاسلام واليهودية تؤمن بالـله واحد شخصي ، عظيم ، متسام ؛ وتغطي أوربة وأمريكا كلها تقريباً والقسم الأعظم من أفريقيه ، وجزءاً كبيراً من آسيا . والديانات « البدائية »، وإن كانت في تراجع مستمر ، مازالت تضم كثيراً من الأتبـــاع في

بعض أجزاء من العالم . حتى ان الأضاليل التي تعيش بعدها تبلغ في الظاهر أكثر المناطق حضارة ، وكثيراً من الناس يستحيل تقديرهم على وجه الصحة . وفي بعض الأحيان يعتقد بأنها تستعيد على هذا الصعيد المواقع التي تخلت عنها في مكان آخر ، وتفيد مخرجاً لعاطفة دينية لا تشبعها الديانات التقليدية ، ولا يجهزها العلم الوضعي بأي غذاء .

وهناك ديانتان عظيمتان تسودان الشرق الأقصى ، أي أكثر قسم مأهول بالسكان في العالم ، آسيا الموسمية ، الهند ، الهند الصينية الصين ، اليابان : وهما الهندوسية والبوذية . والهندوسية تطبقها على العموم الجماهير الهندية ، وتلاقي بعض الأصداء في الغرب . وتعتبر الهند مع سورية وشبه جزيرة العرب الأم الكبرى للاديان . ويبدو أن الفكر الديني في الهند يقاوم أحياناً بأفضل من غيره نفوذ العلم المعاصر ، النازع للقداسة . وكان عمل غاندي عملاً دينياً بصورة أساسية . وهو الوحيد من بين معاصرينا الذي غيرت أفكاره وجه العالم .

وحالة البوذية ، الهندية الأصل أيضاً ، تختلف ظاهراً . ومن الصعب القول ماذا أبقى منها انتصار الشيوعية في الصين ، لأن الدالاي – لاما طرد من التبت . وفي اليابان يقاوم تعايش الشنتوية ، الديانة الوطنية ، والبوذية ، النفوذ المسيحي الملحوظ بعمق ، والنفوذ العلمي الماركسي وغير الماركسي . ومن المؤكد أن اليابان القديمة التقليدية لا تستسلم للموت بالرغم من الهزيمة والاحتلال الأمريكي الذي تبعها .

وهنا أيضاً ليس المراد الدين وحده ، بل الثقافة القومية المرتبطة ببعض العناصر الدينية .

وفي بورمانيا (بورما) والفيت – نام يلاحظ في العشرين السنة الماضية نهضة

بوذية فريدة . وإذا لبست في الفيت - نام لبوساً سياسياً وأحياناً مؤثراً بفظاعة ، فهذا لا يمنع من أن الواقع كان واضحاً وعظيما . ومن المؤكد أن من السهل التوفيق بين البوذية والايمان الحديث بالعلم أكثر من أي دين آخر في العالم . ولسنا متأكدين من أنه لم يؤخذ بعين الاعتبار الفكر البـوذي بين مركبات الماركسية الصينيـة ، وكذلك التقليد الكونفوشيوسي ، الذي لايمكن أن يعتبر تقليداً دينياً بخاصة .

انتزاع القداسة من العالم

وفي ختام هـذه اللوحة السريعة للحالة الدينية الحاضرة في العالم ، لا يمكن الخلاص من انطبـاع عام . إن انسان اليوم ممزق بين عقائديات متنافسة ، وممزق أيضاً ، على وجه التأكيد ، بين تقاليد مختلفة ، ولكنها تبدي صفة عامـة في إقامـة رابطـة بين الأرض والسماء . والكونفوشية وحدها كانت فلسفة أكثر منها ديناً ، ولذا لاقت العقائدية الماركسية نجاحاً خاصاً في بلاد الصين والفيت ـ نام المتأثرة بالتقاليد الكونفوشيوسية .

ولكن ، في كل مكان ، غير هذه البلاد الآنفة الذكر ، يوجد نزاع حاد كثيراً أو قليلاً بين التقاليد الدينية المتحدة بصورة وثيقة بالثقافات الوطنية أو العرقية ، والعقلانية العامة التي ينتسب اليها العلم .

وهذا ما يمكن أن يسمى لاقدسية أو علمنة العالم . إن الانسان ، الذي كان ينتظر حتى الآن من القدرات العليا والسرية تحقيق رغباته أو مخاوفه ، لا ينتظره إلا من نفسه ، ومن جهد إرادته التي يوجهها العقل . وهنا يوجد تحرير وترقية وسمو أكيد لاتستطيع الأفكار الدينية أن تشجبها بصورة فجة دون فحص . وعلى جميع الأديان أن تحسب حساب هذه الحركة العامة وربما غير القابلة للرجوع مهما كانت خيبات الأمل التي طبعت تاريخ البشرية في هذا القرن .

وهذا يعني انتزاعاً مؤلماً يشعر به بكثير أو قليل من القوة ، حسب الأشخاص . لأننا ننفصل عن التقاليد القديمة التي دامت عدة قرون ، والتي كانت قالباً تشكلت فيه ببطء أممنا وثقافاتنا . ولقد نفذت مختلف الديانات بعمق إلى هذه التقاليد ، حتى أصبحت بالنسبة للكثير من الأفكار غير منفصلة عنها . ومن هنا يخرج نزاع ظاهري أكثر مما هو واقعي يعارض في كل مكان بين الدين والعلم . وذلك لأن الماركسية تزعم بأنها علمية وتناضل بقوة خاصة العاطفة الدينية ، ولكن يوجد عودات للشعلات ، كما شوهد ذلك أخيراً في أندونيسيا ، حيث وقف الاسلام ضد الماركسية .

وكل ما نستطيع معرفته مما يجري في الاتحاد السوفياتي يدل على أن الايمان الارثوذكسي حي فيه دوماً ، لا في الجماهير الريفية أو الشعبية فحسب ، بل أيضاً في بعض الأوساط الفكرية ، وأحياناً من مستوى عال جداً . وهذا اخفاق أكيد للدعاية الرسمية ، ولكنه مفعم بالمعاني لأنه يدل على أن الدين يمكن أن يعيش تماماً ، مع أنه يكون محروماً من التسهيلات المادية التي أفاد منها في السابق . وذلك لأنه يستجيب لحاجة ليست شيئاً آخر غير الحاجة إلى المطلق .

وتحاول الماركسية من جهتها ، أن ترضي هذه الحاجة ، ولهذا ليس مستحيلا أن يرى فيها تعبير عن العاطفة الدينية . فمن المتعالي أصبح المطلق فيها حالاً ، وليس حالاً في الله ، بل في الانسان . ولا شك في أن الماركسية تبدو عاجزة عن دفع الموت ، ولكنها تعد ، بالمقابل ، بنبع الألم في هذا العالم . وهذا هو حجر العثرة لكل الأديان . وليست الماركسية مجردة من منطقة مقدسة ومن مقولات غير قابلة للنقاش على شاكلة عقيدة : اتجاه التاريخ ، دور الطبقة الكادحة العاملة ، ودور

الحزب ، الذي هو تعبيرها الروحي الموهوب لخير البشرية ، وأخيراً ، المكان ، التسلسل ، الذي يراد ديموقراطياً . ولكنه يتمتع بسلطة شبيهة بسلطة أي تسلسل آخر من أصل ديني .

وأصبح هذا « الدين » الجديد ، مع فروق في اللون ، دين قسم كبير من الطبقة العاملة في خارج الاتحاد السوفياتي وأيضا دين بعض النخبات الفكرية . وإذا نجا العالم الأنكلو - ساكسوني لحد كبير من التبشير الماركسي ، فليس ذلك لأن القيم الدينية القديمة قاومت فيه بشكل أفضل مما في غيره ، بل لأن التقاليد الموروثة والوطنية القوية تقاومه في انكلترا ، ولأن الولايات المتحدة أمة من الرواد استطاعت الفردية الطهرانية أن تنتشر فيها زمنا طويلا دون عقبة في عالم شبه بكر ، حيث أخفى النضال ضد الطبيعة و « الهمج » التفاوتات الاجتماعية ، التي تظهر في العالم القديم أكثر مما في غيره .

ومهما يكن ، فان الوجه الديني للعالم أصبح ، منذ ١٩٤٥ ، مختلفاً بشكل عميق عما كان عليه طوال القرن الفائت . أما الذين اعتقدوا بزوال سريع للأديان أمام أنوار العقل والعلم فقد ضلوا ضلالاً بعيداً لقد هزت الأديان في أسسها التقليدية ، ولكنها عاشت وقاومت جميع العواصف ، وبرهنت على أنها تستجيب لحاجة جوهرية ولاشيء غيرها قادر على أن يسد مسدها .

الحركة الدينية

من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٨

الكنيسة الكاثوليكية

في ربع قرن ، للمرة الثانية ، من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ ، وجد الكاثوليك الأوربيون وكاثوليك العالم أجمع منقسمين بين أمم متحاربة . ولكن بينما كانت الحرب العالمية الأولى بصورة أساسية حرباً قومية ، أبدت الحرب العالمية الثانية مظهراً عقائدياً ملحوظاً كثيراً . لقد كانت الديموقراطيات تناضل ضد الفاشية ، وبخاصة ، ضد العرقية الهتلرية المناوئة للمسيحية من أساسها . وكان من الطبيعي والشرعي أن تتخذ الكنيسة موقفاً . ولكنها لم تفعل ذلك ، ولم يكن هذا بسبب بعض الصفات الخاصة في شخص البابا بيوس الثاني عشر فحسب ، بل ،أيضاً ، وبخاصة ، لأن الاتحاد السوفياتي ، أي « البولشفية الملحدة » ، أصبح في العام ١٩٤١ ، الخصم الأساسي للهتلرية ، ويمكن أن يكون أحد كبار المستفيدين من النصر . إن الخوف من بلشفة أوربة قد سيطر على حبرية بيوس الثاني عشر بكاملها .

وقد حفر هذا الموقف ، أكثر من أي وقت مضى ، الحفرة التي فصلت المسيحيين المسمين « التقدميين » الذين يفكرون بأن على الكنيسة أن تنفصل عن التقاليد ، ولو كانت جليلة ، شريطة ألا تكون أساسية ، بغية التكيف مع العالم الآتي ، وبهذا تستجيب بشكل أفضل لانتظار الناس ، وتبدو أمينة لتعليم مؤسسها والمسيحيين الآخرين ، أي جمهور غير نشيط من المؤمنين المعتادين ولا سيما أقلية من الأحناف الذين أعلنوا

الحرب دفعة واحدة على العالم الحديث ويرون في الكنيسة الحامية الأساسية لحضارة في خطر الموت .

وهؤلاء يمثلون ، في الواقع ، بوعي أو عن غير وعي ، المسيحية ، وأولاً الكاثوليكية مع الحضارة التي حملتها بصورة أساسية منذ نحو ألفي عام ، وينكرون ، على هذا النحو ، عمومية الكنيسة ، دون أن يدركوا ذلك .

وليس من العدل أن يزعم بأن حبرية البابا بيوس الثاني عشر كان يسيطر عليها الأحناف من أولها لآخرها . ولم يعوز هذا البابا التقي الذكي أن يرى بوضوح بعض ضرورات عصره ، وأن تغييرات عظيمة في الكنيسة نفسها لا غنى عنها في أقصر مهلة . فقد حرر ، مثلاً ، المفسرين الكاثوليك من بعض القيود التي أصبحت لا تحتمل . وفسح المجال لقيام تجربة الكهان ـــ العمال قبل أن يتخذ بها قراراً ، وظل يقدس الأساقفة الملونين ، كما فعل سلفه ؛ وعمق المذهب السلمي للبابا بندكت الخامس عشر والبابا بيوس الحادي عشر ؛ وأراد أن تكون الكنيسة موجودة في العالم في كثير من الخطب التي وجهها إلى الرجال والنساء من كل ظرف . ولكن شاغله الأسمى كان في شد القطيع الكاثوليكي حول العرش الحبري . ومن هنا يبدو الحجل النسبي لحبرية متسلطة وشخصية جداً . وسيحاكمه التاريخ على ما فعل وبخاصة على ما لم يفعل .

وفي عهد خلفه البابا جان الثالث والعشرين ، تغيرت الحال فجأة ، وبشكل غير منتظر . وكان البابا مسناً ، وانتخب ليكون بابا انتقال ؛ وهذا الرجل الممحي الذي لم تتح الفرصة لشخصيته أن تظهر ، لم يكتف بقلب التعاملات بسذاجة : فقد أعلن ذات صباح وبهدوء بأنه قرر دعوة المجمع المسكوني . وفي الحقيقة كانت القضية تطرح على بساط البحث منذ أن

قطع أخذ روما ، في ٢٠ أيلول ١٨٧٠ ، مجمع الفاتيكان الأول .
ولا شيء يعارض معاودة افتتاح المجمع المنقطع أو الدعوة لمجمع جديد
منذ الفاقات لاتران ، في ١٩٢٩ . ولا شك في أنه اتخذت بعض
التحضيرات البعيدة ، في حبرية البابا بيوس الثاني ، ولكن وجدنا وهلة
واحدة أمام الأمر الواقع . لقد كان القصد ، كما يرى البابا جان الثالث
والعشرين ، « آجيورنا منتو »[1] أي تصحيح أوضاع الكنيسة .

لقد حدثت تغيرات كثيرة منذ ما يقارب القرن حتى بدا لا مندوحة
عن إصلاح البنيات الكنسية وإعادة النظر في مجموع العلاقات بين الكنيسة
والعالم في منظور جديد تماماً ، وللقيام بهذا العمل لا يمكن للمجمع أن
يكون تكراراً بسيطاً للمجمع السالف ، بل يجب مجمع آخر ، وهذا
المجمع هو مجمع الفاتيكان الثاني . وقد عقدت الجلسة الأولى في خريف
١٩٦٢ برئاسة البابا جان الثالث والعشرين الذي توفي في الربيع التالي ،
بعد حكم قصير جداً ، ولكن هذا الحكم سمح له بأن يعطي للكنيسة ،
اتجاهاً لا رجعة فيه مهما كانت التغيرات التي عرفناها منذ وفاته والتي
سنعرفها ولا شك أيضاً . وكان لدى جان الثالث والعشرين من الوقت
ما مكنه من نشر مرسومين جديدين هامين :الأول في «التعليم العالي»[1]
« ماتير ايت ماجيسترا » الذي يتم التعليم الاجتماعي ، ومرسوم « الشؤون
الحديثة » [2] « ديروم نوفاروم » الذي أصدره البابا ليون الثالث
عشر ، في ١٨٩١ ، ومرسوم « السنة الأربعين » [3] « كوادرا

---

(١) AGGIORNAMENTO .

(١) mater et Mogistra .

(٢) Rerum Novarum .

(٣) Quadra gesimo Anno .

جيسيمو آنو » الذي أصدره البابا بيوس الحادي عشر في ١٩٣١ ؛ ولكن بخاصة مرسوم « على الأرض السلام » في ١٩٦٣ الذي يعرض بعبارات لا تنسى مذهب الكنيسة السلمي . وفي الظاهر ، إذا اكتفينا بالمصادر ، نجد أن جان الثالث والعشرين لم يعمل سوى أن استأنف ووضح تعليم أسلافه . ولكن نسق هذا المرسوم كان جديداً تماماً لأن البابا لايتوجه فيه إلى « البطاركة ورؤساء الأساقفة والأساقفة المتفقين مع الكرسي الرسولي » فحسب ، بل إلى كافة المؤمنين و « إلى جميع الناس ذوي الارادة الطيبة » أيا كانوا . ولم يكن هذا القول عبثاً . وفي الواقع ، ان جميع الناس من ذوي الارادة الطيبة يمكنهم أن يسمعوا الرسالة الخيرية وقد سمعوها . وإن القلق الذي يشدنا أثناء النزاع الطويل الأليم الذي تحمله البابا العظيم والحزن الذي تركه موته كانا قلقاً وحزنا شاركت بهما الانسانية جمعاء ، دون تمييز مذهب ودين أو عقائدية . فبفضل جان الثالث والعشرين أصبحت الكنيسة في الواقع ، لا في الحق فقط ، كنيسة عامة .

وعبر عن كل هذا أخيراً في قرارات المجمع الذي انتهى بعد أربع دورات ، في ٨ كانون الأول ١٩٦٥ ، ولم يكن العمل المنجز إلا بداية . ويستحق ما تستحقه قرارات التطبيق التي ظهر عدد منها ولم تظهر كلها . ويتعلق بخاصة بالروح التي تحرك المؤتمرات الأسقفية المكلفة بتطبيق قرارات المجمع في كل بلد ولا نستطيع منذ الآن أن نلاحظ حالة في عز تطورها ولم يثبت فيها شيء نهائياً . وكان خلف البابا جان الثالث والعشرين معاوناً مخلصاً صفياً للبابا بيوس الثاني عشر ، الذي حرص عدة مرات ، أن يثأر لمذكرته ضد الأحكام التي يراها غير عادلة وشديدة جداً ، ولكن الكاردينال مونتيني كان أيضاً صديقاً لجان الثالث والعشرين ويبدو أن البابا الأخير اعتبر بأن لا أحد أهل ليخلفه ويكمل عمله الذي

قام بـه . وفي الحـد الذي كان فيه حكم جان الثالث والعشرين طباقـاً أي مناوئـاً مضاداً لحكم بيوس الثاني عشر ، وهذا غير صحيح بشدة ، كانت حبرية بولس السادس تمثل نوعاً من تركيب .

لقد لاحظ البابا بولس السادس تماماً الصفة التي لا رجعة فيها للتغيرات التي دخلت في الكنيسة ؛ ولكنه لم يكن أقل انتباهاً للاضطراب الذي تخاطر هـذه التغيرات باحداثـه في الوجدان الكاثوليكي . كان إيطاليـاً كأسلافه ، ويعلم أنه يجب أن تصلح حكومة الكرسي الرسولي بشكل عميق وأن تدول ، ولكن يبدو أنـه كان يخشى الاضطراب الذي يمكن أن تدخله التحويلات المفاجئة في إدارة الكنيسة . وكان يسير في كل شيء مع الحذر والحزم ، وأحيـاناً نفخر . فزياراته للأرض المقدسة ، والهند والأمم المتحدة ، وفاطمـة [1] ، وتركـيا ، الخ ، أظهرت إرادتـه بالاتصال شخصياً بالعالم الحالي ، وليس فقط بالعالم الكاثوليكي ، أو العالم المسيحي . ومرسومـه « تقدم الشعوب » [2] هو بصورة مطلقة في خط مرسوم « على الأرض السلام » . واتصالاته ببطريرك القسطنطينية ، آثينا ـ غوراس ، هيأت اوأنجزت التقارب بين الكاثوليكية والأرثوذكسية ، بعد عشرة قرون من القطيعة (الحيدة) . وأبقى أيضاً على اتصالاته بمجلس الكنيسة المسكوني ، ولم يكن استقبال رئيس أساقفة كانتوربري حادثاً أقل من غيره شأناً في فترة حكمه ، كما اهتم أيضاً بجعل علاقات الكنيسة طبيعية مع الحكومات الماركسية في أوربة الشرقية .

ومنـذ الآن أصبحت الأسقفية مشاركة بصورة وثيقـة أكثر من أي

---

(١) فاطمة FATIMA مدينة بالبرتغال ويحج اليها لزيارة العذراء .

(٢) Populorun Progressio .

وقت مضى بحكم الكنيسة . ومن الممكن أن تكون ذات يوم مشاركة في انتخاب الحبر الأعظم . وعلى أي حال ، ستضم حكومة الكرسي الأقدس منذ الآن عدداً من الأساقفة يمارسون وظيفة رعوية . حقاً ، لقد ظلت مشاكل مختلفة معلقة ، ومن بينها ، قضية العزب الكنسي وتحديد النسل . وقد استأنف البابا حديثاً بحق الأولى ، الموقف التقليدي للكنيسة ، ولكن من الملاحظ أن هذا القرار الحبري أثار في في البلاد المنخفضة احتجاجات اعتاد العالم الكاثوليكي عليها قليلاً ، وفي الحقيقة ، أظهرت الكاثوليكية الهولاندية منذ بضع سنوات في الصعيد المذهبي استقلالاً فريداً في الرأي ، حتى ان مجمعاً للأساقفة الأوروبيين عقد في البلاد المنخفضة ، في تموز ١٩٦٧ ، لدراسة القضية مع الأسقفية الهولاندية. وقد استأنف المرسوم الحبري « حياة البشرية » الصادر في ١٩٦٨ أيضاً رقابة الولادات أكثر من المذهب السالف للكنيسة ، وأثار أيضاً ردود فعل مختلفة في عالم مسيحي مازال مطواعاً حتى ذلك الحين .

وبقيت قضية من القضايا الكبرى ، وهي قضية الفقر ، إذ يجب القضاء عليها دفعة واحدة في « الانتصار » الذي انساقت الكنيسة فيه بالظروف التاريخية منذ الاصلاح الكاثوليكي أو الاصلاح المعاكس في القرن السادس عشر . وكنيسة المسيح ليس من واجبها أن تكون كنيسة الفقراء فحسب ، بل يجب أن تكون أيضاً كنيسة فقيرة ، وهذا لا يطبق على الأموال المادية فحسب ، بل أيضاً على الفقراء ، وقبل كل شيء . ويجب أن تكون الاخيارات في هذا المعنى غير قابلة للالغاء. والكنيسة المجردة وحدها من كل صفاء تقليدي مع السلطات الزمنية ، كنيسة متواضعة ، أما التي لاتشهر الحقيقة كسلاح فلها حظ في بلوغ العالم المعاصر . ولقد حكم المجمع أكثر من مرة في هذا المعنى ، وتكيف

(١) Humaniae Vitae

معظم الأساقفة مع هذه التوجيهات ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالعلائم الخارجية لمنصبهم . وقد ضرب البابا نفسه المثل لغيره . وبقي مع ذلك شيء كثير يجب عمله لأنه يجب تغيير حالة فكرية ، وذلك في ظروف مختلفة كظروف كنيسة أسبانيا وكنيسة بولونيا مثلاً .

ومن الصعب اليوم تقدير ما ستكون النتائج المباشرة والبعيدة لهذا التغيير في الكنيسة الكاثوليكية . ونحن الآن في منتصف المخاضة ومازلنا بعيدين جداً عند بلوغ الضفة الأخرى . وبينما تقوم الكنيسة بهذا التغيير الخطر في الاتجاه ، ولا تضحي في الحقيقة بشيء أساسي ، يستمر العالم من حولها في التغيير . والكنيسة لا تستطيع ويجب الا تأخذ بعين الاعتبار يوماً فيوماً ، جميع هذه التغييرات ، بل عليها أن تعطي نفسها بنية مرنة بشكل كاف لتقبلها ، وادخالها عندما تبدو دائمة . وفي الحقيقة ، ليست القضية بصورة وحيدة وأساسية قضية بنية . إنها روح جديد يجب أن ينعش منذ الآن فصاعداً هذه الهيئة الكبرى بكاملها موحدة ومتفرقة ، بل الروح الذي تؤكد الكنيسة بأنها الامينة عليه وان العالم الحالي بحاجة عاجلة اليه . وان موت بابا ، مثل جان الثالث والعشرين كان حزناً عاماً حقاً . وان أياماً جميلة ستظهر الكنيسة إذا أصبحت عموميتها في الحق عمومية في الواقع . وما عليها أن تجذب جميع الناس لطاعتها ، بل أن تعرف كيف تخاطبهم بلغة يقدرون على فهمها .

الكنائس الاخرى

من الصعب رسم لوحة كاملة عن مجموع الكنائس غير الكاثوليكية في العالم . وعليها أن تحل بصورة جوهرية القضايا نفسها كالكنيسة الرومانية ، وهذا ما دفعها إلى التقارب من بعضها ، بالرغم من اختلافها الأقصى في

في مجلس الكنائس المسكوني . وقد انضمت إلى الكنائس المنبثقة عن الاصلاح البروتستانتي كنائس الشرق ، وبخاصة ، الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، حتى ان المجلس المسكوني يمثل اليوم ، أمام الكنيسة الكاثوليكية ، مايقارب كامل الكنائس الأخرى وقد ظل المجلس زمناً طويلاً مجهولاً من قبل السلطات الرومانية ، أما اليوم فقد اعترف به ، لأن مراقبين كاثوليك رسميين أسهموا في دوراته ، وحضر كذلك مراقبون بروتستانت وأرثوذكس مجمع الفاتيكان الثاني . وهنا يوجد تقارب واقع سيذهب كثيراً إلى أبعد من إجراء مجاملة بسيط . إن حواراً انقطع منذ قرون يستأنف الآن عمله على أسس جديدة .

ويجب مع ذلك ألا ننتظر ، كما أسلفنا ، نتائج مباشرة وربما يكون من المرجو ألا يعجل بهذه الحركة . فاذا تم الاتحاد يوماً ما فسيتم في احترام التنوع ومع بقاء البروتستانت والأرثوذكس على حالهم يكون لديهم شيء يأخذونه من الكاثوليكية،وبالمقابل وهذا ما برهنت عليه الطائفة البروتستانتية الفرنسية عندما ناقشها تايزيه [١] وفي المجادلات القديمة ، كانت النقاط توضع من قبل مختلف المذاهب على هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الرسالة المسيحية ، وهذا ما عين اتجاهاً روحياً كاملاً لاسبيل لنكرانه ، ولكنه يستطيع ، بالعكس ، أن يغني كل من اتجهوا وجهة مخالفة ، وبعضهم يوحناويون وآخرون بولسيون والمسيحية الكاملة يمكن أن تضم هذه الاتجاهات المختلفة . ونحو هذه المسيحية الكاملة تتقدم اليوم مختلف المذاهب المسيحية ، كل منها على شاكلته الخاصة

وقد تم عمل روحي عظيم في النصف قرن الأخير ، وانتعشت البروتستانتية بأعمال كارل بارط [٢] ، والارثوذكسية بأعمال سولوفيف [٣]

(١) TAIZE
(٢) KARL BARTH
(٣) SOLOVIEV .

وآخرون كثيرون ، والكاثوليكية بأعمال تيلارد دوشاردن . وليس ضروريا أن يلتقي كل هذا مع بعضه بعضاً . ولكن حالة جديدة ومتجددة دون انقطاع قد وجدت وأفاد منها المسيحيون جميعاً . لقد تعددت المبادلات واللقاءات والحلقات ، اما على الصعيد اللاهوتي ، وإما على الصعيد التفسيري ،أو على الصعيد الرعوي بل والطقسي (الليتورجي) وإن تنوع الكنائس ثروة شريطة ألا ينقلب هذا التنوع إلى معارضة ومنافسة . ويبدو ، بالرغم من بعض الأعراض المؤسفة ، ولكن المنعزلة ، ان الروح الضيقة والمغلقة ومنازعات الكهان في تراجع .

واليوم للمسيحين مصلحة ، وهم يفهمونها في مجموعها ، وذلك في الا يقيموا على ما قسمهم في الماضي القريب نسبياً ، بل أن ينظروا جميعاً نحو المستقبل ، وبهذا الاعتبار فان سحب اللعنات المتبادلة ، في ١٠٥٤ ، بين روما والقسطنطينية ، وكذلك الصلاة المشتركة في كنيسة القديس — بولس — خارج الأسوار في ختام مجمع الفاتيكان الثاني ، واقعان مليئان بالمعاني : ولكن العمل لا يمكن أن يقتصر على أن يكون عمل أركان عامة ، بل يجب أن ينحدر حتى مستوى الجماهير ، ولا يمكن أن يقتصر على الجماهير المؤمنة كثيراً أو قليلا ، بل أن يمتد إلى الجماهير التي تعيش في اللامبالاة الدينية . إن الكنائس تجابه اليوم قضية اللا مبالاة الدينية ولا سيا قضية الالحاد المناضل . وما يمكن أن يقال ، في الختام ، هو أن المسيحية في جميع الحالات التي لبستها خلال قرون وجدت نفسها بصورة متناقضة مسوقة ، بظروف العالم الجديدة ، إلى الحالة التي كانت عليها في القرون الأولى . وعليها أن تعاود اتصالها بمصادرها ، فهي تجد نفسها غريقة في عالم يجهلها رويداً رويداً ، ولكن حاجاته الروحية لا ترضى بعقائديات معوضة . وان مسؤولية المسيحيين اليوم هي ألا يغيبوا عن العالم .

الاسلام

يضم الاسلام اليوم ما يقارب ٥٠٠ مليون مؤمن ، وهو من الوجهة العددية هام كالمسيحية . والقسم الشيعي فيه باق ولكنه لا ينمو . والاسلام السني ، بالعكس ، ينفذ رويداً رويداً إلى افريقيه السوداء ويمتد حتى زنوج الولايات المتحدة ، ولكن يوجد نزاع بصورة أساسية في تركيا وإيران والبلاد العربية بين أنصار التقليد وأنصار التحديث ، وربما تكون الباكستان قد أعطت للاسلام في شخص الشاعر محمد إقبال (١٨٧٣ – ١٩٣٨) العبقرية القادرة على تجديد الدين الاسلامي مع الرجوع به إلى مصادره الأولى ، وقد رأى فيه بعضهم أنه كان للاسلام كما كان تيلارد دوشاردن بالنسبة للكاثوليكية . وهو القائل : يجب على الانسان « أن يكون خليفة الله على الأرض » . وبدأت بعض اتصالات في القاهرة ومراكش وتوملينين [١] . بحوار بين المسيحيين والمسلمين ، ومن الممكن أن يؤتي عمل المستشرق لوي ماسينيون ثماره ذات يوم ، لأن الاسلام بعد كل شيء ، ليس في معزل عن القضايا التي تشغل المسيحية واليهودية في عصرنا الحاضر ، وهو أيضاً لا يستطيع أن يقاوم إلا بالعودة إلى شدة ونقاوة إلهامه الأول ، وإهمال البدع والأباطيل المخربة التي علقت به عبر تاريخ طويل ، وإذا أريد البقاء على التوازن الصحيح ، يجب أن يتجاوب الاصلاح على الصعيد الديني مع الثورة على الصعيد السياسي .

اليهودية اليوم

من الصعب تقدير عدد اليهود على وجهة الصحة . يضاف إلى ذلك

(١) Toumlinine .

ان اليهودية ليست كسائر الأديان ، فليس لها عقائد ، ولكنها تتضمن قواعد وطقوس واضحة جـــداً . وتبعاً لهذه القواعد يمكن تمييز اليهود الاحرار والمحافظين والأحناف . ومن المفيد أن نلاحظ نهضة فكر يهودي أصلي يأخذ مصدره من ظرف ديني . وبهذا الاعتبار يمكن الرجوع إلى ادمون فليـغ[1]،في فرنسا ، الذي عمل على اكتشاف التقاليد اليهودية عن اليهود وعن الأجـــانب . ومن جهة أخرى ، دل رجال مثل لوفيناس وليون آشكينامي ويدلون كل يوم كيف تجابـه اليهودية قضايا العصر الأساسية .

ومثل ذلك مارتن بوبر الذي أظهر روحانية اليهودية الحالية في أوربة الوسطى ، كما أظهرت أعمال الأستاذ شالم في القدس الصوفية اليهودية .

والملاحظ أيضاً هو تحول العلاقات اليهودية — المسيحية ، والدعايات الواسعة التي يقوم بها الصهاينة لاستعطاف العالم . وبعـد الحرب العالمية الثانية نشر جول اسحاق كتاباً بعنوان « يسوع واسرائيل » وعلى اثره قامت حركة صداقة يهودية — مسيحية أدت إلى تعريف نقاط سيليزبرغ[1] العشرة ، ويراد بذلك التغيرات التي يجب أن تطـرأ على التعليم المسيحي لئلا يكون مصدراً لمقاومة السامية ، وبمساعيه لدى الفاتيكان وبخاصة لدى البابا بيوس الثاني عشر ولا سيا جان الثالث والعشرين حصل على أن تتغير طقوس يوم الجمعة الأقدس (الجمعة الحزينة) في هذا الاتجاه . وأخيراً ، صوت المجمع على تصريح يتعلـق باليهـود وينفي عنهم نهائيـاً صلبهـم للسيـد المسيح . هذا فضلاً عن أن خلق دولة اسرائيل يضع قضايا كثيرة لليهود والمسيحية والاسلام .

---

(١) Edmond Fleg .

(١) SEELISBERG .

الاديان الاخرى

من الصعب متابعــة منحنى تطور الأديان الأخرى بين ١٩٤٥ و ١٩٦٨ . والحادث الذي يلفت النظر ، وربما يكون لأجل طويل أهم حادث، هـو ظهور أديان جديدة في نقاط مختلفة في العالم، وخاصـة في افريقية السوداء ، في الفيت - نام وفي أمريكا المدارية . وهـذا التعـداد على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

وهذه الأديان بصورة عامة مزيج من عـــدة مذاهب مختلفة تخلط عياراً من المسيحية مـع عناصر أخرى اسلامية ووثنية وروحية وبرهمانية أو كونفوشيوسية . والوحي الحديث هو عموماً في أصل هذه الحركات الدينية التي لا تعيش طويلاً ، ولكنها تستطيـع أن تكون نقطة انطلاق لتحويل ديني في أقسام هامة من البشرية وأكثر الناس اليوم آخذون بالبحث عن عاطفة كرامة ثقافتهم الخاصة .

وقد أبدت هذه الثقافات دومـاً صفة دينية . ولا يمكن انقاذهـا وبخاصة تحريكها الا باعطائها أساساً دينياً لا يتعارض مـع متطلبـات أوامر الحيـاة الحديثة . ومن هنـا يخرج هذا المزيج من المـذاهب الذي تظهر فيه العناصر المقتبسة عن المسيحية وتمثل الحداثة . ويجب أن يلاحظ أيضاً أن هذه الأديان الجديدة تنتشر عمومـاً بين الطبقات الفقيرة في المجتمع ، وتعبر كثيراً أو قليـلاً بصورة سقيمة عن تطلعات الطبقة الـكادحـــة في العالم الثالث ، كما عبرت المسيحية في الماضي عن تطلعات الطبقات الـكادحة في الامبراطورية الرومانية ، ولكن يوجـد اليوم شيء جديد تماماً لم يعرفـه القديم الأدنى : وهو الانتقال المفاجيء لحالة من العصر الوسيط أو حتى أقدم من ذلك إلى مجتمع حديث يتطلع إلى التصنيع وطابـع هذا الانتقال هو الهجرة العظيمة من الأرياف نحـو المدن ، التي تميز العالم الثالث أكثر من المجتمعات الصناعية .

الماركسية ودين العلم

لقد أظهرنا سالفاً وجود جانب ديني في الماركسية ، ولكن الماركسية نفسها ليست إلا شكلاً مميزاً بخاصة للدين الجديد الذي ينزع لأن يكون دين القسم الأعظم من البشرية ويمكن أن يسمى دين العلم أو دين التقنية . وهو في الحقيقة دين الانسان . إن جميع الأديان التقليدية عندها شيء مشترك ، وهو أنها تخضع الانسان إلى قوة أعلى منه تظهر بالوحي . ومن هنا تظهر مواقف الاستسلام والاذعان والعبادة التي فرضتها. وكلها ، أوكلها تقريباً ، تعبر عن وجود الشر في العالم نتيجة للسقوط وتتطلع إلى أن تجد أخيراً الحالة السالفة لهذا السقوط .

فهي تتجه إذن نحو ماض تريد إعادة بنائه . ومن البديهي أن هذا ليس إلا تقريباً أو تخميناً فجاً جداً ، ولانزعم مطلقاً وصف الروحانية الأصلية الحقيقية في المسيحية والأديان الكبرى الأخرى ، في شكلها النقي والأسمى . ولكن الحادث الديني في الحد الذي يكون فيه حادثاً جماهيرياً يبدي صفاة عامة .

ومنذ أن قلب العلم وبخاصة قلبت تطبيقات العلم التقنية العالم ، ومنذ أن فتح الانسان الجو والفضاء ، ومنذ أن أصبحت العجائب العقلانية يومية ، وبخاصة منذ أن رأى كل يوم اختراعاً جديداً وتراجعت إلى مالانهاية امكانيات الانسان ، أخذ بطل جديد مكان الأبطال القدامى : بطولة أسطورة التقدم اللا متناهي . وهو تقدم لا يقودنا إلى الجنة الأصلية، إلى الانسجام البدائي ، ولكنه يتقدم، بالعكس ، نحو ما وراء الانسان، نحو ما هو أعظم وما هو أفضل . وأن أكثر تجارب العصر مأساة ، والله يعلم أنه لم يفتنا شيء منها ، لم تعمل شيئاً . وفي كل مرة نجدنا

أمام ظاهرة فظيعة بخاصة البربرية البشرية ، ونجد أحداً يقول في وسط التحبيذ العام : «من المحزن حقاً في عصرنا أن من الممكن أن ترى هذا !» ومن المستحيل أن نعبر بشكل أفضل عن الاقتناع بأن البشرية في حالة تقدم ، وأن القباحات التي يؤسف لها إنما هي بقايا محزنة لحالة سابقة ، وقد تخطاها الزمن لحسن الحظ . وإذا لم يكن حكم العقل اليوم فسيكون غداً أو بعد غد .

ونعتقد بأنه من غير المبالغ أن نتكلم عن دين جديد يعارض بصورة مطلقة جميع الديانات السابقة ، وقد أضعفها جميعاً كثيراً أو قليلاً. أما أن يتفق هذا الايمان الجديد بالتقدم مع ألف باطل ، فقد قلنا ذلك ، ولكن هذا لا ينقص في شيء أهمية هذا الحادث الجديد والعام ومن البديهي ، أن الايمان بالتقدم يأخذ أشكالاً مختلفة ، وأنه ليس نفسه ، مثلاً ، في الولايات المتحدة ، حيث يكون الانسان مفعماً بالثقة بالمبادهة الفردية ، قبول طوبائيات الاقتصادي الفرنسي باستيا ، في حرية العمل والمبادلة الحرة ؛ وفي الدول الماركسية ، حيث ينتظر كل شيء ، بالعكس ، من التخطيط العقلاني للاقتصاد .

ولكن هذه الفروق ، بالرغم من المنازعات التي تثيرها ، إنما هي إجمالاً فروق صغيرة في إيمان مشترك . إن الأمريكيين لا يثقون أقل من الماركسيين بالتقدم . ولكنهم يثقون به بشكل مغاير. وهذا يشبه المعارضة اللاهوتية بين الكاثوليك والبروتستانت ، التي أثارت الكثير من الحروب الدموية ، ولكنها نشأت مع ذلك من إيمان واحد بيسوع المسيح .

والديانات تتراجع في الحد الذي تظهر فيه غير قادرة على تجديد نفسها بإيجاد انبثاقها الروحي الأصلي من جديد ، لأن التعارض بين الدين والعلم

تعارض باطل . ان ميدانيها متميزان بصورة مطلقة ، وان تقدم أحدهما يمكن أن يحول العالم ولا يمس في شيء الميدان الخاص بالدين ، بيد أن الذي يحصل هو أن جميع الديانات نمت في ظرف تاريخي جعلها متضامنة ليس فقط مع بعض الشروط الاجتماعية ، بل وأيضاً مع صورة للعالم . وصورة هذا العالم تتغير . ولكن الدين لا يكون شيئاً إذ لم يكن بطبيعته نفسها متسامياً في التاريخ ، وهذا صحيح بالنسبة للمسيحية بخاصة والديانات السماوية عموماً ، ويجب أن يكون فى جميع الديانات التي يكون لها سبب في البقاء .

وإن جميع النقاش بين الأديان واللادين المعاصر يؤدي في الواقع إلى هذا الشيء : فبالنسبة للافكار التي ترفض الديانات الحالية ، تمثل هذه الأديان أشكالاً عفى عليها الزمن لأنها مرتبطة ببنيات اجتماعية أو عقلية لاغية . والقضية هنا هي معرفة ما إذا كان الواقع حقاً كذلك . وليست ، كما يمكن أن يعتقد ، قضية نظرية بصورة محضة ، وأن حلها يمكن أن يبحث عنه في نقاش أكاديمي . إنها قضية عملية تحل بالتاريخ الذي سنحياه ، وبالتاريخ الذي نحضره .

وفي الحد التى تكون فيه الماركسية بكليتها نظرية وعملية تكون ملتزمة بعنف أكثر من أي عقائدية أخرى في النزاع المناوىء للدين . وترى الماركسية ان زوال الأديان القديمة سيكون نصراً حاسماً للانسان على اغترابه الأساسي . وإذا ما تخلص الانسان من الدين ، وأصبح وحده على حد تطور غير محدود ، استطاع أخيراً أن يعطى كل قوتة ، غير متخذ قائداً آخر غير عقله . وهناك حادثان غيرا نوعاً ما الرؤيه الماركسية ، وإن لم يعترف الماركسيون بذلك بعد بوضوح : من جهة ، ان المقاومة التي يلقونها ، حيث يكونون على السلطة ، بأشكال دينية تبدو لهم مع ذلك

متصلبة ؛ ومن جهة أخرى ، التحويلات التي رأوها تحدث منذ نصف قرن في بعض الاديان القديمة ، ولا سيا المسيحية . ويبدو أن بعض المسيحيين عندهم من الارادة والامكان للتعاون دون فكرة خلفية في تحويل العالم .

وبالتالي يجب ، على الأقل لوقت ما ، قبول نوع من تعايش ، ولسنا هنا ، على ما نعتقد ، إلا في بداية تطور سيتلاحق دونما شك خلال عقود ، وسيعرف أزمات لا يمكن التنبؤ بنهايتها الأخيرة . ولكن سيكون لها على وجه التأكيد أثر في تحويل الحالة الدينية في حاضر البشرية .

ولكن إذا راهن الماركسيون على التقدم . فان الكثيرين المتكاثرين بين المؤمنين يرفضون مثل هذا الرهان . وفي معنى من المعاني ييأسون من مستقبل الانسان والعالم . ويرفضون كل تسليف بعيد المدى ولا يعتبرون أن الدواء الشافي يكون في حذف التفاوتات الاجتماعية ونهاية نزاع الطبقات . وهذا التشاؤم منتشر كثيراً في الحلقات الفكرية في الغرب . ويطابق في الجماهير نوعاً من الاستسلام العملي للحياة كما هي ، وهو استسلام قديم قدم الانسانية نفسها ولا شك . وهؤلاء المفكرون بالمعنى الدقيق ، ليسوا خصوماً للأديان القائمة . حتى انهم ، لأسباب مختلفة ، لا يتخلون كلياً عن العادات الدينية . وهم في الأعماق ، أقرب إلى الاحناف منهم إلى التقدميين . وعندهم حنين إلى ماض آفل ، كانت فيه التمزقات مقنعة بقوة التقاليد . وعندئذ يكونون ، بالنسبة للأديان ، حلفاء يخشون . لأنهم يعارضون تطورها وإصلاحها الضروري ، ويرتبط هذا بذاك بشكل وثيق . وهم يهملون خبرة العلم ، ولكنهم يشيرون إلى عدم اليقين والنواقص . والمؤلفات الكبرى التي وضعت في الزمن الأخير ، مثل مؤلف تيلارد ، تبدو لهم سابقة لأوانها . ولا يلاحظون بأنها ستكون دوماً كذلك ،

لأن العلم لا ينتهي ، ولكنها مع ذلك ضرورية في كل عصر ، لأن من الحاجات الأساسية للانسان أن يفكر بالمجموع ولا يمكن أن يكتفي بعالم يظل الى الأبد غير مفهوم .

ملاحظات ومنظورات

إن المنظر الذي نراه أمام أعيننا منظر تطور سريع جـــداً للبشرية. ونحن في العصر الذي سماه تيلارد عصر « التكوكب » . ماذا يعني ذلك ؟ أولاً ، لقد أصبح كوكبنا الآن معروفاً بكامله ويحتله الانسان ، وأكثر من ذلك دقـة أنه مغطى بقماش بشري آخذ بالتكاثف ، وهو من الكثافة بصورة كافية ، حتى ان أي حركة تحدث في نقطة ما من هذا القماش تنعكس حالاً على المجموع وهذا التضامن البشري ، الطبيعي نوعاً ما ، سيصبح بالتدريج ملاحظاً كلما ساعدت الرحلات الكونية الانسان على أن يشاهد بعينيه الكواكب ككل ، وككل صغير تماماً .

وكل هذا حدث في دور قصير بشكل لا يصدق . إن الخطوط الحديدية ، الملاحة البخارية ، البرق ، المحرك ذي الانفجار ، الطيران ، الراديو — تلفزيون ، الصواريخ الكونية ، تسجل بين بداية القرن التاسع عشر والنصف الثاني من هذا القرن . ونحن الآن أمام عالم أصغر بكثير من عالم الناس في القديم ، ومع ذلك فان الفلكيين بمناظيرهم القوية الحاضرة مافتؤوا يتعمقون في الفضاء حتى أبعـاد مدوخة ، ولا يتعمقون بالزمان أقـل من ذلك وفي السابق كانت الأرض واسعة والفضاء ضيق والزمن محدود . وفي الحاضر أصبح الأمر على عكس ذلك . إن جميع الأديان نشأت وعظمت في عالم آخر ونمت كثيراً أو قليلاً في وعاء مغلق.

ومنذ عهد قريب كان من الممكن رسم خارطة للأديان تظهر فيها بوضوح المناطق المسيحية والاسلامية والهندية والبوذية ، الخ . ومثل هذه الخارطة لم تفقد بعد كل حقيقة .

ومع ذلك يجب أن تتغير الخارطة في بعض نقاط أساسية . فيجب أن تخفف فيها الألوان كثيراً أو قليلاً ، لإظهار اللامبالاة الدينية التي يلاحظ تقدمها في كل مكان تقريباً ، ولكن يجب أيضاً أن تزيد قليلاً في خاط مختلف الألوان للدلالة على أن بين مختلف الديانات تماساً أكثر بكثير مما كان لهـــا في العالم قديماً . وليست منفصلة بحدود صفيقة كتيمة. وللاتجاهات الدينيـة اليوم عمومية كل مـــا يقطـع القماش البشري من طرف لآخر

وان أي خارطة ، مهما تصورناها كاملة دقيقة ، لا يمكن أن تلاحظ الوقائع التي مافتىء الزمن يبدل فيها ويغير . ولنأخذ ، مثلاً على ذلك ، الديانة الكاثوليكية ، ذات البنية القوية والمركزية . فكم من اختلاف يذهب حتى المعارضة بين كاثوليكي اسباني وكاثوليكي فرنسي ! في اسبانيا، مازالت الكاثوليكية بعد دين الدولة . إنها تمتزج بالاسبانية ، والبروتستانت فيها يشكون من تمييزات شاقة . والعلاقات بين الكنيسة والدولة فيها من نوع قديم أخنى عليه الدهر ، ولذا فمن الطبيعي في هـذا الظرف السياسي — الاجتماعي أن تتغلب القوى التقليدية على قدرات التجديد . ومع ذلك فان الاكليركي الاسباني الشاب اليوم من أكثر الاكليركيين حركية في العالم . أما في فرنسا ، فيمكن القول بأن القضية ، بالعكس موضوعة بشكل مغاير . ولكن كل كاثوليكية قومية لها فرق ألوانها الخاصة . إذ لا يمكن ، مثلاً ، مقارنة الكاثوليكية البلجيكية ، ذات التقليد الأكثري

القوي ، بالكاثوليكية الهولاندية ، التي كانت دوماً ، وحتى الوقت الحاضر ، أقلية وتبدو اليوم جريئة حتى التهور وعدم الفطنة والحذر ؛ ولا مقارنة هذه بالكاثوليكية الانكليزية ، الأقلية ، أيضاً ، ولكنها مغايرة لها تماماً . وكم من الفروق أيضاً ، في الصعيد اللغوي الواحد ، بين الكاثوليكية الألمانية والكاثوليكية النمساوية والكاثوليكية السويسرية ! ونجد نفس المنظر في جهة الديموقراطيات الشعبية ، وأحياناً في داخل الجمهورية الواحدة: فبين الكاثوليكية البولونية والكاثوليكية الهونغارية تقع الكاثوليكية السلوفاكية التي كانت متأثرة بهونغاريا بقوة ، ولكنها تبدي بعض التشابه مع الكاثوليكة البولونية . أما الكنيسة التشيكية فهي تختلف عن الكنائس التي أتينا على ذكرها . وكذلك إذا قارنا حالة الكنيسة في مختلف بلاد أمريكا اللاتينية ، رأينا اختلافات عظيمة بين المكسيك والأرجنتين مثلاً . وكذلك القضايا التبشيرية توضع بشكل آخر تماماً في افريقيــة السوداء وفي آسيا الموسمية . . .

وإذا انتهى كل هذا بتشكيل انسجام معقد ، فهذا هو البديهي الذي سطع في الجمع المسكوني. ومن الممكن القول كذلك في المذاهب المسيحية الأخرى والعلاقات فيما بينها . ففي بلاد إيرلاندة وفي كندا ، التي تغطي فيها الكاثوليكية والبروتستانتية على وجه الصحة تقريباً معارضات قومية ، لا يمكن أن تكون العلاقات من طبيعة العلاقات التي توجد في فرنسا ، مثلاً ، لأن كلا منها تأصل في الأرض القومية . وفي ألمانيا الأمس ، كان يميز بسهولة ، كما في سويسرا ، البلاد الكاثوليكية والبلاد البروتستانتية . ومنذ آخر الحرب العالمية الثانية ، غير مد شعوب الشرق كل هذا ، وعلى الأقل في المانيا الاتحادية ، والحالة الدينية في هذا

الجزء من ألمانيا تشبه أكثر مما في الماضي ، مع نسب مختلفة ، حالة فرنسا. وفي ايطاليا ، يعطي وجود الكرسي الأقدس الكاثوليكية سيماء فريدة، وقد أصبح هذا بديهياً بخاصة منذ توقيع اتفاقات لاتران ولاسيما منذ سقوط الفاشية .

وبصور عامة ، إن الأشكال التقليدية للأديان الكبرى حافظت على نفسها بشكل أفضل في كل مكان كان فيه الدين عنصراً انشائياً لثقافة قومية في نزاع مع ثقافة أخرى . وقد شوهد ذلك ، في الهند ، مثلاً ، لأن المنازعات منذ الاستقلال بين الهندوسيين والمسلمين فسحت في الغالب مجالاً لمذابح فظيعة ، ولاقى غاندي فيها حتفه والبوم أيضاً ، في فيت — نام الجنوبية لا أحد يجهل النزاع العنيف بين البوذيين والكاثوليك . وفي السودان خلاف بين المسلمين والمتنصرين من أبناء الجنوب ، وفي الأرض المحتلة يبدو التمييز على أشده على ما له من صفات سياسية وعنصرية واستعمارية .

وهكذا فان التوحيد المادي للعالم لم يخفف الاختلاف الديني ، حتى انه في بعض الحالات ، بالعكس ، زاد في حدته . ومن العسير ، بل ومن المستحيل ، ألا تحدث تداخلات بين الدين والثقافة . فما من ثقافة حتى الثقافة الماركسية ، وبعض الماركسيين يعترف بذلك ، إلا ونفذت فيها القيم الدينية ، بعض القيم وليس غيرها . أما وأن تكون الثقافة الغربية مصطبغة بالقيم المسيحية ، فهذا بديهي لا يحتاج لبرهان . أما الثقافة الصينية والثقافة اليابانية فهي قيم بوذية ، وفي الهند تختلط الهندوسية بالجمهورية الهندية التي تسمي بشكل لا مبال مواطنيها هنوداً ، وهذا خطأ. ولكنه صفة مميزة ، ولا يوجد دين عنده فكرة قوية عن العمومية في

التنوع كالهندوسية . وحالة الاسلام مماثلة لحالة المسيحية . فهو لحد ما مرتبط بالثقافة العربية ، والعروبة والاسلام ممتزجان ويتأثر كل منهما بالآخر .

وتوحيد الأديان والثقافات شر يصعب اجتنابه ،ولكن يجب التغلب عليه ، لأن الثقافات خاصة ، مهما كانت مزاعمها ، والأديان كونية وعالمية بطبيعتها وبخاصة عند الكاثوليك وعند البروتستانت ، وحالة الارثوذكس تختلف قليلًا ، وذلك لأنهم دفعوا جيداً إلى أبعد من المسيحيين الآخرين توحيد الكنائس مع مختلف الأمم ، ووضعوا القضايا التبشيرية بعبارات أخرى تختلف عن المسيحيين الآخرين . والأمور في البلاد الاسلامية أقل تقدماً ، لأن الاسلام ما زال يعتبر نفسه أمة سياسية دينية . والهنود حتى الآن هم الوحيدون الذين يعترفون بان اختلاف الطرق الدينية مشروع تماماً ، وهذا لا يمنعهم ، بالعكس ، من أن يوجهوا نحو الغرب جهداً تبشيرياً عرف بعض النجاح .

إن حالة العالم ، كما وصفناها اجمالاً ، تضطر شيئاً فشيئاً مختلف الأديان أن توضح كل ما عندها من عام . والتقارب واضح في المستوى الروحي بخاصة . وإن تقدم الدراسات الدينية يكشف كذلك عن الصلات والقرابة كالاختلافات . وقد صوت مجمع الفاتيكان الثاني على تصريح بشأن الأديان غير المسيحية يفتح على وجه التأكيد منظورات ما كان ليظن بأنها ممكنة منذ قرن فقط . وهناك محاولة يؤمل بألا يستسلم المسؤولون الدينيون لها : وهي نوع من حلف — مقدس بين الأديان ضد اللادين الذي يهددها جميعاً بشكل متساو تقريباً ، ولكن هذا الحلف سيكون له عيب جميع التآلبات التي هي من هذا النوع : لانه ينزع إلى أن يثبت بعبارات

جدلية مجابهة لا يمكن أن تكون خصبة ومثمرة إلا إذا فرضت ، بالعكس ، المحبة والتفاهم .

والمرجو والمحتمل لحسن الحظ أن تتعلم الأديان المختلفة احترام بعضها وأن تتعارف كثيراً ، وإذا وضعت لها جميعاً مجابهتها للعالم الحديث قضايا متشابهة ، فيجب على كل منهـــا أن تتهيأ لحسابها الخاص وأن تستلهم من تقاليدها الروحية الخاصة ، وعلى كل منها أن تخترع جوابها . ومن المؤمل ، بالرغم من جميع العقبات القديمة والحديثة أن تنتقل جميع الأديان الكبرى من عمومية الحق الى عمومية الواقع ، وبمعنى لا يمكن فيه ، لبضعة عقود ، وضع خارطة دينية لهذا العالم الذي بدأت حدوده بالامحاء . وإذا لم يختر الناس وطنهم فلهم الحق بأن يختاروا دينهم مع الأخذ بعين الاعتبار فقط تفضيلاتهم الروحية ، وكل اختيار من هذه الاختيارات يقتضي جواباً على الأسئلة التي يضعها العالم الحديث . ومن الواضح ، مثلاً ، أن المجمع المسكوني ، في الوقت الذي صوت فيه على التصريح بشأن الأديان غير المسيحية ، قد صوت أيضاً على قرار بشأن حرية الوجدان . كما أنشئت لجنة دائمة لدراسة القضايا التي يضعها الالحاد المعاصر .

لقد وضع الفيلسوف الفرنسي برغسون في السابق الدين المفتوح أمام الدين المغلق . وبعد خمس وثلاثين عاماً على نشر كتابه « ينبوعا الأخلاق والدين » أصبح هذا التحليل مقبولاً . ومن الممكن القول عن جميع الأديان الكبرى بأنها تأسست كديانات مفتوحة ، ولكن الظروف التاريخية لنموها قادتها إلى الانغلاق على نفسها كثيراً أو قليلاً . وفي فترة حياة الانسان ، استطعنا أن نرى الكاثوليكية تنتقل من مغلقة إلى مفتوحة . وسلكت البروتستانتية هذا الطريق ، وحتى الأرثوذكسية ، في الحد الذي

قطعت فيه الثورة ، ثم الدياسبورا الكبرى التي نجمت عنها ، الصلات الزمنية الثقيلة .

وحالة اليهودية في الحقيقة أصعب ، لأن الشعب «المختار» مغلق على نفسه كهنوتياً ، ومنطو على ذاته .

والاسلام ينادي بالوحدة والترفع الإلهيين أمام كل المغريات الحديثة في الوجود . ومن الممكن للأديان الثلاثة أن تضم جهودها لمكافحة الأديان المتكاثرة في العالم الحديث . وربما تستطيع حالة الشرق وروحانيته المتحمستين كثيراً ، في بعض الأوساط ، ان تقدما للعالم المقبل قوة لا غنى عنها تقابل نشاط الغرب المفرط .

ولن نذهب ، مع ذلك ، نحو صهر عام لجميع المذاهب له اغراؤه ويرحب بمحاولاته . وإذا بقي كل دين من الأديان الكبرى بذاته في كل ما عنده من أساسي ونقي ، فيجب أن يسمو بالانسان الحديث بكليته الروحية والمادية . ولقد أفاد الالحاد والمادية في التشهير بكل خداع الروحانية المرائية ومذهب « تصور الآلهة بصورة البشر » الذي ولى زمانه.

ونقترب من ساعة الحقيقة التي ينتصر فيها كل من وجدوا في إخلاصهم ووفائهم جواباً مقبولاً اليوم وغداً لأسئلة وقلق البشرية المتخلصة من أساطير الطفولة . ومن المسموح للانسان أن يفكر بان الدين يحتوي على جميع بزور هذا التركيب الحي ، ولكن شريطة أن نخلصها بقوة من جميع الكثافات الثقيلة التي تراكمت حولها في عصور التاريخ .

الفصل السادس

الحياة اليومية

في ٨ أيار ١٩٤٥ وعندما كانت الاجراس تقرع وتتجاوب من قرية لقرية وتنبيء بالنصر على المانيا وتزعق صفارات الخطر السلمية أخيراً ، كانت أوربة بكاملها تشكو التقنينات القاسية في المسكن والكساء والغـــذاء .

لقد دمر القصف والمعارك ملايين العمارات ، وقلبت طرق المواصلات، وخربت أنابيب الماء والغاز ، وشتتت شمل العائلات ، وأخضعت الحياة اليومية إلى ألف صعوبة جديدة لن تزول بسهولة ويسر .

ونظراً لفقدان وسائل النقل ، ظل التموين مجمعاً في أماكن الانتاج ، وكانت السفن تصل من أمريكا وتنزل البنزين والحنطة واللحم والأقمشة ، ولكن كل شيء كان أولاً مخصصاً للجيوش اللجبة المنهمة . وكانت السوق السوداء تحول منه قسما وافراً .

وكانت الصحف الفرنسية التي تنبيء بسقوط المانيا لا تظهر إلا على ورقة واحدة ، ولكنها تتضمن دوماً عنواناً ضخما للتموين ، وظل هذا العنوان سنوات أيضاً . وفي أيار ١٩٤٥ ، لم يكن للفرنسيين حق إلا بـ ٣٥٠ غراماً من الخبز في اليوم ، و ١٠٠ غرام من اللحم في الاسبوع

و ٥٠٠ غرام من السكر في الشهر ، و ٧٥ غراماً من القهوة الحقيقية و ٨ ليترات من الخمر . ونظراً لفقدان الاكداس المخزونة لم يكن بالامكان توزيع الحصة المعينة على المادة الدسمة في الشهر والمحددة بـ ٥٠٠ غرام إلا بعد ثلاثة أسابيع عن الموعد المقرر . وكان الغاز يقطع في الساعة العشرين . من المستحيل الحصول على الاحذية والالبسة والناقلات دون قسيمة

وبدت الحالة ميؤوساً منها ، حتى ان جريدة « العالم » الفرنسية لم تتردد في أن تكتب : « ما الفائدة من كسب الحرب إذا لم يوجد في خمس وعشرين عاماً شبان فرنسيون لاقامة الحراسة على الراين » .

النهوض السوفياتي البطيء :

اذا استثنينا البلاد المحايدة والولايات المتحدة ، حيث رفعت الحرب الانتاج الصناعي إلى أكثر من ٧٥٪ ، وحيث تحول كل هذا المال الجديد مباشرة تقريباً بعد النصر ، ، إلى سلع استهلاكية ، لم تكن الحياة اليومية ، في كل مكان ، بالفعل ، الا صورة هزلية لما كانت عليه في العام ١٩٣٩ .

كان لدى الاتحاد السوفياتي نحو ١٨ مليون ميت ، ١١ مليون منهم مدنيون ، وفقد قسما عظيما من قطيعه ، والكثير من العمارات ، حتى ان ٢٠ مليوناً سوفياتياً ، في ١٩٤٥ ، كانوا يعيشون مكدسين في مهاجع موقتة ويأكلون في مطاعم جماعية . واجتاز الاتحاد السوفياتي ازمة غذائية عميقة جداً ،حتى ان ملايين الاشخاص ماتوا جوعاً في ١٩٤٦ وفي ١٩٤٧ . وبلغ سعر الخبز والسكر والحليب ، الذي لم يتغير منذ ١٩٤٠ ، ثلاثة أضعافه فجأة في السوق الرسمية . وأصبح اللحم

مفقوداً . ويذكر شتاء ١٩٤٦ — ٤٧ — المعركة على الاقل — بشتاء ١٩٤١ — ٤٢ المخيف عندما كان الزحف الالماني باتجاه موسكو يفسر كل التقتيرات ويبررها .

وأمام هجوم البؤس اليومي ، كانت الستالينية مخيفة أكثر من أي عدو يهدد الاتحاد السوفياتي من الخارج . وكان المهم أن تخفى على الاجانب الحالة الاقتصادية المحزنة لشعب يحكم كثيراً من الشعوب الاخرى .

ويجب الانتظار حتى ١٩٥٢ لتخرج من المشاغل السوفياتية الالبسة والاحذية والادوات المنزلية كما في ١٩٤٠ ، وليستطيع المدنيون التصرف بها ، ولكن مع زيادة الساعات الاضافية ونفس القوة الشرائية التي كانت قبل اثني عشر عاماً .

ويلاحظ أيضاً عند قراءة الصحافة السوفياتية ، إن هذه العموميات المتفائلة تخفي وقائع مخيبة . إن المقالات ، التي تلوم النوعية الرديئة أو تشير إلى فقدان الخيرات الارضية المتواضعة ، لا حصر لها . وتقول صحيفة « ازفيستيا » : « لماذا يجب في موسكو قطع كيلو مترات للعثور على زلاج ، وشكالة ، أو رتاج باب ؟ » . وتتكلم صحيفة « ترود » عن الحالة في كارلوف ، وهي مدينة نفوسها ٨٠٠٠٠٠ نسمة: « لا يمكن أن يوجد في كارلوف فرشاة قوارير واحدة ، أو أقل فتيل لمصباح بترول ، أو صندوق بريد ، أو وضم لعرق اللحم في المطبخ » . وبالرغم من كل شيء . فان سنوات ١٩٥٢ — ٥٣ ، مع الترددات والحذر والانقطاع والحوادث المؤسفة ، تؤلف هنا وهناك ، آخر منطقة الظل وبداية عصر جديد .

المانيا : من العام صفر الى الازدهار

هل يلزم من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ ، سبعة أعوام ، لجميع الامم ، لتعويض خسائر الحرب ديموغرافياً واقتصادياً ؟

وهل تلزم سبعة أعوام لجميع الناس ، المصابين في أموالهم ، ليعودوا في الطريق الى النقطة الصحيحة للسعادة اليومية حيث فاجأتهم الحرب ؟

ليس لهـــذه الأسئلة جواب واحد . لأن كل شيء لا يتعلق بنسبة التخريبات فحسب ، بل أيضاً بشجاعة الناس ونظامهم كموارد ظاهرة التعمير واختيار الاولويات .

كانت المانيا مسحوقة ، منهوبة ، بتراء ، وقد ولد فيها البؤس والجوع هذه المقطوعة الرباعية :

الزوج يرقد في قبر جندي .
والمرأة تنام في سرير زنجي .
سقط الرجل في سبيل الوطن .
وسقطت المرأة في سبيل سيجارة .

ان المانيـا ، التي كانت فيها ٥٠٠ غرام من الزبدة تمثـل أكثر من اجرة العامل الشهرية ، والمدن مدمرة بنسبة ٧٥ ، ٨٠ وحتى ، كما هي حالة كوبلانس ، ٨٦٪ ، المانيـا المغلوبة تنهض بسرعة في الحـد الذي يعني فيه النهوض تعيينـات اكثر غذاءً ومساكن بنيت بسرعة على حين ان فرنسا وبريطانيا العظمى و الاتحاد السوفياتي كانت منتصرة .

لقد حاولت فرنسا وانكلترا ، بالفعل ، ان تمسكا بامبراطوريات كبرى اخذت تنزلق بين ايديها ولايمكن للمليارات ولاالجنود ان توقفها .

وكان على روسيا ان تفرض امرها في الاراضي المكتسبة حديثاً وتنمي جهازاً عسكرياً كبيراً بغية حمايتها من تجديد مفاجأة ١٩٤١ القاسية .

كانت المانيا الاتحادية دون جيش ، وقد هلك ٢٠ ٪ من سكانها تماماً مقابل ٤ ٪ في هولندا ، ٣ ٪ في فرنسا ، ٢ ٪ في انكلترا ، وقصفت معاملها او فككت ، ولكنها استطاعت بفضل اصلاح نقدي غاشم وبفضل رجل موهوب ، وبفضل خصومها السابقين وروح النظام الذي يعرف أخيراً كيف يستخدم بسلام ، ان تستعيد صحتها ونشاطها ، حتى ان الكثيرين سموا هذا النهوض « معجزة » .

لقد هلك مايقارب ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة ، و ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة منوا بخسائر واضرار . وبعد عشرة أعوام على نهاية الدرامة ، في ١٩٥٥ ، خرجت من الأرض ٣٣٢٥٠٠٠ سكناً جديداً . ولم تكن المانيا ، بين جميع بلاد اوربه ، من اجل انتاج الفحم والكهرباء ، والسيارات ، بعيدة عن انكلترا ، بينما تصنف في الرأس في كثير من الميادين التي تهم الحياة اليومية . لقد تغير الفحم والحديد ، في الواقع ، الى اجور ، وغذاء ، وترجية اوقات الفراغ عندما لاتضع السياسة عقبة أمامها .

وكان تأثير هذه السياسة على حياة كل يوم محسوساً في جميع بلاد الديموقراطية الشعبية حتى ١٩٦٢ ، على الأقل ، ولاحاجة لمغادرة الارض لألمانية لاكتشافه .

ولم تدمر برلين الشرقية بشدة كبرلين الغربية . وعندما بدأ كل شيء ، كان شطرا المدينة متساويين في الضراء . ولكن قبل ان تنفصل المدينتان بجدار ، كانتا آخذتين بالانفصال بشكل مرئي ايضاً : منجهة البؤس والتقتير ، ومن جهة الوفرة . وعندما غصت برلين الغربية بالأطعمة الأرضية واضاءت بملايين الأنوار المنبعثة من ملايين العمارات الجديدة وفكرت بحل قضايا المواصلات التي وضعت في شوارع وسعت بشكل عظيم ، لم تعمر برلين الشرقية

سوى مهارات استعراض ؛ وكان ثمن القسطان القطني يمثل ثلثي اجرة ضاربة على الآلة الكاتبة ، واللاجئون يفرغون الشرق قطرة قطرة من مادته وجوهره ، ويهجرون بلداً لا يستطيعون فيه العمل حسب هواهم ، او الأكل اذا جاعوا ، او القراءة او الكتابة او التفكير كما يحلو لهم .

وفي صيف ١٩٥٦ سجل الهارب الألف الطامع في مغادرة البؤس كمغادرته الدكتاتورية البوليسية .

وهكذا ، بعد عشرة اعوام على آخر الحروب ، وجـــدت بعض شعوب الغرب سعادة الحياة ، وشعوب أخرى مازالت دوما في الطريق اليها .

كل الشعوب عندها فقراؤها

ولتسهيل عمل الاحصائيين ، صنفت الأمم الى ثلاث فئـات : ففي الفئة الاولى : الولايات المتحدة الامريكية ، كندا ، وبلدان او ثلاثة بلاد أخرى ممتازة وفرتها الحروب ؛ وفي الفئة الثانية : انكلترا ، المانيا الغربية ، فرنسا ، بلجيكا ، ايطاليا ، وعدد من بعض الأمم الواقعة فيما وراء الستار الحديدي ؛ وفي الفئة الثالثة ، أخيراً : جميع الشعوب الأخرى . وهي أكثر عدداً واكثر بؤساً ايضاً . وهي اكثر بؤساً لأنها اكثر عدداً .

ولكن من لا يرى ، خلال هذا التصنيف الاعتباطي جـداً ، مناطق الظل والنور ؟

وفي الحقيقة ، ان الأمريكيين يستحقون أن يكونوا خارج السباق . لأن المواطن الأمريكي لم يكن عنده من المال في أي وقت مضى للصرف كما كان عنده في ١٩٦٥ . إن أربعة أمريكيين على خمسة يعتبرون الغسالة ضرورة ؛ وسبعة على عشرة الهواء المكيف حداً أدنى للرفاه . وواحداً على اثنين يرى العيش غير ممكن دون سجادة في منزله . و بـ ٨٠

مليون سيارة ، و ٧٠ مليون تلفزيون ، و ٨٩ مليون هاتف ، يفوق الأمريكيون البالغ عددهم ٢٠٠ مليون ، بوضوح الأوربيين الموحدين احصائياً .

وأخيراً ، العامل الأمريكي يملك أكثر قوة شرائية عندما تختبر البيوض واللحم والسجاير وغيرها من السلع الاستهلاكية أيضاً .

ولكن هذه الأمة الغنية عندها فقراؤها . فقد قدر الرئيس كينيدي عددهم بـ ١٥٪ من عدد السكان . إن الزنوج أو البورتوريكيين ، الذين يعملون عمل البيض ، لا يكسبون بأفضل وجه إلا ثلثي الأجرة ، ويعيشون مكومين في الغيتو (المعازل) ، التي يعين رفض البيض لمساكنتهم حدودها . وهم أول من يخضعون لهجوم البطالة ، وحياتهم اليومية نفسياً ومادياً ، عدا بعض الاستثناءات ، لا يمكن أن تشبه بحياة أبناء وطنهم البيض .

وفي داخل جميع الشعوب « الممتازة » توجد اختلافات على هذا النحو ، ولكنها ولا شك في البلاد الشمالية (السويد والنورفيج) ملحوظة بشكل أقل . ولكن بأي شيء تشبه الحياة اليومية لريفي صقلي حياة بورجوازي ميلاني ، وحياة فلاح أو عامل مناجم اسباني حياة صاحب مصرف مدريدي ؟

ولا ننسى ، في فرنسا ، أن المنطقة الباريسية تمثل ٢٥٪ من الدخل القومي ، بينما تحبو منطقة الليموزن والفرانش - كونتيه بعيداً في الخلف بين المناطق المحرومة ؟

وفوق ذلك يمكن أن نكتب ، بفضل الجريدة ، والسينما ، والراديو وبخاصة التلفزيون ، أن التطلعات والمتطلبات واحدة وإن لم تكن الحياة واحدة .

وأخيراً ، لا يفوتنا بلد نجد فيه السياسة الزراعية ، وهي ليست الا مظهراً من مظاهر السياسة القومية ، تساهم دون انقطاع في تغيير اسلوب حياة السكان . وهذه هي حال الاتحاد السوفياتي . ففي ١٩٥٣ ، وفي ١٩٥٤ ، وفي ١٩٥٥ نقصت البطاطا ، واللحم ، والبيض والسكر خلال نصف السنة ، بينما ، في ١٩٦٣ ، لزم تقنين الخبز خلال عدة أشهر ، وفي ١٩٦٥ ، استورد كميات كبرى من الحبوب .

وعدم الاستقرار في ظروف الحياة ، وهي ظروف تتغير باستمرار في داخل كل بلد ، وتخضع لقوانين الثروة والمناخ والموهبة والسياسة ، يجعل التعميات كلها ضعيفة .

ومن الممكن على الأقل محاولة استخلاص بعض حقائق مشتركة عامة على الناس في أمريكا الشمالية وأوربة .

تناقص حصة الطعام في موازنات الاسر

في السنوات المباشرة التي تلت بعد الحرب ، كان الطعام يحتفظ ، في اهتمامات الجميع تقريباً ، بالمكان الهام الذي كان له خلال الحرب . وكان الناس جياعاً ، وظلوا جياعاً . وكانت ملايين الرجال والنساء تخصص الأسامي من دخلها لشراء الطعام ، لأن الحصول عليه كان مستحيلاً عليهم إلا بالسوق السوداء .

ولكن كل شيء أخذ يتغير مع عودة الوفرة والمنافسة .

ففي نفقات البيوت الفرنسية ، انتقلت حصة التغذية من ٤٦،٤٪ في ١٩٥٠ إلى ٤٣،٦ في ١٩٥٥ ، و ٣٦،٨ في ١٩٦٠ ، و ٣٥،٢٪ في١٩٦٢. ولا يعني هذا أن الناس يتغذون أقل من قبل كثيراً ، بل بالعكس تماماً ، ولكن زيادة الدخول لم تفد في سد الحاجات الأولوية التي ليست قابلة للاتساع ، بل في سد الحاجات الاجتماعية ـ النفسية .

ولا تذهب هذه النفقات ، مع ذلك ، إلى مراكز واحدة ، لأن الأعراض تدل على أن الصيغة « كسب لحمه » حلت في المفردات الشعبية محل العبارة « كسب خبزه » المستعملة منذ قرون مديدة . وفي الواقع أخذت ربات البيوت تشتري منذ الآن الكثير من الحلاوى والخضر « الطازجة » ، ولحم البقر (بزيادة ٣٥٪ في عشرة أعوام) ، والمعلبات (كونسرة) ، ونقصت حصة الخبز ، الذي لم يزد استهلاكه في عشرة أعوام إلا بمقدار ٥٪ ، بينما إزداد الشعب الفرنسي بـ ١٠٪ ، والخضر اليابسة ، والبطاطا ، وجميع السلع المعتبرة أقل نبلاً، وتحتاج زمناً أطول لتحضيرها للأكل والتي تذكر بأزمة التقتيرات الشاقة عندما كان اللفت ومشتقاته يظهر غالباً على موائد العائلات .

وفي هذا الصعيد ، كما في جميع الصعد الأخرى ، ينضم الاعجاب بالدارج (السنوبية) إلى قلة الوقت ، لأن الكثيرات من النساء يعملن ومن هنا تأتي كثرة الاقبال على الصحون المحضرة ، بالضرورة ، وفي كل مكان في العالم المصنع تنتج العلل نفسها المعلولات نفسها . لأن الأرقام إذا كانت في الولايات المتحدة أكثر تعبيراً مما في فرنسا وفي الاتحاد السوفياتي حيث يمثل مركز الطعام دوماً ٥٠٪ من موازنة الأسرة ، فإن هذه النسبة أخذت تتناقص منذ الآن من سنة لأخرى .

وما لا يعطى للغذاء يذهب للرحلات ، وتزجية أوقات الفراغ والعناية بالصحة والدار بخاصة .

المنزل الهدف رقم واحد

إذا أصبح السكن في الولايات المتحدة بالنسبة للكثيرين أكثر وأفضل من السيارة رمزاً للنجاح الاجتماعي ، وإذا استطاع محققو « منبر شيكاغو»

أن يختموا تحقيقهم على هذه الجملة : « المنزل دليل ملموس للنجاح ويعتبره ساكنوه هدفاً ورمزاً كالمسكن ، فإن الحال لا تبدو على مثل هذا الشكل بالنسبة لأكثرية الأوربيين الواسعة .

إن « المولعين بالاستقرار » ، لاستئناف كلمة العالم الاجتماعي الأمريكي فانس باكارد[١] ، ليسوا أقل عدداً في هذه الجهة من الأطلسي . ويعلم الدور الدعائي والسياسي الذي لعبه الاتحاد السوفياتي في تخصيص منزل في المدينـــة و داتشا ، ولكن عوامـــل عديدة منعت دوماً اعتبار قضية السكن محلولة . إن التخريبات التي سببتها الحرب كانت في بعض البلاد عظيمة ، ولم تتم التعميرات بالعناية المرغوبة ، وفي الاتحـاد السوفياتي ، مثلاً ، صرح في ١٩٥٩ – ١٩٦٢ وحدها ان ١٢٪ من العمارات الجديدة غير صالحة للاستعمال ؛ وان قوانين الاجارات أو الاستغلال أبطأت ، وهذه حالة فرنسا في وتيرة البناء .

وفي كل مكان سبب التفجر السكاني طلبـــاً متزايداً على المساكن . وأخيراً ، نشأت في كل مكان حاجات جديدة .

إن دعائم النشر كالجرائد والتلفزيون ، والرحلات والسينما ، وكذلك التعب العصبي من الأيام الطويلة التي تقضي فيها التنقلات كالعمل ، والحاجة المتزايدة للرفاه والصفاء في داخل أسرة ليس لها الأبعاد التي كانت لها في الماضي ؛ ان كل ذلك يسهم في جعل المنزل الهدف الأساسي الذي توبع طويلاً وبلغ بمشقة .

بمشقة : ففي ١٩٤٩ ، على ٦٥٠٠٠ عائلة فتية تأسست في السنة ، في المنطقة الباريسية ، كان ٢٢٠٠٠ ، أي الثلث ، تسكن في الفندق .ولم

---

(١) VANCE PACKARD

تتحسن النسب منذ ذلك الحين . ومن الصحيح دوماً ، في ١٩٦٦ ، كما في ١٩٤٦ ، ان نصف سكان منطقة السين يعيش بمعدل ثلاثة أشخاص أو أكثر ، في الغرفة ، وصعد رقم المساكن المفرطة في زيادة السكان بشكل حرج في فرنسا إلى أكثر من مليون .

وخلال زمن طويل ، لم يخصص الفرنسيون ، الذين يسكنون بشكل سيء ، الا مبالغ ضئيلة للسكن . وفي ١٩٤٨ أيضاً ، كان الباريسيون يدفعون أجور منازلهم بشكل أقل بما يدفعه سكان نيويورك ومونتريال ، وستوكهولم أو ميلانو ، بينا كان الكساء والغذاء يكلفانهم أكثر من ذلك . ولكن الحال ليست نفسها اليوم . ففي موازنة الفرنسي انتقل الموقع « المسكن » من ١٣٫٣٪ في ١٩٥٠ إلى ١٦٫٤٪ في ١٩٦٠ . واستمرت حصته في الزيادة بصورة منتظمة .

وهذا المنزل الذي يحصل عليه بعد الكثير من المساعي والحرمان والصعوبات إنما هو صدفة يجب تزيينها بوسائل مخصصة للتخفيف من الأعمال المنزلية الشاقة للمرأة ، التي تكتشف بدورها عالم الآلات النافذ والمعقد .

لأنه ، إذا كان كثير من النساء يعملن (يمثلن ٤٤٪ من مجموع المأجورين في بلد مثل تشيكوسلوفاكيا) ، فإن النساء اللواتي يبقين في المنزل لا تساعدهن في أعمال المنزل الخادمات والطوافات على المنازل إلا نادراً ، بعد أن كن من المراهقة إلى الوفاة يشاركن في الماضي حياة كثير من العائلات البرجوازية .

و « الخدمة » ، التي زالت تماماً من الولايات المتحدة ، هي الآن في طريق الزوال في فرنسا كما في سائر البلاد التي يرتفع فيها مستوى الحياة . ولكن الآلات قامت بديلاً ، وفي كل سنة تكسب الرقيقات الآلية

معارك جديدة . فهي تهاجم منازل لم تزرهـــا في الماضي ولم تدع إليها امرأة خدمـة في السابـق . وهي تتحصـن وتتعقد . وبمفاتن النشر الذي يلح بصورة أساسية على « التبسيط » الذي تأتي به في سياق الحياة العائلية وبفضائل الاعتماد ، نراها تنفـذ بشكل عريض إلى الطبقات الشعبية .

وفي هذا النضال في سبيل التجهيز بالاجهزة المنزلية الكهربائية الحديثة نجد العمال في وضـع حسن عموماً . ففي فرنسا ، مثـلاً ، نجدهم في المكانس الكهربائية والثلاجات (البرادات) في تقدم على الوسطي القومي.

أما الريفيون فمتأخرون عن العمال في هذا المجال .

ولكن السعاة انطلقوا في الهجوم على الارياف ، والوتيرة السنوية لتقدم البيـع ، التي كانت في فرنسا ، في السنوات ٥٠ إلى ٦٠ ، أكثر من ٢٥٪ في الثلاجات ، وأكثر من ٢٣٪ في الغسالات ، وأكثر من ١٢٪ في المكانس ، تتتابـع مع بعض التوقف .

واليوم – ولكن الارقام تتحرك دون انقطاع – على ١٠٠ منزل فرنسي نجد ٥٢ منزلاً عندها ثلاجة ، ٤٥ عندها سيارة ، ٤٣ عندها مكنسة كهربائية ، ٤٥ عندها تلفزيون ، ٣٨ عندها غسالة ، ٣٠ عندهـا مسجل كهربائي .

وفي هذا السباق إلى الرفاه المنزلي ، نجد فرنسا بعيداً وراء الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى وألمانيا . ولكن محافظة الشمال فيها تأتي في الرأس ، مثلاً ، بـ ٦٨ غسالة لكل ١٠٠ منزل .

ومن هنا نرى ما عمل وما يبقى للعمل .

هل الاعتماد بروتستانتي غالباً

هل بإمكان ما عمل أن يكون كما كان لولا تعميم الاعتماد ؟ لقد قام الاعتماد منذ زمن طويـــل ، في سبيل الافضل والاقبح بدور عظيم في الولايات المتحدة ، واصطدم ، ومـا زال يصطدم أيضاً ، في فرنسا ، بحذر طبقة الفلاحـين التي لا تأمن على غدهـا ، وبعداء قسم من الطبقة البرجوازية ، طبقتان اجتماعيتان اعتادتا منذ أجيال الا « تأكلا حنطتهما غير ناضجة » وإلا « تعيشا فوق وسطيهما » وهناك ألف حكمة اقليمية تمنع القرض عن إناس يرون في الاعتماد صورة ملاك سيء ، وفي بعض الكنـائس الفرنسية يسمع كهان يشهرون على المنبر الدين الخطر التالي لزيادة البيـع بالاعتماد .

ولذا ، وبينا يمثل العمال ٣٣,٨٪ ممن يشترون بالاعتماد والمستخدمون ٣٣٪ ، لا يمثل أعضاء المهن الحرة إلا ٨٪ والمزارعون ٢,٢٪ .

ويبدو أن الماضي قد سلم بتفكير كارل ماركس عندما قال « الاعتماد بروتستانتي غالبـــاً » ، لان الفرنسي لا « يستهلك » إلا ١٠٠ فرنك اعتماد في العام ، مقابل ١٦٠٠ فرنك للأمريكي و ٢٥٠ فرنك للبريطاني. ولكن الامور آخذة بالتطور بسرعة . ففي الفاتح من كانون الثاني١٩٦٤ ، كان مبلـــغ القروض يمثل ، في الواقع ، خمسة أضعاف أرقام ١٩٥٥ وخمسة عشر ضعفاً أرقام ١٩٥٢ .

والاعتماد مخصص بصورة أساسية لشراء السيارات ، لان أكثر من ٤٠٪ من السيارات الجديـدة تشترى بالاعـتماد ، والاجهزة الكهربائية المنزليه . والاعتماد أيضاً غـال جداً ، بالرغم من الاجراءات الحكومية الحديثة ، ولكنه يساعد على الوصول مباشرة ، منذ الزواج مثلاً ، على

امتلاك بعض نعم هذا العالم ، السعادة أو تصور هذه السعادة . وهذا على الاقل ما تؤكده جميع وسائل الاعلام . ولا تضيف أن الاعتماد لا غنى عنه لحسن سير اقتصاد آخذ بالتوسع وانه يسهم بشكل قوي في تصريف انتاج في نمو مستمر .

لقد دخلنا ، في الواقع ، في حضارة العدد والاسراف . ومن يحفظ مشبوه في أعين الوطن والمعامل ، لانه يجب الطرح للتجديد . وهكذا، في الولايات المتحدة ، النموذج الذي تتبعه الامم الاخرى المتطورة كثيراً أو قليلاً ، ولكنها تجتاز الواحدة بعد الاخرى جميع مراحله ، لا يوجد من يسير الآلة إذا توقفت ، بل باعة فقط . والمحرك المعطل لا يصلح بل يغير .

وليس القيام ببعض الاعمال المنزلية من شأن العامل ، بل البورجوازي الذي يتخذه وسيلة للتسلية . ويوجد كثير من هذا النوع في الولايات المتحدة ، لان ١١ مليون منزل تملك في داخلها ورشة يتمرن فيها رب العائلة على العمل المهني اليدوي ، بهوى مفيد للمنزل ، في وقت العوز .

وانتهى زمن الانبار والمخازن والاقبية التي تحفظ فيها الامهات البقايا ويقلن « قد ينفع هذا يوماً » .

والاوروبيون أنفسهم ، الذين عاشوا بضعة أشهر ، في زمن الحرب ، على الاكداس التي جمعتها أجيال أكثر منها مسكنة وتبصراً بالعواقب ، ينسون الآن تذوق الاقتصاد في منازل صغيرة جداً ولا تتسع إلا للأساسي والمباشر .

ومهمة الاكداس أن « تدور » بسرعة . ففي بوسطن تصور موجهو مخزن فايلين (١) الكبير أن ينزلوا البضاعة التي لا تباع من الطابق الرابع

---

(١) FILENE

إلى الطابق الثالث بعد ثمانية أيام على العرض . ويتفق مع هذا «التراجع» انخفاض في الاسعار بـ ٢٠٪ . وبعد ثمانية أيام ، تبدأ مرحلة جديدة ، وهي إنزال البضائع إلى الطابق الثاني وتخفيض ٤٠٪ . وأخيراً تنزل إلى الطابق الاول وتباع بأقل من ٧٥٪ من ثمنها . والنفاية، إذا أمكن استخدام هذه الكلمة للبضاعة التي عرضت شهراً في المخزن ، ترسل فيما بعد الى جيش السلام (الخلاص) أي إلى مؤسسات الاحسان الدينية .

المخزن ، هذا هو العدو . هذا هو نقد جميع هذه المخازن الكبرى المنشأة تبعاً لعدد سكان الجوار والممونة فقط بالكميونات أو الحافلات (واغونات) الكاملة ، والمصنوعة لزبائن دون عقد ، اعتادوا أن يختاروا دون دليل بين عشر أو مائة نوع معروفة ، ولكن بأسعار معلن عنها. ودون وسطاء ، في الواقع ، إن لم يكن ذلك في لحظة الدفع .

وفي الولايات المتحدة ، من ١٩٣٦ إلى ١٩٦٠ ، زال على هـــذا النحو مليون مركز بيع ، ونشأت ٣٦٠٠٠ « سوق مركزي » تقوم بـ ٧٠٪ من رقم أعمال الطعام .

وفي هذا الصعيد ، كما في الكثير من غيره ، وضعت أوربه على المقياس الأمريكي . يوجد ٤٢ « خدمة حرة » من أجل ١٠٠٠٠ سويدي ، ١٢ من أجل ١٠٠٠٠ سويسري ، و ٨ من أجل ١٠٠٠٠ بريطاني .

وفي فرنسا ، الأرقام أقل افصاحاً بكثير .

وإذا كان صحيحاً ، من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٣ ، أن أكثر من ٢٣٠٠٠ مؤسسة تجارية غذائية وأكثر من ١٣٠٠٠ دكان نسيج قد زالت ، ففي الوقت نفسه كان توسع النشاط والابداع ، على الأقل في الطعام ، أكثر منها عدداً بكثير . وهناك مخازن كبرى ، مثل مخزن الربيع في باريس، فهو يستخدم ١٣٠٠٠ شخص ، ولكن التجارة الصغرى لم تحذف . وهي

مدينة بجباتها ، ولا يعلم لأي زمن ، لفردية الزبائن الفرنسية أكثر منها لجهود التجديد التي جرت محاولتها هنا كما في مكان آخر ، ولكنها لم تعرف في البلاد الأخرى نفس النجاح . ومثـــل مخزن الربيـع ، توجد مخازن كبرى في كل مدينة أو عاصمة كبرى تكتظ فيها النفوس البشرية .

بعض صور الحركية

ودونما كلل أو ملل تعود وسائل الإعلام وتكرر شعار كسب الوقت .

إن السيارة التي تدور « بـ ١٥٠ كرونو » : كسب للوقت . وكسب للوقت ، السوق المركزي . وكسب للوقت الغسالات الكهربائية ، والثلاجات المجمدات للمنتوجات الغذائية ، والمكنسة الكهربائية ..

وهذا الكسب للوقت ماذا يعمل به ؟

أولاً ، إذا كان صحيحاً أن ساعات العمل في العالم الغربي آخذة في كل مكان بالتناقص ؛ وإذا كان صحيحاً ، باستثناء بعض بلاد البحر المتوسط ، أن اليوم المستمر له في كل مكان حق المدينة ، أي حق القيام بالأعمال ، فإن الأشياء ليست بسيطة جداً .

إن الوقت الذي يقضى في المعمـل لا يمثل أكثر من ست إلى سبع ساعات في اليوم ، ولكن يجب ، في الغالب ، أكثر من ساعة ونصف لبلوغ مكان العمل . ومثل ذلك للعودة . والمسافات الأهم من غيرهـــا ليست نادرة وكل شيء يسهم في تطويلها . ففي ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠كم تملك كل مدينة كبرى تاجها من المدن – التابعة التي فقدت كل شخصية وسميت ببساطة « المدن – المهاجع » . وهذه المدن ، التي هي خزانات الشعب ، تحرر كل صباح مئات الألوف من النـاس وتتركهم لمشاكل

المرور . وشيئاً فشيئاً يميل سكان الضواحي في الغالب إلى تقليد هذه الجماهير الأمريكية التي تترك سياراتها في براكات واسعة واقعة على حدود المدينة العملاقة وتلجأ بعد ذلك إلى وسائل النقل تحت الأرض .

وهذه الرحلات اليومية ، التي تكون فيها ١٠٠ كم شيئاً عادياً لكثير من الناس ، كانت تؤلف قبل قرن مغامرات فائتة وشاقة . أما اليوم فتشجع على هجرات هامة دوماً . لأن ولادة الانسان وحياته وموته في نفس الدار ، وفي نفس القرية وحوله عائلة مجتمعة وجيران معروفون ، لم تعد مثلاً أعلى للحياة . وعلى الأقل لمن يريدون متابعة الثروة في سباقها المربك .

ولم يعد المنزل بالنسبة للكثيرين سوى مكان مرور ، ويحسن حقاً أن يجعل ساراً على قدر الإمكان ، ولكن يعلم انه قابل للتغيير . أما فكرة البعثرة العائلية الدائمـــة فهي مرتبطـة بسهولة الترحال ، وضرورات الدراسة والتنقلات التي تقوم بها المعامل ، من أقصى البلاد لأقصاها ، بحثاً عن أراضي واسعة أو مواد أولية أقل كلفة .

والفلاحون أو العمال الشيوخ هم الذين يتعلقون بعد بالأرض ومنظر الجدود . أما الشباب فهم مأخوذون رويداً رويداً بمثل الحركية الاسطورية الأمريكية . ويقدر ، في الواقع ، في كل سنة أن ٢٠٪ من سكان الولايات المتحدة يترك مكاناً في سبيـل آخر ، ملاحقاً عملاً أكثر نفعاً وفائدة . وهكذا تبعت ملايين الرجال والنساء المعامل على الأكثر . إن مصانع الطائرات والرحاب البحرية تجذبهم . وهم الآن في خدمة الذرة ، تحت شمس كاليفورنيا .

وينتقلون بسهولة لاسيما وأنهم كلهم يملكون ناقـــلات وأن سيارة « القافـلة » تنوب عندهم أحياناً مناب سكن أو مـأوى ، وانهم كلهم

بفضل الهاتف والراديو والتلفزيون على اتصال بكل ما يحدث ويبدع . وكل ما ينمو من الأرض من أقصى البلاد الواسعة لأقصاها .

ويذكر ، على سبيل المثال ، أن موظفاً في مكتب لسوق الزنوج العاطلين عن العمل في شيكاغو كان يسأل العمال ، كشيء طبيعي في هذا العالم ، عن رقم هواتفهم ، وكانوا كلهم قد جاءوا إليه بسياراتهم .

وفي هـذا البلد ، الذي ليست فيه السيارة ، رغم ملاحظات بعض علماء الاجتماع ، دليلاً على الثروة والنجاح الاجتماعي ، يوجـد ٨٠ مليون سيارة تسهل العمل اليومي والهرب العائلي باعطائها إلى الإنسان ، حبيس عالم المدن ، الحركية التي لا غنى عنها .

وهذه المدن العظيمة الضخمة ، التي تغطيها سماء دنيا ورمادية باستمرار تقريباً تكثف الصخب كله والروائح كلها ، يجب تركها . ان نيويورك تفرغ كل مساء ، تاركة للجمال الوحيد لمنظر الاسمنت والفولاذ ، ملايين النوافذ المنارة على امتداد المكاتب الشاغرة . وتفرغ باريس في نهاية كل أسبوع عمل .

والسيارة — التي في سبيلها يحرم الانسان نفسه من الغـذاء ، ومن أجلها قد يناضل عندما يجب إيجاد محـل له ، السيارة — المرأة ، فتح سنوات ٥٣ إلى ٦٠ ، التي انتقلت فيها نسبة العائلات العمالية الآلية ، في فرنســا ، من ٨ إلى ٢٤٪ ، فتــح اكتسب نهائياً في ١٩٦٤ ، السنة التي اشترى فيهــا المستخدمون والعمال ثلث السيارات الجديدة — أصبحت هذا البساط السحري الذي يوصل ، أفضل من القطار وأفضل من الطائرة الجديدة بعد ، إلى ملكوت العطلة الصيفية هـذا الملكوت الذي هو هدف جميع الاحلام وجميع الاناقات والعنايات .

ولكن السيارة ملكوت مكلف ككل الملكوتات ، ولكن الغربيين ما فتئوا يستقون منه التجديدات وآيات السحر والفتنة .

وبعد أن كانت العطل ، حتى ١٩٣٦ ، في فرنسا ، مثلاً ، قاصرة على بضعة آلاف من الاشخاص « الممتازين » ، أصبحت الآن ، بفضل تطويلها وكثرة الصيغ الوحدوية ، وقلة كلفتها ، تتناول جمهوراً واسعاً من الناس آخذا بالازدياد كل سنة .

في ١٩٥٥ عممت الحكومة الفرنسية الاسبوع الثالث للعطلة وجعلته رسمياً في ١٩٥٦ . وبعد عشرة أعوام أصبح الاسبوع الرابع عادياً وعممه قانون صدر في ١٩٦٨ ، وشيئاً فشيئاً ، في الغالب ، تنافس عطلات الثلج ، في توزيع الوقت الحر وإمكانيات الموازنة ، عطلات الشمس .

في ١٩٦١ ، وجد أن ٦٢٪ من الفرنسيين ، الذين سألهم المعهد القومي للاحصائيات ، لم يأخذوا عطلة خارج مدينة إقامتهم . ثم استؤنف البحث ، بعد ثلاثة أعوام ، فلوحظ أن نسبة المستفيدين من العطلة ازدادت بـ ١٠٪ ، على حين أن مدة الزمن الذي يقضى في العطلة ازدادت بـ ٩٪ ، وإن موازنة العطلة ازدادت ١٠٪ في العام ، وموازنة تزجية أوقات الفراغ عند الفرنسيين انتقلت بين ١٩٥٠ و ١٩٦٣ من ٩،٧ إلى ١٣،٦٪ في نفقات العائلة .

إن منظر فرنسا المدينة الخالية في آب ، لان ٤٠٪ ممن يتمتعون بالعطلة تكون عطلتهم في هذا الشهر ، ومنظر شواطىء الاطلسي أو البحر المتوسط ، المكتظة كاملاً بالاجساد البشرية ، مألوف جداً ولا حاجة للالحاح على هذا الحادث الذي يمس أيضاً جميع البلاد الاوربية .

ولا يكتفى بالذهاب من نقطة لاخرى ، ومبادلة منزل في مدينة

كبرى مقابل « استئجار » دار على شاطىء البحر ، على حافة الأمواج .

وبفضل تكاثر عدد السيارات الخاصة (في فرنسا ١٢٥٠٠٠٠ في ١٩٤٩، وأكثر من ٨٠٠٠٠٠٠ في ١٩٦٥) ، وهي سيارات لايستعملها الكثير من العائلات بحق الا في شهر أو أسابيع آب ، أصبح المتمتعون بالعطلة ، بالنسبة لأصحاب الفنادق ، زوار ليلة ، ثم يسافرون مع الفجر نحو آفاق جديدة وغداء اقتصادي على العشب .

والفرنسيون ، الذين كانوا يجهلون في السابق الجغرافيا ، يجتازون الآن الحدود ، وذلك في سبيل البحث عن أسعار مفيدة أكثر من مناظر جديدة وهيجانات جمالية تميل الى التفاهة ، لأن السياحة لا تنمي الا فولكلور الهوى النفسي ، ويتجمعون ، في اسبانيا ، مثلاً ، في المدن ، التي تكاد تكون كلها فرنسية لمدة ثلاثة أشهر .

وأخيراً ، ارتفع الستار الحديدي ، وبعد بضع سنوات على وفاة ستالين ، أصبح الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية والصين نفسها ، وبحرية أكثر او اقل ، ارضاً للسياح تقطعها افواج منظمة . وسيكون المقابل صحيحاً أيضاً . لأن هؤلاء الروس والرومانيين والبلغاريين والبولونيين ، الذين ظلوا حتى الآن تحت الحراسة الشديدة في داخل الحدود ، سيرام الناس أخيراً .

عالم « الياقات البيضاء »

المراقب الذي يزور الصين بصورة منتظمة ، يلاحظ حديثاً ان الجماهير الصينية تميل إلى الاتتميز عن الجماهير الأوروبية ، لا عن جماهير باريس أو نيويورك ، بل عن جماهير مازالت كامدة بعد ، جماهير بودابست أو موسكو .

لقد مضى بعيداً الزمن الذي كانت فيه البدلة ، في الواقع كما في صور القواميس ، تساعد على معرفة الأمة ، وفي داخل كل أمة ، على الاقليم ، وأصبحت البدلة نفسها الآن لجميع الاقاليم ولجميع الأمم .

وليست الاختلافات ، عندما توجد ، الاتفاصيل رقيقة تسجل تأخراً عن الموضة لا ارادة بالابتعاد عنها .

وفي الشارع ، أصبح من الصعب التمييز بالنسيج عاملاً من صاحب حرفة أو موظف مصرف . ولم تعد البدلة بدلة طبقة .

والرغبات نفسها ليست رغبات طبقة . فبتخفيض الأسعار سبب الانتاج الكثيف في المعامل زوال الحرف اليدوية . واعطت وسائل الاعلام ، التي تراها ملايين العيون ، في الوقت نفسه ، نفس الرغبة الى اناس مختلفين جداً ، بعيدين عن بعضهم بمئات أو بالوف الكيلو مترات . وبدا كل شيء على هذا النحو في متناول الجميع ، كأن يكون بواسطة قناة الاعتماد - ، ونشأ في الغرب مجتمع بظاهر طراز حياة وحيدة الشكل .

والطبقات الاجتماعية توجد دوماً ، ولكنها تتعارف شيئاً فشيئاً وبصعوبة . فالمساكن ، واوقات الفراغ ، ووسائل النقل ، والمفردات نفسها ، تحت ضغط الجريدة والراديو ، أصبحت واحدة ، ومن هذا القالب المشترك يخرج اناس متكيفون فوراً مع الحضارة والانتاج وفكرة الجماهير .

وبعدُ الا يدل على شيء ان ٨٠ ٪ من الاميركيين المسؤولين صرحوا بأنهم اعضاء الطبقة الوسطى ، لأن كل العالمَ يريد ان يكون كذلك ، وأن الايطاليين اختاروا بأن يعطوا لأنفسهم يوماً علماً سياسياً « الانسان العادي » ، القابل التغيير والمغفل ، لا عاملاً ولا فلاحاً ، عضو هذه « الطبقة الثالثة » التي تقضم بسرعة الطبقات الاخرى !

وفي امريكا الشمالية ، كما في اوربه ، بالفعل ، كان جيش العمل الواسع اولاً فلاحاً ، ثم عاملا في فجر القرن العشرين . واليوم يأتي العمال والفلاحون ويزيدون صفوف « الياقات البيضاء » : مستخدمين في التجارة ، والمكاتب ، والادارة ، ويمثلون في الولايات المتحدة ٥٣ ٪ من المأجورين .

وفي فرنسا ، ايضاً مافتىء رقمهم في تكاثر . ويساقون بخاصة من بين الفلاحين الشبان . وفي عشرة أعوام (من ١٩٥٣ الى ١٩٦٣)، زال ٣٨٥٠٠٠ مستغل زراعي فرنسي . وفي ثمانية أعوام فقدت المحافظات النورماندية والبروتانية ومحافظات وسط فرنسا ، محافظة الفار السياحية ، ومحافظة افواه نهر الرون الصناعية ٣٠ ٪ من شعبها الزراعي العامل . هذا وان ٦٠٪ من الفرنسيين يعيشون في المدن ، ويقدر أن يكون هذا الرقم ٨٠٪ في ١٩٨٥ .

الثورة الريفية

وهذا الخلو من السكان في الارياف حادث عالمي ، طبيعي ، قديم ، ولكنه أخذ يتسارع كلما تطلبت الآلات اراضي ممتدة للقيام بعملها بصورة ناجعة. وان تعقيد وسعر هذه الآلات ، وطرق الزراعة وتربية الحيوانات الثورية التي تتجه إلى صياغة النبات أو الحيوان ،واخراجهما عن قوانين الجنس ، وتكييفهما مع الحاجات العالمية ، تضطر المزارع إلى التخلص من القواعد القديمة . وها هوذا الآن صناعي وتاجر ، تلزمه أفكار ومفاهيم واكثر من ذلك محاسبة وعلم الوراثة والاقتصاد السياسي .

وهذا الانسان الذي لايشبه في شيء الفلاح التقليدي ، فلاح روايات جورج صان [١] وفلاح لوحات مييه [٢] ، هذا الانسان الذي يختلف

(١) George Sand
(٢) Millet

عن أبيه ، وجيرانه الاكثر سناً منه أو الذين يعيشون في أقاليم مجزأة أو متخلفة ، أصبح الآن يحيا نفس اسلوب حياة انسان المدينة .

في ١٩٢٦ ، انهى الاديب الفرنسي فرنسوا موریاك [١] على هذا النحو قطعة من الشجاعة الادبية مر فيها ظل الكاتب الفرنسي لابرويير : « الريف مأهول بالعجائز الدرداء من سن الخمسة وعشرين عاماً » .

ولم يكن هذا صحيحا بعد اربعين عاما لان الفلاحين أخذوا يهتمون بأنفسهم بعناية كسائر الفرنسيين . والنفقات الصحية تعتبر من بين النفقات التي زادت بشدة في اوربه منذ آخر الحرب العالمية الثانية . وان ادخال وتوسع الضمان الاجتماعي مسؤولان لحسن الحظ عن هذا الحادث .

وهم يهتمون بأنفسهم ، وبفضل السيارة ، والتلفزيون ، وهذه المجلات التي تري عالم البساتين الباهرة والبيوت المنظمة جيداً ، نجد عندهم أهداف الحياة اليومية التي نراها عند جميع أبناء وطنهم .

العالم على الشاشة الصغيرة

ويجب أن نصر ، مرة اخرى ، على الدور الذي تلعبه في العالم وسائل المواصلات الحديثة . وذلك لأن الانسان لا يعيش فقط بالخبز والحطب ، بل تلزمه العاب . ففي الديموقراطيات الشعبية شوهدت الأعياد السياسية التي كانت أعياد التزام وتضم كثيراً من المشاركين لاسيا وأنها دون منافسة؛ ورويداً رويداً هجرت لصالح لذائذ أخرى . وشوهد أن فرنسا كلها مغرمة بتقلبات « انترفيل »[٣] . وهذه الأعاجيب المقدسة ، التي تدخل في

---

(٣) François Moriac

(٤) La Bruyère

(١) Intervilles

صفاء العائلات والمحادثات وأحياناً الأحلام ، هي ما تسمى غريتا غاربو ، شارل بوايه ، جيمس دين . مايس زيتروون ، كاترين لانجيه ، لالو ، دومايه.

وهذه الحاجة في المشاركة بحياة العالم دون الخروج من المنزل، وكون الانسان ممثـــل ومشاهد عامة فهي تصيب أولاً أفقر الناس مـــالاً ومعرفة . وقد لوحظ على هذا النحو أن الراديو والتلفزيون في الاتحـاد السوفياتي قد فتحا البيوت أكثر من الأجهزة المنزلية ، والملابس الغريبة التي يلبسها الانسان حسب هواه ، والأقراص (التسجيلات) ، وأن أقل البيوت ثروة في فرنسا كانت أول البيوت التي اشترت تلفزيون يحل محل السينما ، والملعب والقصة ، والجريدة اليومية .

في ١٩٦٥ ، وجد ١٦ مليون تلفزيون في الاتحـاد السوفياتي ، ولكن أيضاً ٧٠ مليون في الولايات المتحدة ، ١٤ مليون في انـكلترا ، ١١مليون في المانيا الغربية ، ٦ ملايين في فرنسا . وعلى هذا النحو نجد أن مئات الملايين من الناس يمكنهم في نفس اللحظـة أن يروا ليونوف يخرج من قمرته ويسهر في الفضاء ، وغامودي[1] يكسب سباق الـ ٥٠٠٠ متر في مكسيكو ، وونستون تشرشل يقدم آخر تمثيل له إلى العالم ، ويحضر معجباً دفن قرن كما يحضر دفن انسان .

وبلـغ المسرح والرياضة وحتى السياسة جماهير طارئة غير متوقعة اسيء تحضيرها . ان المؤتمرات الصحفية المتلفزة لا تسمى هكذا الا بالتنازل عن مفردات تخطاها الزمن . وهي في الحقيقة مؤتمرات حقيقية للشعب، هذا الشعب الذي يصعد به ، دون أن يهيأ ، حتى ايشيل[2] الشاعر المأسوي

(١) Gammoudi

(٢) Eschyle

اليوناني ، وحتى جاري[٣] الكاتب الفرنسي ، حتى أكثر أسرار الحياة والطب سرية بإرادة بضعة عشرات محبي الفن والبديع ، ومحبي الظهور، ورجال المواهب الذين يحكمون التلفزيون الذي يشغل قسطاً كبيراً من أوقات فراغنا .

وهاهو ذا التلفزيون الذي صنع ليكون سهل الحمل ، وسيكون بعد قليل كالترانزيستور رفيق المعسكر وسائق السيارة والمتنزه في نزهته .

ومن يريدون الخلاص منه آخذون رويداً رويداً بالتراجع ، ويشعرون شيئاً فشيئاً أنهم غرباء عن عالم مغلق من نظارة التلفزيون ممن تجمعهم لغة واحدة ، ومعبودات واحدة ، وامتثال واحد .

وهكذا تم الزمان الذي بدأ مع ولادة الراديو ولا حاجة بالانسان لمعرفة القراءة والكتابة ليكون رجلاً سياسياً . وإن الراديو والتلفزيون الذين ينشران الثقافة العامة لا ينشران بأقل منها الثقافة العالمية الكونية . ان جميع الموضوعات الآن فقدت قدسيتها ، وان الولادات كتحديد الولادات تشغل موائد عائلية كانت تأتي من قريب على ذكر هذه الأسرار بالمشاركة الحبيبة للورود والقالق والملفوف .

حكم « ١٧ - ٢٤ »

انتصرت المرأة والمراهق .

بالنسبة للمرأة ، لقد مضى زمن طويل وحركة التحرير في وضع حسن، وكان الرق النسوي في الغالب شكلاً للحكم . وتمت ثورة الخمسين سنة الأخيرة ، وأصبحت المرأة سيدة مطلقة تقريباً في الحياة اليومية . وليست فقط سيدة الطعام كما كانت منذ الأزل ، بل اللباس والسكن وتوجيه اوقات الفراغ .

---

(٣) Jarry

واذا تصفحت المجلات الاسبوعية النسويه التي تنقلها وتغنيها وسائل الاعلام الوافرة ، فهم عندئذ ، بالاغراءات التي تكون هدفاً لها ، ان المرأة أصبحت في جميع المرافق تقريباً (في فرنسا يبدو ان السيارة نجت منها بشكل عريض) ، اكبر « مشترية » في العالم الغربي .

انها تشترى بالمال الذي كسبه زوجها ، ولكن ايضاً ، بالمال الذي تكسبه ايضاً ، لأن النساء اذا لم يكن دوماً كثيرات شيئاً فشيئاً للعمل (في فرنسا نسبتهن نفس النسبة التي كانت في ١٩٠٠) فهن يسجلن نقاطاً فيما يمكن ان يبدو فتحاً مزدوجاً مستحيل التحقيق : مساواة الأجور ، والوصول الى جميع الوظائف . ومن الملاحظ أخيراً ، في الولايات المتحدة ، ان النساء ، من ٤٥ الى ٦٤ عاماً ، اللواتي انتقلت نسبة نشاطهن ، في عشرة اعوام ، من ٢٩ الى ٤٢ ٪ ، هن المستفيدات الأساسيات من انشاءات الاستخدام .

ان تطور دور المرأة كان بطيئاً نسبياً .

وبسرعة اكثر بكثير يشق المراهقون طريقهم . ولا شك ان الباكورة موجودة في كل العهود ، وان الجنرال بوسّي - رابوتن ، في سن السادسة عشر عاماً ، كان يقود قطعة جيش في سهول اللورين ، وان باسكال كتب في سن الـ ١٦ عاما « محاولة في المخروطيات » وفي الثامن عشرة اخترع الآلة الحاسبة . ولكن الشبيبة كلها مأخوذة اليوم بافظع الثورات . فلها جرائدها ، نواديها ، اقراصها (٢٣ مليون قرص « تمت » في ١٩٦٢ على يد الشبان الفرنسيين) . ولها آلهتها ، وموضاتها . ولم لا ؟ لقد أصبحت الشبيبة رهنا . أليس عندها المال الضروري والرغبة الضرورية للاستجابة لجميع المغريات ؟

---

(١) Bussy - Rabutin

والتفجر السكاني ، الذي تلا سنوات بعد الحرب في كل مكان (في ١٥ عاماً زاد الشعب الفرنسي أكثر مما زاد في قرن ، وازداد العالم بـ ٥٧ مليون نسمة وفوه في ١٩٦٤) ، لم تكن له نتائج الا على السكن والتعليم .

لقد قلب التجارة وطرح في السوق ملايين المستهلكين ـ ٥ ملايين فرنسي عمرهم بين ١٥ و ٢٠ عاماً ـ أثرت أذواقهم ومتطلباتهم على حياة الراشدين اليومية . فالشبان هم في أصل النجاح الفائق الذي لاقاه الترانزيستور وسيارة الرياضة ، والشراع ، والتزحلق على الثلج (السكي) ، وموسيقى الجاز التي سجلت أو لعبت في صالات كان ملاكوها يرتجفون خوفاً على كراسيهم . لأن هؤلاء الشبان عندهم المال . هذه هي الكلمة الكبرى التي أطلقت . ويقدر على هذا النحو بـ ٥ مليارات فرنك ، في ١٩٦٥ ، المال الذي صرفه فتيان الـ ١٥ — ٢٠ عاماً الفرنسيون ، وأن موازنة أحمر الشفاه للفتيات الأمريكيات ، في ١٩٦٢ ، بلغت ٢٠ مليون دولار ، وموازنة مزيلات الرائحة مليون ٢٥ ، وما يقارب الـ ٢ مليون من « فتيان العشرة أعوام » يملكون سيارة . وإذا كسبوا هذا المال بالعمل على هامش دراساتهم (وهذا اليوم غالب جداً) أو أخـــذوه من أوليائهم ، فهم مستقرون بصلابة ، منذ ١٤ عاماً ، في عالم المستهلكين . فكيف لا يبدلونه بصورة جـــذرية وليس عندهم ذوق ولا سن التوفير ، بل ذوق وسن المغامرة المباشرة ؟

المال في الصعيد الاول

ان أهمية المال في الحياة اليومية لا يرجع تاريخها إلى ١٩٤٥ . ولكن المال لم يعد امتيازاً وقلقاً لطبقة اجتماعية . ولنفكر بالفلاحين الذين يعيشون في اكتفائية كاملة تقريباً ، ولا يقبضون بعض الأوراق النقدية ، إلا بعد

بيـع عجل . وبالعمال ، فأجرتهم الثابتة تحدد الأفق باستمرار ، ولاينجدهم الاعتماد . وبالنساء المحددات لنفقاتهن ، ليس فقط بسبب موارد العائلة ، ولكن بارادة الزوج الطيبة . وبالفتيان الذين ترضيهم مرآة بخمسة فلوس أو لعبة ثمنها فرنك واحد . . .

إن مئات ملايين الناس ، الذين يستجيبون لجميع اغراءات الأعلام والجامات المنظمة بصررة علميـة ، دخلوا اليوم في دورة المال سيداً أكثر منه خادماً .

ومن الخطأ ، عندمـا ترى الجماهير تقف يوم العيد ، الأحد مثلاً ، لا أمام الـكاتدرائيات بل أمام مائدة الشراب حيث تسلم قسائم الرهان على الثلاثة خيول الأولى في السباق ، ومن الخطأ أن يوجـد ، في كثير من المليارات المتروكة للصدفة ، الدليل على أن الفرنسيين عندهم مال كثير . بل ، بالعكس ، الدليل على أنهم لا يملكون منه مايكفي لارضاء العطش إلى حياة أفضل الذي استولى عليهم دون تمييز طبقة من أخرى .

محاولة تعريف السعادة

عندما كتب سان ـ جوستْ : « السعادة فكرة جديدة في اوربة» ، كان الفلاحون والعمال الفرنسيون يحيون حقـاً حياة بسيطة ، ولكن الفلسفة تدخل في عبارة سان ـ جوست أكثر من تذوق التقدم المادي المباشر.

السعادة ؟ أي سعادة ؟ ان تعريفها يختلف حسب العهود ، والأديان، والطبقات الاجتماعية . وعلى أي حال ، يدل على ذلك باختصار بالصورة التي أعطاها صحفي باريسي في ١٩٦٥ آخذاً بعين الاعتبار دعوى قتل : « في العام الأربعين ، كان لدى ماري ـ لويز كل ما يمكن أن تشتهيه مرأة : منزل جميل ، بنت ساحرة ، شعرها ذهبي ، وزوج مجامل ، ضابط طيران

لامع يبشر بمستقبل جميل جداً ، زوج أراد دوماً سعادة ذويه ، قدم إلى زوجته سيارة رياضة وأغدق اللعب على ابنته » .

المنزل ، والسيارة ، والتسلية ، الالـهات الثلاث التي توجه الحياة اليومية لكثير من الغربيين ، تذكر على هذا النحو حتى في قصة جريمة حب ، كما لو كانت قادرة على اشباع جميع الرغبات ، وطرد جميع الأهواء وجعل جميع العواطف فضولاً .

المنزل ، السيارة ، التسلية ، هذه الكلمات مفتاح حياتنا اليومية تعطي مع ذلك فكرة ناقصة عن التطور المادي للناس .

ان عالم الأغنياء الميسورين ، أو ، على الأقل ، عالم الذين ينمون في طريق جميع التحسينات التقنية ، يقابله ويعارضه ، في الواقع ، عالم المتخلفين ، والسيئي التغذية والسيئي السكن والمتعلمين قليلاً .

وتبقى التقديرات ناقصة جداً ، ولكن ما يشبه الحقيقة أن أكثر من ثلثي الناس تابعون لهذا العالم البائس . وعددهم يزداد ، كل سنة ، وبسرعة جداً ، وجمهور السيئي التغذية يعظم ، بينما يتناقص على الأقل في النسبة المئوية — جمهور الممتازين . وقد اجتمع في بلغراد ، في ايلول ١٩٦٥ ، بمناسبة المؤتمر الثاني العالمي للسكان ، ألف خبير من جميع البلاد وتنبؤوا بأن سكان الأرض لا يبلغون ما يقارب ٧ مليارات انسان في العام ٢٠٠٠ فحسب ، بل أيضاً ان المجاعات الهامة ستنفجر من هنا إلى ١٩٧٥ في مناطق مختلفة من الكرة .

ذلك أن تقدم الطب لايحمل ثماره فقط في العالم الغربي ، لأن مفعوله كان جذرياً أيضاً عندما طبق في البلاد الجديدة . وترى الصين ، الهند ، اندونيسيا ، البرازيل ، مصر ، الجزائر ، على هذا النحو ، كل سنة ،

أن عدد الأفواه التي يجب اطعامها يزداد بنسب تفوق بكثير نمو الانتاج .

ولنأخذ مثل مصر . فمن ١٩١٣ إلى ١٩٥٧ ، ازداد الدخل القومي بـ ٦٥٪ . وفي الوقت نفسه ازداد الشعب ٨٢٪ . وهذا التفاوت في النسبة سيؤدي بصورة طبيعية إلى انخفاض هام في الدخل الوسطي للفرد .

تحت قشرة الحضارة

لقد ظل التفاوت بين الطبقات الاجتماعية واسعاً في جميع البلاد المسماة « بلاد في طريق التنمية » .

لنحك قشرة الحضارة ، يظهر العصر الوسيط من جديد . ففي هذه البلاد شقت طرق فسيحة وشوارع عريضة ، وشيدت أبنية ضخمة جديدة مماثلة لما في اوروبة وامريكا ، وتحررت المرأة ، ودرست في الجامعات، وفتحت سينمات ، ووضعت برامج للراديو والتلفزيون تعمل ليل نهار . وفي الأرياف وزع الاصلاح الزراعي الأراضي على الفلاحين ، ولكن معظم القرى مازالت في حـــالة متأخرة ينقصها الماء والكهرباء ، ولا يتوصل إليها إلا بصعوبة وبواسطة طرق غبراء في الصيف ، موحلة في الشتـــاء ، وتؤلف عقبة للمواصلات أكثر منها رابطة بين القرى والمدن .

وفي هذه القرى يعيش السكان في أكواخ من الطين والتبن معرضين لكثير من الأمراض المستوطنة . والفقر فيها ضارب أطنابه ويفسر جميع الآلام الأخرى . والوفيات كثيرة ، ومع ذلك فالسكان في تزايد . وبالرغم من الجهود التي تبذلها الحكومات في رفع مستوى حياة هؤلاء السكان ، يبدو أن عليها الكثير والكثير للوصول بهم إلى العيش الكريم ، لان التخلف ما زال مقيماً وتحتاج ازالته إلى زمن طويل .

الحياة اليومية لفلاح هندي

الارقام تدهش وتحير .

ومع ذلك ، فمن الصحيح أن الدخل السنوي لبعض الفلاحين المصريين لايتجاوز ٣٥ فرنكا ، وكثير من العمال الفلاحين في مصر السفلى آباء ستة أو سبعة أطفال يكسبون مايعادل فرنكين فرنسيين في اليوم .

وفي هذه الظروف ماهي الاجوبة التي يجب توجيهها إلى جميع العروض ، إلى جميع مغريات الحضارة والآلية ؟

بالنسبة للملايين من الناس الكمات والاشياء الجديدة ليست الا آلهة من سماء لا يمكن الوصول إليها ، من سماء خاصة بالبيض ، بالمستعمرين وبالاغنياء .

الحياة اليومية إذن تقضى في أعمال صغيرة ، تأملات صغيرة ، ثرثرة طويلة ، واغفاءات مديدة .

والطائرات النفاثة الحديثة تشق سماء الهند . وتحت عشرة الاف متر ، وعلى ارض تضاعف سكانها في ستين عاماً ، يعيش الهندي « المتوسط » بما يقابل ١٫١٠ فرنك في اليوم . ويوجد فقراء افقر من هؤلاء الفقراء . وهؤلاء (٥٠ مليون تقريباً) لا يتصرفون الا بـ ٠٫٢٥ فرنك في اليوم : وهو ثمن ربع ليتر من الحليب .

إن ثلاثة هنود على اربعة فلاحون ، وريفيين هنديين على أربعة لا يملكان ارضاً ، ويؤجرون بالملايين إلى كبار الملاكين ، ويعيشون بمنازعة القردة والفئران والأبقار المقدسة على طعامها .

وهنا ، ورغم نجاحات الخطط الخمسية التي لانزاع فيها - يتحمل الريفي دوماً ما اسماه المؤرخ تيبور ماند [1] « وزن مالاوزن لها » :

---

(١) Tibor Mende

أي الأمية ، عدم معرفة القراءة والكتابة ، والتقاليد التي تدوم حتى النصف الثاني من القرن العشرين ، وحركات وافكار من قرن آخر ، وديانة ضيقة ، أخيراً ، تقطع قسماً من السكان عن الحياة اليومية العادية .

ويسكن الفلاح الهندي داراً صغيرة من الطين والتبن ويتقاسمها مع حيواناته . وفي المستنقع الذي يستقي منه الماء يغتسل الناس وترتوي الحيوانات. ولايوجد أو يوجد القليل من الماء من أحل الحقول ، ولا توجد دمن أيضاً لأن خثي البقر الملتصق بشكل كتل على طول الاشجار والجدران يفيد بصورة أساسية كمحروقات . وكما في مصر وفي كل العـــالم الثالث ، تساعد الادوات القديمة العتيقة في الغالب على إطالة الاعمال التي لو سلمت للآلة لانجزت بسرعة ويكون ختامها اضافة أيام عطلة إلى أيام عطلة عديدة من قبل .

وفي المدن الكبرى تكون الظروف الانسانية درامية اكثر مما في غيرها . فالزحام ، والجوار ، والفقدان الكلي لابسط أنواع الرفاه تأخذ ، عند فقدان الزينة الريفية لحيويتها ، طابعاً من الحزن لا يمكن تفسيره .

ومن لم ير كالكوتا ، ومن لم يسمع سعال كالكوتا ، عندما يقبل الليل ، سعال يهز مليوناً ونصف المليون من البشر ، على اسرة من ورق الجرائد ، ومن لم يعش في كالكوتا ولم يسمع شكوى الشحاذين التي لا تنتهي ، لا يمكن أن يزعم بأنه يعرف جهنم المدن الكبرى .

إن مايمكن أن تعتز به الحضارة الحديثة وهو : السكن ، التسلية ، الطعام الصافي ، لا يوجد الا لبعض عشرات الالوف من الممتازين المقيمين في احياء « اوربية » حيث يستطيع السائح أن يعيش جيداً في هواء مكيف . والشحاذون انفسهم فئة تابعة للفولكلور أي للتقاليد الشعبية .

لنأخذ إذن المراكز الاساسية للموازنة الغربيــة ولنطبقها على الهندي ، على فئات الملايين من الهنود .

المسكن ؟ الشارع غالباً ، حيث يحب ، ويولد ، ويعيش ، ويموت. وهو هكذا بالنسبة للبائسين الذين يؤلفون جوقة . والآخرون ، بعدد كبير يسكنون أكواخاً أعلى من القن بقليل ، مصنوعة من صفيح متموج وبقايا صناديق ، وتفرش بورق الجريدة . وبين هذه الاكواخ تركد عرصات قذرة تخرج منها روائح عفنة يدوي فيها الذباب والبعوض . وعلى بعد قليل ، تعيش عائلات بكامهـا أربعة أو خمسة أشخاص مع فرنها وادوات منزلها في حجرات تكاد تتسع لثلاثة أشخاص . وابعد من ذلك بقليل ، في هذه الاحياء الصناعية المأهولة بالرجال اكثر من النساء ، يتناوب العمال ويتوالون بورديات من ثلاثين أو من اربعين في مهاجـــع واسعة عارية ناتسة تذكر بمهاجع الشحادين في بدايات اوربه الرأسمالية ، حيث كان الحبل يتحمل نعاس البائسين .

الطعام ؟ في الاكثرية الواسعة للعائلات العمالية تخصص ثلاثة ارباع المكاسب لشراء الطعام وثلثه من الرز ، الذي هو أساس التغذية ، وفي العائلات البورجوازية الصغيرة كادت الحال أن تتحسن .

ومعظم الناس يعانون مشقة في اطعام اطفالهم ، والغياب بسبب سوء التغذية يفتك فتكاً ذريعاً بالمستخدمين وصغار الموظفين . ويبدو لهذه الملايين من الناس ، التي لا يسمح لها عملها بالحياة ، أن المرابي هو المساعد الوحيد الممكن ، ولكنه مساعد مخرب ايضاً .

وإذا اخذنا بالتحقيق الرسمي الذي أجري في ١٩٤٦ ، والنسب فيه لم تتغير منذ ذلك التاريخ ، نجد ان ٥٣ ٪ من عمال معمل بومبي و٩٥ ٪ من عـــائلات مادراس مدنيين ، وهـذا يعني فقراً دائماً لاناس فقراء من قبل ويشتغلون دوماً بأمل التحرر من ديونهم والفوائد الباهظة الآخذة بالازدياد كل سنة .

التسلية ؟ بأي تسلية يمكن أن يشارك الفلاح أو العامل الهندي الذي يكسب ثلاث أو اربع روبيات في اليوم ، ماعدا ، احياناً جلسة سينما تصبح تاريخاً في ذاكرته أو ، بالاحرى ، هذه المشاهد التي لا عد لها في في الشارع من البهلوانيين وسحرة الافاعي ، وأكلة النار الذين يجذبون الجماهير الغفيرة الى هذه الاعياد الدينية الملونة التي تعتبر بالنسبة للفقراء كالخبز اليومي ؟

وقليل وسائل النقل الشخصية بالبداهة تستعمل القطارات والباصات البطيئة وغير المريحة والمثقلة . ولا يوجد « مخازن » على الصورة الغربية الا في بعض احياء المدن الكبرى ، بل اسواق تتجاور فيها الاقمشة والاغذية والبضاعة ، ويوجد قليل او لايوجد مطالعات . ولكن الجماهير التي لا تعرف القراءة والكتابة ، ظلت طويلاً حساسة بالشعر المسرحي والاغراض الدينية والشعبية . وهنا كما في مكان آخر ، في العالم الثالث ، يقوم الراديو بديلا . فيكفي مضخم للصوت يقام في ساحة قرية ليفيد الجميع من الموسيقى والخطب ...

وفي الحقيقة ، بهذا المضخم للصوت المقام في ساحة القرية ، وبشاشة التلفزيون هذه ، كعين مفتوحة على العالم ، تتولد الغيرة الكبرى ، والاطماع العظيمة والمنازعات الكبرى ، والتحويلات الكبرى في السنوات الآتية .

الفصل السابع

عصر العلم

كانت الحركة العلمية معتبرة حتى بداية هذا القرن حركة أفكار ؛ وكانت تفسر تارة كنتيجة منطقية لتقدم الفكر البشري ، وتارة كتعبير عن حضارة أو عصر . وتظهر جهازاً عقلياً ، ورؤية ، ومحاولة لفهم العالم اكثر من ارادة تغييره . والثورة الصناعية نفسها لم تأخذ تقنيتها الا بصورة غير تامة عن أعمال العلماء : لان اختراع صاحب الحرفة ، والمهندس كان اكثر اعتباراً . ولكن العلاقات تبدلت بشكل ملحوظ في هذا النصف الثاني من القرن العشرين : لان التقدم العلمي لم يظهر كدعامة للنمو الاقتصادي واساس للتسلسلات الحقيقية بين المجتمعات ، وضمان لقوة الدولة واستقلالها فحسب ، بل ظهر يصوغ الحضارة بكاملها حتى في انغامها اليومية . وليس العلم معرفة فقط ، بل انه يجعل من نفسه تنظيماً ، وصناعة . وهو يفقد بنفسه ، في هذا التحويل ، قسماً من صفاته السابقة : لان حب اطلاع العالم يتنازل امام سياسة العلم ومتطلبات التقنية . والتعقيل هو في آن واحد مبدأ المجتمعات وهدفها ، ولكنه لا يوجه ، بدوره ، عمل الامناء على العلم أي « العلماء » بل « الباحثين » .

وهذا التحول المزدوج في العلاقات بين العلم والمجتمع ، والقسم الذي تأخذه ، في كل مرة ، وساطة التقنية ، يميزان العالم المعاصر مباشرة ، وربما أكثر من الصورة المبتذلة لـ « التسارع » . لأن التغيير سرعات ومظاهر متنوعة.

والقطيعة في التيارات الفكرية ، القطيعة العلميـــة في لغة الفلاسفة ، تقع ولاشك في آخر القرن التاسع عشر : ودون ان تتم فتحت ، في ذلك الحين ، قضية واسعة وهي انها طرحت على بساط البحث من جديد قضية القيم ، وتصور العالم ، والحياة ورجالاً يحملون اسم : اينشتاين ، بلانك ، فرويد ، دوركهايم ، ماندل ، دو فوبيس ، بافلوف .

وانطلاقاً من هذه الثورة الفكرية ، أصبحت الحركة مغفـــلة . وخلف عصر النقباء الكبـــار عصر الفرق ، والبرامج ، والالتزام على جبهات متعددة ، والتخصص ، والابتعاد عن المناقشات الكبرى فيما وراء الطبيعة . والاضاءة اذن متجهة بشكل أقل نحو النظرية نفسهـــا والبحث الأساسي مما هي متجهة نحو هذه النتائج الجزئية التي توضح سلطة البشر . ان التجديد التقني المتأتي في الغالب ، بعد نضج طويل كثيراً او قليلاً ، عن تلاقي عدة اكتشافات علمية والمثير بدوره امكانيات جديدة للبحث ، هو مفتاح هذا الزمن : لقد كان جيل ١٩٠٠ يعرف في العالم الضيق لـ « الفكر » بالنسبية ، والكوانتا ، والتحليل النفسي أو قوانين الوراثة ؛ أما جيل السنوات ١٩٥٠ — ١٩٦٠ فعلى سلم عمل واستعلام واسعين ، بالطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وتطعيمات العضو او مراقبة نمو الخلية .

وغزو الفضاء نفسه ، انما هو جمع عجيب من التقنيات التي تفتح نجاحها في مغامرة القرن . وإذا سجل التجديد حساسية العصر ، فذلك ليس الا علامة : لاما يبقى في مستوى الاقتصادات والمجتمعات هو ان نعرّف الدرجات وميادين التطبيق ، واستعداد هذه وتلك للتمثل والقيادة أو تحمل ما يأتي به البحث .

لأن المجتمعات الصناعية لم تصبح فقط علمية بما تمتصه كتجديدات . انها

تريد ان تكون علميـــة ، في الدرجة الثانية ، بالشكل الذى تسير به نفسها وتوجه سلوكها بنفسها . ودون الذهاب حتى اسطورة سلطة العلميين ، تريد أن تبسط ميدان قراراتها العقلانية . ان **التفكير بالعام ١٩٨٥** ، الذي يعـــده فريق فرنسي من المخططين ، يعبر عن هـــذه الاردة : « ربما ترجع بعض التطورات العميقة في المستقبل إلى نمو هام جداً في العلوم الانسانية [...] . ومن الممكن ان تنجم عنها معرفة افضل لسلوك الأفراد والجماعات حيال البيئة التي تحيط بهم ، وبالتالي ، وسائل تحسين هذا السلوك . وهكذا يمكن الايقال بأن التقنيـة ، بالمعنى الاتباعي للمصطلح ، في تقدم دائم عن الباقي أو ، وهذا يعني العودة إلى نفس الشيء ، انه لا توجد قضايا تقنية ، ولا يوجد إلا قضايا انسانية » .

ومع ذلك فان العلوم الانسانية تشغل موقعاً غير مريـح : فقـــد أمىء تخليصها من الفصاحة والبلاغة ، ولم تتوصل دون صعوبات الى توسيع التجربة الاكلينكية ومزجها بدرجة الشكلية ؛ وهي في آن واحد موضع دراسة ووسيلة تنظيم وانعكاس : باعتبارها مأخوذة بين الاهتمامات المتعارضة لاستعمالها لتنظيم بسيط للمجتمعات الموجودة الحاضرة أو لجعلها أدوات نقد اجتماعي معمم ؛ وان الايدلوجيا ، الضمنية او الصريحة تدمغها بعمق . واليها ترجع ، في القسم الاعظم ، المناقشات الفلسفية التي اقامها القرن التاسع عشر حول علوم الطبيعة او التاريخ .

والعلوم الانسانية لاتعمل الا في زيادة صعوبات الحكم التاريخي على الحركة العلمية وحتى التكنولوجية : لأن الميـــدان العقلاني ، وبعض العمومية يتسعان ، ولاشك ؛ ولكن الحركة لاتنجو من طابع المجتمعات ، واكثر ذلك ان تمتص كاملًا فيهـــا . وان مايسمى فرقاً في اللون بين المجتمعات المصنعة التي ينتسب اليهـا الاتحاد السوفياتي ، يصبح تبايناً على السلم العالمي اذا اخذت بعين الاعتبار تفاوتات التنمية والتراثات الثقافية .

تعصير العلم

لقد خرج العلم من العـــالم الخاص للجامعات والمجامع العلمية (الاكاديميات) ؛ ومن المغامرة الفكرية ، الفردية ، وتحول إلى جهد جماعي للتغيير . والحركة مزدوجة في هذا المعنى ، لأنها ترتبط بصورة وثيقة البحث العلمي والتكنولوجي ، وتدمج كليهما في الأشكال المسيطرة للتنظيم الاجتماعي وهي المشاريـع أو الدول . وهذان الشرطان ليسا إلا تعبيراً لنزعة واحدة تشير إلى تطور المجتمعات الصناعية . والمكان الجديد الذي يحتله العلم يؤدي اذن بالضرورة إلى تعريف سياسة علمية ، وخلق نظام لتسيير البحث وتنشيطه . وهذا التنظيم ، المبني على التجارب الخاصة لكل مجتمـع ، والمنشأ بصورة عملية أي على التجربة والملاحظة كثيراً أو قليلاً ، انما هو صفة من الصفات المميزة للنصف الثاني من القرن العشرين . ومـع ذلك ، فان العلاقة بين النمو الاقتصادي والبحث العلمي ، أقل مباشرة ، واقل وثاقاً من يظن احياناً . فبين البحث الأساسي ، البحث التطبيقي و « التنمية » - أي إظهار ونشر المنتجات والخبرات الجديدة - ، توجد مسافات . وان إقامة محاسبة مشتركة ، او بالأحرى وضع موازنة شاملة ، لا يوضح المراحل ولا الميكانيكيات الواقعية للتقدم ؛ وكثيراً مانخلط بين اهدافها . ولكن التقدم العلمي والتكنولوجي في ذاته دليل تسلسل بين الأمم المصنعة ، وربما يلزم المستقبل اكثر من حركة نمو الخبرات الجاهزة . ان جغرافيا البحث ، مهما كان لبس التعبير ، لاغنى عنها لفهم عالم اليوم ، وربما اكثر من فهم الانتاج .

البحث العلمي والتقني في المجتمع

قد يجادل بسهولة في ان مشاركة العلم في التقدم الصناعي حادث حديث العهد . فتاريخ الصناعة الكيميائية ، مثـلاً ، اذا اخذنا حالة فرنسا ، المانيا ، واحدث من ذلك ، الولايات المتحدة ، بالعكس مصنوع من هذا التعـاون . وقبيل الحرب الأخيرة ، كانت شركة دوبون دو نومور [١] مثـل الـ اي . ج . فاربن [٢] تتصرف بمخابر واسعة . وفي الولايات المتحدة ، وسعت شركتا بل وجنرال الكتريك البحث المنظم الى فروع أخرى . ومع ذلك ، فلم يكن القصد بعد الا سياسات خاصة ، على سلم مشاريع استثنائية ، وعلى صعيد محدود للانتاج . ويبدو ان مجموع الاقتصاد لايقيم الا علاقات ضعيفة مع البحث .

وعندما تدخلت الدولة اعطي بعد جديد . وإذا برر التجنيد العلمي عموماً بظروف استثنائية ، وبخاصة متطلبات الحرب ، فلا يمكن ان تكون له الا اغراض محدودة . ولكن قيمته النظامية كمؤسسة بقيت واستحكمت . وهكذا كانت دائرة البحث العلمي والصناعي ، في بريطانيا العظمى ، ارثاً من الحرب العـالميـة الاولى . ووسعت الحرب العالمية الثانية ميدان الكفاءات والتطبيقات . ودخل البحث العلمي في التنظيم الشامل للستراتيجية . وفاقت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى المانيا ، ان لم يكن بالاختراع ، فعلى الأقل بكثرة الباحثين والوسائل . وكان ذلك نصراً للعدد ولكنه ايضاً نصر التعبئة اللوجستية الممتدة الى الصعيد

---

(١) Du pont de Nemours

(٢) L' I . G . Farben

(٣) Bell et General electric

العلمي . هذا فضلاً عن أن التجربة كانت حاسمة عندما كانت منافسة الكتلتين ، فيما بعد ١٩٤٥ ، تغذي سباق التسلحات الجديدة وتتجاوز الابحاث التي يطالب بها الدفاع هذا الافق حتى بدت تختلط مع اكثر التقنيات تقدماً : الطاقة النووية ، الملاحة الجوية ثم الفضائية ، والمواصلات السلكية واللاسلكية . وهكذا غطت ظروف القوة العسكرية والقوة الصناعية بعضها من جديد ، ولكن في خطة مغايرة لخطة ماقبل الحرب . فقد حلت قدرة الانتاج في الصناعة الثقيلة ، فولاذ ومحروقات ، محل تسلسل الاكتشافات والتطبيقات من أصل علمي . وبالعكس ، بانتقال طبيعي تماماً ، أصبح الانجاز العلمي حجة ودليلاً سياسيين . وبصورة غير مباشرة لهذه المنافسة ، نجد ان انشاء وتمويل هيئات البحث القوية التي تنجو من قواعد القابلية الاقتصادية لانتاج الربح تدخل في النظام المشترك . والى الاهتمام البسيط بالدفاع أو التسلح يضاف الاهتمام، النشيط بخاصة في اوروبة الغربية ،بصيانة أسس بعض الاستقلال الذاتي في مادة الطاقة اوالمواصلات . وان التوكيد القومي في الصين وحتى في الهند يأخذ طرق سياسة علمية .

والتنظيم الحالي للبحث يلاحظ بقوة في هذه الارادات السياسية أو الستراتيجية . وإذا استثنينا بعض قطاعات « لا تأتي بدخل » ، ولاسيما في الصعيد الطبي، أمكن أن يفهم بوضوح كثير تدخل الدولة . فبين الديموقراطيات الغربية ،تخصص الولايات المتحدة وفرنسا أكبر قسط من اعتمادات البحث للدفاع وللفضاء ، نحو ٦٠ و ٤٥٪ . وتأتي بريطانيا العظمى بعدهما بـ ٤٠٪ . وفي هذه البلاد الثلاثة تحملت الدولة في سنوات ١٩٦٠ الأساسي من التمويل ، بين ٦٠ و ٧٠٪ من النفقات الكلية المخصصة للعلم والتقنية وبالعكس ، سقطت النسبتان في المانيا وفي اليابان اللذين يتصرفان بكامل الحرية في مادة الدفاع ، أو في بلجيكا وفي البلاد المنخفضة اللذين ليس لهما بعد كاف

الانخراط في هذه السياسات . والارتباط المتبادل ليس كاملاً : فهو يفسح مجالاً لشروط أخرى تنظم دور الدولة الحاسم كثيراً أو قليلاً . ولكن هذه الرابطة الأولى بين النفقات العامة والاهتمامات الستراتيجية ، المباشرة أو غير المباشرة ، لا يمكن أن تهمل . فهي تتفاقم في الولايات المتحدة ، حيث يصرف لها أكثر من ٨٠٪ من الموازنة الاتحادية المخصصة للبحث : ان دائرة الدفاع تمتص وحدها ٥٥٪ من المجموع ؛ وانجاز برنامج الفضاء ، الذي سحب من جيش الجو في ١٩٥٨ وعهد به إلى الملاحات القوميـــة وادارة الفضاء[1] ، ٢٣٪ ؛ ولجنة الطاقة الذرية ، التي تشتغل بـ ٥٠٪ للدفاع ، ١١٪ . وأصعب من ذلك تقدير توزيـع الاعتمادات في الاتحاد السوفياتي بين القطاع العسكري والفضاء والذرة والقطاعات المدنية .

ولا يمكننا إلا أن نتساءل عن العلاقات بين هـــذه النفقات والنمو الاقتصادي . فالعلاقة الأولى واضحـــة . وهكذا انشئت سوق واسعة لطلبات الدولة . والغايات الأخرى ، استقرت الاقتصادات الرأسمالية على هذا النحو في نظام الرقابة والحث الذي بدأ برسمه النضال ضد الأزمة في سنوات ١٩٣٠ . والتحويل واضح في الولايات المتحدة ، التي تصحح بجد الصورة الكلاسيكية لـ « المشروع الحر » . وقـــد وجدت مصالح الملاحة الجوية في الدولة أفضل زبون يمتص ٦٥٪ من مبيعات طائرات البوينـغ[1] ٨١٪ من مبيعات لوكهيد[2] ، كل انتاج الطيران الجمهوري[3] . وتؤلف هذه الطلبات ، فوق ذلك ، تأميناً حقيقياً ضد العمليات المخاطر بها : وفقد

(١) National Aeronautics and Space Administration (N . A . S . A .)

(٢) Boeing

(٣) Lockheed

(٤) Republic Aviation

استطاعت الجنرال ديناميك[1] أن تعيش بعد المغامرة المشؤومة المدمرة لطائرات النقل النفاثة عندها ، وستاديبكر كوربوريشن[2] ، بعد ضياع صناعة السيارات بفضل ضخامة (وفي حالة ستاديبكر ، تضخيم) طلباتها العسكرية) . وهذه البرامج للبحث ، ولفائدة ستراتيجية أو للجاه هي عوامل استقرار أو حتى عوامل تعجيل للنشاط الاقتصادي . ولكن ، في خارج تأثيراتها المباشرة على بعض المجهزين ، هل تعمل على مستوى الاقتصاد الشامل ، كأي نفقة عامة ، أو أنها بمحتواها العلمي بخاصة ، عوامل تقدم ؟

الأجوبة تختلف . ولاشك في أنه يوجد ما هو أكثر من فروق بسيطة حسب البرامج وحسب البلاد . ولكن المنظور تغير في عقد واحد : ففي ١٩٦٠ ، أخذت بعين الاعتبار « النكسات » التكنولوجية التي يفيد منها بصورة طبيعية القطاع الخاص والنمو الاقتصادي عموماً . وحسبت انعكاسات برنامج الفضاء على الميكانيك والالكترونيك والتعدين : ففي الولايات المتحدة اعتماداً على بعض النجاحات ، في تصغير أبعاد الأجهزة ودقتها وضبطها ، والتقدم في مقاومة المواد ، والافادة من استعمال المحروقات الجديدة ، تم التوصل حتى قياس مردود البحث الفضائي : فالدولار الواحد الموظف قد يؤدي ، في نهاية خمسة إلى سبعة أعوام ، إلى زيادة أكثر من ٢٠ دولار في الانتاج القومي . ولا يسلف على هذا النمو تقدير مخاطر فحسب ، بل ان التفاؤل قد تنازل وتخلى ؛ وإن نقل التجديدات نحو قطاعات الاستعمال الجاري لا يبدو سريعاً أيضاً : إن جزءاً نسبياً قليلاً من الجهد الكلي للبحث والصنع المخصص بصورة كثيفة للدفاع يحمل على خلق منتجات جديدة للاستهلاك ، وعلى تحسين الآلات لتستطيع صنع منتجات أو على تحسين

---

(١) General Dynamics

(٢) Studebaker Corporation

بناء الآلات » ، هذا ما صرح به في عام ١٩٦٥ أمين سر التجارة في الولايات المتحدة ، بعد أن بدد أوهامه . ومع ذلك فان تجربة الطاقة النووية تؤلف سابقة . فبين ١٩٤٥ و ١٩٥٠ ، بدا العالم يدخل ،وليس فقط في خطة التسلح ، في العصر الذري ؛ ولزم انتظار ما يقارب عشرين عاماً ليصبح انشاء المراكز النووية في الولايات المتحدة واستعمال الكيلواتات الذرية « اقتصاديين » . كما أن القيمة العليا للمواد أو احتمال سير وعمل الاجهزة التي يتطلبها البحث النووي أو الفضائي ليس لهما استعمال مباشر في صناعات مبتذلة . ففي ١٩٦٤ ، لوحظ في فرنسا : « في الآونة الحاضرة لا يكشف في الصناعة اتجاه لصالح استخدام التقنيات الجديدة المستخدمة في القطاع النووي . ويبدو ، بالعكس ، أن الميل متجه شطر الحذر منها : أن التقنيات النووية تعتبر بصورة خاصــــة مكلفة وباهظة جداً والزبائن المألوفين يخشون من أن تستمر المشاريع المعتادة على العمل في القطـاع الذري في البرهنة على اهتمامها بالتحسين التكنولوجي الذي لا يكون دوماً غير مستغنى عنه وقد يخاطر بالضغط بصـــورة ثقيلة على أسعار الكلفة » . وفي بلد متقدم تقنياً ، مثل الولايات المتحدة ، عبر عن نفس الملاحظات . وبأشكال مختلفة في الاتحـــاد السوفياتي أيضاً ، أبدى المسؤولون عن المشاريع قلقهم في الغالب أمام تجديد « الافراط في التحسين » .

وهكذا يجب الحذر من مفهوم ميكانيكي بصورة محضة للتقدم وعدم نسيان المظاهر النوعية للبحوث المتقدمــة المرتبطة بالذرة أو الفضاء . لأن النتائج لا يمكن الحكم عليها لأجل قصير وأقل من ذلك أيضاً التقدير الكمي للظروف . ولكن ، فيما وراء ذلك ، تبقى التجربة التقنية والرأسمال الفكري والمادي . وفي الغالب بمناسبة هذه البرامج العسكرية أو الوجاهة أنشئت نماذج المجتمع العلمي الجديد ، نماذج الانتاج أو التنظيم . وحققت أول حاسبة الكترونية ،

ماوك ۱ الحسابات الضرورية لانشاء القنبلة الذرية . ونشأت طريقة التحليل العلمي المتجه نحو أفضل النتائج من الاهتمام التقني والستراتيجي للطيران الاميركي بعد ١٩٤٥ ، ومن معهد راند كوربوريشن[1] المكلف بأن يجد لها الجواب . وهكذا وضح تحليل المجموعات وضبط في الولايات المتحدة . وبعد انخفاض سنوات الـ ١٩٥٠ ، جاء البرنامج الفضائي ، وبخاصة برنامج آبوللو ، الذي جند أكثر من ٣٠٠٠٠٠ شخص ، وكان أوسع تعليم وتدريب : إن إعداد الرجال والاجهزة ، ونشاط المعاهد والمخابر التي أسهمت في المشروع لايمكن أن تلحظ بعمق الابه . وفي الحقيقة كان يراد جهود كثيفة تمتص وسائط كان من الممكن أن توظف مباشرة في القطاع الاقتصادي والاجتماعي . ولكن ليس من شأن المؤرخ أن يناقش في صور أو أشياء محتملة ، وفي عمليات قد تربح ولاشك في نفع مباشر وربما فقدت قيمتها في المستقبل إذا كانت مبعثرة ومجزأة . ولا تكون القضية الأساسية عندئذ قضية الهدف النهائي بل قضية قدرة المجتمع كافة على إدخال الماتي التكنولوجي والفكر الجديد . إنها قضية أمريكية ، ولكنها أيضاً ، في شروط مختلفة تتعلق بنظام المجتمع ومستوى التنمية ، قضية سوفياتية .

وهكذا فإن مشاركة المشاريع في المجهود العلمي والتقني لها معنى أكثر من تحقيق هذا البرامج أو ذاك . وهذه المشاركة تأخذ أيضاً أشكالاً مختلفة . فهي أولاً البحث الصناعي ، بالمعنى الدقيق الكلمة ، الذي تموله وتوجهه الأعمال (المصالح) نفسها . ففي الولايات المتحدة ، تضاعفت نفقات البحث الخاصة بالدولة بأربعة أمثالها من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٤ ، وفي هذه الفترة ، تضاعفت نفقات المشاريع بثلاثة أمثالها . وفي ألمانيا ، تمول الشركات الصناعية البحث المدني في الصناعة بكليته تقريباً ؛ وفي المملكة المتحدة ،

---

(١) Rand Corporation

بالرغم من إنشاء وزارة التكنولوجيا ، يقارب هذا النصيب ٩٠٪ . وفي اليابان نجد الاتجاه من نفس النوع . إذن يوجد في مستوى الأعمال ، المصالح ، اهتمام واضح في خلق منتجات جديدة أو طرق صنع جديدة . ولقد كرر منذ عشر سنوات ، ان المنافسة بالتجديد تقوم ، على الأقل في الصناعات المتقدمة مقام المنافسة التجارية القديمة . والصناعة الكيميائية ، وهي الصناعة الممولة بصورة ضعيفة جداً في الاعتمادات العامة للبحث ، تعطي أفضل مثال على ذلك : فهي لا تمثل في البلاد الكبرى أقل من ١٥ إلى ٢٥٪ من مجهود البحث الصناعي ، ٢٧٪ في اليابان ، ٣٥٪ في ألمانيا . ومع ذلك ، لايمكن أن نعارض بصورة منظمة عدداً من البرامج الخاصة ، التي تؤدي إلى تنمية الفروع الصناعية ، وإلى البرامج العامة . وفي الغالب يظهر التداخل بين الدولة والصناعة عنصراً حاسماً للتقدم إن السياسة العلمية لاتعرف فقط بأصل الأموال التي ترصد لها ، ولكن بالهيئات التي عهد اليها بهذه الأموال ، وبنظام الطلبات أو العقود والاشغال . وهكذا فإن الملاحة الجوية ، حتى في مشاريعها المدنية ، تمول بصورة أساسية بالاعتمادات العامة ، وعلى السلم العالمي ، تشرك الصناعات الكهربائية والميكانيكية وبخاصة الالكترونيك ، في بحثها اموالاً تأتي من المبادهة العامة ومن المبادهة الخاصة . ومن هذا الحادث ، نرى ان تنظيم البحث لا يتعلق فقط بالتقاليد الادارية والجامعية في كل بلد ، وإنما بالبنية الصناعية ، وبخاصة بالانفتاح الفكري أو بالسطح المالي للمشاريع .

ومثل الولايات المتحدة يأخذ على هذا النحو قيمة خاصة . فاذا كانت الصناديق أي الاموال المخصصة للبحث تأتي في معظمها ـ ٧٠٪ تقريباً ـ من الدولة فإن ثلثي الأشغال يداران في نطاق المشاريع الصناعية . وإن أهمية برامج البحث تماشي تركيز الأعمال : في ١٩٦٤ ، ٦٣٪ من النفقات

امتصتها برامج أكثر من ١٠٠ مليون دولار ونفذها ٢٨ مشروعاً فقط .
ولانزاع في أن البحث تمكن من أن يتأسس على مخابر عظيمة يمكن لشركات مثل جنرال الكتريك ، وستنكهاوس ، بيل أو لشركات الملاحة الجوية أن تمدهـا . حتى وإذا نمت مشاريع جديدة مثل هيوليت وباكارد ، انطلاقاً من نجاحاتها العلمية واخذت مكاناً بين « الكبرى » ، فـان أثر البحث ـ وبخاصة توزيع الاعتمادات الاتحادية ـ زاد في التركيز وأيضاً الانشطار في العالم الصناعي : تقدر مؤسسة العلم القومي في ١٩٦٤ ، أن ٣٠٠ مشروع من أكثر من ١٠٠٠ مستخـدم امتصت ٩٧٪ من الاعتمادات الاتحادية للبحث والتنمية و ٨٣٪ من الاموال الخاصة بالصناعة ، والباقي هو بواقـع ١٠٠٠٠ مشروع (على مجموع٢٦٢٠٠٠) . وهذا التطور يوجه أيضاً هـذه المشاريع الممتازة إلى التخصص بالبحث ، وبالعكس ، إلى تجاوز الميدان الدقيق لصناعاتها . « إن شركة جنرال الكتريك ربما كانت أكثر منظمة بحث تنوعاً في العالم ، لأنها تبذل جهوداً هامة في الفيزياء والرياضيات ، والكيمياء ، والالكترونيك والعلوم الجوية ـ الفضائية . وهي في سبيل البحث عن معارف جديدة في هذه الميادين ، وعلى استعداد لاستغلالها ، حتى ولو ان هذا يتضمن نشاطات بعيدة عن عملها التقليدي وغزو صناعة جديدة » ، وإن مشاريع الملاحة الجوية ، مثل لوكهيد أو طيران أمريكا الشمالية ، أو الكيمياء ، مثل الاتحاد الكاربيدي ، تتجه إلى التخلي عن الصنع لتتحول إلى مشاريع بحث : النشـاط يعرف بالمستوى العلمي أكثر مما يعرف بالفرع .

وهذا الاتجاه أكثر اندفاعاً أيضاً في المعاهد العلمية ، التي لاتتوخى أهدافها الربح في الغالب ، والتي تراكم الاعتمادات من كل أصل (دولة ، اعمال ، جامعات) ، وأصبحت « معامـل أدمغة » ؛ وتضم بحوثاً دون

رابطة في تخصصاتها ، تتطلب مساعي فكرية ، وتجهيزات ، وطرق عمل مشابهة . كذلك يمكن بحكم العقود لمخابر الجامعات أن تشارك في هذه البحوث . وهكذا يتوطد تيار مبادلات مستديم بين هيئات لا تكون أعمالها ولا مصادر تمويلها متخصصة بصورة شديدة . والفصل أقل وضوحاً بين الدولة ، والجامعات ، والمعاهد والمشاريع ، مما بين هـذا العالم العلمي ، الذي يعيش غالباً على وتيرة القطاعـات والتقنيات الكثيفة ، وكافة النشاطات المبتذلة للاقتصاد والمجتمع .

إلا أن مثل هذا التنظيم يشجع بحوث « التنمية » بالنسبة إلى البحث التطبيقي والأساسي . وبالرغم من نمو أسرع بمرتين للأموال المخصصة لهـذا الأخير بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤ ، فان التنمية كانت تمتص أيضاً في هـذا التاريخ ٦٥ ٪ من الاعتمادات ، والبحث التطبيقي ٢٢ ٪ ، والبحث الأساسي ١٢ ٪ . ووجدت المشاريع على وجه التأكيد في هذه النفقات وفي مساندة الحكومة قوة اقتصادية غير منازعة ، ولاسيما على السوق الدولي ؛ ولكن الرأسمال الفكري يمكن أن ينضب في ذلك . وبالرغم من سياسة بعض المشاريع الكبرى والحرية الكاملة التي تتركها إلى فرق الباحثين ، فإن المعاهد والجامعات تتحمل دوماً الوزن الهام لبحث أساسي يتطلب وسائط وقطاعات قليلة المأتى بالارباح ظاهراً : كالبحث الطبي والبيولوجي ، ودراسات البيئة والظروف المحيطة أو العمران المدني وهكذا فان النفاذ الشامل للنظام الأمريكي ، ومرونته ، لاينفيان الانتقادات ضد النفقات المفرطة لمشاريع الوجاهة ـ مغامرة الفضاء مثلاً ـ أو ضـد الاهتمامات التجارية للمشاريع . وان التنسيق بين النظم (المؤسسات) ومستويات البحث ليس بالقضية التي تنجو منها المجتمعات الأخرى . وبالعكس ، إن الفصل بين القطاعين العام والخاص ، أي التخصصات ، أكثر وضوحاً وفي أوربه ، نجـد الصلة بـين الدولة والمشاريع ضعيفة كثيراً . إن الدولة في فرنسا ،

وباكثر تواضعاً ، في بريطانيا العظمى وفي إيطاليا ، تنشيء مراكز بحثها الخاصة ، وتخصص لها أكبر قسط من الأموال العامة . وفي الصناعة ، لاتجد بحوث التنمية دوماً التمويل ولا الحث الضروري . وفي ألمانيا أو اليابان ، تكون حصة الدولة قليلة كثيراً ، والمشاريع ، التي تكون أحياناً حليفة الجامعات أو المعاهد التي لاتستهدف الربح مثل معهد ماكس - بلانك ، في المانيا ، تأخذ على عاتقها البحث وتمول بسهولة ثلاثة أرباعه . وهكذا يسلك الدعم والاتجاه الآتيين من السلطات العامة أقنية مميزة أقنية الصلة القديمة بين الحكومة والإدارة والأعمال .

وأبلغ من ذلك أيضاً صعوبات إدخال البحث في الاقتصاد السوفياتي : حقاً ، إن أكاديمية العلوم تراقب معاً البحث الأساسي والبحث التطبيقي - ويبدو ان الأول ، بالرغم من تحذيرات العديد من العلماء السوفياتيين ، لايفيد من معاملة ممتازة جداً بالنسبة للولايات المتحدة : لأن المجمع العلمي (الأكاديمية) يأخذ على عاتقه المشاريع الفضائية والنووية . وبالمقابل ، لايبقى للمشاريع إلا المراحل الأخيرة للتجريب والضبط . والفصل بين المضمارين مضمار العلم ومضمار الصناعة ، عظيم . ولذا وضع في سنوات ١٩٦٠ قسم من المعاهد المكلفة ببحوث التنمية تحت سلطة الوزارات الفنية « إن الإصلاح المقترح يجب أن ينقل إلى المعامل أكبر قسم من المعاهد المسماة ثانوية ؛ ويجب على مخابر المعامل أن تكون قادرة على أن تقوم بنفسها بالبحوث العلمية [...] وعليها أن تصبح جماعيات مبدعة » .

وإن نفاذ البحث ونشره يتعلقان إذن بهذا التوزيع في الأعمال وبهذا الارتباط اللذين يوضحان ، في آخر الأمر ، صفة كل مجتمع أكثر مما يدلان على صيغة ، أفضل طريق . وعلى مستوى الوسائل والطرق ، تبقى

المقارنة الدولية دقيقة . ولكن إذا كان التردد على مفاتيح النجاح ، فان التفاوت العلمي والتكنولوجي يبقى صفة كبرى للعالم المعاصر .

جغرافية البحث

يقاس النمو العلمي والتقني بشكل سيء بحدود الانتاج . ويجب الحكم في ذلك بالطرفين : من جهة بكتلة الوسائل ، والاعتمادات والرجال ، الموضوعة تحت تصرف البحث ، دون القدرة بصورة معقولة على تعيين انتاجيتها . ومن جهة أخرى بالنتائج النهائية ، ونجاح البرامج المؤثرة أو انتشار منتجات جديدة ، دون القدرة على تمييز مايمكن أن يعود على العمل العلمي بصورة خاصة ، وعلى التنظيم ، وعلى التسيير ، وعلى بنية المؤسسات أو الأسواق . وهكذا فان الفصل التكنولوجي الذي شهر به في سنوات الـ ١٩٦٠ بين الولايات المتحدة وأوربه ، قد أرجع في الدراسات الأخيرة ، إلى التأخر أو إلى الانحطاط العلمي أقل مما أرجع إلى ضعف الإدارة . وإذا بقي النقاش في الأسباب مفتوحاً ، فان التسلسلات المرسومة نفسها هامة : وربما كانت جغرافيا البحث أقل غنى بالتفاوتات التي تكشف عنها منها في التفاوتات التي تنبىء بها .

لقد قام اول تفاوت بين العالم الصناعي والعالم السائر في طريق التنمية . واذا كان الأول يركز اكثر من ٨٠ ٪ من اشخاص البحث — وما من شك في ان الثلثين في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي — فليس في ذلك مايدعو الى الاستغراب ، حتى ولو يحسن فيما بعد قياس نتائجه . واكثر من ذلك معنى ودلالة التمييزات التي تظهر بين البلاد المصنعة . وهذا يكون اولاً في الضخامة المتغيرة لنفقات البحث : وبعبارات مطلقة ، قلما يمكن التشبه بها أو مماثلتها : واذا ما نقلت هذه التمييزات

الى الانتاج القومي ، ساعدت على تقدير الجهد النسبي . ان الولايات المتحدة تمسك فيها بالرأس بصورة مزدوجة ، بالتقدمات المنجزة منذ ١٩٥٣ (١٫٤ ٪ في ١٩٥٣ – ١٩٥٤ ، ٣٫٤ ٪ في ١٩٦٣ – ١٩٦٤) وبالمستوى الذي تم التوصل اليه حالياً . ومع ذلك ، فمنذ ١٩٦٠ ، نجد ان نسبة النمو أقوى في اوربه الغربية ، مع أن النسبة المئوية للانتاج القومي المخصصة للبحث لاتتجاوز ، باستثناء بريطانيا العظمى ، ١٫٥ الى ٢ ٪ في آخر سنوات ١٩٦٠ . وفي الاتحاد السوفياتي ، يقدر هذا النصيب حسب الحالات ، من ٢ الى ٣٫٥ ٪ . ولكن الشك في تقدير الدخل القومي ، والتكليف القليل الارتفاع كثيراً للبحث لايساعدان على تقـــدير الجهة السوفياتي في نفس الحدود التي تقدر للغرب . ولنحفظ فقط ، في العـــالم الصناعي ، ان النفقة المتألية عن الســكان متفاوتة جداً ، لأنهـــا تضيف ، الى اختـلافات الدخـل القومي ، الاختلافات التي تتأتى عن السعة المتغيرة للاقتطاعات . ولايمكن ان نهمل آثار الكتلة الكلية للاعتمادات الممكن تجنيدها ؛ لأن البحث الغالي ـ كما في حالة الطاقة الذرية ، والنشاط الجوي ـ الفضائي ـ لايصبح ممكناً الا ابتداء من عتبة ما ، من بعض التركيز في الوسائل . والكتلة العظيمة وحـــدها تساعد على مزج اهـــداف متباينة : وعلى هـــذا النحو فان غنى الولايات المتحدة يجعلهـــا قادرة على تحمل وزن برامج جسيمة فضائية وعسكرية وعلى تخصيص وسائل اكثر أهمية بكثير من وسائل البلاد الأوربية للبحث المدني : « ففي سنة ١٩٦٤ ، حسب ان النفقات الامريكية للبحث في القطاع المدني تمثل تقريباً ضعف ما انفقته بلاد السوق المشتركة الستة ، وتدخل في ذلك النفقات العسكرية والفضائية » . وان بلاد اوربه الغربية ، الموضوعة امام اختيارات صعبة ، تتحمل فوق ذلك نتائج

التجزئة السياسية التي تكثر الاستخدام المزدوج ، والمشاريع المتنافسة غير المتواكبة . والاتحاد السوفياتي ، بالعكس ، يجد في ابعاده تصحيحاً لضعف الدخل القومي نفسه .

ان تقدير الأشخاص ، الذى يهيأ ايضاً للمقارنة الدولية يؤيد التسلسل ، ان لم يؤيد الفروق . وان الاتحاد السوفياتي وحده ، على هذا الأساس يتقارب من النتائج الامريكية . ولكن أعداد الباحثين ونظام التثقيف مرتبطة دونما نقاش . ويشير تقرير منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين الى بعض التناقضات . ان الولايات المتحدة تتصرف ، دون أي شك ، باكبر نسبة من حملة الدبلومات بالنسبة الى شطر من العمر . ومع ذلك فان فرنسا وبريطانيا العظمى تشكلان نسبياً كذلك دكاترة في العلوم ، والتربية الفنية فيها مندفعة كثيراً ، كما في اوربة الشمالية ـ الغربية كافة .

ثم ان النوعية ، وتكييف النظام المدرسي والجامعي لايمكن بالبداهة اهمالها . ولكن ، حتى ولو خول التفوق الولايات المتحدة في هذا المضمار فلايمكن بذلك ايضاح الخلل الظاهر بين عدد الباحثين المكونين والوسائل التي تعطى لهم . واذا وجد ، عجز تكوين بالنسبة الى ضخامة البرامج في الولايات المتحـــدة ، ونقص وسائل بالنسبة للرأسمال الفكري في اوربه ، فذلـــك يعني تفاوتاً يدمغ بعمق الجغرافيا الحالية للعلم ويوضح ، جزئياً ، نزيف الادمغة (هجرة الأدمغة) باتجاه الولايات المتحدة .

ويتضح الخلل ايضـــاً بمستوى البحث الأساسي وبتجديد التقنيات وانتشارها . واذا كان لتوزيع جوائز نوبل قيمـة دلالة ، فهي تشير الى انتقال نشاطات مراكز البحث شطر الولايات المتحدة ، وقد تسارع هذا الانتقال بهجرة العلماء الألمان في الفترة المباشرة قبل الحرب . واكثر

من ذلك دلالة التوزيع بالعلم : فقد تقدمت الولايات المتحدة تقدماً خاصاً في الفيزياء ، وعرف هذا العلم ، دونما شك ، اكبر التجديدات منذ ١٩٣١ ، وبخاصة تغييراً سريعاً في وسائل العمل فمن مشغل منزل جوليو — كوري[1] الى أكبر المنوسات ، ومسارعات الجزيئات الذرية ، والاجهزة التي تساعد بصورة اصطناعية على تمثيل الطيران والرادار والاقمار الاصطناعية ، في المعاهد الامريكية والأوربية ، يقاس سير التصنيع في البحث الأساسي نفسه . ولاعجب اذا كانت الولايات المتحدة اول المستفيدين . وكذلك تسجل تقدمات توحي بالكثير في المخابر السوفياتية .

وفي الطرف الآخر ، تأتي التجديدات التقنية : فعلى ١٤٠ نتاجاً جديداً أطلقت منذ عشرين عاماً ، تأتي ٦٠ ٪ منها ، حسب تقرير لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين وضع في ١٩٦٥ ، من الولايات المتحدة ، ١٥ ٪ من المملكة المتحدة ، ٩ ٪ من المانيا الغربية . وهنا ايضاً نجد معنى للتوزيع بالفرع : فالولايات المتحدة تتفوق في القطاعات الأكثر حداثة من غيرها والتي يرجع تاريخها الى ما بعد الحرب العالمية الثانية : كالحاسبات الالكترونية ، الترانزيستورات والمركبات ،صناعةالتيتان[2] المعدنية ، والأقمار الاصطناعية ، . وبالمقابل ، تحافظ اوربه على مكان افضل في الميادين التي تقدم فيها البحث في وقت مبكر : كالكيمياء ، البلاستيك ، الصناعة المعدنية . وفي هذه الميادين ايضاً ، توصلت بشكل افضل الى تحويل الاختراع الى تجديد والى تأمين الاطلاق التجاري للمنتجات .

---

(١) Juliot - Curie

(٢) التيتان « Titane » معدن ابيض لامع ، كثافته ٤،٥ ؛ حرارة انصهاره ١٨٠٠ سانتيغراد ، يوجدفي معظم الصخور النارية او الرسوبية .

وهذا الخلل ينفذ دون أي شك الى تفاوتات اقتصادية . ولما كانت الولايات المتحدة أيضاً أول مصدر للمنتجات « ذات الكثافة العليا للبحث » فان هذه التفاوتات تظهر في مد تجارة المنتجات المادية أقل مما في مد المنتجات الفكرية . فبين البلاد الغربية نجد ان ميزان المدفوعات التقنية - أي مشتريات ومبيعات شهادات الاختراعات وإجازات لسيانس الصنع (المهارة التقنية) ، يقيم تمييزات جازمة : إن الولايات المتحدة تأخذ أكثر من ٦٥٪ من المدفوعات التقنية في داخل منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين ؛ ولاتدفع إلا ١٠٪ تقريباً . إلا أن بريطانيا العظمى وحدها ، رغم عجزها حيال الولايات المتحدة ، توصلت إلى توازن نسبي في ميزانها الشامل ؛ وعلى العكس ، إن موازين المانيا وفرنسا وأكثر من ذلك ايضاً ايطاليا واليابان سلبية بصورة قوية . والاثر المالي لهذا المد ثانوي : فقد استطاعت اليابان أن تنشىء صناعة منافسة بشكل قوي على السوق الدولي ، بمساعدة استيرادات كثيفة من شهادات الاختراع التي استخدمت أو حولت بمهارة . وهذه المبادلات هي الآن أفضل واسطة لتداول « الخبرات » التقنية ولكنها ترفق أيضاً بحوادث سيطرة . وهكذا فان الواردات الامريكية تتطابق شيئاً فشيئاً مع تنازلات عن الشهادات أو الليسانسات إلى مشاريع متفرعة أو تابعة للشركات الكبرى في الولايات المتحدة وفي المملكة المتحدة ، ارتفع هذا النوع من التنازل إلى ٤٥ ٪ في ١٩٥٧ ، ٧٢ ٪ في ١٩٦٥ من المدفوعات التقنية . وفي ١٩٦٦ ، كان أول مستودع لشهادات الاختراع في فرنسا شركة جنرال الكتريك وأصبح سوق الحاسبات الالكترونية في أوربة على هذا النحو ، في القسم الاعظم منه ، تحت اشراف المشاريع الامريكية والمشاريع الصغرى التابعة لرقابتها ؛ وكذا حال سوق المركبات . وقد ردت الحكومة

البريطانية، ثم الحكومة الفرنسية منذ ١٩٦٦، بدعم المشاريع القومية باعتمادات عامة: وهذ هو أصل «حساب الخطة» في فرنسا . وفتح سوق الطيران المدني أيضاً لهذا التنافس التقني ، الذي لم ينطلق دون صعوبة، للبلاد الاوربية . وقاد اختيار طرق صنع الكهرباء النووية الى المنافسات نفسها وإلى الاستغلالات نفسها على مشاريع متوسطة الاجل .

ويعبر عن نتائج هذه السيطرة باتجاه معاكس بـ «هجرة الادمغة» وقد وضع قياس الحادث الآن . فقد استقبلت الولايات المتحدة بين ١٩٥٦ و ١٩٦٥ ، ٣٥٠٠٠ مهندس وباحث علمي ، منهم ١٥٠٠٠ أتوا من أوربة ، وبخاصة من بريطانيا العظمى والمانيا . وتسوق المشاريع الامريكية هؤلاء الخبراء مباشرة من سوق العمل الاوربي ، مستفيدة من صعوبات المشاريع المحلية وباختصار ، ان نزيف الادمغة ، فيما يتعلق بالبواعث الفردية ، يستجيب بشكل أقل إلى جذب الأجور العالية منه إلى إمكانيات العمل ؛ وهو على المستوى الشامل ، تعبير ولاشك عن الخلل الأولي بين قدرة التكوين ، التثقيف ، واعتمادات البحث . وهنا يجب أن نجد المعنى العميق لتسلسلات الوظائف التي يعلن عنها .

وبالفعل ، ان قسط الدخل القومي المخصص للبحث ونزيف الأدمغة لايبدوان أنهما يوضحان مباشرة الاختلافات بين نسب النمو الاقتصادي . وان توغل القطاعات المتقدمة بشركات أجنبية ، والتوظيفات والتقنيات التي تأتي بها يمكن أن تكون ، بالعكس ، محركات نمو . ان استيراد شهادات الصنع أو موضات التسيير تميل ، من وجهة النظر هذه ، إلى توحيد شرط الانتاج وبالتالي إلى المنافسة الدولية . وماهو على بساط البحث ، لأجل متوسط ، هو ان زيادة الخيرات أقل من المكان الذي يحتله كل بلد في مسار الانتاج . وان كثيراً من الحوادث تلتقي وتتجمع للبدء بتقسيم جديد

للعمل بين البلاد المصنعة . وان شيئاً من تركيز التجديد في الولايات المتحدة، التي تراقب كثيراً أو قليلاً صناعة البحث ، يمكن أن يومم على المستوى الدولي التميز الذي يرتسم من قبل على المستوى القومي بين مشاريع مؤهلة للعمل الابداعي وأخرى تنجز بشكل أساسي أعمال صنع . وفي هذه الفرضية المتشائمة ، تستطيع اوربه التابعة شيئاً فشيئاً لمراكز القرار والتقدم الواقعة في الخارج ، أن تنغمر في الأعمال المحيطية ، كالانتاج المادي ،وعند مقتضى الحال ، تكوين واصطفاء أولين الباحثين . وإذا كانت التصلبات الناجمة عن هذا التقسيم للعمل بعيدة عن أن تكون مقبولة تماماً ، فيحسن أن نحدد الشروط لتنظيم أكثر مساواة للعالم الصناعي : إن التجديد ، والقدرة العلمية يقومان في الولايات المتحدة على القوة الصناعية المتراكمة ؛ ولا يمكن أن يكونا منفصلين عن قضايا الأبعاد . لأن السياسة العلمية ليست لعبة حرة ، مستقلة عن البنيات الاقتصادية والسياسية ، ولا عن الامكانيات الواقعية للمبادلة ، والمواصلات ، والتخصص .

وكذلك تكون العلاقات بين بلاد متقدمة وبلاد في طريق التنمية في هذا المضمار أيضاً مختلة غير متوازنة . وبصورة متناقضة ، لا يوفر « تزيف الأدمغة » بلاداً تكون نسبة التعليم فيها ضعيفة جداً والعجز في الملاكات (الكوادر) العلمية والتقنية مقلقاً . إن « العلميين » الذين يرجع أصلهم إلى العالم الثالث وتكونوا في الجامعات الامريكية أو الاوربية لا يتخلون بسهولة عن المنافع الشخصية وأكثر من ذلك أيضاً عن شروط عمل تقدمها الشركات الصناعية لهم . وفي هذه الدورة الثانية للمبادلات ، تكون اوربة في هذه المرة مستفيدة ، مع الولايات المتحدة التي أعطت نفسها وسائل تثبيت هذا الرأسمال الفكري بتبديل قواعد نسب الهجرة إلى الولايات المتحدة والبقاء فيها . وبصورة عكسية ، إن البلاد الماضية في طريق التنمية تكون تابعة فيما يتعلق بشهادات

الاختراع ، والطرق الصناعية ، و « دراسات المعونة الفنية » . وليست هذه القضية على سبيل الحصر مالية . لأن ما يطرح على بساط البحث ، هو نقل التقنيات متكيفة مع بلاد غنية ، لتفيد بعض الشيء من توازن الاستخدام وبعض الشيء من مستوى تكوين اليد العاملة ، إلى أمم فتية ، تكون بنيتها الديموغرافية والاقتصادية مغايرة تماماً . وهذه هي سيطرة الأوساط الجغرافية الجديدة بالنسبة للعلم : « عندما واجهت تقنيات الحضارة الحديثة العالم المداري ، اصطدمت بشروط غير منتظرة فيما يتعلق بملوحة وطبيعة التربة والفلاحة [...] . والتكيف اليوم جاهز للعمل ؛ والأمراض « المدارية » سهلة الشفاء في الأسامي منها ، وخصائص الأراضي المدارية مفهومة . ولكن تطبيق التكيف يفترض أشخاصاً عديدين ويقتضي من التقنية والعلم أن « يتمدرنا » أي أن يصبحا مداريين وإذا أنهى الاستقلال السياسي الاستعمار السياسي ، فالاستقلال أبعد ما يكون مكتسباً فيما يتعلق بالتقنية والعلم ، والحالة هنا استعمارية تماماً ويجب الا يطبق « المداريون » بأنفسهم في عالمهم الخاص التقنيات والعلوم المتقدمة في البلاد المعتدلة بعلماء « معتدلين » فحسب ، بل يجب أيضاً أن يتوصل المداريون إلى أن يدفعوا بأنفسهم البحوث التقنية والعلمية ويقوموا باكتشافاتهم الخاصة . » (ب . غورو)

الاتجاهات العلمية

إن الحركة العلمية لا تختصر في تحليل اقتصادي وسياسي . وان الوسائل والتنظيم لا يمكنها محو المحتوى ، اذ بدونه لا يكون لمكانة العلم في المجتمع أي معنى . والعلم يُعرّف بصورة أساسية بمجموعة أدوات عقلية . ويبقى منظراً فكرياً . ولكن بقدر ما كانت الخطوط الموجهة مقروءة في القرن التاسع عشر ، بقدر مايكون المنظر المعاصر غامضاً ملتبساً . فمن ميدان لآخر ،

وأحياناً في داخل العلم الواحد ، تتغير الأدوات واللغة ، وإذا كانت الكلمات نفسها ، فإن التشابه يبقى في الغالب على سطح الاشياء . وإن البداهة الكارتيزية[1] ، كالتفاؤل التاريخي في القرن التاسع عشر ، لاتؤلف إطار مرجع لعلم عام . ومن هذا الانقسام في الواقع ، ولكن في العقلانية أيضاً ، رسم غيتان بيكون[2] المنظر العام بقوله : « ومها كانت معارفنا مختلفة بالأمس ، فقد أخذت مكاناً في كون مشترك : وهو هذا المنظر الواسع المتحد الذي ينيره عقل واحد ، كالشمس . وان أبحاث الفكر المختلفة المتقدمة على سطح عالم واحد ، والمغلفة بنور واحد ، لا تذهب عن البال أبداً . وكل واحد منها منخرط اليوم في عمل تحتي ، ولايوجهه فيه إلا نوره الخاص ، كما لو كان حبيساً في حفرة عميقة جداً لا يصلها صوت الأبحاث الأخرى . والتخصص النامي المتزايد يبتعد شيئاً فشيئاً عن كل صورة منظمة للواقع .والعالم الواحد تخلفه العوالم . وكشف الميكروفيزياء[3] رمز مؤثر لهذا التفجر في الواقع المتحد في وقائع لا يمكن تحويلها . ولكن الفكر ، هو أيضاً ، لم يعد واحداً . فهل يجب أن نقول انه يسبق أو يتبع الواقع ، يوجهه أو يقلده بالحركات . وعلى كل حال ، هو مثله ، يكتشف مضاعفاً ، منقسماً ، مجابهاً مع نفسه ، ونجد هندسات كثيرة ، ومنطقاً ممكناً كثيراً ، وعقليات ، وبنيات نفسية غير قابلة للتحويل [. . .] . لقد انهارت الامبراطورية القديمة ، وبدأت يقظة قوميات

---

(١) الكارتيزية صفة مأخوذة من ديكارت الفيلسوف الرياضي الفيزيائي في القرن السابع عشر .

(٢) Gaëtan Picon

(٣) الميكروفيزياء : قسم من علم الفيزياء يدرس بخاصة الذرة والحوادث على السلم الذري .

الفكر . » وهذا الشاهد الطويل هو أكثر من موازنة بيان ؛ انه يأتي بدليل ، وهو الصورة التي يعطيها العلم في السنوات ١٩٥٠ ، في ختام حركة طويلة في تفتيت اليقين والتماسك القديمين — حركة مصحوبة بصورة مناقضة بنجاح عجيب في التطبيقات ، وعلى الأقل في الميدان الفيزيائي والحيوي (البيولوجي) ولكن ، إذا وجدت ظروف لأفكار علمية وأكثر من ذلك لطنينها الفكري ، فهي تحتمل عودات في اتجاه معاكس ، وتقلبات . فالى الاضطراب الظاهر ، وإلى كثرة المستويات ، وإلى عدم الاتصال ، والى الحدود التي اعتقد سارتر بالاعتراف بها أيضاً للطريقة العلمية في « نقد العقل الجدلي » تجيب اتجاهات « التركيب من جديد » وحتى التوحيد : في اندفاع البحوث في نظرية الكون ، ونفاذ علوم التماس ، والكيمياء النووية ، والكيمياء الحيوية (البيوكيمياء) ، وعلم النفس التجريبي ، وتوغل أعمق في الطرق المنطقيـــة - الرياضية ، والاستعداد الشامل لنظريات الاعـــلام أو السيبرنطيـقا . والعلم المعاصر يحاول أن يوفق بين كثرة الحواجز ، والمداهي ، والمستويات — بعض الاقليمية العقلانية — وتجاوز التناقضات ، والمادة والاشعاع ، المستمر والمتقطع ، ،الحتمية واللاحتمية ، والطبيعة والثقافة . ويحاول أن يمحو جزئياً الحدود بين علوم الطبيعة وعلوم الانسان . وهذه النزعة الموحـدة من جديد التي هي أبعد ما تكون عن تخفيف الشـــدة الضرورية للتخصص ، تضع صيرورة العلم في نشاط البحث نفسه ، بناء الموضوع . وفي هذا المعنى الثاني — وليس فقط بآثاره على الانتاج الجاري أو التنظيم الاجتماعي — يصبح العلم تقنياً ، عملية ، تاريخاً ، وليس فقط تأملاً في نظام متنه للمعارف . والملاحظة ، المثيرة للحنين او غير المثيرة ، لانفجار

لاتكفي لاعطاء فكرة عن المنظر الفكري للسنوات الأخيرة ، وان البحث عن تعريف جديد للعقلانية يبقى حتى ولو ظهرت هذه العقلانية أقل بساطة وأقل استقامة مما في الماضي .

العلوم الفيزيائية تبحث عن وحدتها النظرية

العلوم الفيزيائية هي في قلب الثورة الفكرية في القرن العشرين . وهي مدينة بهذا المكان لنفاذها العملي ، ولكن ايضاً لقيمتها الخاصة في مضمار المعرفة . واذا لم يجد العقل « الاتباعي » (الكلاسيكي) أساسه فعلى الأقل وجد تبريره في تجربة الفيزياء ، وبخاصة الميكانيك . وان فكرة السببية ، والقانون ، والهندسة الاقليدية ، وحدوس الزمان والمكان كاشكال مطلقة ، متجانسة ، تتوضع في داخلها الحوادث وترتيبات التعاقب ، توجه سير العمليات الفكرية . ولذا فان طرح الخطة الكارتيزية او النيوتونية من جديد على بساط البحث لايمكن ان يقوم في قطاع ضيق للعلم : « فاذا وجد أن اكتشافاً جديداً أجري على بنية المكان والزمان يؤدي دوماً الى رد فعل على بنية فكرنا . فان اكتشافات أخرى تغني صرح المعرفة دون ان تغير في اسسه . وبالعكس ، ان كل ماله اعتبار في مفاهيم المكان يوحي بطرق أخرى لبناء المعرفة » [1] . وهذه « الأزمة » وضعناها في ظرفها التاريخي ، على منعطف عصرنا ؛ ولكنها تستمر في دمغ المواقف الفكرية ، في عدم أمنها كما في غناها ؛ وان التحطيم النظري ، من مبادىء النسبية الضيقة والمعممة على الميكانيك الكوانتي ، الذي وضعه نيلزبور و هايزنبرغ [2] في آخر سنوات ١٩٢٠ ، يسيطر

---

(١) غاستون باشلار Gaston Bachelard

(٢) Niels Bohr et Heisenberg

على الفيزياء ، ويدخل في ذلك نجاح تجريبها . انها ثورة مزدوجة ، في الواقع : لأنها لم تقطع الصلة فقط مع نظام مفهوم قديم وجزئي جداً . بل تدخل في داخل العالم الفيزيائي - بين الماكرو فيزياء[1] والميكرو فيزياء - انقطاعاً أساسياً ، وتضع ظاهراً عقلانيتين مختلفتين ، عقلانية الحتمية وعقلانية الصدفة . اما النسبية المعممة فلا تطرح على بساط البحث مبدأ السببية ولا استمرار الحوادث الفيزيائية . وتتغلب على النواقص او تناقضات الميكانيك الكلاسيكي بربط المبـــدأ السري الجذب بالمميزات الهندسية للكون . « ان الفيزياء النسبية تتصف على هذا النحو باخلاص الفكر للجهاز الفكري للتحليل الرياضي ولطرق تطبيقه المباشر على وصف الكون . ومذهبهـــا امتداد وتصبعد معاً للمذهب الفيزيائي - الرياضي الكلاسيكي ، مذهب ماكسويل ، ومذهب نيوتن ، ومذهب غاليليه . » (دوبارل)

ومع الفيزياء الكوانتية التي طرح بلانك وأينشتاين أسسها الاولى دون ان يقبلا لذلك جميع المقتضيات اللاحقة ، لايكون الالهام تجاوزاً بل « نفياً » للميكانيك الكلاسيكي .

وان بنـاء الفيزياء النووية يتبع هذا المسعى الفكري والتقني معاً . والتقدم فيها بطيء ، مبعثر حتى نحو ١٩٣٠ : وبعد اكتشاف النشاط الاشعاعي ، تحقق التحطيم الأول لنواة الآزوت في ١٩١٩ على يد الانكليزي روثر فورد [2] . والصورة التي اعطاها نيلزبور للذرة - نواة وتيجان من الالكترونات - في ١٩١٢ وطبق عليها نظرية الكوانتا هي ايضاً اجمالية . وابتداءً من ١٩٣٠ ، نجد ان كثرة التجارب ، وعمل الجماعات المتوازية ، وفي الغالب المتنافسة - شادويك في بريطانيا العظمى ، بور وتلاميذه في كوبنها غن ، فرمي في ايطاليا ، وفريد يريك جوليو - كوري وزوجته

---

(١) الماكروفيزياء هي فيزياء العناصر .

(٢) Rutherford .

ايرينه في فرنسا ، بوث وبيكو ، ثم هان وشتراسمان في المانيا ـ ، وحتى تقدم وسائل التجريب ـ مثلاً ، استخدام المضخمات ذات المصابيح او تحسين مواقع تحديد الجزيئات في غرف ولسون ـ تجعل هذه البحوث تجميعية بسرعة ، وتخلق ظرفاً من هذه الظروف الاستثنائية في تاريخ العلوم . وقد كان ذلك آخر نيران العلم الاوربي قبل ان يترك الحادث للقدرة الامريكية مهمة تحقيق النتائج .

ولكن التغير من حال الى حال ، في نفسه ، ليس نتيجة عجيبة للفيزياء النووية . ان جزيئات النواة مرتبطة فيما بينها بساحة قوى ؛ وان كتلة النــــواة اخفض من كتلة مركباتهـــا . ويؤلف الفرق طاقة ارتباط : وهكـــذا تجسد الميكروفيزياء نظرية اينشتاين الرياضيـــة في تعادل المادة والطاقـــة . وكل تفاعـــل نووي مصحوب بتحرير او بامتصاص طاقة . والتفاعلان ممكنان : كانفصـــام النوى الثقيل الى نوى اخف وافضل ارتباطاً ، وبالعكس ، اتحاد العناصر الخفيفة كالهيدروجين . وفي ١٩٣٨ ، توصل هان وشتراسمان الى تحطيم نواة او رانيوم تحت صدمة نوترون . وصاحب هذا التفاعل انتشار نوترونات جديدة ، واحدث صدامها على نويات أخرى من الاورانيوم نفس الاثر . وهكذا اكتشف مبـدأ تفاعل متسلسل ، بفضل البحوث المتوازية التي قـام بها هان ، جوليو ، وفرمي . ثم اعيد تأليف فريق فرمي في شيكاغو ، فحقق ، في ٣ كانون الأول ١٩٤٢ ، اول تفاعل من هـذا النوع انطلاقاً من الاورانيوم . وعلمت النتيجة . ودرست تفاعلات الاتحاد في مخبر منذ سنوات ١٩٣٠ : وادت أخيراً ، في ١٩٥٢ ، الى تفجير اول قنبلة هيدروجينية .

ومع ذلك فان بنية الكون نفسها قد كشفت على هذا النحو تدريجياً . لأن الذرة ، والعلاقة بين النويات والالكترونات ، ونشاط الجزيئات ،

تعطي فكرة عن الحوادث الكونية . ان التفاعلات النووية ، وبخاصة اتحاد العناصر الخفيفة، توضح التطور في زمن حرارة النجوم والشمس . ودراسة الاشعة الكونية ، تحليل التسجيل الطيفي للكواكب ، واكتشاف وتحري الطبقات العليا من الجو ثم « الفضاء » وتجريبات المخـــبر ساعدت على التأكد من حالات أخرى للمادة ، كحالة البلاسما ، وتصور تاريخ المادة والعوالم التي تؤلف الكون . ولحقت الميكروفيزياء بهذا الكوسمولوجيا (علم الكون) ؛ وتجمع العلم النووي مع تفسيرات الميكانيك السماوي الجديد ، في فرضيات كوسموغونيا (نظرية تفسر تشكل الكون) مغامرة بعد - تشكل الكواكب ، أساس نظريات الكون ، كون في توسع .

وايضاً ، فيما وراء تعادل المادة والطاقة ، الأساس المشترك ، تجد الفيزياء في سبيل البحث عن وحدتها النظرية . وقد انكر اينشتاين ، في آخر حياته ، قسماً مما كسبته الفيزياء الكوانتية ، واخفق في محاولته انشاء نظرية موحدة للساحات - الجذب ، الكهرطيسية ، الساحة النووية . اما من جهة نظريي الفيزياء الكوانتية فانهم يقبلون ، بعد هايزنبرغ ، بضرورة تفسير عام للساحات ، دون الصعود ايضاً من التعريف الكوانتي الى حوادث الجذب . وهل اكتشاف الساحات الجديدة للقوى النووية يعقد العمل؟ يأمل بعضهم من ان تعمق المعرفة نفسه في الميكروفيزياء ، واكتشاف الجزيئات العنصرية يؤديان الى بعض من توحيد جديد للعقلانية في الفيزياء : « ان التمثيل المشخص للواقع الفيزيائي في نطاق المكان والزمان مع علاقة سببية كان في أصل كل تقدم للعلم الحديث : فهو يطابق الاتجاهات العميقة لفكرنا واذا توقفنا عن الفهم جيداً ابتعدنا عنه [.] . ان القضية هي معرفة ما اذا كان هذا التخلي الخطير جداً ضرورياً حقاً وما اذا لم نتمكن ، بمساعدة مفاهيم جديدة وتحاليل اكثر تعمقاً ، العودة الى تمثيل مشخص

للوقائع الميكروفيزيائية التي تقترب من الوقائع من النموذج الكلاسيكي . » (لوي دو بروي) [١] . والنقاش مفتوح ، ولكنه يري باعجاب ، خلال النجاحات وتصنيع البحث في الفيزياء ، كيف ان الارجاع الى دراسات العلوم ، بغية تقدير قيمتها بالنسبة للفكر الانساني ، ثابت ، وكيف ان الاكتشاف يبقى مغامرة فكرية .

علم الحياة وعلوم الانسان

ان علوم الحياة وعلوم الانسان لم تنته الى نفس الانفصام النظري كما في الفيزياء . ولاشك في ان هذا دليل على شبابها أكثر مما هو على نضجها . ولم تكسب هذه العلوم الا تدريجياً وبصورة متفاوتة الصرامة العلمية الحقيقية . ولم تتخلص الا حديثاً من الوصف والتصنيف او من تبعية وثيقة ايضاً حيال الخيار الميتافيزيكي .

ويشار الى الغموض في العلوم البيولوجية ، التي هي ظاهراً اقرب العلوم ، مع ذلك ، الى النظـــام العلمي : « اما العـــلوم البيولوجية ، فيبدو انهـــا تشكو نوعاً من انخفاض علمي يحكم عليهـــا بالتردد بين وضاعة تجريبية تعتبر فضيلة بنفسها وزعم « فلسفي » لايعلن عنه ، في أي علم آخر « بمثل هذا الضرب من الجدل » (فرانسوا ماير) [٢] . ولذا فان الافضل من تحليل كثرة الاتجاهات ، ان تعرف الساحة التي تقع فيها هذه التيارات والتي تلامس أصول هذه العلوم . لقد أتى القرن التاسع عشر بفكرة الزمان ، والديمومة ، وعدم رجعة الحوادث : ان اغراض التطورية ، والتحويلية ونهوض التاريخ واكثر من ذلـــك أيضاً فلسفات التاريخ تطبع هذا العصر . ومن الممكن أن نلاحظ الاشعاع الذي تمارسه

---

(١) Louis de Broglie

(٢) François Meyer

على الاتجاه الحالي لهذه العلوم الفرضيات الكبرى الاصولية لذلك الدور ، الداروينية والماركسية بخاصة، الغنية والخصبة لتثير منذئذ تفسيرات و «قراءات» أو «قراءات جديدة» أمينة وفية انتقادية أو مخربة ، تقع على العموم بالنسبة لها . وكانت الفلسفة الوضعية الوجه الاخر لدراسة هذه العلوم الموروثة عن القرن التاسع عشر . وقد أدت علوم الحياة والعلوم الانسانية إلى الاكثار من الملاحظات والتجريبات ، ولكن أيضاً إلى الحكم بصورة مسبقة ببطلان الدراسات المعتبرة مغامرة وبالضرورة ميتافيزيائية ؛ وهكذا امتد طويلاً ، بعد أوغست كونت[1]،النقاش العظيم على صلاحية علم النفس. وتقتضي الفلسفة الوضعية في الغالب أيضاً موقفاً « ارجاعياً » يفضي اما الى إرجاع الحوادث إلى نظام يعتبر بسيطاً وموضوعياً - مثلاً ، الحياة الى حوادث فيزيائية - كيميائية أو السلوكات الى حوادث فيزيولوجية - واما إلى إزالة دراسة المجموعات والعضويات ، في دراسة عناصرها . وهكذا عرف موريس كوليري[2] نحو ١٩٤٠ تطور علم الحياة المطبوع « بارجاع تدريجي كامل للمسارات الحياتية الأولية لميكانيكيات فيزيائية- كيميائية بصورة محضة ، وهذا فتح علمي عظيم الأهمية وذو طابع عام قطعي » . وفي علم النفس ، إذا لم يكن رد المدرستين اللامعتين في بداية هــذا القرن ، السلوكية الأمريكية ، و الرفلكسولوجيــا [4] الروسية إلى إرجاعية محضـــة ، فلم تكونا معفاتـــين من المحاولة لأن عبارة واتسون [3] مبـــاده المدرسة

---

(١) Auguste Comte

(٢) Maurice Caullery

(٣) الرفلكسولوجيا هي الدراسة العلمية للانفعال المنعكسة .

(٤) Watson

الاولى « العقل سلوك ولاشيء غيره » ، وتعريف السلوك كالزوج التحدي والاستجابة يذهبان بكل وضوح وبداهة في هذا الاتجاه .

وحسب العلوم ، وحسب تبدلات الفكر ،نجد ان افراط الوضعية ، والفقر الذي تؤدي إليه أحياناً ، قد عينا ردود فعل ، ولكن من محتوى ، وخصب ، ومستقبل مختلفة جداً . وفي بداية هذا القرن ، حاولت البرغسونية أن تبرر فلسفياً تجدد مبدأ الحياة في علم البيولوجيا وقيمة التحري والاستقصاء في علم النفس . وعوضاً عن تداعي المعاني ، وجمع العناصر أو الأفراد ، نجد ان العلوم النفسية الاجتماعية ـ أو على الأصح بعض مدارسها أقامت دراسة الكليات التي تحلل مبادئها الداخلية للفهم . وهكذا ، فمن « الكل الاجتماعي » عند دوركهايم ، والتفتح في المانيا ١٩٢٠ لنظرية الشكل[1] في علم النفس ـ نظرية تؤكد الطابع الشامل لساحة الإدراك وعمليات الفهم ـ فرضت رويداً رويداً الفكرة المسيطرة للبنية : وهي موقف أصولي عام جداً ولكنه قليل الشبه من علم لآخر . ولذا فمن المستحيل أن نعتبر أن البنيوية تؤلف اتجاهاً متجانساً ، وبالأحرى مدرسة ؛ وفي هذه الفرضية ، توحي بالفلسفة أكثر مما توحي بالعلم .

والكلمة على الموضة منذ آخر سنوات ١٩٥٠ : ان دراسة البنيات لها أسس قديمة ومتينة . فقد حاول جان بياجيه[2] ان يحيط ببعض المظاهر الأساسية والمشتركة لهذا الموقف : « البنية هي نظام تحولات يتضمن قوانين باعتباره نظاماً (بشكل يعارض خصائص العناصر) ويحفظ أو يغنى بتأثير التحويلات ، دون ان تذهب هذه خارجاً عن حدوده

(١) Gestaltheorie.

(٢) Jean Piaget.

او تستنجد بعناصر خارجية . وبكلمة واحدة تحتوي البنية على هذا النحو الصفات الثلاث : الكلية ، التحويل ، الضبط الذاتي . » والمقتضيات الأساسية لهذه الطريقة يمكن ان تظهر كما يلي : فهي تميل الى الاعتراف بوجود مستويات لايمكن ارجاع احدها للآخر ، بصفة مرنة اقل مما بقوانين تنظيم المذهب نفسها ؛ وهي تلح على تحليل العلاقات بين العناصر اكثر مما تلح على طبيعة العناصر نفسها ؛ وفيما وراء المعطيات الكثيرة ، التي لايمكن تصنيفها ، للواقع والحي ، تحاول ان تكشف عن انظمة . وبالنسبة الى منظورات التاريخ القديمة تختص بامتياز الدراسات المتواقتة .

وهذا يعني اعطاء طنين جديد لمبادىء علم اللغة « المتواقت » الذي انشأه فرانسو دوسوسّور [١] في بداية هذا القرن ، ولكنه ظل حبيساً في صعيد الاختصاص الضيق : « ان القانون النهائي للغة ، فيما نجرأ القول به ، هو انه لايوجه شيء ابداً يمكن ان يكمن في تعبير ، على اعتبار أن الرموز اللغوية دون علاقة مع مايجب ان تدل عليـه . فاذا كانت آ عاجزة عن الدلالة دون مساعدة ب ، فكذلك ، الحال في ب دون مساعدة آ ، او ان الاثنين لايساويان شيئاً الا بفرقهما المتبادل ، او ان أياً منهما لايساوي شيئاً ، ولو بجزء ما من ذاته (افترض « الجذر » ، الخ .) ، شيئاً آخر الا بهذه الشبكة نفسها من الاختلافات السلبية بشكل دائم » والاثنولوجيا (علم الأجناس) تستعمل بدورها الطريقة اللغوية ، وتتجاوز المجموعة البسيطة ، والتعريف الوظيفي او مقارنة النظم المنعزلة لتعتبر كل ثقافة كلغـة . والتحليل النفسي ، من التطبيق العلاجي الى البحث عن البنيات السرية للانسان ، يبدو ايضاً كعلم لنظام رمزي .

وفي هذه المنظورات ، تحاول العلوم الانسانية اذن ان تكشف ،

---

(١) François De Saussure.

وتميز الأبنية التي تفيد كأساس وتحتوي غيرها وتحدد معاً الفردية والوعي :
« ان التحليل النفسي والانثرولوجيا، بالنسبة للعلوم الانسانية ، هما على الأصح » علمان « مضادان للعلم » : وهذا لايعني انهما اقل عقلانية أو موضوعية من العلوم الأخرى ، ولكنها تعتبرهما ضد التيار ، وتذهب بها الى أساسها العلمي الفلسفي ، ولاتفتأ « تعري » هذا الانسان الذي يصنع ويصنع من جديد ايجابيته في العلوم الانسانية . ويفهم بشكل افضل أخيراً ان التحليل النفسي و الانثرولوجيا قد وضع احدهما تجاه الآخر ، في ارتباط أساسي متبادل : فمنذ الطوطم والتابو ، واقامة ساحة مشتركة بينهما ، وامكانية كلام يمكن ان يذهب من احدهما للآخر دون انقطاع ، نجد أن الترابط المزدوج لتاريخ الافراد على لا وعي الثقافات وتاريخية هذه على لا وعي الافراد تفتح ولا شك القضايا العامة التي يمكن ان توضع بشأن الانسان . » (ميشيل فوكو)

ويجب أن نذكر ، قبل نجاح البنيوية ، ان علماً قديماً وهو التاريخ ، بحث تحت سير الحوادث ، عن التماسك الإيضاحي ، والارتباطات المتواقتة ، والضبط ، والانغام . وهذا التجديد يرجع إلى جيل مابين الحربين وبخاصة إلى الحركة الفرنسية التي أثارها لوسين فيفر ومارك بلوك ، حول مجلة « الحوليات » . إن المصالح الجديدة ، والميكانيكيات الاقتصادية وتاريخ التقنيات إلى تواريخ العقليات والحساسية ، فتحته بشكل عريض على العلوم الإنسانية الأخرى . وقد غنيت الاداء العلمية ، من التاريخ المتسلسل والكمي إلى التفسيرات التحليلية النفسية ولكن هذا ، بالنسبة للتاريخ، معناه التخلي عن يقين ميدانه الخاص والاصطدام بمناقشات علمية فلسفية تربط كافة العلوم الانسانية .

ومع ذلك ما فتىء تعريف البنيات يحتفظ بسؤال عن أصلها وعن

طبيعتها ، ومن العلاقات التي يمكن أن توجد بين مستويات مختلفة من الواقع ومن المعرفة ، وعلى إمكانيات تطبيق نماذج منطقية - رياضية في ميدان الدراسة . وبصورة تلفت النظر ، نرى ان تقدم العلوم الإنسانية مصحوب بعودة ، فيما وراء تاريخية القرن التاسع عشر ، إلى قضايا قديمة للفلسفة ونقد المعرفة . ولا عجب في أن ينهض الإنسان والطبيعة في النقاش في فطرية الأفكار أو تشكلها ، والعلاقات بين الموضوع والهدف . فنحو ١٩٢٠ ، في المانيا ، بين علم الظواهر وبحوث ماكس فيبير [١] في الموضوعية وتشكل المفاهيم في علم الاجتماع او التاريخ ، لايوجد تغطية ولكن مع ذلك اتصالات . فقد بحث كلود ليفي - شتراوس عن أسس العلم في التوافق الأول العقل والطبيعة : « المعرفة لاتعتمد على تخل أو على مقايضة بل إنها تقوم بانتخاب للمظاهر الحقيقية ، أي المظاهر التي تتفق مع خصائص عقلي . وليس كما زعم الكانتيون المحدثون ، لأن هذا العقل يمارس على الأشياء قسراً لا يمكن اجتنابه ولكن على الأصح لأن عقلي نفسه هدف . وباعتباره « من هذا العالم » يشارك بنفس الطبيعة مثله » . ولكن مع دوام الفكر اعتمد جان بياجيه بخاصة على تجربة علم النفس الوراثي ، وعارض منظورات « الانشائية » وجمع بين التكوين والبنية : « في الصعد التي يفرض فيها التكوين نفسه على الملاحظة اليومية ، كما في علم نفس الذكاء ، يلاحظ في الواقع أنه يوجد بين التكوين والبنية تبعية ضرورية متداخلة : فليس التكوين إلا المرور من بنية إلى أخرى ، ولكنه مرور مشكّل يقود من الأضعف إلى الأقوى ، وليست البنية

(١) Max weber.

(٢) Claude levi - Strauss.

إلا مجموعة تحويلات ، ولكن جذورها تخضع لعمليات وترجع إلى تشكيل سابق للأدوات المناسبة » . هذا هو الميدان الفكري الذي تقع فيه بشكل واسع جداً علوم الحياة والانسان .

ولكن هـذا الميدان المحدد على هذا النحو لا يمكن أن يوضح غزارة وكثرة مراكز الأهمية والطرق ، والنمو المتفاوت للعلوم الانسانية . وان التحليل التاريخي لهذه الحالة ، يأخذ بعين الاعتبار ، أولاً ، التطور الخاص لكل علم ، واستعداده لتعريف موضوعه بدقة كثيراً أو قليلاً ووضع لغته . فالاقتصاد ، بجمعه إلى دراسة السلوك الفردي دراسة المشروع و « الوحدات الكبرى » يجد تبعاً لـ كينز ، ومن بعده نظريي النمو ، معنى « الهيئة الاقتصادية الشاملة » ويهتم ، بنـاء على طلب سير الاقتصادات الكبرى المعاصرة ، بأن يعرف بصورة عملية المفاهيم والمقادير .

واتجاهات علم الاجتماع تتنوع أيضـاً بأكثر وضوحاً حسب التراث الثقافي ، وتجربة المجتمعات ، ودونما شك أيضاً الأزمنة التاريخية . وعلم الاجتماع الاوربي يبقى مطبوعاً بتآليف القرن التاسع عشر الكبرى . وفلسفات التاريخ ، ويتعلق طوعاً بالحوادث الشاملة الكلية ، أي ما يمكن أن يسمى « ماكروسوسيولوجي » .

وعلم الاجتماع الامريكي ، في الحد الذي يؤكد ويثبت أصالته ، في سنوات ١٩٣٠ ، يريد نفسه ايضاً ان يكون عملياً ، مؤسساً على دراسة « العلاقات البشرية » والتأثير المتبادل بين الفرد والجماعات المتجه نحو قياس الحوادث والتجريب . وباعتباره نفسانياً اكثر منه تاريخياً ، يتناول شطراً كبيراً من تراث السلوكية ، شريطة أن ينتقده ، ويدخل بسهولة اللغة الفريدية ، الموسعة ، وأحياناً بشكل مفرط ، في العلاقات الاجتماعية ، اكثر من المفاهيم الماركسية .

وهو ، في الحد الذي يجب تعيينه ، يتأثر بحالة وقضايا المجتمع الأمريكي : من تمثل الجماعات العرقية ، والسير الوظيفي للمنظمات الكبرى ، وضعف الوعي الطبقي . وهذه الحالة تمتاز معاً باغراض ومواقف أصوليـــة : ان دراسة « الشخصية الأساسية » والعلاقات بين الفرد ، والثقافة والمجتمع ، وتفتح الطريقة الوظيفية تتعلق بهذا المنطق ، كالروح المحافظة المتبدة التي تؤخـــذ غالباً على علم الاجتماع الامريكي الذي ينمي تحليل النظام القائم ، وشروط « السير » الحسن على حساب منظور جدلي للتاريخ . والحق يقال ، ان العالم العلمي غير محجوز بحواجز ، وإن العشرين السنة الأخيرة متميزة معاً بجهد التحضير النظري في الولايات المتحدة وبطغيـــان علم الاجتماع العملي التجريبي في اوربه الغربية — حتى دخوله الحذر الى الاتحاد السوفياتي ، من اجل حاجات تسيير النظام . والتفكير والطريقة يكسبان ، دونما شك أخيراً ، بالعمومية . والمراد ، بكل بساطة ، هو بدايات ، صعبة بعد ، لعلم يصبح تجميعياً اكثر من مذهب غامض او انتقائية تؤديان الى الفقر .

علم الجراثيم وايضاح الحياة

تفيد العلوم البيولوجية دون اي شك من نظام خاص . لالأنها تمتاز حقاً بعدم تجانس بالنسبة للعلوم الأخرى التي تدرس الانسان مثلاً ، بل لأن تقدمها غير منازع ، من حيث التجريب أو وبالنسبة الى القرن التاسع عشر . لقد تغير المقياس والمنظور : من دراسة العضويات العالية ، انتقلت الجبهة النشيطة الى تحليل الميكرو-عضويات أي العضويات الصغيرة المتناهية في الصغر والخلايا : ومن الرسوم الايضاحة التاريخية الى الطرق الفيزيائية-الكيميائية . وهكذا اتجهت قضايا التطور والحياة في قسم عظيم منها

نحو علم الجراثيم ، نحو الارتباط بين المادة والحياة . وهذا الموقف بصورة أساسية ارجاعي ، يؤدي الى نهوض الكيمياء الحيوية (البيو كيمياء) . ولكن مسعى موازياً ، مشتركاً مع الأول بصورة وثيقة ، يقتضي ايجاد البنيات ونظام الحياة على المستوى الابتدائي للخلية والجزيئات التي تركبها : « عندما أظهر التحري العميق عن اللامتناهي في الصغر ، ذاهباً حتى البعد الجزيئي ، تحت اي بنيات ناعمة بنيت جميع الخلايا الحية ، بدأ علماء الحياة يجمعون قطعة قطعة أسس بناء ربما يتوصل بعد قليل الى تتويجه الاهو تفسير ميكانيكيات الحياة » [١] .

وذهبت كشوف البيولوجيا الجزيئية والخلية الى ابعد من ذلك ولامست القضيتين الاساسيتين : أصل الحياة وتطور اشكالها . وبعد الفرضيات النظرية التي قال بها اوبارين [٢] ، العالم السوفياتي ، او هالدن [٣] ، المتقدمة في سنوات ١٩٢٠ ، حاول بعض البيولوجيين ان يكتشفوا ، بالتجريب والتظاهر ، هذا الارتباط الكبير بين المادة الجامدة والخلية الحية : ففي سنوات ١٩٥٠ ، توصل ميلر في جامعة شيكاغو الى ايجاد جزيئات عضوية بصورة تركيبية في شروط تشبه « الأرض البدائية » . واتضح تدريجياً تشكل الجزيئات الكبرى وميكانيكيات حياة الخلية في تكوينها . وعندئذ فهم معنى حدود « الارجاعية » الفيزيائية ـ الكيميائية كما عرفها جان بياجه : « ان قوة الارجاعية الفيزيائية ـ الكيميائية هي ان تأتي بطريقة ايجابية للبحث ، الذي قد ينجح اولا ينجح ، حسب حالة القضايا ، ولكن قدرته تعود الى الواقع الذي يؤدي فيه استخدامه الى تحسين

---

(١) Pierre Auger

(٢) Oparin

(٣) Haldane

واحياناً الى تجديد وسائل عمله . والحالة الأساسية ، التي تذكر الحكم على العلاقات بين الحياة والفيزيو-كيمياء ، هي ، في الواقع ، ان هذه الأخيرة لم تنته وان البيو فيزياء والكيمياء البيولوجية تؤديان دون انقطاع الى اغنائها لا الى تثبيتها » .

وقوت اكتشافات البيولوجيا الجزيئية ، من جهة أخرى ، نظريات التطور المستوحاة من الداروئية . والوراثة المعتمدة على بنية عناصر الكروموزوم ، التي هي شرط لانتقال الصفة الوراثية وظهورها ، لايمكن أن تتبدل الا بالتغيرات الداخلية العارضة التي تحدث لهذه البنية . ومن ثمّ تحفظ التغيرات أو تطرح بتأثير الاصطفاء « حتى انه من الممكن القول بأن الحوادث المفاجئة نفسها التي تؤدي بتراكمها في مجموعة غير حية الى زوال كل بنية ، تنتهي ، في مجموعة الكائنات الحية التي تغطي سطح الكرة الأرضية ، الى خلق بنيات جديدة وتعقيد متزايد . » وفي مستوى العضويات ، في مستوى التطور الطويل الأجل للأنواع ، يبدو ان الاحتمال البسيط والسببية الوحيدة الفيزيائية - الكيميائية لاتأتيان بأجوبة مرضية تماماً . ولذا عرفت النظرية البيولوجية ، مع بعض التأخير ، هذه الأزمة الاصولية الميتودولوجية التي فتحت للفيزياء في بداية القرن . وهكذا تحاول اعمال واد ينغتون [١] التوفيق بين معطيات علم الوراثة والتأثير المتبادل بين العضوية والبيئة . ويؤول الأمر الى فكرة نظام تطوري شامل تدعمه علاقات من نوع سيبرنطيقي « من الممكن وضع فرضية يمثل بموجبها السلوك الداروني الحديث للمادة الحية ميكروسلوكاً سريع العطب دقيقاً مضبوطاً واتفاقياً ، أي مبنياً على الاتفاق والصدفة ، على حين ان الانسياحات الكبرى في العالم الحي تكشف عن سلوك سائل ومستمر [...] . ولكن

---

(١) Waddington

علم التطور يوجد أيضاً ، مقارناً بالجيولوجيا ، في حالة متقدمة : ان فكر المبادهة العلمية مشلول ، من جهة بمفهوم ميكرو ـ تحليلي لقابلية الفهم ، ومن جهة أخرى بالخوف القديم الموروث عن الأسلاف من ذنب الغائية [...] » . والعلوم البيولوجية الخاضعة لنفس التمزقات التي تخضع لها الفيزياء ، والمهددة بنفس المحاولة الميتافيزيكية التي تهـــدد بها علوم الانسان (كان يكون القصد رفض مذهب تفسير الحوادث بالغائية والأسباب القصوى أو قبوله) والموضوعة في داخل السؤال عن الانسان وعن صيرورته ، ان هذه العلوم البيولوجية ربما كانت اكثر العلوم دلالة على النقاش العلمي في النصف الثاني من القرن العشرين .

تماوني الفكر العلمي

ان ارجاع مجموعة العلوم والمواقف العلمية إلى معطيات ابتدائية أمر خطر دوماً : ان كل عبارة ، كل علم يستجيب لخطـــوط قوة تكون موازنتها في آخر الحساب اقل دلالة من القوى المركّبة . وقد يكون من المبالغ ان يرد التطور الحالي للعلوم الى الترييض ، أي إلى جعل كل شيء رياضياً ، وان يجعل من السيبرنطيقا النظرية الوحيدة ذات الموهبة والقدرة التوحيدية . ولكن التفكير الرياضي كتطبيقاته على العلوم الأخرى ، نشـــأة ، وعلاقات وغزارة الأفكار عن السيبرنطيقا ، ولوكانت مفرطة ومضطربة ، تدمغ بصورة عامة جداً الحركة العلمية بكاملها . والبحث ، في قطاعات عديدة ، يستلهم من إيحاءاتها ، وهو مضطر على الأقل إلى أن يجيب عنها . ولها قيمة الاسطورة ، ولكن ، في الوقت نفسه ـ وأكثر من ذلك بصورة أساسية ـ أنها توسم مركبة من أقوى مركبات « الفكر العلمي الحديث » .

وهذا يظهر أولاً في المعنى الجديد الذي تأخذه الرياضيات : « لقـد

وجدت الرياضيات القديمة ، من جهة ، الكائنات الرياضية ، ومن جهة أخرى ، الواقع الطبيعي ، ومن الممكن تكييفها معه بكثير أو قليل من الضبط . وفي المنظور المعاصر ، كل شيء رياضي أو قابل لأن يكون رياضياً ، ومع ذلك ، فان الرياضيات تتجاوز من كل جانب المعطيات التجريبية التي تساعد على اعطائهـــا بنية بصورة أوثق . ، واذا اصبحت الرياضيات منطق عصرنا فذلك لأنها نفسها كانت مضطرة لأن تعرف نفسها من جديد بالنسبة إلى المنطق التقليدي وفي أصل هذا التفكير ، توجد ازمة ، وهي الأزمة التي أثارتها الأفكار التي ادخلت في القرن التاسع عشر هندسة ريمان [١] ، وتعريف كانتور [٢] لـ « المجموعات » ، ودمج « مالا يمكن تعداده » و « العدد المتصور » في النظرية . وكالفيزياء ، اصطدمت رياضيات بداية القرن بمبادىء العقل « الكلاسيكي » . ولقد قسمت في نقاش واسع في طبيعتها وفي أصلها ، وجهزت البرهنة والتدليل على تلاحمها الداخلي الخاص . وهذا هو المكان التاريخي لعلم البديهيات ، وهو فرع من فروع الرياضيات ، الذي نما بخاصة قبل ١٩٤٠ ، حول مدرسة غوتنغن على يد هيلبرت [١] ، ثم فريق الرياضيين الفرنسيين المسمى فريق بورباكي [٢] .

لقد وجدت الرياضيات إذن وحدة ومرونة جديدة معاً بفضل علم البديهيات . المرونة ، لأن الاستنتاجات يمكن أن تقام انطلاقاً من مبادىء موضوعة اوليـــة قابلة للتغير : وليس ضرورياً الانفراد في عالم الحدوس

---

(١) Riemann .

(٢) Cantor .

(٣) Göttingen .

(٤) Bourbaki .

الجزئي . وفي هذا المعنى تصبح الرياضيات « مبدعة » كالفيزياء ، وتسهم في هذا الجـــدل ، جدل « لا » الذي أوضحه فاستون باشلار [٣] .
ولكن الرياضيات ، في الوقت نفسه ، تجد وحدتها : لأن منطقها ليس خاصاً بالهندسة ، او الجبر ، أو أي ميـــدان خاص ؛ لقد ولدت الرياضيات : « وحطمت الأطر التاريخية القديمة التي تنزع ، وهي تتلىء ، إلى تجزئتها إلى علوم متميزة متطورة بصوره متباينة . والهندسة ، من بينها ، ماتت كفرع مستقل ، وليست إلا دراسة البنيـات الجبرية — التوبولوجية العامة بخاصة . وبدراسة البنيات الابتدائية الأساسية وعث الرياضيات من جديد وحدة الطريقة والفكر ، وحضرت من جديد لغة مشتركة تلعب فيها هذه البنيات ، بنية الفئـة مثلاً ، دوراً أساسياً »
ولذا فتاريخ العلوم الرياضيـة لايقف . وعلم البديهيات الرياضية ، الذي مازال المتمسكون بالنظريات الـكلاسيكية ينازعونه ، له حدوده الخاصة ، ومناطق ظله ، كحساب الاحتمالات ؛ ولكنه يوسع ايضاً قدرة الحكم العقلي المنطقي ، ساحة تطبيقه .

ولنأخذ اولاً حساب الاحتمالات . فاذا كانت ، نظرياً ، أسس الاحتمالات موضع تساؤل أيضاً ، فان التطبيق يدهش . والفيزياء المعاصرة ، كما رأينا ، تنهل منها طريقة جديدة لتعريف الواقع . والكشوف التجريبية للميكروفيزياء كانت في الغالب مسبوقة بحكم عقلي استنتاجي . وقوانين الوراثة ، وعلم وراثة الشعوب ، وعلم الاقتصاد ، ودراسة الآراء تجد في حساب الاحتمالات افضل تعبير علمي لها . ولكن علم البديهيات الرياضية ، بفصله المحاكمة الرياضية عن الغايات الخاصة لكل ميدان ، واعطائه قيمة نظام صوري أكثر من طريقة قياس للواقع الفيزيائي ، فتح افق العلوم

(٣) Gaston Bachelard .

الانسانية من علم اللغة إلى علم الانسان (انتروبولوجيا) . وأخيراً ان نظريات الالعاب والبحث « العملاني » ، أي طريقة التحليل العلمي الموجه نحو البحث عن افضل شكل لاتخاذ قرارارت بغية الوصول إلى افضل النتائج ، باستخدام حساب الاحتمالات وفكرة المنظومة معاً ، أطالت ، على مستوى الدراسة والقطع بالقرارات – مهما كانت من نوع اقتصادي أوسياسي – ، تدخل الرياضيات .

عندئذ تفهم محاولة الوحدة . فهل من الممكن ان تشكل ، من الرياضيات وعلم اللغة ، نظرية واسعة للغة والرموز ؟ يبدو ان العلوم الانسانية تخرج فجأة من عزلتها ومن انفجارها الأصولي لتكتشف معاً قدرتها كعلوم رموز . وقريب من ذلك أيضاً ، السيبرنطيقا « علم الرصد والاتصال عند الحيوان والآلة » ، ولكنها تريد ، انطلاقاً من التفكير في « الحيوانات – الآلات » ان تلتقي بعالم نظرية لأنظمة عامة . « ان السيبرنطيقا الفينيرية[1] ، سيبرنطيقا الميكانيكيات المنعكسة تحولت بسرعة إلى سيبرنطيقا اوسع ، سيبرنطيقا اقترح أن تسمى السيبرنطيقا العامة ، التي تطمح إلى إنشاء آلات ذكية وتفسير حوادث الحياة كلية » (ر . بولانجيه) . وبصورة فعلية ، تجاوزت السيبرنطيقا التطبيقات العملية الاولى في نظام الضبط والحساب الآلي ، ودشنت عصر الحاسبات الالكترونية ، وفي منظورها للمستقبل ، عصر الروبوطات . ومن جهة أخرى ، استحوذ علم الحياة (البيولوجيا) على لغة الاتصال والتأثير المتبادل . وان دراسة الخلية تجده بشكل كاف . وليست التطبيقات أيضاً إلا « بداية » بالنسبة إلى الطموح النظري . « تريد السيبرنطيقا ان تكون علم التـأثير ، والسلوك الموجه والمنظم ، والجهد الطوعي

---

(١) من العالم نوربر فينيرت Norbert wiener وهو ابو السيبرنطيقا .

الواعي والمعبر ، والصيرورة الممثلة والمرادة بصورة مسبقة ، منذ البدء .» (جوس لومير) . وهل العلم أو الموقف العام للفكر يطبع معظم العلوم ؟ وعلى كل حال ، يشير إلى تجاوز الميكانيكيات الخطية المستقيمة ، والتقسيم بين علوم اللاعضوي وعلوم الحياة .

ولذا فإن اتجاه التيارات العلمية ووجود هذه التلاقيات وهذه الأشياء الأساسية المميزة لا تظهر في عالم مغلق خاص بالعلوم . فالسيبرنطيقا ، مثلاً ، هي نظرية وعملية معاً وتنظيم المجتمع يستلهم جزئياً من هذه المبادىء ، ولكنه نفسه يتعلق دوماً بنمو القوى المنتجة ، ولحد ما ، بالتكنولوجيا. وحركة الأفكار ، بالعكس ، لا تنجو من بعض الحتمية الاجتماعية ، وتتجنبها كلما انتقلت من العلم النشيط إلى طنينه الاديولوجي ، ومن البحث النقدي إلى الموضات ، والأذواق والتفسيرات . وعندئذ تعتبر الاسبقيات أقل من التلاحمات . وان العلوم وحركات الأفكار ، والتنظيم الاجتماعي والتكنولوجي تخص عصراً واحداً ولا يخلو الأمر من خلل وتناقضات . وعلى جميع المستويات التي توجد فيها ، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين ، نجد النقاش بين المذهب والتاريخ في آن واحد موضوع تفكير، وموقفاً أصولياً وحالة حية .

تطبيقات العلم على الحضارة الفنية

إن صورة العلم المعاصر مزدوجة : من جهة ، الجذور البعيدة كثيراً أو قليلاً ،التمزقات،وأسئلة البحث الأساسي. ومن جهةأخرى ، المظاهر المباشرة: تقدم تقني يمكن قياس خطوته وتسارعاتهويعطي كثافة جديدة لـ « الوسط الاصطناعي » ، المنشأ بالصناعة. وإذا فكر بالحركة أو تغيير الطبيعة ، فإن قطع سنوات ١٩٤٠ — ١٩٥٠ ظاهر : فنرى فيه طوعاً انطلاق ثورة صناعية

ثالثة . والقول الحق ، ان المهم هو أن نعرّف بشكل أقل نظام تتابع من أن نعرف خصائص جديدة أو معززة بالتقدم التقني : عصر الذرة ، عصر السيبرنطيقا أو الاعلام . وقد استعمل الوصفان كل بدوره ، وليس لهما نفس القيمة ، وان ترجيح الثاني على الأول لا يقتضي فقط إلا الاعتراف بالسرعات أو النجاحات المختلفة لاستخدام الطاقة الذرية أو استخدام العقول الالكترونية . وإن ما يفهم من عصر الذرة ، ليس اطلاق نوع جديد للطاقة فحسب بل أيضاً سلّماً ما ، مستوى من الواقع الطبيعي : « المادة آلة حقيقية صغيرة طبيعية :وسيأتي الوقت الذي يبدأ فيه الإنسان باستغلال هذه الآلة بانتظام (البير دوكروك) . والالكترونيك تجد فيها أسسها ، إذا أريد النظر نحو الميكانيكيّات التي تستخدمها أكثر من النظر نحو الاستخدامات . ولكن المعرفة العميقة بالمادة ـ أو الحياة ، على السلم الجزيئي ـ ، إذا دلت على زيادة في وسائل العمل أو التأثير وأحياناً بمنمة الأجهزة ، ليست إلا مظهراً للأشياء ؛ لأن النظام التقني الذي تدخل فيه هذه الاكتشافات وهذه التجديدات الخاصة الفردية ، شيء آخر . وإن تنظيم العمل بل وأيضاً المشاريع يميز التغييرات الصناعية في النصف الأول من القرن العشرين . وان الآلية وميكنة جزء من العمل الفكري ، والبحث العملاني والاستعمال المنظم للاعلام تنقل من المشغل (الورشة) والمكتب إلى مجموع الانتاج والتسيير مبادىء التنظيم وقضاياه . وإن المجتمع بأمره هو الذي يمكن ، في الحد الأقصى ، أن يتصور ويفهم ويعالج كوحدة « مندمجة » . ويرى آلان تودين [١] فيه نشوء مجتمعات من نوع جديد : « ستسمى المجتمعات المبرمجة إذا بحث عن تعريفها أولاً بطبيعة شكل انتاجها وتنظيمها الاقتصادي . وهذا التعبير الأخير ، باعتباره يدل أكثر من غيره مباشرة على طبيعة العمل والتأثير

---

(١) Alain Touraine .

الاقتصادي يبدو لي أكثر نفعاً » . ولا نبحث هنا لأي حد تغير تقنيات الاعلام والبرمجة مجتمعات محسوسة ، معرفة بنظامها الاقتصادي والاجتماعي وتراثها التاريخي ؛ ولكن لنحفظ ببساطة الصفات المشتركة التي تضفيها ، وأكثر من ذلك أيضاً ، التي تعد بها مجتمعات بلغت هذه الدرجة الجديدة من التصنيـع .

وإذا درس التقدم العلمي في هذا المنظور فلا يمكن أن يفهم كجمع بسيط من الاختراعات . وان التسارع المعاصر يرجع إلى التأثيرات المتبادلة، والتلاقي بين القطاعات و « الاكتشافات » . ونتائج هـذا التـأثير المتبادل هامة لا لأن التقدمات في مضمار ما تكون على صلة بالتقدمات في مضمار آخر أو أنها توجهها فحسب ، بل أيضاً لأن كثيراً من الاكتشافات المنعزلة تأتي بحلول غير منتظرة لبعض القضايا ، لأنه من الممكن أن تضاف لعمل كل أعظم من مجموع أجزائه ، أو تؤدي أيضاً إلى اكتشافات أخرى غير منتظرة ايضاً » (هـ . كان وآ.فينير) . إن التأثير المتبادل ، والبرنامج ، هذين المظهرين للنمو التقني يظهران بشكل واضح في العمليـة - تركيب التي يؤلفها « فتح الفضاء » . ولكن في هذا المضمار ، كما في المضمار الذري ، لايكون تسيير المجتمع ونموه على بســاط البحث بل العلاقات بين المجتمعــات ، ووجود مشروع مشترك أو تأثير مزدوج من التنافسات والتسلسلات . وعندئذ تنطبق سياسة العلم على السياسة دون زيادة - وهي ، التي تثقل ، على الأقل ، قدر الإنسان .

تجاوز الحدود التقنية : الطاقة والمواد الاولية

الطاقة ، المواد الأولية ، النقليات : إن التغيرات التقنية في النصف الثاني من القرن العشرين تحمل على كل منهـا عناوين تعرف « الثورة الصناعية الاولى » . ولقد تم التجاوز في اتجاهين متكاملين . أولاً تسخير

دقيق وكامل معاً للمادة وخصائصها . إن صناعة القرن التاسع عشر لم تكن لتخدم إلا سلسلة أو مجموعة صغيرة جداً من مصادر الطاقة ، من العناصر - في الصناعة المعدنية مثلاً - وكشفت منذ قليل إمكانيات الكيمياء ؛ واصطفت أسهـل الأجسام استخراجاً ، وأكثرها قابلية للتحويـل مباشرة . أمـا صناعة عصرنا فتحاول استعمال السلسلة الكاملة للعناصر الطبيعية ، وباختراع الخلائط ، تركيب مواد كيميائية جديدة ، وصنع منتجات لأغراض مختلفة متزايدة ومختلطة . وهذا التسخير يسوق الى نتائج من نوع جديد للعظمة ، إلى تغيير حقيقي للسُّلّم : وسواء أكان القصد العلاقة بين الطاقة الناجمة والمحروق المستهلك ، خفة المعادن وصفاتها الميكانيكية والحرارة ، إستقبال أو بث الموجات، نقل التيار الكهربائي أو الحرارة ، فالقفزة عظيمة . ولكن النتيجة ليست فحسب زيادة في القدرة في القطاعات التقليدية : الطاقة الميكانيكية ، تحول المواد الأولية ، تداول المتاجر والرجال ، بـل هي أيضاً نقل ، وانتقال مراكز الأهمية : إن نقل الأخبار والمعلومات والفكر يحتل منذ الآن مكاناً قاطعاً .

تغير السلم : يعطي استخـــدام الطاقة الذريه أفضل مثال لهـــذا التغيير . إن طناً واحداً من الاورانيوم يكشف عن طاقة ٣ ملايين طن من الفحم . وهذه القيمة القصوى تفترض أن المادة الأولية كلها قد تحولت واستعملت . والمفاعلات الحالية على الاورانيوم الطبيعي لاتسمح الا بنسبة ١ إلى١٠٠٠٠طن . وهذا عظيم . ولكن هذه المسافة تطبع الفرق بين اكتشاف المبـــادىء النظرية والمراحل التدريجية التي تكون مخيبة في التطبيق أحياناً . والمفاعلات الذرية ، التي انشئت في ١٩٤٢ ، لم تنافس الأشكال الاخرى للطاقة الا منذ ١٩٦٥ - ١٩٦٦ . ومضى عليها عشرون سنة إلى أن تأمن مكانها في التغييرات الاقتصادية . وبصورة موازية ، درست

نماذج أخرى من المفاعلات ، وجربت ، وتستطيع في مهلة خمسة عشر أو عشرين عاماً ان تغير النتائج بكاملها .

وخرجت الطاقة الذرية حديثاً من مرحلة قبل - صناعية ، مرحلة النماذج والبحث عن سياسة ، ونجد ثلاث صفات تطبع هذا الدور :

١ - فصل أمىء اجراؤه بين المظاهر العسكرية والسلمية للطاقة النووية

٢ - ظروف الطاقة المقلوبة : وهي ان الفاقة ، التي كانت تخشى بعد الحرب مباشرة ، فسحت مجالاً للوفرة .

٣ - انخفاض أسعار كلفة الأشكال التقليدية للانتاج في سنة ١٩٥٠ بتأثير السوق (انخفاض سعر المواد الأولية) والتقدم التقني (زيادة المردودات الحرارية)

ولذا فإذا سياسة مختلف الأمم حيال الذرة قد تجاوبت مع أهداف ومع حالات خاصة أكثر منها مع ضغط اقتصادي عام .

وانطلاقاً من ١٩٦٤ - ١٩٦٦ ، تمت تقدمات في كل مكان - زيادة أبعاد وقدرة المعامل المولدة (سنترالات) ، وتحسين المردود الحراري - ، التي قربت سعر الكهرباء النووية من السعر الجاري للطاقة . والعنصر الحاسم ، في هـــذا الانخفاض في سعر الكلفة ، هو نقص نفقـــات توظيف الأمـــوال . ولا عجب إذا أتت النتائج الباهرة من الولايات المتحدة . فقد عرضت شركة جنرال الكتريك ثم و ستنغهاوس مراكز ، معامل مولدة ، « قادرة على تحمل منافسة المراكز الاخرى » فكسبتا لمشروعها شركات الكهرباء الخاصة التي ما زالت حتى ذلك الحين محجمة . وإن تدخل المشروعات الكبرى بفرض نفسها على السوق الاميركية واقناعها

بالطريقة ، قسماً من السوق الاوربية غير المنظمة ، أعطى إلى السحّابة الامريكية ، خارجاً عن كل فائدة فنية ، حظ التصنيع ، وكانت النتائج من نوعين : فمن الآن فصاعداً ، توجه الولايات المتحدة معظم توظيفات القطاع الكهربائي نحو انشاء مراكز نووية وبين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ ، على الولايات المتحدة أن تنتج الكهرباء من أصل ذري بما يعادل أربعة أضعاف بريطانيا العظمى . وأخيراً قامت ثورة الطاقه وفي أوربة أيضاً ، غلبت الترددات الأخيرة ، ولكن السحابة الأوربية لا تملك سوقاً ولا تصنيعاً كافيين ، ولذلك تجاوزتها سحابات الولايات المتحدة. وهذا يقتضي من الدول الاوربية تبعية مزدوجة حيال براءات الاختراعات أو حتى المشاريع الامريكية وحيال الجهز الوحيد للاورانيوم الغني . وفي ذلك اخفاق للجنة الطاقة الذرية الأوربية التي استطاعت أن تنسق السياسات العلمية دون الوصول ، مع ذلك ، إلى سياسة صناعية والقضية بالنسبة لأوربة ، على مستوى هـذا الجيل الأول من المراكز ، هي معرفة ما إذا كانت ستتوصل لصنع أورانيومها الغني .

ولكن الجيل الأول ليس له إلا مستقبل محدود . ولذا فإن مراحل متوسطة ، سحابات مصححة كثيراً أو قليلاً ، يجب أن تحسن المردود . وهكذا فإن المفاعلات التي تقوم على الغرافيت وتبرد على الهليوم أو على الماء الثقيل تقتصد الاورانيوم الطبيعي . ونرى أن المركز التجربي في برنيليس، في مقاطعة فينيستير[١] في شبه جزيرة بروتانيا في فرنسا ، من أجل طن واحد من الاورانيوم يعطي معادلاً طاقياً من ٣٠٠٠٠ طن من الفحم . ولكن الأفق شيء آخر : لأن الابيال الفوق مولدة تستهلك في الوقت نفسه الاورانيوم ٢٣٥ وتحول إلى بلوتونيوم منتجاً آخر قابلاً للتفجر ، وهو الارانيوم ٢٣٨ . وهكذا يصنع كثير من المادة القابلة للتفجر مما

(١) Brennilis ، Finistère

لا يوجد في الانطلاق . وفي النماذج الحالية نجد أن طن الاورانيوم يعادل القوة الطاقية من ٦٠٠٠٠٠ طن من الفحم . ولكن تحسين بل وانشاء مراكز تبلغ قدرتها ١٠٠٠ ميغاواط على الأقل ليس على مستوى البرامج أو الصناعات المجزأة .

إن الطاقة النووية ، تحت شكل مراكز كهربائية ، لا تلعب إذن في اتجاه تفريق أو بعثرة نقاط انتاج الطاقة ، لا من وجهة نظر اقتصادية ولا من وجهة نظر جغرافية . وإذا كانت شروط التوضيع أقل شدة ، فنجد انطلاقاً من مصادر أخرى للطاقة ، أن الوحدات تذهب نحو قامات عظيمة لتأتي بدخل حقيقي . وإن أشكال الاستعمال الأكثر تجزأة - المحرك ذي الدفع النووي بخاصة ، إذا كانت تجمع فائدة عبوة ضعيفة من « المحروق » مع مدة استخدام طويلة جداً ، وجدت تطبيقها في الغالب على هامش الاقتصاد ، وبخاصة لغايات استراتيجية (غواصات ذرية) . وان مجموعة القوة المساعدة النووية[1] ، التي أنشئت في الولايات المتحدة ثم في الاتحاد السوفياتي لتجهيز الأقمار الاصطناعية ، تجمع بين التمنمة والديمومة ، بالرغم من قدرتها الضعيفة . وهكذا تستطيع الطاقة النووية ان تساعد في عمليات رائدة ، ولكن خارجاً عن كل قاعدة نفع مباشر . وتبقى فيما وراء تحطيم الاورانيوم ميادين المستقبل غير المؤكدة : الطاقة الشمسية ، البيل ذي المحروق واستخدام طاقة التركيب الذري كما في القنبلة الهيدروجينية

والصناعة المعدنية ، من جهتها ، تنوعت كثيراً . وليس المراد فقط طرقاً مجددة للصنع القديم فقط لأن استخدام الهواء الاوكسجيني أو الاكسجين الصرف

---

(١) S. N. A. P. (System for Nuclear Auxiliary Power)

في المحولات أو المقالب ساعد على الحصول على أنواع من الفولاذ استطاع الفرن الكهربائي وحده اعطاءها حتى الحين .

وأصبحت صناعة الحديد أخيراً فرصة لبحوث منظمة تذهب من كفاءة المهندس إلى كفاءة الباحث في المختبر . ولكن ، أكثر من ذلك أيضاً ، ان مجموعة العناصر المستخدمة قد توسعت : فبين المعادن الخفيفة أضيف الماغنيزيوم إلى الالومنيوم ـ وبخاصة التيتان ذي الكثافة المرتفعة كثيراً ، ولكنها معوضة بمقاومة ميكانيكية ممتازة وبحرارة انصهار أعلى . ولذا قامت المنافسة في الطيران ، وبخاصة في مشاريع الطائرة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت . فمن أجل طائرة الكونكورد استعمل الالومنيوم ؛ ومن أجل البوينغ ٢٧٠٧ ، ذات المنظورات الاكثر طموحاً ، التيتان . وبين المعادن التي تتحمل حرارات قوية جداً (انصهار فوق ٣٠٠٠ درجة) انفرض التنتال، والتانغستن ،والهافنيوم . وجددت الفضة والذهب شبابها في الصناعة ، وكلاهما يمتاز بصفات المقاومة والناقلية الجيدة ونفاذ العمل في أجهزة الدقة والضبط . وهكذا تشكلت صناعة معدنية لها أهميتها وتطالب بها الصناعات المتقدمة تقنياً : الطاقة النووية ، الفضاء والطيران ، الالكترونيك . والاخطار التي يمكن التعرض لها ، كالنشاط الاشعاعي ، والتلوث من جهة ، واحتمال نفاذ سير العمل دون ضعف من جهة أخرى ، لاتسمح بالتكيف والضبط والتجريب العملي .

وليست أنواع المنتجات التركيبية المحسنة بالصناعة الكيميائية أقل ندرة . وكل إنسان يعرف هـذه المواد البلاستيكية ، ومنها الكيمياء الجزيئية ، كتكثيف الجزيئات أو اتحادها لتشكيل جزيئة أكبر ، التي عرفت الصبغ ، وبخاصة في السنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ . والفائدة التي نجمت عنها مزدوجة : ففي المقام الاول يأتي رفع قيمة المواد الاولية والمنتجات

الثانوية التي تنتج عن تقطير الفحم والبترول . ولكن الثانوي أصبح ، بخاصة في العشرين السنة الاخيرة ، أساسياً . ولا تصنع منتجات الاستعاضة ، التي تقوم مقام المنتجات الأصلية ، بل مواد جديدة تمتاز بقابلياتها - من حيث سهولة العمل ، ومقاومة الصدمـــات ، والحرارة ، والاشكال ، وقيمتها كعازل ، وأخـــيراً سعر الكلفة - ويبحث عنها لذاتها ، حتى ان الحيـاة اليومية والاستهلاك قد تأثرا بها ونفذت اليها . ولكن المواد البلاستيكية توجد أيضاً على مستوى نجاحات ونتائج الصناعات المتقدمة ؛ كالتغليف في صناعة الفضاء أو دورات وذاكرات الأدمغة الالكترونية .

الموجات وتداول الفكر

استخدام أو اعادة تركيب المادة - إن العالم المعاصر لا يعرف الأجسام فحسب ، بل الموجات . وهنا أيضاً نجد أن اكتشاف هذا المضمار المستمر ، ولكن القسم الأعظم منه مازال بنجوة عن حواس الانسان ، يتدرج في الزمان . وقد تراكمت المعارف في السنوات ١٩٠٠-١٩٤٠ :من شروط انتشار الموجات القصيرة أو الفوق - قصيرة ، والانعكاس على مناطق الجو العالي ، واكتشاف الفوق اهتزازات الصوتية التي تنتشر في الماء .وهكذا تتراكم امكانيات نقل المعلومـات توسعاً وكثافة . ولكن كل شيء يتعلق بالأجهزة القادرة على التقاط وتضخيم التيارات ، ونسخ الأصوات والصور . وفي الأساس وجدت بعض اختراعات حاسمة : الميكروفون ، الذي يرجع تاريخه إلى ١٨٧٧ ، ويحول الصوت إلى تيـار كهربائي ؛ والخلية الفوتو - كهربائية ، التي كثرت تطبيقاتها في السنوات ١٩٣٠ ، على أثر البحوث الأساسية القديمة ، تقوم بتحويل النور إلى تيار . والنقل إلى مسافـة يفترض مع ذلك التضخيم والكشف عن الموجات بغية جعل

المعلومات قابلة للاستعمال . ووجدت أولاً الأنابيب المفرغة - المصباح « ديود » للمهندس الانكليزي فليمنغ في ١٩٠٤ ، والمصباح « تريود » للمخترع الفرنسي فوريست في ١٩٠٦ - التي أمنت انتشار الراديو . وان تقدم فيزياء الأجسام الصلبة ساعد ، في ١٩٤٨ ، على اكتشاف خصائص الأجسام النصف - ناقلة - كالسيليسيوم أو الجرمانيوم الممتزجين بالشوائب - في مخابر بيل . وهكذا قام الترانزيستور مقام الأنابيب المفرغة . ونحو ١٩٦٠ ، سارت صعوبة هذه التقنية مع تنمنمة العناصر ، وتحسين المقاسات الصغيرة والدورات المندمجة ؛ وفي ١٩٦٧ ، تم التوصل إلى نقل الدورة تماماً ومباشرة على صفيحـــة صغيرة تماماً من السيليسيوم . ولا تتعلق النتائج فقط بالراديو ، والتوسع السريع للأجهزة ذات الأبيال ، التي تعلم أهميتها في نشر المعلومات . إن الالكترونيك في مجموعه ، أي استخدام الكهرباء كحامل رسائل ، هو الذي يغير بعده وقدرته : والتطبيقات تذهب من الدماغ الالكتروني إلى الأجهزة العلمية أو الطبية ، من مستطرفات جيمس بوند إلى اكتشاف الفضاء .

ونقل الصور يجمع الاختراعات أيضاً . ففي السنوات ١٩٢٠ - ١٩٣٠ تم الانتقال من انعكاس الصور الميكانيكي إلى انعكاسها الالكتروني : ان الكاميرا الالكترونية (١٩٣٤) ، نقلت البث من مرحلة حب الاطلاع إلى مرحلة الاستغلال . ومنذ ذلك الحين حث التلفزيون الملون البحث . وفي البدء كانت طريقة اذاعة كولومبيا (١٩٥٠) ، التي لا تسمح بالبث بجهاز واحد لاذاعات بالأسود والأبيض وباللون . وأدى الاخفاق التجاري لهذا المشروع الأول إلى تبني الولايات المتحدة ، في ١٩٥٤ ، طريقة ملائمة درستها مؤسسة راديو .R.C.A . ودخلت أوربة ، بدورها ، في المنافسة ،

(١) من Radio Corporation of America

ولكن التعارض بين الطريقة الفرنسية والطريقة الألمانية منع كل توحيد ، وحدد الأسواق ، وكبح التصنيع . وفي التلفزيون تتغلب صعوبات نقل المعلومات : ان نقل الصور هو ، في الأصل ، تابع لاكتشاف الموجات الفوق ـ قصيرة ، القادرة وحدها بتواترها العالي على أن تنقل كتلة المعلومات التي تتضمنها الصورة . وبث الراديو يتطلب شريطاً من ٩٠٠٠ سيكل ـ ثانية ، وفي تغيير التواترات ٥٠٠٠٠ سيكل ؛ والتلفزيون يتطلب ربطة من ٤ أو ٥ مليون سيكل . ولكن الموجات الفوق ـ قصيرة تنتشر على خط مستقيم ولا يمكن أن تعيدها طبقات الجو العليا . ولذا يلزم انشاء شبكة أجهزة مذيعة مرتبطة فيما بينها بحبال « هرتزية » واقعة أمام بعضها وتنقل على هذا النحو اشارات التلفزيون إلى مسافات متوسطة . ولاجتياز المحيطات أو توزيع الأخبار على مجالات واسعة ، تستخدم محطات تقوم على أقمار اصطناعية مرتفعة بصورة كافية لترى من قبل محطتين أرضيتين بعيدتين جداً : ان صورة تلفزيون مرسلة من نقطة من الكرة ، يمكن على هذا النحو أن تؤخذ في العالم كله ، ولكن في الوضع الحالي ، لا تستطيع الأجهزة المستقبلة الفردية أن تلتقط مباشرة اذاعات الأقمار الاصطناعية وتبقى تابعة للشبكة الهرتزية . والتلفزيون يتطلب إذن بنية تحتية كثيفة : ومن المعلوم أنه تما ، حتى في بلد ضيق الأبعاد كفرنسا، بموجات متميزة . وتحت ضغط الكثافة المتزايدة من الأخبار التي يجب نقلها ـ والتي يزيدها انتشار الاعلام أيضاً ـ أصبحت الموجات « مورداً نادراً » (ف . دوران ـ داستيز) ؛ والتنافس شديد جداً في التقسيم الدولي لموجات الراديو ذات التواتر المنخفض والمتوسط . وان الاكثار من عبوة الموجات الفوق قصيرة لا يبعد إلى أجل متوسط أخطار الاشباع . ومن هنا تفهم الأهمية التي تعلق على الموجات الضوئية واختراع الليزر .

الآلية والاستعلام

أن تحويل العالم المعاصر لم يأت فقط من تراكم النجاحات الجديدة . وان نمو الالكترونيك ونمو المجموعات المندمجة للانتاج ، واستخدام العقول الالكترونية لم تؤد نفاذ العمل البشري فحسب ، بل انها بدلت بعمق طبيعته وتنظيمه . وبلغ الأمر قوى وموضات الانتاج بعمق . كما أن النتائج لا تقاس فحسب بالمقادير الفيزيائية ـ المسافة ، السرعة ، القدرة الطاقية ، اختلافات السلم . بل تقرأ مباشرة في تسيير الاقتصاد ، والبنيات المسلكية ، والعلاقات الاجتماعية . والتقنيات الجديدة ، وان ما زالت محدودة وغير معممة ، تبشر بتغييرات في نظام الحياة اليومية ، والتربية ، وأوقات الفراغ وتعطي كامل معناها لفكرة الحضارة الفنية التي عرضها جورج فريدمان .

الآلية ولاشك هي التعبير الذي يوجز افضل من غيره هذه التقنيات كافة . ويقصد بذلك اكثر من امتداد للمكننة التي زادت حتى هذا الحين بعشرة أضعاف أو حلت محل القوة العضلية . ومع الآلية نجد جزئياً ان الصفات الحسية عند الانسان ، وقدراته على التكيف والدقة والضبط والتركيز ودوره كـ « مستقبل » أو « باث » للاخبار هي التي تنقل إلى الآلة . حتى ولو وضعت تحت فكرة الآلية مجموعات مستقلة من التحويلات التقنية ، فان هذه تنتهي الى مجموعة متجانسة نسبياً . وقد حللها ف . بوللوك كما يلي : « ان المبدأ الأساسي للآلية هو دمج مسار جزئي للانتاج مازال حتى الآن متقطعاً في مسار منتظم يجمع اكثر الآلات الصانعة تحسيناً تحت توجيه اجهزة الكترونية ، [...] . وهذا يميز في الآلية :

١ ـ جمع قطاعات انتاج ، تكون عادة متفرقة ، في دورة

مستمرة يقطعها الانتاج دون المرور بين يدي الانسان . وهذا هو (الدمج) .

٢ - استخدام أجهزة التغذية المرتدة التي تعمل تحت اشراف الانسان (تكنولوجيا الضبط الآلي) . »

٣ - نمو الحاسبات .

والاشكال المحسوسة تستجيب لهذا المظهر أو ذاك من هذا التعريف ؛ وتدل على مراحل الحركة ، وتعين تفسيرات ، واضاءات متعاقبة . وبين ردود الفعل المثارة نحو ١٩٥٠ باقامة نظام ديترويت وردود الفعل التي يثيرها حاليا انتشار الاستعلام في المكاتب والمخابر ، يوجد اختلافات . ولكن الالكترونيك والدور المتزايد للمراسلات ، وبالتالي طبيعة وتنظيم العمل تميز آلية المراحل السابقة للميكنة وتجعلها تتوسع في التصرف بالمعلومات .

ان اول شكل للآلية أحل محل العمل القديم المتسلسل استخدام الآلات الصانعة الناقلة . وهنا انطلاقاً من صناعة السيارت : « ان القطعة التي يجب صنعها تدخل في الناقلة الآلية التي تدفعها آلياً من موقع لموقع ، وكل واحد من هذه المواقع يتمثل في رأس او عدة رؤوس كهربائية - مغناطيسية يقوم عملها عندما تتوقف الناقلة . وفي ختام العملية يرد المونتاج الذي وضعت عليه القطعة الى مدخل الآلة . » (آلن تورين) . هذا هو تعريف الآلة - الصانعة - الناقلة . وهذا النظام يلغي بعض اشكال العمل البشري ، ويوفر اليد العاملة ؛ ولكن الآلية ليست هنا الا مرحلة ابتدائية ، تعمل فيها ميكنة العمليات الشيء الأساسي . وهي مرحلة جزئية ايضاً ، لأن المشغل المتآلي لايمكن ان يكون الا جزيرة في مسار الانتاج .

والانتاج في دورة مستمرة يفترض اجهزة أخرى ، وبخاصة التحقيق أي التأكيد ، والتصحيح الآلي للعمل . وفي هذه المعامل ، يتمم برنامج الصنع بنظام الضبط والتغذية المرتدة : « ان العمل الميكانيكي يمكن ان يعتبر كمجموعة من المعلومات تبثها الآلة ، وهذه المعلومات تقارن بالمعلومات النظرية المنتظرة من الآلة تبعاً للتعليمات التي تلقتها . وعلى اعتبار ان هذه المقارنة تتم آلياً ، فكل اختلاف يؤدي الى تغذية مرتدة بواسطة مجموعة ميكانيكية تساعد على التوازن بين الجواب والأمر ، يرد المعلومات الصادرة عن الآلة الى المميزات المذكورة (آلن تورين) . ان تصفية البترول ، والبتروكيمياء ، ومعالجة السوائل أو الغازات حديثاً في صناعة الحديد (الافران والتصفيح) تؤلف ، مع التوجيه الآلي ، افضل الأمثلة لهذا الشكل التام من الآلية .

ويبقى الاستعلام بالمعنى الخاص ، وهو احدث مرحلة لهذه الحركة الخاضعة مباشرة لتقدم الالكترونيك ، لأن كل شيء يتعلق بالقدرة على التسجيل ، وسرعة العمليات ـ ولكنه يتطلب ايضاً تحليلاً منطقياً لهذه العمليات . وقد حسب منذ ١٩٥٠ ان الاجيال المتعاقبة من العقول الالكترونية قد حققت قفزات نوعية عظيمة : ان سرعة الحساب قد ضربت بعشرة كل خمسة اعوام ، والقامة قسمت على عشرة ، ولعمل معين ، نقص السعر عشرين او ثلاثين مرة . وتم الانتقال من المرحلة التجريبية الى الاستغلال الاقتصادي في زمن قياسي .

ورافق الجيل الثالث انتشار ، ابتذال ناشيء متفاوت بالبداهة من بلد لآخر : ان عدد المحيطيات والنهائيات زاد في اشعاع جهاز قوي ، على حين أن بعض المشاريع في الولايات المتحدة انطلقت في صنع الحاسبات الالكترونية الصغيرة القامة . ولم تنعكس التطبيقات على التسيير والادارة

فحسب بل ايضاً على الصناعة : ففي السنوات العشر الأخيرة تحولت الآلات الصانعة بادخال الضبط العددي . فالحاسبات تحقق حسابات ، وتراقب التنفيذ ، وتأتي الى الآلة بدرجة من الضبط ظلت مجهولة حتى الآن . ودخل تحضير التصميات والنماذج المصغرة والرسم الصناعي في عصر الآلية ايضاً . ولكن القصد ليس احلال شيء محل آخر فحسب : لأن استخدام الحاسبات يعين نمو صناعة جديدة تساء الاحاطة بحدودها : وهي صناعة الاستعمال المنظم للمعلومات وتوزيعها ، الأمر الذي يربط بصورة وثيقة الحاسبات وشبكة الاتصالات . وهذه الثورة التقنية يعبر عنها بدورها بتعابير استخدام وتغيير فكري . فهي تستعيض عن النشاط الانساني بالآلة ولكنها تفتح في الوقت نفسه ميداناً جديداً لهذا النشاط . وفي العلاقات بين الآلة «والسلعة المعدنية» والتركيب نجد ان غنى البرامج،وتوسع نطاق تطبيقها يبزان الاستعلام ، وعلى الأقل في الوقت الحاضر : لأن قابلية الاتيان بالربح ، والنفاذ ، واستخدام التقنيات الحديثة تمر بهذا التوازن .

وعندئذ نرى أن نتائج ما يسمى ، ولايخلو الأمر من التباس ، الثورة الصناعية الثالثة لاتظهر بسيطة . وان الآلية في المعمل ، منذ عشرة اعوام ، تثير اول سلسلة من الفرضيات ، وان آلية المكاتب وقسم من العمل الفكري ربما لاتذهب في نفس الاتجاه ، ولكنها تعطي على كل حال قيمة أخرى لوقائع يحكم عليها بصورة جزئية جداً .

الآلية والمجتمع

لقد لامست الآلية ، في المرحلة الاولى ، العمل المنتج مباشرة ، عمل العامل . وبالنسبة للتايلورية ، ثم العمل المتسلسل ، ظهرت تعرف

مرحلة جديدة لميكنة الورشة وتنظمها . ولكن نتائجها تبقى غامضة . وفي تعابير الاستخدام ، تجنح الآلية دون منازع الى تخفيض اليد العاملة من اجل عملية معينة . وقد وضعت التحقيقات التي اجريت حول ١٩٥٥ ، موازنات مقلقة للنقابات . واشار بيير نافيل [١] الى أهمها ، مصراً على الصعوبة في عزل دورة انتاج وفي قيـــاس النتائج الواقعية ، بنظرة جزئية ، للآلـية على مقـــدار العمل المطلوب : « ان رؤوس الاسطوانات [جنرال موتورز] التي يصنعها ١٧ رجلاً تنتج اليوم برجل واحد . ومونتاج كتل الاسطوانات يعمل بـ ٢٥ رجلاً عوضاً عن ١١٧ . وكتل الاسطوانات نفسها تصنع بـ ٥٧ مسيراً للعمليات عوضاً عن ١٥٠٠ . [ولكن...] ومن الصعب المقارنة بين أرقام التخفيض لأنها توجد في المجموعات الانتاجية التي لاتعطى عنها احصائيات كاملة والآلات الصانعة الناقلة تستخدم من اليد العاملة المباشرة اقل من الآلات الصانعة التي تقوم بالعملية نفسها من قبل . ولكن هذه الآلات والاشخاص الذين يخدمونها يتعلقون هم نفسهم بالمجموعات الانتاجية التي تكون احياناً اكثر عدداً بعد الآلية مما قبلها » . والعلاقات بين الآلية وحجم الاستخـــدام نسبية : ففي مستوى المشروع ، يتعلق كل شيء بالسير الاقتصادي لهذا المشروع ، وتوسعه ، وباستقرار وبتراجع نشاطه ؛ وفي مستوى الاقتصاد الشامل ، يكون الانعكاس اقل مباشرة : ويتوصل إلى نظرات في المجرات المسلكية ، وانتقال العمال بين الفروع والقطاعات التي يتعين توازنها في آخر الأمر بالتطور الاقتصادي والتقني ، في مجموعه ، لابهـذا التحويل التقني الخاص .

اما الذي تغير بجد فهو طبيعة العمل . ففي البدء ، في داخل مشروع من المشاريع يتناقص العمل الانتاجي مباشرة بالنسبة الى عمل

(١) Pierre Naville

التحضير والتسيير والبحث . ولحد ما ، في الفروع الصناعية ، يتنازل العمل أمام المكتب والمخبر . ولذا فان عدد الملاكات (الأطر) والفنيين والمستخدمين يكسب بالنسبة الى عدد العمال وان بعض المنظورات ، التي وضعت لفرنسا والدور من ١٩٦١ - ١٩٧٠ ، تلخص هذا الاتجاه . وهكذا تؤدي الآلية مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، الى تغيير في التسلسل المسلكي ، والعلاقات البشرية ، ومستويات المهارة. ولكن العمل الانتاجي نفسه يأخذ اتجاهاً آخر . لأن الآلية تنهي الانحطاط التدريجي للحرف القديمة ذات المهارة . واذا حذفت جزءاً كبيراً من العمل الجزأ الذي ينجزه العمال المختصون ، بتوسيعها ميكنة أقل طلباً للاشخاص الذين لايفيدون الا في سد الفراغ ، واذا ركبت من جديد العمل في اتجاه معين ، فذلك في مستوى مجموعة تقنية لافي مستوى حرفة .

والموازنة الكمية لهذه التطورات ليست سهلة الوضع : ففي داخل الفرع والمشروع ، حتى واحياناً المؤسسة ، تطغى الأعمار الفنية على بعضها ؛ ان قسماً من الاستخدامات تبقى متسلسلة حسب النماذج القديمة . ولذا فإن المعطيات تكون متناقضة احياناً . ولكن الاتجـــاه يتضح بتعابير وصفية : فمن مراقب الآلات إلى الفني ، هل يكون شغل العامل موحداً أو مفرقاً ؟ « ان الحس ، والفهم ، والنقل تصبح أهم من تحويل المادة أو ادارة الأدوات والآلات . ولكن هذه الطبقة العمالية الجديدة ليست موحدة اكثر من القديمة ولا يمكن أن ينظر إلى جميع اعضائها بأنهم مهرة . ومن الضروري أن يميز العمال الذين يسهمون في المعرفة التقنية من العمال الذين تقتضي ثقافتهم أو اعدادهم فقط إلى مراقبة سير الأجهزة ، بعمليات بسيطة ومعينة جداً . » (آلن تورين .) . وفي هذا الاتجاه ايضاً يختتم جورج فريدمان في ١٩٦١ دراسة في الصناعة

النووية بقوله : « علينا أن نعي اخطار التنظيم الثنائي الذى يقيم وحدة لايمكن اجتيازها شيئاً شيئاً بين ، من جهة ، كتلة المنفذين التي تطبق أوامر لايمكن الابتعاد عنها نظراً لفقدان التأهيل والاسهام ، ومن جهة أخرى ، المفكرون الذين يعتمد نشاطهم على معارف علميـــة وتقنية عميقة . » والعصر الصناعي الجديد لايحذف اذن الصفة الثنائية للعمل ولا الاخطار النفسية ـ الفيزيولوجية لتقسيم الاعمال ، حتى ولو تغيرت هذه الأعمال طبيعة وكيفية . ويستعاض أحياناً عن ايقاعات السلسلة بكثـــافة متفاوتة من الاشارات أو التعب الذي تسببه يقظة مستديمة دون عمل : « لقد جذبت أعمال كامبردج الانتباه إلى علم مرض (باتولوجيا) الوظـائف ذات الانقطاعات النادرة أو غير المحددة ، الخاص بالمجموعات الآلية التي تكون فيها الرقابة والرصد غير منقطعين أو سلبيين ، والمنشطات المتقطعة والنادرة ، والتي من الممكن أن تعقبها فجأة سرعة واكتظاظ في الاشارات تظهران انقطاعاً جديداً في الاحساسات . » (ج . كير) [١] . وبالنسبة لمعظم العمال ، لاتكون المكافآت في العمل نفسه ، بل تكون من نوع اقتصادي : الاجرة ، والتقسيم بين وقت العمل والوقت الحر ، وضمان الاستخدام . ولكن ، على خلاف القرن التاسع عشر ، تظهر هـــذه المكافآت مرتبطة بصورة وثيقة بتطور النظام التقني ، وبسلم المشروع أو باقتصاد البلد .

ان إدخال الميكانوغرافيا [٢] ، ثم الاستعلام أضفى على عمل المكتب جزءاً من مميزات العمل في المعمل . ففي المقـــام الأول ، نجد أن « الياقات البيضاء » بدورها مهددة بتخفيضات الاستخدام ، المرتبطة بالميكنة .

---

(١) G. Caire .

(٢) الميكانوغرافيا هي استخدام الآلات لتنفيذ عمل المكاتب .

ويقدر تحقيق بريطاني بـ ٢٠ – ٢٥ ٪ نقص الأفراد الذي عينته التقنية الآلية في نقل الأخبـار والمعلومات . ومن المعلوم أن استخدام هـذه التقنيات يتوسع ، ويجب أن تبحث توازنات سوق العمل على مستوى آخر . ولكن ، كيفياً ، يوجد تقارب بين استخدام « ثانوي » واستخدام « ثلاثي » . ومع الآلات ، والحاسبات ، والثاقبات ، دخلت الايقاعات؛ وأدى الاشراف ورقابة الطرق الآلية إلى نفس النتائج في الورشة الصناعية أو ورشة الاستعلام : لأن من يقومون بالعمليات لا يسهمون أيضاً في مفهوم العمل ؛ وبالنسبة إلى التنظيم التسلسلي للمكاتب القديمة نجـد أن عناصر الاستمرار – توزيع السلطة ، وجاهة العمل غير اليدوي – قد امحت ؛ وان قواعد الساعات ونظام الفرق الآلية من الصناعة تخفض اصالة الحياة المسلكية . والتطور هنا فـج لاسيا وأن المراحل احترقت وان الزمن الذي يفصل تايلور[1] عن الآلية أصبح مقتضباً . وكما في الصناعة ، ليس للميكنة نتائج ذات معنى واحد : لأن استخدام الطرق المنطقية والرياضية يظهر أنه يزيد مستوى المهارات ، ويقرب استعمال معطيات عمل علمي .

ويجب الا ينتظر أن الآلية تحل ، بشيء من التأثير الخارق ، قضايا العمل ، حتى ولو بدلت في الغالب محتواه . ان الزيادة العامة في مستوى التثقيف أو حتى المسؤولية لاتعطي على وجه التأكيد ، ولا تستثني من انفصالات جديدة ؛ وان الانقسام بين « المنفذين » و « المشاركين » يمكن أن يتفاقم وبالعكس ، ان تسارع التقدم التقني يطرح على بساط البحث من جديد وبشكل منتظم التخصصات والاوضاع المكتسبة ؛ ويعدد التنقلات في اتجاه لايكون ترقية دوماً – وكذلك عدم التكيف ، الذي يزعزع حتى الاستقرار المسلكي للمهندسين والأطر – ؛ ويدخل عدم يقين جديد

(١) Taylor .

في سوق العمـل ، في الوقت الذي تظهر فيـه اخطار الظرف الكادح مصححة بسياسات « دولة الرفاه » . وعلى المؤرخ إذن أن يحترس من خطرين : من جهة ، أن يلاحظ أن بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة يمكن أن تنجو من هذا الضغط الجديد للتقنية ؛ ومن جهة أخرى ، أن يفكر بأن التقدم الخطي المستقيم للتقنيات يأتي بالاجوبة الوحيدة . ان إدخال الآلة يهم التاريخ الاجتماعي في كل غنـــاه ويتأسس عليه ؛ فـــلا الفضائل المفترضة لنظام اقتصادي ، مهما كان ، ولا ارجـــاع التطور الاجتماعي إلى بعض المعطيات المأخوذة عن التكنولوجيا يمكن أن توضح العلاقات بين المجتمعات والتقنيات .

وهذه العلاقات تكون اكثر تعقيداً لاسيماوأنالآلة لاتغير شروط العمل فقط . والمرحلة الثانية للحركة . مرحلة العقل الالكتروني ـ هاجمت الاشكال القديمة لتسيير الاقتصاد أو الدولة . ومع الاستعمال المنظم للاخبار والمعلومات يدخل التنبؤ ، وحساب « التفضيل » والبحث العلمي في سبيل الحصول على أفضل النتائج في نوع الممكن . وان تخطيط الدولة ، والتخطيط على سلم المشاريع ـ وتدخل في ذلك الانظمة « الرأسمالية » ـ تتصرف منذ الآن بأدوات لاغنى عنها . ولكن الآلة لاتجهز بوسائل تسيير مطعمة على نظم محترمة . وقد أشار مسؤول عن مشروع عام كبير فرنسي إلى أن استخدام المجموعات الالكترونية يقتضي « اتحاداً جديداً » عاماً لدورات الاعلام ، حتى وفي الغالب إعادة تنظيم للمشروع ، ودون شك ، مع نتيجة ضروريةوهي إعادةتجميع المصالح الادارية » . ولكن هل هذه التحويلات تتلاءم مع جميع نماذج المشروع وصاحب المشروع ؟ ان طرقاً جديدة في التسيير لاتعني فقط تشكيلات مختلفة ، بل مواقف أخرى وتقريباً ثقافة أخرى . والقضية تتجاوز قضية تنظيم مشروع .

ونتائج الاستعلام مزدوجة . فالعقول الالكترونية تساعد ولاشك على « تعقيل » القرارات . ولكن معايير العقلانية التي يؤخذ بها في الحسابات والتحليلات هل يمكن أن تنجو من كل نقاش ؟ وعند عدم وضع الوسائل والارتباطات الداخلية على بساط البحث ، تصبح الغائية موضع نقاش اجتماعي . لأن البرمجة لاتبقى في نطاق العمل أو الانتاج : اد أن الانتاج المبرمج يتفق واستهلاكاً مبرمجاً . وان الدراسة العلمية للأسواق تتميز بصعوبة عن تنظيم الأسواق .

وان الاستعمالات الجديدة للعقول الالكترونية ، وبصورة واسعة لتقنيات استعمال الاخبار ونقلها ، تبشر بتغييرات أخرى تمس مباشرة الفرد والحياة الفكرية . فالتعليم المبرمج ، الذي يعتمد على « آلات التعليم » ، يفتح ، ولاشك ، دوراً تربوياً جديداً . وآلة القراءة ، التي مازالت قاصرة على اعمال بسيطة جداً ، تكثر امكانيات التسجيل وتصنيف الوثائق ... بانتظار آلة الترجمة . وقد بدىء باستعمال مجموعة جذاذات العقول الالكترونية لحفظ الاضبارات الطبية ، وليس التطبيب من بعيد مستحيلاً . وهكذا فان ميدان الحياة المسلكية كميدان « الحياة اليومية » يظهران مفتوحين بشكل عريض . ويفهم أن تاريخ الغد صعب الرسم . فبين تخفيض تقني ، ابتداءً من نسبة نمو هذا النوع التقني أو ذاك ، يعكس المستقبل ، دون الاهتمام بصورة كافية بتغيير الايقاعات ، ولا بدعامة اجتماعية واقتصادية للتقدم والاحكام العاطفية - كرفض أو قبول « حضارة الروبوطات » بحماسة ، من المتعذر تعريف فرضيات ، وتصور حركات .

غزو الفضاء

ان غزو الفضاء الموصوف بعبارات المغامرة والمنافسة هو ولاشك أقل المشاريع البشرية الكبرى مغامرة وأقلها اعتماداً على الحظ . انه نجاح كامل

للتكنولوجيا والتنظيم ، ورائعـــة صناعية ، وبناء اكثر منه اكتشاف بالمعنى التقليدي للكلمة . وليس في ذلك تصغير لقيمة وجرأة الملاحين عبر الكواكب والفضاء ، بل وضع دورهما الحقيقي في داخل النظام التقني الاكثر تأثيراً من الانظمة التقنية التي شادتها مجتمعاتنا .

وان سرعة هذا التاريخ انما هي بحق مظهر محير . ففي اثنتي عشرة سنة ، تم الانتقال من اطلاق أول قمر اصطنـــاعي تابع ، سبوتنيك ١ ، بزن ٨٥ كغ ، في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ إلى النجـاح المزدوج لابوللو ١١ و ١٢ ، الذي ساعد مرتين (٢٠ تموز و ١١ تشرين الثاني ١٩٦٩ على وصول رجلين إلى القمر . والنتيجة كذلك عظيمة لاسيما وان الحملة القمرية قامت بمحاولتها الولايات المتحدة بعد أن اعتبرت في البدء أنها في تأخر غير منازع . فقد اسيء تحرر بحث الفضاء في الأصل من الاهتمامات الستراتيجية الناجمة عن تحسين الصواريخ العسكرية عابرة القارات ، ولم يجد غائيته الخاصة الا تدريجياً . فمنذ ١٩٥٣ – ١٩٥٤ ، وبتأثير من كوروليف وسيدوف [١] ، بدا أن الاتحاد السوفياتي دخل في برنامج اكتشاف الفضاء الذي هو هدف مجتمع يناصر العلم طوعاً ويهتم بالتدليل على تفوقه التقني . ولم تقنع الولايات المتحدة بذلك الا مكرهة . وكان النظام الدفاعي لسنوات ١٩٥٠ يعتمد على الطيران اكثر مما يعتمد على الصواريخ . وبدت مغامرة الفضاء دون فائدة كبرى حتى اليوم الذي برهن فيه الاتحاد السوفياتي ، مع أول سبوتنيك على تقدم حقيقي . ولم يكن اطلاق الميمونة المهدية بوزن ٢،٥ كغ الاصدى ضعيفاً جداً وكذلك القوى الحقيقية الامريكية – تقدم الاستعلام ، تنمية الاجهزة – لم تأت لأول وهلة بنتائج عظيمة التأثير .

---

(١) Korolev , Sedov

واستحوذ الاتحاد السوفياتي اذن بشكل لامع على « اوليات » ملاحة الفضاء : فقد قام يوري غاغارين بأول دوران حول الأرض في ١٢ نيسان ١٩٦١ : وتبعه نيقولا ييف وبوبو فيتش [١] بأول محاولة طيران مزدوج ، في آب ١٩٦٢ ؛ وأخيراً ، جرت محاولة « السير » في الفضاء ، في آذار ١٩٦٥ . ولم تتأخر الانجازات الامريكية فقط عدة أشهر أو عدة اسابيع ، بل كانت تقنياً اخفض شأناً . وبين كبسولة موكوري [٢] وفوستوك [٣] ، اول نموذج لسفينة الفضاء ، اللذين تنافسا في السنوات ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، يوجد تقريباً اختلاف طبيعة . ولذا فإن البرنامج الامريكي لم ينطلق بحق الا في ١٩٦١ ، تحت تأثير مغامرة غاغارين . وعندئذ قررت الخطوط الكبرى لمشروع آبولو وهدفه النهائي ، الوصول الى القمر في العام ١٩٧٠ : وهذا القرار السياسي يشارك في اسطورة « الحدود الجديدة » وفي الأسباب الدولية .

ان انجاز البرامج الفضائية الكبرى يفترض اولاً تحسين مطلقات قادرة على رفع صواريخ ثقيلة في مدار وإلى مسافات متزايدة . ولنزع جسم من جاذبية الارض يجب بلوغ سرعات « كونية » واقعة بين ٧ر٨ و ٢ر١١ كم في الثانية . فدونها يسقط الجسم على الارض ؛ وفيما وراءها ينجو نهائياً من الجاذبية الأرضية ليصبح تابعاً للشمس ، ومن جهة أخرى ، ان الملاحة الفضائية ليس لها معنى الا بسفن واسعة تنقل عدة أشخاص ، وتجهيزات واحتياطيات طاقة تساعد على مختلف المناورات .

وليست ملاحة الفضاء غاية في ذاتها : لأن أهمية الحملات ، مثل نجاحها ،

---

(١) Nicoalaiev و Popovitch

(٢) Mercury

(٣) Vostok

مرتبطة بقيمة الأجهزة العلمية ، ونقل المعلومات ؛ وهنا أيضاً نجد ان النوعية الفضائية والبرنامج الدقيق ضروريان . وفي معرض الكلام عن تنظيم رحلة أبولو ٨ حول القمر أشار فرانسوا دوكلوزيه [١] إلى ضخامة هذه « التعبئة » يقول : « ليتمكن الصاروخ من الاشتعال في $\frac{١}{١٠٠}$ من الثانية على وجه الدقة في هذا الصباح من ٢١ كانون الأول ١٩٦٨ ، لزم ، خلال سبعة أعوام ، ٢٠٠٠٠ مشروع ، مشاريع الأشغال العامة ، ومشاريع الاستعلام ، مشاريع الالكترونيك الطبي ومشاريع الكيمياء ، مشاريع ميتشيغان ومشاريع نيوهامبشاير ، المشروع العملاق الذي يستخدم ٢٥٠٠٠٠ شخص والمشروع المتواضع الذي يستخدم ١٥٠ مستخدم ، والإدارات كالشركات الخاصة يجب أن تكون كلها جاهزة . » . ولكن يجب أن نضيف إلى تحقيق برنامج أبولو تحقيق البرامج المتوسطة : إرسالات متوالية للسبر على القمر وحول القمر : رانجر ، سورفيور ولونار اوربيتر [٢] : وتمارين معقدة - تغيير المدار ، ومواعيد فضائية - عمليات جيميني [٣] (١٩٦٥ - ١٩٦٦) ؛ محاولات ، اخفاقات - منهانكبة قمرة أبولو ، على الأرض ، في كانون الثاني ١٩٦٧ - ، ضربات إبهام للقفز ، حسب مخاطرة محسوبة ، إلى مراحل جديدة . إن تاريخ المغامرة الفضائية لها وقعها الدرامي ، محاولاتها ، أخفاقاتها ، ضحاياها . ولكنها ، بالاجمال ، تعتمد على أعجب نظام تجميعي في هذا القرن .

والخطر هو أن تقتصر القفزة التكنولوجية على غاية معينة - وصول

François de Closets (١)

Ranger , Surveyor , Lunar-Orbiter (٢)

Gemini (٣)

الناس الى القمر - وأن تتجمد سياسة الفضاء الامريكية فجأة بواقـــع انهاء برنامج آبولو . وتستعيد الاسباب المالية حقوقها أمام عدم اليقين بأهداف جديدة . وعلى الاساس الوحيد للنزول على القمر لم يؤد الجهد السوفياتي الا الى رفـــع ضبط بالاخفاق . ومع ذلك ، فإن التحري البعيد نحو مارس و فينوس ، بأسبار آليه ، اذا كان يبـدي أهميـة علمية بصورة وثيقة ، يضيف الى التقنية الفضائية نجاحات عظيمة ويهيء ، دون شك ، طيرانات جديدة مأهولة بالناس . وان رحلات ماوينير ورحلات فينوس(١) تعبر عن شكل آخر للمنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وان التخلي أو التأخيرات عن حملة بشرية نحو القمر ، اذا كانت تدع مجالاً للتفكير من جـانب الاتحـاد السوفياتي ، بتغييرات في الاهداف ، والمراحـــل ، أو الى صعوبات دون منازع ، فهي لاتؤدي الى سلبية بسيطة . لان الحذر ، والندرة النسبية لاطلاقـات سوايوز (٢) يجعلانها مهملة . فهناك سفن تحسن مأواها ، وامكان حطها على الارض ، وأبعـاد قيادتها تدريجياً عن الاخطار أو تقريباً عن المناورات اليدوية ؛ وتجارب مخصصة على وجه الظن لايضاح انشاء محطات فضائية وجمع سفن قوية في مدار : وربما أصبحت التقدمات اللاحقة لملاحة الفضاء بهذه البحوث أقل تأثيراً .

وفيما وراء هذه الاهداف التقنية ، يخضع اكتشاف الفضاء على الدوام الى دعوى تبرير . فمن جهة ، تطبيقات يومية تدخل منذ الآن في صنف المبتذل : مثل مهمة التوابع التقنية ، التي تعطي لدراسة علم الارصاد الجوية أو حتى الحوادث الارضية بعداً واضاءة جديدين وبين هذه الحوادث ، توابع الاتصالات ، التي حلت محل حبال الاتصال تحت المائية ، وهي محطات

---

(١) Mariner و Venus

(٢) Soyouz

لنشر المعلومات بموجات قصيرة - وبخاصة برامج تلفزيون - وهي معروفة اكثر من غيرها . وكانت المراحل مربعة بخاصـــة . فمن الصدى ١ ، وهو عاكس بسيط لموجات قصيرة الحياة ، الى التيلستار و ريلاي ، وهما لاقطان - مذيعان يغطيان ساحة جغرافية تتغير تبعاً لحركتها بالنسبة للأرض ، الى السنكموز والى العصفور الباكر ، الموضوعة في مدار أرضي ثابت ، قطعت المسافة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ .

واذاعات الاقمار الاصطناعية يجب أن تلتقط على الارض باسلاك هوائية ، آنتينات ، - مثل آنتين بلومور بودو - مضخمة ومذاعة انطلاقاً من هذه المحطات ولكن هذا ليس إلا مرحلة لأن الغاية هي إنشاء توابع قادرة على إرسال إشاراتها مباشرة إلى أجهزة لاقطة فردية وهذا ما يمكن بلوغه في العقد الآتي ومثـــل هذه التقنيات تزيل حواجز الاعلام . وتكسر دون منازع السيطرة التي يمكن أن تمارسها الدول . ولكنها تشير أيضاً إلى تسلسل الأمم : فالدول القادرة على إنشاء توابع ووضعها في مدار ستتصرف بحصر حقيقي ونظـام المواصلات الفضائيـة مزدوج : أحدهما متجمع حول الولايات المتحدة . مع انتلسوت ، والآخر يسيطر عليه الاتحاد السافياتي . ومن هنا يفهم أن الدول الاوربية ، ومنذ عهد قريب اليابان ، أخذت تهتم باطلاق توابع تقنية ، وكان عليها ، في المقام الأول ، أن تستخدم للاطلاق القواعد والصواريخ الأمريكية . وقد صنعت فرنسا الصاروخ الخفيف ديامان وبالمقابل ، ان انشاء صاروخ قوي قادر على اعطاء أوروبة الغربية استقلالاً في مجال الفضاء - مثل مشروع ايلدو ELDO - ، لاقى تأخيرات عديدة وأخيراً ، تظهر ، خلال هذه القضايا الفنية ، الجابهات الكبرى ، والاختيارات السياسية للعالم الحالي : علاقات القوى - التي تفرض تجمعات أو الحاقات - أو بحثاً عن تنظيم دولي . وان الالتباس بين الاهتمامات الستراتيجية والاستعمالات السلمية مازال قائماً على سلم التوابع التقنية .

ولا تنجو الملاحة الكبرى في الفضاء من هذه الورطة ، بالرغم من أن الفاصل هنا قد حفر بين « الدولتين » الفضائيتين وباقي العالم . والشجب المعنوي الأول يمكن أن يلفظ حيال ثمن البرنامج الذي تساء رؤية نتائجه المباشرة على « الرفاه » . وإن « المجتمع العظيم » في الولايات المتحدة كتفتح المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يمكن أن يكونا مهددين به. وليس التعديل وبطء الايقاع بمستحيلين . وعلى ما يبدو أن الاتحاد السوفياتي بدل مراراً التقاويم والأهداف . وكذلك تتساءل الولايات المتحدة اليوم.

ولكن من الصعب أن نفكر بأن تقف هذه الحركة العلمية المثارة بهذه المعرفة الأولى للفضاء والانسان في الفضاء . وهل تتلاءم مالياً وسياسياً مع الحفاظ على « القطب المزدوج » الحالي ، الذي يؤدي جملةً إلى تنافس البرامج ، الى صفتها غير التجميعية ، إلى تسلسل جديد للأمم ؟ وهل يتسامح بظهور اطماع جديدة أو حب اطلاع جديد ، مهما كانت أوربية أو آسيوية ، يعرف بتعابير المنافسة أو سباق العرقلة ؟ فبعد العلم النووي ولَّدَ علم الفضاء بين العلماء ، الاختصاصيين أو الأبطال ، تضامنات « رياضية » أو فكرية ، اضطرابات مشتركة . ولكن هل يمكن للخبراء أن يحكموا بين الفنية والبحث عن الغائية ؟ هنا أيضاً ، تنتهي سياسة العلم بالتفكير بالسياسة .

التقدم التقني ، الفرد والجنس

ولا يبدو أن التقدم التقني منطبق طبيعياً وآلياً أقل مما في السابق مع مصلحة الناس والجنس . ولنمر على التباينات التي يمكن أن تحدث الاستياء: ان المغامرات الفضائية تتواجد مع البؤس اليومي الذي يعانيه القسم الأعظم من البشرية . انها تعني فقط أن موارد الناس غير منظمة على السلم

العالمي . وليس الاستيـــاء إلا ظاهرة التفاوتات في النمو ؛ ولا يكشف في شيء عن تناقض في العلم نفسه . ومنذ الحرب ، على مسافة عشرين عامـاً ، نشأت أزمتا وجـدان تختلف كل واحـدة منها عن الأخرى : الأولى ، انطلاقاً من التفجيرات الذرية ، وسباق التجارب النووية ، وزيادة نفايات وبقايا النشاطات الاشعاعية . وقد أحدثت الاضطراب ، خلال زمن ، في صفوف الطبقة المفكرة ولم تلامس النفاذ إلا آجلا ، عندمـا بقيت في قلب العلماء وافادت ايضاً مصالح واهتمام مفاوضات الدول الكبرى . والثانية ، اندست في ازمة الحضارة التي ظهرت في ختام سنوات ١٩٦٠ وضمت في حزمة علائم عديدة لـ « عدوانات » خفية أو مفتوحة يتحملها الانسان في عصر التنظيم . وليست هذه العدوانات قضايا الاستخدام الصناعي للآلات الحبيسة نوعاً ما في ايقاعات الحياة في المعمل ، بل هي الانحطاط العام في بيئة الحياة ، الدرامة الايكولوجية . وقد أصبح المحيط بقلقه المربك والمحير موضوع الموضة . والكفاح ضد « الأضرار » و « التلوث » أو الشلل المدني يثير بدوره البحث التقني وتقدير الأثمان : وقد أصبح بدوره موضوع صناعة و ـ لم لا ؟ ـ وربح . ولكن الحلل يبدو متيناً .

والف الطب مع ذلك حول الانسان شبكة حامية عجيبة . وفي ثلث القرن تغير العلم والتطبيق الطبي تغيراً كلياً . وكان تغير مفهوم العمل الطبي اولاً . ولم يبد المرض بصورة أساسية لظاهرة للأجسام الأجنبية : وأصبح الطبيب فيزيولوجياً ؛ وامحى التقسيم الكارتيزي القديم بين الروح والجسد لصالح التفسير « العلمي » للداء والمعالجة .

وغير دور الطب ابعاده : ولم يعد مقتصراً على عمل دقيق ضد المرض . بل أصبح المراد منه متابعة الانسان ، خـلال جميع أعمال الحياة ، من نمو الجنين

إلى الشيخوخة . واهتم الطب أخيراً بالتقنيات الحديثة : تقنيات الكشف عن المخبآت ، ولكن اكثر من ذلك أيضاً ، تقنيات التحليل ؛ وجمع بين المختبر والبحث الاكلينكي ، وانفتح على الكيمياء الحيوية وعلم حياة جزيئات الخلية ، اللذين أتياه معاً بتفسيرات ووسائل عمل جديدة . وضغط توسع وتعمق الميدان الطبي وتنوع الطرق بالضرورة على تنظيم المهنة . فقد زاد ظهور تقسيم العمل ؛ وفقد الطبيب المختص بالطب العام اهميته بصورة مزدوجة أمام الأعمال الجماعية في الكشف ونمو الطب الاجتماعي ، وأمام تكاثر الأعمال الاختصاصية . ويضم هذا التطور تناقضاته . فالطبيب ينمحي في الوقت الذي يصبح فيه التدخل الجسدي الروحي حاسماً . وقد يخـاطر المرض فيسبق المريض . ويرى المريض نفسـه مأخوذاً في نظام تقني واداري يحوله عن قصده كما تحيره ايضاً منظورات الطب عن مسافة الذي يعتمد على الاستعمال المنظم للأخبار . ويمكن التنبؤ بالأزمة ، لأن هذا التغير في الطرق الطبية يمس العلاقات القديمة بين الطبيب والمريض ، نموذجاً من العلاقات الشخصية التي يدل تحليلها النفسي ، في مضمار خاص ، على العمق . وبهذا ، فان تطور الطب ، كنجاحاته العلاجية ، بلغ منزلة قديمة ، من التوازنات القديمة ، مجموعة اساطير ورموز .

ولاننس كذلك الثورة العلاجية نفسها . فقد حطمت قسماً من الانغـام والحنميات ، والمخاوف : وان نفاذهـا يقرأ ، كما رأينا ، على منحنيات الوفيات ، وبخاصة ، وفيات الاطفال والمراهقين . ويأتي اولاً تفتح التقنيات الباستورية (من باستور) .

ومع دراسة نقص الفيتامينات ، واكثر من ذلك ايضاً ، الاضطرابات الغددية أو حوادث تحولات العضوية الحية بالمواد التي تؤلفها ، نفذ

الطب إلى القوى والأصول السرية في التوازن البشري . وقد توصل اولاً إلى عزل ، وإلى تعيين المواد الجوهرية ـ الفيتامينات ، الانسولين في ١٩٢٢ ، والكورتيزون في ١٩٤٦ ـ ، وتحديد طرق تطبيقها وانجز الكيميائيون الحيويون تركيب الانسولين منذ ١٩٤٢ ، وتبع تركيب مشتقات الكورتيزون عن قرب الكشف عن الخصائص العلاجية للمادة . وأصبح بالامكان انتاج كميات كافية وبأشكال اكثر نفاداً من الناحية الطبية واقل خطراً . ومنذ ١٩٥١ ، بدا أن وعود علم الغدد عظيمة : « فعلى ضوء معطيات الطريقة التجريبية المطبقة على الحيوان وبمساعدة الاكتشافات الكيميائيه ، أخذ مرض السكر ، ومرض اديسون ، واضطرابات النمو ، واضطرابات الحياة الجنسية ايضاحات دقيقة والمعالجة الغددية هنا ستمنع الموت ، وفي مكان آخر ، تعدل الاضطرابات . » (ليون بينه) . ولكن في السنوات العشرين التالية ، وعلى صعيد الخلية يتم الكشف عن التأثير الكيميائي للهرمونات وعمل الـ A.D.N . [١] والبروتيئينات . وسبب بعض الاضطرابات النفسيه أو اضطرابات تحول العضوية ينسب الى النقص أو الى الافراط في بعض الخمائر ، وان الأمراض الكروموزومية ، مثل المونغولية (مرض التشوية الجسدي) قد فسرت أخيراً . وان الصنع التركيبي للخمائر ، وصنع الـ A . D .N . ذي النشاط الحيوي التام (١٩٦٧) فتحا ميداناً مازال غير يقيني للعمل الطبي . وفي بيولوجيا جزيئات الخلية والكيمياء الحيوية نجد ان ضبط حياة الخلية ، والظاهرات الوراثية والفردية الفكرية دخلت في علاقة وثيقة . وبتقدم الكيمياء الطبية أصبح بالامكان معالجة الحوادث المرضية ، بل وأيضاً اذا حوفظ على بعض الحذر حيال آثار التصور العلمي تبدو تباشير ووسائل

---

(١) A. D. N تعني الحامض المعروف تحت الاسم Acide désoxyribonucléique

التأثير الجديد على الفرد وعلى الجنس البشري . « وبطريق بيولوجيا جزيئات الذرة ، نحاول أن نكتشف كيف ان المركبات الكيميائية الموجودة في الدماغ تتداخل في عمل الدماغ نفسه . وعندما نجد الجواب عن هذا السؤال نستطيع أيضاً ، بطريقة التحليل العلمي ، ان نحاول الكشف عن العوامل الكيميائية والأدوية التي تستطيع أن ترصد وتخفف قلق المنفصمي الشخصية ، وفقدان الذاكرة عند الاشخاص المسنين ، ونقص مبادهة الاطفال المعوقين وان تقدم المعرفة يولد لا محالة نتيجة ضرورية وهي : امكان زيادة تحكمنا . » (كان وفينير) ويشير هذان المؤلفان الى منظورات تاثير على قانون الوراثة نفسه : فقد نجح باحث في جامعة روكفلر في مخبر في « تغيير وراثة الباكتريات بزيادة القدرة على توجيهها تبعاً لخطوط نوعية . ولهذا حقن حامض الـ A D.N المغيّر ليفسد القوانين الوراثية التي تتكاثر الباكتريات بفضلها . ويعتقد بأن العلم سيكون قادراً ذات يوم على القيام بنفس التغييرات المراقبة على الانسان ، وذلك بحقن امرأة حبلى فيروسات تحمل دليلا وراثياً ترجو نقله الى الطفل الذي لم يولد بعد » .

ولا يظهر ان الجراحة غيرت لهذه الدرجة مستقبل النوع . إنها تتقدم بالوضوح والدقة - كاستخدام الأشعة ، والليزر ، والجراحة بالتبريد ، والتجهيز الالكتروني الذي يساعد على تغيير السلم (المقياس) . وعمل العمليات الجراحية يدخل في سلسلة مستمرة من المعالجات التي تزيد حياة المريض حظاً بالعيش والمقاومة .

وفتح الحفاظ على التنفس والدوران « الاصطناعيين » إمكان تدخلات جديدة ، وبخاصة جراحة القلب . وأول عملية للقلب ، عملية التقلص التاجي ، تمت محاولتها في ١٩٤٤ : وفي ١٩٥٠ ، طبقت لأول مرة « والقلب مفتوح » ولكن الجراحة امتدت رويداً رويداً باستعاضة الأعضاء -

الاعضاء الاصطناعية ـ وهذا الصعيد لاستبدال الاعضاء المبتورة ما زالت حدوده ضيقة ، وكذلك أيضاً تطعيم الأعضاء الحية . وإذن فالعمل التشريحي يفقد جزءاً من أهميته ـ وفيما وراء ذلك ، تظهر من جديد قضية الفردية .

وهكذا فإن تقدم الطب والبحث البيولوجي ، في الوقت الذي يساعدان فيه على النفوذ إلى أسرار الفردية ، يبدلان صورة الإنسان والسلطة التي يمكن أن تمارسها الجماعة عليه . وليسا فصلاً منفرداً في التفكير الذي تثيره الحضارة الفنية . إنهما في قلب هذه الحضارة . وحدود الطب لاتأتي فقط من عدم كمال المعارف : إن الانتظار الطويـــل ، « انشكال » الأرض أمام الضرر ـ أو ربما الأشكال المختلفة للضرر الذين يؤلفه السرطان ـ لاتعبر إلا عن مرحلة صعبة ، ستقطع في يوم أو آخر . ولكن تبدلات البيئة والتبدلات ، التي تثقل بها البيئة الصناعية والمنظمة شيئاً فشيئاً على الإنسان ، لاتساعد على تحديد الهدف مرة واحدة تغني عن الكل . والمرض يتغير . وهو ينشأ من تحول شروط الحياة كما ينشأ من العدوان القديم الذي استبت السيطرة عليه . وفي الاضطرابات الفكرية ، والعصبية أو العقلية يسيء العلم كشف الارتباط بين الانحراف الكيميائي ـ الحيوي وعمل المجتمع . والتحليل النفسي ، من جهة ، والمعالجة النفسية للجماعة أو بحوث الطب النفساني الاجتماعي ، من جهة أخرى ، تسيء تحديد ميدانها .

إن فكرة البيئة أو المحيط تأخذ إذن بعداً آخر : فهي لا تطبق فقط على حذف بعض الأخطار ـ تكاثر التجارب النووية وأخطار « تساقط النشاط الاشعاعي » البعيد ؛ وأشكال أقل قابلية للرؤية تؤدي إلى زيادة الإشعاعات ؛ ونفايات مرتبطة بالصناعة أو بالمواصلات المدنية . ولاتستجيب فقط لتعريف بعض الأخطار التقنية ، التي تتطلب ببساطة حلولاً تقنية . وقد الح جورج فريدمان منذ عهد طويل على صفات هذه البيئة « الاصطناعية »

التي هي بيئة العالم الحديث : « فهل يسمح بالكلام عن تكيف جديد للانسان مع وسط جديد ؟ وقبل كل شيء إن هـــذا الوسط في تطور كامل ، سريـع ،متسلط، مضطرب ،ويفرض على الإنسان وفرة زائدة لامتجانسة من المنشطات [...] . إن التغيرات كثيفة جداً ، ومفاجئة جداً ، ومربكة جداً حتى إن عدم الاستقرار ، الذي هو من حيث المبدأ عامل ملائم للتطور النفسي للانسان ، يؤلف بالعكس ، في الدور الحالي ، عائقاً وتهديداً إن التقنيات التي تؤثر في الوسط هي في تطور مستمر وتتكاثر دون رقابة أو رصد ، ودون توجيه ولاتنسيق [...] . انها تبدلات تظهر منذ الطفولة مطبوعة على الادراك الفكري والمفسّر تدريجياً ، عالم صور ، يغرق فيه الطفل ، وصدمات مطبوعة بالتقنيات الحديثة على الاطر القديمة لرؤية العالم ، وعلى أفكار التوازن والمكان ، والزمان، والطاقة ويرى جيداً في أي اتجاه توجدهذه متنافرة،ومنحرفة ، ومشوهة . ولكن مازلنا بعيدين عن القدرة على الكلام عن التكيف من جـديد ، أي تحديد وتوضيح فكرات جديدة تقوم مقـــام القديمة . » إن التقـــدم العلمي والتقني هو إذن غير قابل للفصل ، إذا أريد رصد آثاره أو نتائجه ، عن انتروبولوجيا . وهو بين الحنين والاستعمال بمهارة ، يتطلب تفسيراً شامـلاً للنمو ، الذي لا يهمل بصورة منظمة قيماً صناعية قليلاً ، مثل علم الجمال . ولايقاوم التطلب ، الذي يعبر عنه غالبـاً بـ « رافد روحي » بارادة سياسية ـ واجتماعية في التحديث . إنه يصر بالعكس على الارتباط الوثيق بين الاخلاقي والسياسي ، على اختيارات تكون في الواقـــع مقترحة على الجنس البشري وتتوجه بالضرورة إلى مسؤوليات المجتمعات المنظمة . إن اتجاه التقدم التقني والعلمي، وسلطته ليسا شرطاً لتقدم المجتمعات : انها موضوع قراراتها.

الفصل الثامن

الانجازات العلمية المعاصرة[1]

تمهيد

من جذور عريقة القدم ، ومن حوادث حسية يومية ، ومن ضرورات الحياة المادية ، ومن استجابة لتحديات الطبيعة الاولى ، ومن احضان الدين ، بل ومن السحر والطلاسم والعشوائية الاولى ؛ من هذه الأصول لمتواضعة ، ومن تأمل في خلق السموات والأرض ، نبتت دوحة العلم فارعة ، ونمت مع الزمن ، وانبتت نباتاً حسناً ، وغدت متواشجة الأفنان وارفة الظلال . ومازال الانسان ، عبر الزمان والمكان ، باستخدام الملاحظة والتجريب والاستقراء والاستنتاج ، وما إلى ذلك من طرق علمية آخذة بالتحسين ، وتقنية آخذة بالتكامل ، يغنيها بالمآتي الجديدة ويرتفع بها عن الغيبيات ويسمو بها فوق الأساطير والخرافات ، إلى أن وصل بهـا إلى عالم اليوم . ولن تكون هنا نهاية المطاف ، بل ستظل الجهود تتلو الجهود ، والكشوف توجد الكشوف ، والاختراعات تولد الاختراعات وتحقق التقدم والرفاه عبر الأجيال ، لتجعل ما كان خيالاً وحلماً ، حقيقة وواقعاً .[2]

وهكذا نشأت علوم الرياضيات والطبيعة والانسان وتطبيقاتها ، وتطورت وزادت في قدرة الانسان على تنظيم معارفه ، والافادة منها ،

---

(١) نشر هذا البحث في « محاضرات الموسم الثقافي لـ رابطة الاجتماعيين» الكويتية ، الكويت ١٩٧٢ .

(٢) راجع : ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الاول ، نشأة العلم .

كما زادت بهذه القدرة والتنظيم سيطرته على الطبيعة وعلى نفسه أيضاً ، وبدلت موقفه من الظواهر ، فغدا إيجابياً لايعجب بسر ، ولاتأخذه دهشة ، بل يضع أمامه قضايا يريد حلها ، ويحاول بما أوتي من عقل ومعرفة أن يحل التحليل الفيزيائي - الكيميائي والمعالجة الرياضية للنتائج التي حصل عليها ، محل الاسطورة ، والعمل العاقل المفكر والمخطط مكان رد الفعل الغريزي [١] .

وما من شك في ان العلم لم يصل إلى ما وصل اليه اليوم الا بفضل تطور مديد ، ولكنه لم يعرف خطوات واسعة كالتي عرفها في القرن التاسع عشر الفائت ، وقفزات جبـــارة كالتي قفزها في مجاهيل القرن العشرين بالذات . لقد تغيرت المجتمعات البشرية وقيم الدول تغيراً كبيراً في هذا القرن بفضل تقدم العلم والوسائل التي وضعها بيد الانسان ومكنت قدرته وسيطرته ، وساعدت على تخفيف ، ان لم تكن ازالة ، عبء المرض والبؤس والجهل الذي أثقل كاهله منذ آلاف السنين . وأصبح العلم وما يصحبه من تقنية رمزاً للمجتمـع المتطور المتكامل ، بل رمز حضارة العصر ، عصر العـلم والتقنية وغدا إنسان هـذا العصر يشعر بأن دولاب الزمان يدور على عجل ، وأن نتائج الكشوف العلمية والاختراعات الحديثة لاتضاف إلى بعضها فحسب ، بل تتضخم باستمرار ويتضـــاعف مفعولها . ولايُعلم مدى هذه الثورة العلمية - التقنية التي نعيشها أو نراها خلال من يعيشها وتراها الاجيـــال القريبة القادمة في السنوات الآتية مـع استخدام الطاقة الذرية . فنحن في عصر يتسارع فيـه التاريخ .

---

(١) راجع : A. Mayer,Rev. Philosophique - oct, - déc. 1953.

والتقدم العلمي ملحوظ في ميادين مختلفة ، ولكن الحادث الاسامي هو نهضة العلوم الرياضية ، لأن تأثيرها اصبح قاطعاً في مختلف نواحي العقل البشري ، وجعلها لغة مجردة لجميع العلوم الأخرى . واتسع نطاق معرفتنا بالمادة ، وفهمنا للكون . وتلتقي في هذا الحقل فروع المعرفة كلها متواكبة لفهم هذا الكون اللامتناهي بعد أن أدت البحوث إلى وضع قضايا حادة وهامة : كالربط بين بنية الذرة وبنية الكون ، وما اليها من نظريات توضح جميع قوانين الفيزياء .

وخطت الكيمياء خطوات جبارة في مركباتها ، وانعكس تأثير هذه المركبات على الصناعة الصيدلانية والعلاج والغذاء والفيتامينات وما اليها وقد لايبعد أن نبدل طرق معاشنا عن طريق الكيمياء فنكون اكثر قرباً من تقاليد الانسان المتحضر الذي يستعمل المادة في صيغتها النهائية عوضاً عن استعمالها في حالتها الطبيعية كما فعل آباؤنا من قبل وكما نفعل في أيامنا هذه أيضاً .

ونضيف إلى ذلك علم الحياة وفروع العلم المشتقة منه أو المساعدة له ، أو المشاركة وما لذلك من صلة وثيقة علمية بالطب الذي أخذ يقوم بالمعجزات في التشخيص والعلاج والعمليات الجراحية الصعبة التي تكفل للمريض اجراءها في أحسن الشروط واوفرها راحة وطمأنينة . ومازال الطب يجاهد في التغلب على الأمراض والأوبئة وبخاصة الأمراض المستعصية دونما كلل أو يأس . وهو في كل يوم يحقق انتصارات عجيبة في مجال الصحة العامة .

وكل علم من العلوم يريد أن ينمي معارفة ، واجهزته وأدواته ، وكأن العلوم في سباق متناغم نحو التقدم ، وان كانت سرعة بعضها تتجاوز البعض الاخر ، لأننا مازلنا نرى تقدم العلوم المادية يفوق تقدم

العلوم المعنوية أو الانسانية ، وربما يكون مصدر ذلك إلى أن العلوم البحتة تعالج المادة ، وأن العلوم الانسانية تجاهد الانسان وفي الانسان غياهب ومتاهات مظلمة مازالت مجهولة ، ولكن العلم كفيل باكتشافها ذات يوم مع الأناة والصبر .

شرط العمل العلمي

واختلفت في هذا التقدم الصاعق شروط العمل العلمي . فبينا كان العالم حتى القرن التاسع عشر في برجه العاجي وعزلته العلمية اللامعة يعمل وحده في مخبره ، ويخرج بنتائج كشوفه بعد المعالجة الطويلة والصبر الدائب ، والامكانيات المتواضعة جداً ؛ بل وبينا كانت قبضة من العلماء تتداول المعلومات والكشوف ، نجد العلم في عصرنا الحاضر يحتل مكانة هامة في حياة المجتمع ، وفي ظروف جديدة تختلف عن الظروف السابقة للبحث العلمي النظري والتطبيقي : فعلى الصعيـــد الفيزيائي - الكيميائي - مثلاً ، نرى اجهزة بـــكاملها من الأشخاص العلميـــين والأدوات والوسائل والآلات ، وحلول العمل العلمي الجماعي محل العمل الفردي ، وتتساوى في ذلك البلاد الرأسمالية والاشتراكية ، ومـا ذلك الا لأن المنافسة القومية ، وبخاصة الدولية ، تدفع دوماً إلى تحسين دائم في الانتاج وفي طرق الصنع ، في عالمنا الصناعي الجديد المتحرك الذى يتعلق فيه النجاح بالتقدم الدائم المطرد الذي يوجهه التقدم العلمي .

ان التجهيز التقني الحديث يحتاج إلى رؤوس اموال عظيمة لاتستطيع تقديمها الا المشاريع الكبرى او الدول الكبرى . والمشاريع الكبرى تشكل تروستات لتحتكر حصر السوق بيدها . والدول الكبرى ترغب في أمنها والحفاظ على عظمتها . والبـــلاد المتخلفة تطلب إلى العلم حل

قضاياها الخطيرة التي تطرح أمام شعوبها . والتوتر الدولي يدعو إلى دفع النمو العلمي للبحث عن تقنيات الحرب والتدمير . وتحت تأثير هذا البحث تتدخل الحكومات في تنظيم العمل العلمي ومراقبته ومده بالأموال الضرورية بغية تحقيق أهدافها وحاجاتها المختلفة من اقتصادية وغذائية وعسكرية وغيرها . هذا مع العلم أن التحولات الداخلية للعمل العلمي ، والتنوع الزائد لفروع البحث ، والعدد المتزايد للباحثين والعاملين في جبهة واحدة للقيام بدراسات مختلفة في ميادين متشابهة ومتماثلة ، تعطي لهذه الأعمال طابعاً جماعياً وخاضعاً لرقابة الممول مع اختلاف الاغراض .

والعمل العلمي اليوم يخضع لقانون السر . لأن المؤسسات والدول تحرص على سرية اختراعاتها وكشوفها وتحيطها بسياج من الكتمان لئلا تنتقل إلى منافسيها . فضلاً عن أن بعض الاختراعات لها قيمة وقتية فاذا عُرفت بطل نفاذها ولم تعد صالحة للاستعمال أو وسيلة للتهديد والوعيد .

وهكذا أصبح العالم يعمل في النطاق الذي فرض عليه ويجيب على الأسئلة والقضايا التي يطرحها عليه مانحو الاعتمادات التي توجه البحوث العلمية حسب رغباتهم وتقيد حرية العالم .

وأدى تدخل الأموال الخاصة أو اموال الدولة ، في تنظيم البحث العلمي ، الى انتقال مراكز البحث وهجرة العلماء الباحثين ، والبحث عنهم في كل مكان ، واغرائهم بشتى المغريات المادية والمعنوية ، حتى لكأن العالم أصبح قطعاً نادراً تحاول الدول والمؤسسات الكبرى ادخاره وتعهده لاوقات العوز والشدة . وزادت قوة الجذب هذه مع ضرورات الدفاع ، والسباق الدولي ، والتجهيز العلمي ، وظهور الطاقة الذرية ، واجتاث الفضاء

ولكن العالم ، رغم تبعيته لمن يساعده على متابعة بحوثه أو لمن يعمل له ، تابع في الوقت ذاته لهذا العالم الذي يعيش فيه ، وعنصر

نشيط عامل في صنـــع التاريخ المعاصر . ولا يستطيع ان يتجاهل القضايا الاخلاقية والمعنوية التي تطرحها على وجدانه كشوفه النظرية وانعكاساتها التطبيقية ، لأن وضعه حيالها يكون حزيناً وبائساً كموقف العلماء اليوم من اختراع القنبلة الذرية وأثرها الفظيع في التدمير [١] .

الثورة العلمية والتقنية

في العشرين السنة الماضية خطا العلم خطوات كبرى ظهرت منجزاتها كثيرة ومتنوعة ، وهي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر كما يلي :

١ ــ السرعة العظمى السريعة المتسارعة التي وصلت بني البشر بعضهم ببعض على سطح الكرة ، وفي عالم الفضاء ، مع اختلاف التقنيات الآخذة بالتحسين يوماً عن يوم ، وفي تقارب البشر وجعلهم يعيشون وكأنهم في بلد واحد .

٢ ــ قوة المتفجرات التي ازدادت بشكل هائل باستعمال الطاقة النووية .

٣ ــ الكشوف الجديدة في الفيزياء وأثرها في العلوم الأخرى وتأمين سير الاجهزة الالكترونية .

٤ ــ زيادة حجم واتساع كمية المعلومات التي نقلها الإنسان في الفضاء وزادت باكتشاف الليازر التي افادت في هذا الحقل ويعلق عليها أمل كبير في البحوث العلمية الأصيلة .

٥ ــ التغييرات التقنية التي قلبت الحياة اليومية بشكل عجيب وتبدلت بها الحياة الاجتماعية .

---

(١) راجع :
Robin Clarke , La Course à la Mort , P. 11 , Seuil, Paris , 1971

٦ – تعدد المنتجات الجديدة الآخذة بالازدياد عاماً بعد عام في حقل النسيج واللدائن (البلاستيك) والتغذية .

٧ – ظهور الآلية الصناعية التي غيرت شروط العمل وتنظيمه وربحه ايضاً .

٨ – دخول التقنية الحقول الزراعية وتجهيزها بالادوات الميكانيكية والاسمدة الكيميائية والافادة من تطبيقات العلوم الحديثة في الاعمال الزراعية مع اختلاف أنواعها لتأتي بمحاصيل جيدة وانتاجية وفيرة ، وربط الزراعة بالصناعة .

٩ – كثرة الدراسات العلميـــة في مختلف ميادين العلم ، حتى ان الانسان ليجد نفسه أمام فيض من المعارف ، وماعليه إلا أن يحسن الاختيار . والحياة الاجتماعية نفسها أصبحت موضوع البحث العلمي . وما من ميدان من ميادين الواقع إلا واصبح موضوع دراسة علمية .

١٠ – الثورة العلمية الحديثة باكتشاف مصدر الطاقة الجديد الذي هو الذرة واثر ذلك على الصناعة ، حتى اننا دخلنا معها في ثورة صناعية ثالثة ، ثورة الالكترون ، بعد الثورتين الصناعيتين الأوليين ، ثورتي البخار والكهرباء .

وفي الحقيقة : نحن الآن في ثورة علمية وتقنية معاً : ثورة أساسها العلم وتجسيدها التقنية ، والحركية فيها تمتد إلى تطبيق المعرفة وطريقة توجيه المجتمع . (١)

والعلم والتقنية يتعاونان بشكل وثيق : فقد فتح التقدم التقني الأول

---

(١) راجع F. Bon /M. - A. Burnier, les nouveaux intellectuels, P. 3 et suiv., Seuil, Paris, 1971 .

العلم ميادين واسعة ، ولكن العلم بخاصة جر التقنية وتقدمها ، وفرض عليها قضايا ، وطلب حلها . وبتعاون العلم والتقنية امتدت العقلانية ، أو التعقيل ، الخاصة بالعلم إلى استعماله منظماً للنتائج التي حصل عليها.

ولم يعد النشاط العلمي نفسه نشاطاً مجانياً ، بل أخذ وزنا سياسياً واقتصادياً واجتماعياً عظيماً . وبالمقابل أخذت السياسة والاقتصاد والمجتمع تعين للعلم مجراه ، حتى ان مجانية العمل العلمي أخذت تنمحي أمام مظهره النفعي . ولاريب في أن التطور يختلف حسب القطاعات ، ولكن البحث الأساسي نفسه لا ينجو من هـــذا الضغط . لأن العلم ، في بلاد العلم ، أصبح بضاعة على مستوى الاقتصاد ، وقوة على مستوى الدولة . وأخذ يقوم بوظيفة اجتماعية ويتطلب تشكيل طبقة فكرية تنمي وتنشر وتستخدم التقدم العلمي نفسه من بحوث نظرية وتطبيقات عملية .

النتائج الاجتماعية

وتغيرت ظروف حياة الانسان الحديث في عمله وفي حياته اليومية بتغيير تقنية الانتاج التي ابتكرها تطور العلم . فقد خفضت الآلة جهده العضلي ، بل وقامت بالأعمال اليدوية الضخمة التي لا يستطيعها ، وحررت ، من جهة أخرى ، قسماً عظيماً من اليد العاملة ، واعطت انتاجاً يعادل ضعف الانتاج ، ان لم يزد ، الذي كان يعطى بالاجهزة القديمة .

ومع تقدم استخدام الآلة وازدياد أهميتها وتعقيدها ، تغيرت الصفات والأوصاف في الانتـاج وفي العامل : فالعمل بالقطع والأجر عليها لم يبق له ما يبرره بعد أن قامت الآلة مقام العامل .

وضعف شأن المهارة المسلكية ؛ فلاحاجة بعد اليوم إلى عامل ماهر مجرب أهل لصنع شيء بكامله واصلاحه ، أو إلى هذه اليد الصناع التي

أفادت أحياناً من « الأسرار التقنية » التي هي بقيـة من بقايا العصور الوسطى ، والتي تناقلها أبناء المهنة كابراً عن كابر . فبفضل الآلية اليوم وضع العامل أمام ميكانيكية تجنح إلى الاستعاضة عن عمله الشخصي ، وأصبحت مبادهته الفردية الآن محدودة بمبادهة المهندس .

ويقابل هذا النقص النسبي في الاستخدام اليدوي المشغول حالياً بحركات اختصاصية ، ظهور طبقـــة عاملة جديدة تتألف من عمال همهم العناية بالآلات والأجهزة واصلاحها عند الضرورة ، ويتطلب منهم بخاصة ثقافة فنية متقدمة ومندفعة أكثر مما في السابق .

ومن هنا كثرت المكاتب التي يدعى اليها « الفنيون » من مكاتب حقوقية ومالية ، وتجارية ، ومكاتب دراسة . وفيها يضع الرسامون والمهندسون التصاميم الجديدة ، وخطط الاجهزة ، ويعرفون ويحددون الطرق العقلانية التي تساعد على الانتاج في افضل الشروط .

وحصلت تحسينـات جديدة في تقسيم العمـل ، والعمـل بين المنفذين والموجهين . وضع العامل في بيئة جديدة محسنة من بعض الأعتبارات . فعوضاً عن المعمل المدوي الذي تلتقي فيه الاشرطة والسلاسل والبكرات والأحزمة ويتجمع فيه العمال حول الآلات الصاخبة ، يقوم الآن المعمل النظيف حيث لانؤور ولا دخان ، المعمل الذي لايظهر فيـــه الابعض الفنيين الذين يراقبون سير الآلات الصانعة القابعة في الخزائن المعدنية .

وهكذا فان قوة الساعد البشري ، الذي ظل حتى الآليـــة عاملاً هاماً وغالباً حاسماً في الانتاج الصناعي ، فقدت نفاذها مع تطبيق السيبرنطيقا ، أي عملية الآلية في درجاتها العليا باستخدام الكومبيوتر الالكتروني الذي هو رمز « الآلية العقلانية » في القرن العشرين . وتقوم هذه الحواسب الالكترونية بأعمـــال لا يقوم بهـا العمال . كما تقوم بأعمال مساعدة

تختلف بطبيعتها عما كانت تقوم به الآلة التقليدية : كالرقابة والتوجيه ، وتعديل سلوكها وفقاً للنتائج التي حققتهـــا في الماضي واحياناً التحكم الذاتي أو الآلي [١] .

وإذا أوجدت هذه الآلات المعقـدة بطالة في صفوف العمال ، فانها قصدت بخاصة العمال بمن ينقصهم التعليم الكافي وليسوا قادرين على التكيف مـع انتاج يضيق فيه المكان رويداً رويداً للعاملين غير المهرة وغير المثقفين ثقافة مسلكية خاصة . ولذا أخذت الثقافة المسلكية والتدريب المهني ، لتجديد المعلومات والتكيف مـع التقدم الصناعي والعلمي الجديد ، أهمية كبرى تفوق جميـع الاجراءات الاتباعية ضد البطالة . لأن اليد العـاملة لايمكن أن تكون قادرة على التكيف مـع عصر التغييرات المفاجئة إلا بالتعليم والتربية والتدريب والتحسين المتجدد باستمرار .

ومن هنا يمكن القول ان التقنية الجديدة صَعّدَتْ العامل ورفعت مستواه الفكري .

واذا اكتسحت الآلية المعامل ، فقد غزت المكاتب أيضاً ، وأصبحنا نجد في بعض المؤسسات أجهزة تقوم بأعمال غاية في الدقة والضبط والفرز ، والقراءة ، والختم وما إليها ، كالآلات التي تستخدمها مصلحة البريـــد في « تحرير » الرسائل .

ومثل ذلك مصلحة أمانة السر . فالأمين الخاص ، والضارب على الآلة الكاتبة والمختزل أصبحوا دون جدوى بعد آلات الاملاء والتسجيل وناقلات المراسلة التي ليس لها أي تماس مباشر مع من حرر النص الذي يجب نقله ،

---

(١) راجع مجلة « عالم الفكر » العدد الرابع ، ص ٩٣٣، بحث « السيبرنطيقا » للدكتور صلاح الدين طلبة ، وزارة الاعلام – الكويت ، ١٩٧٢

لأن الأجهزة الالكترونية تقوم بكل هذه الأعمال ، بآلاتها الحاسبة ، وآلاتها الاحصائية ، وسرعة حساباتها الدقيقة التي لا يقدر عليها الدماغ البشري ؛ الأمر الذي بدل شروط عمل المكاتب والادارات .

ان مصلحة تلفون ميتشيغان في الولايات المتحدة تستخدم آلات تسجل المخابرات، وتسجل أشرطتها المثقوبة المركز الداعي ، والمركز المدعو، واللحظة التي بدأت بها المخابرة ، واللحظة التي انتهت عندها ، وتجمع هذه المعلومات وتقدمها للمشترك عند حضوره جاهزة ودون عناء منه[1] . وهكذا استعاضت أكثر البنوك الكبرى وشركات التأمين والكثير من المصالح الخاصة والعامة عن امنائها واحصائيها ومحاسبيها الجازين بجهاز عديم الأوصاف من المسجلات الميكانيكية الآلية التي تقوم بنفس العمليات بكل بساطة تحت ادارة عدد قليل من المسلكيين الكاملي الأوصاف .

تغيير الحياة اليومية

وما من شك في أن نمو الانتاج ، بوفرة زائدة وبشكل عقلاني وقليل الكلفة ، قد ساعد في بعض البلاد على رفع مستوى الحياة المادية بنسب عظيمة ، بينما خففت ميكنة الأعمال المنزلية أعمال ربة المنزل ، وساعدت على انتشار الرفاه الذي تجهله السنون القليلة الفائتة ؛ هذا فضلاً عن زوال الخدمات الشخصية ، اللهم إلا للأشخاص الميسورين والمنعمين جداً .

وقد يبدو من الصعب لأول وهلة أن نتقبل امتداد تطبيقات الآلية والسيبرنطيقا إلى الحياة المنزلية ، وأن الروبوطات في العام الفين تقوم ، بأسعار معتدلة ، بالقسم الأعظم من الأعمال المنزلية . يقول أستاذ متحمس

---

(١) راجع : Maurice Crouzet, L' Epoque Contemporaine, P.711, P.U. F., PARIS,1957.

في الميكانيك الصناعي في كلية الملكة ماري في لندن : « سيكون في حوزتنا بعد عشر سنوات أو عشرين سنة روبوط يزيل عن الناس عبء الروتين اليومي والسخرات المنزلية » .

وإن أكثر ربات البيوت ، وهنّ أكثر استعداداً لقبول فكرة التطور من الرجال ، يتمنين ، بعد أزمة الخدم الخانقة ، التخلص التام من العمل الرتيب في الدار ، كتنظيف الأرض والحمام ومسح الغبار والتكنيس وتجهيز الأسرة ، وينتظرن بفارغ الصبر استخدام الروبوط . والواسطة المنطقية للابقاء على بعض الأهواء الشخصية في شكل الحياة مع تخفيف أعباء سيدات المنازل من السخرات اليومية ، هي أن يوضع تحت تصرفهن روبوط رقيق للقيام بعمل خاص في كل منزل ، ولا يبعد أن يأتينا العام ١٩٨٤ بمثل هذا الروبوط الخادم .

وبالمقابل ، إذا كان العمل اليومي يتطلب جهداً عضلياً أقل مما في السابق ، فان التوتر العصبي أصبح أعظم مما كان في أي وقت مضى . ان الآلة تفرض على من يخدمها جهداً دائباً مرهقاً يحل محل التعب العضلي المضني السابق مع مايصحبه من نفادِ عام شاق واستنزاف مبيد . وفي الواقع لقد خف « الرق الجسدي » ولكنه عوض بـ « رق فكري » مجهد ، كالتعب الذهني « بسيكاستينيا » ، والانهيار العصبي ، وفرط الحساسية ، وانشغال الفكر بحساب الوقت ، وإلى ما هنالك من أمراض صناعية يشخصها أطباء العمل . وان تكثيف العمل يؤدي أيضاً إلى تزايد عظيم في عدد الحوادث الخطيرة والاضطرابات العقلية .

وهذا العمل المجرد من كل أهمية فكرية وتقنية ، الذي يولد التعب العصبي ، يقتصر ، في بعض الأحيان ، على القيام بعمليات بسيطة تتكرر باستمرار فتصبح رتيبة وتحدث تشويهات في حركات الجسم ، وتولد السأم

والملل والضجر : فنظام جذازات التعليمات ، ووجود العدادات ،والمفتشين والمراقبين يجرح أنانية العامل ، فيقوم بعمله مكرهاً . والتقنية العاليــة المطلوبة لشغل وظائف التوجيه والادارة ووضع التصاميم ، والخطط تحرمه، أكثر مما في السابق ، من كل امكان الرقي الاجتماعي ، فيشعر بخيبة أمل،مسلكية تجره إلى نشاطات أخرى معوضة : كأن يبحث عن الفرار ، لأن حياته ليست في عمله ، ويقوم في أوقات فراغه بنشاطات متنوعة تذهب من أعمال البستنة الحضرية ، والقيام بمختلف أنواع المهن ، إلى النشاطات الفنية أو ممارسة أنواع الرياضات ، ان لم نقل الادمان على المكيفات ، التي يراها بعضهم ضرورية لارجاع التوازن الجسماني أو الفكري الذي أفسده العمـــل ؛ أو بالسياحة والتسليات المختلفة التي تقدمها له السينما والراديو والتلفزيون وغـيرها .

وهو في الوقت ذاته يقاوم هذا النظام الذي يرد الانسان إلى آلة بسيطة ، ويقوم على « تنظيم الاجهاد » ، وتهديد الميكانيكية والآلية له بالبطالة والانخفاض النسبي للاجور . ولذا يحاول أن ينفس عن نفسه بالاضراب والفتور ، والاقتصاد الارادي في مردود العمل .

والانسان بعد كل هذا وذاك روح تنبض بالحياة ، والآلة لا روح لها. وقد شغل هذا الموضوع الكثير من الكتاب والأخلاقيين ، فجعلوا التقنيات الصناعية مسؤولة عن تنميط الحياة الحديثة وقبحها وحذف كل هوى شخصي وأشفقوا على فقدان « الحرية » التي هي قضية الفرد . وقامت هذه الانتقادات في الواقـع بشكل معقول ضـد استخدام الآلات أكثر مما قامت على الآلات نفسها ؛ وضد نظام الانتاج الفوضوي لا ضد التقنية. وما زال الكتاب بين متشائم ومتفائل . فالمتشائم ، يرى أن السير المنتظم الذي حققته المعارف البشرية والتقدمات التقنية تواجدت مـع التقلبات

العالمية الكبرى كالحروب والأزمات الاقتصادية في هذه العقود الأخيرة من تاريخنا ؛ وان العلوم وتطبيقاتها امتزجت بالنوائب والنكبات والكوارث من كل نوع . وفي ذلك مايجعله يحمل العلم مسؤولية شرور العصر جميعاً .

وعلى العكس ، أن الرؤية المتفائلة للمستقبل تعتمد على تمجيد العلم والنمو التقني ، لأن العلم سينتصر أخيراً على آلام البشرية كلها . ولكن هذا لا يمنع من الألم في الوقت الحاضر ، بفضل سير العلم الكاسح الذي لا يقف في سبيله عائق أو عثرة ، العلم الذي يزيد في نفاذ العقل البشري وقدرة الانسان ، ويجعله يملك الوسائل التي تحسن بشكل حاسم ظروف حياته ، وتمد في عمره ، وتحرره من تهديد البؤس وتسمح له بتنمية شخصيته إلى حد كبير .

ومع ذلك فإن أكثرية الناس تشعر باحساس القلق وعدم الطمأنينة عن يومها وغدها ، لأن تجربة حربين عالميتين ، وما تبعها من أزمات ،وما إليها من منغصات تجعل حياة الانسان في صراع دائم ، وتوتر نفسي ، وتهديد قاتل .

ومن هنا أقام الكتاب الدعوى على العلم بل والدعوى على الحضارة كلها وعلى نوائب العقود الأخيرة وامتزج المظهران بشكل لا يحل : لأن موضوع القيمة النظرية والعملية للعلوم أصبح غير منفصل عن موضوع مصير الانسان ووجهة هذا المصير .

غير أن وجهة النظر المتفائلة مازالت سائدة وتبشر بفجر يوم مشرق في تاريخ الانسانية وتقدم الحضارة ، لأن تقدم العلم والتقنية يبعث الأمل بالعودة أخيراً إلى الانسان ، دون اهماله في الوقت الحاضر ، وتعهده بالعناية ليسمو بشخصه وروحه وفكره ويعيش عزيزاً كريماً . وإذا كنا نرى اليوم من التناقضات الحضارية وآثار العلم والتقنية مايؤذي الأبصار والأسماع ، فما ذلك إلا لأن العالم ما يزال يعيش في نظام يسوده سوء

التوزيـع . وان رسالة العلم والتقنية ، وبالتالي رسالة الحضارة الحديثة أن تزيل هذه التناقضات لينعم الانسان بالحياة والرخاء والكرامة ، ولينتج ويعطي أحسن ما عنده من عطاء . وعالم اليوم يجمع مراحل الصيرورة البشرية من عصور ماقبل التاريخ إلى اليوم . غير ان وسائل الاتصال وتحسينها وتسارعها تجعل هذا العالم يتجه نحو الوحدة بالزوال التدريجي لبقايا العصور السالفة ومخلفاتها وتطوير المجتمع .

وهنا نتساءل بقولنا ان العلم يطور المجتمع ، وهو المحرك الأساسي التقدم، ولكن هل الباحث العلمي عامل أساسي في سعادة البشرية يستلهم من هذه الفكرة دواعيه الاولى ورضاه عن نفسه ؟

لننظر اولاً الى العلاقة بين البحث الأساسي وتقدم المجتمع . ففي هذا البحث نجد فرعين هامين يكلفان غالياً ولهما شأنها العظيم في العلم الحالي وهما : فيزياء الجزيئات ذات الطاقات العالية ، وفيزياء الفضاء ، ولكن اين اسهامها في التقدم العام ؟ هنالك شبه اجماع على إن فيزيائيي الطاقات العليا لايقيمون أي صعوبـة للاعتراف بأنهم لا ينتظرون في هـذا الميدان أي تطبيق ، وعلى الأقل في الوقت الحاضر ولمدة طويلة . وان ابحاثاً علمية من هذا النوع توجـــد ولاتهم إلا نفراً قليلاً من العلماء الاختصاصين في العالم ، وان معظم أعمال البحث تأخذ طابعاً لايفهمه الا بعض الراسخين في العلم المتمرسين النادرين .

ولكن هذا لا يمنع من وجود ميادين أخرى يمكن ان يستشف منها امكانيات تطبيق ضخمة تعود بالخير على المجتمع : كالطب والفلاحة ، اذ يمكنها أن يأتيا اليوم ببعض الأجوبة التقنية لقضايا الجوع والامراض التي يشكو منها القسم الاكبر من البشرية . ولكن هـــل هذا ممكن التطبيق دوماً ؟ إن بعض البنيات الاجتماعية المعاصرة في حالة من الصعوبة

تجعل هذه الحلول التقنية غير قابلة للتطبيق أو بطيئة ، لما تكلف من أموال . وهذه القضية تزداد صعوبة في البلاد النامية التي يعوزها المال الى جانب أنواع العوز الاخرى . ولنفكر ، مثلا ، بمشكلة تأسيس المستشفيات وتجهيزها ، وبالطب المجاني للطبقات الشعبية ، والاسعار الفاحشة للمستحضرات الصيدلانية ووسائل البحث الطبي في اكثر البلاد المتحررة من الاستعمار .

واذا كان التقدم التقني ، كما رأينا ، يؤدي يوماً الى زيادة الانتاجية الصناعية ، فهذه الحالة غير موجودة أو قليلة جداً عندما تكون نتيجتها المباشرة تحسين شروط الجماهير الشعبية ، وفي مثل هذه الاحوال يلزم نضال اجتماعي مستحر ومستمر لاجبار الطبقات الموجهة على الانفاق لمثل هذه المشاريع . هذا اذا خلصت النية ، والمصيبة اعظم عندما تهتم الطبقات الموجهة بالامكانيات الجديدة التي يكشف عنها العلم الحديث ، وتحاول استعمالها لحسابها الخاص . ومن الممكن استخلاص نماذج علاقات مختلفة في هذا الصدد :

فعلى الصعيد السياسي ، نرى الدول الامبريالية تستخدم الى الحد الاعلى موارد العلم لتؤمن لنفسها تسلحاً من شأنه ضمان سلطتها ونفوذها . وعلى الصعيد العسكري ، وجد البحث العلمي تطبيقاته العديدة ، في السنوات الاخيرة ، قاصرة على الاجهزة المدمرة التي تنذر بشر مستطير . بيد اننا نرى ، من جهة ثانية ، ان دفع هذه التطبيقات ونفاذها يظلان محدودين ، رغم المساومة بالارهاب الذري : ولنذكر ان المقاومة الظافرة ، التي ابداها شعب فيت-نام للعدوان الامريكي ، تكفي للاقتناع بأن العلم والتقنية لا يكفيان في أي مكان لضمان القوة العسكرية والسياسية .

ولذا نرى ان الكشف العلمي وتطبيقاته التقنية يمكن أن تصطدم في الواقع فلا تقوم بما يطلب منها على الوجه الاكمل ، لان ظروف

هـــذا الواقع لاتسمح بذلك ولو موقتاً . والبلاد المتخلفة ، رغم رغبتها الملحة للحاق بركب العلم والتقنية ، مازالت تشكو الكثير من العوائق الجدية : من جهة المحكومين ، ومن جهة الحكام ، ومن الدول الامبريالية التي تتضافر جهودها على ابقاء الحـــال فيها كما هي ، أو في حالة عدم استقرار ، واستنزاف للأموال التي تصرف في غير وجهها الصحيح ؛ الامر الذي يجعل تقدم هذه البلاد جامداً أو بطيئاً أمام التقدم المتسارع الذي تحققه البلاد المتطورة .

وقد يقع أن يرتبط العلم بشكل من اشكال العقائدية التي تفرضها الطبقة الحاكمة ، فيدعى ، في مثل هذه الحالات ، ليضع قناع الموضوعية والتقنية على سيطرة هذه الطبقة . وعلى ضوء هذه الملاحظة يظهر العالم أو الباحث العلمي عميلاً لهذه القوى . وعن وعي أو غير وعي بهذه القوى التي يعمل في خدمتها ، يكون بالضرورة شريكاً لها . وفي مثل هذه الحال لايمكننا أن نتصور أن العلم للعلم . واذا قيل فذلك محض رياء . ولكن هذا لايجعل كل طبقة حاكمة مسيطرة ، وكل نخبه فاسدة ، وكل بحث لايأتي بالنتائج المرجوة منه ولو بعد حين .

اين نحن من التقدم العلمي ومنجزاته ؟

ما من شك في أن العلم ، في مساره الطويل ، حقق فتوحات عظيمة ، وما زال يحقق ويراكم النصر على النصر . ونظرة الى الوراء ترينا المسافة المقطوعة والشاقة . ولكن العلم تغلب على العوائق . وهو على استعداد التغلب على العقبات الأخرى التي يمكن أن تقف في سبيله .

لقد انتصر الانسان بهذا العلم انتصاراً مطرداً مبيناً على قوى الطبيعة

واخضعها لاغراضه ، وسخرها لخدمته ، واستطاع بمنجزات العلم أن يزيد في قوته ويهدد بها ، عند مقتضى الحال . ولكن العلم ، من جهة ثانية ، كشف عن عظمة الانسان وقدرته التي يريد أن يحيط بها الكون ، دونما نظر إلى فوارق جنسية أو حدود أو قيود أخرى . لأن العلم ، بمعارفه المتنوعة وتراثه الخالد المتجدد والمتطور والمتحرك ، ينشر حقائقه ونتاج تجاربه في تفسير الطبيعة والانسان نفسه على بني البشر جميعاً ، ثم لا يلبث أن يصحح معلوماته على ضوء تجاربه ومشاهداته وتقدم معارفه ، وفي ذلك مايقوي فينا فكرة النسبية عند الحكم على عصر ومقوماته ، أو على عالم ومعارفه ، وتجعلنا أدعى إلى الاعتدال في الاحكام التي نطلقها بعد معرفة المسلمات التي تجهزنا به ثقافة العصر ، فنرى أن كل عالم وكل معرفة ، وكل عصر ، انما يحكم عليه أو عليها بالظروف المحيطة ؛ وكذلك الايمان بفكرة التطور التدريجي ولو ظهر بمظهر ثورة . وان من خطل الرأي أن نحكم على عصر سابق بمسلمات عصرنا الحاضر ، وننسب إليه صفات النمو المتكامل التي نراها في عصرنا . والا لما كان تقدم حضاري ، أو أن البشرية نشأت متحضرة من العدم ، ومازالت على حالها كما وجدت متحضرة ، وتلك فكرة خاطئة يرفضها العلم .

وفي الحقيقة ، ان تطور العلم ، وبخاصة في هذا العصر ، عصر الذرة والفضاء ، قوى في نفوسنا نسبية المعرفة . فعندما اطلق الاتحاد السوفياتي أول قمر اصطناعي له ، في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ ، فاخترق طبقات الجو وتحرر من جاذبية الأرض ، اهتزت الألباب والقلوب لهذه الوثبة في المجهول وبعد أن استطاع يوري غاغارين أن يدور ، في ١٢ نيسان ١٩٦١ ، حول الأرض داخل قمرته ، وعاد سالماً ، كانت الدهشة أعظم ولا تقل عن دهشة سكان اوربة عندما اكتشف كريستوف كولومب امريكا في

العام ١٤٩٢ . وأما الآن ، وبعد السرعة المتسارعة ، فقد أصبحت رحلة الفضاء شيئاً مألوفاً في حياتنا اليومية ، كأنما هي انتقال من حي إلى حي في مدينة واحدة . ونحن مازلنا في بداية الطريق . وقد لا يبعد أن تنظر إلينا البشرية القادمة في الأجيال الآتية بأننا أناس متخلفون جداً، وأننا أناس من العصر الحجري أمام سرعة الضوء والقياس بالسنين الضوئية.

والثورة العلمية والتقنية ، التي نلحظ آثارها في عصرنا ، غير مقتصرة على الطاقة المنبعثة عن تفتيت الذرة ، وانما هي متعددة النواحي ، وما زال الانسان فيها يجري تجارب مختلفة ، في شتى ميادين العلم ، وربما أدت التجارب التي تجري على الاحماض في علم الحياة إلى استكشاف كنه الحياة ذاتها وأسرارها التي تعادل ان لم تفق أسرار الذرة أو الفضاء .

ونجد أن ٩٠٪ من العلماء ، الذين يشتغلون بالبحوث العلمية الحديثة ، مازالوا على قيد الحياة ، ويجالسون تلاميذهم الشباب . وهذا يعني أن انجازات العلم التي تمت على أيديهم لا يتجاوز عمرها خمسين عاماً ، وعلى الأرجح عشرين عاماً ، بل وعشرة أعوام ، وبالامكان أن نتصور مدى الانتصارات العلمية التي باعدت حدود المعرفة الانسانية .

وكما يغذى المال المال ، كذلك يغذي العلم العلم . وهكذا تتواكب العلوم وتأتينا بمعارف واكتشافات جديدة ، وبأبعاد مديدة .

واليوم وقد خطا العلم خطوات العمالقة وحقق الثورة العلمية ـ التكنولوجية ووضع بيد الانسان امكانيات ضخمة ليصرفها كيف يشاء ، وجعل منه قوة بشرية هائلة تغالب قوة الطبيعة الخرساء فتغلبها ، فمن الممكن أن ننتظر من الانسان ، وهو مسلح بسلاح العلم ، أن يكيف العالم بالصورة التي يراها تنمي مواهبه وتحرره من القيود التي يرسف بها ، لينتج ويبدع

في انتاجه ، ويحقق رفاهه ، وينعم بدنياه . لأن غرض الحضارة أولاً وأخيراً هو الانسان .

ولكن هذه الحضارة العلمية ـ التكنولوجية ، على ما فيها من آيات التقدم والتغيير الكافي والعام لجميع بني البشر ، مازالت تسود فيها التناقضات من كل نوع ، وإذا نعم بهذه الحضارة ورفاهها قوم بعد أن أنتجوها ونموها ، فما زالت هنالك أقوام على تخلفها تشكو عوز الحاجات الضرورية المادية ، وتزداد تخلفاً كلما ارتقى اولئك في معارج التقدم بسرعة الصواريخ والنور . يضاف إلى ذلك أن هذه الحضارة ، على ما فيها من قوة وسحر وجمال ، مريعة العطب ومهددة بالانهيار والدمار في كل حين ، لأن التوترات الدولية التي تحدق بها من كل جانب تنذر بهذا الخطر الذي تمسك به القنبلة الذرية ، ولنا في هيروشيما وناغازكي أسوة حسنة . ونحن دوماً تحت خطر حرب ذرية لا تبقي ولا تذر . وإذا نبه العلماء السياسيّين الى ضرورة انتاج القنبلة الذرية للتهديد بها فحسب ، فقد أنذرتهم هذه القنبلة وأرت الأنظار جزءاً من الاخطار التي قد تثيرها حرب كونية ذرية شاملة ولقد شعر العلماء بمسؤوليتهم تجاه المجتمع البشري ، ولكن بعد فوات الاوان . ومهما يكن فان القتل أنفى القتل .

وشهد عصرنا الحالي حربين عالميتين كبريين اشترك فيها جيلان متواليان من آباء وبنين . وما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها إلا وشعر الناس بكابوس الخطر الذري المطبق ، الذي يلوح به السياسيون والقادة العسكريون ، حتى ان الاجيال الصاعدة أحست بخيبة أمل كبرى وأخذت تشك بقيمة العلم والعلماء . وماثورة الشباب المعاصرة في بعض من نواحيها إلا تعبيراً عن هذه الغضبة ؛ وماخلاعة بعض الهيبين وحياتهم السلبية في المجتمع إلا افصاح عن اليأس من الحياة بعد الاحساس بالخطر المنتظر ؛ وما الاقبال

على اللذائـذ والجنس إلا تصريف لهذه الطاقات المكبوتة التي لا تجد من يسيرها في أقنيتها الطبيعية لتنتج انتاجاً طيباً .

وبهذه المناسبة نذكر ان العالم اينشتاين ، في العام ١٩٤٦ ، تملكته رهبة الخطر الذري فأصدر البيان الآتي :

« لقد قدم العلماء هذا الخطر ، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في عقول الناس وقلوبهم ، وليس في قدرتنا أن نغير ما في قلوبنا ، وأن نتكلم بشجاعة .

يجب علينا الا نبخل على العالم بما نعرفه عن قوى الطبيعة ، ولكن يجب علينا قبل ذلك أن نضع لها الضوابط لتأمينها ضد اساءة الاستعمال .

وإن من واجبنا الا نكون مبالين فحسب ، بل جد حريصين على ان نخضع انفسنا لسلطة واحدة تعمل من أجل السلام العالمي . يجب أن ندرك ان من المستحيل علينا أن نخطط للحرب والسلام في وقت واحد . وعندما تصفو قلوبنا وعقولنا ، عندئذ فقط نجد في أنفسنا الشجاعة للتغلب على الخوف الذي يسيطر على العالم » (١) .

وجاء في تقرير الاونيسكو : « لسنا في حاجة الى المعرفة فحسب ، بل في حاجة الى تطبيقها والاستفادة منها . ولكن هل في قدرتنا أن نستخدم العلم لتطوير أحوال الجنس البشري الى ما هو أفضل ! ؟ اذا استطاع العلم بابتكاراته ووسائل انتاجها أن يوفر للجنس البشري حاجياته ، بنفس النجاح الذي حقق به انجازاته الفيزيائية ، فلن يكون المستقبل القريب بغيضاً . وما الذي يستفيده الانسان من معرفة كل شيء في العالم اذا كانت ضرورات الحياة الاولى من غذاء وماء تنكر عليه آدميته .

لقد خطا العلم خطوات واسعة ، وفي المستقبل يستطيع الانسان

---

(١) راجع : زكريا هاشم زكريا ، فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم ، ص ١٢ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

العالم ان يخضع الطاقة الحرارية النووية والطاقة الشمسية ، وطاقة المدّ والجزر ، وقوة التيارات المائية في المحيطات ، والانتفاع بالطاقة الحرارية للأرض . ولكن يجب تنسيق الجهود لافادة البشر جميعاً من الثروات المتاحة ، وبالهام من شعارات الاونيسكو : حفظ السلام ، دعم الحريات والاستقلال ، وتقدم الناس أجمعين .

وعالم اليوم يتعرض لنوائب وحروب متوالية ، ولاخلاص للانسان ، بل ولاطمأنينة للبشرية في ظل حضارة تتنكر لمبادىء الاخوة والمساواة والعدل والسلام وسائر المثل العليا والقيم الاخلاقية . وسبق أن قال رجال عصر النهضة : « العلم بلا وجدان ليس سوى دمار للنفس » .

ونحن بحاجة الى أخلاق ، أو بحاجة إلى أن يحكم العلم قواه العقلية ، لأن العلم سلاح وحسب استعماله يكون للخير وللشر . واليوم وقد بدت الخطوط الأساسية لصورة العصر ، فإن من واجب العلم العاقل ان يسدد خطانا وأن يهدينا سواء السبيل ، لنكون اكثر تأثيراً على سياق قدرنا. ولقد قال مؤلف حديث : « الحوادث البشرية رد فعل متبادل بين القدر والارادة البشرية . ولما كانت الارادة متغيرة ، فشدتها تتعلق بنا ، ووعينا لهذه الارادة يضع حداً لمسؤوليتنا . ومسؤوليتنا الأدبية والعلمية التعمير لا التدمير واستعمال الطاقة في الأغراض السلمية لا في افناء البشرية . » .

الفصل التاسع

حضارة العصر

تمهيد

حضارة عصرنا الحاضر سليلة عصور عريقة القدم ، وثمرة جهود بشرية متضافرة ومتصلة عبر الأجيال ، وحصيلة انتاج آخذ بالتقدم يوماً عن يوم . واذا كان هنالك من نعت تنعت به ، فهي انها حضارة عالمية لاتعرف لها موطناً خاصاً أو بيئة معينة ، انها وليدة كل زمان ومكان .

لقد جرت بعض أقلام الغرب على وصف الحضارة الحديثة بالحضارة الاوربية ، وبخاصة حضارة اوربه الغربية . ولكن هذه الحضارة ما لبثت أن امتدت عبر المحيط الأطلسي ونمت في امريكا . وهذا ما دعا آخرين الى تسميتها بالحضارة الغربية ، لأن اوربه وامريكا من حضارة واحدة ، وذلك تمييزاً لها عن الحضارات الشرقية ، لأنها تختلف عنها كلياً . ولكننا اذا حللنا هذه الحضارة نفسها ، وجدناها تنحل الى عناصر مختلفة كثيرة ، ولا ترجع الى الحضارة الاغريقية ـ الرومانية وحدها ، لأن هذه الحضارة الأخيرة ذاتها ليست وليدة بيئتها فحسب ، بل انها تتألف من عناصر حضارات شرقية سبقتها بأزمان بعيدة .

(*) نشرنا هذا البحث في مجلة « عالم الفكر » ، المجلد الأول ، العدد الثاني ، الكويت ١٩٧٠ .

واذا كان الاعتزاز بهذه الحضارة يدفع بعض الكتاب الغربيين الى القول بأن هذه الحضارة من صنع الانسان الأبيض الذي أنشأها ونماها ونشرها في ارجاء كوكبنا الأرضي ، أداءً لرسالته التي حملها وحده دون غيره ، فان هذا القول يجب أن نعتبره مقبولاً في القرن التاسع عشر ، عندما كانت اوربه تتيه بتقدمها وازدهارها الحضاري ، وسبقها التقني الحديث ، والى ما هنالك من عوامل تجمعت وساعدت الدول الغربية الكبرى على استعمار القارتين القديمتين : آسيا وافريقية .

وفي الربع الثاني من القرن العشرين أخذت نغمة الانسان الآري مبدع الحضارة تقرع الأسماع وتعلو ، وبخاصة في المانيا ، في عهد هتلر ، الذي تبنى آراء ونظريات الفلاسفة العرقيين ، وأحل الانسان الآري مكاناً علياً ، ووصف عرقه بالتفوق وابداع الحضارة ، وغيره بالتخلف والركود .

ولو بحثنا عن الأسباب التي دعت الى هذه المزاعم ونشرها لوجدناها ترجع الى الغرور الذي تملك بعض المفكرين بعد أن رأوا حكوماتهم تفتح البلاد وتستعمر اهلها وتسخرهم لخدمتها بما يصدرون اليها من مواد اولية وسلع غذائية ، وبما يستوردون منها من منتجات مصنوعة وافكار وعادات وتقاليد وفلسفات .

ان نظرة فاحصة الى هذه الادعاءات تدلنا بوضوح على تجاهلها الحقيقة التي يجب أن تقال بحق وصدق : وهي انه ما من انسان أو عرق معين اختص بابداع الحضارة دون غيره ، بعد أن اثبتت التحاليل المخبرية فساد النظرية العرقية ، ونقاوة الجنس ، ودلت الابحاث العلمية على أن بني البشر كانوا على اتصال وثيق ، مهما كانت طرق المواصلات بطيئة ، منذ اقدم العصور ، واختلطوا بعضهم ببعض ، واعطى كل واحد منهم الآخر واخذ عنه ؛ وان الحضارة ليست حكرة خاصة ، بل هي ابداع

البشر جميعاً قديماً وحديثاً والى الأبد . فهي اذن حضارة عالمية ، ومن حق الجنس البشري كله أن يفخر بها ، لأنها حضارته ، ومن خلقه ، لافرق في ذلك بين انسان أبيض وانسان ملون أو بين عرق وآخر . اما أن تكون هذه الحضارة قد نمت وتطورت وتقدمت في بعض البيئات اكثر من غيرها ، فذلك أمر آخر ، ومرهون بشروط وظروف عديدة ساعدت على هذا النمو والتطور والانتشار .

ولاننكر ، بعد ، أن هنالك حضارات سادت في اقاليم معينة ثم بادت وتميز هذه الأقاليم عن غيرها ، كحضارة بلاد مابين النهرين ، والحضارة المصرية القديمة . غير أن هذا لايمنع من وجود اتصال حضـــاري قديم ومستديم بين البشر واغناء بعضهم بتجارب بعض . ولكن الحضارة الحديثة تمتاز عن غيرها بأنها عصارة تلك الحضارات التي سبقتها وآلت اليها ، وانها لاتريد في عصرنا أن تكون مقصورة على بلد بذاته أو قارة بعينها ، بل أن تعم العالم اجمع بابداعها ومنجزاتهـا ، وكلمـا تقدمت طرق المواصلات وتسارعت ، أن تجد سبيلاً الى الانتشار . ولم تبق جزءاً من كوكبنا الأرضي الا ونفذت اليه بوسيلة أو بأخرى ، حتى انها صعدت الى القمر بغية اتخاذه رأس جسر لانطلاق جديد نحو العوالم الأخرى وقد لايكون هذا اليوم عنا ببعيد ، حتى وكأن طموح هذه الحضارة لايقف عند حد ، فلا تلبث أن تحقق كسباً حتى تتبعه بآخر ، لتحقق ذاتها في عالم الافلاك وإطار الكون .

خصائص حضارة العصر

وهذه الحضارة مطبوعة بطابع التقدم العلمي الحديث والسريع ، مع ما يلازمه من تقـــدم التكنولوجيا . وهذا النمو العظيم والمتوازي

لكليهما معاً يعطي انسان النصف الثاني من القرن العشرين الايضاح الشامل الذي ينتظره من التأمل في الكون والمادة والحياة مع ما يشارك ذلك من فلسفة لفهم هذا الوجود .

والملاحظ أن التقدم في ميدان العلوم الرياضية يعتبر حادثاً أساسياً ، لأن تأثيرها أصبح واضحاً وقطعياً في مختلف مجالات الفكر البشري . لقد كثرت النظريات وتعددت بتقدم المعرفة ، واخذت كل قضية مطروحة أو محاولة تولد بذاتها قضايا كثيرة وأسئلة عديدة . ولم يعد الواحد منا يأمل ، حيث يعمل ، الا في معرفة عميقة في جزء من اجزاء المعرفة . ولكن الرياضيات تجاوزت ميدانها الخاص واستمرت في تطورها الصاعد منذ آخر القرن التاسع عشر حتى أصبحت لغة مجردة ولغة التعبير عند العلوم الأخرى .

وهذا التقدم العلمي يطمح اليوم ، كما كان يطمح من قبل ، ولكن بشكل افضل ، الى فهم الكون وفهم اسرار وجوده . وفي هذا الميدان تلتقي فروع المعرفة ، وان بدت ظاهراً متباعدة : فالرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة والطب والجغرافيا وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والراديو الفلكي (علم ملاحظة الكون) والملاحة عبر الكواكب تنتهي كلها الى مفهوم مقبول غالباً لكون لاينتهي في الزمان والمكان . ولأول مرة تحققت مكاسب عظيمة ودقيقة في معرفة مركبات الكون من نجوم ونظام كوكبي .

وفي قضية تركيب المادة بذلت جهود لمعرفة المركبات النهائية لها ، وأثارت البحوث في هذا الحقل قضايا هامة وصعبة ، كقضية الصلة بين بنية الذرة وبنية الكون ، وقضية مبدأ التقيد بقانون العلة والمعلول التي يقول بها الأمير الفرنسي لوي دو بروي الحائز لجائزة نوبل ١٩٢٩ ، وعدم

التقيد للفيزيائي الالماني فونو هايزنبرغ الحائز لجائزة نوبل ايضاً عام ١٩٣٢ . وكلا هذين العالمين يأمل في الوصول الى الهدف الأساسي بجميع الأبحاث القائمة حالياً وهو نظرية الساحة الموحدة ، أي معادلة المادة التي بحث بها آينشتاين وتوضح جميع القوانين الفيزيائية . وبتعبير آخر ، ان ظواهر النجوم تتضح بالفيزياء النووية ، وان النظرية العامة للكون ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية النواة الذرية (١) .

وفي معرفة الحياة تم الوصول في علم الحياة (البيولوجيا) الى اكتشافين هامين : الأول ، هو اكتشاف المضادات للحيويات (انتيبا يوتيك) . فقد سبق هذا الاكتشاف الحرب العالمية الثانية بعشرة أعوام عندما رأى الطبيب البريطاني السير الكسندر فليمنغ ، الحائز لجائزة نوبل عام ١٩٤٥ ، أن وجود العفن على سطح الزرع الجرثومي يقاوم نمو هذا الأخير . وفي ١٩٣٩ ، قامت فئة من باحثي اكسفورد بدراسة منظمة لهذا التأثير وعزلت البنيسيلين ، وفتحت بذلك الطريق لاكتشاف مضادات أخرى للحيويات ، في وقت بدأت فيه المعالجة بمركبات السولفاميد تفقد نفاذها بظهور سلالة جرثومية مقاومة لها .

والاكتشاف الثاني ، كان على الصعيد النظري ، وفي مضمار علم حياة الخلية : ففي عام ١٩٤٥ ظهرت النتائج الجزئية الأولى التي حصل عليها بواسطة الفحص بالجاهرة الالكترونية وتشريح الخلايا والكائنات الحية الصغيرة تحت الجاهرة ، وكيمياء الخلية ، وأظهرت مقارنة التجارب قيمة الحوامض النووية والدور الذي تلعبه في حياة الخلية ، لأن هذه العناصر تعتبر مسؤولة عن النشاطين المميزين المادة الحية وهما : التمثيل ، أي

---

(١) راجع : Marcel Pacaut et Paul Boujau, Le Monde Contemporain, P. 19, Armand Colin, PARIS, 1964.

القدرة على صنع مادة مماثلة تماماً لمادتها الخاصة ؛ والتكاثر ، أي الاستعداد لبناء خلايا حية . وهذه الأبحاث مازالت نظرية ، ولكن من الممكن القول بأنها ستنتقل في المستقبل القريب من نطاق النظر إلى نطاق التطبيق وتدخل في علم الوراثة ودراسة الأورام الخبيثة ، السرطان .

ولعبت الكيمياء دورها الحديث . فقد استطاعت بامكاناتها التركيبية الجديدة أن تشكل أجساماً عديدة لا تقف عند حصر ، وحققت ما كان يحلم به السيميائيون في العصور الوسطى ، وجهزت بمنتجاتها وسائل الانتاج لجميع الفاعليات البشرية ، ودخلت في مختلف درجات حياتنا اليومية ، وفي صناعة المنسوجات كمقو ، وفي اعداد الأصبغة والألوان والصناعات التحضيرية والتجهيز بالمواد الأولية والضرورية للزراعة ، وفي ميدان المستحضرات الصيدلانية والغذائية والمنشطات الجسدية . وليس بعيداً ، في المستقبل ، أن يستغني انسان العصر الحاضر عن المآكل والأطعمة بشكلها الطبيعي المعروف والمكلف والمضيعة للوقت ، ويكتفي ببضع حبيبات تغذيه وتدفع عنه ألم الجوع ، وتغنيه عن المطابخ والطهي وما الى ذلك من أدوات الطعام ، وتجعل منه انساناً نحيلاً واكثر روحانية واقل تعرضاً للأمراض واكثر مناعة ومقاومة .

واذن يبدو أن التقدم العلمي الصاعق صفة مميزة لحضارتنا الحديثة . اما أن يقال أن العلماء يستطيعون أن يجيبوا عن كل شيء اليوم أو في المستقبل القريب أو البعيد ، فتلك قضية خاطئة ولايمكن طرحها على العلماء ، لأنها تنفرهم ، وهم اعلم من غيرهم في الحقل العلمي وملابساته . ولكن المهم هو أن الدراسات العلمية المختلفة ، التي حققت مكاسبها ، أصبحت تؤلف عدة كبرى واجهزة عظيمة في فتح المجهول ؛ وأن العلماء

يؤلفون اليوم جبهة سلمية في معركة العلم التي تلتقي فيها انواع الدراسات وتتعاون معاً في تقدمه [١]

ومن جهة أخرى ، تتصف حضارتنا بأنها حضارة مطبوعة بطابع التقنية ايضاً . وهذه نتيجة من نتائج الثورة الصناعية الدائمة والمتطورة . وقد عرف تاريخ البشرية الثورة الصناعية عندما اخترع الانسان القديم الأداة وسخرها لأغراضه وحاجاته اليومية الطارئة ولكن هذه الأداة كانت بطيئة الانتاج ، ولاتؤمن كل ما يطلب منها ، لأن التقنية تعوزها . وهذا الفقر في التقنية كان عاملاً من جملة العوامل التي دفعت الى الرق لاستغلال الحقول والمناجم في امريكا عقب الاكتشافات الجغرافية الكبرى ؛ هذا فضلاً عن أن الرقيق لايحسن استخدام الآلة ، واكثر من ذلك ، أنه غير قادر على العناية بها وصيانتها [٢] . ومهما يكن فان هذه الأداة المستعملة على بساطتها كانت في حينها تعتبر تقدماً محسوساً وكسباً صناعياً وتقنياً .

وتقدمت الثورة الصناعية منذ استخدم الانسان الآلة البخارية والفرن العالي في اواخر القرن الثامن عشر ، ونشأت عن هذا الاختراع علاقات اقتصادية واجتماعية ، وتعينت هذه العلاقات تبعاً للتقنيات التي نشأت عن هذا التقدم . ولامرية في أن ادخال الفحم الحجري والآلة البخارية والحديد والنقل بالبواخر والخطوط الحديدية قد قلب العلاقات الاجتماعية ، وولد المجتمعات الصناعية وساعد على تحرير الرق ، لأن تقدم التقنية دعا الى الاستغناء عنه نوعاً وتحريره ، ولقد كانت انكلترا

---

(١) راجع : مجلة « Réalités » عدد حزيران ١٩٦٣ .

(٢) راجع : Henri Van Lier, Le Nouvel Age, P. 17, Casterman, 1962

رائدة" في هذا الميدان واولى الدول التي ارتقت عندهما التقنية قبل غيرها [١] .

غير أن تسارع التقدم التقني زاد في التناقضات وتعارض المصالح والمقاومة بين طبقة المنتجين وطبقة العمال في مجتمع منتجين ، أي في اقتصاد مجتمع يعمل قبل كل شيء التجهيز وصنع وسائل الانتاج . وقد ظهر هذا التناقض جلياً ايضاً بين التقدم التقني والعمل ، لأن العلاقات الاجتماعية أخذت شكلاً جديداً وهو التضاد بين اقلية منتجة واكثرية مستهلكة .

ولم تكن هذه الثورة الصناعية ممكنة لولا تقدم الحركة العلمية وتطبيق العلم في ميدان التقنيات التي نشأ عنها نمو صناعات جديدة كاستخراج المواد الخام من المناجم والصناعة المعدنية والحديدية التي تنتج العتاد الصناعي والأشغال العامة والأجهزة الرافعة ، والصناعة الكيميائية ، وتجديد الصناعات التقليدية ، وتجنيد الايدي العاملة في الصناعة ، ووسائل النقل الحديثة .

ونشأ عن هذا التطور حادثان عظيمان وهما : اولاً ، التزايد السريع في انتاج العتاد ووسائل الانتقال والمواصلات بشكل جديد يختلف تماماً عن الوسائل المعروفة التقليدية . ثانياً ، تشكيل الطبقة العاملة ، وقد بدأ شأنها يعظم يوماً بعد يوم . وأوجد الحادث الأول تميزاً واضحاً لاسابق له بين البلاد والناس ، بين من يصنعون ويملكون وسائل الانتاج الجديدة والمواصلات ، وأدوات التدمير ، وبين من لايملكون هذه الوسائل ويتعرضون الى الخضوع لقانون الاولين .

---

(١) راجع : OTTO DE HABSBOURG,Bientôt L,An 2000, HACHETTE,PARIS 1969.

ووضع الحادث الثاني تصنيفاً جغرافياً واجتماعياً للسكان : فقد كانت الصناعة الناشئة في القرن التاسع عشر تتركز جغرافياً في مناطق المناجم التي تجهزها بالطاقة أو بالفلزات المعدنية ، وفي مراكز عقد المواصلات ، وفي مناطق النفوس الكثيفة ، وفي النصف الثاني من ذلك القرن أصبحت المدينة نتاج النمو الصناعي أو التصنيع .

وساعدت الابحاث التي قامت في هذا السبيل على تخفيض سعر الكلفة وحث الاستهلاك المتزايد ، وتخفيض زمن العمل وعدد العمال المستخدمين لانجاز عمل معين ، وادخال الكم والكيف في مراحل تحضير الانتاج ، والاقلال من تعقيد الجهود والحركات المبذولة بتقسيم متزايد للعمل وتحديده وتسلسله وتوقيته .

وتقدمت انجازات الثورة الصناعية في مطلع هذا القرن منذ تعاقبت التحويلات الصناعية وظهرت مصادر جديدة للطاقة ومواد اولية جديدة ومهارس كبرى للمنتجات الصناعية ، لأن الآلة لم تعد مساعداً بسيطاً للانسان ، بل أخذت تنوب عنه ، وفي الحالات النهائية تتجاوزه بتحقيق عمليات لايستطيع القيام بها في مضمار الميكانيكية والعقل الالكتروني وفتح الفضاء وخرق حجاب الصوت وغير ذلك مما يأتينا به المستقبل القريب والبعيد من مفاجآت تتعدى نطاقنا الخاص في التحقيق والانجاز والعمل ، مما زاد في عدد المنتجات الصناعية دون انقطاع ، وفي عدد القطع الداخلة في بناء الآلة أو الجهاز المستعملين وفي تعقيدهما ايضاً .

ويظهر الدور الحالي بخاصة متميزاً بتحول أساسي في العلاقات بين الانسان والآلة . واذا كان حقاً ان العامل يخشى دوماً أن ترده الآلة الى البطالة ، فان العلاقة بين هذا الانسان والآلة آخذة اليوم في التغيير . لقد قللت الآلة ، في القرن التاسع عشر ، العمل المقبول لتحقيق انتاج

معين بتبسيط عمل الانسان وزيادة قوته ، ولكنها بقيت مساعدة له ، ولولا وجوده لظلت دون حراك ودون نفاذ . أما اليوم فان مراحل بكاملها من الانتاج او الحركات أصبحت الآلة تقوم بها وحدها ، وغدت رقابة العمليات الصناعية أو غيرها من عمل الأجهزة ، ولايتدخل الانسان الا من بعيد لتوجيه العمليات في تسيير المراحل الميكانيكية الضرورية . وهو يعلم ، عن بعد ، بواسطة وسائل الاتصال ، التي تقع تحت يده ، الحوادث الطارئة ليصحح الخلل ، كما يظهر ذلك في تسيير الأقمار الاصطناعية والسفن الكونية والاجهزة المستعملة في صنع الخطوط الحديدية والصناعة الميكانيكية ، وفي اعمال المكاتب تحت اسم أصبح معروفاً وهو الآلية (الاوتوماتيكية) .

وعلى هذا النحو أصبحت الآلة نفسها معملاً لصنع القطع وتركيبها لصنع اجهزة جديدة . وأخذت الأجهزة الالكترونية تساعد على القيام بسرعة فائقة جداً بعمليات وتصنيفات وحسابات لوجرت في أحسن الشروط لاحتاجت الى عدد عظيم من العمال خلال ساعات أو أسابيع . كما فتحت العقول الالكترونية ، أمام الصناعيين والتجار وأصحاب البنوك وشركات التأمين والطالبين النصح والارشاد والضاربين الاستخارة في قضايا الزواج والمتنبئين بنجاح الحروب والراجين بالغيب ، آفاقاً جديدة واسعة لاتقف عنه حد أو قيد .

واذن نرى ان بعضاً من حاضرنا أخذ يتحرك بفاعليات وتسلسل حركات آلية لم تحذف الانسان ، ولكنها ، على اقل تقدير ، قللت تدخله وردته الى حده الأدنى ، وبعثت في فكرنا عالماً جديداً ومستقبلاً قريباً أو بعيداً بكل مايسر أو يضر .

وربما يكون من السابق لأوانه أن نفكر بأن جميع الأعمال البشرية

يمكن أن تكون في وقت قصير آلية ، لأن بعض قطاعات النشاط قلما تكون على استعداد لآلية مربحة ومفيدة اذا كانت الحصيلة الانتاجية فيها تنمو بسرعة قليلة جداً ، لاسيما وأن الآلية الحديثة تتطلب ، كالبحث الذري ، مستوى تقنياً عالياً واحتياطياً مالياً عظيماً ، وهذا ما يجعلها امتيازاً من امتيازات الشركات الصناعية الكبرى والقوية جداً ، لأن هذه الشركات تستطيع بما لديها من امكانيات متعذره على غيرها أن تتجه نحو قطاعات نشاط جديد في حقل الانتاج والاستهلاك والخدمات . وقد يقال ان هذا الأمر يمكن أن يناط برأسمالية جديدة ، أو يقال انه يتعلق بالانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، عند شعب تحرر من اشكال العمل القديمة ولديه من الوقت الجاهز ما يستطيع التصرف به .

ومهما يكن فان الجغرافيا تميز بين البلاد التي يمكن أن تؤدي فيها الآلية ، بعد فترة من الزمن ، الى تغييرات عديدة في مواطن الانتاج والاستهلاك ، وبين البلاد التي لايمكن أن تشبهها ، ولو من بعيد ، وتجد نفسها مضطرة الى البحث عن شكل من اشكال التعاون والمبادلات مع البلاد التي تسلحت بالاجهزة الميكانيكية والآلية ؛ هذا فضلاً عن أنه يمكن النظر الى هذه القضية من وجه آخر : وهو أن نتساءل ما هو وضع البلاد الغاصة بالايدي العاملة العاطلة عن العمل التي يتضاعف سكانها في فترة جيل واحد اذا دخلتها الآلة أو اضطرت الى ادخالها ؟ لاشك أن البون يصبح شاسعاً بينها وبين البلاد الميكنة القليلة السكان نسبياً وعالم اليوم يزداد اختلافاً وتبايناً أكثر من أي وقت مضى مع ما فيه من ظواهر تدل على تقارب البشر ووحدتهم .

واذا كانت حضارة اليوم تتصف بتقدم العلم وتقدم التقنية فيجب أن نتصور أن لا فاصل يحجز بين العلم والتقنية . بل هما يعيشان عيشاً

مشتركاً ، وكل تقدم يصيب احدهما ينال الآخر منه وينعكس عليه ، ولايمكن تعيين الحدود بين العلوم والتقنيات . ويفرض نمو هذه الأخيرة على العلم القيام بابحاث واكتشافات ؛ ويدعو تقدم العلم الى تقدم التقنية . وهكذا يتمم احدهما الآخر ولاينفصل عنه . ولنذكر على سبيل المثال أن الصواريخ التي وضعت وحسنت قد أصبحت الآن من افضل وسائل اكتشاف الفضاء ومعرفة الكون ، وان المؤسسة القومية للملاحة عبر الفضاء الامريكية جعلت مهمتها العمل على تقدم علم وتكنولوجيا الفضاء ، وارسال امريكيين الى القمر ، وان ما يقارب نصف المليون من الرجال مسخرون للنفوذ الى امرار الكون وتعريف ظروف نظامنا الشمسي ، وان كل هذه الأجهزة جميعها تقتضي تعاوناً وثيقاً وواعياً بين العقل والآلة ، وان العلم والتقنية المتلازمين يسيطران على العالم ويلعبان في تطوره دوراً أساسياً ، وان الامكانيات التي تتيحانها لانسان النصف الثاني من القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين تبدو بغير حدود وتنمي عنده العاطفة بضرورة القيام بجد مستمر وشاق ومكلف واحياناً مخيب ، ولكن هذا لن يفت في عضد العلماء ، لأن الحياة عندهم علم ومعرفة وتفكير .

وقد ادى تقدم العلم والتقنية وتعاونهما الوثيق للانسان المعاصر خدمات جلى في حياته اليومية : فتقدم الطب ومنه المعالجة وصناعة الأدوية والعمليات التي تجري في أحسن الشروط ، والوعي الصحي، وتنظيم توزيع الأغذية ، ان كل ذلك قد ساعد ولاشك على تخفيض نسبة الوفيات وزيادة السكان : فالمجاعات والأوبئة والأمراض ، التي اعتبرت زمناً طويلاً من غضب الآلهة أو ظاهرات من ظواهر القضاء والقدر ، زالت

اليوم من سطح كوكبنا الأرضي ، أو على الأقل لم تعد كما كانت عليه بشكلها المخيف والمبيد والمزمن .

ولكن البشرية ما زالت تشعر بتناقض بين رغبتها الدائمة في تحسين ظروفها المعاشية وبين التزايد المتسارع في عدد السكان الذين يجب اشباعهم ، لأن الانسان ، حين يأتي الى هذا الوجود يأتي خالي الوفاض مستهلكاً ، وليس بالامكان دوماً اعطاؤه الطرق والوسائل التي يصبح بواسطتها منتجاً ليؤمن التوازن بين الانتاج والاستهلاك ؛ يضاف الى ذلك أن الحاجات والرغبات الجديد والمتجددة باستمرار قد ازدادت بنسب عظيمة في العقود الأخيرة من هذا العصر ، حتى ان اشباعها لم يتحقق الا العدد القليل من الناس ممن توافرت في بلادهم شروط التقدم الصناعي ، أو ممن تهيأت لهم الأسباب التي مكنتهم من ارضاء رغباتهم .

أما الاكثرية العظمى من الناس فإن تكاثرها العددي أصبح عائقاً ومانعاً يحول دون الوصول الى الحياة المتقدمة ، ولايجود الابالنزر اليسير ؛ وما ذلك الا لأن الفائض المتزايد للسكان يقف أمام كل أمل يرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي ويجعل بلوغ الرفاه العام أمراً صعب المنال .

وقد ترتب على هذا الفائض ازدياد التناقض بين البلاد المتقدمة حضارياً التي تريد أن يكون ازدياد عدد سكانها عامل غنى لها لأنه يساعدها على تسارع حركة الانتاج والاستهلاك وتنويع دورة الانتاج ، وبين البلاد المتخلفة التي تظهر عقماً اقتصادياً واجتماعياً بسبب طغيان السكان .

ولقد زاد سكان الأرض بشكل سلسلة هندسية : ففي أول هذا القرن كان رقم السكان ١٥٠٠ مليون نسمة . وفي حوالي العام ١٩٥٠ تجاوز الرقم المليارين ونصف المليار ، مع تزايد يقارب المائة مليون في العام ، أي بما يربو على مائتي ألف نسمة في اليوم . وتشير التنبؤات إلى

أن رقم السكان سيكون سبعة مليارات في العام ٢٠٠٠ . وإذا مددنا منحنى الأعوام حتى ٢٣٠٠ ، فهذا التمديد معناه الغد في عمر العصور الجيولوجية ، ولكنه يعتبر كافياً للوصول إلى رقم السكان لا يجد فيه الانسان موطئاً لقدميه على سطح الأرض .

وقد رأى المؤرخون أن رقم السكان في العالم في بداية التقويم الميلادي ارتفع إلى ٢٥٠ مليون نسمة ، وأن عدة آلاف من السنين مضت حتى انتقل من ١٠٠ مليون أو ١٢٠ مليون إلى هذا الرقم ٢٥٠ مليوناً . ولكننا اليوم نرى أن تزايد السكان يتم في سنوات قليلة ، وليس هذا التزايد واحداً في جميع القارات : فقد تضاعف سكان اوربة ويدخل فيهم سكان القسم الآسيوي من الاتحاد السوفياتي في قرن واحد من ١٨٦٠ إلى ١٩٦٠. وتضاعف سكان آسيا في الـ ٦٠ سنة الأخيرة ، ومثل ذلك سكان افريقية في الوقت نفسه . وتضاعف سكان أمريكا الشمالية في ٤٠ عاماً : وسكان أمريكا اللاتينية في ٣٠ عاماً هذا مع العلم أن انطلاق التسارع لا يوضع في تاريخ واحد بالنسبة لجميع البلاد .

وهذه الزيادة الرهيبة في عدد السكان تدعو إلى التشاؤم خوفاً من حدوث المجاعات بسبب قلة الأغذية . غير أن آراء رجال العلم في موضوع المجاعات وزيادة السكان ليست مجمعة ، وأن هذه الناحية لم تدرس دراسة جدية بعد ، ولم تعتمد بعد على احصاءات موثقة ، لاسيما وأن التقارير الادارية التي تتناول السكان كثيراً ما تشوبها المبالغة والابهام . وتدخل في هذا الحقل كثير من الاعتبارات الدينية والاقتصادية والسياسية ويرى بعضهم استعمال الموانع وآخرون عدم معاكسة الطبيعة ويتساءل الاقتصاديون اليابانيون المتازون ما إذا كان تنظيم الولادات والتخطيط العائلي ، بغية ارضاء رغبات المستهلكين المباشرة ، يمكن أن يحول أو أن

يبطيء التقدم العلمي والاقتصادي ؛ ويرون أن زيادة النفوس قد تشحذ الهمم في البحث لايجاد الأغذية الكفيلة بسد الحاجات ، وتساعد بالتالي على التقدم العلمي . ومازالت هذه القضية بين أخذ ورد .

وحضارتنا الحديثة مطبوعة بطابع السرعة المتسارعة : لقد كان الانسان القديم يصل إلى غايته دون أن يسأل عن الزمن . أما انسان اليوم فيسأل الوصول إلى لباناته في أقرب وقت وبأسرع سرعة ، ويحاسب نفسه على الدقيقة المهدورة سدى . وأصبحت المواصلات آنية ، وتنقل الأشخاص بالكيلو مترات الساعية والطائرات التجارية تجوب الفضاء بسرعة تفوق سرعة الصوت ، والتوصيات عليها قائمة على قدم وساق ، والذهاب من اوربة إلى أمريكا نزهة يومية ، ورجال السياسة والأعمال والخبراء والمهندسون والأطباء ينتقلون بسهولة وسرعة لا تتصور بين قارة وقارة ، وبيسر أكثر من انتقالهم بين اقليم وآخر في بلادهم لقد انعدمت المسافات أو أصبحت في حكم العدم ، وغدا العالم بلداً واحداً . وبالرغم من ذلك فان تحديد العلاقات بين البشر وانتقالهم ليس متعلقاً بتدخل المسافة الزمنية بل بتدخل السلطات والادارة والتأشيرات والمسافات السعرية .

حقاً لقد أصبح الاتصال سهلاً بين جميع أمم العالم ، رغم التمييز بينها ، وتغيرت أساليب الحياة بفضل هذا الاتصال السهل القريب البعيد ، ولكن هذا لم يمنع من وجود التناقض : ففي عصرنا ، نجد بعض الناس يفكرون ويعملون على صعيد الناقة والبعير ، أو على صعيد الكيلومتر ، واكثر الناس في العالم المتمدن يفكرون ويعملون ويتعاملون على المقياس القاري والعالمي وعلى صعيد الشمول واللحظات : فمن الممكن لاسطول جوي أن ينتقل من نقطة على سطح الأرض ويفني حياة الملايين من البشر ، ويجعل البلاد خراباً يباباً والديار بلاقع في اقل من بضع ساعات ،

ويعود الى قواعده سالماً آمناً . ومن الممكن ايضاً لبعض القواعد أن تطلق صواريخهـــا حيث هي ودون انتقال فتفني جزءاً من العالم بأمره . وتستطيع الطائرة ان تنقل الأمراض والأوبئة من مسافات بعيدة لولا الوقاية والحجر الصحي .

واذا كانت هذه السرعة تتجاوز المسافات الطوال : كالمحيطات والبوادي والجبال غير مبالية بعقبة ، فان سرعة العلاقات المحلية والاقليمية مازالت تشكو البطء : فمشاكل المواصلات بين المدن لم تحل بعد ، ولا يبعد أن توجد بين الأحياء في المدينة الواحدة . وقد تعزلنا العوامل المناخية كالثلج والمطر والفيضان من اقرب قرانا الى مدينتنا ، ونبقى على اتصال مع العالم بالراديو والتلفزيون . وهكذا يصل الترانزيستور ابن البادية ، وهو على ظهر راحلته يقطع البيداء ، بانغام الموسيقى العالمية وخطب الزعماء السياسيين واحاديث المدينة ، فيطرب ويعجب مما يدرك وما لايدرك ، ولكنه ، على كل حال ، يثقف نفسه بهذا الجهاز الذي لاتتجاوز ابعاده ابعاد الكف ، وليس ببعيد على البدوي ان يثقف نفسه بعد أيام معدودات بتلفزيون من نفس الابعاد والحجم يجمع بين الصوت والصورة وبين لذة السماع ومتعة المشاهدة . وسيستغني ابن المدينة عن جريدته اليومية فلا يهتم بها بعد أن تأتيه متأخرة عن سماع الأخبار بالراديو ورؤيتها على الشاشة . وسنخاطب عن قريب من نريد ونرى صورته أمامنا على الجهاز الذي نخابره به ، وهو بيننا حاضر غائب . وهكذا وصل الملاحون الثلاثة على متن آبولو ١١و١٢ الى القمر في خمسة أيام أو أقل ؛ ونقطع البحر المتوسط على متن الباخرة في خمسة أيام وبضع ساعات . ولن تدهشنا بعد اليوم رحلات الفضاء بعد أن دخلت في حركة حياتنا اليومية .

ولكن هذه السرعة المادية ، مهما بلغت ، أبعد من أن تصل أو تواكب السرعة النفسية في لغة العاطفة والحب ، لأن هذه لاتعرف حداً لقوتها عندما نبغي الوصول الى من نريد وما نريد . وما شدو أم كلثوم حين تغني « وغدي في هواك يسبق أمسي » الا دليل على هذه الحالة النفسية . ومثل هذه السرعة لم يتوصل اليها فرسان الفضاء الخارجي . بيد اننا في متعة الحب الصافي نستمهل الزمان ونرجو دوام الليل ونقول للشمس : « تعالي تعالي بعد سنة مش قبل سنة » .

ومن هـذا التناقض في العلاقات البشرية على مقياس كوكبنا الأرضي نستخلص فكرتين :

الاولى ، هي الشعور بالمشاركة مع بني البشر مع مافي هذه المشاركة من مخاطرات والتزامات . فما من أحد يستطيع اليوم أن يكون غير مبال بالحوادث الجارية ، مهما كانت بعيدة ، التي يمكن أن تتسلسل بسرعة فائقة وتكون مفعمة بالنتائج التي تعم الكرة الأرضية جمعاء : ان القضية الفلسطينية والحرب في الشرق الأقصى تشغلان بابعادهما المتصاعدة وجدان العالم بأسره .

الثانية ، هي اتساع نطاق القضايا الاقتصادية والسياسية على المقياس العالمي ، بينما تضيق فكرة الجوار وتفرض انشاء نظم للتنسيق والتوحيد بين البشر : مثل عصبة الأمم في فترة مابين الحربين ، ومنظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، والى ما هنالك من منظمات دولية في حقل الغذاء والعمل والصحة والتعليم والعلم والثقافة والتربية والمساعدة الفنية والتعمير والتنمية والاعلام والمعرفة العميقة لكل ما يتعلق بحياة حاضر العالم ومستقبله . وقد نجحت هذه المنظمات قليلاً واخفقت كثيراً ومازالت تتعثر في سيرها ، رغم الجهود المبذولة لتقويتها .

البلاد المتخلفة

ولكن الهوة مازالت سحيقة أمام هذه المحاولات الكثيرة في تعميم المواقف وشمول النظم . ولعل انقسام العالم الى كتلتين : الكتلة الرأسمالية بزعامة الولايات المتحدة ، والكتلة الاشتراكية برئاسة الاتحاد السوفياتي ، ليس الا الشكل الأساسي والوحيد في الاختلاف والتنوع .

وتبدو قضية التخلف شائكة في حضارة العصر ، لأن البلاد ، التي تتصف بهذا الوصف بحكم ظروفها التاريخية ، توجد خارجة عن حركات التصنيع الكبرى التي اقامت الاقتصاد الصناعي وطورت المجتمعات ، ومازالت رغم نموها الحديث محافظة على بنائها الاجتماعي العتيق ورازحة تحت وطأة طفرات ديموغرافية مذهلة ، وتحـــاول حلها فلا تجد لها حلولاً جذرية .

ومهما يكن من أمر هذه البلاد المتخلفة فان التطور السياسي ، في ظروفه الخاصة والعامة ، أدى الى استقلالها وخلاصها من نير الاستعمار الذي اثقل عليها وكان من جملة عوامل تأخرها فترة غير قصيرة من الزمن . وهي الآن تعاني ازمة النمو التي تنتاب عادة البلاد الحديثة الاستقلال . واذا كانت مصادر ضعف الحكم فيها ناشئة عن عدم التجربة وقلة الخبرة والجهل بالقضايا الاقتصادية والسياسية مع مايصحب ذلك من فساد وأنانية الزعماء ووحدانية الحزب الحاكم والشدة المذهبية والصرامة العقائدية التي تذهب الى درجة التطرف وتخوين الغير ، فيجب أن نعترف ان هذه الحالات ، رغم اخطارها الجدية ، ليست نوعية وخاصة خطيرة واشارات حمراء تحول دون التقدم الى الأمام ، لأن وعي الشعوب النامي والمتكامل مع الزمن كفيل بازالة الابهام ودفع الاخطار واحلال الرشاد محل الضلال .

واذا استقلت هذه البلاد سياسياً فاستقلالها مازال مريع العطب ، ومحفوفاً بالمكاره من كل نوع ، لأن الخلاص من الاستعمار سياسياً لايعني الخلاص منه اقتصادياً . وهي مضطرة بحكم ظروفها الموضوعية الى مد يدها الى عدوها بالأمس في سبيل المعونة الفنية والتنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي ، أو الى التعامل مع بلاد لم تذقها مرارة الاستعمار ، أو الحوار مع البلاد الاشتراكية في جو الصداقة والسلام والتفاهم والاحترام المتبادل والمساعدات غير المشروطة ، ولكن هل هي حقاً خالية من كل شرط ؟

ومامن شك في ان الحوار الاقتصادي ضروري للبلاد الراقية كما هو ضروري للبلاد المتخلفة . واذا كانت هذه الأخيرة تنتظر من الحوار الحصول على الوسائل المخففة لوطأة التخلف ، ان لم تستطع ازالته ، فان الاولى ، أي البلاد الراقية ، ترى في البلاد المتخلفة متنفساً لاقتصادها يمتص منها ، طوعاً أو كرهاً ، زيادة ، الخبراء والفنيين ووسائل التجهيزات الحديثة ؛ كما تمتص هي بدورها من البلاد المتخلفة بالضرورة احتياطياتها من المحاصيل الخام او تقاسمها وزقها الطبيعي الفوقي والتحتي بين تبادل الخبرات والمنافع والحفاظ ، في هذا التعاون المبني على المصالح المتبادلة ، على الصيغ القانونية والحقوقية التي تنجو من طغيان الاستعمار الحديث او من مخلفات الاستعمار القديم . وفي مضمار هذا التعاون يقوم التنافس بين العملاقين ، بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي ، في الاهتمام والبحث ، قبل كل شيء ، عن البلاد ذات القيمة الستراتيجية والاقتصادية ، ويأخذ التدخل السياسي تحت لباس الاقتصاد والثقافة الواناً عميقة او زاهية تختلف حسب درجة الاغراء وقوة المقاومة .

ولايخلو هذا التعاون الوثيق احياناً من اخطار ، وله مناقبه بالقدر الذي يساعد على النمو والتقدم وتحقيق المكاسب والأخذ بأسباب الرقي .

وله مثالبه بالقدر الذي تكون فيه المساعدات مشروطة ظاهراً أو مستترة لأنها تضع المتخلف ، شاء أم لم يشأ ، عن وعي أو عن غير وعي ، تحت رحمة المتقدم الراقي ، وتجعله يأتمر بأمره ويعمل بايحائه ولوكان مستقلا سليماً معافى . وإن الدول الكبرى العملاقة ، على ماهي عليه من حول وقوة ، لاتظهر قيمتها الا بقدر مايدور في فلكها من دول صغرى .

ولكن هذا التقدم ، الذي تحققه البلاد المتخلفة اللاحقة بركب الحضارة الحديثة ، لايعدو عن ان يكون صغيراً وقليلا اذا ماقيس بالنسبة الى التقدم بخطا الجبابرة الذي تحققه البلاد المجهزة صناعياً وتقنياً والعريقة بحضارتها . وهذا مايدعو الى اليأس فعلا ، رغم قوة الايمان ، حتى وكأن نوعاً من جبرية تفرض على البلاد المتخلفة لتبقى حيث هي ولو حاولت التقدم والرقي . وبالرغم من هذا الوضع الذي يدعو في بعض الاحوال الى القنوط ، فلا مبرر للبقاء على التخلف المقيم ولابد من السعي حثيثاً في طريق النهوض .

ازمة الحضارة

وآخر ما نصف به حضارتنا الحديثة هو أنها تعاني اليوم أزمة : فعصرنا الذي نعيش فيه تركيبي يضم عناصر مختلفة وغير متجانسة من ركام الحضارة وأفانينها في الخلق والابداع . انه عصر الكثرة والوفرة والتناقض والاختلاف والتنوع في كل شيء : في انماط الحياة ومستواها ، وفي الافكار والعقائد والمذاهب ، وفي شتى انواع التطور من قديم وحديث ، وكلها تجتمع على صعيد واحد ، في البلد الواحد ، وحتى في البلاد المتقدمة اكثر من غيرها .

واليوم ، وقد بلغت الحضارة ما بلغت ، يثور الانسان الواعي على هذه الحضارة وعلى ماخلقت من طرق ومناهج وقيم ومذاهب وتقنية ، ويحاول أن يقيمها ويجعل ما كان بالامس عقيدة راسخة وحقيقة مقبولة ومعطيات مسلماً بها ، موضع شك وتساؤل . ولاعجب اذا وجدنا حضارة العصر تعاني ازمة بل ازمات ، وابرز هذه الأزمات ثلاث : الازمة العقلية ، والازمة القومية ، والازمة الاشتراكية .

الازمة العقلية ، منبعثة عن ان الحضارة بما فيها من علم وتقنية ، وما هي عليه من تلمسات عديدة في مختلف الميادين ، تحاول أن تجعل من العقل رائداً لتسير على هداه فلا تضل السبيل . وقد توصلت الى الطريقة التي تجعل الانسان سيد الطبيعة ، وتهيء له جميع الأسباب التي « عقلنت » وجوده وسهلت له ظاهراً السيطرة على العالم وسلوك حياته ، ولكنها في الوقت ذاته افقدته وتحاول ان تفقده أسباب حياته وحريته . لقد اوجدت هذه الطريقة تكنو قراطيين يؤخذون بالميكانيكيات الاقتصادية دونما اعتبار كاف للعوامل البشرية ، وعقولاً مجردة ومتحجرة يتحمل نفوذها ويصبر عليها . وبلغت هذه القوى كامل سلطانها في الدول الدكتاتورية ، وتحاول ان تتسلل الى الأنظمة الديموقراطية عن طريق الخطط ووضع المناهج وجميع تدخلات الدولة التي لامبرر لها ، والحاق القيم الانسانية والروحية بهؤلاء التكنوقراطيين والبوروقراطيين المتحكمين . ومن هنا تخرج صرخة الضمير الواعي على العقلانية المستبدة التي تريد ان تسير الانسان حسب هواها وتحرمه لذة العيش كما يتصور ويريد . وهكذا ينادي الثائرون على العقل : « العالم ليس عقلاً » .

والازمة القومية ، تتجلى في الحركات القومية التي قامت في العـــالم

وادت في النهاية الى تشكيل دول قومية . ولكن التعصب للقومية دفع الى التقوقع في الاطار الاقليمي . ومثل هذا العمل السلبي لايضع حداً لتساط الدول الأخرى كما لايؤمـــن السلام في العالم . هذا فضلاً عن الحكومات المركزية التي تقول بتفوق الدولة تسخر لها الفرد والجماعة وتحرمها من حريتها وحقوقهمـــا المشروعة وتحكم فيها حزباً وحيداً تصل به الحال الى افقاد الشعب معنى الحرية والكرامة البشرية .

ولقد دعا التساؤل في هذه القضايا الى الخروج على القومية والانتقال الى مرحلة جديدة وهي مرحلة الفوقمية (الفوق قومية) وذلك بوجوب تصعيد الحدود القومية وجمع الأمم الموجودة ضمنها في منظومة قادرة على توكيد وجودها وقوتها أمام الكتلتين الكبيرتين . وهذا ماظهر في محاولات التنظيم الاوربي في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، كما في « المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي » التي تأسست في ١٦ نيسان ١٩٤٨ وتضم ١٦ دولة ؛ وفي منظمة « مجلس اوربه » الذي جعل مركزه مدينة ستراسبورغ وضم ١٥ عضواً وهدفه تحقيق اتحاد اوثق وتشجيع تشكيل رأي عام اوربي ؛ وفي « المنظمة الاوربية للفحم والفولاذ » التي اختارت مدينة اللوكسمبورغ لتكون مقراً للسلطة العليا لهذه المنظمة ؛ وفي « الأسرة الاقتصادية الاوربية » او « السوق المشتركة » ؛ وفي « الاسرة الاوربية للطاقة الذرية » أو الاوراتوم » ؛ وفي « الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة » ، وكلها كوات تطل على عالم يتجاوز حدود القومية ويتطلع الى اتحاد اعم واوسع .

والأزمة الاشتراكية ، نشأت من الافراط في تطبيق القواعد العقلانية على الحياة السياسية والاجتماعية ، بعد ان اظهرت التجربة الانسانية عيوبها وانقسامها على نفسها في الخلاف القائم اليوم بين الاتحاد السوفياتي

والصين ، بين نظام يريد التحلل من قيوده ، ونظام مازال في حداثة سنه وعز شدته . وتوضح هذه الازمة الاشتراكية الثغرة التي حدثت في قلب العالم الشيوعي وتعقيد العلاقات التي يريد توثيقها مع العالم الغربي ، كما توضح ايضاً تطورها نحو تحقيق مغنم من الحرية مازال محدوداً وضعيفاً .

ومهما يكن من أمر هذه الحضارة فيجب الا ننكر أنها حققت ، منذ مطلع هذا القرن ، رقماً عظيماً وأعمالاً باهرة ، وآخر ما حققت نصران مبينان وهما تطعيم القلب والوصول إلى القمر ، ولن يكون هذا النصران الوحيدين والأخيرين . وقد كانت هذه المغامرات الفائقة ، قبل سنوات قليلة ، في حيز الخيال والأحلام . أما اليوم فقد فتحت آفاقاً لا تحد في تقوية الأعضاء المتضررة أو البالية المتوهنة ، وفي المواصلات الحرة عبر الكواكب بفضل العلم الحديث والتقنية الحديثة المتجددين دون انقطاع . وان العقل الالكتروني يؤكد لنا عن يقين بأن تسارع التقدم ، وهو صفة مميزة لحضارة العصر ، أبعد ما يكون عن بلوغ حدوده القصوى ، لأن البحث العلمي الدائب المستمر ، بما لديه من عقول بشرية وأدمغة الكترونية ساعد على القفز فوق الحسابات العادية المملة ، وسار بالانسان خلال جيل إلى الأمام في معرفة الكون والعالم بما لم تعرفه البشرية منذ آلاف السنين . ولعلنا نتساءل بعد هذا عن المفاجآت العديدة التي ننتظرها في العام ٢٠٠٠[١] .

لقد بلغ المجتمع البشري في الشعوب الطليعية النمو مستوى الرفاه

---

(١) راجع في هذا الموضوع :

Hermann Khan et Anthony J- Wiener, L'An 2000, Robert Laffont, PARIS, 1968

Alvin Toffler, Future ShocK, Pan BooKs, London, 1970

والأمن والوفرة ، ونعمت الأكثرية الساحقة في هذه الشعوب بما لم تنعم به في عصر سابق . ولاشك في أن مجتمعات بشرية أخرى مازالت تعتبر محرومة ، ولكن ما نجده تحت تصرفها وفي متناول يدها من نعم الحضارة الحديثة وخيراتها يفوق أضعافاً مضاعفة ما كان ينعم به الأمراء الاقطاعيون في العصور الوسطى ، والبورجوازيون في القرن الفائت . وإذا قارنا تحسين شروط الحياة في عصرنا الحالي بزيادة متوسط عمر الانسان ، وقبلنا أن التقدم يتفاوت حسب البلاد وحسب الشعوب ، فاننا نقبل أيضاً أن التقدم حاصل في كل مكان بل وفي المناطق المحرومة ، وأن هذا التقدم قد تسارع كثيراً في مختلف الميادين نحو مزيد من النعيم والسعادة وطول العمر والفراغ وتحدى الطبيعة والموت ، وفي سبيل مساواة أعظم وتوزيع للخيرات أشمل . وأصبح معروفاً بالبداهة أن هدف هذه المجتمعات الحديثة ليس الوصول الى الحد الادنى من الحياة ، بل بلوغ المزيد والمزيد المتسارع دوماً وأبداً ، ويتساوى في هذا السباق العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي وما دام الامر كذلك فهل ينتهي السباق إلى لقاء بني البشر على صعيد واحد تذوب فيه العقائديات ويصبح البشر أقل تعصباً لمذاهبهم ، وهي في حقيقتها وسائل لبلوغ المنى ، ولا تناحر بعد اليوم !

اختلاف الآراء في النظر الى حضارة العصر

ولكن الحضارة ، على ماقدمت وأحرزت ، مازالت موضع شك . ويعتقد بعضهم بافلاسها ، وعدم قدرتها على منح الانسان الكرامة والشرف . ولاشك في أن هذه الضجة القائمة حول حضارة العصر لم تلق صداها لولا أنها عبرت بنفسها عن القلق الذي يخامر النفوس ، لان هذا القلق ناشيء عن التقدم ، رغم سرعة هذا الاخير المتزايدة ، وبسبب هذه السرعة نفسها. والانسان المعاصر يشعر بعد هذا بتبعيته لانتاج الخيرات المادية واستهلاكها

ولذا يتملكه القلق والتبرم عندما يرى نفسه مكبلاً بهذه القيود والعوائق. وبرغم أن التقدم العلمي والتقني والاقتصادي حل العظيم من مشاكله ويحاول أن يحلها بشكل أسرع ، فان هذا التقدم نفسه يخلق للانسان مشاكل جديدة ويضعه أمام صعوبات وتحديات لا يمكن التنبؤ بها . وهو في كل يوم أمام تغيرات أوسع وأكثر تعقيداً . ولا يكاد يستقر حتى تتدخل تغيرات أخرى تعترض سبيله فيحاول التكيف معها أيضاً . وهكذا يظهر تأخره عن تقدمه ، وهذا التأخر آخذ بالتزايد . ومن الاخطار الجديدة الناشئة عن تسارع التقدم قضية استئناس الذرة والنتائج الخطيرة التي تترتب عليها في الحال والاستقبال على مصير البشرية والارض .

وهناك قضايا أخرى أساسية لا تتعلق بظاهرة خاصة بنتائج التقدم ، بل بقانون التقدم نفسه ، كزيادة عدد السكان وضرورة اطعامهم واقامتهم بعد أن أشارت التنبؤات إلى أن عدد سكان العالم سيصبح ٧ مليارات في العام ٢٠٠٠ . وهذه المدة كافية للوصول الى رقم لا يبقى فيه على سطح الكوكب موطىء لقدم انسان . وقد يقال ان الارض إذا استغلت استغلالاً عقلانياً أمكنها أن تغذي سكانها الحاليين بل وسكاناً أكثر منهم ، وأكثر من ذلك إذا استخدمت الموارد الاوقيانوسية والموارد الشمسية ، ولكننا نجدنا أمام حد لسكنى الكوكب لا يمكن تجاوزه . وهذه القضية مازالت موضع تساؤل ونقاش ، ولم يبت بها نهائياً .

كذلك يضع ثبات السكان قضية طول العمر والشيخوخة المديدة والتنافس بين الآباء والأبناء ، والأجيال القديمة والجديدة ، ويتعقد تزايد حاجات الاستهلاك العام والاستهلاك العددي بحسب الرأس ، لأن تزايد الاستهلاك يعتبر صفة مميزة للمجتمع الحديث وتبريراً لجهده نحو التقدم . ولعلنا نتساءل ماذا يمكن ان تكون في العام ٢٠٠٠ ، على

سبيل الفرض ، حاجات الاستهلاك لسكان الأرض وقد بلغ عددهم سبعة مليارات نسمة ووصلوا الى مستوى حياة الولايات المتحدة حالياً ! ؟

لقد فكر بعضهم باستعمار الكواكب الأخرى ، وليس الوصول الى القمر الا ظاهرة من هذا التفكير . واذا فرضنا ان هذا الاستعمار مثمر ، فان اقرب الكواكب الينا ، وهو الزهرة ، على ٤٠٠ درجة حرارة منا ؛ وان المريخ دون مولد حموضة (اوكسجين) وغير صالح لحياة الجسم الانساني بشكل طبيعي ، فما بالنا بالكواكب الكبرى البعيدة والكواكب الأبعد منها حيث تقترب الحرارة من الصفر المطلق ، ويكون الآزوت سائلاً والتثاقل اعظم من تثاقل الارض بمئات المرات . اما منظومة الكواكب الأخرى فان المسافة بينها وبيننا تقاس بالسنين ، ان لم تكن بمئات السنين النورية . وهذا يعني ان اسرع السفن الفضائية التي يمكن تصورها للوصول اليها يتطلب حياة اجيال واجيال ، بما يعادل ٤٠ عاماً على سفينة سوبر آبولو اسرع بعشرة آلاف مرة من آبولو التي نزلت على سطح القمر .

ومهما تكن هذه الأقوال والتصورات والمنظورات فلا نعتقد أن التقدم والتوسع قد استنفدا غاياتهما ولفظا انفاسهما ، فلديهما من السرعة والتسارع ما يجعلنا ننتظر او تنتظر الاجيال المقبلة منها فتوحات جديدة ، وانتصارات مبينة ، ومكاسب حقيقية تنكسف امامها مكاسبنا الحقيقية منها والوهمية . لأن لغز الحياة لما يحل ، ولأن العمل البشري لما ينته ، ولأن القافلة الحضارية مازالت تغذ السير نحو آمال واحلام بغير حدود .

وبعد فما هو موقف الانسان أمام معطيات حضارة العصر ! ان الفلسفة والأدب والفن التي ظهرت بعد ١٩٤٥ تشيد كلها بقيمة الانسان وجهده وموقفه الحر وارادته وحريته التي يكتشفها في الخبرات التي

تنتزعه من كل ماضيه ومن كل مايعتقد بأنه كان كائنة ، والتي تؤلف وجوده الخاص . وان الانسان يشعر بضرورة اعادة نظر في كل شيء وطرحه على بساط البحث من جديد . وان التقاليد بقديمها وحديثها قد اهتزت عروشها بقوة ، وان ظاهرة العصر الحاضر تريد قبل كل شيء ان تعطي الانسان ، واشقى انسان في الناس مكانه الحقيقي وكرامته الحقيقية وعظمته الثمينة التي لاتقدر . وان افضل النظم واحدثها ليس لها الا قيمة نسبية ، وليست اقوى من الناس الذين يضعونها . فمن الممكن مثلاً اقامة السدود ضد الفيضانات المهددة ، واصلاح الحق العام ، وتعزيز الاستقلال ، وتجديد الطرق التشريعية ، ولكن كل هذا يظل غير كاف ، ولن تكون له قيمة الا اذا اعتمد على أساس روحي واخلاقي متين . لأن هذا الأساس وحده يمكن ان يعطي الانسان الحر القوة التي تساعده على انهاء مشاكل العصر الذري والثورة التقنية . وفوق كل شيء يجب الاهتمام باقامة النظم التي تحمي حرية اختيار الانسان لمن هم احياء يعيشون معنا او للذين يأتون في المستقبل ويرون القضايا بشكل مغاير لنا ، لئلا يكتشفوا اننا استنفدنا ، من غير نفع ويجنون ، امكانات اختيارهم وافسدنا عليهم محيطهم الطبيعي والاجتماعي . ولن تكون للحضارة قيمة الا اذا صانت كرامة الانسان وساعدته على التحرر . وان من حق كل انسان ان يثور لحريته وكرامته . واذا ثارت الشبيبة الجامعية في هذا العصر فلأن لها مطاليب عادلة تريد تحقيقها : لقد وجدت نفسها محرومة من كل أمن على مستقبلها بعد ان تبددت اوهام الماضي ، وثارت على الآباء والاساتذة . ولن تهدأ هذه الثورة ، التي ستكون ثورة عارمة وعامة ، الا بالمزيد من الحرية والتحرر من قيود الماضي البغيض والحاضر الأليم .

واخيراً ، هل تخلق حضارة العصر لنا السعادة ؟ أو بتعبير آخر هل تجعلنا سعداء ؟ لاشك في ان الحضارة المعاصرة ، بآلتها العلمية والتقنية ، استطاعت ان تقدم خدمات جلى لبني الانسان لاسبيل لنكرانها ، ولكنها في الوقت ذاته حملتهم اعباء كثيرة . وفي الحقيقة ان السعادة شيء معنوي ، وهي بالاجمال حالة فكرية وعاطفية عامة تجعلنا نشعر بأننا سعداء ، أو نوهم انفسنا بأننا سعداء ، ونحن راضون بهذا الوهم . انها منا وفينا ، لأننا نحن الذين نخلق سعادتنا بأيدينا وبآمالنا واحلامنا وتطلعاتنا . وسعادتنا الحالية تصبح رتيبة بعد حين فلا نشعر بها ، وقد نمجها بعد أن نألفها ، ولذا « فالتحول المفاجىء الذي هو أساس حضارة الغد ، لايمكن الا اذا ظهرت في الافق طريقة جديدة لنوال السعادة ، أو اذا فتح باب المستقبل نصف فتحة على زاوية جنة »[1] .

على ان الأمل بالسعادة هو السعادة اكثر من السعادة نفسها ، أو إن السعادة في تغيرها الدائم .

« ان الحضارة « التقنية » ترتدي حلة انسانية من حيث انها تريد ، على الأقل ، ان تكون حضارة السعادة . ولعل في وسعها ، أخيراً ، حين تتخذ هذا المهرب رسالة على مر الأيام ، ان تخلص وتقربنا من الفردوس . وفي وسعنا دوماً ان نناقش السعادة التي تصنعها الآلية ، او بالحري ، ان نناقش حتى الحافها على ان تتقدم الينا في حلة تبرير أعلى يجعل المسألة أشد استعجالاً . انهم يرغموننا على الابحار في سباق السعادة . ولكن لايزال من شأننا نحن ان نرى نقائص ذلك أو محاسنه ، وفي مكنتنا ان ننظر الى « ماوراء » ونحتفظ بقلوبنا مفتوحة على فتنة الفردوس السرمدية »[1].

---

(١) راجع : جان كزنوف ، السعادة والحضارة ، ص ٢٨٦ ، ترجمه وعلق عليه الدكتور عادل العوا ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٩١ هـ — ١٩٧٢ م .

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢٨٧ .

الفصل العاشر

تفسير عصرنا

عصرنا تركيبي مؤلف من عناصر مختلفة جداً ومتفرقة غالباً : هذا اقل مايمكن ان يقال فيه . فمنذ عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر ، بل وحتى بداية القرن التاسع عشر ، نجد ان طبقة اقلية ، ولكنها متفوقة بالثقافة والتربية وبممارسة الأعمال ، طبقة ارستقراطية متجمعة حول ملك تقوم باعباء جميع السلطات في جميع بلاد اوربه ، وتؤلف على هذا النحو « مجتمعاً » عاماً ، له اخلاقه وعاداته وعقائده . فعندما استقبل لويس الرابع عشر ، التركي العظيم ، كان يستقبل أحد أمثاله ، رجلاً من عالمه . وفي أيامنا هذه نجد ، بالعكس ، على جميع القارات ، طبقات مختلفة السكان ، من الاكثر مدنية حتى الاكثر خشونة ، جماهير شعبية مختلفة منتسبة الى أعراق أو مشكلة ومثقفة بايديولوجيات مختلفة ، تمسك زمام الأمور او تتطلع الى الاستيلاء عليه : انَّ كفاح الكادحين يتداخل مع كفاح البلاد البورجوازية ؛ ومزاعم الدول التي تخلصت حديثاً من الاستعمار تتداخل مع مزاعم الدول التقليدية الكبرى ؛ وقد أصبح في الغالب قتل شعوب بكاملها او الحاق دول مستقلة حديثاً بها ختاماً للمنازعات القديمة ، المنازعات التي لم تحل مطلقاً وكانت في القديم تحرك دوائر الدول بحثاً عن اتفاقات دبلوماسية او حلول دقيقة .

وليس الناس الذين يعيشون في زماننا معاصرين الا في الظاهر .

فهنالك اقوام خرجت منذ عهد قريب من اكل اللحوم واخذت تلتقي في المجالس الدولية بممثلي الدول الكبرى ممن يمكن ان يكونوا من أكلة النباتات . وامكن لممثلي الشعوب المتخلفة الوصول مباشرة الى رئيس الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي : وهنالك افكار ومصالح وسياسات وآراء متضاربة تتلاقى وتتصادم ، وتتفاهم احياناً وتتنازع احياناً أخرى ، في مزيج مضطرب وغير متجانس .

أزمات عصرنا الثلاث

ويحدث ايضاً في داخل كتلة واحدة من الدول ، الرأسمالية أو الشيوعية ، ان بعض البلاد المشاركة ليست في مرحلة واحدة من التطور ؛ ففي مسار التحرير المطابق للتطور الطبيعي للماركسية ، التي عرفتها الديموقراطيات الشعبية ، يرى أن الصين ، التي يرجع تاريخ ثورتها الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، متأخرة عن الاتحاد السوفياتي الذي قام بثورته اثناء الحرب العالمية الاولى ، واكثر تأخراً أيضاً عن رومانيا أو بولونيا مع العلم ان بنيتيها الشيوعيتين أقل رسوخاً وتخضعان الى اعادات نظر سريعة .

وكذلك ، في البلاد الحرة ، في الديموقراطيات الغربية ، نجد أن المسار الذي يؤدي من القومية الى الفوقمية اكثر تقدماً عند بعضها ، مثل دول البينيلوكس واكثر تأخراً عند أخرى ، مثل فرنسا الجنرال دوغول ، وهذه الدولة تلعب دور الحرس الخلفي الأوربي وتتصور بانها اكتشفت ايديولوجيا اوربه التي تسمى « اوربه الأوطان » التي يرجع تاريخها في الحقيقة اما الى اليعقوبية ، من زمن الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩ ، مع هذا الشعار : **الدولة واحدة ولاتنقسم** ، واما الى مبدأ

القوميات الذي تدين به تباعاً الى كافور وموسوليني، وكذلك بسمارك وهتلر، دون نسيان جوزيف ستالين .

وكذلك ايضاً يظهر تدخل الولايات المتحدة في فيت نام في غير أوانه بالنسبة لتطلعات بلد تزعم حمايته ضد الخطر الشيوعي ، وتأتيه عن حسن نية ، أو عن خلفية ، بمذهب سياسي ، الحرية الليبرالية،ومذهبها ويتفق مع حاجات تحرير الشعوب الأكثر تطوراً في آخر القرن الثامن عشر أو في منتصف القرن التاسع عشر . ولكن الكلام في عصرنا ، عن الليبرالية السياسية او الاقتصادية الى شعوب ، مثل شعوب جنوب آسيا ، تنقصها التقاليـــد ، يعني كما لو اقترح محروق عال الى عربة ملوك عاطلين عن العمل ، لتنشيط سيرها ، او كما لو اريد تركيب محرك نفاث على منطاد مونغولفيه (١) او على طائرة بليريو (٢) .

ان الامريكين ، الذين يعتقدون بأنهم يريدون ان يفيدوا بطرقهم الرأسمالية والسياسية الحديثة شعوباً مازالت تستعمل تقنيات بدائية ، يجدون انفسهم ، بالرغم من تقدمهم ، في تأخر عن الحالة الواقعية التي هي حالة زماننا . والشعوب المتخلفة ، التي تتوصل اليوم الى الاستقلال ، يجب الاتعامل كالبلاد المتطورة في منتصف القرن التاسع عشر ، وانما كبلاد جديدة ، كبلاد كادحة ، كالتي انتج منها جملةً الثلث الثاني من القرن العشرين . واذا كانت الولايات المتحدة تعتقد بأنها في طليعة التقدم ، انما هي في الواقع ، متأخرة بثورة أو ثورتين .

وهكذا ، في جميع علاقات عصرنا الدولية ، تتواجد موضات فكرية

---

(١) Montgolfler

(٢) BLERIOT

لايعاصر بعضها بعضاً ، أو ايديولوجيات ليست في درجة واحدة من التطور .

ان جميع الأزمات التي عانتها الانسانية منذ آخر العصر الوسيط ، وجميع الثورات ، منظمة كانت أو سياسية ، التي عرفتها تعود فتنشأ هكذا في أيامنا . والشيء الخاص بزماننا هو انه يعيد طرح كل شيء على بساط البحث ، وليست القضايا الخاصة به فحسب ، بل وايضاً المناقشات الازلية التي غذت في كل زمن ثورات الفكر وثورات المجتمع ونذكر منها ثلاثة أمثلة :

الثورة الكارتيزية (ثورة ديكارت) ، التي يعتقد بأنها ادت قطعاً الى صياغة العقل العام ، في آخر القرن السابع عشر ، هي في صنع جديد دون انقطاع ، لأنه يوجد دوماً مناطق في النفس تنجو منها ومناطق استيطان بدائي لم تنفذ اليها في الماضي . وعندما تفتح واحدة منهن اليوم استقلالها أو تصبح واعية ذاتها وشخصيتها ، يلزمها اعادة كل شيء ؛ يلزمها اعادة اختراع كل شيء في استعمال العقل ، كما في الزمن الذي عارض فيه غاساندي مؤلف كتاب « مقال في الطريقة » أي ديكارت (١) .

والثورة اليعقوبية لمبدأ القوميات ، التي يمكن أن يتصور انها باستقلال ايطاليا في (١٨٦٠) وتوحيد المانيا في ١٨٧١ قد بلغت آخر أهدافها ، هاهي ذي الآن موضوعة موضع اتهام بنمو الاتحادية الأوربية ومبدئها في الفوقمية .

الثورة الاشتراكية التي يمكن ان يعتقد ان ظفر افكار كارل ماركس على أفكار الاشتراكية الفرنسية ، بعد ثورة قومون باريس ، في ٤ ايلول

---

(١) GASSENDI

١٨٧١ ، وقيام الشيوعية في روسيا وفي قسم من الكرة ، قد أقاما نهائياً ، هاهي تبدأ من جديد ، بسبب المنازعات المفتوحة في داخل الكتلة السوفياتية التي يجب عليها مبدئياً ، ان تؤمن تجانسها .

وهكذا ، لم يبت بشيء . والحياة تهزأ دوماً بالتراكيب الاصطناعية التي يفرضها العقل المسيطر على الناس . ونحن على وجه الدقة في فترة تاريخية تنفجر فيها جميع المذاهب والنظم ، وتنشأ فيها جميع الخلافات ، وكل شيء فيها من التقنية الى الايمان موضوع اعادة نظر على بساط البحث .

ولمحاولة الاتجاه في مثل هذا التناثر ، واعطاء المفتاح ، أو بالأحرى المفاتيح التي تسمح بالدخول في كثير من الحالات المختلفة وفي كثير من الطرق المسدودة الظاهرية ، يجب اولاً ان نذكر الازمات الأساسية الثلاث التي تمتد اليوم ، عتبات العالم الحديث الثلاث التي أصبح ، انطلاقاً منها ، على مانراه الآن .

أزمة العقل

لقد وجد اذن ثلاث ازمات ممهدة للأزمنة الحديثة تمدد الواحدة الأخرى ، وتتداخل الواحدة في الاخرى ، مهيئة الحالة التي يوجد عليها العالم اليوم .

تصعد الاولى الى القرن السابع عشر ، ولم تهدأ منذ زمن طويل : ولقد كان ديكارت اصلاً لها . فمنذ اللحظة التي وجد فيها هذه العبقرية الاستثنائية للعقل الطريقة التي تسمح له باستعمار العالم وصياغته ، لحد ما ، حسب هواه ، زاد رهان مناقشاتنا الفكرية بشكل غير محدود . وحتى ديكارت ، كان الصواب والخطأ ، طبيعيين أو ميتا فيزيقيين يجدان بخاصة مؤيدا نهائي

الاضطراب الذي يأتيان به الى داخل نفوسنا ومصائرنا الفردية، ولكن ما كان ليفهم ايضاً ان من الممكن صنع ثورات مع اوضد «مبادىء» ولا تقدير العقيدة السياسية للانسان حسبما يصرح اولا يصرح بانه متفق مع فلسفة، حسبما يقبل اولا يقبل مسعى جدلياً. فعندما يقرأ الانسان، مثلاً، حياة القياصرة لمؤلفها سويتون [1]، او حكم ملوك فرنسا، يعجب اذ يلاحظ كيف ان الايديولوجيا مفقودة في فن حكمهم. لقد كان العرف والحس السليم المبدأين الملهمين عندهم، ولم يؤثر أي اعتبار نظري بالنسبة اليهم على مجرى الحوادث.

لقد بدأ ديكارت، مثل باسكال تماماً، باعجاب شديد، ولكن من موضوع مختلف جداً كان عمره ثلاثة وعشرين عاماً، وربما كان، ليلة ١٠ تشرين الثاني ١٦١٩، التي قضاها بـ «ثلاثة احلام متتابعة»، اقل كارتيزية مما كان في ادوار حياته. ولاشك، وهو نائم ذلك اليوم بين مغيب انسانية شاخت وفجر علم جديد بعد، ان فكره كان مأخوذاً بمحاكات عقلية وحسابات. ونام «مفعماً بحماسته ومشغولاً بفكرة وهي انه وجد أسس العلم العجيب». وحمل، في نفسه، سراً لايفسر، ولكنه حاضر، سر التقنية التي يتعلق بها وحدها خلال ثلاثة قرون تقدم علمنا النظري وتقدم الصناعة الحديثة. ومن المؤكد منذ الآن ان بالامكان تسيير الامواج الصاخبة والطاغية في الفكر البشري، لفتح العالم بشكل أفضل. ولتصور طريقته. وهذه اللحظة الحاسمة، في حرارة الادراك، في قلق الولادة المحرر، حيث خرج العقل الحار اللاهث من العتمات السكولاستيكية (الفلسفة المدرسية)، تؤلف بالنسبة لعلماء وتقنيي المستقبل، وبالنسبة لجميع النظريين وأصحاب المذاهب في

---

(١) Suétone

عصرنا ، حتى الملحدين ، وحتى الواقعيين ، أصل عبادة جديدة ، غير محسوسة ، باردة ودقيقة ، ولكنها تنقل إلينا جاذبيتها وسهولاتها ، ويدركها أكبر عدد من الناس .

ولدت الطريقة كضربة الصاعقة . وولدت في مناخ مازال سابقاً لديكارت ، في مناخ ، حتى القرن السادس عشر والسنوات الأولى من القرن السابع عشر ، كان فيه الناس ، في نطاق عقلي بعيد جداً عن نطاقنا ، وبحساسية بعيدة جداً عن حساسيتنا ، يجابهون العالم والحياة في فكر مختلف جداً .

ولادراك أن العتبة تؤلف الكارتيزية ، على حافة العالم الحديث ، ولادراك التغير الجذري الذي تفرضه على أنماط التفكير والاحساس والعمل ، ولادراك التحويل العميق الذي تثيره ومازلنا الى اليوم نتحمل آثاره بعد ، لنقرأ مع لوسيان فيفر هذه الصورة العقلية العظيمة للانسان السابق لديكارت ، انسان القرن السادس عشر ، التي تسمح لنا بأن نفهم بشكل أفضل بالتباين ما نحن مدينون به إلى الطريقة ، في الخير كما في الشر ، وما تأتي به وما تأخذه اليوم أيضاً من أكثر الناس تطوراً بيننا [١] .

كان انسان القرن السادس عشر أقل منا اهتماماً بالمكان ، وأقل صرامة بالتعبير ، ولم يلق مثلنا ، في دوامة العالم ، المرساة السميكة وأحياناً الغليظة للعقل الهندسي ، ويمتاز بمزاجه غير المستقر ، وسلوكه العنيف ، ولكنه كان يشعر أكثر منا ، نحن المفعمين باليقين الكارتيزي ، في كل لحظة بأنه يقامر بالكل في سبيل الكل وانه يخاطر بسلامه : « ان عنفهم وطيشهم ، وقلة دفاعهم ضد انطباعات الخارج ، وحركة مزاجهم الفائقة ،

---

(١) LUCIEN FEBVRE, Le Problème De l'incroyance au XVIS iècle.

هذه العجلة العجيبة في الخلق والشتم . ثم في العناق والملاطفة . . . انهم ليسوا مشمئزين من كل شيء . لا . . ، بل أناس بسطاء يستسلمون دون قيد أو ضبط ولكننا ، نحن ، نكبت . »

وهذا التباين شبه مطلق : « وبين أشكال حس وتفكير وكلام الناس في القرن السادس عشر وأشكالنا ، لا يوجد في الحقيقة مقياس مشترك . نسلسل ويترددون . وأن أجيالاً ، منذ القرن السابع عشر وديكارت ، قدمت وسجلت لأجلنا ، وحللت ، ونظمت المكان . ومهرتنا بعالم مقرر ، فيه لكل شيء ولكل كائن حدوده المحدودة تماماً . وان أجيالاً ، منذ العصر نفسه ، عملت على أن تجعل من الزمان ، المحدد شيئاً فشيئاً بوضوح ، اطاراً قاسياً لنشاطنا . وكل هذا العمل العظيم ، في القرن السادس عشر ، قد كاد يبدأ منذ عهد قريب » .

وكل هذا « العمل العظيم » سيؤدي إلى تغييرات في جميع أوجه النشاط التي يتحرك فيها الانسان الحديث .

ففي الطريقة وفي كبرياء الاكتشاف والفتح صاغ ديكارت « املاء » حقيقياً للعقل العلمي على العالم وعلى الطبيعة ، عدواناً حقيقياً على حياة الخلق والابداع وهو مقتنع بأن الطريقة تجهز الناس بالواسطة التي « تجعلهم سادة الطبيعة ومالكيها » ، وهذا مبالغ فيه . وهو يؤكد ، ما هو أكثر أيضاً ويمس حدود الافراط البشري ، وتجاوز الحد العلمي ، أي أن « قواعد الميكانيكيات . . . هي نفس قواعد الطبيعة » .

ها هو ذا ، بهذه العبارة ، بجرأة فائقة ، وبادعاء لا يمكن دحضه ، الطريق المفتوح نحو اغترابات الحياة ، في جميع ميادينها ، التي نعرفها الآن ، في هذا العصر ، عصرنا الذي نعيشه .

ان جميع الميكانيكيات ، وجميع التقنيات ، وجميع المذاهب التي

تقول عنها اليوم انها تنزع إلى تعقيل وجودنا ، وكل هذه الطرق التي تسهل في الظاهر سيطرة الانسان على العالم أو على سلوك حياته ، مع العلم أنها تفقده في الغالب أسباب حياته ، خرجت من هذه العبارة . لقد تنبأ بها ديكارت ، وشعر بها ، وشارك بها سلفاً بعبارات لا ينكرها التكنوقراطيون اليوم . والأمثلة ؟ يوجد منهـــا الكثير الذي يظهر ، جرعة جرعة ، في هذه التنبؤات عن زماننا الذي يرجـع تاريخه إلى أكثر من ثلاثة قرون . فهو يتنبأ ويحبذ ، العمران الحديث ، مـع ترجيـح المدن المنشأة على مخططات وعلى رسوم حسب مقياس معطى ، على المدن التي تنشأ عفوياً على سياق العصور . وهذه المدن « لم تكن في البدء إلا قرى صغيرة ثم أصبحت مـع توالي الزمن مدناً كبرى » . ومن هذه الأصول ، تحتفـظ دوماً بعيب ، وحتى إذا كان لدورها « في الغالب من الفن ما لغيرها أو ما يزيد عليها ، يقال بأن ذلك يرجـع إلى الثروة (الصدفة) على الأرجـح أكثر من ارادة بعض الرجال الذين يستعملون العقل الذي نظمها على هذا الشكل »

وبعد سكن الناس ، تأتي حكومتهم . وباعتبارها سلفاً للبعاقبة ، توصي بدستور صالـح يسجله المشرعون لينوب مناب الأعراف التي نشأت تدريجياً من متطلبات الحياة في المجتمـع . وتقول هذه الحكومة ان الشعوب التي خرجت قوانينها تدريجياً من الأعراف تكون أقل حضارة من الشعوب « التي راعت ، منذ أن تجمعت في البدء » دستور مشرع عاقل فطين » . وفي هذا ما يفرح جميـع أعضـــاء الجمعيات التأسيسية الذين ملأوا منذ قرن المجالس الاوربية الديموقراطية أو الجمعية (الدكتاتورية) ، ولكنه يزعـج بلداً ، كبريطانيا العظمى ، يأتي توازنه الدائم من الحفاظ على العرف .

وهكذا كان ديكارت مدافعاً سابقاً عن الـ .H.L.M الجاهزة الصنـع ضد المساكن الفردية أو العمائر ضد القرى ، والقانون المكتوب ضد روح

الابداع . وقد هيأ ديكارت لنفسه ، دون أن يريد ولاشك ، خلفاً فريداً من التكنوقراطيين والأفكار المجردة الشاملة الذين نعرف سيطرتهم اليوم ونتحملها . ولقد بلغوا كامل سلطانهم في الدول الجمعية ، ولكنهم يتسللون أيضاً إلى الأنظمة الديموقراطية بواسطة جميع الخطط وجميع تدخلات الدول التي لا مبرر لها ، وبالحاق القيم الانسانية والروحية بتكنوقراطيات أو بيوروقراطيات

ومن هنا تخرج العتبة الاولى للأزمنة الحديثة ، وهي الثورة الكارتيزية كعلامة تمهيد ضروري لفهم الأزمات التي يتخبط بها عصرنا .

أزمة الوطنية

وبعد أزمة العقل ، تأتي أزمة الوطنية . والوطنية في فرنسا ، كما في كثير من بلاد اوربة ، عاطفة قديمة جداً ، ويمكن الصعود بظهورها الأول العام إلى زمن جان دارك (١٤١٢ – ١٤٣١)، وتتضمن وحدة عواطف وثقافة وفي الوقت نفسه احترام الحقوق المحلية أو المسلكية التي يراد حمايتها ضد التهديدات الخارجية وضد طغيان سلطة مركزية قوية جداً، أو ضد ضغوط القوى الاقتصادية أو المالية التي تسيء استعمال سلطانها . وربما كانت الملكية ، حامية القومونات والأصناف المهنية ، في زمن لويس السابع والقديس لويس، من الأنظمة التي تحمي بشكل أفضل حريات الفرنسيين، في نطاق وطنية عامة مشتركة ولا تطغى على الاستعدادات الخاصة للمناطق والمهن والناس . ولاشك في أن الملكية المنتهية ، بعد أن حضرت مع ريشليو وبلغت في عهد لويس الرابع عشر أوجها بواسطة دولة كانت قريبة من سقوطها في وقت بدت فيه أكثر وجاهة وأكثر صرامة وأكثر صلابة ، قد سقطت في القرن الثامن عشر في الفوضى وعدم الدقة في مركزية سيئة الصنع . وهذه

المغامرة الأخيرة التي تصور مسبقاً الكثير من الاخريات في بلاد عديدة يجب الاتنسي أن الملكية بحثت عن الحريات بتوازن الأقاليم وأن الوطنية كان يعبر عنها باحترام الحريات في نطاق الحريات المحلية والحريات المسلكية .

وفي بداية الثورة الفرنسية ، حصل الشيء نفسه ؛ فقـــد كان الاتجاه الاول للوطنيين ، الذين كانوا يقومون برد فعل ضد مساوىء المركزية السيئة الصنع في النظام القديم المنتهي ، بالعكس ،أن يوازن السلطة المركزية بالسلطات المحلية : كعيد الاتحاد ، الذي سجل ، في ١٤ تموز ١٧٩٠ ، الذكرى الاولى لليوم الأول للثورة ؛ — وكان ابداعاً عفوياً ، منـذ ١٧٨٩ ، لهيئات اقليمية مكلفة ، بتفاهم مباشر بين مناطق متجاورة ، دون الرجوع إلى المركز ، بتسوية كل المسائل التي تهم معاً هـــذه الدوائر المحلية . ولزم انتظار الحرب الخارجية ورد فعل الدفاع الصحي ، بل الخطر،الذي قام به اليعاقبة ، ليتضح مفهوم « الأمة واحدة ولاتنقسم » بوسائل الدولة ، بوسائل جمعية دكتاتورية . وهكذا توضعت على الوطنية ، العاطفة القديمة والمحترمة للحريات ، القومية التي تنكرها والتي كان ظهورها أكثر حداثة . وفي الحقيقة لم يظهر تعبير القومية الا في ١٨٢٣ ، في الطبعة السادسة لـ « القاموس العام للغة الفرنسية » الذي وضعه بواست [١] ، مسبوقاً بعلامة النجمة التي تدل على الكلمة الجديدة . وفتحت ازمة الوطنية : ولاقت عدواً يستحيل تعديله ويتكاثر في داخلها . وفي الخارج ، أكان القصد ضغوطاً اجنبية تمارسها الدول الأخرى او قوى مركزية متأتية عن السلطـــة المركزية ، انكسفت الوطنية لصالح القومية التي لم تكن بالنسبة لتلك الا تصلباً ، وصورة هزلية ، وفي الغالب انحرافاً .

ويساء تصور كيف كان العقد ١٨٦٠ - ١٨٧٠ حاسماً لتاريخ البشرية

---

(١) Boiste

وتحضير مصائرنا الحالية ، ولا كيف كان يعي بان يكون كذلك .

لقد كان العصر الذي كانت فيه آخر البلاد التي لم تتشكل بعد ، وبخاصة ايطاليا والمانيا ، تتردد في الوسائط التي يجب أن تستخدمها ، في الاشكال التي يجب أن تتبناها لتحقيق وحدتها. فهل تتوصل اليها بمفاوضات سلمية أو بالحرب؟ وهل تنجز هذه الوحدة بشكل دولة مركزية أو بشكل اتحاد ؟ ان مبدأ القوميات ، الذي اثار ظهوره في السياسة الاوربية مثل هذا النقاش ، ايقظ لدى المعاصرين انعكاسات مختلطة :لقد قيل بأنهم كانوا يتنبؤون باساءة الاستعمال التي ستقوم بهـا آجلاً ، والتي مازالت تقوم بها في أيامنا هـذه الامبرياليات المختلفة . وقد كتب الكاتب البلجيكي ، ايميل لافيليه[1] ، في ١٨٦٨ ، هذه الأسطر المتنبئة : « انني اعترف بأن الأمر لايخلو من هيجان شديد عندما أتناول قضية القوميات . واني لمقتنع بأنها ستساعد قطعاً على تقدم الحضارة ؛ ولكنها تفعمني هماً وأحياناً قلقاً . انها تهزأ بالمعاهدات ، وتقضي على الحقوق التاريخية ، وتطرح اللبس والفوضى في الدبلوماسية ، وتهز جميع الاوضاع ، وتنذر جميع المصـالح وربما تثير الحرب العالمية غـداً . »

وبعد عامين جعل ارنست رونان[2] لهذا القلق صدى في « مجلة العالمين » ، في وقت تفاقمت فيه تهديدات الايديولوجيا القومية بالنسبة لفرنسا . ففي مقال عن الحرب بين فرنسا والمانيا ، في تاريخ ١٥ ايلول ١٨٧٠ ، كتب : « ان مبدأ القوميات المستقلة ليس من طبيعته ، كما يفكر الكثيرون ، أن يخلص الجنس البشري من الحرب : بل بالعكس ، لقد خفت دوماً ، مبدأ القوميات، اذا ما حلّ محل رمز الشرعية اللطيف والابوي، أن يقلب نزاع

---

(١) EMILE LAVELEYE

(٢) ERNEST RENAN

الشعوب إلى ابادة الأعراق ويطرد من قانون حق البشر هذه الجاملات ، هذه الأمزجة التي قبلتها الحروب الصغيرة السياسية. والسلالية قديماً » .

لقد تنبأ لافيليه ورونان بان توسع الحروب وتفاقمها سيكونان نتائج مبدأ القوميات ، هذا المبدأ الذي هو من وحي يعقوبي وبموجبه تتألف كل أمة بشكل دولة وحيدة ، وسلطة سياسية وحيدة ، ودولة مركزية . وإذا دفع هذا المبدأ إلى اقصاه ، أي إلى اللا معقول ، أو إلى المأساوي والمفجع ، أدى تباعاً إلى القومية وإلى هذا الشكل الشديد المفرط المبالغ فيه والشنيع الذي يسمى « الجمعية »[1]

فعندما فرض هتلر كشعار لألمانيا هذا التوكيد الثلاثي للوحدة : « شعب واحد ، ريخ واحد ، زعيم واحد » ، وضع نفسه بالضبط في خط مبدأ القوميات الذي شجبه لافيليه ورونان .

واكثر من هذين الكاتبين ايضاً ، واكثر منهما وضوحاً وعنفاً ، كاتب تنبأ بالكوارث التي تتجه نحوها اوربه ، وما زالت تحياها . هذا الكاتب هو النظري الاشتراكي الفرنسي برودون [2] . ففي ١٨٦٠ ، أعلن بوضوح ايضاً ، اكثر من لافيليه ورونان ، اخطار الدكتاتورية التي تهدد مستقبل البلاد الأوربية الخاضعة لمبدأ القوميات . وقد تنبأ بها ، بخاصة ، من اجل ايطاليا ، وقبل ستين عاماً تنبأ بالفاشية تقريباً ، وقال : « هذا المذهب ، مذهب القوميات ، لايمكن ان يؤدي الى شيء آخر غير استبداد جديد مما لم تعرفه ايطاليا منذ عهد القياصرة . » وتنبأ بها من اجل المانيا ، في هذه الأسطر التي تشعر بتسلط بسمارك وهتلر : « ان المانيا تبحث

---

(١) « الجمعية » من الجمع أي الشمولية والكلية أي هذا النظام السياسي الدكتاتوري الذي يجمع السلطة بيد الزعيم الأوحد والحزب الواحد .

(٢) برودون PRUDOHON .

عن اتحادها ؛ والويل للعالم اذا نجحت الوحدة » ، وبشكل أعم ، تنبأ بها من اجل البشرية كافة . وبعد ان بشر بعصرنا ، القرن العشرين ، تنبأ ب: « ان القرن العشرين سيفتح عصر الاتحادات او ان الانسانية تبدأ من جديد بطهر الألف عام (ذكرى هتلر الألفية الشهيرة) .

وهكذا ، على وجه العموم ، نبهت اوربة منتصف القرن التاسع عشر إلى الاختيار الذي يجب أن تقوم به بين القومية ورابطة أوطان حرة أي بين دول مركزية وموحدة ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، رابطة أقاليم ، وبلاد ، وكانتونات تحتفظ باستقلالها في داخل مجموعة مؤلفـــة بحرية . ونبهت أيضاً إلى الأهمية التي يقدمها هذا الاختيار لأوربه منتصف القرن العشرين الذي نتحمل الآن أزماته . وبالاجمال ، يمكن القول أن اوربه أساءت الاختيار ، لأنها فضلت الطريق الذي يؤدي إلى الجمعية على الطريق الذي يقود إلى الحرية ، الطريق الذي يؤدي إلى الحروب القومية على الطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى السلام بتطبيق المبدأ الاتحادي الفيدرالي . لقد فضلت طريق بسمارك وهتلر ، طريق كافور وموسوليني ، وطريق ستالين أيضاً .

لماذا هـذا الخطأ من اوربة ؟ هل هذا صدفة بائسة ، شيء من نوع أنف كليو باترا آخذ بتغيير أو تدمير وجه العالم ؟ أو هل هنالك سبب عميق يمكن تشخيصه ومن الممكن تصور علاج له ؟

لنلاحظ أولاً هذا : وهو أن عصر منتصف القرن التاسع عشر ، الذي يقع تقريباً بين ١٨٤٨ و ١٨٧٠ ، والذي كان فيه على اوربة ، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، أن تختار بين القومية والاتحادية ، هو أيضاً العصر الذي كان عليها فيه ، من أجل سياستها الداخلية ، من أجل سياستها الاقتصادية والاجتماعية بخاصة ، القيام باختيار حاسم أيضاً . كان عليها أن تقرر بين مفهومين للديموقراطية ، كان أحدهما اتحادياً أيضاً ، وكان الآخر

دولياً (من الدولة) وشبه دكتاتوري . وهو دور التركيزات الصناعية والمالية التي تؤدي الى الاحتكارات (التروستات) ، دور التركيزات السياسية بشكل أحزاب مركّزه قد تكون صالحة للدولة الجمعية . وهكذا نصل إلى ملاحظة مزدوجة : الأولى ، هي أن دور ١٨٤٨ - ١٨٧٠ كان بحق دوراً رئيسياً بالنسبة لأوربة . ففيه وضعت جميع القضايا التي يجب علينا حلها اليوم والتي جر عدم حلها إلى الاضطراب الحالي .

القضية الأولى : هل مع بلاد حبيسة في حدودها ولا يطبق بعضها حيال بعض أي تحديد للسيادة يمكن التوصل الى تأمين سلام العالم ؟

القضية الثانية : هل مع حكومات مركزية ، خاضعة لسيطرة الدولة حتى الشعبية ، يمكن النجاح في تأمين الحريات وانقاذ الديموقراطية ؟

قضيتان : الواحدة خارجية والأخرى داخلية ، ولكنهما مرتبطتان ، وهما في مركز صعوباتنا الحالية ، لأن الواحدة تطابق تهديدات حرب خارجية ، والأخرى تتفق وتهديدات دكتاتورية داخلية . قضيتان ، قد لا يكون من عدم المبالاة أن نسجل أنهما توضعان منذ مائة عام ، لأن هذا يمكن أن يوفر علينا محاولة البحث لهما عن حلول سهلة جداً ، حلولاً عملية بصورة محضة . وقد لا يعوزنا أناس للاعتقاد بأن السلام يمكن أن يؤمن باحلاف موقتة بين الدول أو بمشاركة جميع الدول بمنظمة الأمم المتحدة : وفي الواقع ، ان بنية الدول نفسها ، بنيتها الداخلية ، بنيتها القومية ، هي التي تجر أخطار الحرب اكثر بكثير من علاقاتها أو منافساتها الظاهرية . وكذلك ، لا يعوزنا أناس للاعتقاد بأن الديموقراطية يمكن انقاذها بفضل احلاف بين الأحزاب السياسية ، وبفضل أحسن تسوية بارلمانية ، أوبفضل أحسن دستور . وفي الواقع ، هنا أيضاً ، نجد ان بنية الدول السياسية ، بنيتها المركزية ، التي يزيد التصويت العام ونظام الأحزاب في تركيزها ،

تؤدي إلى الدكتاتورية : وهذه الدكتاتورية ، في جميع البلاد التي نشأت فيها ، لم تلغ النظام البرلماني ونظام الأحزاب الا بعد أن استعملت جميع الطرق القانونية ، كل السير الطبيعي اليوي . ان موسوليني لم يقم بالزحف على روما إلا بعد أن حصل بوسائل طبيعية عادية على الأكثرية في البرلمان . ولم يحرق هتلر الرايخشتاغ إلا بعد أن كسب الاكثرية وعين مستشاراً للرايخ ، وفقاً لدستور فايمار . ولم يحذف لافال الجمهورية في فرنسا ، في ١٩٤٠ ، الا باستخدام الأحكام التي يتضمنها دستور ١٨٧٥ . لقد خرج الانقلاب (ضربة الدولة) من سير أعمال الدولة نفسه : أن اللاشرعية (اللاقانونية) تظهر حسب وسائل قانونية . وبالتالي ، ان ما يجب الاشارة إليه منذ الآن ، هو ان الخطرين الكبيرين الحاليين ، خطر الحرب وخطر الدكتاتورية ليسا خطرين عارضين ، ولكنهما يتفقان مع النتائج الطبيعية لتطور سياسي وخطأ في البنية . ومن وجهة النظر هذه ، من المفيد أن نشير إلى أن الأسباب البعيدة لأزماتنا تصعد إلى نحو مائة عام ، إلى العصر الذي ، كما نرى ، بدأ فيه هذا النمو وهذا المسار وتهيأت فيه هذه البنيات .

على ان ما يجب الاشارة اليه ايضاً ، وهذه ملاحظة ثانية ، هو ان هذين الخطرين الحاليين ، خطر الحرب وخطر الدكتاتورية ، المرتبطين تاريخياً ، ليكونا مهيأين لعصر واحد ، هما ايضاً مرتبطان منطقياً لينشآ من خطأ واحد ، الخطأ المركز ، الخطأ الموحد . ان البلد المركزي الى الحد الأقصى ، البلد المدولن يتعرض لخطرين توأمين : خطر الاصطدام بدول أخرى مدولنة ايضاً ، صلبة مثله ، وهذه هي الحرب الخارجية ؛ وخطر حذف الحريات الداخلية ، وهذه هي الحرب الأهلية أو هي الدكتاتورية بعينها .

أزمة الاشتراكية

وهنا ، نلامس عتبة العالم الحديث الثالثة ، ثالثة الازمات التي هيأت اليس ومناقشات اليوم : ازمة الاشتراكية . وكان كارل ماركس محركاً لها .

وبالتشديد ايضاً على الثورة الكارتيزية ، تطبيقها في حالة خاصة وهي حالة الحياة السياسية والاجتماعية ، وليس هذا ببساطة طريقة عامة يريد فرضها على تأثير الانسان في العالم : انه حالة خاصة أو تطبيق لهذه الطريقة ، تقنية فكرية ، الجدلية الهيغيلية ، بالنسبة الى الفيلسوف الألماني هيغيل ، تريد ان تولد تقنية ثورية وبعد قليل حكومية . وسيخلف « املاء » ديكارت العام املاء ماركس ، وليس هذا الاتطبيقاً خاصاً للأول ونتيجة ضرورية وواضحة له متجهة نحو السياسة .

وهذا الجدل الهيغيلي — الماركسي هو اذن الاطار المنطقي الذي ستتبع فيه الثورة الاشتراكية : فقد ساعد على تقدم الماركسية والف قاعدتها . وهو يثير اليوم صعوباتها ويبشر بأفولها لا لأنه يجب أن يرفض على صعيد المنطق ، ولكن يوجد خطة أخرى اكثر عينية ، وهي خطة التجربة البشرية التي تظهر فيها اخطاؤها .

ولنستشهد بكارل ماركس وآنغلز . فقد أوضح هذا الأخير طبيعة الثورة الماركسية في الخطاب الذي القاه ، في ١٧ آذار ١٨٨٣ ، على قبر كارل ماركس ، على هذا النحو : « كما ان داروين اكتشف قانون نمو الطبيعة العضوية ، فكذلك اكتشف ماركس قانون نمو التاريخ البشري ، أي هذا الحادث البسيط المقنع في السابق بضجيج الايديولوجيات ، وهو أن الناس ، قبل ان يستطيعوا الاهتمام بالسياسة ، والعلم ، والفن ،

والدين ، يجب عليهم ، قبل كل شيء ، أن يأكلوا ، ويشربوا ، ويسكنوا ويلبسوا . » . ولنشر في هذا الشاهد الى بضع كلمات : الكلمات التي ينجم عنها وجود قانون ، قانون واحد ، وهو فوق ذلك بسيط ، لايضاح نمو التاريخ البشري . وهكذا يخضع هذا التاريخ الى مبدأ وحدة السببية ، مبدأ ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالنتيجة . ويصبح موحداً ، ويفهم الاتجاه الذي يبدو انه ينزع به اليوم نحو هذه الحلول الأخرى البسيطة وهي الحلول الجمعية .

ويفهم ايضاً في ايامنا ، التي تبدو فيها الداروينية مطروحة من جديد على بساط البحث والنظر بنظريات اكثر حداثة في تطور الانسانية ، ان التشكيك الذي أصابها يمكن ان يمس ايضاً ، حسب تعابير آنغلز نفسها ، المادية التاريخية التي يقارنها بها ويجمعها معها .

ومن جهة أخرى ، نرى ايضاً ما هو اكثر كشفاً عن المثالب العميقة في المادية التاريخية . ان نزعتها في توحيد كل شيء ، قادتها ، كما هو معلوم ، الى اعتبار الجدل الهيغيلي مقبولاً في جميع الميادين ، في عالم الحيوان والنبات كما في الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة . . وفي كل مكان ، يتم التقدم حسب وتيرة ثلاثية : النظرية ، الطباق ، التركيب ، وهذه الأخيرة تؤلف التوفيق بين الاضداد ونفي النفي . فماذا يعني هذا الزمن النهائي للمسار الجدلي ؟ ومن أي قوة ينتج وما الضمان الذي يأتي به لاعداد المستقبل ؟

هل هو قوة بناء او تخريب ؟ ضمان حياة أو موت ؟ للاجابة عن هذا السؤال ، الذي يتجاوز خطة الايضاحات الشكلية ، وللوصول الى خطة الوقائع الحية ، لنعد ايضاً الى آنغلز . فهو يذكر ، كمثل للجدل ، الاستحالة التي تخضع لها حبة شعير تنبت في ارض وفي مناخ ملائمين .

ويقول : ان هذه الحبة تنبت وتهلك ، وهذا يعني انها منفية . وفي مكانها ، الطباق ، يخرج نبات هو على هذا النحو نفي للحبة . ثم يأتي التركيب : وهو أن هذا النبات نفسه ، بعد ان يكبر وينتج حبات جديدة ، يهلك ايضاً ، أي انه منفي بدوره .

ان كل هـــذا مجرد ، ودون شك لاحقيقة له في بساطته وفي موضوعيته الظاهرتين . وهذا الايضاح لتسلسل التوالد، بتعاقب ميكانيكي للأزمنة الحية والازمنة الميتة ، لايقيم أي اعتبار للقوة الفاعلة والدائمة للحياة ، التي تؤلف المصدر نفسه والمظهر الواضح لسير التاريخ . وان ارادة ارجاع الحياة الى خيال معناها الانتهاء بالموت . وخطأ آنغلز مزدوج ؛ من جهة ، يحلل الى ازمنة متتابعة ومضادة للمراحل التي تكون ، في الحقيقة ، مرتبطة الواحدة بالأخرى وتنتج الواحدة عن الأخرى : فهو يحول على هذا النحو حركة واقعية الى تعاقب ازمنة منعزلة ، ويجزىء المدة ؛ ومن جهة أخرى ، وبخاصة ، لايقيم أي اختلاف ، في هذا التساقط من المنفيات التي تؤلف حسب رأيه ، الحياة ، بين المنفيـــات التي تنتهي بولادة والمنفيات التي تنتهي بموت . ولايميز بين تحول حبة الى نبات وموت النبات الذي ينتج جميع حباته . ومع ذلك لاتكون الحالة نفسها : لأن الحبة التي تنمو نبتتها لاتموت ، بل تتحول وتتطاول عضوياً ؛ والنبات الذي يموت بعد نثر حباته ، يموت حقاً . وفي حالة لايوجد انقطاع بين حياة والحياة التي تنتج عنها ، وفي حالة أخرى يوجد انقطاع ؛ في حالة يوجد تحول في الحياة ، وفي الأخرى يوجد موت ، واذا كان الحادثان من وجهة نظر جدلية متعادلين ، فذلك يعني ان الجدل يهتم بنفسه اكثر مما يهتم بالاحداث التي يستخدمها : ومن وجهة نظر محسوسة وواقعية ، لايمكن ان يكون التطور والموت متعادلين ؛ ولايمكن ، دون سفسطة ، مقارنة الواحد

بالآخر . واذا زعم أن نمو الحياة يحدث لامن حياة لحياة ، بل من حياة لموت ومن موت لحياة ، بادخال الموت حتى حيث لايمكنه الا ان يعمل ، كوسيط ملتزم وميكانيكي بين لحظتي حياة ، ينتهي آنغلز الى نظرة مجردة ، أي غير عينية للواقع التاريخي . وبزعمه اقامة جدل حياة انتهى بجدل موت .

ان مثل البزرة والنبات يدل بصورة واضحة على اخطار هذه الطريقة . وإذا نظرنا الآن كيف أن المسار الجدلي نفسه عند ماركس يتحول على صعيد السياسة ، نجد ، بشكل ولاشك اقل بدائية ، فرصة لعرض الانتقادات نفسها .

ففي الجزء الرابع من كتاب « الرأسمال » يعطينا ماركس الصورة الثورية للمسار الاقتصادي ، الذي ينمو هو ايضاً ، على ازمنة ثلاث . اولا ، النظرية ، حيث يقوم دور الحبة بالصناعة الصغيرة ، التي تتصف بالنسبة للعامل بالملكية الفردية لوسائل الانتاج . وفي درجة ما من النمو ، يخلق هذا الشكل البدائي للصناعة الشروط المادية لفنائه الخاص : ان وسائل الانتاج الفردية والمجزأة تتحول إلى وسائل انتاج مركزة بين بعض الأيدي القوية او بعض المنظمات من نوع « الاحتكار » . والنفي الاول ، الذي يقتل الحبـــة ويؤدي إلى الطباق ، ينتهي بنزع الملكية لصالح التركيزات الصناعية ، الملاكين الفرديين . ومتى تم هذا التحول في الانتاج يتحسن ويقوى : وفي الحد الذي تسود فيه المنافسة ايضاً بين الراسماليين ، تحذف الضعفاء ، وتقلل العدد وتزيد ابعاد التركيزات الباقية على قيد الحياة . وعندئذ يتدخل نفي جديد ، نفي النفي ، الذي يسجل المرحلة الثالثة ويؤدي الى التركيب : لأن تشريك وسائل الانتاج ينزع بدوره ملكية منتزعي الملكية السابقين . وعندئذ تؤول الحالة إلى الملكية

الاجتماعية (الجماعية او ملكية الدولة) لوسائل الانتاج : وتموت شجرة الرأسمالية الخاصة ، محررة نبتات جديدة لايسعها ، في هذه المرة ، الا أن تتكاثر وتنمو لتنتهي إلى إقامة قطعية للمجتمع الاشتراكي . ويقول ماركس ان كل هذا يحدث بمسار حتمي وميكانيكي : « مع حتمية المدى الطبيعي يولد الانتاج الرأسمالي نفيه الخاص » .

الموازنة الحالية للماركسية

ليس القصد هنا الجدل بل أن نقدر حسب حاجات عصرنا الروحية نفاذ طريقة تصعد إلى مائة سنة ، ولذا من الضروري تبعاً لهذا المثل الأساسي ان نرمم الموازنة الحالية للجدل الماركسي .

أولاً ، ان المزية الكبرى التي تبقى في هذه الطريقة ، هي انها ادخلت من جديد ، في الفلسفة كما في السياسة ، عنصر تأثير وحركة ، عنصراً حركياً . وإذا قورنت مادية ماركس بمادية فويرباخ [١] ، لوحظ التجديد : لأن فلسفة فويرباخ كانت ثابتة وسلبية ؛ فهو يرى ان الانسان كان وحده نتاج الطبيعة والظروف المجاورة . ويرى ماركس أن الانسان والمجتمع مرتبطان ايضاً بالطبيعة ، ولكنهما غير مرتبطين سلبياً . وان قواهما الانتاجية لاتنتج فقط ، كما يؤكد الماديون السابقون ، من التأثير الذي تمارسه الطبيعة على الانسان ، ولكن في حد واسع ايضاً من التأثير الذي يمارسه الانسان على الطبيعة . ويقول ماركس عن الانسان « بانه يؤثر على الطبيعة الخارجية ، ويبدل في الوقت نفسه طبيعته الخاصة » .

---

(١) FEUERBACH

وما من شك في انه يوجد هنا مأتى أساسي ، قامت به الماركسية وسيفيد منه كل ورثتهـا ، ويؤلف بالنسبة لماركس لقباً دائماً لاعجاب الأجيال الآتية . ففي العالم المغلق للفلاسفة والاقتصاديين الأحرار ، او ، في عـالم الماديين ، الذي ليس الا متمماً معكوساً ، شق منفذاً ؛ لقد وضع بعداً ثالثاً في كون المفكرين المثاليين والبورجوازيين الخالي من التضاريس؛ وفتح طريقاً يمكن أن يدخل منه كل مسعى تاريخي لايضاح الكون أو الحياة الاجتماعية . وبهذا ، كان أحد الرواد الذين يجب علينا جميعاً أن نحيي جهدهم ونعجب بشجاعتهم ، واحد الأفكار الاولى التي انطلقت في الطريق المشقوق على هذا النحو . ولاعجب اذا كان ماركس فعل ذلك ايضاً بشيء من الصعوبة وعدم اللين ، وبتحرر ، اقل مما كان يظن ، من التعاملات التي يشجبها . ان السيارات الاولى استغرقت زمناً لتتحرر من تقليد العجلات . وبرد الفعل ضد المثالية بدأ ماركس بنسخ اشكال خطأ مشابهة . فالمثالية ، في فكر الماديين ، نوع من العدم التمهيدي للوجود ، ملكوت ظلمات سابق لادراك الواقع . وقد خرج ماركس ، حقاً ، من العدم ، وأزال الأشباح ؛ ولكنه لم يعرف ايضاً أن يعطي حياة للواقع الذي أدركه : فقد كتب : « ان الجدل ، في شكله الخاتل ، كان على الموضة في المانيا لأنه على مايبدو يحور صورة ما كان موجوداً . وفي شكله العقلاني ، منزلق ، وموضع تخوف في انظار البورجوازيين والسنة حالمم من أصحاب المذاهب ، ويرجع ذلك لأسباب مختلفة : ففي الفهم الايجابي للأشياء الموجودة يتضمن في الوقت نفسه فهم نفيها ، وتدميرها الضروري . » . وهكذا يلعب ماركس ، في المجتمع البورجوازي ، دور الأخ الترابي ، بالنسبة إلى رهبان الطريقة الديرانية الترابية ، الذي كان، في كل كلامه ، يحض الآخرين على الموت ؛

ولا يدرك الحياة الا بجذورها أو بامتدادها في الموت . وقد سيطرت عليه حتمية الموت ، فحذف كثيراً في الغالب أيضاح كيف يمكن ، في الواقع ، أن يعيش .

وباتباعه أفكار وأخطاء آنغلز الذي يرى أن البزرة والنبات ليسا الا ميتين بالقوة ، قبل ، هو أيضاً ، بأن نمو التاريخ يتم من موت إلى موت ، وبضربات مضاعفة بالموت ، والتاريخ ينمو من نائبة لنائبة . أفلا يمكن ، بالعكس ، كما يقبل بعض الماركسيين المحدثين ، المتحررين من السكولاستيكية الهيغيلية والأكثر حساسية بمظاهر أخرى لفكر ماركس ، تصور تحقيق تدريجي للارادة الثورية التي تتم من حياة لحياة ، وأن كل انقطاع جديد يتجاوز كسب الانقطاعات التي سبقته ويحافظ عليه .

ومن الممكن منذ الآن أن نرى أين يجرحنا العبء وأين يضايق ، اليوم ، كل تابعي ماركس ، بالرغم من نعماهم ونجاحاتهم العابرة . ففي أصل فهمه للتاريخ ، توجد موضوعتان :

أولاً : مسلمة الحتمية المادية ، وبموجبها تقيد العوامل الاقتصادية وعلاقات الانتاج العلاقات الأخرى الموجودة بين الناس : « أن مجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف بنية المجتمع الاقتصادية ، والأساس الواقعي الذي تقوم عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية ، وتطابق هذه البنية أشكال وعي اجتماعي معينة . »

ثانياً : مسلمة الجدل ، وبموجبها تتحول هذه الحالة الاجتماعية ، التي يرجع أصلها الى عوامل اقتصادية ، بتخريب نفسها وبتوليد نقيضها .

وفي الواقع ، ان هاتين الموضوعتين تؤلفان وجهات نظر الفكر المتجه

إلى تبسيط واقع القضايا البشرية ، ولاشك في انهما صحيحتان جزئياً ؛ ولكن نصيب الخطأ الذي تحتويانه يفوق في خطورته نصيب الحقيقة .

ان كارل ماركس ، الذي اكتشف التاريخ ووضع التقنيات للتقدم فيه ، بدأ بتبسيط مجراه ، وتسييره في أقنية . وهذا خطأ فادح ، لأن الأمواج لاتخضع بالضرورة للترسيم الذي يفرض عليها . ومن هنا نفهم قوة انجذابه لموت يتقدم من قبر لقبر . وجمود العدم يظهر سهلاً للغاية من أجل تحديد مسافة ؛ والأوابد الجنائزية أكثر ثباتاً وأكثر قطعاً من مساكن الأحياء.

ولكن ، لما كان ما يعتمد على الموت ينتهي باثارة الموت ، فقد ترانا الآن في وقت ستنتهي فيه الماركسية ، إذا لم تعرف كيف تجدد نفسها ، بتوليد هذه الأشكال من الموت الاجتماعي الذي يسمى «كتاتوديات، هذه الأشكال من الموت الفكري الذي يسمى ، حسب الأحوال ،تجريدات أو مذاهب (نظم)».

تجديد جهد ماركس

وليفهم جيداً هنا أن القصد ليس مهاجمة جهد ماركس ، بل بالأحرى تجديد ، وتجديد جهد اشتراكيي زمانه ، ومن بينهم خصمه برودون . وليس القصد أن نكون ضد ماركس ، وأكثر من ذلك التحزب ضد ما كان ، منذ مائة عام ، وشاخ اليوم ، لصالح ما قد سيكون إذا نشأ في أيامنا . ولو كان ماركس معاصراً لنا ، لما ذهب يبحث في فلسفة عمرت قرناً عن المحرك الثوري الذي يحتاج إليه زماننا . ولاستقى من مصادر جديدة ، ولأفاد من جهد الفكر المعاصر كله لتحديد افراط مبدأ الحتمية وايجاد معنى الوقائع بكل تواضع . وربما عزف عن البساطة الخاطئة للرسوم الفكرية ليقيم جدلاً حياً مقام جدل الموت ، جدله .

أو انه ، بالأحرى ، يبقى أميناً لبعض تطلعات شبابه ومراهقته التي ذهبت به ضرورات النضال السياسي إلى استنكارها وحتى معارضتها .
وكما كتب ارنست رونان : « ان كل فكرة تريد النجاح بحاجة إلى القيام بتضحيات : لأن الانسان لا يخرج طاهراً من النضال في سبيل الحياة » أو كما قال شاعرنا العربي المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

اوكما كتب آرنو دانديو[1]: « ماركس ثوري مات شاباً ، وانو كيف أوضح أفكاره عندما كان بعد حياً .

هنالك نقطة من النقاط الحرجة عند ماركس وهي مفهومه للدولة . ففي الاصل ، كان ماركس ، ككل اشتراكيي القرن التاسع عشر ،مناوئاً للدولة ، أو كما يقال اليوم ، مناوئاً للجمعية وفي كتابات شبابه السابقة لـ « البيان الشيوعي » ، التي تؤلف أساس أثره الفلسفي والعاطفي،وضع قضية الدولة مع رغبة كبرى في صيانة الحريات الضرورية ضدها . وفي « نقد فلسفة الدولة عند هيغيل » ، الذي كتبه في ١٨٤١ – ١٨٤٢ ، شجب كارل ماركس معاً دولانية (ايتاتيسم) زمانه ودولانية عصرنا الذى يجد فيه بعض الماركسيين مايرضيهم : « البوروقراطية هي الدولة الخيالية إلى جانب الدولة الواقعية . . . ان كل شيء له اذن معنيان ، أحدهما واقعي ، والآخر بوروقراطي ، كما أن المعرفة مزدوجة ،احداهما واقعية ، والاخرى بورروقراطية ، وكذاالشيء نفسه من اجل الارادة . ولكن الكائن الواقعي يعامل حسب كونه بوروقراطياً ، وحسب كونه غير واقعي ، روحياً . والبوروقراطية تقبض في حوزتها على كائن الدولة ، الكائن الروحي للمجتمع ؛ وهو ملكيتها الخاصة . والروح العام

---

(١) Arnaud Dandieu

للبوروقراطية هو السر ، السر المحفوظ في داخلها بالنظام التسلسلي ونحو الخارج بوصفها صنفاً مغلقاً » .

وبعد هذا النقد للبوروقراطية ، نورد تمييزاً اعم واعمق بين المجتمع والدولة : « ان الاختلاف بين الدولة والمجتمع المدني هو اذن محدد ، وهو أن الدولة لاتكمن في المجتمع المدني ، بل في خارجه . ولاتمسه الا بمندوبيها الذين عهد اليهم « تسيير الدولة » في داخل صعدها . ولا يحذف الاختلاف بهؤلاء « المندوبين » ، بل يتحول الى معارضة « قانونية » ثابتة » . وليست الضابطة « الشرطة » ، و « المحاكم » و « الادارة » مندوبة عن المجتمع المدني نفسه ، الذي يسير فيها وبها مصلحته الخاصة المشتركة، بل مندوبي الدولة المكلفين بادارة الدولة ضد المجتمع المدني » .

ومن يستطيع الذهاب الى ابعد من ذلك ، ومن منا يذهب ايضاً بعيداً في الاتجاه المناوىء للدولانية والفوضوية ؟ ومع ذلك ، فان كارل ماركس ، بعد ست سنوات ، في شباط ١٨٤٨ ، في « البيان الشيوعي » أوصى بتدابير الدولنة :

« تركيز الاعتماد بين ايدي الدولة ، بواسطة مصرف قومي برأسمال دولة وحصر خاص »

« تركيز جميع وسائل النقل بين ايدي الدولة ؛

« الاكثار من المصانع القومية ، ووسائل الانتاج ، واحياء الاراضي وتعديلها وفق خطة عامة ؛

« الزام الجميع بالعمل ، وتنظيم جيوش صناعية وبخاصة في الزراعة » .

وأي حظ غير متوقع لهذه البوروقراطية المحتقرة منذ قليل ! بين ١٨٤٢ و ١٨٤٨ بدأ ماركس ينوس بين موقفه الفلسفي والعاطفي في الأصل ، والضرورات التعبوية التي ظن انه خاضع لها .

وبعد هذا « الاندفاع » نحو الدولانية التي يؤلفها « البيان الشيوعي » نرى عودة الى المواقع الفوضوية . ففي ١٨٧١ بلغ « قومون باريس » ، المكتوب تحت تأثير الهيجان الذي شعر به أمام حماسة الثوريين الباريسيين ، عظمة وصفاء فريدين . فهل هــذا هـو السبب في العودة الشغفة الى تطلعات الشباب ؟ لقد كتب ماركس : « ان السلطة المركزة للدولة بهيئاتها الحاضرة في كل مكان ، من وجيش دائم ، وشرطة ، وبوروقراطية واكليروس وقضاء ، وكلها هيئات مشكلة وفق خطة منظمة ومتسلسلة في تقسيم العمل ، تصعد الى عصر الملكية المطلقة . » وعرف نظاماً اتحادياً تحذف فيه الدولة بقوله « ان الدستور القوموني قد يرجع الى الهيئة الاجتماعية جميع القوى التي امتصتها الدولة حتى ذلك الحين ، الطفيلي الذي يتغذى من جوهر غذاء المجتمع ويشل حركته الحرة . وبهذا الحادث وحده كان نقطة انطلاق لتجديد فرنسا .

وهنا نجد تقريباً فترة برودونية في فكر كارل ماركس . وفي الحقيقة ، ان القومونيين كانوا تلاميذ بلانكي [١] وبرودون ، ولكن واحداً من بينهم كان ماركسياً .

وبعد اربعة أعوام ، عادت الشعلة السلطية . ففي ١٨٧٥ ، ذكر ماركس في « نقد برنامج غوتا » مبدأ الدكتاتورية ، دكتاتورية الطبقة الكادحة . ولاشك في أنه لم يتخل عن تطلعاته الحرة ، ولكنه ليرضى بها ، اعتقد بانه يجب تصور فترة انتقال تكون تسلطية استبدادية وتؤدي الى تعزيز موقت لميكانيكية الدولة : « بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي يقع دور التحويل الثوري من الأول الى الثاني .

---

(١) BLANQUI (١٨٠٥ – ١٨٨١)

ويطابق هذا دور انتقال سياسي لاتكون فيه الدولة شيئاً آخر غير الدكتاتورية الثورية للطبقة الكادحة » .

ونظراً الى ان التعبير « دكتاتورية الطبقة الكادحة » لفظه كارل ماركس في آخر حياته ، فقد عرف حظاً فريداً : وهو في المفردات الماركسية من اكثر التعابير استعمالاً . ويزعم الماركسيون إقامة الدكتاتورية لحماية الحرية .

أو بالاحرى ، كانوا يزعمون ذلك مادام ستالين حياً . لانه ، وجدت، في عهد خلفائه ، كلمة في آخر نص ذكر وأخذت كل اهميتها ولاقت كل نفاذها، وهذه الكلمة هي « انتقال » . والدكتاتورية يجب الا تكون الا موقتة . لأنها تتفق مع مرحلة متوسطة في تشييد الاشتراكية . ولكن متى رسخت هذه الأخيرة نهائياً ، يحسن ارخاء شدتها ودون الرجوع ، بالبداهة ، الى الحريات الرأسمالية والبورجوازية ، يجب الوصول الى المادة الدولة التي ترد الى النظام الاشتراكي الحريات التي تتواءم مع تطبيقه .

وهكذا يفسر النزاع الحالي بين الاتحاد السوفياتي والصين ، أي ، كما رأينا أعلاه ، بين بلد اشتراكي عمر ثورته نصف قرن ويمكنه ان يبدأ بارخاء وثاقه ، وآخر يرجع نموه الثوري الى عشرين عاماً فقط ، ومازال في بدايته ويجب ان يظهر قاسي القلب لايرحم .

وهكذا تسمح ازمة الاشتراكية في مبادئها بشرح قطاع كامل للنشاط العالمي الذي عرضناه في هذا الكتاب .

التشخيص

ومهما بدت أزماتنا الثلاث ، ثوراتنا الثلاث ، قديمة احياناً ، فهي على الأقل ضرورية للاستشهاد للخلاص من اللبس السياسي في زماننا .

فهل يستطيع قراؤنا ان يحفظوا من هذا الكتاب ، الذي عرض فيه مؤرخون مشاهير بصورة موضوعية مختلف مظاهر الدور الذي تلا عام ١٩٤٥ ، عاطفة بأن صعوبات عصرنا ليست ابداً غير لازمة الحدوث ولاطارئة غير متوقعة ، وان عصرنا يزخر بحضارة جديدة ، ولفهمه ، يجب ، بشكل ما ، ان نركز على فكرنا نظارات مزدوجة البؤرة تساعد على الرؤية من قريب ومن بعيد . الرؤية من قريب ضرورية حقاً لتجنب الاصطدام بعقبات الطريق ، ولكن الرؤية من بعيد ، ان في الماضي ، وان في المستقبل ، لاغنى عنها للكشف ، في الافق ، عن طريق تقدم جديد وانسانية جديدة .

ان أزمة العقل تشرح جميع الصعوبات من التعايش بين أمم متطورة، تمثلت ، وأحياناً بافراط ، ديكارت ، وأمم غيرة بعد ، لم تتأثر به .

وأزمة الوطنية تشرح الحوادث غير العادية، في الخلاص من الاستعمار ، التي تتنازع فيها البلاد القديمة التي تجاوزت مرحلة القومية ، والبلاد الجديدة التي توصلت إليها فقط في نشوة استقلال حضر بشكل غير كاف .

وأزمة الاشتراكية ، أخيراً ، تشرح الهزة التي حدثت في داخل العالم الشيوعي وتعقيد العلاقات التي يجب أن يغذيها الآن مع العالم الغربي . وتشرح أيضاً تطوره نحو كسب جديد للحريات مازال محدوداً جداً وضعيفاً جداً .

وربما يلعب بمصير الانسانية في الحال ، ولكنه يهيأ إلى أجل . وللامساك به ، وتوجيهه ، يجب الأخذ بعين الاعتبار هذا القرار المزدوج : فاذا عرفنا عصرنا بشكل أفضل ، وتعمقنا في أصوله ، فلربما واتانا بعض الحظ في امكان الخروج منه ، باستخلاص ظروف ووسائط دور جديد للانسانية .

حاوث

في فرنسا ، قامت « ثوره ايار ١٩٦٨ » . وفي مناخ الازدهار الظاهر والجاه الدولي المستعاد ، والاستقرار الحكومي ، حدثت حركة من أشد الحركات التي عرفتها فرنسا منذ ثورة القومون في عام ١٨٧١ . أما أن تكون قد هدأت موقتاً باعياء بعضهم وبمهارة الآخرين فهذا لا يزيل شيئاً من أهميتها. «لأول مرة منذ قرن وضعت أسس المجتمع من جديد على بساط البحث، وربما لأول مرة ، منذ بداية تاريخ فرنسا ، أثيرت الحركة على أيدي الشبان والطلاب كتمرد في آن واحد على النظام القائم وكرد فعل على الأجيال المتقدمة في السن .

ان اضطرابات أيار ، التي أثارهـــا شبان مفكرون ترشدهم ثورة على الرأسمالية وقطيعة مع شيوعية موسكو ، تسجل البحث عن وضع جديد يتكيف وزماننا .

ان الحرية الرأسمالية يرجع تاريخها إلى عصر العجلات (ديليجانس) والماركسية الى عصر الخطوط الحديدية الأولى . وان مجتمع الجماهير ، الذي خلف مجتمعات الطبقة ، يجر اغترابات جديدة أكثر عمقاً وأكثر شمولاً ، وقد بدأ الشباب يشعرون حيالها بحاجة الدفاع عن أنفسهم . ولم تكن هذه الحركة قاصرة على فرنسا بل ظهرت تقريباً في كل بلاد العالم .

ما هو اذن معنى هـــذه الثورة برغم أنها أخفقت ، وبرغم أنهـا عرفت فترات مخالفة للمنطق والحقيقة ، ولكنها سجلت على الأقل وبصورة دائمة مجرى تاريخنا ؟ ما معناها الانساني ؟ .

ان جيلًا ، جيـل أناس من عمر الخمسين إلى الستـين عاماً ، منعته الظروف ، التي كان يتخبط فيها ، من أن ينقل إلى اطفاله اليقين والأمن الذين يحق للابن دوماً أن ينتظرهما من ابويه . هذا هو السبب العميق

للعلم الأسود الذي خفق في فرنسا اولاً ، ومن بعد في البلاد الأخرى ، في الجامعات التي احتلها الطلاب المتشيطين غضباً والمتحمسين .

ماذا اقترح عليهم ؟ ماذا اقترح على كبارهم المباشرين الذين انضموا غالباً اليهم ؟ ان رجلاً عمره ثلاثون عاماً بدأ يقظته على العالم في الاضطراب المعمم بسبب الحرب العالمية الثـــانية ، هذه الحرب الأهلية التي تجـابهت فيها كل أطيـاف الفكر ، كل السفسطات القـاتلة وكل الأوهام . فاذا كان المانياً ، ربما عرف بلبس ، ولكن بشكل كثيف ، الحلم المروع الذي تلا الأمـال الجنونية في هتلر ليؤمن لبلده السيطرة على العالم . وإذا كان ايطالياً ، فقد جعلوه يمر في العرض ، كالشاب الفـــاشي ، ببندقية من خشب ، على شرف موسوليني الذي مرغت جثته بعد حين بالخزي والعار . واذا كان فرنسياً ، فقد اختلجت اذناه الطفوليتان لصوت « ايها الماريشال ، ها نحن » قبل ان ترتعشا لصالح دوغول الذي شتمه الثائرون في شعاراتهم .

وبعد هذه البدايات المبشرة التي عرفها المراهقون والشبان ، كيف أصبح أبناء هذا العصر الذي أساء التورط ؟ لقد زجوا ، في مختلف البلاد ، في حروب عابثة وقاتلة ، فتعلموا فيها أخيراً أن يروا النظام سخرية ، والوطنية مشبوهة . ان حرب الهنـــد الصينية والجزائر بالنسبة لبعضهم ادت إلى ضياع ارادي للبلاد التي جندوا من اجلها . وان الاضطرابات في الكونغو ، وفي اندونيسيا ، بالنسبة لآخرين ، وفي الجهة الأخرى من الستار الحديدي ، ثورات سحقت بالقوة في بودابست وفي برلين .

وفي كل مكان ، في المعسكرات الحاضرة ، وعلى جميع القارات ، يترجرج اليقين . وفي الولايات المتحدة ، تعلم القسم المتحمس والواعي في الشبيبة أن يتظاهر ضد الحكومة . وفي بلاد الشرق ، يرى تصدع

العبارة القوية التي فرضت على جميع انظمة الديموقراطية الشعبية .

وفي كل مكان حرم الجيل الصاعد من اليقين والايمان ، وفي كل مكان وضع محضراً باخفاق من سبقوه ، ومن المحتم والطبيعي وشبه الضروري أن يقوم هذا الجيل الصاعد الساخط على الماضي وغير المؤمن بالمستقبل ، ضد كل من لم يستطيعوا أو لم يعرفوا أن يمنحوه الأمن .

ان العلم الأسود في السوربون يعلن على هـــذا النحو موت السلطة الابوية ، موت الأب . وهو علم الحزن كما هو علم الثورة . علم لا يرفع ابداً ببهجة القلب ، ولا يتبع الا باستهزاء وسخرية ، علم اليأس والاخفاق ، اليس الافضل لهؤلاء الشباب أن يبعثوا هذا الرمز الجنائزي عوضاً عن ان يقبلوا سلبياً الأبهة الفخمة للاحتفالات الرسمية التي لا يؤمنون بها ؟

الأزمة الحالية عميقة : لقد نشأت في داخل كل اسرة ، وفي وجدان كل انسان شاب ، انها ازمة حضارة عرفت الكثير من الانظمة الخاطئة والكثير من الأكاذيب ، فبحثت عن توازن جديد وربما ايمان جديد .

الفصل الحادي عشر

الدول الأوربية الأخرى

دول أوربـــة الغربية

النمسا

في نيسان ١٩٤٥ ، قبل استسلام جرمانيا ، ولكن بعد أن عبر الروس حدود النمسا ، تقاعد الزعيم الاشتراكي كارل رينير [١] في مدينة غلوغنيتز [٢] ، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين ، بعـــد أن شغل في السابق منصب مستشار النمسا في فترة المجلس التأسيسي عام ١٩١٩ ، ورئيساً للبرلمان في جمهورية النمسا حتى ١٩٣٩ وقـــد وافق الروس الفاتحون على أن يذهب إلى فينا ويحاول إعادة تجمع الكتلة غير الفاشية لآخر برلمان نمساوي ديموقراطي في ١٩٣٣

وعندما وصل رينير فينا وجد أن مختلف الزعماء السريين النمساويين قد شكلوا من قبل خلايا ثلاثة أحزاب سياسية نشيطة :

١ ــ حزب الشعب النمساوي الكاثوليكي .

٢ ــ الحزب الديموقراطي الاجتماعي .

٣ ــ الحزب الشيوعي النمساوي .

---

(١) كارل رينير KARL RENNER (١٨٧٠ – ١٩٥٠)

(٢) غلو غنيتز GLO GGNITZ

وقام رينير بمفاوضات مع الأحزاب جميعاً تحت إشراف الروس ولكن دون تدخلهم . وفي ٢٩ نيسان ١٩٤٥ ، وقبل استسلام المانيا ببضعة أيام ، أعلن تشكيل حكومة نمساوية موقتة تضم وزراء يمثلون الأحزاب الثلاثة برئاسة رينير مستشاراً .

اعترفت موسكو فوراً بهذه الحكومة . ومع ذلك فقد كان الحلفاء الغربيون الثلاثة الكبار يشكون في تعاون رينير مع السوفياتيين . وقبل أن يحتل الحلفاء الغربيون المناطق العائدة لكل منهم ؛ اصطدموا مع الحكومة المؤقتة التي يرعاها السوفياتيون والتي طلبت اعترافهم بها كناطق باسم النمسا المحررة . ورفض هذا الاعتراف حتى تشرين الأول ١٩٤٥ . وفي غضون ذلك ، طالب الأعضاء الغربيون في المجلس الحليف من أجل النمسا من حكومة رينير أن تدخل مزيداً من زعماء الأقاليم الريفية في النمسا ، واكتفوا بأن الحكومة كانت تتمتع حقاً بدعم شعبي واسع ، وانها منعت وزير الداخلية الشيوعي من ممارسة رقابته على الانتخابات والضابطة . وخولت حكومة رينير العمل « تحت إرشاد المجلس الحليف وإشرافه » . وكانت أعمالها الرئيسية المباشرة تشجيع الصحافة الحرة والإعداد لانتخابات قومية عاجلة .

وفي غضون ذلك ، قامت حكومة رينير بالكثير : ففي أيار ١٩٤٥ ، أرجعت الدستور الديموقراطي لعام ١٩٢٠ كما عدل في ١٩٢٩ ، وألغت القانون النازي بكامله ، والتدابير الدكتاتورية في نظامي دولفوس وشوشنيغ . ثم قامت باستئصال جذور النازية ومعاقبة مجرمي الحرب ، واتخذت تشريعات اضطرارية ضرورية ، ووطدت نظاماً مركزياً يعمل على وجه حسن .

وجرت الانتخابات لـ « المجلس الوطني »[١] ، في تشرين الثاني ١٩٤٥ ومنع كل عضو سابق في الحزب النازي من التصويت . وكشف الاقتراع السري عن ٨٥ نائباً من حزب الشعب ، و٧٦ ديموقراطياً اجتماعياً ، و ٤ شيوعيين ؛ أي بمجموع ١٦٥ نائباً . وبعد ان سبق وقبل أن الحكومة التي ستتشكل بعد الانتخابات ستكون ائتلافيـة ، تشكلت الوزارة الجديدة ، في كانون الأول ١٩٤٥ ، وضمت ٨ أعضاء من حزب الشعب ، و ٦ اشتراكيين ، وشيوعياً واحداً . وأصبح ليؤبولدفيغل[١]، من حزب الشعب ، مستشاراً ، وانتخب مجلس أعلى باسم بوندسرات[٢] أو المجلس الاتحادي لتمثيل الأقاليم النمساوية . وانتخب البرلمان بالإجماع رينير رئيساً للجمهورية النمساوية الثانية لمدة ست سنوات .

أما مناطق الاحتلال في النمسا فقد حددتها اللجنة الاستشارية الاوربية في تموز ١٩٤٥ . وأخذت كل من الدول المحتـلة الأربع قطاعاً من البلاد ، وحاولت أن تحل النظام محل الفوضى الادارية والاقتصادية الناجمة عن الحرب وتداعي النازية . وضمت المنطقـة السوفياتية : النمسا الدنيا وبورغنلاند ؛ وشملت المنطقـة البريطانية : شتيريا ، كارانثيا وقسماً من التيرول الشرقي . واستلمت فرنسا باقي التيرول وفورالـبرغ . وخصص للولايات المتحدة : سالزبورغ والنمسا العليا . وقسمت فينا ، كبرلين ، إلى قطاعات وأخذت كل دولة محتـلة قطاعاً ، بينما دول القطاع الخامس ، وأخذ المحتلون يحكمونـه دورياً كل شهر . وضمت المنطقـة

---

(١) المجلس الوطني NATIONALRAT

(١) ليؤبولد فيغل LEOPOLD FIGL

(٢) بوندسرات BUNDESRAT

(٣) اللجنة الاستشارية الاوربية (EAC)

الروسية حقول الزيت والمناطق الصناعية الرئيسية وبعضاً من أطيب الأراضي الزراعية .

وكانت السلطة الحليفة في البلاد بيد المجلس الحليف ، ويتألف من الجنرالات الآمرين للأربعة الكبار في النمسا . إلا أن الدول الغربية الثلاث أقامت ، في ١٩٥٠ ، مفوضين سامين مدنيين مقام الحكام العسكريين . وكانت القرارات تتخذ بالاجماع ، كما هي الحال في جرمانيا . وفي أوائل ١٩٤٦ ، وافق المجلس الحليف على التبادل الحر لفائض السلع بين المناطق الأربع ، ولكن الروس حددوا ممارسة هذا الحق في منطقتهم . ومنذ آذار ١٩٤٦ ، سمح للنمسا بتبادل الممثلين الدبلوماسيين مع البلاد الأجنبية ، عدا جرمانيا واليابان . وسمحت اتفاقية حزيران ١٩٤٦ للحكومة المركزية بالتشريع وسن بعض القوانين الوطنية . وأمكن لكل مشروع قانون لا يقتضي تغييراً دستورياً أو قضايا دولية أن يصبح بشكل آلي قانوناً بعد واحد وثلاثين يوماً ، إلا إذا تعرض لممانعة اجماعية من قبل المجلس الحليف . وأصبح بإمكان النمسا منذ الآن أن تفاوض باتفاقات ثنائية مع أي من الدول المحتلة دون موافقة المجلس الحليف . وبتمتع الحكومة النمساوية بهذا الكثير من الاستقلال الذاتي استطاعت أن تستعمل صلاحيتها في العمل الاداري ، إلا إذا عرقل التدخل السوفياتي هذا العمل

وبعد أن أخذت النمسا مساعدة من « إدارة الامم المتحدة للغوث والتعمير » [1] وعوناً من الولايات المتحدة ، حققت تقدماً اقتصادياً قاطعاً . ففي منتصف ١٩٥٣ ، ذكر سفير الولايات المتحدة في النمسا أن الانتاج الصناعي للجمهورية النمساوية وصل إلى الذروة التي وصل إليها

---

(١) ادارة الأمم المتحدة للغوث والتعمير UNRR A

قبل الحرب ، وإن معدل الانتاج الزراعي عاد إلى سوية ما قبل الحرب أيضاً . وأوقف التضخم النقدي ، وأصبح الشلن النمساوي من أكثر الوحدات النقدية الاوربية ثباتاً .

اختلاف الدول الغربية والاتحاد السوفياتي بشأن النمسا

لقد سبق ، منذ ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٣ ، أن أعلن الثلاثة الكبار المجتمعون في موسكو أنهم يريدون ، بعد الحرب ، أن يوطدوا النمسا حرة مستقلة غير أن النمسا ، نظراً لتدخلها في الحرب ، كان عليها أن تتحمل ، كألمانيا ، مسؤولية خسائر الحرب والاسهام في التعويض عنها .

وفي ١٦ تشرين الثاني شاركت فرنسا الحرة في هذا الاعلان .

وفي ٤ تموز ١٩٤٥ وقع « الأربعة » اتفاقاً ، في لندن ، يتعلق بالاشراف الحليف في النمسا ، وعدل هذا الاتفاق ، في ٢٨ حزيران ١٩٤٦ ، وأخذ بعين الاعتبار الحكومة النمساوية التي تألفت في غضون ذلك واعترف الحلفاء بها .

وضعت معاهدة السلام مع النمسا على جدول أعمال مؤتمر موسكو في ١٩٤٧ . وكلف مساعدو وزراء الشؤون الخارجية بإعداد مشروع لها . ولكن العلاقات ، في ذلك الحين ، كانت على أشدها توتراً بين الاتحاد السوفياتي والغربيين فقد أثار الاعلان عن خطة مارشل رد فعل عنيفاً من جانب الاتحاد السوفياتي ، وكان الوضع الذي يمسك به في النمسا ذا قيمة أساسية بالنسبة له . وكما هي حال برلين ، كانت فينا مقسمة إلى قطاعات يدير كلًا منها أحد « الأربعة » ، ومقراً للحكومة النمساوية ، ولكنها وجدت في المنطقة السوفياتية . وإذا أخذ بعين

الاعتبار شرقي النمسا ، وجد أن الاتحاد السوفياتي يفصل هونغاريا ورومانيا عن الحلفاء . وقد أثار بذلك عدة مزاعم ، لا يمكن للحلفاء أن يقبلوا بها ، بغية تأخير إبرام المعاهدة .

إن الحدود بين النمسا ويوغوسلافيا ورقم التعويضات التي كانت تطالب بها بلغراد والشكل الذي يجب فيه تحقيق تجريد البلاد من السلاح وانتزاع النازية منها ، وقضية الأشخاص النازحين واللاجئين ، فسحت كلها مجالاً للخلافات لم يكن في وسع اللجنة إلا الاشارة لها والتوكيد عليها . وفصلت قضية « الأموال الألمانية » بخاصة الاتحاد السوفياتي عن الحلفاء . فبموجب الاتفاقات التي عقدت بين الحلفاء ، كانت « الأموال الألمانية » في البلاد التي احتلتها المانيا سابقاً ، تؤلف ، بالنسبة للحلفاء ، غنيمة حرب . وقد سبق أن الألمان ، بعد ضم النمسا ، في ١٣ آذار ١٩٣٨ ، أقاموا فيها شركات المانية ، وسلمت إلى هذه الشركات أموال نمساوية . وبهذا العمل وضع اقتصاد النمسا كله بين يدي الرايخ وزعم الاتحاد السوفياتي بأنه يعتبر الأموال النمساوية القديمة التي صادرها الرايخ لصالحه كـ « أموال المانية » . أما الحلفاء فيعتبرون أن تلك الأموال النمساوية المصادرة يجب أن ترد إلى النمسا . وكانت هذه القضية أساسية بالنسبة للنمسا . وأدت النظرية السوفياتية إلى وضع الاقتصاد النمساوي بين يدي الاتحاد السوفياتي ، كما كان من قبل بين يدي الرايخ . وبفضل المشاريع التي صادرها النازيون وأرجعتها الدول الغربية إلى النمسا ، استطاعت الدولة النمساوية أن تستردالمشروع المعدني الكبير « دونا فيتز ليز ليؤبن » غير أن الروس ، طبقاً للاتفاقات ، أبطلوا المشروع ونقلوا أجهزته إلى الاتحاد السوفياتي . وعلى الأثر تدخلت خطة مارشل وأعادت تجهيز معامل دونا فيتز بأجهزة

(١) دونا فيتز ليز ليؤبن Dona Witz Lez Leoben

حديثة . وهذا النزاع ، الذي افتتح بين الاتحاد السوفياتي والغربيين ، حول النمسا الحصول من خطة مارشل على مساعدة من أعلى المساعدات . فقد قبضت النمسا ٢٠٠ دولار من مساعدات مارشل على كل رأس من السكان . وأفادت هذه المساعدة بخاصة في مهر النمسا بمراكز مائية — كهربائية قوية ، لا سيما وان النمسا ينقصها الفحم تماماً وعـــدا عن الأموال النمساوية العديدة ، سبق للألمان أن صادروا في النمسا الأموال التي كانت تابعة لمغتربي الحلفاء . وادعى الاتحاد السوفياتي باستملاك هذه الأموال أيضاً ، باعتبارها غنيمة حرب ، عدا عن التعويضـــات التي طالب بها النمسا ، وعارض الحلفاء الاتحـاد السوفياتي وطالبوه بإرجاعها . وفي هذه الشروط لم يكن بالإمكان تدخل أي اتفاق أو توقيع معاهدة سلام مع النمسا .

ومع ذلك ، تبنى الاتحاد السوفياتي موقفاً معتـــدلاً تجاه النمسا . فقد نظم الاحتـلال فيها بشكل لا يعيق عمل الحكومة النمساوية القائم على مبادىء النظام البرلماني . حتى ان الاتحاد السوفياتي ، في الفاتح من آب ١٩٥٣ ، تخلى عن نفقات الاحتـــلال . وعلى عكس السياسة التي طبقها الاتحاد السوفياتي في المانيا ، لم يحاول « سفيتة » منطقـة احتلاله في النمسا . وحافظت الحكومة النمساوية ، حتى في المنطقة السوفياتية ، على حرية عمل كاملة لتطبيق سياسة اجتماعية معارضـة بوضوح للشيوعية . وكما فعلت بلدية فينا ، حاولت أن تبني عدداً كبيراً من بيوت العمال ، لا بشكل مجمعات عملاقة من نموذج **كارل ماركس هوف**[1] الذي بنته الادارة الاشتراكية قبل الحرب في فينا ، بل بشكل بيوت فرديـــة مجموعة في مدن وحدائق . ولم يلق المرور أي معوق بين المناطق الروسية

---

(١) كارل ماركس هوف Karl Marx Hof

والغربية أو بين مختلف القطاعات المحتــلة في فينا . ولكن الاتحاد السوفياتي ما فتيء يحافظ ، حتى ١٩٥٤ ، على موقف المعرقل حيال توقيع معاهدة سلام مع النمسا لا يرى في ابرامها أي فائدة له . واذن فقــد حوفظ على الوضع الراهن . وعدا ذلك ، كان في هذا الحل فائدة للاتحاد السوفياتي : وهي أنه جعل النمسا رهناً بين يديه .

معاهدة السلام واستقلال النمسا

لقــد كان ابرام ميثاق وارسو ، في ١٤ أيار ١٩٥٥ ، من جانب الاتحاد السوفياتي ، ظاهرة قوة . ولم يكن ، مع ذلك ، دليــلاً على إرادة العودة إلى الحرب الباردة . وبالعكس ، كان الاتحــاد السوفياتي يأخذ في الشرق مواقع مماثلة لمواقع حلف الأطلسي في الغرب ، وبذلك يرجع إلى الخطــة الكبرى السياسية التي أراد مالينكوف رسمها وهي : إقامة منطقة محايدة ، عبر أوروبة ، مشكلة باتحاد النمسا والمانيا ، والحصول ، على هذا النحو ، على الجلاء عن جميــع الأراضي المحتــلة ، أي انسحاب الجيوش الأميركية من القارة .

وفي شهر آذار ١٩٥٥ ، أي بعــد مؤتمر موسكو مباشرة ، دعي مستشار النمسا راب [١] إلى الكرملن وأحيط علماً بنية الاتحاد السوفياتي إعطاء النمسا استقلالها ، لا سيما وأن معارضة ستالين العنيدة ، التي كانت ضد معاهدة سلام مع النمسا ما لم يفصل في القضية الألمانية ، قــد تخلي عنها فجأة ، وان قضية « الأموال الألمانية » في النمسا ، التي كانت عثرة في وجه كل اتفاق ، لأن الاتحاد السوفياتي يعتبر كـ « أموال المانية »

---

(١) راب Raab

المشاريع التي صادرتها ألمانيا حين ضم النمسا إليها ، ظهرت ممكنة الحل بسهولة .

أحدث خبر هذه العودة ، في السياسة السوفياتية حيال النمسا ، انطباعاً عميقاً في أوربة . وبعد بضعة أسابيع ، وبينما كانت موسكو تفسخ معاهدتي الصداقة اللتين تربطانها ببريطانيا العظمى (٢٦ أيار ١٩٤٢) وفرنسا (١٠ كانون الأول ١٩٤٤) ومؤتمر وارسو يجمع في جيش واحد قوى الدول التابعة جميعاً ، اجتمع « الأربعة » الكبار في فينا . وفي ١٥ أيار ١٩٥٥ ، وقـع ليوبولد فيغل ، وزير الشؤون الخارجية في النمسا ، المعاهدة التي تخول بلاده استقلالها . وبالمقابل ، تبنت النمسا موقفاً محايداً مماثلاً لموقف سويسرا يمنعها من الانضمام إلى أي حلف أو يخول دولة أخرى إقامة قواعد عسكرية على أرضها .

وأرفقت المعاهدة ببنود اقتصادية : فمقابل المشاريع السوفياتية التي تخلى عنها والحقول البترولية التي استعيدت ، تعهدت النمسا حيال موسكو بأن تسلمها في ستة أعوام بضائع بقيمة ١٥٠ مليون دولار ، ومليون طن بترول في العام خلال عشرة أعوام ؛ وأن تعاد أموال شركة ملاحة الدانوب إلى النمسا مقابل تعويض بمليوني دولار .

أما ما يتعلق بـ « الأموال الألمانية » السابقة فقد نصت المعاهدة على أن المالكين السابقين الألمان غير مخولين باستعادتها ، عدا الأشخاص الخاصين الذين يستطيعون حيازتها بمبلغ يصل حتى ١٠٠٠٠ دولار . وقد أحدث هذا البند رد فعل شديداً في بون .

واستردت الأموال الغربية المستثمرة في النمسا ، عدا أموال الشركات البترولية التي ظلت مكسباً للحكومة النمساوية تحت تحفظ أريد منه التعويض على المالكين السابقين .

وبمناسبة توقيع معاهدة الدولة مع النمسا ، هـــذا الحادث العظيم الأهمية ، ألقى مولوتوف خطاباً هاماً أشاد فيه بموقف الحياد الذي اتخذته النمسا ، وأفهم أن القضية الألمانية يمكن أن تحـل على نفس الأسس ؛ وفي الوقت ذاته أوحى بلقاء « الأربعة » الكبار ، وأعلن أن الاتحاد السوفياتي يضع أمام محدثيه خطة « مشخصة » لنزع السلاح .

وهكذا جعل الاتحاد السوفياتي نفسه ، بملء قوته ، مزايداً على سلام العالم .

وفي الحقيقة ، ان حياد النمسا يؤلف بالنسبة للاتحاد السوفياتي نجاحاً دون منازع . وإن جلاء القوات الروسية عن منطقة الاحتلال في النمسا لم يغير في شيء ، تشكيل وتنظيم القوى السوفياتية التي ظـل خطها مستمراً من البحر الباطيك حتى البحر الأسود . وإن التشكيل العسكري لحلف الأطلسي ، بالعكس ، قـــد تضعضع جدياً ، لأنه لا يوجد أي ارتباط بين القوى المرابطة في المانيا الغربية وفي ايطاليا . ووجـدت ايطاليا معزولة نوعاً ما .

وما من شك في أن هذه الظاهرة العسكرية ، في حضور الخطـة السوفياتية ، لم يكن لها الا أهمية ثانوية .

إن الهدف الأساسي ، الذي أراد الاتحاد السوفياتي التوصل اليه دون جدل ، هو التـأثير على الغرب ، وبخاصة المانيـــا الغربية ، وذلك ليستشف من خلاله إمكان إعادة توحيد المانيا شريطـــة أن تكون محيدة كالنمسا .

يضاف إلى ذلك أن لمعاهدة استقلال النمسا معنى خاص ، لأن هذه هي المرة الأولى التي يجلو فيها الاتحاد السوفياتي عن موقع غربي أمامي منذ الحرب العالمية الثانية . وقد قبلت موسكو هذا الجلاء بعد الاعتراف

بحياد النمسا ، وبعد أن بدا أن من المرغوب فيه ، إثر إدخال جمهورية المانيا الاتحادية في منظمة الدفاع الغربية ، أن تقوم بين الكتلتين الغربية والروسية بلاد حياد معترف بها رسمياً .

وتلا ابتهاج النمساويين ، في أيار ١٩٥٥ ، دور من الازدهار لايجارى في هذه الدولة الجرمانية الصغيرة . وبرهنت الالتزامات التي كانت على النمسا تجاه الاتحاد السوفياتي ، بموجب المعاهدة ، على أنها لم تكن ثقيلة شاقة أو يفزع منها . فقد يسر السوفياتيون الدفع بتخفيض طلباتهم والسماح بأن تحل بنود أخرى محل الزيت الذي طالبوا به في معاهدة الدولة . وتم دفع آخر تعويض في عام ١٩٦٣ .

وبدأت الصادرات النمساوية تتدفق على السوق الاوروبية المشتركة ، وزادت أرباح الجمهورية وازدهر اقتصادها . وازدهار الصناعة النمساوية بشكل كاف جعل الاقتصاد النمساوي يستوعب اللاجئين الذين تدفقوا على النمسا بعد ثورة هونغاريا في ١٩٥٦ ، والعمال الذين توافدوا من البلاد القريبة ولم يجدوا عملاً في بلادهم .

وفي السياسة ، ان سيطرة حزب الشعب على الاشتراكيين في وظيفة المستشار ظلت حتى ١٩٧٠ . فقد خلف راب ، في ١٩٦١ ، الفونس غورباخ [١] ، وخلف هذا ، في ١٩٦٤ ، مستشار آخر من حزب الشعب وهو جوزيف كلاوس [٢] . ومن جهة أخرى ، حاول الاشتراكيون أن تكون الرئاسة في أيديهم . وكانوا يسيطرون على انتخابات المدينة في فينّا . وفي بداية ١٩٧٠ ، كسب الاشتراكيون لأول مرة مايكفي

---

(١) الفونس غورباخ Alfons Gorbach

(٢) جوزيف كلاوس Joseph Klaus

من المقاعد في الانتخابات الوطنية ، وأصبح زعيمهم الدكتور برونو كرايسكي [1] ، مستشاراً .

وبالرغم من أن الجمهورية عززت مواقعها بشدة في النمسا ، فقد أخذت قضية عودة آل هابسبورغ الى الحكم تخامر أفكار الحكومة . ففي ١٩٦٢ ، اعترفت المحكمة العليا في النمسا بشرعية تخلي الارشيدوق اوتو هابسبورغ عن أي مطالبة بالحكم واعلان ولائه للجمهورية . وهذا الاعتراف يمكن أن يمهد السبيل لعودة اوتو الى بلاده . ولكن امكان هذه العودة أثار أزمة سياسية . فقد اتجه حزب الشعب الى الانسجام مع حكم المحكمة ، وقلق الاشتراكيون . وهدد هذا الجدل المحموم في « قضية آل هابسبورغ » بفرط عقد الائتلاف الحاكم . ولكن الأزمة جنبت عندما أعلن الأمير اوتو بأنه لايريد العودة الى النمسا .

وفي السياسة الخارجية تابع النمساويون ، بعد ١٩٥٥ ، سياسة تدعم الأمم المتحدة وأخذوا بها عندما نشب النزاع بين النمساويين وايطاليا على جنوبي التيرول .

اتسعت القضية التيرولية بخاصة بعد الحرب العالمية الاولى عندما بقي نحو ٢٥٠,٠٠٠ نمساوي جرماني في المنطقة الايطالية من التيرول الجنوبي . وقد دخلت هذه المنطقة في أيدي الايطاليين بنتيجة تسوية في نهاية الحرب العالمية الاولى ووعدت ايطاليا أن تضمن لسكانها استقلالاً ذاتياً عملياً . ولكن مسار الطلينة بدأ ، ونبه النشاط الارهابي المنفرق العالم الى وجود أقليات في هذه المنطقة

---

(١) برونو كرايسكي Bruno Kreisky

(٢) اوتو Otto

وفي الأمم المتحدة رافعت النمسا بأن يكون الاستقــلال الذاتي الحقيقي مضموناً في جنوبي التيرول . ومع ذلك فقد أوصت الأمــم المتحدة بأن تسوي الأمتان المعنيتان قضاياهما بأنفسها . وتلا ذلك تبادل عديد من المذكرات والدبلوماسيين بين رومـا وفينا ، ولم يعـد ، على مايبدو ، بنتائج كبرى . وأخيراً أمكن التوصـل ، في ١٩٦٩ ، الى حل لصيانة الاستقلال المحلي ، وكان مرضياً لفينا وروما ، وان لم يكن مرضياً لجميع التيروليين الجنوبيين .

وفي الشؤون الخارجية الأخرى ، شاركت النمسا في مجلس أوربه ، والمنظمة الاوروبية للتعاون الاقتصادي والتنمية ، ورابطة التجـارة الحرة الأوربية ، والاتفاقية العامة في التعرفات الجمركية . ونتيجة لهــذه المشاركة في هذه المنظمات ، باشرت النمسا بتخفيض تدريجي لتعرفاتها . وبعد أن أصبح القسم الأعظم من تجارتها مـع بلاد السوق المشتركة ، طالبت بالانضمام الى الوحدة الاقتصادية الاوربية . ورغم أن النمسـا لم تنجح ، في ١٩٧٠ ، في محاولتها للانضمام للسوق المشتركة ، فقد أصبحت قوية لدرجة كافية تمكنها من تنمية برنامج عون خارجي صغير لمساعـدة الدول المتخلفة .

سويسرا

ظلت سويسرا محايدة خلال الحرب العالمية الثانية . وتبعـــاً لذلك كانت الحالة في سويسرا ، أثناء الحرب ، أقل تغيراً بكثير من معظـم الدول الأوربية الأخرى . ومع ذلك ، فقد شوهد في الحرب توســـع نشاط الحكومة الفدرالية ، حتى ان الاقتصاد ، في نهاية الحرب ، كان على مستوى الاشراف الفدرالي أكثر مما كان على مستوى الكانتون .

وبعد الحرب تضايق كثير من السويسريين المدنيين من هذا الاشراف حتى أصبح من الضروري ، في ١٩٤٧ ، الرجوع الى الاستفتاء القومي على التوجيه الفدرالي للاقتصاد . وبنتيجة هذا الاستفتاء ، عدل الدستور ، وأعطيت الحكومة الفدرالية سلطات واسعة في مراقبة حالة البلاد الاقتصادية ولدور قصير اختصت بسلطات فرض رسوم طارئة ، ولكن هذه السلطات أعيدت الى الكانتونات في عام ١٩٥٣ .

ولم تصب الحرب سويسرا كما أصابت غيرها من الدول الأوروبية ، ولذا كان من السهل ، نسبياً ، على السويسري أن يحافظ على مستوى حياة عال بعد الحرب ، على خلاف المشهد المحزن الذي وجد فيه باقي أوروبة وهو في حالة دمار . وأصبحت سويسرا مركزاً مالياً رئيسياً وممولاً لباقي أوربه . وكلما عاد الازدهار الى البلاد الأوروبية الأخرى ، أخذت سويسرا المسالمة ، التي لم تصبها القنابل أو قصف المدفعية ، تجتذب تيار السياح الآخذ بالنمو سنة بعد سنة . هذا فضلاً عن أن رسومها المنخفضة جعلت الأجانب يقبلون عليها ويتخذون منها مقاماً دائماً لهم .

ودلت انتخابات مابعد الحرب أن نموذج الحكم السويسري ظل مستمراً في العمل بهدوء ، وحراً من الاندفاعات التي ترى في الحالات القارية الأخرى . بيد أنه لوحظ نمو طفيف حقيقي في اليسار السياسي . وفي انتخابات ١٩٤٧ ، كسب الحزب الشيوعي ٧ مقاعد على مجموع ١٩٦ مقعداً . ومع ذلك ، ففي الانتخاب التالي ، انحدر التمثيل الأحمر الى خمسة ، ومن المحتمل الى متوسط من ٣ الى ٥ . وفي الانتخابات البرلمانية ، التي تجري كل أربع سنوات ، دلت الأحزاب الثلاثة : الديموقراطيون الجذريون ، الديموقراطيون الاجتماعيون ، والمحافظون الكاثوليكيون ، على قوة متساوية تقريباً .

ونمت سويسرا نظام المجلسين المعتاد : أي الهيئة العليا التي تمثـــل الكانتونات التسع عشرة الكاملة وانصاف الكانتونات الست ، والمجلس الوطني المنتخب انتخاباً مباشراً ، كما أنمت الصورة السياسية القومية التي تظهر ميزة واحدة غير مألوفة . لأن الاستفتاء الشعبي (الريفيراندوم)، الذي يمكن أن يلغي قانوناً أو يسن قانوناً ، هو ما يجري في سويسرا عموماً . ولنذكر على سبيل المثال ، في ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، أن المجلسين السويسريين تبنيا اقتراحات تخـــول المرأة حق التصويت في الانتخابات الوطنية ، والتوظف في الوظائف الاتحادية ، وقبول التوظف أيضاً في المحاكم الاتحادية النظامية . وقد اقتضت هذه الاقتراحات تعديلاً للدستور وعرضت على الاستفتاء الوطني في ١٩٥٩ ، وخيب الاستفتاء ، آمال الموافقة على تصويت المرأة .

هـذا ويحافظ ، في سويسرا ، على الأشكال الديموقراطية بغيرة وشدة . ويهيء المستوى الثقافي الوطني المواطنين جيداً لدورهم في الحياة الوطنية . وان المسارات التربوية السويسرية ، وبخاصة في الجمنازيوم أو في المستوى التحضيري للجامعة ، تدعو الى الاعجاب حقاً . حتى ان المربين في جميع أنحاء العالم أخذوا عنها . ويعتبر السويسري رائداً في حقل الرفاه الاجتماعي . وبين برامج الرفاه ، التي تمت بصورة مبكرة على يد الحكومة السويسرية ، برنامج العناية بالأطفال المعوقين وتثقيفهم وضمان المسنين ، وخطط التأمين الاتحادي .

وفي الشؤون الخارجية ، ظل السويسريون متشبثين في حيادهم التقليدي ولا يبحثون عن عضوية منظمة الأمم المتحدة ، رغم أنهم يعمـــلون في وكالاتها المتخصصة العديدة . ولم ينضموا الى منظمة معاهدة حلف شمال الأطلسي ، كما لم يبحثوا عن عضوية في منظمات تجارية أوربية . وبتعبير

آخر ، ظلت جونيف مدينة من أهم المدن العالمية . وقد اتخذت منظمة الصليب الأحمر ووكالات الأمم المتحدة مقرها بها . ومن جهة أخرى ، كانت جونيف وما زالت ، من بين مدن سويسرا ، تنمي المدارس والكليات الدولية التي تستهوي الطلاب من الخارج .

بلجيكا

نهاية الأزمة الملكية . — في ٧ أيار ١٩٤٥ ، حرر الجيش الامريكي ملك بلجيكا . وسبق الحزب الاشتراكي أن أعلن معارضته لعودته في ١٠ نيسان . وفي ١٤ أيار صدر بيان شيوعي يدعو جميع أنصار الحرية الى التجمع ضده . وقامت حملة ثورية صراحة ، في البلاد ، في ١٦ حزيران ، للحيلولة دون عودة الملك ، وعندئذ استقالت الحكومة .

وقد أعلم الجنرال اورسكين [١] ، رئيس أركان القوات المرابطة في بلجيكا ، الملك بأنه يرفض الحفـــاظ على النظام إذا ما أثارت عودته الاضطرابات في البلاد ، وانه لن يتدخل إلا إذا انفجرت الحرب الأهلية في بلجيكا « كما تفجرت في اليونان » . ونصحت الحكومة الملك بالتنازل عن العرش . وصرح الملك ليوبولد الثالث بأنه يعلق قراره على مشاورة الأمة . وبعد اتهامات عنيفه وجهها رئيس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ضد الملك ، صوت المجلس ، في ١٩ تموز ١٩٤٥ ، على قانون يعلق نهاية الوصاية بقرار من البرلمان ، وسيطرت القضية السلالية على الحياة السياسية حتى عام ١٩٥٠ .

وما من شك في أن الموقف الذي اتخذته حكومة فان آكر [٢] ،

---

(١) ارسكين Erskine

(٢) فان آكر Van Acker

كان بسبب الخوف من الشيوعية . إلا أن انتخابات نيسان ١٩٤٦ ، وهي الاولى المنظمة بعد التحرير ، أظهرت أن هذه المخاوف كانت عبثاً : لأن الحزب الشيوعي لم يحصل على أكثر من ١٠ ٪ من الأصوات إلا قليلاً .

وفي المجلس حصل الكاثوليكيون ، وقد أصبحوا الحزب الاجتماعي المسيحي ، على ٩٢ مقعداً ، والاشتراكيون ٦٩ ، والأحرار ١٧ ، والشيوعيون ٢٣ ، والاتحاد الديموقراطي ، وهو نوع من حزب عمالي جديد طرحت أسسه في لندن ، لاقى اخفاقاً ذريعاً ولم يستطع أن ينجح إلا مرشحاً واحداً . وعلى هذا فان الرأي البلجيكي ظل وفياً للأحزاب التقليدية .

أصلح فان آكر الحكومة ، وقد ضمت ٥ اشتراكيين ، ٦ كاثوليكيين ٥ أحرار ، و ٢ شيوعيين . وقامت حملة عنيفة جداً ضد الملك . وفي البلاد ، حاولت سفارة الولايات المتحدة ، بسبب سياسة حكومتها المناوئة للشيوعية تدريجياً ، أن تتقرب من الملك ليوبولد الثالث ؛ ولكن سفارة بريطانيا منعتها من ذلك . وكانت الحكومة العمالية الانكليزية ، في ذلك الحين ، تدعم في المانيا الحزب الاجتماعي - الديموقراطي وقررت تأميم الصناعة الالمانية في منطقة احتلالها . وفي حماسة الثورات الناشئة ،تصورت الحكومة العمالية أن تعمل من أوربة الغربية كتلة اشتراكية واسعة . وكان من الطبيعي أن تدعم الحزب الاشتراكي البلجيكي ، لأن الموقف ، الذي اتخذه ضد عودة الملك ، التقى مع التطلعات الانكليزية الى تشكيل أسرة غربية تحت حماية بريطانيا العظمى .

ورفض الملك أن يزج نفسه في النزاع ، وعهد بوثائقه الى لجنة مؤلفة من جامعيين وحكام عالين من الأحزاب الوطنية الثلاثة الكبرى . وفي

تموز ١٩٤٦ ، نشرت هـــذه اللجنة تقريراً يبطل جميع الاتهامات التي وجهت ضده .

وفي غضون ذلك استحوذت السياسة على القضية . وتحت ضغط الرأي أعرب الحزب الاشتراكي المسيحي عن رأيه في أنه مع عودة الملك وحصل على نجاح انتخابي كبير في انتخابات حزيران ١٩٤٩ : وأرسل الى المجلس ١٠٥ نواب على ٢١٢ وانتزع الاكثرية في مجلس الشيوخ . وخسر الشيوعيون نصف نوابهم . وشكل ايسكنس [١] حكومة حزبية اشتراكية مسيحية ليبرالية وأعلن عن عزمه على حل القضية الملكية .

وصوت المجلس على قانون يخضع نهاية الوصاية لمشورة وطنية . وقد تمت هذه المشورة في ١٢ آذار ١٩٥٠ . وكان فيها ٥٨ ٪ من المصوتين مع عودة الملك .

واستجابة لهذا الحكم ، انعقد المؤتمر الاشتراكي في شهر نيسان ، واتخذ موقفاً ثورياً وصرح بأنه يرفض الانحناء أمام رأي الأكثرية وانه يعارض عودة الملك بجميع الوسائل . وأمام هذا التهديد ، غادر الاحرار الحكومة ، وأدت صعوبة تشكيل وزارة جديدة الى حل المجلسين . واستحوذت القضية الملكية على انتخابات ٤ حزيران ١٩٥٠ ، وأعطت هـــذه الانتخابات الأكثرية المطلقة في المجلسين الى الحزب الاشتراكي المسيحي ، وهو الحزب الوحيد الذي أعلن رسمياً بأنه مع عودة الملك ، وتألفت حكومـة متجـانسة من الحزب الاشتراكي المسيحي برئاسـة **دوفيوزار** [٢] .

---

(١) ايسكنس Eyskens

(٢) دوفيوزار Duvieusart .

وطبقاً لقانون تموز ١٩٤٥ دعت الحكومة المجلسين لعقــد الجمعية الوطنية . وفي ٢٠ تموز ١٩٥٠ أنهت هذه الجمعية الوطنية الوصاية ودعت الملك لاستئناف سلطاته .

عندئذ ألف الاشتراكيون والشيوعيون لجنة عمل ، كما فعــلوا في تشيكوسلوفاكيا عام ١٨٤٨ لفرض الشيوعية بالقوة ، لمنع الملك من تولي العرش . وقام اضراب عام في المراكز المتعاطفة مع الشيوعيين في البلاد في ليبج وشارلوروا وأخذ طابع ثورة وجاءت سيارات من فرنسا وأتت الى بلجيكا بعملاء شيوعيين أميين خبراء في تقنيــة الثورة . وساندت الصحافة في انكلترا وفرنسا هذه الحركة المناوئة للملك ، ودعم العماليون الانكليز المضربين الذين قرروا الزحف على بروكسل وجرى حادث بسيط كلف حياة أربعة ثوار ، ثلاثة منهم أجانب ، وعندئذ افتتحت المفاوضات بين الاحزاب .

وعندما بدا الزحف على بروكسل اخفـاقاً ، استقالت الحكومـة . ولم يشأ الملك أن يطيل الاضطراب حول شخصه ، فخول سلطـاته الى ابنه بودون ، في ٣١ تموز ١٩٥٠ . وبعد عام ، تنازل الملك ليوبولد الثالث عن العرش لصالح ابنه بودون وقد بلغ سن الرشد .

وحافظ الحزب الاشتراكي المسيحي على الحكم حتى انتخابات ١٩٥٤ التي الحقت به اخفـاقاً ذريعـاً . وشكل فان آكر وزارة اشتراكية - ليبرالية مع سباك وزيراً للشؤون الخارجية .

وفي غضون ذلك ، تم التغلب على الازمة التي ولدتها الحرب . واستعاد الملك ليوبولد الثالث عطف الرأي بكامله تقريباً نظراً للموقف الذي اتخذه .

---

(١) بودُوَنْ Baudouin .

ووضع دوره أثناء حرب ١٩٤٠ على ضوئه الحقيقي ، واستعادت السياسة البلجيكية كامل استقلالها . وتقربت حكومـــة فان آكر من ليؤبولد الثالث ، وبعد بضعة أسابيع على استلامها السلطة ، وضعت علناً حجر الاساس لآبدة تذكارية لمعركة نهر الليس عـــام ١٩١٤ و ١٩١٨ ، ولم تكن هذه الآبدة غير تمثال ليؤبولد الثالث وهو ممتط صهوة الجواد .

وهكذا تم تجاوز أزمة النظام . وعادت بلجيكا بالاجماع تقريباً الى نظمها الملكية التقليدية . وفي ٢٢ آذار ١٩٥٥ ، اعترف سباك في المجلس بخطأ الحملة التي وجهت ضد ليؤبولد الثالث ، مصرحاً : « أيها السادة ، لا أدعي بأنني أفكر دوماً عن رضى بكل مافعلت في ١٩٥٠ ، ويقصد بذلك الزحف على بروكسل الذي وجهه على رأس لجنة العمل الاشتراكية الشيوعية لمعارضة قرار البرلمان الذي دعا الملك لاستئناف امتيازاته ، ولكنني أرجوكم ، دعوني وقضاياي الشخصية ووجداني »[١] .

وفاء بلجيكا للحيوية الاقتصادية . — لقد أضعفت الحرب العالمية الثانية بلجيكا بشكل عميق كما أضعفت فرنسا . وانتقل الدين العام من ٥٨ مليار في ١٩٣٩ ، الى ٢٥٤ مليار في ١٩٤٦ . لقد دمر ٦٠٠٠٠ بيت مع عدد من أعمال الفن وتوقف الاقتصاد تقريباً .

واستؤنف العمل منذ تحرير البلاد لتجهيزالجيوش الحليفة . ودفع لبلجيكا ١٦ مليار دولار لاعاشة هذه الجيوش وظلت في البلاد . وقد ساعد دفعها اللاحق بالعملات الاميركية بلجيكا على دفع ثمن وارداتها . ومنذ آخر ١٩٤٦ ، استؤنفت الصادرات وتوصلت الى نقطة أمكن فيها توازن ميزان المدفوعات .

---

(١) الليس La Lys .

(٢) الضبط التحليلي لمجلس النواب ، جلسة ٢٢ أيار ١٩٥٥ ، بعد الظهر .

وهذا النهوض الاقتصادي السريع والدائم لبلجيكا كان واقع سياستها التجارية التي ظلت ، خلافاً لسياسة البلاد الغربية الأخرى ، وفية نسبياً لليبرالية . ولا شك في أن بلجيكا ، بعد الحرب مباشرة ، أصيبت بعدوى الأفكار المحيطة وانخرطت في طريق التوجيهية الاقتصادية محاولة تثبيت الأسعار المنخفضة جداً ، وذلك بتعويضها بمساعدات الدولة زاعمة تنظيم الاستيراد والتصدير . وبدت هذه السياسة ضارة بكبحها الانتاج . ولاقت معارضة شديدة ، لافي الأوساط الصناعية فحسب ، بل في الجمهور الذي ردّ وعطف الأنظمة التقتيرية عفوياً بتأسيس السوق الأسود الذي امتد على جميع السلع كما امتد أيضاً على مدة العمل ، لأن العمال كانوا يعملون بالتهريب ساعات أكثر مما يسمح القانون لهم به . وأمام موقف الشعب ، عدلت الحكومة بسرعة عن التقنين والتحديد . وفي آخر عام ١٩٤٩ ، لم يعد الاقتصاد الموجه موضـــع بحث . وأصبحت السياسة الاقتصادية مؤسسة منذ ذلك الحين ، على الثقة بالمبادهة الخاصة . وكان في ذلك مايعاكس سياسة « التقشف » التي طبقتهـــا انكلترا وهولاندا لمحاولة توازن ميزان مدفوعاتها ، وهذا يعني أنها كانت سياسة « الوفرة » . فقد ترك التصدير حراً وأكثر حرية من أي بلد آخر في أوربة . وظهر آنذاك أن « التقشف » اذا كان يبرر بأسباب نظرية ، فان الانتـاج لايمكن أن ينشط ، في الواقع ، الا بسياسة وفرة ، وان التصدير يرافق آلياً بالاستيراد . وهكذا نهض الاقتصاد البلجيكي باللعبة الحرة لليبرالية ، دون تجنيد الأموال التي في الخارج ، ودون زيادة الدين العـام - من ٢٥٤ مليـار في ١٩٤٦ نزل الى ٢٥٢ في ١٩٤٩ - ، ودون تعويض خسائر الحرب ، ومع تحمل العبء الثقيل جـداً للأمن الاجتماعي الذي أدخل بصورة عريضة قصوى بعد الهدنة مباشرة .

ولا شك في أن الحرية أدت الى ارتفاع الاسعار ، ولكن هـــذا الارتفاع أبعد التضخم النقدي وساعد على ارتفاع الأجور الذي تجاوز بسرعة نسبة زيادة الحيــاة . وبالرغم من الارتفاع ، فان التصدير ، وبخاصة تصدير منتجات الصناعة الحديدية ، عرف ازدهاراً عريضاً ، حتى ان بلجيكا ، في ١٩٤٩ ، قامت بفتح اعتمادات بـ ١٤ مليار للبلاد المشترية ثم ازدادت هذه الاعتمادات بـ ٥ مليارات ، وذلك بخـــاصة ، بسبب ميكانيكية الاتحاد الاوربي للمدفوعات .

ومع ذلك ، وجدت الصناعة أمام قضية خطيرة وضعها نقص الفحم وفقدان العمال الذين يريدون الاشتغال في المناجم . ففي ١٩٤٦ ، لم يصل انتاج الفحم إلا إلى ١٦ مليون طن ، أي نصف انتاج ماقبل الحرب وكانت النتيجة تحديد الانتاج بنفس النسبة . وتحسنت الحالة تدريجياً باستخدام الأسرى الألمان أولاً ، والاشخاص النازحين والايطاليين من بعد .

وتشكلت عقبة أخرى أمام التوسع بسبب استنزاف التجهيزات . فقد ظلت بلجيكا تبني خطط استثمارات طموحة جداً ؛ وأصلح ماكان صالحاً للاستعمال . وحدثت المشاريع أجهزتها بواسطة التمويل الذاتي – أي بتوظيف الارباح المتحققة – ، وبخاصة في صناعة الحديد . وساعد ازدياد عائد المراكز الكهربائية على مجابهة العوز الى الفحم وعلى اتباع جميع حاجات الصناعة والسكان . ومنذ ١٩٤٩ أمكن حذف جميع التقتيرات في التيار الكهربائي .

وأخيراً ، لاجتناب التضخم النقدي ، كانت بلجيكا أقل من البلاد الاخرى في الاشغال العامة . فقد اقتصرت على اصلاح الخطوط الحديدية وكهربتها وعلى تجديد شبكة الطرق .

وبعد خمسة أعوام على هذا النظام الحر « الليبرالي » تحقق الاصلاح ، لا على الصعيد الصناعي فحسب ، بل ايضاً على صعيد التعمير . ان القانون المتعلق بخسائر الحرب ، المقتر جداً حيال المالكين ، لم يصوت عليه الا في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، ويسير إلا في ١٩٤٩ ، ووضع عشرين عاماً للمدفوعات التي يجب ان يعوض بها على المنكوبين . غير انه وجد في ١٩٤٩ ان جميع البيوت تقريباً قد عمرها المنكوبون بأنفسهم ، ولم يكن من الدولة ، أمام فقدان التعويضات ، إلا أن خولت تسليفات معوضة .

وكلما تعمرت البلاد ، أمكن الرجوع الى حرية الاجور (للعمال) والاجارات (للعقارات) . وظلت الاجارات الصغيرة جداً محمية حتى ١٩٥٣ . ونجم عن ذلك انطلاقة بناء كبرى . ومنذ ١٩٥٠ ، كان وضع الأموال اللامنقولة في البلاد يتجاوز وضع ماقبل الحرب . وكان الانشاء يقوم بدور المنشط للانتاج ، بينما كان العدد العظيم من الاجنحة (الشقق) والمنازل الجاهزة للايجار يحول دون رفع الاجارات بشكل غير عادي .

وهكذا عاد يتوطد ، منذ ١٩٤٩ ، مستوى حياة ماقبل الحرب ومنذ ذلك الحين وهو آخذ بالارتفاع . فقد ازدادت بوضوح القوة الشرائية للأجور وأدت الى استهلاك قوي لمنتجات كانت تعتبر كمالية قبل الحرب . ووجدت قرينة أسعار المفرق في مستوى أخفض من قرينة الاجور .

وحصلت بلجيكا على هذه النتيجة بقواها الوحيدة . وكانت الامة الوحيدة الغربية التي لم تلجأ الى خطة مارشل إلا قليلاً : ففي سياق الممارسة الاولى للخطة ، أي في ١٩٤٨ ، أعطيت منحة قدرها ٤٣ مليون دولار ، ثم لاشيء . ومع ذلك فقد كانت خطة مارشل ذات نفع كبير للصناعة البلجيكية ، لانها سهلت صادرات بلجيكا بجعل زبائنها مليئين .

ان الحرية الاقتصادية ، التي اعتمدت عليها بلجيكا في اعمارها ، تفترض كشرط أساسي ، استقرار النقد ، ولا يمكن الحصول على هذا الاستقرار إلا بفقدان التضخم . والنضال ضد هذا التضخم ، اعتمدت السياسة البلجيكية أيضاً على الحرية ، فقد تركت الاسعار ترتفع . وهكذا توطد بفعل الاقتصاد الحر ، التوازن النقدي ، الذي دعمه ، من جهة أخرى ، فائض ميزان المدفوعات .

ان موازنة الحرية (الليبرالية) التي طبقتها بلجيكا ، توطدت في ١٩٥٠ ، بالنسبة الى ١٩٣٨ ، بزيادة الانتاج بـ ٢٥ ٪ ، وقد طابق ذلك زيادة معادلة في الصادرات . والدخل القومي ، المقدر بـ ٦٥٢٠٠ مليون فرنك في ١٩٣٨ ، زاد بنسبة ٢٠ ٪ تقريباً . وكان ١٩٠٢٠٠ مليون في ١٩٤٠ ، ولكن القوة الشرائية للنقد كانت قد تناقصت من ثلاث الى أربع مرات بالنسبة الى ١٩٣٨ . وفي ١٩٥١ ، قدر الدخل القومي بـ ٣١٠ مليار بعد أن كان نحو ٨٠مليار في ١٩٣٨ . ولم يمس الاحتياطي الذهبي البنك الوطني البلجيكي .

وبالمقابل ، ان السوية المرتفعة جداً للاستهلاك ، الذي كان يعمل منشطاً للانتاج ، حددت تشكيل رأسمال جاهز للاستثمارات بـ ١٥ ٪ من الدخل القومي — نسبة مئوية مماثلة الى نسبة بريطانيا العظمى ، ولكنها أخفض مما في البلاد الاخرى المنتجة — فقد بلغت النسبة ٢٠ ٪ في الولايات المتحدة ، ٢٢ ٪ في فرنسا ، ٢٤ ٪ في هولانده ، ٢٦ ٪ في ألمانيا - والاستثمارات التي قامت بها الدولة بـ ١٢ ٪ من مواردها . وذلك مقابل ١٣ ٪ في فرنسا ، ١٥ ٪ في المانيا والبلاد المنخفضة ، ١٧ ٪ في الولايات المتحدة وفي بريطانيا العظمى .

وتوضع بلجيكا اليوم بين اغنى البلاد الاربعة في أوربة بعد سويسرا

والسويد ، وبريطانيا العظمى . وفي المقارنه العالمية تحتل الدرجة التاسعة .

وخلافاً لبريطانيا العظمى وفرنسا ، لم تزج بلجيكا نفسها في طريق التأميم . ومع ذلك ، فان الرأسمالية الكبرى ، في بلجيكا ، كما في أوربة الغربية كلها ، مرت على الاقل تحت اشراف الدولة . ومنذ وزارة فان زيلاند (١٩٣٦) ، التي طبقت سياسة اقتصادية مستوحاة من البرنامج الجديد الذي وضعه الرئيس روزفلت للولايات المتحدة ، أقيمت بعض الرقابة على البنوك . وعند التحرير ، عند تطبيق خطة غوت ، وجدت البنوك مضطرة الى وضع ثلث الجاهز لديها في اسناد الدولة . ونشأ عن ذلك تضييق هام في الاعتماد . وشكلت عدة شركات ، في نطاق النقل والقوة المحركة بخاصة ، وكانت الدولة مهتمة بها ، وتمارس عليها رقابة مباشرة . واتجهت السياسة الضريبية ، كما في فرنسا ، نحو أهداف اجتماعية واقتصادية : اجتماعية بمعنى أن الضريبة التصاعدية على الدخل بخاصة ، تضرب بخاصة ، في الواقع ، الدخول المتوسطة والشغيلة المستقلين الذين يضحى بهم لصالح الشغيلة النقابيين ؛ واقتصادية،لان الضريبة ترمي الى توفير أكثر مايمكن من الجاهز بغية وضعه تحت تصرف الدولة. وهكذا وجد الاعتماد الخاص مردوداً بصورة فريدة لصالح الدولة ، ولكن، مع ذلك ، بنسب أقل أهمية بكثير مما في فرنسا أو انكلترا .

وفوق ذلك ، وبالرغم من بعض المحاولات التي قامت بها الحكومات الاشتراكية والاجتماعية ـ المسيحية ، فان بلجيكا لم تنخرط في طريق الاقتصاد الموجه (التوجيهية) ، بل بقيت ، كما كانت دوماً ، وفية للمبادلة الحرة . ونظامها الاقتصادي ، في اوربة ، نظام يذكر أكثر مايذكر بنظام الولايات المتحدة . ومما لاشك فيه أن الفرنك البلجيكي

إذا أصبح « نقداً قوياً » ، فذلك بفضل الليبرالية والاستقلال الذي حافظ عليه البنك الوطني وكان مديناً له .

حفاظ بلجيكا على نظام الربانية والحرية الاقتصادية في الكونغو

كانت بلجيكا الدولة الوحيدة من بين الدول الاستعمارية ، التي لم تعرف أزمة في مستعمراتها فيما وراء البحار . وتبدو حالة الكونغو وحيدة في النظام الاستعماري .

كانت الكونغو البلجيكية تضم ١٢ مليون زنجياً وما يقارب ١٠٠٠٠٠ أبيض وأكثر من نصف هؤلاء بقليل بلجيكيون . وكانت تدار من قبل وزارة المستعمرات ، وتحت اشرافها برأس الحاكم العام مقدرات البلاد المستعمرة . ولم يكن الزنوج أو البيض يملكون فيها حقوقاً سياسية . ولم يشارك الاصليون ، باستثناء السلطة التي يحافظ عليها قدامى « الزعماء » في ادارة المستعمرة أو تشريعها ، ان لم يكن على الصعيد المحلي . حتى ان العقائدية الديموقراطية لم تدخل الى الكونغو .

وبالمقابل ، قامت جهود عظيمة ، من قبل الدولة ومن قبل الشركات الكبرى ، لتحسين مستوى أبناء البلاد . فقد ارتفعت الاجور بسرعة . وهيأ المستخدم ، في المشاريع الكبرى ، الى العامل ، عدا أجرته ، السكن والغذاء واللباس والتعويض العائلي . وتصرف المشاريع المنجمية الكبرى على عمالها حتى ١٢٠ فرنكاً في اليوم . وللمأجورين الزنوج الحق بيوم عطلة مدفوعة في الاسبوع ؛ وجميع العنايات الطبية مجانية .

وأعطيت تسهيلات الى الزنوج لتساعدهم على بناء بيت لهم ؛ وتمنحهم الدولة ، لهذه الغاية ، حتى ١٥٠٠٠٠ فرنك قرضاً يمكن وفاؤها في ٣٠ عاماً بفائدة ١٪ . ويبدو أن الكونغوليين ، على وجه العموم ، راضين

عن مصيرهم . فالاستقبال الحار الذي استقبلوا به الملك بودوين الاول في الرحلة التي قام بها الى الكونغو ، في أيار - حزيران ١٩٥٥ ، كان ظاهرة مدوية . ولكن أليس في ذلك مايدل على أن كل شيء قد رتب سلفاً من قبل السلطات البلجيكية المقيمة في الكونغو ؟!

ونظم التعليم ، في القسم الاعظم منه ، على يد البعثات التبشيرية التي تدعمها الصناعة الكبرى وتؤلف في الكونغو سلطة حقيقية . فقد وجد في الكونغو ٤٧٠ بعثة كاثوليكية تضم ٤٤٣٠ مبشراً ، و ٢٥٨ ميشراً بروتستانتياً تضم ١١٧٠ مبشراً . ولايشمل التعليم الذي تعطيه إلا المدارس الابتدائية والمسلكية . ولا يوجد في الكونغو كونغوليون يحملون الشهادات الجامعية . وبعد الحرب العالمية الثانية أحدثت الدولة والبعثات التعليم الثانوي . واحدثت جامعة لوفن مركزاً جامعياً ، لوفانيوم ، حيث أقيمت فيه بعض الكليات ، وأعطيت الاهمية لكلية الطب . كما افتتحت الدولة جامعة في اليزابتفيل

وتمكن التعليم الابتدائي والمهني من تأليف طبقة وسطى كونغولية . واحتل الزنوج المراكز الصغيرة ، ومارسوا فيها وظائف ملحقة ، وتعاطوا الحرف اليدوية والتجارة . وفي ليوبولدفيل ، كان القسم الاعظم من تجارة المفرق في أيدي الزنوج ، وكان بعضهم يحتل مراكز هامة في التجارة المحلية . فمن ذلك أن ١٠٠٠٠ زعيم أسرة زنجياً يكسب الواحد منهم ٦٠٠٠ فرنك بلجيكي في الشهر (الدولار الواحد يساوي ٥٠ فرنكاً بلجيكياً) . وكان مستوى حياة الزنجي في الكونغو أعلى مما هو في المستعمرات المجاورة . وبذل جهد كبير على صعيد الصحة والتربية . ولكن بالطرق الربانية [1] فقط .

---

(١) بالنسبة الى رب العمل الذي بيده وحده سلطة انشاء وادارة الأعمال الاجتماعية في المشروع .

وعلى الصعيد الاقتصادي ، لم يكن الرخاء في الكونغو مديناً للتوجيهية الاقتصـادية (الاقتصـاد الموجه) بشيء . ومهما تكن أهمية الزراعة - وجد ١٤٠٠٠٠ معمر يستخدمون ٣٥٠٠٠٠ زنجي وتوظيف مليار فرنك - فان الصناعة تؤلف الثروة الاساسية في الكونغو . ان مناجم الكونغو تعطي ، في العام ، ١٩٢ مليون طن من النحاس ، ١٤ مليون طن من القصدير - وهذا يجعل الكونغو ثاني منتج للقصدير في العالم - ، ٥ ملايين طن من الكوبالت - أي ٧٥ ٪ من الانتـاج العالمي - ٨٩ مليون طن من التوتيا ، ٢و٠ مليون طن من التانغستين ، و ٥٦ ٪ من الانتاج العالمي من الماس الصناعي . وأخيراً ، الكونغو أكبر منتج للاورانيوم ، ويباع هذا المعدن بسعر منخفض جداً في الولايات المتحدة بموجب اتفاق أبرم لاثني عشر عاماً ، في آخر الحرب ، في ١٩٤٤ .

وتستثمر هذه الثروات الواسعة من قبل شركات مختلطة تحتفظ فيهـا الدولة ، بموجب الشروط التي وضعها ليوبولد الثاني للامتيازات المنجمية ، بـ ٥٠ ٪ من رأس المال . ولم تكن هـذه الشركات المختلطة مشاريع تدار من قبـل الدولة ، بـل بالعكس ، تشارك الدولة فيهـا كرأسمالي خاص . ولا يعرف الاقتصاد الكونغولي تدخل الدولة المباشر في الاقتصاد ولا التوجيهية ، بل يقوم على أساس الرأسمالية الليبراليـة . وتعتبر الدولة أكبر رأسمالي في الكونغو ، نظراً للحقيبة الجسيمة التي تحتفظ بها وتخص نفسها بها .

وبعد الدولة ، تأتي الشركة العمومية وهي الرأسمـالي الأساسي ، وتتدخل في الدولة كسلطة حقيقية . وعدا مناجم كاتانغا العليا ، كانت شركة الملاحة في الكونغو في يديها .

كانت الكونغو تعيش مستقلة عن الوطن الأم (بلجيـكا الدولة

المستعمرة) . وكانت لها موازنتها الخاصة ، وتحافظ على توازنها بسهولة بفضل المشاركات التي تمتلكها الدولة في مشاريع المناجم . فعلى الـ ٦ مليارات التي تتضمنها الايرادات ، يوجد ٢ مليار تقدمها الضرائب التي تدفعها شركة اتحاد المناجم في كاتانغا العليا .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، نمت الكونغو نمواً مفاجئاً . فقد اقيمت الصناعة الى جانب المناجم : معامل تكرير النحاس ، فبارك النسيج . معامل الاسمنت ، معامل الجعة (البيرا) ، الخ . . ونهضت المدن فيها نهوضاً مفاجئاً ايضاً . فقد بلغ سكان العاصمة ليؤبولدفيل ٣٥٠٠٠٠ وتجاوز سكان اليزابتفيل ١٠٠٠٠٠ نسمة ، واوزومبارا ٦٥٠٠٠ . ومع ذلك ، فان نمو البلاد الاقتصادي مازال في بداياته . ان ٩٠ ٪ من الثروة مازالت فيها غير مستغلة ، مناجم الحديد الغنية بخاصة وامكانيات قواها المائية . وقد وضعت خطة لعشر سنوات ، بعد الحرب ، تتوقع في الأصل ٢٥ مليار مقدار الاستثمارات المخصصة لتحسين النقليات ، والطرق الجوية بين بلجيكا والكونغو ، والقوى المائية - الكهربائية ، ثم ارتفع هذا الرقم الى ٤٥ مليار فرنكاً .

ان مايميز الكونغو أساساً ، وان مايجعل منها تجربة عظيمة الأهمية ، هو أنها مازالت تعيش في النظام الرأسمالي ، الليبرالي والرباني .

هولاندا

تحررت هولاندا من الحكم النازي في أيار ١٩٤٥ ، بعد ثمانية أشهر على تحرير بلجيكا . ووجدت ، غداة الحرب ، في حالة جديدة تماماً وصعبة بخاصة .

لقد مرت هولاندا بدور طويل كانت فيه مزدهرة ومحايدة ، ولكنها

خضعت فجأة ودون دفاع تقريباً للغزو الالماني . وكانت الخسائر المادية التي سببتها الحرب لها باهظة : فقد ارتفعت ، في المنشآت وفي أكداس التجارة والصناعة ، الى ٤ مليارات فلورن ؛ وتدمر فيها ٧٥ ٪ من شبكة الخطوط الحديدية و ١٣٠٠٠٠ منزل ؛ وتغطت مئـــات الالوف من منازل « البولدر » ، في جزيرة فالشيرين بخاصة ، بمياه البحر اثر تهديم السدود . ورد الجاهز من الذهب أو العملات الأجنبية الى لاشيء تقريباً . واضطرت هولاندا مباشرة الى استيراد الأغذية والمواد الأولية . وتخرب ميناء روتردام بصورة فظيعة بالقصف الجوي الذي انهال عليه الألمان به في ١٩٤٠ ، وحرم من التجارة الألمانيـة التي كانت تؤلف قبـل الحرب مصدراً أساسياً لنشاطه .

وعلى نقيض بلجيكا التي أخذت الكونغو بالنسبـة لاقتصادهـــا أهمية متزايدة ، أعلنت مستعمرة أندونيسيا العظيمة ، التي تنتـج ١٦ ٪ من الدخل القومي ، استقلالها ، وكانت القضية الموضوعة معرفة ما اذا كانت هولاندا تستطيع ، تحت شكل سياسي جديد ، أن تحافظ على الثروات التي أوجدتها فيها . وكان يرافق هذا الانهيار القومي ثورة عميقة في التقاليد السياسية للبلاد . فمنذ ١٨٣٨ ، كانت البلاد المنخفضة تعيش منطوية على نفسها ، بعيدة عن كل سياسة دولية ، وفي ازدهار بورجوازي قديم يقوم على مواردها القومية والاستعمارية التي تكفلها ، كما كانوا يفكرون ، حياد أبقاها في معزل عن حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . ولكن غزو ١٩٤٠ جعلها تتخلى قطعياً عن ثقتها بسياسة الحياد . وقد برهن اعلان استقلال اندونيسيا ان ليس بامكان هولاندا أن تحافظ ، بوسائلها العسكرية وحدها ، الضعيفة جداً ، على مكانتها بين الدول الاقتصادية والاستعمارية . وهكذا وجدت

(١) البولدر Polder المناطق التي كسبها الانسان من البحر وعمرها .

فجأة أمام هذا الواقع – الذي يفرض نفسه دون أن تشعر به ، منذ الحرب الاولى – وهو أنها ليست قادرة بوسائلها وحدها ، على تأمين ازدهارها وأمنها . وسواء شاءت أم لم تشأ فقد وجدت نفسها داخلة في تعقيد الدول الدولي .

ان الاحتلال والدمار والمقاومة التي نظمت ضد المجتاح ، أخرجت هولاندا من راحة بالها البورجوازية ، لتوجه نحو الشمال المجرى العام لسياستها .

والشعب الهولاندي شعب متزن راجح . فمنذ ١٩٠٣ لم تعرف هولاندا اضرابات هامة . وحياتها السياسية تمت دون هزة ودون هوى . وكثرة الاحزاب أخضعتها ، منذ الحرب العالمية الاولى ، لحكومات ائتلافية ، تشكلت قاعدتها بالحزبين السياسيين المسيحيين ، الكاثوليكي والبروتستانتي .

وقد طبع آخر الاحتلال ، في ١٩٤٥ ، باضرابات كبرى قامت لدعم المقاومة . وأخذ العنصر العمالي ، على هذا النحو ، جانباً من المستوى الاول من مشاغل الزمن السياسية . ثم ان تعاون الحزب المناصر للنازية مع المحتل أثناء الحرب ، وظهور الحركة الشيوعية ، جعلا من الضروري ، على مايبدو ، إعادة تسوية الحالة السياسية للأحزاب . ولتحقيق ذلك ، تشكلت « الحركة الشعبية الهولاندية » ، وتهدف الى تركيز القوى القومية في اتجاه اجتماعي بناء . ولكن ، كما في بلجيكا وفرنسا ، قضت الاحزاب القديمة على محاولات التجديد هذه ، واستحوذت بسرعة على الرأي الذي لم يكن ليشغله ، أثناء الاحتلال الماضي ، الا شاغل واحد : وهو العودة الى الازدهار الذي كان قبل الحرب والقبض بيدها على اندونيسيا التي يعتمد على ثرواتها لانقاذ الحالة الاقتصادية في البلاد .

وقد حدث مع ذلك بعض الميـــل نحو اليسـار في آن واحـد في الحزب الكاثوليكي وفي الحزب الليبرالي ، الذي أخذ اسم « الحزب الشعبي في سبيل الحرية والديموقراطيـة » . ولكن التجديد ظهر بخـــاصة في أوساط اليسار . فمن ذلك أن « حزب العمال الاجتماعي-الديموقراطي» ، الذي كان يمثل قبل الحرب الاشتراكية الهولاندية ، قد تخلى ، وربـما أكثر مما في بلجيكا ، عن الأفكار الماركسية ليؤلف قبل كل شيء حزباً عمالياً منفتحـاً على المسيحيين الاشتراكيين . وبعد الحرب تحـــول الى « حزب العمل » الذي تشكل على نمط حزب العمال الانكليزي . وضم عـــدا قدامى الاجتماعيين ـ الديموقراطيين ، عنـاصر يسار « المسيحيين التـاريخيين » في الحزب الكاثوليكي و « الاتحاد الديموقراطي ـ المسيحي البروتستانتي » . وفي داخل حزب العمل هذا ، تشكلت فوراً ثلاث فئات ، احداها بروتستانتية ، والاخرى كاثوليكية ، والثالثة ، مؤلفة من عناصر لاتنتمي لأي دين .

وهكذا وجدت القضية الدينية محذوفة على الصعيد السيامي . وساعدت انتخابات ١٩٤٦ ، تحت حكومة الاتحاد الوطني الذي ألفه شير ميرورن أثناء التحرير ، هولاندا على أن تتفهم التطور الذي حدث في الشكل الخارجي للأحزاب . فالحزب الكاثوليكي ، الذي احتفظ بمواقعه قبل الحرب ، ظل أقوى الأحزاب ، بـ ٣٢ ٪ من الاصوات . والاشتراكيون-الديموقراطيون الذين أصبحوا حزب العمل ، تقدموا اثر تركيز اليسار الذي تم حوله ، بـ ٢٩ ٪ من الأصوات . أما المناوئون للثورة فقد تراجعوا الى ١٠ ٪ ؛ واحتفظ المسيحيون التاريخيون بمواقعهم بـ ٨ ٪ ؛ وتقدم الاحرار قليلا (٦ ٪) ؛ وسقطت الاحزاب الصغيرة الى لاشيء تقريباً (٢ ٪) . والحادث الذي سيطر على الانتخابات كان في القفزة الى الامام التي قفزها

الشيوعيون عندمـــا حصلوا على ١٠ ٪ من الاصوات . ثم ظهر ، على الصعيد العمالي ، مركز نقابي ، من اتجاه شيوعي ، أمام الفرق النقابية الثلاث التي كانت توجد قبـــل الحرب ، الاشتراكية ، الكاثوليكية ، والبروتستانتية .

ولكن الشيوعيين ، بزج أنفسهم في سياسة الاحبـاط المستندة على الاضراب المتمثل ببطء العمـل وانصرافهم الى تطهـــيرات مستمرة في حزبهم أبعدت الطبقة العاملة عنهم ، لم يحصلوا ، في انتخابات ١٩٥١ ، على أكثر من ٧ ٪ من الاصوات .

تطور هولاندا نحو الاقتصاد الموجه . — وبالرغم من البلاء الفظيع الذي أتى به الاحتلال ، فلم تصب هولاندا بعد الحرب بأي أزمة اجتماعية . وبالمقابل ، وجدت مضطرة أن تجابه حالة اقتصادية صعبة ، وان تتخلى موقتاً عن ليبراليتها التقليدية .

وبعد انتخابات ١٩٤٦ ، انساقت وزارة بيل[١] ، المستندة على ائتلاف الحزبين الكبيرين الكاثوليكي والعمل ، بوضوح ، تحت تأثير انـكلترا ، في طريق الاقتصاد الموجه . وأخذت الدولة بيديها التعمير الاقتصادي ، وفهمته حسب « خطة » موضوعة تقتضي بخـــاصة « تشريك » بنك هولاندا .

كانت الحيـاة الاقتصادية في الواقع معقدة . ففي ١٩٤٧ ، كان الميزان التجاري يظهر عجزاً ، ٢ مليـار فلورن ، حال النقص الكامـل تقريباً من العملات سده . واذا اخذت منطقـة الدولار ، بلغت الواردات ٥٠٠ مليون دولار مقابل ٥٥ مليون دولار من الصادرات . ولم تر الحكومة حلاً آخر غير تحديـد الاستيراد بكثافة ودفع البلاد ،

---

(١) بيل PEEL .

كما فعلت حكومة العمال الانكليزية ، في طريق التقشف . ولكن هذه السياسة الاقتصادية ، المنضمة الى تأميم بنك هولاندا المتصور لايصدر عنها الا زج هولاندا في بؤسها . لأن تحديد الاستيراد يحول دون أي نهوض في الصناعة ، وهذا النهوض يفرض نفسه باعتباره التدبير العاجل للتعمير الاقتصادي . وان تأميم بنك هولاندا باشراكه اعتماد البنك باعتماد الدولة، التي نهكت قواها — لايمكنه الا ان يمنع الدولة من استدعاء اعتماد البنك الخاص

تشكيل الاتحاد الجمركي . — ومن قبل ، اثناء الحرب ، فكرت الحكومة الهولاندية اللاجئة في لندن اصلاح الاقتصاد الهولاندي ، الذي حرمته الهزيمة الالمانية موقتاً من موارده الاساسية ، بتوسيع السوق . وهذا ما قادها إلى أن توقع ، في ايلول ١٩٤٤ ، مع الحكومة البلجيكية ، اللاجئة في لندن أيضاً ، الاتحاد الجمركي الذي أخذ ، بعد التحرير ، اسم البينيلوكس . ولكن الحوادث عرقلت الخطط المتصورة . لان بلجيكا ، المتحررة منذ ايلول ١٩٤٤ ، كانت تتصرف بميناء آنفرس و الكونغو ، وباعتمادات واسعة من الدولارات اثر التسليفات بالفرنكات البلجيكية التي قدمتها الجيوش الحليفة ، ووجدت في وضع اقتصادي ملائم أكثر من هولاندا . وانساقت مبكرة في طريق الحرية الاقتصادية ، وسياسة الاجور العالية والتنمية الواسعة للأمن الاجتماعي ، الذي يكسر كل توازن ممكن مع هولاندا ، المضطرة ، تحت تأثير الظروف ، الى تحديد الاستيراد وتجميد الاسعار والاجور ، مرجئة الاصلاحات الاجتماعية الى الآجل البعيد .

ولذا ينبغي الاقلال من نشاط البينيلوكس في السنوات الاولى . ولم تفد منه هولاندا فائدة مباشرة الا عندما انطلقت في طريق حرية مماثلة لحرية بلجيكا

مساعدة مارشل . — ظلت الحالة شبه ميؤوس منها دون عون مارشل الذي ساعد ، منذ ١٩٤٧ ، هولاندا على استيراد المواد الاولية الضرورية لانقاذ صناعتها وتعويها . وهكذا ظهر ازدهار هولاندا مشروطاً بازدهار الولايات المتحدة الامريكية . ومنذ ذلك الحين ظهر التدخل الامريكي بشكل عون كريم ومجاني على الصعيد الاقتصادي ، وسيفرض نفسه على الصعيد الاستعماري كوصاية حقيقية .

ضغط الدول للاعتراف باستقلال اندونيسيا . — ان وزارة بيل ، المتجهة نحو توجيهية اليسار ، لم تتصور على الأقل ، أن الواسطة الأساسية لاصلاح اقتصاد هولاندا ، تكون في البحث عن الفوائد التي تقدمها اليها أندونيسيا بفضل صادراتها الكثيفة بخاصة نحو منطقة الدولار .

لقد اعلن استقلال اندونيسيا ، منذ ١٧ آب ١٩٤٥ ، عندما نزلت الجيوش الانكليزية الاولى في باتافيا . وفجأة ظهرت الدوامة بكل سعتها امام هولاندا . فقد اعلمت الحكومة الاندونيسية قائد القوات الانكليزية بأنها ستعارض بالقوة عودة الهولانديين . ومع ذلك ، بدأ انزال الجيوش الهولاندية منذ شهر تشرين الأول ، تحت الحماية البريطانية . وهذه الحماية نفسها ، التي اظهرت هولاندا كدولة ثانوية ، هدمت قطعاً اعتمادها في اندونيسيا . وقامت الحرب مباشرة مع الجمهورية الاندونيسية . ولكن حكومة العمال الانكليزية تدخلت ودعت الحكومة الهولاندية الى المفاوضة . وعقدت المفاوضات ودامت عاماً ونصفاً . وأخيراً ، في آب ١٩٤٦ ، وقعت حكومة بيل اتفاقاً في **لينغاجا** ، وبموجبه اعترفت هولانده « في الواقع » بالجمهورية الاندونيسية ، وبالمقابل اعترفت هذه لغير الاندونيسيين بحقوقهم وأموالهم وبالتعاون في اتحاد دول اندونيسيا ، المؤلف في نطاق اتحـــاد هولاندي تحت سيادة تاج البلاد المنخفضة .

ولكن ماكاد الاتفاق يوقع ، الا واستؤنفت الحرب على تفسيره . وفي هذه المرة ، نبهت اوستواليا والهند مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة ، فأمر ، في الفاتح من شهر آب ١٩٤٧ بـ « وقف النار » . ومع ذلك لم يذلل النزاع ، واستمرت هولاندا في الدفاع عن نظريتهـــا في اندونيسيا مشكلة من دول متحدة ، بينما كانت الجمهورية الاندونيسية تريد فرض سلطتها على جميع الأرخبيل . ولاجبار الجمهورية على التنازل ، لجأت هولاندا الى اخضاع البلاد لحصار حقيقي .

وفي هذا النزاع ، الذي قامت به هولاندا لاستعادة اليد العليا على مستعمراتها السابقة ، وقفت الولايات المتحدة ضدها — ومن قبل ، أثناء الحرب ، انتزع الرئيس روزفلت من الملكة ولهلمين وعداً باستقـــلال اندونيسيا . وتدخلت واشنطن مرة ثانية . ففي ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨ وعلى متن الدارعة الاميركية رنفيل ، الراسية أمام باتافيا ، أعلن اتفاق جديد عن تأسيس ولايات متحدة اندونيسية ، وفيها تحافظ هولاندا على السيادة حتى يتحقق الاتفاق .

العودة الى الحرية الاقتصادية . — سجلت انتخابات ١٩٤٨ ، في هولاندا ، انزلاقاً خفيفاً نحو اليمين،وتراجعاً واضحاً للشيوعيين ، وسقطت نيابتهم من ١٠ الى ٨ أعضاء . وتشكلت حكومة جديدة ائتلافية في آب ١٩٤٨ برئاسة دريس . وتحسنت الحالة الاقتصادية بقوة بمساعدة مارشل . وتخلت الوزارة عن مشاريع الاقتصاد الموجه ، وعادت الى طرق الحرية الاقتصادية . ومنذ ذلك الحين ، استطاع الاتحاد الجمركي مع بلجيكا واللوكسمبورغ الدخول في طريق التحقيق . واتخذت الحكومة بوضوح

---

(١) دريس Drees .

موقفاً ملائماً لأفكار التعاون والدمج الاوروبي الذين بدآ بالظهور وتساندهما أميركا .

ولكن القضية الكبرى ظلت قضية اندونيسيا . ان الاتفاقات الموقعة مع حكومة جوكجاكارتا صانت أموال الشركات الهولاندية وحقوقها . وكان لهولاندا مصلحة كبرى في أن يتدخل حل نهائي لتعيد الى هذه الشركات جميع نشاطها . وينبغي لذلك تكييف النظم القومية مع مشروع الاتحاد الهولاندي الذي قبلته الجمهورية الاندونيسية . وفي ايلول ١٩٤٨ ، عدل الدستور الهولاندي في هذا الاتجاه .

تنازل الملكة ولهلمين عن العرش . — أثارت القضية الاندونيسية في الرأي الهولاندي اختلافات عميقة . وبالرغم من الاحترام الذي كانت تحاط به الملكة ، فقد كان العديد من الهولانديين يأخذون عليها تضحيتها لصالح البلاد ، باتخاذها ، أثناء الحرب ، تعهدات عاجلة حيال الرئيس روزفلت . واذا كانت بعض الأوساط ، في بلجيكا ، تأخذ على الملك ليوبولد الثالث بقاءه في البلاد عوضاً عن انسحابه الى لندن كما طلبت منه الحكومة الانكليزية ، ففي هولاندا كان قسم من الرأي يأسف لأن الملكة لم تبق بين شعبها عوضاً عن أن تضع نفسها ، بهجرتها ، تحت رحمة مناوءة الاستعمار الامريكية . ولكن حكمة الرجال السياسيين الهولانديين سهرت على ألا يسمح بوضع الملكة موضع اتهام . ودون أن تحصل أي مناقشة عامة ، عند اعادة النظر في الدستور ، تنازلت الملكة ولهلمين عن العرش بكرامة تامة لصالح ابنتها الأميرة جوليانا .

الفصل في القضية الاندونيسية . — وبعد قليل ، وقد تحررت الحكومة من التعهدات التي أخذتها الملكة على عاتقها ، قررت أن تفرض

على الجمهورية الاندونيسية الاتفاقات الموقعة . وفي شهر كانون الاول ، قامت العمليات العسكرية من جديد ، وأخذت عاصمة الجمهورية ، جوكجا - - كارتا بواسطة الجنود المظليين . واوقف الرئيس سوكارنو ونفي . ولكن حكومة موقتة اندونيسية تشكلت في جزيرة سومطرة ونظم أنصارها حرب عصابات لاهوادة فيها ضد الـ ١٤٥٠٠٠ جندي الذين يؤلفون الجيش الذي أرسلته هولاندا الى الجزيرة .

وأثار هذا النزاع حركة كبرى مناوئة للاستعمار في الولايات المتحدة . وأوقفت منحة الـ ١٤ مليون دولار المخصصة للبـــلاد المنخفضة ، ولفت الاندونيسيون الانظار الى أن هولاندا لم تكن قادرة على متابعة الحرب ضدهم لولا فضل مساعدات خطة مارشل ، وضغط عدة شيوخ على البيت الابيض أن تسحب عن هولاندا مساعـدة مارشل التي كانت في ١٩٤٨ تقدر بـ ٤٠٢ مليون دولار . وكان صحيحاً أن حرب اندونيسيا قـد ابتلعت ، في ١٩٤٨ ، ٤٠٠ مليون دولار . وشخص وزير الشؤون الخارجية في هولاندا ، ستيكو[1] ، الى واشنطن . وأدركت هولاندا ، أن من غير الممكن أن تعمل ، على الصعيـــد الدولي ، دون موافقة الولايات المتحدة . وأجلت الجيوش عن جوكجا كارتا ، وحرر الرئيس سوكارنو ، واستعاد فيها توجيه حكومة الجمهورية . وفي آب ١٩٤٩ عقد مؤتمر في لاهاي ، وأدى ، في كانون الأول ، الى نقل السيادة الى جمهورية الولايات المتحدة الاندونيسية في نطاق الاتحاد الهولاندي .

ولم تحتفظ هولاندا ، من مستعمرتها السابقة الآسيوية ، الا بمستعمرة غينة - الجديدة وانسحبت جميع القوات الهولاندية من اندونيسيا . وبالحال

---

(١) ستيكر Stikker .

وبانتهاك الاتفاق الموقع ، تهيأت الجمهورية الاندونيسية لفرض سلطتها بالقوة على الأرخبيل كله .

وحافظت هولاندا على ملكية استثماراتها التجارية التي كانت تهددها القومية الاندونيسية بصورة فريدة . وعلى الصعيد السياسي ، أنقذت المظاهر ، ولكن اندونيسيا ضاعت عملياً .

اتجاه البلاد المنخفضة نحو أوربة . — ان الواقعية السياسية ، التي برهن عليها الهولانديون ، جعلتهم يدركون حقاً أن من غير الممكن استعادة ازدهارهم الا بمشاركتهم بصورة وثيقة ما أمكن مع أوربة والولايات المتحدة .

وأدى الجهد الذي قاموا به ، في ١٩٤٨ ، الى نتائج مشجعة . فمن ١٩٤٦ الى ١٩٤٨ ، ازدادت الواردات من ٢٣٦٣ الى ٤٩٦٥ مليون فلورن ، ولكن الصادرات ازدادت بأسرع منها أيضاً ، وانتقلت من ٨١٥ الى ٢٧١٨ مليون فلورن . وقام جهد عظيم في التصنيع في طريق التحقيق . وبعد أن حرمت هولاندا من امبراطوريتها أرادت أن تحافظ على مكانتها كدولة عالمية ، فانصرفت الى انشاء أسطول حربي وعمائر عابرة الأطلسي وكذلك الى انشاء أسطول جوي هام . ولم يلزم الشعب الهولاندي أكثر من بضع سنوات حتى استعاد موقعه الاقتصادي المعادل تقريباً الى الموقع الذي كان له قبل الحرب .

تحقيق البينيلوكس

لقد أيدت الحرب العالمية الثانية الحكومة البلجيكية اللاجئة في لندن في اقتناعها — الذي عبرت عنه مراراً بروكسل بين الحربين — بأن النهوض الاقتصادي لاوربه الغربية ، وبخاصة بلجيكا ، يتعلق باعادة توطيد حرية

المبادلات . وبعد العودة الى فكرة اتفاق اوشي [١] والدفع كلية حتى نتائجها الأخيرة ، تصورت الحكومة البلجيكية والحكومة الهولاندية ، اللاجئتين في لندن ، تعمير اقتصاد بلجيكا واللوكسمبورغ والبلاد المنخفضة بعد الحرب - لانه من الممكن الانطلاق في ذلك الحين على أسس جديدة وذلك بأن يقام بينها اتحاد اقتصادي . وقد نظم الاتحـــاد الاقتصادي والنقدي ، مع اللوكسمبورغ ، في فترة مابين الحربين . ولتمديد الاتحاد الاقتصادي الى هولاندا ، وقعت الحكومتان البلجيكية والهولاندية اتفاقاً تمهيدياً في لندن ، في ٢١ تشرين الاول ١٩٤٣ . وعندما انتصر الهجوم الحليف وتحررت بلجيكا جزئياً ، تحول اتفاق ١٩٤٣ الى اتفاق قطعي ، وقعته الحكومتان البلجيكية والهولاندية في المنفى ، في ٥ ايلول ١٩٤٤ . وهذا الاتحاد المقرر مبدئياً يجب ان يتحقق فعلاً . وفي الفاتح من نيسان ١٩٤٧ ، وحدت تدابير تحضيرية التعرفات البريدية على أساس أكثر النسب انخفاضاً . وفي الفاتح من كانون الثاني ١٩٤٨ ، حذفت الرسوم الجمركية بين البلدين وجعلت التعرفة الجمركية مشتركة حيـال البـلاد الأجنبية .

ولكن الاتحاد بدا صعب التطبيق اكثر مما تصور له مؤلفوه . فقد نجت بلجيكا من التضخم النقدي ، ولكن هولانده كانت تعيش في تضخم عتيد . وقد ساعدتها بلجيكا بتخويلها اعتمادات جسيمة ، وبفضلها استطاعت أن تؤمن لنفسها واردات لاغنى عنهـا . وفي ١٩٥١ ، صعدت هذه الاعتمادات الى مبلغ ٧ مليارات فرنك بلجيكي .

ومع هذا ، فان هولاندا ، باستخدام الطرق الاتباعية في الاقتصاد النقدي ـ تقليص الاعتمادات ورفع سعر الحسم ـ قومت حالتها . وتوازى ميزان مدفوعاتهـا تدريجياً بفضل مساعـدة مارشل . وبصورة موازية ،

---

(١) أوشي Ouchy ميناء مدينة لوزان على بحيرة ليان في سويسرا .

جعلت اقتصادها الموجه اقل قساوة في قضية الاسعار والأجور . وبالتخلي عن حلول التسهيلات ـ ورفع الحواجز الجمركية والرقابة على القطع التي منع وجود البينيلوكس استخدامها ـ ، توصلت هولاندا ، بفضل مواردها الداخلية ونشاط سكانها ، وكذلك بفضل عودة الاقتصاد الألماني ، بسرعة الى استعادة ميزان كسبها ، وأصبحت عملتها ثابتة كالعملة البلجيكية . ولم يعرف البينيلوكس منذ ذلك الحين صعوبات في الدفع .

ومع ذلك ، فان الاختلاف الاولي في الطرق الاقتصادية لهولاندا وبلجيكا أوجد خللاً بين البلدين . فقد جمدت هولاندا الأجور ، بينما ، بالعكس ، طبقت بلجيكا سياسة اجور عالية . فمن بين دول اوربة كلها ، كانت بلجيكا ، في ١٩٥٠ ، الدولة التي كانت الاسعار فيها اعلى من غيرها . وكانت اجورها اعلى بـ ٦٠ ٪ من الأجور المطبقة في هولاندا .

وكانت حالة البينيلوكس ، في هذه الشروط ، صعبة جداً . فعلى صعيد الزراعة . اتخذت بلجيكا تدابير دفاعية ضد هولاندا . ولكنها كانت تدور بحريتها الاقتصادية التقليدية ، ورفضت ان تدخل الطرق نفسها على الصعيد الصناعي . ولقد كانت أسعار الكلفة في بلجيكا أخفض بكثير مما في هولاندا ، ولذلك جعلت بعض الصناعات الثانوية البلجيكية غير قابلة الحياة . وقامت حملة في بلجيكا لاعادة نظر في اتفاقات البينيلوكس ورفضت الحكومة أن تتابعها .

ومن المحتم أن كل اتحاد اقتصادي يؤدي إلى تخصص اقتصادي من طبيعته تضحية بعض الصناعات . وكان هدف البينيلوكس توسيع السوق لانتاج بلجيكا وهولاندا . وعلى الصعيد الصناعي ، بلغ هذا الهدف ، بالرغم من التضحيات التي فرضها على الصناعة البلجيكية . وتبرهن الارقام على أن البينيلوكس يستجيب لضرورة . ففي ١٩٣٨ ، كانت صادرات

هولاندا نحو بلجيكا تمثل ٩ ٪ من واردات بلجيكا ؛ وفي ١٩٥٣ ، انتقل هذا الرقم الى ١٤ ٪ . وصادرات بلجيكا نحو هولاندا ، بين التاريخين ، صعدت من ١٢ الى ١٨ ٪ من كامل الواردات الهولاندية . وعلى العموم ، يبدو ان البلدين قد حققا من الاتحاد الجمركي كسباً متعادلاً وجديراً بالتقدير . ومع ذلك ، فان هذا الاتحاد لن يعمل بصورة سوية الا في اليوم الذي تساير فيه الاجور الهولندية الاجور البلجيكية وتوضع تشاريع البلدين متطابقة على الصعيد الاجتماعي والضريبي . ولا يمكن الاتحاد الاقتصادي ان يكون مقبولاً ، في الواقع ، اذا لم يتمم بتعادل القوانين الاجتماعية ومكافأة العمل .

هذه هي تجربة البينيلوكس كما بدت ايجابية . لقد كان من ميزتها ان تتصور مسبقاً الصعوبات التي سيواجهها اتحاد اقتصادي لأوروبه الغربية ، ولكن ايضاً الفوائد العظيمة التي يمكن ان تجنيها جميع البلاد الغربية .

الدول الاسكاندينافية

منذ أن وقفت السويد محايدة في الحرب العالمية الثانيــة واحتلت الدانيمارك والنورفيج ، تغيرت آثار النزاع في الدول الاسكاندينافية . واذا استثنينا خسارة بعد السفن ، فقد خرجت الدانيمارك والسويد سليمتين نسبياً . أمـا النورفيج فقد منيت بخسائر مادية كبيرة ووجــدت من الضروري المبادرة لوضع برنامج تعمير واسع . وقد اصبح هذا التعمير ممكناً منذ أن أصبحت التسهيلات الانتاجية غير خامرة كثيراً . ومع ذلك فقد وجدت قضايا أكثر ازعاجاً . فمن ذلك أن دخل الدانيمارك مايو على ٢٥٠٠٠٠ جرماني هرباً من ملاحقة الجيوش الروسية . ولم تسو قضية هذا النفي إلا في العام ١٩٤٨ في جرمانيا الغربيــة . وفي

الحرب العالمية الثانية ، انفصلت ايسلنده عن الدانيمارك ووطدت جمهورية مستقلة في ١٩٤٤ . واتجهت الدانيمارك بوضوح نحو انكلترا . وبعد هزة المقاومة التي عرفتها في نهاية الحرب استعادت باستفتاء اقليم شمال شلزفيغ الذي كان في أيدي الالمان منذ حروب تشكيل الاتحاد الالماني على يد اوتو فون بسمارك مستشار المانيا . وقبلت أن توقع مع انكلترا اتفاقاً اقتصادياً تتعهد بموجبه ان تسلمها ٩٠ ٪ من فائضاتها الزراعية ، وقد أدخل هذا الاتفاق الاقتصاد الدانيماركي في اقتصاد انكلترا .

وظلت الملكية نظاماً مقبولاً وشعبياً في الدانيمارك . وفي ١٩٤٧ ، خلف فريديريك التاسع أباه ، كريستيان العاشر ، ملكاً على الدانيمارك وتمت الموافقة على دستور جديد في ١٩٥٣ . وبموجبه عهد بالاعمال التشريعية الى مجلس تشريعي واحد ، فولكيتنغ[1] ، وأمن هذا المجلس تمثيلاً مباشراً لسكان غرينلاند وجزر فارو[2] .

ولم يتعطل اقتصاد الدانيمارك كثيراً بالحرب ، ولكنه بدأ بنقل الاسطول التجاري الذي رد الى ثلثه . وجارت الدانيمارك الدول الاسكاندينافية الاخرى ونشطت في حقل التشريع الاجتماعي . وفي ١٩٦٠ ، شملت برامج الاعانات والتأمين ضد المرض ٨٠ ٪ من السكان .

ولاقت النورفيج في اصلاح ما أفسدته الحرب صعوبات جمة أكثر بكثير مما وجدته جارتاها الاسكاندينافيتان . فقد تضرر أسطولها التجاري الكبير وأعمالها المائية ـ الكهربائية كثيراً أثناء الحرب . ولكن الحياة عادت لهذين القطاعين بسرعة عظيمة . أما المجالات الاخرى فقد تلكأ العمل فيها بصورة محسوسة ، واقتضت تقنيناً وطنياً حتى ١٩٥٢ .

---

(١) فولكيتنغ Folketing

(٢) فارو Faroe

وفي ١٩٥٢ ، دشنت حكومة اوسلو خطة تنمية اقتصادية مدتها عشر سنوات لمناطق شمال النورفيج ، وأدخل في هذه المناطق استعمال قوة الماء مع الاستغلال التعاوني للمناجم الغنية عند جارتها السويد . ونجحت هذه التنمية ، حتى ان البطالة أصبحت مجهولة ، على مايبدو ، في عام ١٩٦٠ ، وتوافرت السلع الاستهلاكية ، وعاد الازدهار .

وعلى المسرح السياسي ، كانت النورفيج في المنفى أثناء الحرب . وقد أخذت على نفسها عهداً في آخر الحرب أن تقبل وتسمح بتشكيل حكومة جديدة . وتشكلت بسهولة ودون أزمة حكومة من كبار الموظفين وزعماء المقاومة . وأنهى الاصلاح الانتخابي ، في ١٩٥٢ ، التمثيل المفرط المبكر في المناطق الريفية . وتوفي الملك هاكون السابع ، في ١٩٥٧ ، بعد حكم دام ٥٢ سنة . وخلفه ابنه اولاف الخامس . وكان الحزب السياسي الاكبر في البلاد ، في ذلك الحين ، حزب العمل ، مع بعض الانقسامات الصغرى . وظل هذا الحزب ، مع انقطاع قليل ، يوجه الأعمال العامة حتى ١٩٦٥ . وفي ايلول ذلك العام خولت نتائج الانتخابات أربعة أحزاب غير اشتراكية ، يوجهها المحافظون ، تشكيل ائتلاف أكثرية ، وتتولى زمام الرقابة على الحكومة ، وفاز هذا الائتلاف في انتخابات عام ١٩٦٩ أيضاً .

وكانت النورفيج في طليعة البلاد في حقل برامج التشريع الاجتماعي الواسعة . وقد شاركت في برامج الامن الاجتماعي المشترك للدول الاسكاندينافية التي وضعت في عام ١٩٥٤ ، وفي الاتفاقات التي تتيح للعمال الانتقال من بلد اسكاندينافي لآخر دون ضياع المكاسب . وفي ١٩٥٦ ، وسع برنامج التأمين الصحي الالزامي في النورفيج حتى غطى جميع المواطنين . وجعلت معاشات الشيخوخة كريمة نسبياً .

وفي السويد ، نما نموذج من البنية الحكومية والاقتصادية اطلق عليه اسم « الطريق الاوسط » بين المشروع الخاص غير المنظم والجماعية السافرة . وفي هذا النظام ، تحرر سكان السويد (حوالي ٧٩٠٠٠٠٠) من أعباء القلق وعدم الطمأنينه ، وأصبحوا يتمتعون بمعدل مستوى حياة عال عظيم . وتم ذلك دون تأميم واسع للصناعة ، لأن ٩٠ ٪ منها بقيت في أيدي المشاريع الخاصة . وكان مفتاح النجاح السويدي في معدل ثمن صادورات المنتجات المتقدمة تكنولوجياً . فقد صدرت السويد سياراتها الى جميع بلاد العالم . واستحوذت الدولة ، كما هي الحالة في اوربه غالباً ، على ملكية الخطوط الحديدية كلها ومعظم مصادر الطاقة ، وباشرت حصر بيع بعض المحاصيل مثل الخمر والتبغ ، وبالاضافة الى ذلك ، برزت الى حيـز الوجود المؤسسات المالية الخاصة والعامة معاً ، وقد أخذت الواحدة منها تنافس الاخرى في تسليف الاموال .

ووجد بين نظام الحكم السويدي والمالية خيط مشترك بتعاون الهيئة الادارية والعمل مع الحكومة على توطيد نظام اقتصادي مزدهر ومستقر . وعلى عكس القوى العاملة في كثير من البلاد الأخرى ، توصل العمل السويدي الى تمكين السويد من توجيه تجارة دولية بصورة ناجحة وعلى نطاق واسع ، والتفاوض مع العمال على مقاييس اجرة قومية دون جدل عنيف او اختلاف في الرأي .

واستمرت الملكية الدستورية في السويد . وفي ١٩٥٠ ، توفي غوستاف الخامس في سن الثانية والتسعين ، وخلفه ابنه غوستاف السادس آدولف . كما ظلت الشؤون السياسية توجه فيها بشكل منظم ومنتج ، وتسود الشورى جميع الفرقاء المعنية ، ويتوصل الى الاجماع قبل عرض أي مشروع قانون على البرلمان . وبفضل هذا العمل التحضيري الانشائي

أمكن تجنب الخصومات المستحرة . وكما هي الحال في سويسرا ، يستعمل السويديون عن سعة الاستفتاء لاختبار العاطفة العامة في قضية عامة . وفي مسار الاستفتاء القومي ، غير السويديون ، في ١٩٦٠ ، تدفق التجارة من يسار الطريق الى يمينه .

وكانت السويد رائدة من رائدات التشريع الاجتماعي بعد الحرب العالمية الثانية . ففي الفاتح من كانون الثاني ١٩٥٥ ، أطلقت خطة للتأمين الصحي العام في السويد . وقد بنيت على أساس البرامج القديمة ، ومولت بمزج أقساط تدفع من المؤمن عليه ، وتكاليف من أرباب العمل ، ونقد من الدولة . وفي ١٩٥٧ ، جرى استفتاء شعبي ترتبت عليه خطة الزامية وأصبحت قانوناً في ١٩٥٩ . وبموجب هذا القانون ، أصبح المستفيد من المعاش ، وهو في سن السابعة والستين ، يقبض معاشاً مساوياً لـ ٦٥ ٪ من معدل أجرته في الخمس عشرة سنة من حياته التي يتمتع فيها بأفضل معدلات دخله .

وفي الشؤون الخارجية ، حاولت الدول الاسكاندينافية في ١٩٤٩ ، أن تعقد فيما بينها ميثاقاً دفاعياً . ومع ذلك فقد تعارض الحلف الاسكانديناڤي المقترح مع خطط الدفاع في باقي الأسرة الغربية . وبالتالي سقط هذا الميثاق عندما جذبت النورفيج والدانيمارك بالحلف الأطلسي النامي . واضطربت النورفيج عندما ألحت عليها روسيا لتوقيع حلف دفاعي مع الاتحاد السوفياتي . ومن المحتمل ان تكون قد اضطرت للبحث عن ملجأ لها في الحلف الأطلسي والخلاص من عرض الاتحاد السوفياتي . وتبعت الدانيمارك وايسلاندا النورفيج في منظمة معاهدة شمال الاطلسي . وعندما انضمت هذه البلاد لحلف الأطلسي أتت ومعها عناصر ستراتيجية هامة لخطط دفاع منظمة هذا الحلف . واسهمت الدانيمارك في أفضل مطارات

أوربه في كادوب ، جوتلند . وخولت النورفيج الولايات المتحدة عقداً لمدة عشرين عاماً لانشاء قواعد جوية وبحرية في غرينلاند .

وتابعت السويد سياسة الحياد التي سلكتها أثناء الحرب العالمية الثانية لأن الحرب الباردة أخذت تنضج من حولها ، ورفضت ستوكهولم الدخول في منظمة حلف الأطلسي خوفاً من أن يؤدي انحياز السويد الى الغرب الى احتلال روسي لفنلندا . هذا وان الحياد بالنسبة للسويد لايعني أن السويديين سيقيمون بشكل مفتوح على صداقة الاتحاد السوفياتي . فقد أصبح شائعاً في فترة مابعد الحرب ، أن السويديين يلاحقون عمال الاستخبارات السوفياتيين ويوقفونهم وينفونهم .

وفي ١٩٥٢ ، أسست النورفيج والسويد والدانيمارك وايسلاندا المجلس الشمالي لتسهيل التعاون فيما بينها . ويعنى هذا المجلس بصورة أساسية بتعزيز التعاون الاقتصادي والاجتماعي بين أعضائه . وكانت احدى قضاياه الحصول لمواطن أي بلد عضو فيه يقيم في دولة أخرى عضو ، على الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية التي يتمتع بها رسمياً في وطنه . وأكثر من ذلك أيضاً ، ان الدول الاسكانديناڤية نشيطة في عمليات الأمم المتحدة . وقد جهزت السويد قوى حفظ الأمن أثناء الأزمات في الكونغو وقبرص وغيرها .

اسبانيا

الدكتاتورية . — في نهاية الحرب الأهلية الاسبانية ، وطد الجنرال فرنشيسكو فرنكو بحزم سلطته الفردية على الأمة الاسبانية ، وجمع في شخصه الوظائف العليا في القوى المسلحة والدولة والحزب (فالانج أو

فالانكس)[١] ، وصرح بوحدة هدفه مع موسوليني وهتلر ، زعيمي الفاشية والنازية ؛ وكان مديناً لمساعدتهما كثيراً في الحرب الأهلية . وكان ارتباطه بهما قوياً ، حتى ان اقتصاد اسبانيا كان مرتبطاً بصورة وثيقة بالنظامين الاقتصاديين لدولتي المحور ، روما - برلين ، في الحرب العالمية الثانية .

ولجيل بعد الحرب الأهلية المدمرة في اسبانيا ، كان فرنكو وأتباعه منهمكين بالقضاء على المنشقين . وكان هؤلاء يكافحون الفاشيين ، والكثير منهم متململون من الحكم . أما الشيوعيون فكانت تلاحقهم قوى فرنكو بصورة دائمة . وعندما يلقى القبض عليهم يعدمون في الغالب ، أو يحشرون في معسكرات الاعتقال ويجبرون على القيام بالأعمال الشاقة في المشروعات العامة . هذا وان ذكريات السنوات القاسية الثلاث للحرب الأهلية البائسة والقضاء العنيف على الأعداء ، بعد ذلك ، ساعدت فرنكو كثيراً وأبقته على رأس الحكم ؛ حتى ان المعارضة لم تزعجه نسبياً خلال عشرات السنين . وعلى مايبدو أن الكثيرين لم يكونوا ليكرهوا دكتاتورية فرنكو ، لأنهم يفكرون بأن الفوضى والنزاع سيحلان اسبانيا بعده . ولذا رضوا عن بقائه . وفي منتصف ١٩٦٠ ، عندما نشأ جيل جديد لم يعرف الاضطرابات المدنية التي حلت بالبلاد قبل ثلاثين عاماً ، اعتدل نظام فرنكو ، ودلت الحياة في اسبانيا على تحسن أكيد . ولم تكن درجة هذا التحسين قوية اذا ماقورنت بالنسبة للدول الغربية الأخرى . ولكنها كانت تختلف عن ما مر في اسبانيا من تجربة قاسية .

لقد لاقى فرنكو معارضة في فترة مابعد الحرب ، وبخاصة في

---

(١) فالانج أو فالانكس Falange or Phalanx .

مناطق الباسك و الكاتالان ، وكل واحـدة منها ذات نعرة انفصاليـة تقليدية . ويعاقب القانون الاسباني نشر كتابات باللغة الـكاتالانيـــة ، وكذلك غناء النشيد الوطني الـكاتالاني أيضاً . ودل فرنكو على اعتداله بعد الحرب بتخويل بعض الامتيـازات الكاتالانيين باقالة بعض الموظفين من الخدمة في بارشلونة بعد أن تبين كره أبناء البلاد لهم .

وعين قانون ١٩٤٧ ولاية العهد الاسبانية بعد الحرب . فقـد أعلن فرنكو في تلك السنة ، بأن اسبانيا ملكية ، ثم أصدر قانوناً وعرضه على الكورتس[1] الاسباني وصدق عليه باستفتاء . وبموجب هذا الاستفتاء يبقى فرنكو زعيم الدولة مدى الحياة . وبعـد وفاته يتحتم على مجلس الوصاية أن ينتخب ملكاً ليكون خلفاً له . وبعد أن يحلف الملك يمين المنصب يطالب بأن يقسم يمين الولاء لمبادىء الحركة الفالانجيه . ثم صدر قانون الوراثة لعام ١٩٦٩ ووعد بأن يكون الأمير خوان كاولوس من آل بوربون ، الابن البكر للملك الفونسو الثالث عشر رئيساً للدولة الاسبانية مع لقب ملك ، في الثمانية أيام التي تلي وفاة كو أو تخليه عن منصبه .

وبتنظيم الارث ظلت حكومة فرنكو دكتاتورية فاشية ، كما ظلت الحريات المدنية محذوفة . وقد يكون من المحتمل أن تقوم معارضـــة شعبية لهذا الحكم ، ولكنها تبقى مستقلة عن الانفصالية التقليدية عنـد الباسكيين (البشكنس) والكاتالانيين . وقـد قامت حركات طلابيـة دورية تحتج على طبيعة الحكم وأساليب قمعه ، وبـدأ العمال بالاضراب احتجاجاً على الظلم والطغيان والظروف الاقتصادية غير المواتية ، ولكن النظام ظل متماسكاً .

---

(١) الكورتس Cortes مجلس يناقش القوانين ويصوت على الضرائب .

وابرمت كونكور داتو مع الفاتيكان في ١٩٥٣ ، واعتبرت الكاثوليكية الرومانية دين الاسبانيين « الوحيد » واتخذت احكام لتسمية الاساقفة من قبل الدولة . ومقابل امتياز تسمية الاكليروس الأعلى ، خصصت الحكومة صندوقاً للكنيسة الكاثوليكية ، وسمحت لها بأن تلعب دورها في التربية الاسبانية التي بدت لاتتفق ومقتضيات العصر في اوربه الغربية .

أما اتباع الأقليات الدينية ، وبخاصة البروتستانت واليهود ، فيشكلون أقل من ١ ٪ من الشعب الاسباني . وأماكن عبادة البروتستانت واليهود غير مراقبة قانوناً . كما أن الزواج الذي يعقده اكليروس الأقليات الدينية غير معترف به بالقانون الاسباني . ومحاولات الصبء والتبشير عند الاقليات الدينية خلال المنشورات أو المدارس ممنوعة . وقد عززت بشدة القوانين التي هي من هذا النوع حتى منتصف ١٩٦٠ ، ثم بدأ الاعتدال يظهر أيضاً على صعيد الشؤون الدينية ، وحصل نوع من الانفراج التدريجي في التقنينات ، حتى ان فرنكو شجع ، في ١٩٦٥ ، ووافق على حرية الوجدان لجميع الاسبانيين . ومع ذلك لم تصبح هذه العاطفة ، مباشرة ، جزءاً من القانون الاسباني .

اسبانيا والعالم الغربي بعد الحرب . — في حال مجابهة دولية ، عندما تصرح دولة من الدول بأنها تلزم جانب الحياد ، فان هذا الحياد يصبح موقفاً يلزم الدولة المحايدة بمراعاته في جميع التصريحات التي تفوه بها الحكومة ، ويجعلها في موقف لاتفضل فيه أياً من المتحاربين على الآخر . ويوجد نوع آخر من الموقف المحايد : وذلك عندما تصرح دولة رسمياً بالحياد وتفضل بوضوح طرفاً أو آخر . وهذا النوع الأخير من الحياد هو الموقف الذي اختارته اسبانيا في الحرب العالمية الثانية ، لأن فرنكو

كان مرتبطاً دبلوماسياً بالدول الفاشية ، وصرح بخاصة بالحياد التقي ليبقي بصورة رئيسية على علاقات اقتصادية يحتاج اليها مع الحلفاء .

وبسبب هذا الاتجاه ، الذي يعتمد فيه فرنكو على زملائه الفاشيين والصفة الدكتاتورية العالية لنظامه ، صوت الاجتماع الأول للأمم المتحدة في سان فرنسيسكو ، في ١٩٤٥ ، على استثناء اسبانيا من عضويتها وحوفظ على هذا الموقف المناوىء لفرنكو في مؤتمر بوتسدام عندما صدر بلاغ مشترك عنه يدين فرنكو علناً . وفي ١٢ كانون الأول ١٩٤٦ ، دعت جمعية الأمم المتحدة جميع الدول الأعضاء لسحب ممثليها الرسميين من اسبانيا . وأجاب فرنكو على هذه المقاطعة بلوم النفوذ الشيوعي . وفي الحقيقة ان السبب في ابعاد اسبانيا لايرجع الى الطابع الجمعي لحكومتها بل الى الميول « الفاشية » للنظام العسكري اليميني الذي أقامه الجنرال فرنكو . وعندما اتسعت الحرب الباردة ، وأخذت حرارة المناوءة الفاشية تفتر في الجبهة الدولية الجديدة ، بدأت الدول الغربية تنظر لدكتاتورية فرنكو نظرة مغايرة . يضاف الى ذلك أن هذا التدبير الاستثنائي في مقاطعة اسبانيا أثار معارضة عنيفة في أوساط أمريكا اللاتينية . وتحت تأثيرها تبنت الأمم المتحدة ، في آب ١٩٤٨ ، موقفاً جديداً ، وتركت للدول الأعضاء « كامل الحرية فيما يتعلق بعلاقاتها مع اسبانيا » . وبعد قليل مثلت معظم دول اوربه وامريكا نفسها في مدريد . ولكن اسبانيا ، بالرغم من كل ذلك ، ظلت معزولة بين الأمم الغربية . وظل الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له تحافظ على سياسة نشيطة مناوئة لفرنكو . وعندما قامت الحرب الكورية ، في ١٩٥٠ ، وبدأ حلف الأطلسي يبحث عن جبهة أوربية قوية ضد هجوم شيوعي ممكن ، تحققت امكانية اسبانيا الستراتيجية . ثم ان ليونة المواقف في الغرب والاعتراف بهذه الامكانية

الستراتيجية لاسبانيا مما جعل دول حلف الاطلسي تقبل باسبانيا عضواً في الأمم المتحدة ، في ١٩٥٥ ، وتقبل بامكانياتها كجزء من « صفقة المساعدات » التي أتت بها اوستراليا والدول الأخرى الى المنظمة الدولية .

وهذا التقارب ، الذي تم بين اسبانيا والحلف الغربي ، لم ينتج عنه ، مع ذلك ، قبول اسبانيا الفوائد التي تقدمها خطة مارشل ، أو دعوة للاشتراك في حلف الأطلسي ، بل ان الولايات المتحدة عقدت ، في ايلول ١٩٥٣ ، اتفاقاً مع فرنكو على عون متبادل ورافق هذا الاتفاق شرط السماح للولايات المتحدة باستعمال القواعد العسكرية في اسبانيا . وبعد ثلاث سنوات ، في ١٩٥٦ ، وقعت الولايات المتحدة واسبانيا ميثاق مدد يد ، وهو ينص على اتفاق دفاعي بينها لعشر سنوات يسمح بانشاء قواعد جوية وبحرية في اسبانيا . كما أعطى الحق للأمريكيين باقامة محطات رادار ومستودعات مؤن في اسبانيا رغم أنها لم تكن عضواً رسمياً في حلف الأطلسي .

وفي ١٩٦٣ ، وبعدها منذ عهد قريب في ١٩٧٠ مدد الاتفاق الأصلي في تأجير القواعد الاسبانية للولايات المتحدة مع كثير من الفوائد الاقتصادية لاسبانيا . وفي الواقع ، ان الوفاق الدفاعي المشترك بين اسبانيا والولايات المتحدة والعون الاقتصادي الواسع الذي رافقه كان منها أن عززا الاقتصاد الاسباني ونظام فرنكو أيضاً بعد أن تعثر بصورة محسوسة . وفي آخر ١٩٦٠ ، قدمت الولايات المتحدة لاسبانيا مساعدة بلغت ٠٠٠ ٠٠٠ ١٫٨٠٠ دولار .

وكسر تعاون الولايات المتحدة مع اسبانيا عزلة اسبانيا عن الشؤون الدولية . ففي ١٩٥٨ ، انضمت اسبانيا الى صندوق النقد الدولي ، ومنظمة التعاون الاقتصادي الاوربي ، والبنك الدولي للاعمار . وهذه المحاولات

من اسبانيا ، رغم أنها غير ناجحة في ايجاد مكان لها في حلف الاطلسي وفي السوق المشتركة ، تعكس أيضاً ميول مدريد في التقرب من الدول الغربيـة .

ضياع الامبراطورية . - احتلت اسبانيـا مـدينة طنجة الحرة في ١٩٤٠ ، وحافظت على اشرافها عليها خلال الحرب العالمية الثانية . وفي ١٩٤٥ ، اضطرت الجيوش الاسبانية الى الجلاء ، ووضعت طنجـة تحت اشراف لجنة دولية . وفي ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦ ، عادت المدينـة وشمال مراكش الاسباني الى حوزة المملكة المغربية ، بعد أن انتظمت هذه الدولة وأصبحت دولة مستقلة ، في ٢ آذار ١٩٥٦ .

وفي الممتلكات الاسبانية التي بقيت في افريقية ، جوبهت اسبانيـا بحركة الاستقلال الوطني كسائر الدول الأوربية المستعمرة في فترة مابعد الحرب . فمن ذلك أن جيش التحرير غير المنظم في الصحراء المراكشية بما في مراكش الاسبانية وبدأ يصطدم مـــع جيش فرنكو على طول الشاطىء الافريقي الغربي . وكانت النتيجة ، في ١٩٥٨ ، ان انتقـــل جنوبي مراكش الاسبانية الى المملكة المغربيـة . وفي ١٩٦٨ ، ضمنت حكومة مدريد استقلال غينيا الاستوائية . وفي ٤ كانون الثاني ١٩٦٩ ، تخلت اسبانيا عن منطقة إفني للمملكة المغربية . وبقيت ، في حوزة اسبانيا اليوم ، الصحراء المراكشية ومنطقة سبتة ومليلا وبعض الممتلكات الصغيرة جداً .

وهكذا أصبحت امبراطورية اسبانيا فيما وراء البحار ، الواسعة في فاتحة تاريخ اوربه الحديث ، بعض ممتلكات صغيرة في غربي افريقية وبعض الجزر المتاخمة للشاطىء . وفي ١٩٦٣ ، دعت اللجنة الخاصة بالاستعمار من قبل الأمم المتحدة حكومة مـدريد الى التعجيل باعطـــاء الحكم الذاتي لممتلكاتها الافريقية .

الاقتصاد الاسباني . — نجا الاقتصاد الاسباني ، بفضل العون الامريكي من الدمار الذي تراكم فيه أثناء الحرب الأهلية منذ ١٩٣٠ . وبلغ الانتاج الصناعي ، في ١٩٥٩ ، ما ينوف على ٧٥ ٪ من مستوى ١٩٤٨ . وفي ١٩٦٠ ، استمر انتاج المصانع الاسبانية في تصاعده بمعدل مرض . ونفذت الدولة مشاريع الري والكهرباء بنجاح ، حتى ان الطاقة الكهربائية الموفورة ، في ١٩٦٠ ، في اسبانيا زادت بثلاثة أمثالها بالمقارنة الى مستوى مابعد الحرب مباشرة .

وباستعمال التخطيط الاقتصادي المركز ، وضعت اسبانيا خطة تنمية ، لأربع سنوات ، ترمي الى معدل نمو ٦ ٪ سنوياً . وقام على ادارتها خبراء أجانب أخذوا يشتغلون مع عدد من مديري الأعمال الاسبانيين والفنيين وممثلي المصالح الخاصة في المجتمع الاسباني ، وبخاصة في الزراعة والعمل .

وبالرغم من نظام فرنكو المناوىء للشيوعية ، فقد أنمت اسبانيا تجارتها مع الاتحاد السوفياتي والبلاد التي تدور في فلكه . ففي عقد الـ ١٩٦٠ ، كان التبادل التجاري والثقافي عاماً بين الاتحاد السوفياتي واسبانيا وفي الواقع ، ان اسبانيا انطلقت منذ ١٩٥٠ وأصبحت من أعظم بلاد أوروبة جذباً للسياح من جانبي الستار الحديدي . وهذا يرجع الى تراث اسبانيا الملون والمميز ؛ وأكثر من ذلك أهمية في جذب الزوار ، إلى أن مستوى الحياة في اسبانيا أقل كلفة مما في البلاد الأخرى . واقبال الزوار على اسبانيا مكنها من جمع احتياطي ذهبي عظيم ، هذا بالاضافة الى أن اسبانيا أفادت من عدة منشطات خارجية قوت اقتصادها كثيراً ، وفي الوقت نفسه زادت في قبضة الجنرال فرنكو على البلاد .

البرتغال

انطونيو دو اليفيرا سالازار[1] . - كما كان تاريخ اسبانيا ، في دور مابعد الحرب العالمية الثانية ، مرتبطاً باسم فرنسيسكو فرنكو ، كذلك كانت تجربة البرتغال مرتبطة بصورة وثيقة باسم أنطونيو سالازار . لقد ظل سالازار ، خلال ست وثلاثين عاماً ، حتى أقعده المرض ، في ايلول ١٩٦٨ ، يمارس سلطة مطلقة لاتتحدى ، بينما كان رجال الدولة والقادة في بلاد العالم الأخرى يقومون وينتصرون ويقبضون على السلطة ويسقطون .

ولد سالازار في ١٨٨٩ ، ونشأ في أسرة برتغالية ريفية ، وتثقف ثقافة عالية ، وأصبح خبيراً مالياً ، ثم أستاذاً في الاقتصاد ، وقبل بلوغه الأربعين من العمر كان أستاذاً كبيراً في القانون والاقتصاد ، حتى انه في ١٩٢٦ وأيضاً في ١٩٢٨ ، دعي لمغادرة التعليم في الجامعة وأصبح وزيراً للمالية . ثم اختير ليكون رئيساً للوزراء في ١٩٣٢ ، وحكم البلاد ، منذ ذلك الحين ، بروح التقشف الرهباني . ويبدو أنه كان بعيداً عن التطورات السريعة الكبرى التي تجري في القرن العشرين ، حتى ان البرتغال كانت فريدة في نوعها في دور مابعد الحرب . فقد أقام سالازار فيما حوله عبادة الشخصية التي مكنته من خلق حالة سياسية أكثر شبهاً بحالة الحكم الاستبدادي ، التي كانت سائدة في ماضي أوروبة ، منها بأي شكل حديث .

ومما يدل على طبيعة دكتاتورية سالازار ، أنه عندما سقط إثر اضراب جماهيري ، عن عمر يناهز التاسعة والسبعين ، لم يكن هنالك أي اشارة أو تلميح الى ثورة شعبية أو ضربة انقلاب عسكري للاتيان بدكتاتور

---

(١) انطونيو دو اليفيرا سالازار Antonio de Oliveira Salazar

جديد . والجدير بالذكر أن البرتغال كانت تباهي بعـــدم وجود أي اضطراب مدني عندها . وكان على رئيس الوزراء الجديد أن يختار من قبل أعظم هيئة استشارية في البرتغال ، وهي مجلس الدولة ، ويتألف من خمسة عشر عضواً . وفي آخر ايلول ١٩٦٨ ، وقـع اختيار المجلس على **مارسيللو خوسه كيتانو** [١] ، وهو أستاذ للقانون في جامعة لشبونة ويعتبره الكثيرون « نسخة طبق الأصل عن صورة سالازار » .

السياسة والاقتصاد . ـ تتشابه اسبانيا والبرتغال بصورة وثيقة في قطاعات السياسة والاقتصاد . فقد سمح سالازار بوجود مجلس تشريعي واحد . وكان حزبه ، **حزب الاتحاد الوطني** ، يكسب في جميع الانتخابات التي كانت تجري بعد الحرب . وليس معنى ذلك أن النظام كان خـــلواً من كل معارضة ، فقـد برهنت الحوادث عن توقيفـات عرضية لبعض السياسيين الذين انحرفوا عن مبادىء الحزب . وفي انتخابات الرئاسة ، في ١٩٥٨ ، قام مرشح المعارضة بحملته الانتخابية ، بالرغم من القيود المفروضة عليه من قبل الحكومة ، وحصل على ٢٠ ٪ من الأصوات . وأقلق هـــذا الانتخاب سالازار ، حتى انه أعلن على شاشة التلفزيون الوطني بأنـــه لن يسمح بانتخابات من هذا النوع في المستقبل ، ولن يتساهل مع المعارضة. وتبع ذلك تعديل في دستور ١٩٥٩ يقضي بأن ينتخب الرئيـس ، منذ الآن فصاعداً ، من قبل هيئة انتخابية مؤلفة من المجلس الوطني ومختلف موظفي الدولة . وحذفت الأحزاب الاشتراكية والشيوعية ، وظلت البرتغال دولة دكتاتورية رمانية .

وبرهنت الحالة الاقتصادية على تحسن محسوس في دور مابعد الحرب . ولكن المجتمع بقي طبقياً ، والثروة متجمعة في أيدي فئة قليلة من الأسر

---

(١) مارسيللو خوسه كيتانو Marcello José Caetano

المتنفذة ، وما زال السواد الأعظم من الشعب البرتغالي يعيش في الفقر .

وفي منتصف ١٩٤٠ ، أصدرت الحكومة عدة قرارات لتنشيط المصانع واتبع سالازار هذه القرارات ، في ١٩٥٣ ، باطلاق خطة تنمية لست سنوات بغية تعميم الكهرباء والنقل ، وبالتالي وضع أساس التصنيع . واتبعت هذه الخطة الأولى بخطة ثانية ، في ١٩٥٩ ، لتنمية الزراعة والصناعة . وبالنظر الى ان معظم الثروة الخاصة قد تجمع في ايدي القلة ، فقد تأسست الصناعات الجديدة بصورة عامة على يد الدولة . ولما لم يستطع الشعب المصاب بالفقر تقديم الأموال عن طريق الرسوم الضرورية لاقامة دولة جديدة ، فقد استعمل الكثير من ارباح الصناعة المؤممة لهذا الغرض .

واشتهر سالازار في العالم الغربي بطريقته النافذة الباردة التي يسير فيها عجلة الدولة . وترك وراءه ، بالرغم من مهارته الاقتصادية ، إرثاً كبيراً من القضايا المالية . ومع ان نمو السياحة كان يبشر ببوادر خيرة في ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، فقد كان الاقتصاد البرتغالي يشكو من نقص الاستثمارات الخارجية ، وظلت الهوة سحيقة بين النخبة الغنية في البلاد والجماهير المحرومة . وبالاضافة الى الضائقة الاقتصادية ، رفضت البرتغال ان تطلق سراح الامبراطورية الاستعمارية او تمنحها الحرية . وبالتالي وقعت في ورطة الكفاح الدائم لاخضاع حرب العصابات في غينا وموزامبيك وانغولا البرتغالية .

ودعا كثير من الشبان البرتغاليين ، من اقتصاديين ورجال أعمال ، لأن تكون بلادهم جزءاً من الأسرة الأوربية اقتصادياً وسياسياً . فحذر التقليديون بأن مثل هذه الحركة ربما تضخم النقد البرتغالي فيزيد في عبء الكفاح الاستعماري ، وهو من قبل مكلف وباهظ . وبالتالي فان الشدة بين ارتباط الامبراطورية والاندماج في أوربه كانت تبدو ذات

أولوية عالية . ولكن البرتغال ، كما هي عليه الآن غير قادرة على قطع الصلات القوية بلاحتها وماضيها الاستعماري .

الشؤون الخارجية . — كانت البرتغال محايدة في الحرب العالمية الثانية . ولكنها ، على عكس اسبانيا ، مالت نحو الجانب الحليف ، مع الحفاظ على الحلف الانكليزي — البرتغالي الذي يرجع عهده الى عدة قرون خلت . وظلت البرتغال مرتبطة بصورة وثيقة بالسياسة البريطانية ، وتعتبر بالنسبة الى بريطانيا العظمى ذات أهمية أكثر من أي وقت مضى لا من الناحية الاقتصادية فحسب ، كالتي كانت في أساس معاهدة ميثوين[1] في ١٧٠٣ بين البرتغال وانكلترا ، وانما من الناحية الستراتيجية أيضاً . ان المستعمرتين البرتغاليتين الكبيرتين ، انغولا ، وموزامبيك ضامنتان لمنافع الكومنولث البريطاني . لأن بيرا[2] في الشرق ، في موزامبيك ، و لوبيتو[3] في الغرب ، في انغولا ، هما النهايتان البحريتان للخط الحديدي الكبير الذي يجتاز افريقية الجنوبية ، من جهة لأخرى ، سالكاً أرض كاتانغا وروديسيا الجنوبية . وقد نظم الميناءان من قبل شركات بريطانية ذات امتياز ، وتحملت انكلترا نفقات تنظيم دفاعها . والحقول البترولية المكتشفة في منطقة بيرا في أيدي شركة انكليزية . والدفاع عن الخط الحديدي والميناء والحقول البترولية ، أدخلت البرتغال الخدمة العسكرية الاجبارية في موزامبيك منذ عام ١٩٣٥ .

وفوق ذلك ، تملك البرتغال النصف الشرقي من جزيرة تيمور ، الواقعة في الأرخبيل الانسولندي ، على ٥٠٠ ك م من اوستراليا ، وهي تؤلف

---

(١) ميثوين Methuen بالنسبة الى ميثوين الدبلوماسي البريطاني المفاوض .

(٢) بيرا Beira .

(٣) لوبيتو Lobito

موقعاً ستراتيجياً من النوع الاول للدفاع عن الدومنيون الكبير ، اوستراليا . ولذا فمن غير الممكن ، في هذه الشروط ، أن توجد قضية لابعاد البرتغال عن الامم المتحدة .

وكسويسرا ، حافظت اسبانيا والبرتغال على النظم التي كانتا عليها قبل الحرب ، وظلتا الدولتين الغربيتين الوحيدتين اللتين أبقيتا على الحكم التسلطي . وفي الحرب ، كما رأينا . راعى البلدان الحياد . وكان حياد البرتغال متجهاً بصورة تقليدية شطر انكلترا . ولكن اسبانيا والبرتغال، أمام النزاع الواسع الذي يحيطهما ، تقربتا من بعضهما ، وفي ١٩٤٢ ، وقعتا الميثاق الايبري ، وأهميته ثقافية بصورة أساسية .

وبعد الحرب أقام الحلفاء ، وعلى العموم الدول الممثلة في الامم المتحدة ، اختلافاً بين دكتاتورية سالازار ، المعتدلة في أشكالها والخالية من الشمولية ، ونظام اسبانيا الفاشي الاتجاهات . والحقيقة هي أنه لايوجد اختلاف جوهري بين المبادىء الاساسية في النظامين الدكتاتوريين ، فكلاهما يقومان على المذهب الكاثوليكي . ولكن اسبانيا تعتبر مكملة للنظام الفاشي في أوربه . وهذا يتأتى بشكل واضح من أن دكتاتورية فرنكو صادرة عن حرب أهلية انتصر فيها على أقصى اليسار . وقبلت البرتغال في الامم المتحدة ، بينما جنبت اسبانيا عنها طويلاً ولم تقبل ، كما رأينا ، إلا في عام ١٩٥٥ .

وشكلت دولة سالازار ملاذاً للاجئي الحرب وأصبحت لشبونة مرتعاً للجاسوسية ، واستخدمت الولايات المتحدة وبريطانيا ، في الحرب ، الجزر الخالدات (جزر آزوره) موقفاً متوسطاً للطائرات عابرة الأطلسي . وبعد الحرب ظل الحلفاء يستخدمون هذه الجزر وتقبض البرتغال العون الامريكي. وأخيراً استخدمت الولايات المتحدة الجزر نفسها محطة لطائراتها التي كانت

تأتي مزودة بالاسلحة والذخائر لدعم اسرائيل ضد العرب في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

وبغض النظر عن حكومة انطونيو سالازار المتسلطة ، فقد اعترفت الدول الغربية بالبرتغال في دور مابعد الحرب . وقبلت البرتغال على علاتها عضواً في الامم المتحدة ، في ١٩٥٥ . وشاركت في خطة مارشل ، وأصبحت عضواً في رابطة التجارة الاوربية الحرة وفي حلف الاطلسي .

وتشكو البرتغال من قضية الاشراف على مستعمراتها . وكان سالازار أحد المفكرين في « عبء الانسان الابيض » و « الرسالة الحضارية » التي يجب على « الوطن الام » نشرها في مستعمراتها فيا وراء البحار . ولذا أمسكت البرتغال بقبضتها على الاجزاء التي بقيت لها من امبراطوريتها الكبرى ، واحكم وثاقها اقتناع سالازار بأن التجارة بين البرتغال ومستعمراتها أساسية للابقاء على تجارة منظمة والحفاظ على مستويات معيشة ، ضئيلة بالفعل في الوطن الام ، مستقرة .

وبدا لحين ان البرتغال تعمل على فك الارتباط الصاعد بين القومية البرتغالية وكفاح الاستعمار الذي يجتاح العالم . ولكن لبثت هذه حالها . ففي ١٩٥٥ ، توترت العلاقات الدبلوماسية بين البرتغال والهند بنتيجة النزاع على المراكز الاستعمارية الصغيرة جداً الباقية للبرتغاليين على الشاطىء الغربي للهند . ورفضت البرتغال أن تسلم غوا وجزيرة ديو الى الحكومة الهندية . ورفعت القضية الى محكمة العدل الدولية على الهند لمنعها البرتغال من حقها في المرور من احدى مستعمراتها للأخرى عبر الأراضي الهندية . وكان حكم المحكمة ، ١٩٦٠ ، لصالح الهند . وبعد ذلك ،

في آخر ١٩٦١ ، استخدمت الحكومة الهندية جيوشها لعودة البـــلاد المستعمرة الى أمها الهند .

ومما زاد في عسر الاقتصاد البرتغالي المتعب أن تمرداً وطنياً قام ، في ١٩٦١ ، على طول الحدود الشمالية من انغولا متأثراً بحوادث الكونغو . وفي ١٩٦٢ أصبح النزاع الأنغولي كثيفاً وفظاً ، حتى ان الجمعية العمومية للأمم المتحدة تبنت قراراً بـ ٩٢ صوتاً ضد ٢ ، دعت فيه البرتغال الى وقف تدابير القمع ضد شعب أنغولا . فرفضت البرتغال وتمادت مدعية بأن الأمم المتحدة لايحق لها أن تتدخل في الشؤون الداخلية للمستعمرات البرتغالية ، وأكدت أن شعب هذه البلاد يتمتع بوضع « مستقل » ضمن الامبراطورية البرتغالية ، وبمكانة تعادل المكانة التي يتمتع بها أي مواطن أوربي .

وظلت المستعمرات البرتغـــالية « المستقلة » ثائرة . وفي ١٩٦٣ ، انفجرت حرب العصابات الوطنية في غينيا البرتغالية ، وقام تمرد صغير مماثل أيضاً في موزامبيك ، طوال ١٩٦٠ ، وفي ١٩٧٠ .

وحتى وفاة سالازار ، ١٩٧٠ ، كانت آمال بعض الاقتصاديين ورجال الأعمال البرتغاليين بأن تمتثل البرتغال وتأخذ بتوصية وارشاد أكثرية دول العالم ، وتجلو عن مستعمراتها . ولم يتحقق شيء من هذا . وظلت الدعائم الأربع للمؤسسة الحكومية البرتغالية : الكنيسة الكاثوليكية ، الجيش ، أسرة البنوك ، الدوائر المدنية الكبرى ، مصرة على بقاء البرتغال متمسكة بامبراطوريتها الاستعمارية .

وأخيراً ، يجدر القول ان حركة انقلابية قامت ، في ٢٥ نيسان ١٩٧٤ ، بزعامة الجنرال انطونيو دو سبينولا [١] ، وأطاحت بالرئيس

(١) انطونيو دو سبينولا Antonio de Spinola

مارسيللو خوسه كيتانو ، وأنهت مايقارب خمسين عاماً من الحكم الدكتاتوري في البرتغال . وقد وعد سبينولا ، اثر نجاح حركته ، بتعميم الاصلاحات الديموقراطية في البلاد : كاطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وانتخابات حرة خلال سنة ، ومجلس تمثيلي وطني . ترى هل ستشمل اصلاحات سبينولا المستعمرات البرتغالية وتنهي حالة الحرب الاستعمارية في افريقية البرتغالية ؟ نترك الجواب عن هذا التساؤل للمستقبل .

الفاتيكان

الفاتيكان لايفرض أي نظام سياسي . — لقد كان الفاتيكان في جميع الأزمنة قوة من القوى الدولية الكبرى ، دون منازع . وعمله ، كعمل الكاثوليكية التي يتزعمها ، وكعمل المسيحية عموماً ، لم يأخذ امتداداً عالمياً إلا بقدر مابسطت روما أولاً ، والبلاد الاوربية بعدها ، امتدادها على العالم . والمنطقة المسيحية في الكون تتشكل بصورة أساسية من أوربه والامريكتين . ولم تمتد على آسيا وافريقية إلا بصورة موازية للنفوذ الذي مارسه البيض في هذه الأجزاء من العالم .

ان دور الفاتيكان ، حتى في بلاد العرق الابيض ، قل تدريجياً منذ بداية القرن التاسع عشر . وقد مارس نفوذه على الصعيد السياسي ، من جهة بابرام كونكوردات مع الحكومات الوطنية ، ومن جهة أخرى بطريق الاحزاب الكاثوليكية .

لقد كان وضع الفاتيكان ، بين الحربين ، صعباً بصورة خاصة بسبب الانظمة الجمعية التي اتخذت موقفاً معادياً للمسيحية . وقد عرفه البابا **بيوس الحادي عشر** عند عقد اتفاقات لاتران في ١٩٢٩ . وصرح الكرسي ـ الاقدس في ذلك الحين : « بأنه يريد أن يبقى خارجاً عن

كل المنافسات الزمنية بين الدول الاخرى ، وعن المؤتمرات الدولية المنعقدة لهذا الغرض » ، إلا « اذا تقدمت الأطرف المتنازعة بطلب يتفق ورسالته في السلام » . ولقد كان الدفاع عن السلام شغلاً شاغلاً لسياسة الفاتيكان ، واتضحت هذه السياسة في رسالة البابا المؤثرة في ايلول ١٩٣٨ .

وقبيل الحرب العالمية الثانيـة ، برهن انتخاب أمين سر دولة بيوس الحادي عشر ، الكاردينال بانشيللي[١] ، الذي أخذ اسم بيوس الثاني عشر ، على ارادة مجمع الكرادلة في استمرار سياسة البابا بيوس الحادي عشر . وقد عبر عن هذه الارادة بالسلام بعمل الفاتيكان الدبلوماسي . ففي آب ١٩٣٩ ، اقترح بيوس الثاني عشر عقد مؤتمر للبلاد المعنية بالنزاع الجرماني البولوني والبلاد المحايدة المتاخمة التي انضمت اليها الولايات المتحدة والفاتيكان. وكانت مهمة هذا المؤتمر اعادة النظر في معاهدة فرساي واعـداد ميثاق عدم عـدوان جماعي .

ولكن هـذا النداء لم يسمع ، ولم يجدد البابا محاولته في ادخـــال الفاتيكان في « مجلس الأمم » .

ومنذ ذلك الحين لازم الفاتيكان الموقف المذهبي بصورة محضة ، واوضح مذهب الكنيسة في العلاقات الدولية في المنشور البابوي المؤرخ في ٢٠ تشرين الأول ١٩٣٩ ، وكذلك في رسائل عيد الميـــلاد في ١٩٣٩ و ١٩٤١ و ١٩٤٤ .

وفي هذه الوثائق ، يحذر بيوس الثاني عشر الشعوب من التجاوزات القومية ، ويدعوها لاقامة السلام في المستقبل على النظام ، والنظام نفسه على العدل ، ويحض الغالبين على ألا يفرضوا على المغلوبين معاهدات الاكراه والعنف . ويعبر عن ذلك بقوله : « فاذا كان من الواضح انسانياً أن

---

(١) بانشيللي Pacelli

تتخذ تدابير الأمن ضد الشعوب ، التي يحكم بأنها مسؤولة عن الحرب ، فيجب مع ذلك أن يترك لها الأمل بأن تشارك من جديد ذات يوم في الأسرة الكبرى للأمم » . واذا كان من المسموح معاقبة مجرمي الحرب فردياً ، فان الشعب بكامله لايمكن أن يعتبر مسؤولاً عن جرائم موجهيه . ويقول بيوس الثاني عشر : ان جميع الشعوب لها الحق في الحياة ؛ ويحسن أن تحترم ثقافة الاقليات العرقيه ولغتها ، و « ان ارادة الحياة لأمة يجب ألا تعادل حكماً بالموت على أخرى » ، وفوق ذلك ، يمكن أن يقبل بأن تشكل الدول الكبرى تحت ادارتها كتلاً اقتصادية واسعة .

ويصر بيوس الثاني عشر على ضرورة احترام الكلام المعطى وتنفيذ المعاهدات باخلاص وصدق وأمانة . كما تجب اعادة النظر في المعاهدات واصلاحها ، ولهذه الغاية ، من الضروري انشاء محكمة حقوق دولية يمكن أن تدعم قراراتها بمؤيدات اقتصادية بل وعسكرية . وأخيراً ، يجب أن يضمن السلام بنزع عام للسلاح وبتوزيع عادل للمواد الأولية [١] .

وهذه هي المرة الأولى التي يضع فيها الكرسي الأقدس مذهباً كاملاً لتنظيم السلام . وفيه يتبنى البابا موقفاً أعلى من موقف الأمم كلها . ويضع نفسه مشاوراً لها ، وحكماً خارجاً وفوق خلافاتها ، وبهذا الواقع يكون الوحيد القادر على العمل بتمثيله المصالح العليا للانسانية .

أما المبادىء نفسها ، التي وضعها المذهب الحبري ، فتقترب ، عن كثب من النقاط الاربع عشرة التي كان قد وضعها الرئيس ولسون والأفكار التي كانت أساساً لعصبة الأمم ومنظمة الأمم المتحدة ، ولكن دون أن يدخل ، في العلاقات التي امتدحها بين الأمم ، أية عقائدية سياسية .

(١) راجع . Marc Bonnet, La Papauté Contemporaine, PP. 128 — 129, Collection *Que Sais - Je?*

وامتنع البابا ، أثناء الحرب ، عن أن يقوم بأي مبادهة لصالح السلام ، على نقيض الموقف الذي اتخذه بونوا (بندكت) الخامس عشر في ١٩١٧، واقتصر على الاحتجاج ضد القصف الجوي . وقد ألجأ الفاتيكان العديد من اللاجئين قبل الحرب وأثناء الحرب ، وبخاصة بعد الهدنة الايطالية ، في ٨ ايلول ١٩٤٣ . وأنجد « غير الآريين » ودعا الطوائف الدينية أن تهيء ملجأ لليهود . وساعد البابا نفسه الاسرائيليين في روما في دفع الضريبة التي فرضت عليهم ، وحاول ، عبثاً ، أن يمنع الحكومة الهونغارية من تشديد القوانين المناوئة للسامية في حزيران ١٩٤٤ .

هذا وان موقف القوة المعنوية العامة ، الذي اتخـــذه البابا ، أعطى الفاتيكان موقعاً دبلوماسياً شخصياً . ومنذ آخر ١٩٣٩ ، أرسل اليه روزفلت ممثلاً شخصياً ، حتى ان الصين وفنلندا والبلاد المنخفضة واليابان ، التي لاتقيم علاقات دبلوماسية مع الكرسي — الأقدس ، فعلت نفس الشيء .

كيف كان عمل الفاتيكان الدبلوماسي أثناء الحرب ؟ يستحيل القول . على أن الكاردينال تيسورانت[١] ، في كانون الأول ١٩٤٤ ، لم يتردد في التصريح بأن الكرسي — الأقدس معاد الهتلرية والشيوعية . ولكنه لم يشجب علناً إلا الشيوعية ، راثياً لرؤية الظل المشؤوم لأعداء الله « يتطاول على وجه أوربه المسيحية » ومستنكراً عدوان الاتحاد السوفياتي على فنلندا . وحاول الفاتيكان أن يمنع ايطاليا من الدخول في الحرب . وامتنع ، رغم عدائه المبين للشيوعية ، عن دعم المناورات الألمانية لاثارة الكفاح الاوربي ضد البولشفية . على ان ارجاع الحرية الدينية ، في الاتحاد السوفياتي ، أدى الى انفراج بين الكرسي — الأقدس وموسكو . وفي الغرب ، قبل البابا ،

---

(١) تيسّورانت Tisserant

في شباط ١٩٤٣ ، بأن يمثل الجنرال دوغول في الفاتيكان ، ولكنه لم يعترف بـ « الحكومة المؤقتة » ، التي شكلها دوغول ، الا في كانون الاول ١٩٤٤ . ومن جهة أخرى ، رفض ، بالرغم من الالحاحات الشديدة ، أن يبعد الأحبار الذين أظهروا ولاءهم لنظام فيشي .

وبالاجمال ، ان الدور السياسي للكرسي — الأقدس ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، كان قليل التأثير . ووقف الفاتيكان ، أو أوقف ، بعيداً عن مفاوضات السلام في باريس .

مجمع البابا والكرادلة في ١٩٤٦ يؤكد عمومية الكنيسة . — ومع ذلك ، لم يعدل الكرسي — الاقدس عن أن يكون دولة كبرى . ولكن ، عوضاً عن أن يمارس عمله بسياسة نشيطة ، بحث عن قيادة العالم بالتوجه الى الضمائر الفردية وبخاصة الى صوفية الجماهير . وفي نهاية الحرب ، أراد بيوس الثاني عشر مد هذا الدور المعنوي العمومي للكنيسة بتجريده الكرسي — الأقدس من الميزة الايطالية التي يمتلكها منذ مجمع ترانت (١٥٤٥) لاعطائه بحق صفة عمومية .

عند وفاة بيوس الحادي عشر ، في ١٩٣٩ ، كان مجمع الكرادلة يتألف من ٣٤ كاردينالاً ايطالياً و ٢٧ كاردينالاً من القوميات الاخرى : ٣ ألمان انكليزي واحد ، أرجنتيني واحد ، نمساوي واحد ، بلجيكي واحد ، برازيلي واحد ، كندي واحد ، ٣ اسبان ، ٣ أمريكان من الولايات المتحدة ، ٦ فرنسيون ، هونغاري واحد ، ايرلندي واحد ، برتغالي واحد ، سوري واحد ، وتشيكوسلوفاكي واحد . وعندما انتخب بيوس الثاني عشر بابا ، في ٢ آذار ١٩٣٩ ، لم ينشىء أي كاردينال حتى نهاية الحرب . وفي عيد الميلاد ١٩٤٥ ، أعلن بأنه قرر أن يسمي ، في مجمع البابا والكرادلة يعقد في ١٨ شباط ١٩٤٦ ، اثنين وثلاثين كاردينالاً .

وكان من بين هؤلاء أربعة ايطاليين فقط . وبعد مجمع البابا والكرادلة ، وجد في المجمع الأقدس سبعة وعشرون ايطالياً واثنان وأربعون كاردينالاً من القوميات الأخرى : ٤ ألمان ، انكليزي واحـــد ، أرجنتينيان ، أوسترالي واحد ، نمساوي واحد ، بلجيكي واحد ، برازيليان ، كنديان شيلي واحد ، صيني واحد ، كوبي واحد ، ٤ اسبان ، ٥ أمريكان من الولايات المتحدة ، ٧ فرنسيون ، هولاندي واحد ، هونغاري واحد ، بيروفي واحد ، بولانديان ، برتغاليان ، أحدهما رئيس أساقفة موزامبيك، وسوريان . وفي الخطاب الذي القاه بيوس الثاني عشر في هذه المناسبة ، صرح بأنه يريد « أن تمثل هذه التسمية الكرادلة أعظم عـدد ممكن من الاعراق والشعوب ، وهكذا لتكون صورة عن عمومية الكنيسة » .

وحتى ١٢ كانون الثاني ١٩٥٣ ، لم يسم بيوس الثاني عشر كرادلة محدثين . وقد أعلن ، في هذا اليوم ، عن تسمية أربـع وعشرين ، وجد بينهم عشرة ايطاليين ، وانتخب الآخرون من مختلف البلاد . ولأول مرة دخل الهندي ، المونسنيور غواسيا ، من بومباي ، في مجمع الكرادلة .

يقول البابا في الخطاب الذي ألقاه في مجمع الكرادلة : « ان ماأرشدنا في انتخاب الكرادلة الجدد ، هو الاهتمام بأن يكون مجمـع الكرادلة ، ماأمكن،صورة حية للكنيسة بكاملها والتي يسمى بها مجلس الشيوخ النبيل جداً. وفي الواقع ، ان الكنيسة الكاثوليكية ، التي تؤلف سدتها الرسولية ، التي آسستها العناية الإلهية ، الرأس - ليست غريبة عن أي أمة ، أي شعب ؛ انها ملك الجميـع ، وتضمهم جميعاً بمحبة الله نفسها وبالعناية نفسها . وأكثر من ذلك ، ان هذا يبدو لنا أهلاً للاعتبار والتأمل بعمق ، على حين أن أسرة الأمم ووحـدة المواطنين منقسمتان بالمنازعات والاختلافات ، بـل وأحياناً معرضتان للخطر بشكل خطير ، ولكن ليست هذه حال المجتمع

الذي أسسه الفادي الإلهي لنجاة الجميع ؛ انها واحدة بطبيعتها ، وهي ، كما هي ، أم رؤوم جداً ، تعتبر جميع الناس وكل واحد منهم أبناءً مهما كان عرقهم وبلدهم » .

وهكذا يؤكد ، فوق الانقسامات القومية والعرقية ، عمومية الكنيسة وتفوقها . والبابا هو آخر سلطة على العالم الذي ينسب لـ « الحق الإلهي » . وهكذا يضع نفسه خارجاً وفوق جميع السلطات الزمنية . ويؤلف مجمع الكرادلة والبابا نوعاً من تمثيل لجميع الشعوب وجميع العروق ، متحدة تحت سلطة البابا القديرة والمعصومة .

وهذا الاهتمام بـ « التدويل » ظهر أيضاً في تأليف الهيئة الدبلوماسية الحبرية . ولا شك في أنه وجد ، قبل الحرب العالمية الثانية ، قاصدون رسوليون غير ايطاليين . فمنذ قرن ، كان القاصد الرسولي في مونيخ الكونت دو مرسي – آرجانتو (١) ، البلجيكي . وحديثاً كان القاصد الرسولي في بروكسل بولونياً ، المونسنيور ليدوشو وسكي (٢) . وأرسل البابا بيوس العاشر قاصداً رسولياً نمساوياً الى مونيخ وهو المونسنيور فروفيرت (٣) . ومع ذلك ، ففي الحبريات التالية أصبحت هذه الحالات نادرة جداً . واليوم ، بالعكس ، يوجد عشرة قاصدين ، ووكلاء قاصدين ومندوبين رسوليين غير ايطاليين ، والقاصد الرسولي في بون ، بخاصة ، أمريكي .

ويحاول الكرسي – الأقدس ، بأعظم مرونة ، أن يمثل في كل مكان . ويزعم القاصد بأنه يتمتع بامتياز وهو كونه عميد السلك الدبلوماسي

(١) دومرسي آرجانتو De Mercy - Argenteau

(٢) ليدو شو وسكي LedochOwski

(٣) فروفيرت Fruhwirt

في البلاد المعتمد لديها . وفي العواصم ، التي لاتعترف فيها الحكومة بهذا الامتياز لرسول الفاتيكان ، يرسل البابا وكيلاً للقاصد . وأحياناً ، كما في بيرن ، يكون الكرسي - الأقدس ممثلاً ، على حين أن البلد ، الذي يكون رسول البابا معتمداً لديه ، ليس له ممثل دبلوماسي في الفاتيكان . وفي مكان آخر ، كما في لندن أو في واشنطن ، اذا لم يوجد مندوبية رسمية للكرسي - الأقدس ، يوجـــد مندوب شبه رسمي ، أمين سر الفاتيكان أو مندوب رسولي . وتتابع سياسة الفاتيكان عن كثب سياسة الدول الكبرى ؛ والشيء المميز ، بخاصة ، هو أن القاصد الرسولي في بون أمريكي . ولاتقطع الكنيسة علاقاتهـــا مع أي نظام ، ولا تنكره إلا إذا سلك طريق الاضطهاد الديني ، كما فعلت الشيوعية .

غير أن هذه السلطة البابوية ، التي تتأكد كسلطة عامة ، أوجدت للبابا صعوبات في البلاد الدكتاتورية الجمعية ، وبخاصة في الصين حيث طرد المبشرون الكاثوليك أو اضطهدوا لأنهم يمثلون سلطة تنجو من مراقبة بيكين ، بينما كان المبشرون البروتستانت أحراراً في متابعة نشر رسالتهم .

سياسة الفاتيكان تجتنب الانخراط في أي سياسة قومية . - يحاول الفاتيكان ، في كل مكان ، أن يجعل من الكنيسة قوة تندمج بمختلف البيئات القومية . ولذا ينفتح الاكليروس شيئاً فشيئاً على الآسيويين والافريقيين وفي المستعمرات وفي البلاد تحت الوصاية ، يسهر الفاتيكان على الانخلاط عمل الكنيسة بعمل المتروبول أو البلد الموجه . وهكذا نجد ، في البلاد الافريقية التابعة لفرنسا وبلجيكا ، ان البعثات لاتتخذ من نفسها ممثلاً للمصالح الفرنسية أو البلجيكية ، بل ممثلا فقط المصالح الدينية تحت رعاية الفاتيكان . وفي الحقيقة ، ان الكنيسة لاتريد أن ترى نفسها مهددة

بالحركة القومية التي انتشرت في العالم . ومن المحتمل أن تبقى البعثات التبشيرية تعمل في البلاد التي تبعد فيها سلطة البيض . وبهذا العمل يسهم الفاتيكان مباشرة في نشر الحضارة الغربية التي يبدو أنه لا يمكن أن تنجح في افريقية إلا في الحد الذي تصبح فيه هذه القارة مسيحية . وكما أن سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب لم يسجل نهاية الحضارة الاغريقية - الرومانية ، لأن الكنيسة عاشت بعد الامبراطورية وأكملت فيها عملها التحضيري ، كذلك تهيأت الكنيسة لأن تكون بطل المسيحية في افريقية ، أي باختصار ، بطل الحضارة الغربية في اليوم الذي تنقطع فيها سلطة البلاد الاستعمارية عن الوجود . ولكن هذا القول ليس إلا من قبيل التكهنات ، لأن يقظة افريقية يمكن أن تقلب كل شيء عاجلا أو آجلا .

وهكذا ، بالرغم من ان الفاتيكان ، على مايبدو ، لايلعب ، في أيامنا ، دوراً نشيطاً على الصعيد الدولي ، فمن غير الممكن الجدال في انه يسهم بشكل رصين جداً في الدفاع عن الحضارة الغربية ، رغم أنه يرفض اعطاء هذه الصفة لرسالته .

الفاتيكان يعمل بواسطة الأحزاب السياسية . — وعلى صعيد السياسة الداخلية ، في البلاد الكاثوليكية ، تلعب سياسة الفاتيكان ، بالعكس ، دوراً نشيطاً بطريق الأحزاب التي تنادي بالمبادىء الكاثوليكية بله المبادىء المسيحية . وهذا العمل الداخلي يمارس ، بصورة غير مباشرة ، تأثيراً واضحاً على السياسة الخارجية للبلاد الكاثوليكية .

وفي اوربه الغربية كلها ، جذب التطور نفسه الأحزاب الكاثوليكية . ففي كل مكان ، اتحدت في حزب واحد ، أحزاب الكاثوليكيين — المحافظين ، الديموقراطيين — المسيحيين ذوي النزعات الاجتماعية التقدمية ،

لتشكيل أحزاب اجتماعية - مسيحية تلعب ، في فرنسا وايطاليا والمانيا الغربية وبلجيكا والنمسا ، دوراً من المستوى الاول . ويبدو من الصعب القول بأن نفوذ الفاتيكان لم يكن له توجيه في هذا التطور ، لأن جميع الأحزاب المناصرة والمتحمسة الأسرة الأوربية كان البابا يظهر لها عطفه في مختلف المناسبات .

وقد يكون من الصعب أحياناً تمييز سياسة الفاتيكان ، بسبب مرونتها . فقد أيد الفاتيكان على لسانه الشبه رسمي « الرقيب الروماني » عودة الوحدة الألمانية . ولكنه امتنع عن تمثيل الكنيسة في المؤتمرات الدينية الكبرى التي كانت ظاهرات مسرحية لهذه الوحدة . وقد ظلت هـذه المؤتمرات ، بواقع الحال ، « انجيلية » فقط ، لأن « الوحدة الألمانية » التي مثلتها هذه المؤتمرات ، كانت بروتستانتية بخاصة ، وفقدت صفتها القومية .

وفي ايطاليا ، كانت سياسة الكرسي - الأقدس متموجة في القضية الملكية ولم يمنع الفاتيكان الديموقراطية المسيحية ، التي ساقها دون ستورزو[1] من أن تبدي رأيها ضد الملكيه ، وهذا ماسبب سقوطها . وكذا الحال في بلجيكا ، أثناء الأزمة السلالية . وبالرغم من أن الكاثوليكيين ، في أكثريتهم الواسعة ، قد أبدوا رأيهم لصالح الملك ، فقد تجنب الفاتيكان أي حركة يمكن أن تؤول بأنها صالحة للملك ليوبولد الثالث . وظاهراً ، يريد الفاتيكان أن يبقى خارج جميع الازمات السياسية ليتكيف مع كل حالة جديدة يمكن أن تحدث .

وعلى صعيد المصالح المذهبية وحده ، لاتتردد الكنيسة في الدخول في المنازعات السياسية . ففي فرنسا ، قام « الكهنة العمال » بتبشير نشيط في الوسط الشيوعي . ولكن عملهم استنكر بسبب الموقف المتطرف الذي

---

(١) دون ستورزو Don Sturzo .

وقفه بعضهم عندما ذهبوا حتى المشاركة في الحركات الثورية . وفي بلجيكا تزعم الاساقفة حركة الرأي الكاثوليكي الكبرى ضد القانون المدرسي الذي صوت عليه في ١٩٥٥ تحت رعاية حكومة اليسار التي يرأسها فان آكر، هذه الحركة التي أخذت في بعض الاحيان أشكالاً ثورية .

سياسة الفاتيكان لتبع الاتجاه « الديموقراطي » . — ولا شك في أن سياسة الفاتيكان ، كسائر السياسات القومية ، مسوقة بالاتجاه « الديموقراطي » العظيم الذي يفرض نفسه على العالم أجمع ، بأشكال مختلفة . فقد احتلت النقابات المسيحية وحركات الشباب ، في العمل الكاثوليكي ، مكاناً مسيطراً على الصعيد الاجتماعي . والكنيسة ، التي كانت قديماً مرتبطة المنافع بالروح المحافظة ، تتجه اليوم نحو « الديموقراطية » . والحركة الاجتماعية المسيحية ، كالحركة الاشتراكية ، لها صفة توجيهية تلاحظ جداً في الحركة الجمهورية الشعبية الفرنسية وفي النقابات الكاثوليكية أيضاً . ويبدو أن سياسة الفاتيكان تحاول ، مع اعتمادها على الجماهير ، استعادة الوضع الذي أفقدتها اياه الاشتراكية . وكانت سنة اليوبيل مميزة في هذا المعنى . فقد رأت روما تدفق مئات الالوف من الحجاج الذين توجه اليهم البابا مباشرة وعلى العموم بلغتهم الخاصة . وكان العالم ، الذي مزقته العقائديات ، ينتظر بجزع رسالة البابا . فهل أعطى المسيحيين توجيهات سياسية ؟ لاشيء من ذلك . وكما كان يفعل المسيح ، نأى البابا عن المنازعات السياسية والاجتماعية ، واستصرخ الحياة الباطنية . وكان المسيح يقوم برد فعل ضد القوى المادية في عصره بالتبشير بعودة كل انسان الى الاهتمام بالوجدان الشخصي . وكانت رسالة البابا بيوس الثاني عشر رسالة موجهة الى الجماهير . ولربطها عاطفياً بالايمان الكاثوليكي ، نادى بعقيدة « انتقال العذراء الى السماء » وقرر أن تكون سنة ١٩٥٤ « سنة مريمية »

أي مكرسة للسيدة مريم العذراء . ولما كان من غير الممكن الابتعاد عن اهتمامات العصر ، لذا جاءت عبادة العذراء ، بصفاتها ، وعذوبتها ، وصوفيتها ، تعارض كل العنف في عصرنا .

توطيد البابا للمبادىء المسيحية . - ومع ذلك ، فان البابا لايريد أن يقصر عمله على الصعيد الصوفي . ففي رسالة عيد الميلاد ١٩٥٥ ، لم يتردد في مواجهة جميع قضايا العصر الحـــارة ليتصورهـا تحت الزاوية « المسيحية » باهتمام عظيم وموضوعية . وهذه الرسالة لاتتوجه الى « الكاثوليك » فحسب ، وهذا هو المهم ، بل الى « المسيحيين » الذين يحرص البابا على تشجيع عملهم المشترك .

ومن الناحية المذهبية ، يشجب البابا مرة جديدة ، في رسالته ، الشيوعية باعتبارها مذهباً اجتماعياً ، وذلك باعتماده من جهة على المذهب المسيحي ، ومن جهة أخرى ، على الحق الطبيعي . ويقول : « اننا ندفع الرأي الذي يتوجب فيه على المسيحيين أن ينظروا اليوم الى الشيوعية كحادث أو مرحلة في سياق التاريخ ، كـ « فترة » ضرورية لتطور هذا التاريخ ، وبالتالي قبولها تقريباً كقرار من الحكمة الإلـٰهية » .

ولمواجهة توسع الشيوعية ، تفضل الرسالة « عملاً مسيحياً » يرمي الى توطيد الحرية على نظام معنوي أخلاقي . وفي هذا الموضوع ، يقوم من جانب الكنيسة على التشكيكات في الأهداف المزعومـة لدول الأرض . « اذا اتحد المسيحيون في مختلف التنظيمات ، فلن يكون لهم أهـداف أخرى غير خدمة الله في مشيئته لخير العالم » . ولكن ، كما يضع البابا نفسه فوق الصعيد الكاثوليكي ، على الصعيد المسيحي ، كذلك لايريد أن ينزوي المسيحيون « في دائرة مغلقة كما لو كانوا يريدون الانفصال عن العالم » ،

وينصحهم ، بالعكس ، ان يبقوا منفتحين على كل مشروع سليم وعلى كل تقدم حقيقي .

واذا وضع البابا نفسه هكذا على صعيد سام ومتسامح بخاصة ، وجعل نفسه باختصار مرشداً معنوياً للشعوب الغربية ، فقد جابه القضايا الكبرى : نزع السلاح ، الاستعمار ، القومية .

وتصور البابا الاقتراحات الحديثة التي تهدف الى التجارب التي اجريت بالأسلحة النووية واستخدام هذه الاسلحة والرقابة على هذه الأسلحة ، واتخذ موقفاً صريحاً جداً . وفي ذلك يقول : « اننا لانتردد في التأكيد على ان اتفاق هذه التدابير الثلاثة ، التي هي هدف وفاق دولي ، انما هو واجب ضمير الشعوب وحكوماتها . وقد قلنا : اتفاق هذه التدابير لأن الهدف من التزامه المعنوي هو ايضاً توطيد أمن واحد لجميع الشعوب . فاذا مانفذت النقطة الاولى فحسب ، انتهى الأمر الى حالة لاتحقق هذا الشرط ، لاسيا وان لدينا جميع الأسباب التي تجعلنا نشك في انه يراد الوصول فعلاً الى ابرام الاتفاقين الآخرين . اننا نتكلم علانية ، لأن خطر اقتراحات غير كافية في قضية السلام يتعلق في جزء كبير منه بالشك المتبادل الذي يعكس علاقات الدول المعنية التي يتهم بعضها بعضاً ، ولو بدرجات متفاوتة باسلوب محض ، بل وعدم اخلاص في قضية أساسية بالنسبة الى مصير الجنس البشري بكامله . »

ان الجهود الرامية الى تأمين السلام يجب ان تنزع ايضاً الى ازالة الخلافات بين الشعوب . وان اعظم اخطار الحرب يكمن في الشقاق الموجود بين الشعوب الاوربية وشعوب القارات الأخرى المتطلعة الى تحقيق استقلالها . وهذا يذهب بالبابا الى تصور قضايا الاستعمار والقومية ، بشكل موضوعي والوان متفرقة جداً . وترى الرسالة ان تضخيم هذه

المنازعات لن يكون من شأنه الا افادة الأخرى أي « الشيوعية » التي لايريدها أي من الفريقين او لايمكن ان يريدها . »

وبغية اجتناب استمرار هـذه المنازعات ، يكون الشرط الأول « في الا تتكر على هذه الشعوب حرية سياسية عـــادلة وتقدمية . » « وستعترف هذه الشعوب لأوربه بالفضل في تقدمها ، فلولا تأثيرها لانجرفت هذه الشعوب بقومية عمياء الى هوة العبودية . »

« ومن جهة أخرى ، ان شعوب الغرب ، وبخاصة اوربه ، يجب الا تبقى سلبية في اسف على الماضي دون جدوى ، أو في لوم متبادل للاستعمار ، بل يجب ان تباشر العمل بشكل بناء لتدخل ، حيث لم يعمل ، القيم الحقيقية لأوربة والغرب اللذين حملا الكثير من الثمار الى القارات الأخرى. وكلما اتجها نحو تحقيق هذه الاهداف ، ساعدا على تحقيق الحريات العادلة للشعوب الناشئة التي تصبح مصانة من جـــذب القومية الزائفة . وهذه الأخيرة هي في الواقع عدوها الحقيقي الذي يقيمها ضد بعضها لصالح طرف آخر . وهذا التنبؤ ، الذي لايخلو من أساس ، يجب الا يهمله او ينساه الذين يعالجون قضاياهم في مؤتمرات ، حيث تلمع للأسف وحدة خارجية في معظمها سلبية » . ويفهم من ذلك ان البابا يلمح تلميحاً واضحاً الى مؤتمر باندونغ .

وأخيراً تتعرض الرسالة الى قضية من نوع اخـلاقي اجتماعي سام ، وهي قضية الايمان بالقيمة الحضارية الشبه الخـاصة بالتقنية : « ان من يتهمون بحق ، في هذا العصر الصناعي ، الشيوعية في انها حرمت الشعوب التي تسيطر عليها من حريتها ، يجب الا يغفلوا عن تسجيل ان الحرية ، في الجهة الأخرى من العالم ، انما هي حيازة مشكوك بها حقاً ، اذا لم ينبع أمن الانسان من بنيات تتفق وطبيعته الحقيقية . » وتشجب الرسالة

« الاعتقاد الباطل الذي يبني سلام الانسان على المسار النامي للانتاج » . وهذه هي الفكرة التي عبر عنها دابليه باختصار حين قال : « العلم بلا وجدان ليس الا دماراً للنفس » وتضيف: «ان هذا الاعتقاد الباطل غير قادر على اقامة حصن حصين ضد الشيوعية ، لأنه مقسم بين الشيوعيين والعديدين من غير الشيوعيين على حد سواء » .

ولامشاحة في ان رسالة البابا تؤلف وثيقة من أحكم وثائق السياسة بعد الحرب العالمية الثانية . ولذا نشرت مراراً ، في جزء منها على الأقل ، في صحف العالم بكاملها ، ويدخل في ذلك صحافة البلاد الشيوعية .

غير ان رسالة البابا دون جواب نقطة من اخطر نقاط الحالة الحاضرة . فلا شك في انها تمتدح الوسائل التي يسود فيها السلام ، ولكن الا يمكن ان يبقى هذا السلام ضعيفاً اذا لم يتوصل الى اقامة تعايش سلمي بين الشعوب الشيوعية وغير الشوعية ؟ ! يبدو ان البابا لايقبل هذا التعايش . فقد تابع شجبه لـ « اخلاق الانتاج » وعبر هكذا : « في هذا الايمان الخاطىء يلتقي الطرفان بتوطيد وفاق ضمني يمكن ان يغري الواقعيين الظاهرين في الغرب لقبول « حلم تعايش حقيقي ممكن . »

ويفهم من هذا ان البابالايمكن ان يقبل بالتعايش «الحقيقي» للشعوب المسيحية مع نظام يجحد نظامه الايمان بالله . وخارجاً عن هذا التعايش « الحقيقي » يتصور البابا مع ذلك وبشكل ضمني تعايشاً سلمياً ، لأنه يحض الحكومات على تأمين سلام وأمن جميع شعوب العالم .

حبرية يوحنا الثالث والعشرين . — عندما توفي البابا بيوس الثاني عشر ، في تشرين الأول ١٩٥٨ ، اعتلى العرش البابوي مجدد عظيم في

شخص انجيلوجيوسيب[1] ، الكردينال رونكالي وأخذ اسم يوحنا الثالث والعشرين . وبسرعة كسر البابا يوحنا التقليد السائـــد وزاد في عدد الكرادلة حتى بلغ عددهم نحو ١٣٠ كردينالاً في ١٩٧٠ . وبهذا العمل يكون قد اكمل اتجاها ظهر في حبرية بيوس الثاني عشر ، الذي انشأ ، لأول مرة منذ القرن الرابع عشر ، مناصب جديدة في مجمع الكرادلة بحيث يشكل الكرادلة غير الايطاليين اكثرية . وقد رجح البابا يوحنا الثالث والعشرون الكفة لصالح غير الايطاليين بتسمية كرادلة محدثين في افريقية وفي الشرق

وكانت حبرية يوحنـا الثالث والعشرين قصيرة ، ٤ سنوات ونصف ونيف ، ولكنها مليئة بجلائل الأعمال . فقـد نادى بالسلام ونزع السلاح من العالم . واكثر من ذلك أهمية انه اعلن ، في كانون الثاني ١٩٥٩ ، بأنه يأمل ان يدعو المجمع المسكوني الاول للكنيسة . ومن تشرين الأول حتى كانون الأول ١٩٦٢ ترأس يوحنا الثالث والعشرون مجمع الكنيسة ، وقـــد حضره اكثر من ٢٥٠٠ شخصية كنسية هامة . ولكن اكبر تغيير في الجمهور ، منذ القرن السابع ، جاء خارجاً عن المجمع لا منه .

حبرية بولس السادس . - وفي ١٩٦٣ توفي البابا يوحنا الثالث والعشرون ، وكان موضع احترام واعجاب غير الكاثوليكيين والكاثوليكيين . وخلفه جيوفاني باتيستا واعتلى العرش البابوي باسم بولس السادس . واهم مايميز حبريته تلك الرحلة التي قام بها الى القدس في كانون الثاني ١٩٦٤ . وهو أول بابا يغادر ايطاليا منذ سنة ١٨١٤ . وقد غادرها مراراً لزيارة الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وبلاد العالم الأخرى .

ومن بين الاعمـال التي قام بها بولس السادس ، تلك التدابير التقدمية

---

(١) انجيلو جيوسيب Angelo Giuseppe .

وهي : محاولة ضم الكنيسة الرومانية والكنيسة الارثوذكسية الاغريقية معاً ، وتوكيد مبدأ الحريه الدينية للجميع ، وعدة خطوات تنزع الى ديموقراطية الكنيسة . غير أن هنالك موقفاً حافظ عليه البابا ، في ١٩٦٠ ، وأحدث انقلاباً مفاجئاً في داخل الكنيسة ونقداً في خارجها ، وهو توكيد موقف الكنيسة ضد تحديد النسل الاصطناعي ، وفي اصراره على العزب الكنسي والحفاظ على الفلسفة اللاهوتية . وقد أوضح بعضهم أن على البابوية المجددة أن تجدد ، بل وبسرعة أكثر ، موقفها من تحديد النسل اذا كانت تريد أن تجعل الكنيسة وثيقة الصلة بقضايا عام ١٩٦٠ و ١٩٧٠ .

أما موقف البابا من قضية فلسطين فيبدو أنه ودي اجمالاً . وبعد أن كانت الشكوك تحوم حول موقف الفاتيكان من القدس على اعتبار انه يقبل بان تبقى القدس في ايدي الاسرائيليين مع منح المسلمين والمسيحيين بعض الامتيازات . ولكن الاخبار الاخيرة اظهرت ميلاً خاصاً لتأييد وجهة نظر العرب في وجوب اعادة القدس الى اهلها العرب في أية محاولة سلمية في المنطقة ، وان على اسرائيل بالتالي التخلي عن مزاعمها الدينية والتاريخية حيال المدينة المقدسة . هذا ما تدل عليه أنباء الزيارة التي قام بها ممثل البابا الشخصي وكبير فقهاء الكنيسة الكاثوليكية ومدبري أمورها ، الكاردينال بيغنادولي للاجتماع بالملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية ، في ٢٣ نيسان ١٩٧٤ .

والذي يبدو من كل هذا أن روح التفاهم سائدة بين البابا والعرب في قضية فلسطين بعامة وقضية القدس بخاصة ، ومثل هذا الاتفاق لا بد وأن يترك آثاره على مستقبل القدس والعالم . وبهذه المناسبة وجه الفاتيكان دعوة مماثلة للملك فيصل يتبعها اقامة علاقات دبلوماسية دائمة بين الجانبين .

الدول المجاورة للكتلة الاشتراكية

فنلندا

على طرفي الشريط الطويل الذي يؤلف الدول الشيوعية الممتدة عبر أوربه الوسطى من الشمال الى الجنوب ، توجد أمم خضعت لأقسى الضغوط السوفياتية ولكنها لم تستسلم . ففي أقصى الشمال جُرّتْ فنلندا في الحرب الى جانب المحور بسبب عدائها للاتحاد السوفياتي ، ثم تنازلت عن أراضي لروسيا في آخر الحرب . ونجم عن ذلك ان ما يقارب ٥٠٠٠٠٠ فنلندي ممن كانوا يعيشون في الاراضي المفقودة ، فضلوا النزوح الى فنلندا المصغرة على أن يعيشوا تحت الحكم السوفياتي . ومنذ تاريخ تسوية السلام في اوائل ١٩٤٧ ، كانت الحاجة في الحفاظ على علاقات حيادية ، غير محترمة الآن ، مع الاتحاد السوفياتي ، تسيطر على السياسة الخارجية الفنلندية .

وفي الداخل ، بذلت هلسنكي قصارى جهدها لبلوغ مستوى حياة عال ، من جهة لتحد من عدد غير المستخدمين الناقمين الذين يمكن أن تغريهم حجج الشيوعيين الوطنيين . وظلت الحكومة الفنلندية يقظة باستمرار لتجنب عن بلادها ضربة تشبه الضربة التي اجتاحت غير الشيوعيين خارج الحكومة في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٨ .

لقد كان مركز القوة ، في فنلندا ، في الاتحادات . غير أن هذه العناصر كان تعدل كفتها القوى المسلحة المناوئة للشيوعية والموالية للجمهورية . ومع ذلك ، فقد اسهم الشيوعيون قليلاً في الحكومة الفنلندية على مستوى الوزارة حتى ١٩٤٨ . وفي انتخابات هذه السنة ، حقق المعتدلون كسباً كبيراً على حساب الحمر . وكان عدد الممثلين الشيوعيين ، في المجلس

التشريعي ، ادوسكولنتا[١]، ٣٨ على ٢٠٠ . وبعد ذلك ، وحتى ١٩٦٦ ، كانت الحكومات الائتلافية تضم بانتظام الديموقراطيين الاجتماعيين وأصحاب الأطيان (كبار المالكين) .

ووجدت فنلندا ، في علاقاتها الدبلوماسية ، ان من الضروري ان تبرهن للاتحاد السوفياتي بانها تستطيع ان تكون جزءاً من المنطقة الفاصلة (الحاجزة) بين الاتحاد السوفياتي والدول الغربية دون أن تصبح له بلداً تابعاً . وبالتالي أبرمت معه معاهدة يتشاور بموجبها الفنلنديون مباشرة مع الاتحاد السوفياتي في حال تهديد المانيا الغربية أو أي دولة غربية أخرى ، بغزو الاتحاد السوفياتي ووجدت مناسبات ، بعد الحرب العالمية الثانية ، كان ضغط الكرملن فيها يجبر الحكومات الفنلندية على الاستقالة أو الخضوع . ومع ذلك فان السيطرة الكاملة السوفياتية على فنلندا لم تقع كما جرى في الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفياتي . وظلت فنلندا تقاوم بعناد ضغط السوفياتيين عليها. هذا فضلاً عن أن السوفياتيين لم يتورعوا من انذار السويد عندما ارادت أن تبحث عن حلف مع الدول الغربية . ومع الزمن حلت الصعوبات الدورية في العلاقات السوفياتية ـ الفنلندية بضمان امتيازات الاقلية الفنلندية الصغيرة . وعندئذ سمحت السلطات الفنلندية لـ « الاتحاد العالمي للشبيبة الديموقراطية » السوفياتي بالاجتماع في بلدها في ١٩٦٢ .

وبعد انتخابات ١٩٦٦ ، أصبح الحزب الديموقراطي الاجتماعي المعتدل اكبر حزب في البلاد ، ويليه ، في الدرجة الثانية ، حزب الوسط ، واكثر أعضائه من أصحاب الأطيان . وتشكلت تباعاً حكومة جديدة برئاسة زعيمي الحزب الديموقراطي : رافائيل باسيّو[٢] و ماونو كوافيستو[٣]

---

(١) ادوسكونتا Eduskunta

(٢) رافائيل باسيو Rafael Paasio

(٣) ماونوكوافيستو Mauno Koivisto

وضمت وزاراتها وزيرين أو ثلاثة وزراء شيوعيين انعكاساً لما يراه الفنلنديون انفراجاً تامياً بين روسيا والغرب . ويعتقد الفنلنديون ظاهراً أن الخطوط العقائدية قد تشوهت بصورة كافية في أوربة ، حتى انها سمحت للشيوعيين بالدخول في الحكومة دون الخوف من ضربة شيوعية تالية . ثم حل محل كوافيستو على رأس الحكم الدكتور آهتي كارجالينن بعد الانتخابات البرلمانية في ١٩٧٠ .

وفي الشؤون الاقتصادية ، نجد الروابط الفنلندية قوية مع الاتحاد السوفياتي . ان ٧٠٪ من الاراضي الفنلندية محرجة . وبالتالي فان الصادرات الاولى لفنلندا هي : الواح الخشب ، معجون الخشب ، الورق ، مقابل الاسمدة والحبوب والزيت . ويتجه حجم التجارة الفنلندية شطر الاتحاد السوفياتي . وظل هذا الوضع على حاله حتى بعد أن أنهى الفنلنديون دفع تعويضات الحرب العالمية الثانية الى الاتحاد السوفياتي . ومن المفهوم عموماً بين الأمم أن الحكومة الفنلندية ، كشعبها ، كانت تود ان تقيم صلات تجارية أكبر وأوثق مع البلاد الغربية وربما البحث عن عضوية في السوق المشتركة . غير أن شرط الاتحاد السوفياتي على استقلال فنلندا هو عدم انماء تجاري واسع ووثيق بين فنلندا والغرب .

المجلس الشمالي

لقد عادت البلاد الاسكاندينافية ، بعد الحرب كسائر البلاد الغربية ، الى نظمها وتقاليدها التي كانت لها قبل الحرب . وبالرغم من الاتجاه المختلف لسياساتها ، فان السويد ، التي تطبق سياسة الحياد ، وفنلندا المرتبطة بالاتحاد السوفياتي بميثاق العون المتبادل ، والنورفيج والدانيمارك وايسلندا

---

(١) آهتي كارجالينن Dr Ahti Karjalainen

الاعضاء في ميثاق الاطلسي ما فتئت تنمي حركة التضامن الاسكنديناڤي التي انتهت ، في ١٩٤٨ ، الى توطيد تعاون ثقافي واقتصادي فيما بينها وفي كانون الثاني ١٩٥١ ، تألفت « لجنة برلمانية شمالية » لتقيم بين السويد والنورفيج والدانيمارك وفنلندا اكبر حرية مواصلات بحذف الجوازات وادخال التسهيلات الجركية . وفي شباط ١٩٥٢ ، تحولت هذه اللجنة الى مجلس شمالي . ولكن فنلندا امتنعت عن المشاركة في هذا المجلس ، خوفاً من الاساءة الى الاتحاد السوفياتي . وبالمقابل ، اشتركت ايسلندا به . وتقتصر مهمة المجلس الشمالي على دراسة جميع اشكال التعاون التي يمكن اقامتها بين البلاد الأربعة في النطاق الاداري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي .

وفي الواقع ، ان اشتراك السويد في الميثاق الشمالي الذي يربطها بالبلاد الاسكانديناڤية الثلاثة الاعضاء في حلف الاطلسي ، قربها بصورة غير مباشرة من البلاد الغربية . ولذلك اثارت في الاتحاد السوفياتي وفي جميع البلاد الشيوعية انتقادات شديدة .

ولمنع فنلندا من التوجه شطر حلف الاطلسي ، اعاد الاتحاد السوفياتي لها في ١٩٥٥ ، ميناء بوركالا ، الذي ضمه بعد الحرب الروسية ـ الفنلندية . وبالرغم من ذلك ، اشتركت فنلندا ، في تشرين الأول ١٩٥٥ ، في المجلس الشمالي .

اليونان

الى الطرف الجنوبي من شريط الأمم الشيوعية الممتدة عبر أوربه ، تقع اليونان وتركيا .

في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، كان النفوذ البريطاني

---

(١) بوركالا Porkala ميناء بالقرب من العاصمة هلسنكي .

واسعاً في اليونان . وقد أصر ونستون تشرشل على أن اليونان ليست خاضعة للسيطرة السوفياتية . وعندما عادت القوات البريطانية الى آثينة في بداية ١٩٤٤ ، عاد رئيس الحكومة اليونانية السابق ، جورج باباندريو معها ووعد بتشكيل حكومة تمثيلية . وعندما انسحب النازيون من اليونان ، قام الشيوعيون ضد العودة الى نظام الحكم الملكي . وتدخلت الجيوش البريطانية وقضت على القوى المتمردة . ثم وعدت الحكومة اليونانية بالعفو عن الجرائم السياسية وتعهدت بالحفاظ على الحريات المدنية واحترام الشيوعيين .

واراد كثير من الشيوعيين الا يشاركوا في حكومة تريد التعاون مع الملكيين . وفر كثير من الحمر الى يوغوسلافيا ، أو لجأ في الجبال . وبدأت حكومات يوغوسلافيا وبلغاريا والبانيا تساعد اخوتها الشيوعيين وفي خريف ١٩٤٦ مزقت الحرب الأهلية القرى اليونانية . وكان اشتراك الدول الشيوعيه المجاورة لليونان واضحاً في هذا النزاع المدني ، حتى ان لجنة من الأمم المتحدة ادانت هذه الدول بتحريض حرب العصابات في شبه جزيرة اليونان .

وفي ١٩٤٧ ، طلبت الحكومة اليونانية العون من الولايات المتحدة ، بعد أن صرح البريطانيون أنهم غير قادرين على الحد من هجوم الشيوعيين في البلقان . وأدى مذهب الرئيس ترومان ، الذي أوحت به طلبات العون من اليونان ، الى ارسال مساعدة عسكرية واقتصادية من الولايات المتحدة . كما أن هذا العون من الولايات المتحدة ، مع ارتداد تيتو عن موسكو ، ادى الى انهاء العون اليوغوسلافي الى اليونانيين الحمر ، ومكن الحكومة اليونانية من كسر الثورة الشيوعية . وفي ١٩٤٩ ، انتهت الثورة

(١) جورج باباندريو George Papandreou

واكتظت السجون بأسرى الثوار . وفي تشرين الثاني ١٩٤٩ ، عادت الجيوش البريطانية الى بلادها .

وهكذا ، نرى أن ثلاث سنوات من النزاع الأهلي المرير المقيت مع ما يضاف اليه من دمار احدثه انسحاب النازيين في نهاية الحرب ، قد خربت البلاد وعاثت فيها الفساد . وبدأ الاعمار مباشرة وبصورة واسعة بمساعدة الاميركيين . ولم تكن المهمة سهلة . فقد كان عدم الاستقرار السياسي سائداً والحكومات تسقط وتتشكل باستمرار . وحالت المنافسات الحزبية الشديدة دون التماسك القومي والاستقرار .

وفي ١٩٤٦ ، اعيدت السلالة الملكية ، التي كانت تحكم قبل الحرب ، الى الحكم باستفتاء شعبي . وفي ١٩٤٧ ، توفي الملك جورج الثاني وخلفه اخوه بول . وفي ١٩٥١ مضى على الدستور اليوناني اربعون سنة ، ووجد من الضروري تعديله بشكل يسمح لاشتراك واسع في الحكم من بين طبقة الفلاحين . ويحرم الدستور الجديد على الموظفين المدنيين ان يكونوا شيوعيين . وفي ١٩٥٢ ، منحت المرأة حق التصويت .

وتشكلت أول حكومة بعد الحرب في ١٩٥٢ برئاسة الفيلد مارشل الكسندر باباغوس (١) ، وكان قائداً للقوات اليونانية التي قاومت الغزو الايطالي عام ١٩٤٠ ، والشيوعيين في ١٩٤٩ - ١٩٥١ ، وخلفه القوي قسطنطين ج . كارامانليس (٢) ، وحققت اليونان تقدماً اقتصادياً خلال احد عشر عاماً . ومنذ منتصف ١٩٥٠ تحسنت الشروط الاقتصادية بصورة ملحوظة ، وتحسنت الحالة في الزراعة والصناعة . وأصبحت اليونان بصورة استثنائية نشيطة في صناعة السفن وتجهيزها ، وأتمت شبكة مواصلات من سفن

(١) باباغوس Papagos

(٢) كارامانليس G . Karamanlis

الشحن تمخر عباب البحار الى جميع جهات العالم . واستغل اليونانيون تراثهم الكلاسيكي وجمال بحر ايجة لتنمية السياحة .

وقد توافر عنصران هامان بخاصة في الحفاظ على قوة الاقتصاد اليوناني ، وهما : المساعدة الخارجية الامريكية ، وهجرة الفائض من العمال الى البلاد الشمالية الصناعية في اوربه . وتتابعت المساعدة من الولايات المتحدة الامريكية الى اليونان . فمن ١٩٤٥ الى ١٩٦٢ بلغ العون الامريكي ما يزيد على ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار وجهت لبناء محطات للطاقة الكهربائية ، ومشاريع استصلاح الاراضي ، والمعامل لانتاج السلع الاستهلاكية .

وبالرغم من التنمية الاقتصادية ، فقد كانت البطالة مستحكمة . ووضع برنامج واسع ، في ١٩٥٩ ، لتشغيل الفائض من العمال . ولحسن حظ اليونان ، في ذلك الحين ، أن فرنسا والمانيا الغربية كانتا تشكوان نقص اليد العاملة ، ولذا كان العمال من اسبانيا وايطاليا واليونان يذهبون الى غربي اوربه وشمالها ويشتغلون في معامل فرنسا وجرمانيا ، وعند عودتهم الى بلادهم يأتون بما وفروه من اجورهم ، وفي الغالب كانوا يستثمرون هذه الأموال المدخرة في الأعمال الصغيرة .

وبالرغم من التقدم المادي ، كانت الحكومات على العموم تشغل نفسها برسوم غير عادلة وبالابقاء على مكتبيين (بوروقراطيين) يقبضون رواتبهم دون عمل مفيد . وفي ١٩٦١ ، اتهمت حكومة كارامانليس بتزوير الانتخابات واتباعها طرق دكتاتورية ، رغم ان كارامانليس لم يضع حداً للتجمعات السياسية المعارضة أو الملاحظات أو التعليقات العامة على السياسة . ومن المحتمل ، في ١٩٦٣ ، ان يكون الرئيس كارامانليس استقال محتجاً عندما رفض الملك ان يصغي لنصحه بأن من غير المناسب زيارة لندن

لئلا يكون محرجاً من قبل الشيوعيين . على ان هذه الظاهرة لم تحصل في في الواقع . وتلا ذلك انتخابات وطنية لم تسفر عن اكثرية واضحة لحزب واحد . ولذا كان من المستحيل تشكيل وزارة قوية . ثم جرت انتخابات أخرى ، في ١٩٦٤ ، فأعطت اكثرية الى حزب اتحاد الوسط الذي يتزعمه الشيخ باباندريو . وتجدد الاستقرار الوزاري بسرعة برئاسة باباندريو ، واستمر الخط الوراثي في الملكية . وعندما توفي الملك بول ، في ١٩٦٤ ، خلفه ابنه قسطنطين الثاني وله من العمر ٢٣ سنة .

وفي بداية ١٩٦٥ ، عادت الانقسامات السياسية مرة أخرى . وسادت الأجواء اليونانية ضجة مفادها أن الشيوعيين يدبرون انقلاباً . ومن المحتمل ان تكون فئة من ضباط الجيش قد روجت لهذه الاخبار بتهديد الشيوعيين للدولة . وفي ٢١ نيسان ١٩٦٧ ، قامت فئة (خونتا) من ضباط الجيش بزعامة جورج بابادوبولس ، وادعت ان البلاد مقدمة على خطر محتم الوقوع من ثوره حمراء ، واستولت على زمام الأمور في البلاد ، وكمت افواه المعارضة باقامة دكتاتورية عسكريه قوية . وفي غضون ذلك أخذ الملك قسطنطين يدبر القيام بحركة ضد الحكم العسكري ، بينما قبلت الخونتا المصالحة مع تركيا بشأن اليونانيين والاتراك في قبرص .

وفي ١٤ كانون الأول ١٩٦٧ ، هرب الملك قسطنطين الى ايطاليا بعد ان اخفقت محاولة الاطاحة بالحكم العسكري .

وفي ١٩٦٨ ، ظهر جورج بابادوبولوس اقوى رجل في الخونتا ، وأخذ لقب رئيس الوزراء . وتبني دستور جديد باستفتاء جرى في ٢٩ ايلول ١٩٦٨ ، وجرد الملك من جميع سلطاته .

---

(١) جورج بابادوبولس George Papadopoulos

وفي تشرين الثاني ١٩٦٩ ، انهت اللجنة الاوربية لحقوق الانسان في مجلس اوربه ، بعد دراسة عامين ، الى ان النظام العسكري « بما لا يقبل الشك » يعذب السجناء السياسيين ، وينكر على المواطنين حقوقهم المدنية ، وانها لم تجد أي دليل على خطة وضعت في ١٩٦٧ لسيطرة شيوعية ، كما ادعى الزعماء العسكريون عندما استولوا على السلطة . وفي نيسان ١٩٧٠ ، ندد المجلس الاوربي باليونان على معاملتها لمواطنيها .

ومنعت الانتخابات في ١٩٧٠ ايضاً ، الا ان بعض مظاهر القمع قد خففت . واعلنت الولايات المتحدة العودة الى المساعدة العسكرية التي قطعت بعد انقلاب ١٩٦٧ . وقدمت الولايات المتحدة اسلحة بما يعادل ١٤٣ مليون دولار في ١٩٦٨ - ١٩٧٠ . ووعدت بـ ٥٦ مليون في سنتين نظراً لقيمة اليونان الستراتيجية بالنسبة الى الجناح الجنوبي لحلف الاطلسي . ولاحظت الولايات المتحدة ميلاً نحو النظام الدستوري وأملت بعودة سريعة للديموقراطية ، ولكن النظام استمر في قمعه . ومع ذلك ظلت الولايات المتحدة مستمرة في مساعدتها . وفي ١٩٧٣ ، بعد حركة فاشلة في الاسطول ، عزاها بابا دوبولوس الى الملك قسطنطين ، الغيت « الديموقراطية المتوجة » لعام ١٩٦٨ ، واعلنت البلاد « جمهورية برلمانية رئاسية » . وهذه هي الجمهورية الثالثة في تاريخ اليونان وأخذ بابا دوبولوس لقب « الرئيس » بعد ان كان رئيساً للوزراء ، ووعد بانتخابات برلمانية قبل نهاية عام ١٩٧٤ . وجرى استفتاء في شروط دولة بوليسية ووافق على حركته . وصدر اول مرسوم له في رئاسته ، في آب ١٩٧٣ ، وفيه قرر انهاء الحكم العرفي والعفو عن جميع السجناء السياسيين .

وعلى اثر حركة قام بها الطلاب ، في ٢ كانون الأول ١٩٧٣ ، اعلنت الأحكام العرفية ، واوقف بابا دوبولوس في داره . ولكن الاطاحة بهذا

الرئيس لا تعني ان البلاد سارت في طريق العودة الى الحكم الديموقراطي . ففي الخطاب الذي القـــاه رئيس الوزراء الجديد آداماندوس اندرو تسوبولوس ، اعلن بان الجونتـا ستحكم البلاد ، دون قيد ، براسيم اشتراعية ، ولا تريد ان تجزي الانتخابات الوطنية التي اعلن عنها الرئيس بابا دوبولوس وارادها ان تكون قبل نهاية العام ١٩٧٤ ، وصرح بقوله : « سنذهب برسالتنا حتى ختامها ، دون انقطاع أو توقيت أو مفاجآت . »

وما تزال هذه الحركة الانقلابية الاخيرة، التي قامت بها الجونتا العسكرية ، سراً . لأن الرئيس الجديد الذي رفعته الجونتـا ضابط غير معروف في الجيش ، وهو العقيد فيدون جيزيكيس ، وقد رقي الى رتبة جنرال كاملاً بعد الضربة الانقلابية بثلاثة أيام . ويبـدو انه لم يكن بالشخصية القوية . وفي الواقع لم يذهب خارجـاً عن الطريق المرسوم . فقد اعلن عنـد حلفه اليمين على منصب رئيس الدولة ، بقـوله « ليس لي مطمح شخصي » . وعلى ما يبدو ان عضو الجونتـا القوي ، والرأس المحرك للضربة هو العميد ديمتريوس ايوانيديس ، رئيس الشرطة العسكرية .

وفي السياسة الخـارجية ، اعلنت اليونان عن مشاركتها في الاسرة الغربية باشتراكها في عضوية حلف الاطلسي في عام ١٩٥١ ، ثم اشتركت في الحرب الكورية وقدمت قواعـد للحلف الاطلسي . وفي ١٩٦٢ ، ضمنت المشاركة في عضوية السوق المشتركة . وشهد عقد الـ ١٩٦٠ استمرار النزاع بين تركيا وبريطانيا العظمى في قضية جزيرة قبرص المستعمرة البريطانية السابقة.

---

(١) آداماندبوس اندرو تسوبولوس Adamandios Androutsopoulos

(٢) فيدون جيزيكيس Phaedon Gizikis

(٣) ديمتريوس ايوانيديس Dimitrios Ioannidis

ظلت تركيا تلازم جانب الحياد الدقيق حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً . وكان هذا الموقف منها نتيجة تجربة تاريخية تدل على ان الدولة ، التي تشرف على منافذ في البحر المتوسط ، تجد نفسها باستمرار في خصام مع سياسات الدول الاوربية . وبالتالي ، فكر الاتراك ان من صالح بلادهم ان يكونوا متحررين وبعيدين عن الاشتباكات الاوربية باتباع سياسة الحياد .

وفي الحرب ، كانت تركيا موضع ضغوط جرمانيا وروسيا . وكانت جرمانيا ترغب في ان تكون تركيا مسلكاً الى الدول العربية . وكانت روسيا تبحث عن هذه المنطقة نفسها اثناء الحرب ، لأنها رأت ان المضائق التركية ، اذا لم تكن تحت سيطرة روسيا ، بعد الحرب ، فيجب أن تكون ، على الاقل ، تحت سيطرة نظام يشرف عليه السوفياتيون . ومع ذلك ، حاول الاتراك ان يقاوموا هذه المؤثرات حتى ١٩٤٥ .

وفي اوائل ١٩٤٥ ، اعلنت تركيا اخيراً الحرب على جرمانيا ، مقابل قبول عضويتها في الامم المتحدة . وعندما تهدمت جيوش هتلر واستلم الرايخ ، بقي الاتحاد السوفياتي يهدد تركيا بوضوح . ولما اصبح انهزام جرمانيا حقيقة ، شهر الاتحاد السوفياتي بميثاق عدم العدوان الرومي - التركي الذي يرجع تاريخه الى ١٩٢٥ ، مدعياً بأن الوقت قد حان لاعادة النظر به . وفي نهاية الحرب ، وضحت نوايا روسيا حيال تركيا . فقد اراد السوفياتيون الا يكون لهم يد في الاشراف على المضايق فحسب ، بل ايضاً تجريد ارض من السلاح في شمال تركيا ، في القوقاز . وقاوم الاتراك هذا الضغط ، واتجهوا نحو الغرب طلباً المساعدة . وبالتالي ادخلتهم

المساعدة من الغرب ، اولاً ، في نطاق مذهب تورمان ، وثانياً في الحلف الأطلسي .

بعد وفاة مصطفى كمال اتاتورك ، في ١٩٣٨ ، ولي الرئاسة الجنرال عصمت اينونو ، ولكن الفترة الطويلة ، التي تولى فيها حزب الشعب الحكم ، فسحت مجالاً لنقد فساد الحكومة وعدم كفاءتها . وساءت الحالة الاقتصادية بسبب الحرب . وتلا ذلك تضخم نقدي كبير عجزت الحكومة عن ايقافه او عرقلته . وكانت هذه الحالة المضطربة سبباً في نمو معارضة سياسية قوية . وفي ١٩٤٦ ، اخفق الحزب الديموقراطي التركي وبدأ يدفع الى تليين اشراف الدولة على الاقتصاد .

وفي ١٩٥٠ ، سيطر الديموقراطيون في المجلس الوطني الكبير ، وأصبح عدنان مندريس المحامي رئيساً لمجلس الوزراء . وهذه هي المرة الاولى ، في تاريخ تركيا ، التي تبدل فيها الحكومة يديها بسبب انتخابات حرة حقيقية . وقد رحب بهذه الخطوة في الغرب كحركة نحو تغريب نهائي للنظم التركية .

وتوكيداً لهذا الاتجاه الذي سلكه الاتراك ، اطلقت الولايات المتحدة برنامج مساعدة لتركيا . وخلال عقد ، بعد ١٩٤٧ ، تدفق ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار على تركيا من واشنطن . وخصصت ثلاثة أرباع هذا المبلغ للاستعمال الحربي . وبهذا الدعم والقروض الخارجية أصبح باستطاعة حكومة مندريس ان تنشط نمو الاقتصاد الداخلي في قطاعي الصناعة والزراعة . وشرعت الحكومة الجديدة التسامح الديني . وبعد ان كان الدور الكمالي يناوىء الدين ، سمح بتأسيس المدارس الاسلامية في ١٩٥٠ . وخلافاً لأمر اتاتورك بلزوم ارتداء اللباس الغربي ، سمح نظام مندريس للشعب بارتداء ما يشتهي من لباس . وهذا يعني ، في المناطق الريفية التركية ، ان اللباس التقليدي

وطرق الحياة المألوفة بدأت تظهر من جديد . وعارض هذا الاتجاه بعض التقدميين ممن يرغبون باستمرار الأنماط الغربية حسب الخط الذي رسمه مصطفى كمال في فترة ما بين الحربين .

وكان من مكاسب النظام الديموقراطي ، ان المبالغ التي دفعتها تركيا لدول اوربه الغربية ، وفاء لديونها ، كانت من نقد المساعدة التي قدمتها الولايات المتحدة لتركيا . وهذا ما جعل الاتراك يطلبون مزيداً من مساعدة الولايات المتحدة . ورفض الامريكيون تمديد مساعدتهم ، ووجدت تركيا ، في آخر ١٩٥٠ ، ان من الصعب كثيراً الحصول على اعتمادات خارجية . وهذا يعني انه يتوجب على الحكومة ان تحدد استيرادها وانتاج السلع الاستهلاكية ، وتركز على الأشياء الاساسية . وبمبادهة سياسة التقنين والتقتير في السلع الاستهلاكية بدأ استياء الشعب . فرد الديموقراطيون بطرق قاسية ضد المعارضة السياسية . وقيدت حرية الصحافة ، واعتقل اعضاء حزب المعارضة على اتهامات تافهة . وفي عشر سنوات على حكم مندريس ، الذي بدأ في ١٩٥٠ ، زاد استياء الشعب ، وبلغ أقصاه ، في ٢٧ أيار ١٩٦٠ ، في الانقلاب الدموي الذي قام به فريق من ضباط الجيش بزعامة الجنرال جمال غورسيل . وبعد قليل ادانت محكمة خاصة مندريس ووزيرين آخرين بانتهاك حرمة الدستور التركي ، ومثل الجميع أمام المحكمة وصدر بحقهم حكم الاعدام ونفذ في ١٩٦١ .

وكما تكون الحالة غالباً ، عندما يطاح بفريق فجأة من وظيفته ، ويحل محله فريق آخر ، يأتي الزعماء الجدد دون سياسات مرسومة جيداً . ومع ذلك ، فقد وعد الجنرال غورسيل باحياء الحكم الديموقراطي ، وفي تشرين الأول ١٩٦١ ، تبني دستور جديد ينص على سلطة تشريعية من مجلسين تشريعيين وسلطة تنفيذية ، وأصبح بموجبه غورسيل رئيساً للجمهورية

الاتركية وعصمت اينونو ، في السابعة والسبعين من العمر ، رئيساً للوزراء .

وبالرغم من ان اينونو كان شخصية يمكن ان يلتف حوله الاتراك ، فقد جنح الى ادخال نظام بوروقراطي قاس يراقب الاقتصاد بشدة . ومع ذلك ، فقد كانت السلطة ، على ما يبدو ، في ايدي زعماء الجيش . ونظراً الى ضعف الاقتصاد واتساع الاستياء نتيجة لانعدام الثقة بالحكومة ، اضطر اينونو وحزبه ، حزب الشعب الجمهوري ، الى مغـــادرة السلطة في ١٩٦٥ .

وتبع ذلك انتخابات عاجلة ، واستلم السلطة حزب العدالة ، وكان يضم كثيراً من انصار مندريس السابقين ، ولكنهم كانوا حريصين على الا يعودوا الى سياسة ١٩٥٠ . وفي وزارة سليمان ديميرل ، ازيلت بعض الرقابة على الاقتصاد . فأصبح اكثر انتاجاً . واعظم انتاج كان انعكاساً لما عانته تركيا من تحويل عظيم منذ ثورة ١٩٢٢ التي دفعت اتاتورك الى السلطة . وتملك تركيا الآن موارد صناعية وايدي عاملة موفورة تضعها في الصف الأول بين الأمم النامية بسرعة .

وفي ١٩٦٦ ، انتخب البرلمان الزعيم العسكري جودت صوناي رئيساً للجمهورية لسبع سنوات . وفي ١٩٦٧ حافظت تركيا على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ، وبحثت عن تحسين علاقاتها مع الإتحاد السوفياتي . وفي الوقت نفسه ، حلت الأمم المتحدة قضية قبرص بسحب اليونان وتركيا جيوشهما من الجزيرة ، وعقدت صلات ودية مع اليونان . ثم قامت معارضة عامة ضد الوجود العسكري الامريكي وضد حرب فيت ـ نام ، وأثارت مظاهرات في العام ١٩٦٨ .

وبعد اضطرابات عمال احتجاجاً على محاولة تشريع عمل حكومي ، اعلن الحكم العرفي في حزيران ١٩٧٠ لثلاثة أشهر . واستمر العمال والطلاب

في اضطراباتهم حتى طلبت العسكرانية التركية حكومة جديدة في آذار ١٩٧١ وشكل نهات ايريم حكومة ائتلافية من الحزب الجمهوري وحزب العدالة . ثم قامت عصابات مدنية أطلقت على نفسها اسم « جيش التحرير الشعبي » وخطفت اربعة طيارين من طياري الولايات المتحدة كما خطفت دبلوماسياً صهيونياً وقتلته ، وفرض الحكم العرفي على ١١ اقليماً تركياً

واندفع ايريم ايضاً في سن قانون يمنع زراعة الخشخاش بعد ١٩٧٢ واتخذت هذه الحركة بناءً على طلب من الولايات المتحدة ووعود من هذه الدولة بمساعدة اقتصادية لزيادة الغلة الزراعية . لأن حوالي ثلثي الهيروين الذي يحرمه القانون ويبلغ اسواق الولايات المتحدة كان يأتي من تركيا ، مع انه لا يرى تقريباً ادمان على الهيروين في تركيا .

وبقي ايريم اقل من سنة على رأس الحكم قبل ان تكون المنازعة والشغب العسكري على سير الاصلاحات سبباً في تقديم استقالته .

وافتتح عبر البوسفور عام ١٩٧٣ رابع جسر عظيم معلق في العالم وهو أول جسر يصل اوربة بآسيا .

وفي السياسة الخارجية سلكت تركيا سياسة مؤيدة للغرب ، ووسعت صلاتها الدولية بالغرب بانضمامها لحلف الاطلسي ، وأصبحت عضواً في الحلف البلقاني ، وانضمت الى منظمة الحلف المركزي (سنتو) ، وكافح الاتراك مع قوات الأمم المتحدة في حرب كوريا . ورغم الضغط السوفياتي المستمر ، ظلت تركيا مرتبطة بصورة وثيقة بالغرب . ومع ذلك ، في آخر ١٩٦٠ ، وفي ١٩٧٠ ، أخذت تبحث عن صلات احسن واكثر مرونة مع الاتحاد السوفياتي ، وما ذلك الا لأن السوفياتيين ، على ما يبدو ، جددوا محاولاتهم في ممارسة ضغطهم على جيرانهم غير الشيوعيين .

الحلف البلقاني

نجت اليونان وتركيا من سيطرة الاتحاد السوفياتي بفضل الحماية التي منحتها لهما بريطانيا العظمى اولاً ، والولايات المتحدة تالياً ، وباشتراكهما بحلف الاطلسي أخيراً . أما يوغوسلافيا ، التي شجبها الكومنفورم ، في ١٩٤٨ ، وخضعت لحصار شديد من بلاد الكتلة السوفياتية ، فقد وجدت ، بدورها ، مهددة من قبل الاتحاد السوفياتي . وتغلبت على الأزمة الاقتصادية التي اراد الاتحاد السوفياتي وتوابعه ان يوقعوها بها لالتفاتها نحو الغرب . ولكنها ، على الصعيد السياسي ، كانت معزولة بصورة خطرة . ووضعها الخلاف ، الذي يفصلها عن ايطاليا بشأن تريستا ، في حالة صعبة حيال الدول الغربية . وللخروج من عزلتها ، عادت الى السياسة التي رسمتها بعد الحرب والتي حاولت بها ان تجعل من بلغراد مركزاً لحلف بلقاني . وكانت هذه السياسة سبباً أساسياً في قطع علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي . ثم استأنفها الرئيس تيتو لا بتوجيهها نحو بلغاريا ، وانما نحو اليونان وتركيا . وهذه السياسة ، التي تقرب بلغراد من الحلف الأطلسي ، رحب بها في واشنطون . وقد انتهت ، في ٢٩ شباط ١٩٥٣ ، الى « ميثاق صداقة وتعاون » بين بلغراد وآثينة وانقره . وكانت النتائج مباشرة على الصعيد الاقتصادي : فقد زادت الصادرات بثلاثة امثالها نحو اليونان ، وباضعاف مضاعفة نحو تركيا . وبالمقابل زادت صادرات اليونان بثلاثة امثالها نحو يوغوسلافيا . وأسست أمانة دائمة لهذا « الوفاق البلقاني » الجديد ، والتقت اركان البلاد الثلاثة .

توقيع الحلف البلقاني وعودة تريستا الى ايطاليا

وفي هذه الظروف ، اعتقدت روما بان الوقت قد حان للفصل في قضية تريستا . ان معاهدة السلام في ١٩٤٧ جعلت من تريستا أرضاً حرة . ولكن الدول الكبرى لم تتمكن من الاتفاق على انتخاب حاكم لها ، وبقي الانغلو ـ اميركيون يحتلون المدينة تاركين منطقة البندقية الجوليانية لاحتلال يوغوسلافيا . وفي آذار ١٩٤٧ ، اقترحت واشنطون ولندن وباريس اعادة تريستا الى ايطاليا . ولكن ، ابقي على نظام الاحتلال ودفعت القطيعة ، بين بلغراد وموسكو ، يوغوسلافيا الى الاعتدال . واقترحت روما عرض قضية تريستا على استفتاء ، فعارض اليوغوسلافيون . وصرح الاميركيون والانكليز بأنهم قرروا ، امام عدم امكان اتفاق ، اعادة تريستا الى ايطاليا ، في تشرين الأول ١٩٥٣ . فهدد تيتو بانه يعارض بالقوة ، وتدخل الاتحاد السوفياتي مطالباً بتطبيق كامل لمعاهدة السلام .

ومع ذلك ، لم تستطع بلغراد قطع علاقاتها بعنف مع الغرب الذي تحاول من جهة ثانية ان تتقرب منه . وافتتحت المفاوضات . وفي ٥ كانون الأول ١٩٥٣ ، تدخل اتفاق ، وبموجبه سحبت ايطاليا ويوغوسلافيا الجيوش التي حشدتها كل منها على حدود الاراضي المتنازع عليها . وبعد بضعة شهور ، في نيسان ١٩٥٤ ، استقبل تيتو بحفاوة بالغة في انقرة ، وصرح بأن الوقت قد حان لتحويل ميثاق الصداقة الى حلف رسمي . واثار هذا التصريح ردود فعل غير ملائمة جداً في ايطاليا حيث كان يخشى أن تتصلب يوغوسلافيا في قضية تريستا بعد تقوية وضعها . ولكن الماريشال باباغوس ، الذي كان يتمتع في اليونان بسلطة شبه دكتاتورية ، ما كان ليرغب في اتخاذ موقف قد يبدو ودياً قليلاً حيال ايطاليا . وفي حزيران ،

بوشرت مفاوضات جديدة ، وانتهت ، من جهة الى اتفاق بليد ، الذي يؤلف حلفاً رسمياً بين البلاد الثلاثة الموقعة ، في آب ١٩٥٤ ؛ ومن جهة أخرى الى اتفاق ايطالي - يوغوسلافي وقع في لندن ، في ٥ تشرين الأول التالي . وبموجبه تعود مدينة تريستا والأرض المحيطة بها الى ايطاليا ، بينما تبقى البندقية الجوليانية ، مع ميناء كابوديستريا ، كسباً الى يوغوسلافيا ، وعلى أن تكون الاقليات،التي تضمها كل من المنطقتين ، موضوع نظام خاص . وادخل اتفاق بليد يوغوسلافيا في المنظمة الدفاعية لحلف الاطلسي . وتعزز بذلك تضامن البلاد الموقعة على اتفاق بليد . وفي شباط ١٩٥٥ ، قررت حكومات بلغراد وآثينة وانقرة انشاء « برلمان بلقاني » . وكان على كل من الدول الثلاث أن ترسل اليه ١٥ نائباً . وهكذا وجدت يوغوسلافيا ، منذ ذلك الحين ، منضمة عسكرياً وعملياً الى اليونان وتركيا العضوين في حلف الاطلسي ؛ وبالتالي ، بصورة غير مباشرة ، الى حلف الاطلسي .

ان اشتراك اليونان وتركيا في حلف الاطلسي ، في ١٩٥١ ، ادخل البحر المتوسط في المنطقة الأطلسية .

المجابهة اليونانية - التركية على قبرص

كانت كل من اليونان وتركيا جزءاً متمماً في سياسة الحلف الغربي . وقد اقامت اركان منظمة حلف الاطلسي لشرق البحر المتوسط في ازمير ، في تركيا . وكان الجهاز العسكري للدولتين يعمل معها بتعاون وثيق . وساعدت صلة العمل هذه الدولتين ، مباشرة بعد الحرب ، عندما وقفتا وحدهما أمام تهديد توسع الشيوعية . ومع ذلك فقد تهددت وحدة الهدف هذه بالانفصال والانكسار . وفي الحقيقة ، وصلت الدولتان الى قطيعة مطلقة بسبب خلافهما على قبرص .

ففي آخر ١٩٥٠ ، كان اليونانيون والاتراك يعبون دوراً بالنزاع المستعر على قبرص . وكانت هذه الجزيرة الستراتيجية تحت السيطرة البريطانية منذ ١٨٧٨ . وفي الحرب العالمية الثانية ، لعبت دوراً هاماً كقاعدة بريطانية . وكان ٨٠٪ من الـ ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، الذين يعيشون في قبرص ، يونانيين والباقي اتراك . وبعد الحرب ظهرت فكرة تقسيم قبرص بين القوميتين اليونانية والتركية . بيد ان السكان مختلطون لدرجة يستحيل معها التقسيم حسب خطوط قومية واضحة المعالم .

وعندما ضغط الاتراك بمطالبتهم بقبرص ، قالوا ان الجزيرة تقع على ٤٠ ميلاً فقط من تركيا ، على حين انها على ٦٦٠ ميلاً من اليونان . وبالمقابل اشار اليونانيون ، دونما نظر الى الموقع ، الى ان شعب الجزيرة كان في معظمه يونانياً . وكان هذا الوضع مثيراً للغاية ، لأن البريطانيين مازالوا يسيطرون على الجزيرة . وبالتالي ، قامت في المدن مظاهرات صاخبة مناوئة لبريطانيا . وتبعاً لسياسة بريطانيا ، التي ارادت ان تتخلص من مستعمراتها ، قام البريطانيون بمفاوضات مع اليونان وتركيا . وانتهز اليونانيون القبارصة هذه السانحة ليعلنوا انضمامهم الى اليونان ، وطنهم الأم . ونادوا بحق تقرير المصير والاتحاد مع اليونان ، هذا الاتحاد الذي عبروا عنه بكلمة اينوسيس ، ورافقت هذا الطلب اعمال العنف والارهاب . وفي ١٩٥٥ ، تفجرت الحرب الأهلية ، وذهب آلاف الضحايا . وطالبت تركيا بالتقسيم . وهدد النزاع حلف الأطلسي . وبذلت جهود لتسوية القضية بمفاوضات بين البريطانيين واليونان وتركيا . وتم التوصل أخيراً الى اتفاق ، في شباط ١٩٥٩ ، يقضي بتأسيس جمهورية قبرصية مستقلة مع تمثيل له مغزاه لكل من اليونان وتركيا ، على أن يكون رئيس الدولة القبرصية يونانياً ، ونائب الرئيس تركياً ، وان تتشكل الحكومة من

خليط من القوميتين اليونانية والتركية . وأصبحت قبرص دولة مستقلة ، في ١٦ آب ١٩٦٠ ، بضمان بريطانيا واليونان وتركيا ، وبرئاسة الاسقف مكاريوس الثالث . . وفي ١٩٦١ ، انضمت قبرص الى رابطة الشعوب البريطانية (كومنولث) .

على أن سبب الخلاف مازال قائماً ، اذ لم تمض فترة وجيزة الا وادى سوء التفاهم والكره ، في ١٩٦٣ ، الى تجديد النزاع الدموي بين القبارصة اليونان والاتراك . والسبب الهام في ذلك يرجع الى خوف الاتراك من ان اليونانيين يريدون الغاء حقوق الاقلية التركية في الجزيرة . وفي اوائل ١٩٦٤ ، أقامت الأمم المتحدة قوة سلام في قبرص للحفاظ على النظام . وتبع ذلك اقتراحات مختلفة للحفاظ على السلام في الجزيرة .

وبعد سنين من الاضطرابات ، جنبت عن البلاد ازمة خطرة ، في ١٩٦٨ ، عندما اقنع وسيط امريكي ، سيروس فانس ، تركيا واليونان وقبرص بقبول حل اقترحه أمين الامم المتحدة ، ثانت ، لجلاء الجيوش اليونانية ، وتجريد الحصون التركية من وسائل دفاعها . وبدأت مفاوضات طويلة بين الطرفين المتخاصمين على دستور جديد . وامتد الحوار مع قوى الحفاظ على السلام التابعة للأمم المتحدة التي وضعت حداً للنزاع . ثم حدثت محاولة اغتيال الاسقف مكاريوس ، في ١٩٧٠ ، عندما اطلق مسلحون عليه النار وهو في هيليكوبتر ، ولكنهم اخفقوا في محاولتهم .

وفي ١٩٧٣ ، اقترب موعد الانتخابات . وطلب المجمع المقدس للكنيسة الارثوذكسية القبرصية من مكاريوس ان يستقيل على اعتبار ان قانون الكنيسة يحرم الجمع بين الكنيسة والوظائف السياسية ، فرفض ، واعتبره المجلس مطروداً . وعندئذ دعا مكاريوس مجمع الكنائس الارثوذكسية الشرقية الى الانعقاد وأمر بطرد الثلاثة اساقفة القبارصة على قرارهم .

وفي انتخابات،شباط فاز مكاريوس بالرئاسة . وقاطع انصار الاينوسيس[١] المسار الانتخابي ، وهاجموا ٢٠ مخفراً للشرطة حول الجزيرة . ثم استؤنف الحوار المشترك ، وأمكن التوصل الى اتفاق من حيث المبدأ . ولكن عدم الاتفاق ظل على مسؤولية الحكومة المحلية في مناطق الاقلية التركية ، وعندها ما يبرر مخاوفها . وظل النزاع في الجزيرة مصدراً لقوة تدمير في الحلف الغربي بعد ان أضعفته قضايا أخرى من قبل .

(١) اينوسيس Enosis

الفصل الثاني عشر

التمييز العنصري

التمييز في العصور القديمة والوسطى

منذ فجر ما قبل التاريخ والمجتمعات البشرية على اتصال دائم واختلاط مستمر وعلاقات متشابكة . وما من مكان في ارجاء الارض الا وامتزج فيه بنو الانسان بعضهم ببعض ، وأخذوا عن بعض ، حتى لكأن هذه المجتمعات ، على اختلاف بيئاتها الطبيعية ، تؤلف مجتمعاً واحداً ، نتيجة لهذا الاتصال الوثيق بين البشر الذي لم تزده وسائل المواصلات السريعة المتسارعة الا رسوخاً وتوكيداً .

ان هذا الاتصال المبكر والدائم والمتطور ينفي فكرة وجود مجتمعات قائمة بذاتها ، منعزلة عن المجتمعات الأخرى ، ومحافظة على خصائصها الأولى ونقاوتها البدائية وسلامة عرقها . ولكن هذه العلاقات النامية بين بني الانسان ، التي ازالت الحواجز من أي نوع ، وما انفكت تزيلها ، لاتنفي ، في الوقت نفسه ، ان الانسان استغل ضعف أخيه الانسان ، وطغى عليه ، وسخره في كثير من الاحيان لمآربه ، وبنى عليه امجاده ، مهما كانت هذه الامجاد أصلية أو زائفة ، وحاول مع الزمن ان يبقيه في حالة تأخر وانحطاط وضعة ، ليستغله الى ابعد حدود الاستغلال ، متباهياً بما ابدع من حضارات ، وآخذاً على أخيه الآخر تخلفه ، مدعياً بشتى المبررات واوهى الأسباب بأنه لا يصلح للحياة ، وانه هو وحده ،

دون أخيه ، صنع الحضارة ، وعليه ان يفيد منها ومن منجزاتها ، وان يحافظ عليها ، وان هذا الحفاظ على الحضارة واجب مقدس لا يقوم به الا من ابدع هذه الحضارة .

ومهما تكن قيمة الحجج ، التي يدعي بها الانسان المتحضر المتقدم بحضارته ، قوية أو ضعيفة ، فان تلازم العيش مع الانسان المتخلف ولد عند هذا الأخير هزات فكرية ، وهيجانات عاطفية ، وانتفاضات ثورية ، بدلت من شروط حياته ، وفي بعض الأحيان قلبتها رأساً على عقب . فلم يعد يرضى بالذل والهوان وحياة الحدود والقيود التي فرضت عليه وكبلت نشاطه عصوراً مديدة . لقد شب عن الطوق ونهض عملاقاً يكسر الاغلال ، ثائراً على مخلفات الماضي ، ناقماً على الحاضر المتخلف . ولم يبق ذلك الانسان القميء الذي يرضى طوعاً أو كرهاً أن يكون مستغلاً وغيره يملك كل شيء . وكان طبيعياً أن يثور لكرامته بعد أن أخذ باسباب الحضارة التي مكنت اخاه القوي من السيطرة والنفوذ ، وأن يعود الى ذاته الانسانية النقية التي فطر عليها ، ليجردها من كل ما علق بها من زيف وتشويه وعقد نفسية أظهرته على غير حقيقته الانسانية ، وبالغت في كيل الاتهامات له ، حتى ظن السطحيون أن لا أمل يرجى منه كما أوحي لهم . وهكذا تبدو في عصرنا الحاضر تباشير ازدهار جديد ، واشراق حضارات نامية ، وطلائع انسانية عادلة متآخية ، بالرغم مما يغشى الآفاق السياسية والدولية من سحب دكناء ، ومما تتناقله وسائل الاعلام من اخبار لاتسر .

وفي الحقيقة ، كان الاختلاف قائماً بين البشر في العصور القديمة : فالشعوب الغالبة تعتبر نفسها ارقى من الشعوب المغلوبة ؛ والشعوب المتقدمة اعظم من الشعوب المتخلفة . وقد اعتبرت بعض الشعوب نفسها « متمدنة »

وغيرها « برابرة » ، ولكن مثل هذا التفريق يقوم على التباين الثقافي بين الشعوب ولم يكن مرتبطاً بلون البشرة أو بالاختلافات الجسمية . ووجدت كذلك ، في داخل كل شعب ، طبقات اجتماعية مختلفة ، متميز بعضها عن بعض ، ولكن هذا الاختلاف لم يكن قائماً على اختلاف العرق أو اللون .

وفي العصور الوسطى ، لم يكن الاختلاف بين الناس متعلقاً بفرق اللون أو العرق ، بالرغم من وجود الرق ، والتمييز الطبقي والبناء الاجتماعي .

وفي تاريخ حضارتنا العربية ــ الاسلامية لانجد تمييزاً بين البشر على اختلاف اللون ، بين اسود وابيض ، يجعل الانسان الأبيض سيد كل شيء ، وله الحق بكل شيء ، والانسان الاسود ذليلا مهاناً معزولاً محروماً من حقوق الانسان ، وقيمته قيمة الحيوان الاعجم . ولم يكن حاجز اللون في يوم من الأيام عامل تمييز بين العرب وغيرهم . لقد جاء الاسلام الى الناس جميعاً لافرق بين اسود وابيض . ففي القرآن الكريم نجد قوله تعالى : « ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » : أي خلقناكم من أب وأم وكلكم سواء ، ولا مجال للتفاخر بكرم الأصل والنسب . وفي أحاديث الرسول الكريم نجد هذا المعنى نفسه ، فمن ذلك قوله عليه السلام : « ايها الناس ، إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » . ومنها قوله ايضاً : « سلمان منا آل البيت » .

واذا انتقلنا الى الاعمال الدينية نجد الاسلام يسوي بين الناس في الصلاة والحج والصوم : فالناس يقفون صفوفاً متراصة في الصلاة دون تمييز ، ويقفون بعرفه بزي واحد في نزع المخيط ولبس المحيط ، خاشعين مبتهلين الى الله لا فرق بين سيد ومسود ، كبير أو صغير ، ابيض وأسود . وفي

شهـــر رمضـان يصومون من طلوع الفجر الى غيـاب الشمس صوم الرجل الواحد .

وما من شك في ان النزعة القبلية أو التفرقة العنصرية قد لعبت دورها على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي في تاريخ العرب والاسلام ، ولكنهـا لم تبلغ الحدة الاجتماعية المؤذية ؛ هذا فضلاً عن انها كانت عامل تقويض للدولة الأموية عندما تنامت دعوة الاسلام[١] .

التمييز في العصور الحديثة

لقد شهد تاريخ العالم في عصوره الحديثة قيام حركات توسعية دورية . وأول هذه الحركات كان في فاتحة القرن السادس عشر ، عندما نمت شخصية اوربه وخرجت من عزلتها الوسيطة تبحث في آفاق العالم القديم والجديد عن الذهب والتوابل والسلع التي لاينتجها مناخها وارضهـا . وأدت الكشوف الجغرافية الكبرى الى استعمار البلاد المكتشفة البعيدة فيما وراء البحار ، وغادر التراب الاوربي اناس من المغامرين ممن ضاقت بهم سبل العيش ، أو من قطاع الطرق الفارين من العدالة ، أو من شذاذ الآفاق ، أو اللاجئين الباحثين عن مأوى يأمنون فيه على ارواحهم وأموالهم ودينهم ومع الزمن عمرت البلاد المكتشفة بهؤلاء الوافدين الجدد الجشعين الذين يحدوهم حب الكسب والعيش الرغيد .

ومنذ اكتشفت قوة البخار واستعمال الفحم ، ونمت المعامل في اوربه بخاصة ، وأخذت تنتج فوق حاجات الاستهلاك المحلي والقومي ، وتعوزها المواد الاولية التي لاتوجد في ارضها ، دفع كبار رجال الصنـاعة والمال

---

(١) راجع : عبد الحميد العبادي ، **الاسلام والمشكلة العنصرية** ، ص ٧٢ وما بعدها ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٩ .

والأعمال الحكومات والمجالس التشريعية للبحث عن المنافذ التي تباع فيها منتجاتهم وتستثمر اموالهم وتنمي ارباحهم ، وساعدهم على ذلك ان كانت بلاد واسعة مازالت شاغرة على سطح الكوكب . ودفع التنافس بين الدول الكبرى الى التسابق على استعمار القارات الأخرى ، وانطلقت موجات التوسع الجديد ، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر الى مابعد الحرب العالمية الأولى ، تغزو البلاد مبررة عملها بنشر الحضارة وتعميم الثقافة والنهوض بالشعوب المتخلفة ورفع مستواها ، وأداء الرسالة التي يحملها الانسان « الابيض » الى أبناء البشر « الملونين » . ولا ريب في أن الاستعمار البغيض كان يكمن وراء هذه العبارات البراقة الجوفاء التي فقدت قيمتها مع الزمن بعد أن أظهر خداعها ، وكشف تضليلها وزيفها .

وفسحت يقظة القوميات أمام رجال الفكر مجالاً للبحث في القومية ومقوماتها الأساسية من حيث وحدة الجنس واللغة والتاريخ والآلام والأحلام والآمال والمصالح المشتركة . ولا شك في أن القومية في أساسها تنزع من جهة ، الى الانتماء الى قوم من الأقوام ، ومن جهة أخرى الى التمييز بين الأقوام . وقد كان هذا الانتساب والتمييز ، في الأصل ، حجة في اضطهاد الشعوب الغالبة للشعوب المغلوبة ومعاملتها بدرجة أدنى من معاملتها لأبناء جلدتها ، ودافعاً جعل المقهور التابع يشعر بأنه انسان يختلف عن المتسلط الغاصب والمستعمر المحتل . وهذا الشعور القومي ، اذا ظل في حدوده العادية السهلة البسيطة ، كان شعوراً نبيلاً لأنه يساعد على وحدة القوم وجمع شملهم وتحررهم ، وعلى احترام شعور الآخرين وقومياتهم . بيد أن هذا الشعور ، مع الأسف ، مازجته عناصر كثيرة فكرية ودينية وسياسية ومصالح اقتصادية واستعمارية مختلفة عقدته ، وبخاصة عندما تقدمت أوربة علمياً وصناعياً وتقنياً ، وأصبحت بيدها أدوات التدمير وأسلحة الفتح

والفتك ، وملكت امبراطوريات استعمارية في القارتين آسيا وافريقية ، وأخذت تستنزف خيراتها وتحرم هذه الخيرات على أصحابها الشرعيين .

لقد تملك الغرور أبناء الدول الاستعمارية الكبرى ، وحتى كبار المثقفين منهم ، وشعروا بنشوة الظفر ، وأي ظفر ، وبما شاده أبناء قومهم من أمجاد ، فأخذوا يتغنون بالانسان الأبيض ، وتفوق العرق الآري ، مبدع الحضارة ، غير ملتفتين الى مايجري من ضروب الاضطهاد في البلاد المستعمرة . ولا شك في أن رقي الآلة ، وانتشار الأفكار القومية ، والنظريات العرقية ، من عصر غوبينو[1] الى عصر هتلر ، التي قامت تمجد الأقوام الأوربية ، كانت عاملاً فكرياً وروحياً قوياً يغذي التسلط الاستعماري والدفاع عن المصالح الحيوية التي ترتبت للمستعمرين في البلاد المفتوحة بقوة الحديد والنار والغلاب .

ولسنا بحاجة الى التدليل على أن الحضارة ليست وليدة عرق من الأعراق ، وان لاوطن معيناً لها بالذات ، وان القول بنقاوة الدم وتفوق بعض الأجناس على غيرها ، انما هو ضلال لانصيب له من الصحة ، لأن العلم يرفضه ولا يقره . بيد أنه مامن شك في أن كل مجتمع من المجتمعات البشرية يخلق قيماً معنوية ويحاول أن يلقنها الى أبنائه بالتربية والتوجيه والارشاد ليفخروا بمجتمعهم ويعتزوا بما ابدعوا وحققوا من قيم ، وليشعروا بقوة الترابط المعنوي في سبيل خير المجتمع وبقائه واستمراره . ولكن لاشيء يدعو لأن يتخذ مثل هذا التفاخر مبدءاً علمياً مقرراً يطبق على

(١) راجع Gobineau , Joseph Arthur , Comt de , Essai Sur L'inégalité Des Races Humaines .
الذي أثرت نظرياته على نظريي العرقية الجرمانية والروايات والقصص ، في القرنين التاسع عشر والعشرين .

البشرية كلها في سبيل التفوق العنصري وسيادة العنصر الأبيض ، الى ماهنالك من بقايا فلسفة القرن التاسع عشر ومخلفاتها في القرن العشرين .

ان قضية التمييز العنصري ، في أيامنا هذه ، وليــدة الاستعمار ، وليست عنصرية بالمعنى التام لهذه الكلمة ، بعد أن تبين لنا أن ليس هنالك عرق نقي في العالم حافظ على نقاوته البدائية ، وانما المهم فيها هو الاستعمال : لقد أوجد الاستعمار في البلاد المستعمرة طبقتين من البشر : أبناء البلاد الأصليين والمستعمرين . واتخذ المستعمرون التمييز وسيلة لابقاء الأوضاع التي اكتسبوها وتقويتها واستمرارها . واذن فالتمييز ظاهرة دفاع خوفاً من انقلاب في الأوضاع وضياع الفوائد التي أوجدها الاستعمار . ولكن هذه الأوضاع بدأت تثير حفيظة الآخرين ، بعد تنبه الوعي ، وتدعوهم بدورهم الى اتخاذ وسائلهم الخاصة للدفاع عن ذاتهم وكيانهم ومصالحهم ومعاملتهم بشراً يستحقون الحياة ، ولو اقتضى الأمر استخدام السلاح . ورد الفعل هذا يؤدي بدوره الى رد فعل الأطراف المتسلطة . وهكذا تدور الأطراف المعنية في حلقة مفرغة ، ويظل المجتمع غير متماسك وفي حالة قلق وعدم استقرار . وكما يغذي العنف العنف ، يولد الاضطهاد الاضطهاد .

ان جوهر النزاع في قضية التمييز العنصري يكمن في هـذا الخوف الذي يتملك الانسان الابيض من زوال الحضارة « البيضاء » في مفهومه أمام وعي الانسان الملون ومطالبته بحقوقه التي سلبها الانسان الأبيض الجشع الخائف . فقد يظهر الانسان الأبيض أكثرية تتحكم بأقلية مستضعفة تختلف عنها بلونها وصفاتها الجسمية ، كما هي حال الزنوج في الولايات المتحدة ؛ أو يظهر الانسان الأبيض أقلية تحكم أكثرية تختلف عنها أيضاً بلونها وصفاتها الجسدية كما في جنوبي افريقية وروديسيا . وهذا يعني أن

فارق اللون والصفات الجسمية [١] ، على عدم اعتباره عرقياً ، قد اتخذ أساساً للتمييز العنصري ، وعلى ماهو عليه من حجة واهية ومرفوضة .

ان الفريق الأبيض ، أكثرية كان أو أقلية ، يحاول دوماً تنمية استراتيجية واعدادها للحفاظ على فصل نفسه عن فريق الاقلية أو الاكثرية السوداء. وهذه الستراتيجية تكون بشكل يجعل السلطة السياسية والاقتصادية والتربوية والثقافية تحت اشرافه ، ويؤدي فيه التشريع بصورة منتظمة الى اخضاع الفريق الأسود أو الملون وحرمانه من حقوقه وفصله وعزله عن مجتمع البيض وعدم الاختلاط بين البيض والزنوج خوفاً من تهجين العرق . وعلى نظم الرقابة الاجتماعية : المدارس ، النظام القانوني ، المحاكم ، القضاة ، الشرطة ، أن تخدم كممثل عن الفريق الأبيض الأعلى الممتاز [٢] .

والفريق الأسود ، الفريق غير الممتاز ، يتصور القضية واحدة ، وذلك بتحقيق الوضع الذي يرغب فيه ويؤمن حقوقه ، ويزيل وصمة النقص عنه ، وصفة العجز التي نسبت اليه ظلماً وجوراً ، والعراقيل التي وضعت في سبيله وفرضت عليه . ومثل هذه الأقلية يمكن أن تصبح تهديداً عندما تنمو وتحاول أن تبدل وضعها وتتطلع الى القيام بأدوار جديدة تتناسب وأمانيها القومية [٣] .

والحقيقة التي يجب أن تقال هي أن الدول الاستعمارية ، صغيرها وكبيرها ، قديمها وحديثها ، منذ أن وطأت أقدامها بلاد ماوراء البحار

---

(١) راجع بحث الدكتور فؤاد محمد الصقار ، التفرقة العنصرية ، في مجلة **العربي** العدد ١٨٥ ، نيسان ١٩٧٤ .

(٢) راجع , Daniels And Kitano , *American Racism* , P . 97 ,
Prentice - Hall , Inc , Englewood Cliffs , N . J . , 1970

(٣) راجع , Brewton Berry, Race and Ethnic Relation, P. 411,
Boston , Houghton Mifflin Company, 1958

واحتلت جيوشها العدوانية تراب هذه البلاد التي غزتها ، سلكت سياسة التمييز والعزل بين أبناء قومها وأبناء البلاد الأصليين ، متخـــذة شتى الوسائل والطرق التي توصلها لأهدافها الاستعمارية : فمن ذلك أنها اقامت في أحياء خاصة بها ، وحاولت جهد المستطاع عدم الاختلاط بالسكان الاصليين ، إلا إذا كان هذا الاختلاط لمنفعتها وعلى حسابهم ، واستولت على الاراضي الطيبة ، وطردت منها أهلها وأعطتها للمهاجرين من أبنائها ، وتركت للشعوب المستعمرة المناطق الفقيرة والجدبة ، وعملت على تحسين شروط الحياة في الاحياء والاراضي التي استوطنت بها ، ولم تعمل شيئاً لابناء البلاد ، بالرغم من انها ادعت بأنها جاءت لتمدينهم وتحسين حياتهم . واذا أفاد هؤلاء شيئاً من التحسينات التي أدخلها المستعمرون فلم يكونوا هدفها الاول والاخير . لقد أوجد الاستعمار في الاراضي المحتلة مجتمعين مختلفين متناقضين متناحرين . وسلك تجاه أبناء البلاد الاصليين سياسة مرحليـة للابقاء على هذا النظام الاستعماري الثنائي .

١ – في المرحلة الاولى ، احتل البلاد وسلك سياسة الاضرار بالمستعمَرين ، من حرمانهم من أرضهم ومساكنهم والاستيلاء عليها ظلماً وعـــدواناً ، وتشغيلهم بالاشغال الشاقة ، اذا أراد تشغيلهم .

٢ – وفي المرحلة الثانية ، وضع السدود والقيود بين المحتل والمحتلين واحدث التمييز بين مستوطنيه وأبناء البلاد الأصليين ، متخذاً شتى الوسائل القانونية وغير القانونية التي تحرمهم من التمتع بأرضهم وخيرات بلادهم ، أي أنه أحدث في البلاد طبقة ممتازة تتمتع بكل شيء ، وطبقة محرومة من كل شيء .

٣ – وفي المرحلة الثالثة ،فصل بين أبناء البلاد المحتلة وما يحيط بهم من مناطق مجاورة أو مع الخارج بحيث لايدري أحد بما يفعل في أبناء البلاد داخل البلاد .

٤ – وفي المرحلة الأخيرة ، لجأ الى الحلول الاستثنائية ووسائل القمع والارهـــاب : العزل الكلي ، التنحية جانباً ، الحشد في معسكرات الاعتقال ، الطرد ، النفي ، الابادة (١) .

على ان هنالك ظاهرة أخرى لقضية التمييز العنصري تشبـه في بعض الوجوه هذه الحالات التي اتينا على ذكرها ، ولكنها تتميز بوجوه أخرى عقائدية قديمة متوارثة فريدة في ذاتهـا ، وهي قضية التمييز المبني على الدين والحقد الدفين والاضطهاد المديـد عبر السنين واللؤم البشري المركب عبر الأجيال والعصور ، وهذه هي سياسة التمييز التي يسلكها الصهاينة في فلسطين المحتلة .

لقد سلك الاستعمار سياسة التمييز في كل بلد حـل فيه ، ولكن مظاهر التمييز وان اتفقت في اشكالها الكبرى وخطوطها العريضة ، فهنالك فوارق متعددة تختلف من بلد لآخر حسب ظروف البلاد وطاقة المستعمر وعقليته ، وقابلية التحول ، ومدى النشاط الذي يبذل للخلاص من التمييز والاستعمار . وسنقتصر في بحثنا على بعض البلاد النموذجية للتمييز العنصري ونريد بذلك : الولايات المتحدة وجنوبي افريقية ، وفلسطين المحتلة .

التمييز العنصري في الولايات المتحدة

يرجع التمييز العنصري في الولايات المتحـدة الى موجات الاستعمار الاولى بعد اكتشاف العالم الجديد . فقد وجد المستعمرون انفسهم ، بعد ان أبادوا السكان الأصليين ، أمام بلاد شاسعة واسعة ، وامكانيات ضخمة لاتنفد ، ولكن استثمارها بحاجة الى ايدي عاملة في المزارع والمصانع ، فحلوا الصعوبة باسترقاق زنوج افريقية بعد انتزاعهم من بلادهم ومن

(١) راجع ، Daniels and Kitano المصدر السابق ص ١٢ .

احضان امهاتهم وسوقهم على ايدي النخاسين ومعاملتهم كالسائمة دونما شفقة أو رحمة . ومن هنا نشأت قضية الزنوج في الولايات المتحدة بكل ما ترتب عليها من نتائج قريبة أو بعيدة .

كان ارقاء الزنوج يشغلون شتى الاشغال القاسية ، ويسامون سوء العذاب ، الى ان قامت حركة تناوىء تعاطي تجارة الرق ، ونادى الفلاسفة بتحريمه ، وتشكلت جمعيات تعطف على الزنوج وتعمل على اعتاقهم ، الى ان تم ذلك والغي الرق وأصبح الارقاء احراراً . ولكن حالتهم الاولى ظلت تدمغهم ، وجعلت الكثيرين من البيض لايقبلون بمساواتهم في الحقوق . واستحكمت عند الزنوج انفسهم ، بالرغم من تحررهم العادة في ان ينظروا الى انفسهم انهم ادنى من البيض ، ولكن هذا الشعور اخذ يتحول مع الزمن ويعكر صفو الولايات المتحدة .

واذا اخذنا باحصاءات ١٩٧٤ وجدنا أن سكان الولايات المتحدة ٢١١،٩٤٠،٥٠٠ مليون . وتدل احصاءات عام ١٩٧٢ ان عدد البيض في الولايات المتحدة ١٨٤،٤٤٥،٠٠٠ مليون ، وعدد الزنوج في العام نفسه ٢٣،٣٦٦،٠٠٠ وان مجموع السكان ٢٠٧،٨١١،٠٠٠[١] واذا اهملنا الكسور وجدنا ان نسبة الزنوج الى البيض ١٠ ٪ تقريباً . وان هؤلاء الزنوج ، بالرغم من التطورات التي حدثت أخيراً في البلاد ، مازالوا يعانون التمييز العنصري وعدم المساواة الاجتماعية ان لم يكن في الحقوق المدنية . وتظهر هذه القضية اكثر حدة في ولايات الجنوب بخاصة .

كان معظم الزنوج قبل عام ١٩١٤ في ولايات الجنوب ، ثم جذبت الهجرة عدة ملايين منهم الى ولايات الشمال بحثاً عن أجر أوفر واملاً في معاملة افضل . ولكن الاكثرية العظمى بقيت في الولايات الثلاث عشرة

(١) راجع Information Please Almanac , 1974

وتؤلف جماعات كثيفة . وتختلف نسبتهم بين الشمال والجنوب . ففي الشمال $\frac{٩}{١٠}$ الزنوج مدنيون ؛ وفي الجنوب $\frac{٢}{٣}$ هم ريفيــون ويكونون في الغالب اكثريات محلية . ومن هنا نشأت بين البيض عاطفة الخوف من الزنوج لأنهم يخشون من أن يطغي عــدد هؤلاء الزنوج على البيض فيردوا في المستقبل الى اقليات ضئيلة . ولكن هذه المخاوف التي تتملك البيض لاتبررها الأحصائيات .

وضع تحرير الرق في الولايات المتحدة قضية جديدة وهي : قضيــة المساواة في الحقوق المدنية بين البيض والزنوج حسب التعديلين ١٣ و ١٤ في دستور الولايات المتحدة ، في الفاتح من شباط ١٨٦٥ وفي ١٦ حزيران ١٨٦٦ . وان قبول المساواة معناه دمج الزنوج بالبيض . واذا بقي الزنوج حيث هم ، على ماهم عليه من صغار اجتماعي ، فذلك يعني عزلهم وعدم تمتعهم عملياً بالحقوق التي يمنحهم اياها الدستور . ولقد أصبحت هذه القضية شغلاً شاغلاً بالنسبة للولايات المتحدة ، لأن الجنوب لم يبدل وجهة نظره في هذه القضية زاعماً بأنها تتعلق به وحده وليس للشمال أن يزج نفسه بها ، وبأن العرق الزنجي ، كما هو ، أدنى بالولادة من الأبيـض ، ويجب أن يبقى في أدنى درجات السلم الاجتماعي حسب طبيعة الاشياء والى الابد . وفي هذه الحالة يمكن للزنجي أن يكون مفيداً اذا كان تابعاً وملحقاً في مجتمع لايعامل فيه كأجنبي مطلقــاً ، بل ان التعايش بين البيض والزنوج في الجنوب سيحمل أهل الجنوب البيض على محبة الزنجي كلما أبدى استكانة وخضوعاً . وفي هذا يقولون : « نحن نعرف وحدنا قيادته بموجب السلطة الطبيعية المخولة للعرق الاسمى . نحن وحدنا نعرف كيف نخاطبه ونعامله بالفة ، ونمزح معه بقدر ، وضمن حدود لايجوز تجاوزها ومسافات لايصح البعـد عنها . بيد أنه اذا أطلق له العنان ، ضاع كل شيء ، لانه يعتبر كل تنازل منا دليلاً على الضعف ، ويصبح غير محتمل ، وحيواناً خطراً وربما وجب قتله

ككلب كلب . وان الشمال يلعب بالنار، لان القضية بالنسبة له ثانوية ؛ أما بالنسبة للجنوب الذي نريده أن يبقى بلد الانسان الابيض ، فالقضية قضية حياة أو موت »[1].

وهكذا يجد زنوج جنوبي الولايات المتحدة أنفسهم مواطنين من الوجهة النظرية ، ولكنهم من الوجهة العملية بعيدين عن التمتع بحق المواطن ، لان الجنوب ينكر على الملونين حق التصويت : فعلى الزنجي ألا يكتب اسمه، وألا يمثل أمام صناديق الانتخابات ، واذا أصرّ خاطر بحياته . ففي عام ١٩٤٨ قتل الزنجي عيسى نيكسون من ولاية فيرجينيا لانه دخل مكتب الاقتراع ورفض الخروج منه . وهذا الابعاد عن الاقتراع يطبق اعتباطاً وعن سوء نية ولا يطلب من الفاعل شرح الاسباب الداعية له .

يضاف الى ذلك ، أن الضريبة الانتخابية المسماة « بول تاكس » التي تجبى من المصوتين في مختلف ولايات الاباما ، اركانساس ، ميسوري ، تكساس ، فرجينيا وغيرها ، يراد منها تثبيط همة الناخب الزنجي وعدم اقدامه على الاقتراع . وهذا السلاح ذو حدين ، لان الزنجي ، إذا كان مليئاً ، استطاع دفع هذه الضريبة ، ولكنه يحرم فقراء البيض من التصويت .

وفي الشمال يمارس الزنوج جزئياً حقوقهم السياسية . ولكن ولايات الجنوب حولت التعديلين ١٤ و ١٥ ، في ٢٧ شباط ١٨٦٩ ، بشرط معرفة القراءة والكتابة ، أو شرط الجد . وبموجب هذا الشرط لايحق للأحفاد أن يكونوا ناخبين إلا اذا كان جدهم ناخباً . وهذا الشرط تحايل على الدستور ، كما هو واضح ، ومن الطبيعي أن يرفض الزنوج ويبقى عددهم تافهاً عند ممارسة حقوقهم السياسية ، اذا ماقيس بالنسبة الى عدد البيض .

---

(١) راجع André Siegfried , Les Etats - Unis

(٢) بول تاكس Poll = Tax

وبموجب قوانين « جيم كرو »[1] عزل الملونون في احياء خاصة كريهة ، وفي دور غير مجهزة تجهيزاً صحياً كافياً ، ومهملة ، وغير ممثلة في المجالس البلدية . كما عزلوا عن ارتياد المسارح والفنادق والمطاعم التي يرتادها البيض ، انسال العرق المختار ، ولا يستطيعون الركوب في القطارات أو الباصات أو حافلات الترام الا في أجنحة خاصة بهم ، ولا يقبلون في القطارات ذات الامرة ، حتى ان الكنائس أخذت تعتدي على حقوق الله والناس وتميز بين البيض والزنوج . وفي الحرب العالمية الاولى والثانية كان جيش للبيض وجيش للزنوج . وجعل الجنوب من المدارس قضية مبدأ ، وبدا أنه غير مستعد لاي تنازل في هذا السبيل . وبالاجمال فان الزنجي يعامل كأدنى ، حتى ولو كان مثقفاً ، ويشعر البيض بغضاضة اذا نادوه « ياسيد » بل يقولون : جون ، جوزيف . وعليه أن يجيب بكل احترام : سيدي ، زعيمي ، رئيسي . ومما يروى عن الرئيس تيودور روزفلت ، عندما استقبل الزعيم الزنجي بوكو واشنطون ، أنه تجنب الصعوبة وخاطبه : « يا أستاذ » (يا اسطه) . وكلمة أستاذ ، عند الانغلو-ساكسون تتضمن شيئاً من التهكم والاستخفاف . وفي ظل هذا النظام يضيع حق الزنجي ويظل منكود الحظ مضطهداً . وفي الغالب لايلاحق القاتل الابيض إذا كان القتيل زنجياً ، واذا لوحق برأت ساحته لجنة محلفة معفاة من كل شدة . ومن الممكن أن يحاكم الزنجي اعتباطاً وتعسفاً دون قانون ، ولا يمكنه الاحتجاج على المجرم الابيض دون أن يعرض حياته للخطر .

والجدير بالذكر هو أن هذه الكراهية العرقية أشد ظهوراً عند صغار

---

(١) جيم كرو Jim Crow اسم محتقر للزنجي ومنه سيارة جيم كرو المخصصة لنقل الزنوج كلها أو جزء منها .

البيض وفقرائهم ، لأنهم يخشون منافسة الزنوج في الاعمال ، لاسيما وانهم أقل تطلباً وطموحاً واكثر طاعة وانصياعاً . وفي ذلك مايعرض فقراء البيض الى البطالة المزمنة أو الى خفض مستوى الحياة . وهـذا العامل الاقتصادي وحده غير كاف لايضاح اتفاق البيض على كره الزنوج واحتقارهم، لان هذه العاطفة تتضح بالموقف الذي يقفه البيض نتيجة للقلـق الذي يساورهم ، بالرغم من أكثريتهم ، من وجود الزنجي الذي يكون أكثرية محلية في بعض ولايات الجنوب ، ومن الخوف غير المعقول الذي ينتابهم لدى تصور الانحطاط الذي يمكن أن ينشأ ، كما يتصورون ، عن اختلاط الدم وامتزاج الاعراق والالوان ، ومن الاحتكاك اليومي المباشر ،والشعور المبهم المتولد عن الحياة العاطفية . وبالرغم من أن الزواج محرم بين الزنوج والبيض فلا يمكن نكران علاقات جنسية بين العرقين ، وان كانت هـذه العلاقات مع النساء البيضاوات أقل منها مع النساء الملونات . ومهما يكن ، فالبيض الذين يقتنون خليلات زنجيات كثيرون . وبالرغـم من القرف الطبيعي والمتكلف رسمياً وظاهراً ، تتمتع الزنجيات في الولايات المتحدة بسحر الجنس وجاذبيته . وكانت العلاقات الجسدية شائعة في زمن الرق وما زالت باقية بشكل أو بآخر . ويقدر بين ٧ و ٨ ملايين أو يزيد عدد البيض ممن فيهم دم زنجي، ومثل هذا العدد عند الزنوج ممن فيهم دم أبيض . وهذا العرق الخلاسي الجديد يختلف كثيراً عن النقاوة الافريقية الاصلية .

وتزداد القضية الزنجية تعقيداً بالهجرة . فقد توالت الهجـرات الزنجيـة من الارياف الى المدن في القرن العشرين منـذ الحرب العالميـة الاولى وما بعدها بقليل ، ثم تمت بحركة واسعة كبرى في الحرب العالمية الثانية واستمرت في ١٩٦٠ . وتغيرت على اثرها صفة القضايا العرقية في أمريكا

فما كان من قبل قضية الجنوب أصبح الآن قضية من أهم القضايا لجميع البلاد . وقبل الهجرات كان ٩٠٪ من الزنوج في الولايات المتحدة يعيشون في الجنوب ، وعلى الاكثر في المناطق الزراعية . أما اليوم فقد انتشروا في كل البلاد ، واحتشدوا في الأجزاء الوسطى من المدن شمالاً وجنوباً . وان اكثر من $\frac{٢}{٣}$ المقيمين في واشنطون D. C. زنوج جدد . ويؤلف الزنوج في نيويورك مايقارب نصف سكانها ، واكثر من ٤٠ ٪ في اتلانتا ، نيواورلئان ، ممفيس ، ونحو الثلث في بولتيمور ، كليفلاند ، ديترويت ، فيلادلفيا . وتوجد حشود ضخمة من الزنوج في شيكاغو ، نيويورك ، لوس انجليس . وفي كل هذه المدن الكبرى ، كما في كثير من المدن الصغرى ، ترى نسبة الزنوج آخذة بالازدياد وبشكل ثابت . وما من مدينة في الولايات المتحدة الا ولها قضيتها العرقية . وان الغيتو ، الأحياء التي يقيم فيها الزنوج قد وضعت من جديد الحزام الاسود رمزاً الورطة الامريكية . وترى في المدن صورة مناقضة للمخاوف التي تنبأ بها الزعيم الزنجي بوكر واشنطون . ففي المدن يجد الزنوج محلا مريحاً أكثر مما في الريف ، وآفاقاً اجتماعية وفكرية رحبة تجعلهم أكثر وعياً لهويتهم وقوتهم كجماعة ، واعتزازهم بعرقهم وزعمائهم الجدد ، والمعاملة الطيبة التي يلقونها ، وحظاً للتصويت . وباختصار ، أصبحت المدينة تعني الأمل بالنسبة للزنجي[1] .

ان رد الفعل الذي يقوم به بيض الجنوب حيال الزنوج يعتبر في عرف البيض قضية دفاع عن العرق الابيض المهدد ان عاجلا أو آجلا

(١) راجع المقدمة Richard B. Sherman, *The Negro And The City*, Prentice - Hall , Inc , Englewood Cliffs N. J. , P.1

بالعرق الأسود . ولذا يرى البيض أن كل شيء حل لهم في سبيل الذود عن عرقهم ، وان هذا الرد الفعل أمر غريزي ، ومن حقهم أن يتخذوا جميع الوسائل الممكنة لرد الخطر الذي يتهددهم ولو بلغت هذه الوسائل درجة العنف والفظاعة .

غير أن موقف البيض في الشمال يختلف عن موقف الجنوب ، لأن الشمال يعترف للزنوج بحق المواطن : فبامكانهم أن ينتخبوا وينتخبوا ، وأن يرسلوا أبناءهم الى المدارس العامة ، ويركبوا القطارات والتراموايات ويشتغلوا في المعامل الى جانب البيض ، ويشغلوا وظائف وأعمالاً تتطلب مهارة ، ويتزوجوا من البيضاوات ، ويقيموا مبدئياً دون شرط العزل . وفي الحقيقة ، ان كل مابإستطاعة القانون أن يفعله في ميدان المساواة العرقية قد فعله . ولكن القضية الزنجية ، بالرغم من كل ذلك ، لم تحل على الصعيد الاجتماعي ، لأن الاخلاق والعادات والاعراف لها حكمها أيضاً . فالزنجي يطرد اجتماعياً من فنادق البيض ومطاعمهم وأنديتهم . واذا طمح ، وهذا حقه ، أن يقيم في حي البيض ، طرد بالعنف . واذا حاول الاستحمام على شاطىء شيكاغو ، اعتبر دخيلاً . ومن المحتمل أن تقوم مشادة بشأنه . وما يزال البيض يحسدون الزنوج اذا تولى هؤلاء مراكز مرموقة أو تتطلب خبرة خاصة ، أو عندما يعطلون عن العمل ويتعرضون لأخطار البطالة . ومع أن الزنجي في الشمال أحسن حالاً منه في الجنوب فما زالت القضية الزنجية قائمة لم تلغها الصيغ الدستورية أو التشريعات القانونية .

ونتساءل بعد هذا ماهو موقف الزنوج حيال هذا الظلم الاجتماعي ؟

لقد مر الزنوج في الولايات المتحدة بمرحلتين :

١ – مرحلة الرق ، وكانوا فيها مضطهدين معذبين ، يعاملون بسوء أو يتساهل معهم ، وهذا شيء نادر .

٢ – مرحلة الحرية التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم وهي المرحلة الحالية .

ان موقف الزنجي في الجنوب ، بالرغم من التحرر الذي هزه وملأ نفسه ، مازال مشدوداً بسائق التقليد الى سيده الأبيض في المزرعة ، وهو يعترف بتفوق الابيض عليه ويحاول أن يتلاءم ويتكيف أكثر من أن يقاوم . ويبدو أن المعاملة السيئة المديدة والقاسية التي عومل بها قد أفقدته شجاعته . وبالرغم من الاحتقار الذي يحيط به في كل مكان ، ويولد فيه عاطفة الحقد والنقمة ، فهذه العاطفة لاتجد لها متنفساً في كثير من الأحيان .

أما في الشمال فالموقف مغاير ، لأن الزنجي مدني على الأكثر ، وهو يتمثل الاخلاق والعادات بسهولة ويسر . واذا وضعنا اللون جانباً ، وجدنا أن الزنجي « يتأمرك » بسرعة ، وبشكل اوفى وأتم من المهاجرين الاوربيين . وفي الحقيقة ، ان القرون الثلاثة التي خلت وهذا القرن لكافية لأن تنسيهُ أصله الافريقي البعيد . فهو أمريكي ، ويكاد لايعرف ، أو يضيع بين الجمهور في مدن الشرق والوسط ، لاسيما وأنه يعامل بأفضل من اخوته في الجنوب . ولكنه ، من جهة ثانية ، يعاني أزمة التمييز العنصري . فهو يعرف واقعه وحقوقه المدنية . وهذا الوعي يشعره بالكثير من المرارة لأنه يرى نفسه منبوذاً في مجتمعه . وهذا الشعور بالنفي والعزل يدفعه الى المطالبة ، ويذكره في كل لحظة بلون جلده سبب بلائه وشقائه .

وفي الشمال والجنوب يختلف الزنوج في نظرتهم لبعضهم . فهم يعتبرون وراثة الرق الذليل مذلة ، حتى ان أنسال الأجداد الأحرار يتحاشون الاختلاط بورثة الأرقاء . وهم حساسون جداً بلون بشرتهم ، ويميزون فيها درجات وفروقاً عديدة : من الأسود الفاحم اللماع الى الموزي الشاحب . ويسعد الزنجية حقاً أن تتزوج برجل أكشف منها لوناً ولو بدرجة بسيطة . وبالمقابل ، ان الراعي الصالح أو الزعيم المحرض يزداد نفوذه كلما ازداد مداد لونه سواداً ، وما ذلك إلا لأنه لايستطيع التخلص من لونه أو « المرور » عند قول الزنوج .

والمرور في لغة الزنوج هو التمكن من الانتقال الى صف البيض اذا كان لون الزنجي كاشفاً ويسمح بذلك . ويمكن لمن كانت هذه حاله أن « يمر » الى صف البيض بصورة استثنائية نهائياً أو موقتاً دون أن يعرف في مطعم أو مسرح . ومن يغير وضعه الجنسي لايفكر بالعودة الى الوراء ويذوب في محيط البيض . ويبدو أن الزنوج يسمحون بهذا الهرب من اللون . وبالمقابل ، حدث أن ملونين فروا من جنسهم فتملكهم عذاب الضمير وعادوا طواعية الى صف اخوانهم .

ولكن طموح الزنوج يتجاوز هذه التطلعات الفردية . فالجمهور الزنجي مازال بالنسبة للبيض في حالة انحطاط ، ولا يرتبط بالبيض إلا بروابط المهنة أو المنزل . وكلما ازداد شعوره بهذا الوضع زاد ألمه . وقد خرج هـذا الشعور بأسمى آيات الفن في المعاني التي عبرت عنها القصائد المسماة «الروحانيات الزنجية» ، التي تعتبر جزءاً من تراث الانسانية الشعري . وما من أحد عبر عن روح التحدي في وجه العنف المناوىء للزنوج أكثر من كلود ماك كي

في قصيدته « اذا لزم أن نموت »[١] .

ان هـذا القسر الاجتماعي لم يمنع تشكل نخبة زنجيـة آخـذة بالنمو والتطور يوماً بعد يوم . وقد أصبح بامكانها وضع برنامج للعمل والدفاع عنه . فهي تضم جماعة من الزنوج ممن نجحوا في أعمالهم وأصبحوا أثرياء ، وفئة حملت الشهادات الجامعية ونجحت في المهن الحرة من أطباء وأطبـاء أسنان ومحامين وممرضين وكتاب وفنانين موهوبين يجيدون العزف والرقص والغناء والتمثيل ، ومنهم من يتمتع بشهرة عالمية . وهم يشعرون بعاطفة التضامن التي تربطهم بزنوج افريقيـة ، ولكنهم لايفكرون بالعودة الى قارتهم الأصلية ، لأن وجدانهم أصبح امريكياً ، ولأنهم يعتبرون انفسهم امريكيين وموالين لدولتهم ووطنهم الولايات المتحـدة ، ولا ينقصهم الا ممارسة حقوقهم المدنية المشروعة .

في آخر القرن التـاسع عشر ، قام الزعيم الزنجي بوكر واشنطون ، مؤسس جامعة توسكيجي [٢] الزنجية برفع مستوى بني جنسه بالتعليم والنمو الذاتي في اطارهم الخاص . وانشأ الزعيم الزنجي بورغاد دوبوا[٣] مجلة « الأزمة » وبرنامجها رفع مستوى الزنجي على يد الزنجي . ووجدت صحافة ومجلات تتوجه الى الشعب الزنجي وتحدثه بمصالح جنسه ، وتدفعه الى الاعتزاز والفخار بما قام به من جلائل الأعمال . ووجد زعماء زنوج

---

(١) راجع Claude Mc kay, Selected Poems, New york Bookman Associate , inc . , 1953, P . 36 .

وقد نشرت قصيدة « اذا لزم أن نموت » في :

Richard B . Sherman ,

المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٩٧٠ .

(٢) توسكيجي Tuskegee

(٣) بورغاردت دوبوا Burghardt du Bois

في شيكاغو ونيويورك يهدفون الى ماهو أبعد من ذلك ، وهو الاندماج الكامل بالشعب الامريكي ، ويطالبون بذلك باعتبارهم امريكيين . وهم يعتزون بمواطنتهم الامريكية ، ولكنهم لايتمتعون بحقوق المواطن الامريكي ويقولون : « اننا نطلب بأن نعامل كبشر وأمريكيين » . وتراهم لايتكلمون عن أنفسهم بأنهم زنوج بل يصرون على أمريكيتهم ، وانهم أمريكيون. وشعورهم بالولاء الكامل لوطنهم ، الولايات المتحدة ، الذي لايرضون عنه بديلًا .

كتب رالف جونسون بانش ، حامل جائزة نوبل عام ١٩٥٠ ، في هذا الصدد : مهما أغرقت في الحاق بأصلي ، فقد ولدت أمريكياً كما ولد أسلافي . ان هذا البلد بلدي . حقاً لقد تجشمت السباب والذل بسبب جنسي ، ووضعت العقبات في سبيلي ، ولكني تغلبت عليها . وهذا مالم يستطعه الآخرون دوماً . ولكني أفدت فوائد جلى . إنني أفهم بلدي ، وأتفانى في سبيله ، وأشعر بواجباتي مواطناً نحوه ، وأؤمن بالنظم الديموقراطية ، وأحب الحرية وكرامة المواطن والفرد ، وأتعلق بمبدأ مساواة الشعوب ، ولا أعرف إلا قليلًا من الزنوج الذين لايشاركونني وجهة نظري » . وفي هذه الشروط يرى أن المساواة المدنية ، كما هو معترف بها قانوناً ، لاتكفي ، بل يجب أن تتحقق فعلًا في الحياة الاجتماعية ، وهذا يعني أن تفتح الفنادق والمطاعم والمسارح والمركبات الى العرق الآخر ، الزنجي ، وأن يسهل الزواج بين العرقين ، الأبيض والزنجي ، دون أي قيد مذل .

ولاقت هذه المطاليب جواباً في أوساط النخبة الفكرية الامريكية وبذلت جهود لتحسين العلاقات بين العرقين . حتى ان الرئيسين روزفلت وترومان أعلن رسمياً رأيها لصالح الحقوق المدنية . وبالرغم من هذا

الموقف فان غريزة الدفاع العرقي مازالت مستحكمة في الجنوب ، وبشكل أخف منها في الشمال ، وما زال الزنوج يتعرضون لشتى الاهانات اليومية .

ولم تهتم الأحزاب السياسية في هذه القضية بشكل مجـــد ونافع : فالحزب الديموقراطي بحكم قاعدته الجنوبية يدافع عن وجهة نظر البيض . والحزب الجمهوري يعطف مبدئياً على الزنوج ، ولكنه لم يضع أي برنامج قوي ليطبقه عملياً بشأنهم . وما زال التباين جلياً بين القوانين المسنونة وواقع الحيـاة العملي ، لأن التمييز موجود في كل مـكان ، بالرغم من الأحكام التي تحرمه ، ولأن الاعتراف بالحق لم يبدل الواقـع الا قليلا قليـلًا .

وفي الواقع ، ان تاريخ الولايات المتحدة يشهد ، منذ ١٩٤٨ ، على تقدم واسع في حقل التشريع لالغاء التمييز العنصري . فقـد أصدرت المحكمة العليا الامريكية سلسلة من الأحكام نقضت بهـــا عدة قرارات سابقة كانت تسمح ضمناً أو صراحة بالتمييز العنصري . ثم أصدرت في العام ١٩٥٤ قرارها التاريخي في الغاء التمييز كمبدأ دستوري ساري المفعول في التعليم العام . وكان هذا القرار ثورة في العلاقات العنصرية .

وفي صيف ١٩٦٣ ، قامت مظاهرات ضخمـة ضمت الزنوج والبيض في المدن الجنوبية ، وانطلقت « مسيرة واشنطون » التي اشـترك فيهـا أكثر من مائتي الف أمريكي يطالبون بالمساواة التامة للزنوج .

وفي عام ١٩٦٤ ، أقر مجلس الكونغرس بسعي من الرئيس جونسون تشريعاً أكثر تفهماً وتحديداً وتشديداً للحقوق المدنية يحرم التمييز العنصري في التصويت وفي الخدمات العامة وفي المدارس والتوظيف والمحاكمات وقطاعات الحياة الأخرى . وقال الرئيس جونسون بهذا الصدد : « ان الغاية من هـذا التشريع هي النهوض بالتزام أبقى وأكثر ديمومة تجـاه

الحرية وبسعي أشد رسوخاً وراء العدالة ، واحترام أعمق للكرامـــة الانسانية » .

وبالرغم من كل ذلك ، فما زال هنالك تفاوت عميق في أوضـــاع الزنوج ، ولكن التقدم محقق في هـذا المجال لأن التمييز العنصري في الولايات المتحدة آخذ بالتراجع ولو ببطء .

واليوم يسلك الزنوج طريقين للوصول الى التمتع بحقوقهم المدنية :

١ ــ **طريق العنف** ، الذي أخـذ بـه الزعيم المسلم **مالكولم اكس** وذهب ضحيته . فقد كان يتملكه احتقار عميق للبيض ، حتى انه أشار مرة لحذائه الأسود وقال : « كان لون أبي كهذا . وكان لون أمي ، التي اغتصب أحد البيض أمها ، مثل لون البيض ، حتى لتخالها واحدة منهم . إني أكره كل قطرة من دم البيض الذي يجري في عروقي لأنـه دم مجرم ومغتصب » .

٢ ــ **طريق اللاعنف** ، وهو طريق الزعيم المسلم علي جاه محمد ، الزعيم الديني والسياسي في الشمال . وقد انصرف نشاطه مع جماعته الى احقاق القيم الشخصية للزنوج ، وابدال الذل بالعزة ، والصغار بالسمو والرفعة . وفي نظر المؤرخ المسلم جمس بلدوين : « ان كل شيء يعمل في هذه الفرقة المسلمة لتعاد الى الزنجي كرامته التي نالت منها القوانين والأخلاق الاميركية » .

ويرى الزعيم الجنوبي الدكتور **مارتن لوثير كينغ** ، الذي نال جائزة نوبل للسلام عـام ١٩٦٤ ، « ان العنف ليس وسيلة لتسوية الخلافات ، انه يدل على أن مجتمعنا مازال مريضاً » . ويدافع عن نظريته هذه في شتى مواقفه . وعندما نهض ليستلم جائزة نوبل للسلام في اوسلو قال : « اعتقد ان الحقيقة العزلاء والمحبة المطلقة ستكون لهما الكلمة الأخيرة » . « ولهذا السبب كان الحق المهزوم موقتاً أقوى من الباطل المنتصر » .

وان المدنية والعنف فكرتان متناقضتان ، وان مشكلة هذا العصر السياسية والخلقية هي الحاجة الى بشر يتغلبون على الجور والتعسف والظلم دون اللجوء الى العنف . وفي رأي مارتن لوثر كينغ ان اللاعنف ليس مجرد سلبية عقيمة ، وانما هو قوة خلقية شديدة تفعل فعلها في التحول الاجتماعي ، وان شعوب العالم ستكتشف ، عاجلا او آجلا ، طريقة الحياة معاً بسلام .

ولكن هل الأمور تجري حسب هذه الآراء المثالية . اليس الحق المهضوم بحاجة الى قوة لتدعمه وتسمع صوته ؟ ! ان العطاء كان ومازال أصعب بكثير من الأخذ ؛ وان طريق الحرية والعدالة والمساواة مازال مفروشاً بالاشواك والدماء . وبالرغم من التقدم المتحقق في قضية الزنوج في الولايات المتحدة فما زالت التفرقة على أساس اللون تعكر حياة الولايات المتحدة وتتخذ ضروباً شتى لتحقيق مآربها العدوانية .

التفرقة العنصرية في جنوبي افريقية

يبلغ التوتر العرقي اقصاه في جنوبي افريقية ، لأن العنصر الأبيض لم يكتف باحتلال البلاد واغتصابها من أهلها ، بل يريد ان يتحكم بمقدراتهم واضعاً في سبيلهم الحواجز والقيود والقوانين الاعتباطية التي تعزلهم وتشل نشاطهم وتجعلهم في مستوى ادنى من الحياة .

تصعد هذه القضية الى منتصف القرن السابع عشر ، عندما استعمر اجلاف الفلاحين الهولانديين منطقة « الكاب » ، ثم تبعهم لاجئون المانيون وفرنسيون بروتستانتيون هاجروا اليها بعد الغاء « مرسوم نانت » الشهير عام ١٦٨٥ ، الذي أقر التسامح الديني والاعتراف بالكالفنيـــة في فرنسا الى جانب الكاثوليكية ، ليكونوا آمنين على ارواحهم وعقائدهم الدينية بالاضافة الى منافعهم الاقتصادية .

وقد تمثل عنصر «البوير» ، من الفلاحين الهولانديين المستعمرين أو انسالهم ، العناصر الأخرى ، منذ آخر القرن الثامن عشر ، بعد أن أخذ عنها اصلاح الدين وحماسة كالفن وعقيدة الايمان بالقضاء والقدر وتفسير الكتاب المقدس تفسيراً يبرر خضوع الزنوج من أبناء حام الى الآريين البيض .

ومنذ العام ١٨١٥ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ جنوبي افريقية وهي مرحلة الاحتلال البريطاني ، بعنـــدما امتد التوسع الاستعماري الانكليزي واصطدم بالبوير بسبب استعمار هذه البلاد واستغلال خيراتها ، بعد ان تبين انها تحتوي ثروات منجمية ضخمة من ذهب وماس وفحم ، وبسبب الغاء الرق الذي يحرص عليه البوير للقيام بالأعمال الزراعية . وقد بلغ النزاع بين الانكليز والبوير ذروته في حرب البوير عام ١٨٩٩ وانتهى بصلح عام ١٩٠٢، واعلان اتحاد جنوبي افريقية، عام ١٩١٠ ، الذي خول الحكومة الاتحادية سلطات واسعة ومنح عنصر البوير والوزير الأول تفوقاً محسوساً في ادارة البلاد .

على أن اتحاد جنوبي افريقية ، بالرغم من عنوانه الرسمي ، مازال بلد التوترات الداخليه . والقضية السوداء مازالت في مرحلة حادة . ويجب ألا تنسينا هذه القضية قضية أخرى وهي قضية الانكليز والبوير . وهاتان القضيتان تولدان بدورهما توترات خارجية .

والقضية البويرية في اتجاهها المناوىء معاً للبريطانيين والبانتو ترجع في أصولها الى الحزب الذي أسسه ، في عام ١٩١٢ ، الجنرال هرتزوغ [١] والى جمعية الاخاء [٢] ، وبرنامجها قديم وهو تأسيس جمهورية مسيحية كالفنية ،

(١) هرتزوغ Hertzog

(٢) الاخاء Broeder Bond

دون رابطة سياسية مع بريطانيا العظمى ، ودون نفوذ كاثوليكي ، أو يهودي أو ماسوني .

وفي عام ١٩٢٩ ، أطلق رجال الحزب الوطني في الاتحاد هذا الشعار : « افريقية الجنوبية بلد الانسان الأبيض » . غير أن حزب الوحدة ممثلاً بزعيمه الجنرال سمتس[١] كان يكبح جماح هذه النزعة ويحاول الحفاظ على الوحدة الوطنية في البلاد من جهة ، وعلى بقاء الارتبـاط برابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث البريطاني) . ولكن انتخابات عام ١٩٤٨ أسفرت عن اخفاق هذا الحزب ، فخسر سمتس آخر معركة في كفاحه ضد البوير ، ورد الوحدويون الى أقلية تضم البريطانيين مع المتأفرقين[٢] من أصل هولندي الموالين لفكرة سمتس . ومنذ ذلك الحين تألق نجم الحزب الوطني ، وكان برنامجه يرمي الى هدفين .

١ - القطيعة مع مجموعة الشعوب البريطانية (الكومنولث البريطاني) .

٢ - حل قضية أبناء البلاد الأصليين في الداخل لصالح البيض باتباع سياسة التمييز العنصري .

وتتضمن هذه القضية الأخيرة عدة معطيات :

أولاً - على الصعيد الديموغرافي : يمثل الزنوج كتلة من السكان تتألف من ١١ مليون نسمة ، وهم في تكاثر سريع . فقد ازداد عددهم بنسبة ٢٦ ٪ في عشر سنوات وما زال في صعود . ولبعض الاعتبارات يمكن أن يلحق بهم الملونون من صينيين وهنود وعددهم ١,٥ مليون وهم بنسبة تزايد ٣٥ ٪ . أما البيض فيربو عددهم قليلاً على ٣ ملايين نسمة ونسبة

---

(١) سمتس Smuts

(٢) المتأفرقون Afrikaners وهم الاوربيون من أصل هولاندي .

تزايدهم ١٦ ٪ فقط . وهذا التضخم العام محسوس في المدن بخاصة ، فمدينة يوهانسبورغ ، مثلا ، تضم أكثر من ٦٠٠،٠٠٠ زنجي من أصـــل ١،١٠٠،٠٠٠ نسمة . وبريتوريا العاصمة كانت المدينة الوحيدة التي تضم أكثرية بيضاء في العام ١٩٥١ ، أما الآن فهي زنجية وبيضاء على حد سواء .

وفي الحقيقة يعتبر اتحاد جنوبي افريقية من اعقد مناطق العالم سكاناً لاختلاف العناصر البشرية التي تسكنه وهي :

١ – البوشمان والهوتنتوت وهم سكان البلاد الأصليون .

٢ – قبائل البانتو العديدة وتسكن في معظم المناطق .

٣ – انسال الارقاء السابقين الذين أتي بهم للعمل في الحقول الزراعية .

٤ – الهنود الذين اتي بهم الانكليز المستعمرون للعمل في مزارع السكر في الناتال .

٥ – الملونون في الكاب الذين نتجوا عن اختلاط الهنود الاوائـل بنساء الهوتنتوت .

ويكون هؤلاء جميعاً ٨٣٪ من سكان اتحاد جنوبي افريقية ونسبتهم كما يلي : الافريقيون ٧١٪ ، الملونون ٩،٣٪ ، الهنود ٢،٧٪ . أما باقي السكان فيؤلفون ١٧٪ تقريباً وهم انسال الاوربيين الذين استوطنوا في البلاد من هولنديين وفرنسيين ، وانكليز ، واليهود الذين اتوا من روسيا وبولندا ، والمانيا بعد اكتشاف الذهب والماس [١]

ثانياً – على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، يرى ان نصف الزنوج يختلط مع البيض في المزارع وفي المراكز الصناعية ، ويؤلف القسم الأكثر تطوراً بين السكان ، ومع ذلك فقد حرمته سياسة التمييز العنصري من حقوقه .

---

(١) راجع الدكتور الصقار ، المصدر السابق .

والتمييز العنصري يعني هنا « الفصل او العزل الاجتماعي والاقتصادي والجنسي على مبدأ العرق » . ولقد سيطر على البيض في افريقية الجنوبية الخوف من أمرين .

١ - فقدان النقاء العنصري للجنس الابيض بسبب الاختلاط بالجنس الأسود.

٢ - فقدان البيض السيطرة السياسية اذا تقدم غير البيض من زنوج وملونين اقتصادياً واجتماعياً .

وقد شهدت البلاد ، في عهد كل من الوزير الأول مالان و ستريجدوم و فيرورد (١) ، موجة تشريعية عارمة تهدف الى فصل السكان الاصليين جغرافيا في معازل خاصة ، وابقائهم في اوضاع لاتسمح لهم بالتطلع الى المشاركة السياسية في ادارة شؤون البـــلاد ، لاسيا وانهم في رأي السادة البيض لايصلحون للقيام بالأعمال الحضارية الكبرى ، حتى ان المفوض السامي لاتحاد جنوبي افريقية صرح في خطاب القاه في لندن عام ١٩٥٣ بقوله : « ان كل ملمتر من التقدم الناجز في هذه المنطقة الواسعة يعود بكامله الى الانسان الابيض » ، وأوضح وجهات نظر تدافع عن هذه السياسة ، مدعياً ان سياسة التمييز أسلم عاقبة ، وان المشاركة السياسية تؤدي منطقياً الى « سيطرة الزنوج » والى « زوال » الأمة البيضاء من افريقية الجنوبية الى الأبد ، على حين أن « التمييز » يوضح « سياسة الوقاية الذاتية » . وقد بلغ خوف البيض من خطر الزنوج المقبل كل مبلغ ، حتى انهم تنبأوا بأن عدد الزنوج ، في العام ١٩٨٠ ، سيكون ١١ مليون زنجي في المدن مقابل ٤ ملايين أبيض . وهذا الخوف يضاعفه تقـــدم الزنوج الفكري

---

(١) مالان Malan

(٢) ستريجدوم Strijdom

(٣) فيرورد Verwoerd

واليقظة السياسية العامة والقيام بالعصيان . ولذا حدد التعليم العالي للزنوج، وحرم على الزنوج البانتويين الدخول في الجامعة الاوربية . ولم يبق أمام الزنوج الا ارتياد مكتبة وكالة الأنباء الامريكية في يوهانسبورغ .

وعرف ستريجدوم أهدافه فقال : « على الاوربيين أن يحافظوا على مواقعهم ويبقوا « بعثاً »[١] أي سادة في افريقية الجنوبية . كما يتوجب على الاوربي أن يحتفظ بحقه في حكم البلاد وبقائها للانسان الابيض » . وأوضح سياسي من الترانسفال بقوله : « اذا لم نحتفظ بالزنوج تحت سيطرتنا الدقيقة فسيخرجون البيض من افريقية، عندما تدق ساعتهم، ويأخذون بكل مناسبة مهنتهم ويخفضون مستوى حياتهم ... وفي هذه الايام ، التي يتبدل فيها كل شيء بسرعة ، من سيخاطر ويؤكد بأن مثل هذا الحادث لايحدث في السنوات العشر القادمة ، بل وحتى في السنوات الخمس القادمة ؟ »[٢] . حتى ان الصك التشريعي الصادر في العام ١٩٥٠ بالغاء الشيوعية في البلاد يسمح باتخاذ جميع التدابير الزجرية التي تؤمن سلامة الانسان الابيض ؛ هذا بالاضافة الى التشريعات الأخرى التي تعزل الزنوج وتخنق حرياتهم . وأكد فيرورد وجهة نظره السياسية بفظاظة حين قال : « نحن اليوم أمام هذا الاختيار : هل يحكم البيض صعيدهم الخاص والبانتو صعيدهم ، أم هل توجد افريقية جنوبية مختلطة ، مع البانتو في الحكم » . والى غير ذلك من تشريعات وقرارات وتصريحات كلها ترمي الى تقوية التمييز ودعم حاجز اللون الفاصل بين البيض والسود .

ونتساءل بعد ماهو رد فعل البانتو أمام هذه الحصون البوبرية من

---

(١) بعث Baas

(٢) راجع F. L' Huillier Avec ses Collaborateurs, Histoire de Notre Temps, P. 371 - 72, Paris, S Irey , 1964 .

الحكومة الاتحادية في بريتوريا والكاب وجامعة ستيلينبوش ، [1] التي ثقفت كل الشبيبة البويرية ، ومكتب جنوبي افريقية للقضايا العرقية الموجود في هذه المدينة ؟

لقد استيقظ الشعب الزنجي والملون بالرغم من كل هذه القلاع والحصون العرقية ، وتألفت نخبة بانتوية من معلمي المدارس والرعاة أي القسس والصحفيين والأطباء . وتم تشكيل هذه النخبة الفكرية بنتيجة الاحتكاك المباشر مع المستعمرين ، بالرغم من القيود والحدود ، وبنتيجة اليقظة العامة التي انتابت افريقية كلها منذ اعقاب الحرب العالمية الثانية . لقد حز في نفسها وجرح كبرياءها الانسانية الحملات المنظمة والنظام البوليسي والمطالبة بتذكرة الهوية والاقامة ، والتوقيفات العديدة ، في مخالفات المرور ، لمئات الالوف في العام ، والتشريعات الكيفية على المشروبات ، وغلاء النقل ، والنظام القبلي والبطالة والجرائم التي نشأت عنها ، فقامت تطالب بالاصلاح والمساواة الاجتماعية والسياسية . وتألفت حركات وأحزاب مناضلة :

من ذلك حركة المؤتمر الوطني التي يرأسها الدكتور كزوما ، وهي حركة جماهير في سبيل التحرر اكثر منها حزباً ، وتهتم بتوحيد الافريقيين للحصول على المساواة في الحقوق . وقد نشأ هذا المؤتمر الوطني الافريقي في الوقت الذي تأسس خصمه وهو الحزب الوطني وابتدأ بالعمل منذ ١٩٥٢ . وفي هذه السنة تم التفاهم بين رجال المؤتمر الوطني الأفريقي و ومؤتمر جنوبي افريقية الهندي الذي قام على سياسة التمييز ايضاً . واندفعت حملة العصيان المدني ، ودامت ستة أشهر ، وجرت خلالها عشرات

---

(١) ستيلينبوش Stellenbosch

(٢) كزوما Xuma

الالوف من التوقيفات . وقمعت الحكومة هذه الحركة التي لم يكن لها أي أساس مالي . وفي حزيران ١٩٥٥ ، انعقد « مؤتمر الشعب » المنبثق عن انتخاب جميع الفئات المقهورة : المؤتمر الافريقي ، المؤتمر الهندي ، منظمة الملونين ، مع مشاركة مؤتمر الديموقراطيين ، وهو حزب صغير للبيض . وصدر عن أعمال هـــذا المؤتمر « ميثاق الحرية » ، ولكن المشتركين في هذا المؤتمر عوقبوا بشدة ، لأن هـذا الميثاق كان ميثاق مساواة ايضاً . وجرت اتصالات مع الخارج بتسلل عناصر شيوعية في المؤتمر الوطني الافريقي ، والاشتراك في مؤتمر اكروا (١٥ - ٢٢ نيسان ١٩٥٩) . وكان لقضية الكونغو اثرها في امتداد الثورة الافريقية نحو الجنوب.

وفي ربيع عام ١٩٥٩، انفصل عن المؤتمر الوطني الافريقي مؤتمر آخر يسمى مؤتمر الجامعة الافريقية ،الذي لم يضمر العداء للبيض ،ولم يشأ ان يرتبط بيسارهم الا مع الهنود . وفي آذار ١٩٦٠ ، قام المؤتمر الوطني الافريقي ومؤتمر الجامعة الافريقية بحملة لاعنف ضد القوانين على تذكرة المرور ، رمز السيطرة البيضاء . من ذلك ان البيرت لوثيلي[١] رئيس المؤتمر الوطني الافريقي ، أحرق علناً اوراق هـــويته في بريتوريا . واحياناً ادت المظاهرات الى اضطرابات كاطلاق الرصاص في شاربفيل ، وهو حي من احياء مدينة فيرينتغ ، في الترانسفال ، في ٢١ آذار ، بعد ان فقدت الضابطة السيطرة على اعصابها . وصرح البرلمان بعدم شرعية المؤتمر الوطني الافريقي ، واعلنت حـالة الطوارىء ، واوقف مايقارب من ٢٠٠٠ شخص ، واجبر لوثيلي على الاقامة الجبرية في مقاطعة الناتال مع حرمانه حضور أي اجتماع الى عام ١٩٦٤ . ولوحق رئيس مؤتمر الجامعة الافريقية ، سوبوكيوي [٢] ،

---

(١) البيرت لوثيلي Albert Luthili

(٢) سوبوكيوي Sobukewe

استاذ اللغة البانتوية في جامعة ويتوترسراند وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، وقد نشر برنامجه السياسي أمام القضاة في : « اقامة ديموقراطية غير عرقية في افريقية الجنوبيــة وفي افريقية كلها ، وانشاء ولايات متحدة افريقية من الكاب الى القاهرة ، ومن مراكش الى مدغشكر » وختم كلامه بقوله : « نريد حكم الافريقي بالافريقي وللافريقي » .

عزل افريقية الجنوبية

كان بامكان الثورة الافريقية ، وحتى دون مسانـــدة الملونين ، ان تحاصر دولة ونظاماً معزولين . فقد عاش الهنود في افريقية الجنوبية تاريخاً أليماً حمل عمل غاندي بعض آثاره . ولا بد هنا من الاشارة الى مشروع الحكومة في نقل ٤٠٠٠٠ هندي من دوربان الى كاتو مانور في ١٩٥٩ . وقد تجددت شكاواهم الى الأمم المتحدة منذ ١٩٤٦ ، وكان أثرها الأكيد في شبه القطيعة بين بريتوريا ودلهي الجـديدة ، وحرباً باردة أفسدت كل تعاطف مع اتحاد جنوبي افريقية في الحوض الهندي ، وأكثر من ذلك على صعيد « الجاليات » الهندية الواسع من افريقية الوسطى حتى ماليزيا . وهذا عامل يجب ألا يهمل . وعلى أثر الواقع الأعم في « النزاع العرقي في افريقية الجنوبية بسبب سياسة التمييز العنصري » أخطرت الدول الافرواسية الثلاث عشرة الأمم المتحدة في ايلول ١٩٥٢ بأن اللجنة المسماة سانتا-كروز الخاصة بالنظر في القضايا العرقية ، التي ظهرت أهميتها عظيمة في التفسير الوطني أو الدولي لقضية داخلية ، قد نحيت عن أرض الدومنيون ، باسم السيادة ، ولكنها ظلت تعمل حتى آخر عام ١٩٥٥ . وبتجنب كل تخل عن التمييز العنصري ومغادرته الاونيسكو ، حصل اتحاد جنوبي افريقية على أقلية قليلة جداً ، في ٦ كانون الأول ١٩٥٥ ، على عدم تجديد انتداب لجنة سانتا - كروز .

وكان هذا النصر ضعيفاً ، لأن الأمم المتحدة عددت قرارات اللوم ، بدءاً من ١٩٥٨ ، وعانت افريقية الجنوبية من العزلة العالمية وفقدان الثقة بهـا الشيء الكثير .

وبالرغم من المصالح المتقابلة من ستراتيجية واقتصادية ، فقد انقلب الوضع الراهن للعلاقات الانكليزية -البويرية بتطور الكومنولث حيث أخذ فيه الزنوج مكاناً عظيماً . وان مشروع القانون على الرفيراندوم : « هل أنت مع جمهورية اتحاد جنوبي افريقية » ؟ - الذي ادخل الى البرلمان الاتحادي في آذار ١٩٦٠ ، قد صوت عليه في شهر أيار ، واجاب الرفيراندوم نفسه عليه بالايجاب في تشرين الأول . وخرجت جمهورية اتحاد جنوب افريقية المعزوله من الكومنولث ، في ٣١ أيار ١٩٦١ ، وقوطعت في عدة نقاط من العالم ، ولم يتحمل اتحاد جنوبي افريقيه الا البريطانيون الذين ترددوا أمام بعض مظاهرات القومية السوداء . ولغم الافريقيون الاتحاد . فقد سبق واحتج باتون على التمييز فكلفه ذلك مصادرة جوازه . واليوم ، اكثر من مائـــة منظمة ثقافية او سياسية تلتمس دستوراً جديداً غير عرقي . ويبدو ان تطوراً نفسياً اخذت ترتسم معالمه في اوساط الكنيسة المصلحة وفي اوساط الشبيبة . وكل الدلائـل تشير الى ان عجلة الزمان اخذت تدور بسرعة لغير صالح سياسة التمييز العنصري في اتحاد جنوبي افريقية ، بالرغم من التدابير الاعتباطية والاعمال الكيفية .

التمييز العنصري في المستعمرات البرتغالية

كانت البرتغال اول البلاد الأوروبية الى استعمار بلاد ماوراء البحار منذ الكشوف الجغرافية الكبرى . وقد استطاعت قبل غيرها ان تقيم المراكز التجارية على امتداد شواطىء افريقية وآسيا الجنوبية وان تستولي على مناطق

شاسعة في افريقية وامريكا الجنوبية . ولكن امبراطوريتها تقلصت مع الزمن ، وأصبحت تقتصر في عصرنا الحاضر على المستعمرات الافريقية في انغولا وموزامبيك وغينيا (بيساو) والرأس الاخضر وبعض الجزر الواقعة حول هذا الرأس .

وتعتبر المستعمرات البرتغالية الافريقية نموذجاً للاهمال والتخلف . فقد اوجد الاستعمار البرتغالي في هذه المناطق ، شأنه شأن كل استعمار ، طبقتين مختلفتين من السكان :

١ ــ طبقة المستعمرين ، وهم من البرتغاليين الاوروبيين والمولدين من أصل برتغالي ، ، وقليل من الافريقيين المتحضرين الذين تمثلهم المجتمع البرتغالي في المستعمرات ضمن بعض الشروط .

٢ ــ طبقة ابناء البلاد الأصليين .

والبون شاسع بين الطبقتين ، لأن الاستعمار البرتغالي لم يعمل شيئاً لأبناء البلاد ، بل تركهم وحبلهم على غاربهم ، وجعل منهم مادة استهلاكية ومصدر استغلال دون التعويض عليهم بشيء من اسباب الحضارة ، بالرغم من تصريحاته المتكررة . واقام التفرقة والحواجز الفاصلة القائمة على اختلاف اللون بين الابيض والأسود . وهو وان وضع القوانين التي تسمح بقبول المستعمرين الافريقيين في عداد المتحضرين ، فقد كان الوصول الى هذه الطبقة صعب المنال ، وكان يتوجب على من يريد منهم ان يكون متحضراً ان يحقق الشروط التالية :

١ ــ ان يدين بالمذهب المسيحي الكاثوليكي .

٢ ــ ان يكون ناطقاً باللغة البرتغالية ومثقفاً ثقافة برتغالية كافية .

٣ - أن يتخلق بالاخلاق والطباع والعادات والتقاليد البرتغالية متناسياً تقاليده الوطنية .

٤ - ان يكون مؤدياً الخدمة العسكرية في الجيش البرتغالي .

٥ - ان يكون له دخل مناسب يعيش منه .

وعندما يحقق المرشح هذه الشروط ، أمام هيئة حكومية ، يحصل على لقب « مواطـــن » وينتقل الى صف « المتحضرين » ، ويحق له عندئذ ان يمارس الحقوق المدنية التي يمارسونها ، وان يشاركهم حياتهم الاجتماعية . وقل من كانت هذه حاله .

ولم تكن هـــذه القوانين وشروطها الا ستاراً يخفي وراءه حقيقة النوايا الاستعمارية البرتغالية في ابقاء ابناء البلاد في حالة تخلف مقيم ، عدا ما تطبقه البرتغال في مستعمراتها من نظام السخرة الذي أحلته محل نظام الرق ، ولكنها تنكر ممارستها للسخرة وتدعي بممارسة « العمل الموجه » لفائدة الافريقيين . وهذا العمل في ذاته لايختلف عن الاعمال الشاقة ، التي كان يقوم بها الزنوج في عهود الاستعمار الاولى ، في فاتحة العصور الحديثة ، والتي كان من شأنها انتزاعهم بالقوة من بلادهم واحضان أهلهم ونقلهم الى مناطق اخرى يعملون بها حسب مقتضيات مصالح العمل البرتغالي الموجه . هذا بالاضافة الى الفظائع التي ترتكب في حق السكان من ابناء البلاد « دفاعاً عن حضارة الرجل الاوربي في افريقية » .

وقد نشرت « جبهة تحرير موزامبيك » بياناً في صحيفة الغارديان ، في ١٤ تموز ١٩٧٣ قالت فيه : « ان المذابح ، في الحقيقة ، من الاعمال الشائعة للقوات البرتغالية في موزامبيك . ولقد استنكرنا في تقاريرنا الاعمال الشائنة التي أصبحت معتادة بين الجنود البرتغاليين ، وهي قتل الحوامل ببقر

بطونهن وانتزاع الأجنة منها ، وهم يقومون بذلك حسب قولهم « لمنع ميلاد ارهابيين جدد » [١] . الى مــا هنالك من قصف وتدمير قرى بكاملها وسلب السكان وترحيلهم بالقوة وتعــذيب الأسرى حتى الموت واستخدام الاسلحة الكيميائية .

وقد قابل الوطنيون من ابناء البلاد هذه الفظاعات بكل ماستطاعوا من قوة ايمان وجهاد وعناد ، بعـد ان نفخت روح التحرير الوطني في افريقية ، واخذ الدفاع عن المستعمرات يكلف البرتغال نصف ميزانيتها والوف الضحايا من ابنائها .

وأخيراً ادرك الجنرال انطونيو دوسبينولا ، بطل انقلاب ٢٥ نيسان ١٩٧٤ ، هذه الخسائر كلها والنتيجة الحتمية ، الجلاء عاجلاً او آجلاً ، التي ستصل اليها البرتغال بعد ان سبقتها اليها الدول الاستعمارية الأخرى ، وشرحها في كتابه « البرتغال والمستقبل » الذي قدمه لمواطنيه البرتغاليين ، بعد عودته من غينيا بثلاثة أشهر [٢] .

وليكون عمل سبينولا منسجماً مـع اقواله يجب تحرير المستعمرات البرتغالية في افريقيه وترك البــلاد لأهلها وتمتعهم في حقهم في تقرير مصيرهم .

التمييز العنصري في فلسطين المحتلة

الاستعمار الصهيوني - . ان التمييز العنصري في ارض فلسطين المحتلة حالياً لايقوم على فارق اللون بين الأبيض والأسود أو الملون عموماً ، كما في

---

(١) راجع مقال مصطفى سامي : « من برتغال سالازار الى برتغال سبينولا » في مجلة « الطليعة » ، ص ٧٣ - ٧٩ ، عدد حزيران ١٩٧٤ .

(٢) راجع عددي ٦ أيار ١٩٧٤ من مجلتي « Time » و « Newsweek » حيث تجد مقالين تحت عنوان « انقلاب في البرتغال » .

امريكا أو افريقية ، وانما يقوم على الفارق بين صهيوني و عربي . وهذا التميز يرجع ، ولاشك ، الى طبيعة « دولة اسرائيل » القائمة على العدوان .

ان تشكيل دولة اسرائيل في فلسطين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة الصهيونية العالمية التي قامت منذ أواخر القرن التاسع عشر واخذت تطالب بتأسيس « دولة صهيون » . وقد تأثرت هذه الحركة بعاملين :

الاول ، حركة القوميات التي كانت تدفع الشعوب التابعة أو المقهورة والمضطهدة الى تحرير نفسها من سلطة الدول التي تتحكم بمصيرها ، والى بناء كيانها القومي في مجتمع سياسي حر معترف به ، أو الى جمع شمل ابناء القوم الواحد الذين تجمعهم عوامل مشتركة وتأسيس دولتهم القومية .

الثاني ، نظرية الحقوق التاريخية والعودة الى فلسطين التي تعلق بها اليهود وزعموا بأن لهم حقاً في فلسطين اعتماداً على كيان سياسي وجد لهم خلال فترة قصيرة بين القرنين الحادي عشر والسادس ق.م . وخلال قرن من الزمن قبل الاحتلال الروماني في سنة ٦٣ ق.م [١] .

واذا ثارت الشعوب الاوروبية المقهورة على الدول المتحكمة بمصيرها ، وأسست دولها القومية على ارضها التي تسكنها وتقيم عليها منذ عشرات القرون ، فان الصهاينة ارادوا بناء دولتهم على ارض غير اوربية ، حيث لاارض لهم فيها او في غيرها ، لأنهم كانوا شعباً مشتتاً في الارض وغير مؤتلف ومنسجم ومندمج مع الشعوب الأخرى ، ومدعياً بأنه شعب الله « المختار » . وقد جرت عليه انعزاليته وأعماله التهديمية وأنانيته المتعصبة

---

(١) راجع :« تهويد فلسطين » ص ٢٤ اعداد وتحرير الدكتور مصطفى أبولغد، ترجمة الدكتور أسعد رزوق. منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث. بيروت١٩٧٢.

وسلوكه الشاذ كره البشر له حيث كان ، وزادت في عزلته . وقد نسج الصهاينة ، من فكرة « العـــودة » ونظرية « الحقوق التـــاريخية » واضطهاد الشعوب الأخرى لهم ، اسطورة لاستعادة مجد « امرائيل » في فلسطين .

وما كان للصهاينة ان يحققوا هدفهم السياسي لولا ان الظروف الدولية ساعدتهم الى ابعد مما كانوا يتصوورون . وقد استغلوا هذه الظروف خير استغلال . بـــل ومكنتهم المصالح الدولية والتنافس الدولي وضعف الدولة العثمانية وتقطيع اوصالهـــا ، وظروف الحرب العالمية الاولى ، وبخاصة اعتراف بريطانيا العظمى لهم في فلسطين بوعد بلفور وفي صك الانتداب على فلسطين ، مع مراوغتها للعرب في الحرب وبعد الحرب ، وحرمانهم أخيراً من الاستقلال الذي ارادوه وحاربوا في سبيله الى جانب الحلفاء .

وما احتلت بريطانيا العظمى ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ارض فلسطين رسمياً بانتداب من عصبة الأمم ، الا وأخذت تفسح المجال رحباً لهجرة الصهاينة ، واستيطانهم في فلسطين . وهكذا تضافرت قوى الاستعمار الاوربي ، بموجب صك الانتداب ، مـــع الصهيونية العالمية على احتلال فلسطين وجعلها مستوطناً ليهود العالم . ومن هنا بدأت المأساة الفلسطينية ولما تنته بعد .

بدأت المأساة بتشجيع الهجرة الصهيونية الى فلسطين . وقاوم عرب فلسطين ، على قدر استطاعتهم ، هذه الهجرة ، ولكن السلطات البريطانية ، في كل مشادة تقع بين الصهاينة والعرب كانت تنحاز الى جانب الصهاينة . ووجد هؤلاء ، بالاضافـــة الى بريطانيا العظمى ، في الولايات المتحدة

الامريكية نصيرا جديداً قوياً . فمنذ ١٩١٧ ، كانت حكومة الولايات المتحـــدة تمول الهجرة الصهيونية او معظمها الى فلسطين ، حتى انها ضغطت على بريطانيا العظمى في سبيل اصدار « وعد بلفور » المشؤوم .

كتب ابن غوريون في عام ١٩٤٠ : « اما انا فلم اكن اشك في ان مركز الثقل بالنسبة لعملنا السياسي كان قد انتقل من بريطانيا الى الولايات المتحدة التي كانت قد احتلت المرتبة الاولى في العالم كدولة كبرى »[١]

ويقول وايزمن في كتابه « مولد اسرائيل » ، بعد زيارة الولايات المتحدة بدعوة من الرئيس روزفلت في ١٩٤٢ ، « كان موقف الرئيس الامريكي ايجابياً للغاية »[٢] . و« ان امريكا على اعتقاد سمرويلز ، الذي حضر المقابلة ، على استعداد للاسهام في اقامة الوطن القومي اليهودي ، اسهاماً مالياً » . وفي الوقت ذاته ، وافقت المنظمة الصهيونية الامريكية على « برنامج بولتيمور » الذي طالب باقامة دولة يهودية في فلسطين كلها ، وانشاء جيش صهيوني ورفض « الكتاب الابيض » البريطاني لعام ١٩٣٩ ، الذي يسلم بقيام دولة فلسطينية عربيـة في المستقبل ويتخلى عن فكرة اقامة « موطن قومي يهودي » ، وتسهيل أسباب الهجرة الصهيونية دون حدود تحت الاشراف الوحيد للوكالة اليهودية . وبعـد قليل أصبح هذا البرنامج برنامج الصهيونية العالمية . وهكذا تزايد عدد الصهاينة في فلسطين ، وأصبح لهم جيش قوي يقوم بالتحرشات اليومية ضد العرب ، بل وضد الادارة البريطانية ، وحققت الولايات المتحدة هدفين في آن واحد :

---

(١) راجع « عاجلاً أو آجلاً ستزول دولة اسرائيل » ص ٢٠ ، بقلم ١٥ كاتباً فرنسياً ، دار الآداب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨ .

(٢) « مولد اسرائيل » ص ٤٩٠ . نص المقتطف من المصدر السابق ص ٢٠ أيضاً.

١ – مساندة الصهاينة مساندة تامة في مشروعهم الرامي الى ارهاب الشعب العربي في فلسطين .

٢ – طرد البريطانيين من فلسطين واحتلال مكانهم . وكانت الولايات المتحدة تعتبر ، منـــذ سنوات الثلاثين ، ان منطقة الشرق الاوسط « منطقة حيوية » لأسباب اقتصادية وستراتيجية ، وذلك بالتركيز والاعتماد على نظم ينبغي ان تخضع خضوعـــاً تاماً ، ولاسيا اقتصادياً للامبريالية الاستعمارية ، وأن يكون باستطاعتها ان تلعب دور « الكلب الحارس » لهذه الامبريالية الاستعمارية على الصعيد المحلي .

وباعتراف ابن غوريون نفسه في كتابه « اسرائيل سنوات من الكفاح » : « كانت اسرائيل تحصل من الولايات المتحدة الامريكية على كل مايلزمها لانتاج الأسلحة في فلسطين » .

وضمن برنامج التخلي عن المستعمرات الذي اضطرت اليه بريطانيا العظمى بعد الحرب العالمية الثانية ، وتحت الضغط الامريكي ، استسلمت بريطانيا في عام ١٩٤٧ ، وأحالت القضية الى منظمة الأمم المتحدة . وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه ، اجتمعت الجمعية العامة الأمم المتحدة ، واتخذت قراراً بقيـام الدولة « العميلة » مخالفة بذلك ابسط الحقوق البشرية وقواعد العدل الانسانية . وقـد كتب وايزمن ، في ١٣ أيار ١٩٤٨ ، في رسالة بعث بها الى الرئيس ترومان : « ان دور القيادة ، الذي قامت به الحكومة الامريكية بوحي منـــكم ، جعل من الممكن اقامة دولة يهودية » . وفي اليوم التالي ، في ١٤ أيار ١٩٤٨ ، اعلن في فلسطين مولد « دولة اسرائيل » . وكان أول أعمال هذه الدولة ، التي خلقتها الامبريالية الاستعمارية والصهيونية العالمية ، عملية حربية ترمي

الى التوسع فيما وراء الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة ، متخذة شتى الوسائل التي تجعل فلسطين دولة صهيونية بكل ماتتضمنه هذه الكلمة من معنى تام .

وفي الحقيقة ، ان الاستعمار الصهيوني لفلسطين بدأ منذ اواخر القرن الماضي عندما خصصت أموال ضخمة لما اسمته الصهيونية العالمية « شراء » الاراضي . وكان « الرواد » الصهاينة الاوائل يحصلون على الأموال والوسائل الفنية اللازمة التي تمكنهم من استغلال هذه الاراضي على الوجه الأكمل . اما المزارعون العرب ، ضحايا الاقطاع اولاً والاستعمار ثانياً ، فلم يكونوا ليملكوا من هذه الوسائل الا قليلاً ، أو ان هذه الوسائل لم تكن الا في يـــد القلة القليلة الغنية من ابناء العرب ، حتى ان بعض المزارعين منهم ، عن عوز او في سبيـل تحسين ارضهم وانتاجهم ورفع مستوى حياتهم ، كانوا يبيعون ارضهم او قسماً منها . وفي ظل الانتداب البريطاني كانت بعض الاراضي تصـــادر بعمليات عسكرية تحت اسم « عمليات دفاعيـة » ، ولا لبث ان تحاط بالاسلاك الشائكة وتقام حولها الحصون وتصبح وحدة دفاعيـة وتحميها السلطات العسكرية البريطانية . وكانت هذه المستعمرات اليهودية اداة للغزو والاستيلاء والنهب والسلب ، لأن كل واحدة منها كانت تشكل موقعاً حربياً تنطلق منه عناصر جيش العصابات الاسرائيلية « الها غانا » ، وتتحرش بالعرب ، وتهاجم وسائل النقل ، وتطرد المزارعين العرب من قراهم تمهيداً لارتكاب اعمال السلب والنهب والدمار والابادة . وهكذا كان عدوان الصهاينة على العرب من الخارج ومن الداخل .

الارهاب والعنف . — اذن لقـــد لجـــأ الصهاينة الى الارهاب والعنف منـذ وطـــأت اقدامهم فلسطين لبث الرعـــب في قلوب سكانها العرب وحملهم على مغادرة البـــلاد أو طردهم منها بأي ثمن والقضاء على البقية الباقيـــة منهم وتصفيتهم نهائياً بشتى الطرق الكيفية

والارهابية . وقد استعمل الصهاينة ، منذ قبل قيام امرائيل هذه الوسائل في مذابح حي القطمون في القدس ، وقرية دير ياسين ، وعين الزيتون . وصلاح الدين . ووصف الحاكم العسكري لمدينة القدس وقتئذ ، دوف جوزيف ، بأنه « عدوان متعمد مقصود لم يكن قد دعا اليه شيء »[1] .

ومنذ قيام الدولة الامرائيليـة والصهاينة يمارسون العنف والارهاب في الداخل لاخراج العرب والقضاء على « الاقليـة العربية » المتبقية في فلسطين ؛ وفي الخارج ضد الدول العربية المجاورة لفلسطين للحصول على ارض جديدة ومكاسب جديدة أو كما يقول الصهاينة « حدود آمنة » لاتقف عند حـد أو قيد ، والى المزيد من المذابح في الارض المحتلة ونسف العديد من القرى والمدن كما في ابو غوش ، في ايلول ١٩٥٣ ، وفي كفر قاسم « في تشرين الأول ١٩٥٦ ، وفي عكا ، في حزيران ١٩٦٥ ، والى ما هنالك من أعمال رهيبة وحشية ارتكبت في قطاع غزة ومدينة خان يونس .

وبعد عدوان ٥ حزيران ١٩٦٧ ، تعرض العرب ، في المناطق المحتلة الجديدة ، لحملات رهيبة من عمليات القمع بدعوى ان السكان العرب في هذه المناطق يساندون كفاح الفدائيين الفلسطينيين من اجل تحرير وطنهم المغتصب من قبل الصهاينة . فمنـذ الأيام الاولى للاحتلال قامت القوات الامرائيلية بنسف القرى والمدن العربية بالضفة الغربية من نهر الاردن ، ولم تكف عن ارتكاب انواع الأعمال الوحشية بغية تهديد السكان العرب وارهابهم . وطردت عشرات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين بعد هذه النكبة الجديدة ، واضطروا للعبور الى الضفة الشرقية من نهر الاردن . ولم تتوان هذه القوات الامرائيلية عن ارتكاب جرائم القصف ضد

(١) عاجلا أو آجلا ستزول اسرائيل ، ص ٥٨ .

السكان المدنيين الآمنين في المـــدن والقرى ، في حرب تشرين الأول ١٩٧٣ ، وحرق المحاصيل الزراعية وقطع الاشجار وترك البلاد خراباً يباباً بعد فك الارتباط والانسحاب عن جزء من الاراضي المحتلة في الجولان في هذه الحرب

التمييز العنصري . ـ لقد قامت دولة اسرائيل على العدوان ، وسلكت في سياستها الاستعمارية الطرق التي سلكها المستعمرون الاوربيون الاوائل عندما اتصلوا بالعوالم الجديدة في افريقية وآسيا وامريكا . واتخذت من العنصرية الأصيلة في طبـــع الشعب اليهودي هدفاً ووسيلة للوصول الى « اسرائيل » الصافية من كل اختلاط . والعنصرية صفة عريقة ودائمة في دولة المستوطنين الصهاينة ، ونابعة من صميم العقيدة الصهيونية التي تؤمن بوحدة اليهود القومية وتجعلهم ابنـاء سلالة واحدة مشتركة ومصير قومي مشترك . وهذا يعني ان الصهاينة يؤلفون أمـــة واحدة ذات خصائص واحدة ، أي انهم يؤمنون بوحـدة العرق ، ويعتبرون ان الاندماج مع الشعوب الأخرى يفقد الصهاينة نقاوتهم العرقية ، وبالتالي يذيبهم في بوتقة هذه الشعوب ويزيل الأمة اليهودية . ولذا تعتبر الصهيونية العنصرية الذاتية سبيلًا الى « الخـــلاص » من فساد الشعوب والى الحفاظ على « نقاوة » الدم الصهيوني و « طهـارة » العرق و على « الهوية اليهودية » ؛ وترفض كل اختلاط بين الأعراق وتنطوي على ذاتها العنصرية . وفي ذلك ما يؤدي الى رفض اليهود التعايش مع غيرهم في المجتمعات غير اليهودية . ولذا تدعو العنصرية اليهودية الصهيونـية جميع اليهود في العالم الى مغادرة « ارض المنفى » أو « ارض الشتات » ، منعـاً للاختلاط والفساد والى التجمع في « ارض الميعاد » ، فلسطين ، وطرد غير اليهود منها جميعاً لتصفو لهم وحدهم دون سائر الناس كافة .

والعنصرية الذاتية اليهودية ، في نظر اليهود ، شرط أساسي لابد منه في سبيل « التفوق » اليهودي ، لأن شعب الله « المختار » لايستطيع تحقيق « مصيره الخاص المميز » الا عندما يتم تجميعه بكامله في وطن خاص به لايقيم به سواه . [١]

واذا قارنا بين هذه النظرية العنصرية الصهيونية والنظرية المتلوية لوجدناهما تنبعان من مصدر واحد وهو القول بالعرقية . لقد عرض هتلر زعيم النازية ، في كتابه « كفاحي » نظرية العرق ، وقال : ان المصائب ، التي حلت بالمانيا في الحرب العالمية الاولى وفي أعقابها ، كانت من عمل اليهود المفسدين في الأرض . ولتعود لألمانيا هيبتها ومكانتها الاولى يجب تنقية الشعب الالماني مما علق به من ادران اليهودية والعودة به الى نقاوته الفطرية التي خلق عليها . وكانت التدابير التي اتخذها ضد اليهود ، على عجرها وبجرها ، متأثرة بهذه النظرية العرقية الى حد بعيد . ولاقى اليهود من ظلم النازية مالاقوا ، ولكنهم جسموا أعمال النازيين ليستدروا عطف البشرية عليهم . وعندما تحقق حلمهم بتشكيل دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، لجأوا الى العنف والارهاب وبشكل يفوق وحشية الأساليب التي اتبعها النازيون في اضطهادهم وتعذيبهم . كل ذلك في سبيل تخويف العرب وارهابهم وحملهم على مغادرة البلاد ، ومن ثم اتباع سياسة التمييز العنصري حيال الباقين منهم في فلسطين لاجبارهم بدورهم طوعاً اوكرها على الهجرة وترك البلاد للصهاينة المعتدين ، ان لم يكونوا قد ابيدوا من قبل .

---

(١) راجع « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » ص ٣٠ وما بعدها ، بقلم الدكتور فايز صايغ وترجمة الاستاذ عبد الوهاب الكيالي ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت .

واذا قامت دولة الصهاينة على أساس التعصب الديني اليهودي كفكرة جامعة ليهود العالم ، فقد قامت ايضاً على أساس هذه العنصرية العصبية الشاذة الملازمة للفكرة الصهيونية في بناء « دولة اسرائيل » : وهي ابادة الشعب العربي في فلسطين وتخليته منها . ولاشك في ان الدول الأوربية الاستعمارية مارست سياسة التمييز العنصري في البـــلاد التي استعمرتها ، واوجدت طبقتين من السكان في المستعمرات : طبقة ممتازة تنعم بكل شيء ، وطبقة ابناء البلاد الأصليين الذين حرموا من خيرات بـلادهم وردوا الى الدرك الأسفل من الحيـــاة ، مع مايلازم هذه الحياة من ضعة واحتقار . ولكن الدول المستعمرة ، بالرغم من كل ذالك ، رضيت بمعايشة ابناء المستعمرات واسناد الوظائف الثانوية والاعمال الملحقة بها لهم . اما المستوطنون الصهاينة فكان سلوكهم مـــع العرب وفاقاً لعقيدتهم الصهيونية : فقد عبروا عن « تفوقهم » المزعوم عن طريق « عزل » العرب وعدم الاختلاط بهم ، ومن ثم اجبارهم على النزوح عن ارضهم بأي طريق من طرق العنف والارهاب ، او طردهم بالقوة لتبقى فلسطين لهم وحدهم دون العرب ، واذا رضوا بوجود العرب موقتاً ، فلأنهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة التي تقتلع العرب من جذورهم وتطرحهم في الآفاق هائمين على وجوههم .

ومذ كانت الصهيونية فكرة تداعب خيال دعاة الصهيونية الأوائل ، كان هوتزل ، رائد الصهيونية ، يضع الخطط التي تحرم السكان العرب الأصليين المعدمين من العمل ليضيق بهم رحب الأرض ويضطروا الى النزوح عن بلاد آبائهم واجدادهم طلباً للرزق والحياة .

وبعيد الحرب العالمية الاولى كان وايزمن يتنبأ باقامـة دولة يهودية محضة متجانسة في فلسطين لا شأن لغير اليهود فيها « بقـــدر ماتكون

الأمة الفرنسية فرنسية » و « الأمة الانكليزية بريطانية » . وقد حافظ الصهاينة على هذا المبدأ كشرط أساسي لصهينة فلسطين وطبعها بالطابع الصهيوني وازالة الطابع العربي عنها بكل ما استطاعوا من قوة واغتصاب وشراسة . وفي الأرقام التالية مايوضح ذلك :

في ١٩١٨ كان سكان فلسطين ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . منهم ٦٤٤,٠٠٠ عربي و ٥٦٠٠٠ يهودي . وكان العرب يملكون ٩٨٪ من مجموع مساحة الاراضي ، واليهود ٢٪ منها .

وفي أيار ١٩٤٨ ، بلغ عدد سكان فلسطين ٢,٦٥٠٠٠٠ نسمة ، منهم ١,٤١٥,٠٠٠ عربي ، و ٦٥٠,٠٠٠ يهودي . وهذه الزيادة الملحوظة في عدد اليهود كانت بسبب تدفق الهجرة الصهيونية أيام الانتداب البريطاني على فلسطين .

وفي آخر أيام الانتداب البريطاني على فلسطين نجد النسب التالية

الأراضي التي يملكها العرب تؤلف ٤٧,٧٧٪ من المجموع الكلي

الأراضي التي يملكهـــا اليهود تؤلف ٥,٦٧٪ « « «

الارضي التي تملكهـا الدولة تؤلف ٤٦,٠٢٪ « « «

الاراضي التي يملكهـا الآخرون ٠,٥٤٪ « « «

وعليه تكون نسبة اليهود عام ١٩٤٨ حوالي ٣١ ٪ من مجموع السكان ونسبة ما يملكون من اراض في العام نفسه ٥,٦ ٪ من مجموع مساحة الاراضي .

وعندما انتهت الحرب بين العرب واليهود ، في خريف ١٩٤٨ ، بقي في فلسطين المحتلة ١٧٠,٠٠٠ عربي .

وفي عام ١٩٦٧ ، بلغ عدد العرب ٩٢٧,٠٠٠ عربي .

وفي عام ١٩٧٠ بلغ عددهم ٣٥٠٠٠٠ عربي وظلت نسبتهم كما كانت[١]
وفي عام ١٩٧٢ بلغ سكان اسرائيل ٣،١٤٢،٦٠٠ ملايين
يؤلف اليهود ٨٥،٤ ٪
والمسلمون ٧ ٪
والمسيحيون ٢،٢ ٪
والآخرون ٥،٤ ٪ [٢]

وهذا النقص الفادح في عدد العرب من مسيحيين ومسلمين يرجع ولاشك الى الأعمال الاجرامية التي ارتكبها الصهاينة في طرد العرب من بلادهم أو قتلهم أو محاولة ابادتهم تمهيداً للخلاص نهائياً منهم .

واذا كانت الفظاعات الاسرائيلية طرقـاً للخلاص من العرب في فلسطين ، فان التمييز العنصري الذي يطبقه الصهاينة في فلسطين ، وهو طريق من طرق الخلاص ، أو هدف الخلاص الأعلى ، موجه ضد العرب من مسلمين ومسيحيين ولايستثنون منهم احداً .

يقول المطران جورج حكيم ، رئيس كنيسة الروم الكاثوليك في « اسرائيل » : « اننا نخشى اتجاه النية الى حرمان عرب اسرائيل مما تبقى في ايديهم من اراض بعد ان اضاعوا تقريباً كل شيء . وهناك بعض المصاعب تقف في وجه المسيحيين والمسلمين الذين يريدون العمل في بعض المناطق . وقد تدخلت شخصياً لدى السلطات العليا الاسرائيلية لكي تسمح لبعض الأفراد الكاثوليكيين بالعمل في المنطقة الجنوبية وفي

---

(١) راجع : حبيب قهوجي « العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ ١٩٤٨ »، ص ٩ - ١٠ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢ .

(٢) راجع : Information Please Almanac, 1974 .

ايلات وغيرهما . ولقد صدمت باعطاء الجواب بالرفض ... اننا نشعر بأن التمييز العنصري يمارس ضد المسيحيين » [١]

ولاحظ الأديب والفيلسوف الفرنسي جان - بول سارتر هذا التمييز العنصري عند زيارته للأرض المحتلة وقال مخاطباً الصهاينة : « ان هناك تمييزاً ، ويجب ان تحاربوه. لاتتوقفوا عن هذا النضال. يجب أن تناضلوا من اجل التقارب والمساواة مع العرب . استنكروا التمييز . ارجوكم باسمي ان تستنكروه » [٢] . ونحن نشكر هذه الملاحظة الكريمة من الكاتب الكبير ، ولا نستغربهـــا منه . وبودنا لو أنه حاول أن يشرح الرأي العالمي الاوضاع السيئة ، التي رأى فيها عرب فلسطين المحتلة وما يلاقونه من اضطهاد ، بمزيد من التحليل والتفصيل ، كما شرح وحلل أوضاع اليهود في فرنسا وأوربة ودافع عنهم ودعا الى دمج اليهود وشجب مناوءة السامية [٣].

والصهاينة ، على ماهم عليه من صفات ، يفرقون بينهم وبين غيرهم ، وتحـــيزهم ضد البشر جميعاً شيء معروف عنهم . وأكثر من ذلك أنهم يفرقون بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . فمن ذلك أن اليهود الغربيين « الاشكنازيين » يريدون أن يستأثروا بالزعامة والسلطة والتمييز في معاملة اليهود الشرقيين « السفارديين » . وقد حاول اليهود الغربيون ، عن طريق الدعاية ، أن يستجلبوا اليهود الشرقيين من بيئاتهم المختلفة ويوطنوهم في فلسطين حسب شروط وضعوها لهم . وانتظروا منهم أن يتكيفوا مع

---

(١) راجع : الدكتور ريحي كمال ، « العرب في الارض المحتلة » ص ٢٢ ، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٦٧ .

(٢) راجع المصدر السابق نفسه ص ١٤ .

(٣) : Jean - Paul Sartre, *Reflexions Sur La Question Juive*, Gallimard, Paris 1954 .

هذه الشروط الجديدة ليتغيروا ويصبحوا واليهود الغربيين شيئاً واحداً بحيث لايبقى لهم أي علاقة بالعرب . ولكن ، على مايبدو ، ان اليهود الشرقيين، بعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم الشرقية التي تقربهم من عادات وتقاليد العرب، لم يندمجوا في هذه البيئة الصهيونية الجديدة عليهم ، بالرغم من الجهود التي يبذلها اليهود الغربيون لتغريبهم . وقد صرح بن غوريون في مقابلة له في عام ١٩٦٥ بقوله : « لست متفائلاً من تحسن أحوال الشرقيين منهم . فهم غير متعلمين ، عاداتهم عادات العرب ... وقد يخرج من اليهودي الشرقي شيء يختلف قليلاً في مدى ثلاثة أجيال . ولكن لا أرى ذلك بعد . »[١] . ولذا يشك اليهود الغربيون في اليهود الشرقيين واخلاصهم لاسرائيل : « من يعلم ؟ قد يأتي اليوم الذي ينحازون فيه مع العرب ، اذ ليس هناك كبير فرق بينهم وبين العرب » .

وهذا الشك أو الخوف له مايبرره في الواقع فاليهود الغربيون يخشون من طغيان الثقافة الشرقية والتقاليد الشرقية في فلسطين المحتلة ، فضلاً عن أنه يحرم اسرائيل من التبجح أمام الرأي العام الدولي ، بأن لها « رسالة » حضارية تريد أن تؤديها الى بلدان الشرق الأوسط ؛ أو من قيام علاقة بين اليهود الشرقيين وبين العرب . وهـذا الخوف الاصم ، الذي يتملك اليهود الغربيين يعتبر عاملاً مهماً في خلق الشعور بالكراهية والتمييز عند اليهود الغربيين ضد اليهود الشرقيين الذين ما انفكوا يبدون استياءهم من سوء معاملة الغربيين لهم ويقومون بمظاهرات تأخذ أحياناً طابع العنف والاصطدامات الدامية ، مما يضطر السلطات الاسرائيلية الى اتخاذ وسائل القمع ضدهم . وفي ذلك مايشعر اليهود الشرقيين بعدم الراحة والاستقرار

(١) راجع: هلدا شعبان صايغ « التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل » ص ٣٧ وما بعدها ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧١ .

ويحملهم على الهجرة ثانية . وفشل هـــذه الأحداث المتكررة يثبط همم المتحمسين من يهود العالم للهجرة الى فلسطين بعد أن نقل اليهم المهاجرون مايلاقونه من معاملة وتفرقة وعزل في أحياء خاصة وقيام باعمال لاتستهويهم وترضي نفوسهم .

و تعيش « الاقلية العربية » في الارض المحتلة في حـالة تشبه حالة السكان الاصليين في دولة اتحاد جنوبي افريقية . والمناطق التي يسكنونها يطلق عليها الصهاينة اسم « مناطق الأمن » . ويخضع العرب فيها وحدهم للأحكام العرفية ، لأن المشرفين على هذه المناطق من الضباط العسكريين الاسرائيليين . وتجري ملاحقة المتهمين العرب ، في ظل هـذه الأحـكام العرفية ، بموجب « قوانين الطوارىء » والدفاع أمام المحاكم العسكرية التي تكون قراراتها قطعية وغير قابلة للنقض بأي طريق من طرق المراجعة. وكثيراً ما يكون تنفيذ عقوبة النفي أو الاقامة الجبرية بأمر من الحاكم العسكري . ويخضع العرب وحدهم ، دون غيرهم ، الى نظام الرقابة ومنع الانتقال الذي يحـد من حريتهم في الحركة والتنقل . وهم محرومون من حرياتهم الاساسية ولا يسمح لهم باصدار الجرائد أو انشاء المنظمات السياسية أو المنظمات العمالية . واذا ما انتسبوا الى مثل هذه المنظمات كان شأنهم فيها تافهاً وكمية مهملة ، وستاراً لتظاهر الصهاينة أمام الرأي العام بأن العرب ينعمون بالمساواة في اسرائيل أسوة بجميـع السكان .

وفرص الثقافة محدودة ان لم تكن مغلقة في وجه العرب . وكلما ارتفع التعليم تحدد رواده واقتصر على قلة قليلة لا تتجاوز عدد الاصابع. حتى ان الاخبار الـــتي تبثها اذاعة اسرائيل تعطي صورة مشوهة عن أوضاع البلاد العربية فلا يعرف العرب الباقون في فلسطين حقيقة مايجري في البلاد العربية الاخرى وتنقطع الصلة بينهم وبين ذوي قرباهم .

كذلك يعاني العرب في الارض المحتلة من ضيق مجالات العمل ، مما يدفعهم الى البطالة أو القيام باعمال وخدمات غير مجزية ، مع الحرمان من حق المساواة في الاجر مع غيرهم ممن يؤدون نفس الاعمال .

وتخضع الاراضي الزراعية والمنازل والعقارات ، التي يملكها العرب في فلسطين المحتلة ، للحجز أو المصادرة استناداً الى سلسلة من القوانين الجائرة بحقهم سنتها الدولة بين أعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٣ ، وأباحت بها حرمان المالكين المتضررين من حق التقاضي أمام المحاكم لطلب التعويض . وقد تمت على هذا النحو مصادرة قرى عربية بكاملها وأعطيت لليهود لاقامة المستعمرات الصهيونية عليها .

وشأن الموظفين العرب في الادارة كشأن العمال العرب في منظمات العمل ، لأن حظهم فيها الاهمال وعدم المشاركة حتى في المكاتب التي تعنى بالشؤون العربية .

ولا يتمتع العرب بحق المواطنة في بلادهم . لأن هذا الحق قد حدد بموجب تشريعات عنصرية موجهة ضدهم . فبينما يحق ، بموجب قانون الجنسية ، لأي يهودي مهاجر الى فلسطين الحصول على الجنسية منذ وصوله اليها ، نجد العرب فيها يخضعون لشروط وقيود تجعلهم أغراباً في وطنهم . هذا بالاضافة الى تهجير العرب بأي شكل وجلب مئات الألوف من الصهاينة وتوطينهم في الاراضي المصادرة أو التي اخليت من أصحابها الشرعيين .

في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٧ ، أصدر رئيس وزراء اسرائيل ، ليفي اشكول ، نداءً من أجل الهجرة لاسكان ما أسماه « اسرائيل الكبرى » ، قال فيه : « نحن في حاجة الى المزيد من اليهود في اسرائيل . ووجودهم ضروري في مناطق التنمية الموجودة في اسرائيل منذ زمن بعيد » .

وأضاف : « ان هذا الوجود ضروري أيضاً في مناطق ليست في حوزتنا الآن ، إلا أنها تحمل أسماء وردت في التوراة . » وهذا يعني أن أطماع اسرائيل ، في احتلال الاراضي وتوطين المهاجرين اليهود ، لاتقف عند حدود فلسطين بل تتجاوزها الى احتلال الاراضي العربية الأخرى وتوسيع الرقعة الاسرائيلية الصهيونية على حساب العرب .

من هنا يظهر أن هدف المستعمرين الصهاينة الاول والاخير هو اخلاء فلسطين من سكانها العرب . وريثما يتوصلون إلى ما يريدون ، لايتوانون عن القيام باعمال الاضطهاد والتفرقة والاهمال واقلاق راحة العرب الباقين في الارض المحتلة باتخاذ التدابير المجحفة بحقهم من ظلم وافساد وتمييز وأعمال مؤسفة بحيث لايدرون كيف يمسون وكيف يصبحون ، وابقائهم في حالة قلق دائم على حياتهم وحاضرهم ومستقبلهم ، واشاعة روح الضغينة ضدهم، وإذكاء هذا الشعور عند الشعب اليهودي والاصرار عليه في أوساط الأجيال الصاعدة في المدارس والمؤسسات التعليمية العالية ، والحط من شأن الثقافة العربية والوصول بها إلى أدنى الدرجات بمراقبة التعليم في المدارس العربية ، وتشويه التاريخ العربي وتزييف القرآن بحيث يظهر العرب أمة لاشأن لها على مسرح التاريخ ، وليس لها ماتفتخر به من قيم حضارية عليا ، واشاعة روح الخلاف بين طوائف « الأقلية العربية » بمنح الامتيازات الرخيصة لبعضها لتلعب دور التابع المفسد ، بغية تمزيق الشعب العربي في فلسطين وانقلابه على نفسه وانشغاله بهمومه الخاصة عوضاً عن توجيه دفاعه وقواه المتبقية ضد الصهاينة .

وفي الحقيقة إن سياسة الصهاينة في فلسطين مستمدة من تعاليم التوراة والتلمود وتفسير التوراة حسب أهواء الربابنة والحاخامات وبالشكل الذي يرضي غرائزهم ونزوعهم إلى عمل المنكر واستعلاءهم على بقية أجناس البشر

مع كل ما يضاعفها من مبادىء استعمارية جديدة . وهـــذه السياسة هي سياسة افناء عقائدي لا تعرف وادعاً أو وازعاً ، إلا مـا حرم اسرائيل على نفسه ، وأنى له أن يحرم .

ونتساءل بعد ماهو موقف « الأقلية العربية » الباقية في فلسطين المحتلة؟

بالرغم من حالة الضعف التي وجدت فيها الاقلية العربية ، وبالرغم من التدابير التعسفية والأعمـال الوحشية والمجازر البشرية التي ارتكبها الصهاينة وما زالوا يرتكبونها في كل يوم في فلسطين المحتلة ، فلم يستكن العرب، ولم تهـدأ لهم حركة . ولقد بذلوا وما زالوا يبذلون الارواح في الدفاع عن حياتهم وأرضهم ، ولقد تحملوا وما زالوا يتحملون المشاق والظلم وما زالوا صامدين في وجـــه المعتدين . ولم تزدهم سياسة الاضطهاد والتمييز والارهاب والتنكيل والتهجير والترحيل إلا مقاومة وإيماناً ، بالرغم من ضعف امكانياتهم . لأن قلوبهم عامرة بالايمان وبحب بلادهم والدفاع عنها مهما كانت الأعمال اللاانسانية التي يلاقونها من أعدائهم الصهاينة . فلقد أبوا الاندماج في المجتمع الاسرائيلي الذي ردهم إلى مستوى أدنى من الحياة ، وحافظوا على عروبتهم وثقافتهم العربية التي أراد الصهاينة تشويهها وتزييفها. وجاهدوا وما زالوا يجاهدون في سبيل أرضهم ووطنهم .

وفي هـــذا الجو المليء بالقسوة والفظاعة والتمييز العنصري والعرقية العصبية الصهيونية اللاانسانية،انطلق صوت عربي يدعو العرب في فلسطين المحتلة إلى المطالبة بحقوقهم ومكانهم في المجتمع واحترام شعورهم وتقاليدهم، والى المستجيبون الاجتماعات احتجاجاً على سياسة الدولة في سلب الاراضي العربية ، وقاموا بمظاهرات عدائية ضد سياسة الحكومة الصهيونية معلنين سخطهم على التدابير التي تتخذها بحقهم . وتجلى ذلك على لسان فئة من

شباب العرب في الارض المحتلة اتحدوا تحت شعار « العدل والأرض » وعرفوا بـ « جماعة الأرض » . وظهر نشاطهم بنشر صحيفة تحت اسم « الأرض » التي ترمز إلى ارثهم الخالد . وماطلت السلطات الاسرائيلية في الرد عليهم . وبعد لأي رفضت طلبهم مدعية باعذار واهية .

ثم قررت « جماعة الأرض » اصدار نشرة أسبوعية لعرض وجهة نظرهم في القضايا الداخلية والسياسية . ولم يكن جواب السلطات الاسرائيلية في هذه المرة بأحسن من الأول . وقطعت دابر المطالبة بفرض العقوبات المالية والاقتصادية وتوجيه حملة صحفية اتهمتهم باتهامات باطلة . وساندت الصحافة الاسرائيلية في الخارج هذا التدبير لسلامة اسرائيل .

وظهرت التصريحات والمقالات والأشعار الوطنية الحماسية التي تدعو العرب في فلسطين إلى الصمود والتمرد والثورة على الظلم والهزء بمن يدعون للسلام مع اسرائيل والتعايش مع الصهاينة .

ولما لم تجد المطالبة العربية ، لجأ الفدائيون العرب إلى مقابلة العنف بالعنف من داخل الارض المحتلة ومن خارجها . وما ذلك إلا لأنهم عرفوا الا سبيل إلى التفاهم مع حكم العسكرانية الصهيونية ، وان الموت أفضل من الحياة التي يحيونها في ظل الاحتلال الصهيوني ، وان الكفاح المسلح أخيراً هو الحل الأمثل لقضيتهم والدفاع عن حماهم . ولذلك طلبوا الموت ليبعثوا من جديد وتعود لهم حياة العزة والكرامة . وما تزال الفدائية العربية توقع بالصهاينة الخسائر بالأرواح والأموال ، ولن تلين لهم قناة ، ولن يلقوا السلاح إلا وفلسطين محررة من رجس الصهاينة . ولقد كشفت الظروف والأحداث عن نوايا اسرائيل العدوانية التي لم تعد بخافية على أحد . وسيأتي يوم ترى فيه اسرائيل نفسها منعزلة عن العالم ، وما من مساعد أو ظهير . والباطل جولة ثم يضمحل . وسيكون شأن « اسرائيل »

شأن من سبقها من الغزاة والمعتدين ، الرحيل الرحيل إلى حيث لا رجعة، وستبقى أمة العرب حية ولن تبيد .

ان سياسة التمييز العنصري تضع أمام وجدان العالم تحدياً صريحاً الحرية والمساواة بين الناس ، وتعتبر مصدراً النزاع الدولي يعرض سلام العالم للخطر ، لأنها تتجاوز الآن حدود النزاع العقائدي البسيط . وإذا كان ينظر اليها في الماضي قضية داخلية ، أو تشجب على الصعيد الدولي والدبلوماسي بصيغ وعبارات أفلاطونية ، فقد تبدلت الظروف في العصر الحاضر ، لأن الشعوب المضطهدة والمقهورة ، وقد عانت من ظلم الاستعمار والتمييز الذي ترتب عليه ، لن تسكت بعد أن صحت ووعت نفسها ومصالحها ، وعرفت أن فارق اللون لا يرتكز على أي أساس علمي ، وانما هـو بدعة ابتدعها الاستعمار حجة لتبرير وجوده و « تفوقه » والدفاع عن مصالحه وعدم الاضرار بهذه المصالح ؛ وان تقدم الحضارة صفة مميزة للانسان الابيض دون الأسود أو الملون عموماً إنما هو حديث خرافة ؛ وان الشعوب الملونة ، وهي القسم الأكبر من الجنس البشري، لا يمكن اعتبارها كمية مهملة تعيش على هامش الحياة أو في حالة خضوع وخنوع وعرضة للفناء . « ولقد دحض العلم الحديث للانسان تخرصات العنصريين عن « سمو » أو « انحطاط » هـذه السلالات أو تلك ، مؤيداً كل التأييد فكرة وحدة الجنس البشري ، وتساوي الامكانيات الجسدية والعقلية عند جميع البشر ، بمعزل عن لون بشرتهم . » (١)

« وإذا كانت المساواة في حقوق الانسان قد كرست بمناسبة اعلان

---

(١) راجع : « الصهيونية ايديولوجية الامبريالية » ص ٧ ، تعريب أكرم الرافعي ، دار الفارابي ، بيروت ١٩٧٣ .

استقلال الولايات المتحدة وفي التعديل الخامس عشر لدستور هذا البلد الذي نص على أن حقوق الفرد لايمكن انتقاصها في أية ولاية ، بسبب العرق أو اللون ، وإذا كانت مبادىء مماثلة تدخل كذلك في دستور أغلبية البلدان واعترف بها رسمياً في المادة الثانية من شرعة حقوق الانسان التي وقعتها الأمم المتحدة ، في العاشر من شهر كانون الأول ١٩٤٨ ، فان الوقائع تدل على أن تمييزاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً موجهاً ضد السود والملونين عامة ، يدر قرنه في كثير من البلدان ، وهو يرتكز بصورة رئيسية على مفاهيم عنصرية مغلوطة » [١] .

لقد تنبأ دو بوا ، المتخصص بعلم الاجتماع والسياسي الامريكي، في العام ١٩٢٠ ، عندما قال : « ان الحرب العالمية الأولى ليست بشيء أمام النضال الذي لن يلبث ان يتجند له السود والسمر والصفر لاسترجاع حريتهم ووضع حد للاحتقارات والامتهانات التي يتعرضون لها من العالم الأبيض.» و « ان العالم الأسود لن يذعن لمصيره الحالي إلا الوقت الذي لا يكون بمقدوره أن يفعل غير ذلك » [٢] . وها هي ذي أفريقية قد أظهرت اجماعاً نادراً في عملها المشترك سواء في منظمة الوحدة الافريقية أو في منظمة الأمم المتحدة حيث اتخذت اجراءات محسوسة ومشخصة مثل مقاطعة اقتصاد اتحاد جنوبي افريقية . وسيجد هذا الاتجاه من المؤيدات المعنوية والمادية مايرد المتمادي في الباطل ، كما ستجد الشعوب المناضلة التي تشكو آلام التمييز في قواها الفكرية والمادية النامية والصاعدة ما يجعل سلاح الكبرياء والغرور عند « الانسان الأبيض » مفلولاً أمام حق الانسان في

---

(١) راجع : « العرقية إزاء العلم » ص ٢٤ ، تعريب المحامي انطوان بطرس خوري ، اونسكو ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .

الحرية والمساواة . وسيطول الجهاد وتفنى الأرواح ، ولكن الوصول إلى تحقيق الكرامة الانسانية يهون عنده كل خطب وتسهل الصعاب أمامه على كل درب .

ولقد أصبح واضحاً أن التعصب العنصري وما يتبعه من تمييز يعود إلى أسباب اقتصادية أو سياسية أو إلى مركب التفوق أو مركب النقص أو إلى فوارق بيولوجية أو إلى الغريزة الوراثية ، أو إلى هذه الأسباب جميعاً ؛ وان النظريات والفرضيات العرقية ، التي مجتها الاذواق ورفضها العلم ، أصبحت حديث خرافة . وإذا تمسك بها دعاة الصهيونية والامبريالية العالمية ، دفاعاً عن مزاعمهم ومنافعهم ، فان نهضات الشعوب الحديثة المتطلعة إلى المستقبل الأمثل كفيلة بازالة هذه الخرافات الاستعمارية والتصورات الوهمية . وليس هذا المستقبل عنا ببعيد .

الفصل الثالث عشر

الحياد الايجابي وعدم الانحياز

شرعة الامم المتحدة

ان رجعة الحرب ، بعد أقل من ربع قرن ، والخسائر الكبرى في الأرواح والأموال ، واشتراك الآباء والأبناء في حربين عالميتين ، دعت المحاربين أنفسهم ، في الحرب العالمية الثانية ، لتوطيد نظام للأمن الجماعي أنجع من نظام عصبة الأمم بعد أن أخفقت في تحقيق السلام العالمي والأمن الدولي، ولم تستطع حل المشاكل المعروضة عليها ، فضلاً عن أنها كانت آلة لخدمة مصالح الدول الاستعمارية الكبرى . ولقد آن الأوان لانشاء منظمة جديدة وتأسيس نظام للأمن يقوم على قواعد أرسخ وأوسع . وبعد مؤتمرات عديدة أثناء الحرب وبعدها اتفق الثلاثة الكبار ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى ، والصين على أن يدعى مؤتمر للأمم المتحدة في سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة ، في ٢٥ نيسان ١٩٤٥ ، لتحضير ميثاق لهذه المنظمة المزمع انشاؤها ، على أن يضم هــذا المؤتمر الدول الموقعة على ميثاق الأمم المتحدة ، الذي هيئت خطوطه الكبرى في مؤتمر دومبرتون اوكس ، في ايلول ـ تشرين الاول ١٩٤٤، وفي مؤتمر يالطا ، في ٤ - ١١ شباط ١٩٤٥ ، وجميع البلاد التي أعلنت الحرب على المحور قبل آذار ١٩٤٥ .

انعقد مؤتمر سان فرنسيسكو من ٢٥ نيسان إلى ٢٥ حزيران ١٩٤٥ ، ووضع شرعة الأمم المتحدة التي تبين مبادىء المنظمة وأهدافها ثم مختلف الهيئات التي تتألف منها المنظمة وكيفية سير أعمالها .

لقد كان الهدف الرئيسي لمنظمة الأمم المتحدة « الحفاظ على السلام والأمن الدولي » بتدابير جماعية ناجعة ، اذ يجب « صيانة الأجيال الصاعدة من وباء الحرب التي فرضت على البشرية مرتين ، وفي مدى حياة بشرية، آلاماً لا توصف ». وللوصول إلى هـــذا الهدف يتعهد أعضاء المنظمة ، الموضوعون على قدم المساواة ، ان يقوموا بالواجبات التي تفرضها الشرعة عليهم « في تسوية الخلافات الدولية بالطرق السلمية دون المبادرة إلى التهديد أو استعمال القوة » . ويقدمون للمنظمة أخلص عونهم في كل مرة تحتاج المنظمة اليهم . وتستطيع ، باعتبارها متأكدة من قوتها ، أن تلزم الدول غير الأعضاء على العمل حسب مبادئها الخاصة .

ولم يكن السلام هدف الأمم المتحدة الأوحد . لأن موقعي الميثاق يصرحون بأنهم مصممون أيضاً على اعلان ايمانهم « بحقوق الانسان الأساسية في الكرامة وقيمة الشخص البشري ، وبمساواة حقوق الرجال والنساء والأمم الكبرى والصغرى » . وانهم أنصار الحريات الأساسية للجميع دون تمييز عنصر أو جنس أو لغة أو دين . ويؤكدون حقوق الشعوب في تقرير مصيرها . وان منظمة الأمم المتحدة لتتجنب « التدخل في قضايا ترجع بصورة أساسية إلى الصلاحية القومية لدولة من الدول » .

وأخيراً ، ولما كان من الواضح أن الحرية تكون وهمية دون ضمانات اجتماعيـــة واقتصادية ، فقد عزمت الأمم المتحدة « على تنشيط التقدم الاجتماعي ، وعلى توفير شروط حياة أفضل في حرية أعظم » . وأفضل

وسيلة لذلك هو التعاون الدولي الذي يسمح بحل القضايا الدولية التي هي من نوع اقتصادي واجتماعي وفكري وانساني .

مما سبق تتضح الأمور التالية :

١ - ان ميثاق الأمم المتحدة مبني على مبدأ أساسي هو مبدأ التعايش السلمي . وفي ديباجة الميثاق نجد « نحن شعوب الأمم المتحدة ... وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار ، وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدولي ، وأن نكفل ، بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ، ألا تستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة » .

٢ - ان الميثاق يؤكد حقوق الشعوب في تقرير مصيرها ووضع حد للاستعمار والتحكم في مصير الشعوب غير المستقلة لتتمكن هذه الشعوب من تحقيق استقلالها .

٣ - ان الميثاق أقر مبدأ « الشمول » وهو أن المنظمة تشمل الانسانية جمعاء ، وان الانتساب اليها مفتوح لجميع الدول على اختلاف أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

٤ - ان المنظمة لم تؤسس لتأمين مصالح قسم من أعضائها على حساب القسم الآخر ، أي ان المنظمة ليست حلفاً سياسياً أو عسكرياً .

٥ - ان الميثاق يحرم الحرب كأداة لفض المنازعات الدولية ، لأن « مقاصد الأمم المتحدة هي حفظ السلم والأمن الدولي . وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأساليب التي تهدد السلم ولازالتها ، وقمع العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم ، وتتذرع

بالوسائل السلمية وفقاً لمبادىء العدل والقانون الدولي لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الاخلال بالسلم أو لتسويتها » .

٦ - ان مجلس الأمن هو الوحيد الذي يتولى مهمة الحفاظ على السلام . ولذلك « يعهـــد أعضاء تلك الهيئة الى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية في حفظ السلم والأمن الدولي ، ويوافقون على أن يعمل هذا المجلس نائباً عنهم في قيامه بواجباته التي تفرضها عليه هذه التبعات » و « أن يعمل مجلس الأمن ، في أداء هذه الواجبات ، وفقاً لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها » .

وفي الحقيقة ، وجدت البلاد الحديثة الاستقلال في ميثاق الأمم المتحدة صكاً يمكنها الرجوع اليه والتذرع به والاعتماد عليه إذا ما كانت هدفاً لعدوان جديد يهدد أمنها وسلامتها من قبل الدول الاستعمارية الكبرى أو من غيرها من الدول . لأن هذا الميثاق يعتبر مستمسكاً ترد به على القوى المعتدية التي قبلته ووقعت عليه وتعهدت أن تعمل بموجبه ولكنها خالفته وأرادت استغلال المنظمة الدولية لتحقيق أغراضها . وفي هذه الحالة تجد العالم أمامها كتلة واحدة تدافع عن الدولة الضحية . ولكن وقائع الأمور خيبت الآمال المعقودة على هذا الميثاق لأن الدول الاستعمارية الكبرى والتسلطات الاستعمارية كانت أول من خالف نصوصه .

لقد شهد العالم أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها تغير ميزان القوى الدولية ، لأن الدول الكبرى التقليدية لم تعد كبرى بعد ظهور العملاقين الكبيرين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . ولقد كان من حسن الحظ أن تعاون هذين العملاقين كان وثيقاً أثناء الحرب وأدى إلى حمل الدول الأخرى إلى انشاء منظمة الأمم المتحدة التي علقت عليها الشعوب

الصغرى والمستضعفة والحديثة الاستقلال آمالاً كبيرة . ولكن بعد أن انتهت الحرب وذهب العدو المشترك ، ظهر التنافس على أشده بين الدولتين العملاقين ، ولا سيا بعد أن شعرت الولايات المتحدة بالتهديد الشيوعي الذي امتد الى قلب أوربه وعلى قسم كبير من آسيا ، وظهرت آثاره بتأليف الأحزاب الشيوعية الوطنية في بلاد العالم كلها بما فيها الولايات المتحدة نفسها، ولو سراً . وحاولت أن تحصره وتضع أمامه سداً من الأحلاف العسكرية يحول دون تقدمه وامتداده إلى أكثر مما وصل اليه أو إلى دحره .

الاحلاف العسكرية والبحث عن توازن عالمي جديد

وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ولكنها تمخضت عن نتائج عميقة الأثر . فقد عاد التنافس بين حلفاء الأمس ، وبخاصة بين الحليفين الكبيرين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وأسدل ستالين الستار الحديدي على تشيكوسلوفاكيا في مساء ضربة براغ ، في ٢٥ شباط ١٩٤٨ ، وبذلك أنهى تفتيت الحلف العظيم الذي رأى النور في ١٩٤١ لرد الخطر النازي - الفاشي الذي كشف زواله عن قوة الدولتين العملاقين اللتين حققتا النصر على الأعداء ، وكشف لهما انتصارهما عن نفسيهما وقواهما الهائلة،وانتزعهما من عزلتها التقليدية وألقى بهما أو ألقيا بنفسيهما في كل مكان على سطح الكوكب . ولقد رأت الولايات المتحدة أنها لاتستطيع أن ترى بأم عينيها توسع الاتحاد السوفياتي وتتسامح به دون أن يؤلف خطراً على أمنها واقتصادها الذي لم تعد قدرته الانتاجية على مستوى البلاد أو القارة الأمريكية فحسب ، بل على مستوى العالم أيضاً . ومن هنا نشأت الحرب الباردة .

الحرب البارد‍ة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)

كان الجنرال لوسيوس كلاي [١] ، القائد الأعلى للجيش الأمريكي في برلين ، يخشى عودة الحرب الساخنة . فقد كتب ، في ٥ آذار ١٩٤٨ ، يقول : « أرى في الموقف السوفياتي تطوراً دقيقاً يعطيني انطباعاً بأن الحرب ستنفجر بفجاة درامية » . وهـذا التنبؤ ، الذي ينم عن أعراض الجو المتفجر في أوربه ، في ذلك الحين ، يبدو ، لحسن الحـظ ، أنه ضل ضلالاً بعيداً ، وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ القدرة النارية الاستثنائية التي كانت تملكها الولايات المتحدة دون اعتبار الحصر المطلق للسلاح الذري الذي كان تحت تصرفها ودام حتى الانفجار النووي السوفياتي الأول في ١٤ تموز ١٩٤٩ .

٢ ـ ضخامة قوة الولايات المتحدة الاقتصادية وثرواتها المـالية التي تبلغ ٨٠ ٪ من ذهب ونقد العالم بكامله ، وامكانها عملياً تجهيز جيوشها وجيوش حلفائها دون قيد .

٣ ـ ارادة واشنطون في وضع حد نهائي لتوسع الشيوعية الدولية في أوربة الشرقية والوسطى والصين القارية ، هـذا التوسع الذي أخذ يتجه نحـو تطويق الامريكيين سياسياً وستراتيجياً وخنقهم اقتصادياً بمنعهم من الوصول الحر إلى مصادر المواد الأولية والمنافذ الضرورية لتصريف انتاجهم .

ولدرء هذا الخطر المزدوج ، أعـد رئيس الولايات المتحدة مذهبه ، « مذهب ترومان ، الذي عرفه أمام الكونغرس ، في ١٢ آذار ١٩٤٧ ، بقوله : « أعتقد بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب الحرة

---

(١) لوسيوس كلاي Lucius Clay .

التي تقاوم محاولة الاستعباد بأقليات مسلحة ، أو الضغوط الآتية من الخارج.
اعتقد أنه يجب أن نساعد الشعوب الحرة في صنع مصيرها بأيديها الخاصة.
أعتقد بأن مساعدتنا يجب أن تكون بصورة أساسية دعماً اقتصادياً ومالياً
لا مندوحة عنه لاستقرارها الاقتصادي ولحياة سياسية متحدة ومنسجمة ».
وكان يرمي من ذلك إلى منع الشيوعية من التجاوز خارج الحدود التي
بلغتها في ذلك التاريخ . وهذه سياسة « الاحتواء » التي أدت مباشرة
إلى منح مساندة عسكرية لتركيا وبخاصة إلى اليونان المهددة بالاضطراب
والفوضى وانقلاب الأحوال من قوات الجنرال ماركوس . وبعد قليل
أدت هذه السياسة إلى اعداد « خطة مارشل » في مساعدة أوربه التي
أعلن عنها أمين الدولة ، مارشل ، في ذلك الحين ، في خطابه الذي ألقاه
في جامعة هارفرد ، في ٥ حزيران ١٩٤٧ ، وأبان فيه بوضوح الغاية
المزدوجة الاقتصادية والسياسية : الكفاح « ... ضد الجوع والفقر واليأس
والاضطراب . وان هدفه يجب أن يكون قيام نهضة اقتصاد نشيط في
العالم ، بغية خلق الظروف السياسية والاجتماعية التي يمكن أن توجد فيها
نظم حرة ... »

ومن قراءة هذه الجملة الأخيرة يفهم جيداً ان قبول
تشيكوسلوفاكيا هذه المساعدة كان حقاً في أصل ضربة براغ . لأن
الاتحاد السوفياتي لايمكن ، في الواقع ، أن يقبل بأن تتلقى الدول
التابعة له في شرقي أوربه ، ومثلها فنلندا ، مساعدة تضطرها للمشاركة
بنفس الصفة التي كانت عليها البلاد الستة عشر الأخرى الأعضاء في المنظمة
الاوربية للتعاون الاقتصادي التي فرضت دستورها ، في ١٦ نيسان
١٩٤٨ ، في الواقع ، الولايات المتحدة ، إذ كانت ترغب في انسجام طلبات
اعتمادات البلاد المستفيدة من المساعدة للاسراع بتوطيد قوتها الاقتصادية

وبالتالي مساعدتها بسرعة على استعادة استقرارها السياسي وايقاف التوسعية السوفياتية بشكل أفضل ، كما يفهم ضمناً من ديباجة الاتفاق الذي يوضح نصه «بأن يسهم في الحفاظ على السلام ويجعل من الممكن استعمال العون الامريكي نافذاً وناجعاً ... »

ولقد أدركت حكومة موسكو الخطر الذي تسوقه هذه الخطة أمام توسعها وتحسست بخاصة بالعون الذي خولته واشنطون لألمانيا الغربية ، اعتباراً من ١٩٤٨ ، وأدى بالتالي إلى رجعة دولة ألمانية ، الجمهورية الاتحادية ، في ٨ أيار ١٩٤٩ . وأخيراً قلقت من المساعدة التي أفادت بها الولايات المتحدة اليابان في نطاق حقوقي يختلف عن نطاق خطة مارشل . ولذا ردت ، أولاً ، بعزمها ، في ٥ تشرين الأول ١٩٤٧ ، على تأسيس مكتب استعلامات ، الكومنفودم ، لتأمين الارتباط بين الأحزاب الشيوعية الاوربية الأساسية ، وبصورة غير مباشرة ، لمساندة الاضراب الثوري الذي أثارته هذه الأحزاب في فرنسا وايطاليا في آخر هذه السنة نفسها . ثم انتقلت إلى الهجوم وبدأت باختبار قوة مع الولايات المتحدة : وذلك بحصار برلين الذي دام قرابة عام ، من ٢٤ حزيران ١٩٤٨ إلى ١٢ أيار ١٩٤٦ . وأحبط الانغلو - ساكسون هذه العملية السوفياتية بتنظيم جسر جوي ، في هذه الفترة القصيرة من الزمن ، يؤمن لبرلين ٢٧٧٠٠٠ طيران ونقل مايقارب ٢٥٠٠٠٠٠ طن من السلع الغذائية ، والمحروقات والمنتجات الأخرى . وكان لسياسة موسكو هذه نتيجتان إيجابيتان :

أولاً : في الشرق ، سارعت باقامة ديموقراطية شعبية جديدة ، بالجمهورية الديموقراطية الألمانية (المسماة بانكو)[1] ، في ٧ تشرين الاول ١٩٤٩ .

---

(١) بانكو Pankow .

ثانياً : في الغرب ، سهلت توقيع ميثاق بروكسل الدفاعي بين فرنسا والمملكة المتحدة والبينيلوكس ، في ١٧ آذار ١٩٤٨ ، وبخاصة توقيع معاهدة شمالي الأطلسي ، في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، التي أكملت بعد قليل بانشاء منظمة معاهدة شمالي الاطلسي التي شكلت قوة دفاعية أوربية مخصصة لتأمين « ... حفظ السلام والأمن ... » ؛ وأصبح تجهيز هذا الحلف ممكناً بمنح مساعدة عسكرية أمريكية ، بموجب أحكام قانون الدفاع المشترك المؤرخ ، في ٦ تشرين الاول ١٩٤٩ ، الذي أحلها محل مساعدة مارشل الاقتصادية بعد أن قاربت الانتهاء ، ويبلغ أولي قدره مليار وثلاثمائة مليون دولار . وقد أنهت هذه المعاهدة نهوض أوربه الغربية الاقتصادي ، بجعلها ، على القارة ، قادرة على تجميد توسع الشيوعية التي تحولت نحو آسيا حيث سادت قوات ماوتسه - تونغ الصين بكاملها في ١٩٤٩ . وأسهمت بالمساندة التي خولتها للغيت - منه في تحويل الحرب الاستعمارية ، التي قامت بها فرنسا ، منذ آخر ١٩٤٦ ، ضد جيوش هوشي منه ، إلى نضال ضد الشيوعية الدولية . كما أعطت حرب كوريا بعداً جديداً لهذا النضال .

الحرب الساخنة والانفراج (١٩٥٠ - ١٩٥٦)

لقد برهنت الولايات المتحدة والأمم المتحدة بتدخلها في حرب كوريا بعد ثلاثة أيام على النزاع ، الذي بدأ على خط العرض ٣٨° ، في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، بدافع من الرئيس ترومان ، على أنها عازمتان على المخاطرة ، عند الحاجة ، بتفجير عالمي ، على أن تتسامحا باعادة التشكيك في توازن القوى الموجودة في آسيا . وتبنتنا ، بهذه المناسبة ، موقفاً

مشابهاً للموقف الذي وقفتاه في أوربه حين حصار برلين . وبالرغم من أن الصين الشعبية تدخلت عسكرياً في هـذا النزاع ضد جيوش الجنرال ماك آرثر ، ابتداءً من ٢ تشرين الثاني ١٩٥٠ ، فقد تجنب الخطر أخيراً ، واكتفت اتفاقات هدنة بانمونجوم ، في ٢٧ تمـوز ١٩٥٣ ، باستقرار الحدود التي تفصل كوريا العالم الرأسمالي (الجنوبية) عن كوريا العالم الاشتراكي (الشمالية) اللتين وضعتا تحت حماية واشنطون وموسكو .

وبعد سنة تبنى مؤتمر جونيف حـلاً من النموذج الكوري لحل قضية فيت - نام التي قسمت في مستوى خط العرض ١٧° إلى دولتين مستقلتين نظرياً ، في ٢١ تموز ١٩٥٤ . وأكدت الولايات المتحدة في هذا المؤتمر بأنها تخلت نهائياً عن تحريك سياسة دحر الشيوعية الدولية لتطبيق سياسة « احتواء » أكثر حكمة وتعقلاً ، بعد أن دعاها هـذه السياسة وصول الاتحاد السوفياتي لرتبة الدولة الذرية ، في ١٤ تموز ١٩٤٩ ، ثم الدولة الحرورية النووية ، في ١٢ آب ١٩٥٣ .

ولكن أمين دولة الرئيس آيزنهاور ، الحقوقي فوستر دالس ، عزم على المضي قدماً في منظور احتواء العالم الشيوعي فيما وراء الحدود القصوى التي بلغها في ٢١ تموز ١٩٥٤ في جونيف ، وانتهى بوضع نظام معقد للأحلاف العسكرية أكمل به سياسة التطويق . وهكذا تعززت في الغرب قوات منظمة حلف شمالي الأطلسي منذ ١٩٥٢ بقوات اليونان وبقوات تركيا ، بل ومنذ ١٩٥٣ بقوات اسبانيا ، بموجب اتفاقات ثنائية اسبانية-أمريكية ، وأدخلت فوق ذلك ، في ١٩٥٥ ، جيش ألمانيا الاتحادية الجديد .

ووقف فوستردالس الاسامي من جهوده على الدفاع عن آسيا بخاصة . ولا شك في أن آسيا تأمنت بميثاق « الأنزوس [1]» الذي ضم ، منذ

(١) الانزوس A.N.Z.U.S .

١٩٥١ ، اوستراليا وزيلاندة الجديدة والولايات المتحدة للدفاع عن جنوبي المحيط الهادىء ، على حين أن ميثاق الأمن الياباني ـ الأمريكي ، الموقع في ٨ ايلول ١٩٥١ ، والذي تم توقيعه بعد أربع وعشرين ساعة على توقيع معاهدة سان فرانسيسكو ، يغطي شمالي المحيط الهادىء . وأكمل هذا العمل بابرام ميثاقي أمن آخرين : أحدهما مع كوريا الجنوبية ، في ٩ آب ١٩٥٣ ، والآخر مع تايوان (فورموزا) ، في ٢ كانون الاول ١٩٥٤ . وعدا ذلك أراد فوستر دالس تنسيق عمـــل حلفائه في الشرق الاقصى ، ووقع مع فرنسا وبريطانيا العظمى والفيليبين وتايلاند والباكستان واوستراليا وزيلاندة الجـديدة ميثاق مانيلا الشهير المؤرخ في ٨ ايـلول ١٩٥٤ الذي ألف منظمة معاهدة جنوب ـ شرقي آسيا (اوتاسيه [١]) ويعتبر هـــذا الحلف مثيلاً آسيوياً لحلف الاطلسي . وتأمن انضمام قوى المنظمتين بقوة حلف بغداد الذي أبرم ، في ٢٤ شباط ١٩٥٥ ، بـين العراق وتركيا ، ثم انضمت اليهما ايران والباكستان والمملكة المتحدة التي تخلت في الواقع عن توجيهه ، منذ حزيران ١٩٥٧ ، إلى حكومة واشنطون .

على أن الولايات المتحدة في عهد كينيدي وجونسون ، كما في عهـد آيزنهاور ، بانضمامها إلى حكومة موسكو لتمنع فرنسا وبريطانيا العظمى واسرائيل من انهـاء العدوان الثلاثي على مصر بنجاح ، في تشرين الثاني ١٩٥٦ ؛ وبانزالها فرقاً بحرية في لبنان عندما تهددت سلامته ، كما تدعي ، في أعقاب انقلاب عبد الكريم قاسم ، في ١٤ تموز ١٩٥٨ ، الذي أفاد من حيـاد الشيوعيين العراقيين ، ان لم يكن من دعمهم ؛ وبعدم ترددها بالمخاطرة ، في تشرين الاول ١٩٦٢ ، بحرب نووية لاجبار الاتحاد السوفياتي

(١) اوتاسيه O.T.A.S.E .

على تهديم قواعد الصواريخ التي أقامها في كوبا ؛ وبتسليحها في الوقت نفسه القوات الهندية المكافحة بالحيلولة دون الغزو الصيني الذي امتد في تشرين الثاني عبر منطقة وكالة الحدود الشمالية الشرقية (N. E. F. A)[1] نحو كالكوتا ؛ وبتدخلها أخيراً ، ابتداءً من ١٩٦٣ ، بشكل كثيف في فيت - نام لتحول دون اقامة نظام شيوعي في سايغون ، تكون قد برهنت على ارادتها بشكل لايدع مجالاً للشك في تقسيم العالم كما تعين في الواقع في يالطا في ١٩٤٥ وفي جونيف ١٩٥٤ .

وكان تحرك الاتحاد السوفياتي ، في عهد خروتشوف وكوسيغين ، كما في عهد ستالين ، نفس الارادة . ولذلك عارض المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي ومنظمة حلف شمالي الاطلسي بـ« الكوميكون أو مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة » و « بمنظمة حلف وارسو العسكرية » اللذين ضما الديموقراطيات الشعبية في أوربة الشرقية تحت سلطته منذ ١٩٤٨ ومنذ ١٩٥٥ . كما عارض بخاصة ، بالمفاوضة في بولونيا ، وبالقوة في هونغاريا، تحرير النظام السياسي لهذه الديموقراطيات الشعبية ، في تشرين الاول - تشرين الثاني ١٩٥٦ ، بعد أن سهل هذا التحرير ، على ما يبدو ، حل الكومنفورم ، في ١٧ نيسان المنصرم . وقد برهن السوفياتيون بذلك على أنهم يرفضون أيضاً التشكيك لغير صالحهم في تقسيم العالم القائم والموطد من قبل .

ان هذا التبلور في المواقع الارضية التي تحتلها البلاد الشيوعية والبلاد الرأسمالية ، يعتمد في الواقع على توازن الارهاب ، ومن غير شك ، ابتداءً من ١٩٥٨ ، على الخوف العام الذي شعرت به واشنطون وموسكو حيال بكين التي رغبت ، لحسابها الخاص ، باستئناف سياسة توسع الشيوعية

(١) N. E. F. A. أي : North East Frontier Agency .

الثورية . وقد انتهى هذا التبلور ، بصورة معاكسة ، بأن احل الانفراج الامريكي – السوفياتي محل « الحرب الباردة » التي دشنت في ١٩٤٧ . وهذا الانفراج هو « التعايش السلمي » الشهير الذي أرجع الى الوراء ، ولو ،وقتاً على الاقل ، ظل الحلم النووي المروع الذي خيم على العالم منذ١٩٤٥ .

مبدأ آيزنهاور

ان تقلص النفوذ الفرنسي والبريطاني بعد العدوان الثلاثي على مصر ، في ١٩٥٦ ، وانتفاضة الشعب العربي نبها الولايات المتحدة الى وجود « فراغ » في منطقة الشرق الاوسط ، فرأت أن تبادر وتملأ بنفسها هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتي اليه . وطلعت ، في ٥ كانون الثاني ١٩٥٧ بـ « مبدأ آيزنهاور » الذي يضمن تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية مشروطة لدول الشرق الاوسط ويسمح الرئيس الامريكي بالتدخل عسكرياً، عند « مقتضى الضرورة » ، في هذه المنطقة دون الرجوع إلى الكونغرس ، متجاهلاً ارادة الشعوب التي تسكنها وتطلعاتها الحديثة ، بعد أن استقل معظمها ، وأخذت تبني نفسها دونما حاجة إلى وصي أو رقيب . وما من شك في أن مبدأ آيزنهاور كان تغطية لأطماع الولايات المتحدة في المنطقة والافادة منها اقتصادياً واستراتيجياً ورغبة منها في حماية اسرائيل ، عدا عن أن هذا المبدأ يضم في تضاعيفه أخطاراً كثيرة أهمها اللجوء إلى القوة حسب تقديرات مقتضيات « الضرورة » ، وبذلك يخالف ميثاق الأمم المتحدة نصاً وروحاً .

ان هذه الاحلاف التي أتينا على ذكرها ، وان تظاهر صانعوها بأنها أبرمت في سبيل الدفاع عن النفس بطريقة جماعية ، كانت في سبيل السيطرة والنفوذ والتوسع والهيمنة . وهي بهذا تؤلف خطراً على السلام العالمي والأمن الدولي ، وبخاصة على الدول التي استقلت حديثاً وتخلصت

من افلال الاستعمار ، وليس من مصلحتها الانتماء إلى هذه الاحلاف أو تلك ، لأن هذا الانتماء يفقدها حريتها وشخصيتها المستقلة ويجعلها تلعب دور التابع المسير للدول العملاقة المجهزة بأسباب العلم والتكنولوجيا الحديثة والامكانيات الضخمة ؛ ولأن الحرب الباردة إذا ما انقلبت إلى حرب ساخنة ستكون حرباً ذرية لاتبقي ولا تذر . وان تشكل الاحلاف يقوم على صراع عظيم . وما شأن الدول المتخلفة أو النامية أو دول العالم الثالث المستقلة التي لا مجال للمقارنة بينها وبين الدول الكبرى المتقدمة في هذا المعترك الكبير على مستوى الجبابرة ؟

لقد أدركت هذه الدول الحديثة الاستقلال حقيقة الخطر الذي يكمن وراء هذه الاحلاف ويمكن أن يداهمها ويداهم العالم معها ، فحاولت جهدها أن تتمسك بميثاق الأمم المتحدة وان تنطلق منه دوماً وتجعله موجهاً لسلوكها وتعمل بموجب أحكامه ، وان يكون لها موقفها الخاص حيال الاحداث والاحلاف ، وان تسلك سياسة فطينة وحكيمة رائدها المصلحة القومية والعمل على احلال السلام والوئام محل الحرب والخصام ، لابعاد شبح الحرب وبذل الجهد لخير أبنائها وخير البشرية جمعاء . هذه السياسة هي سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز .

الحياد الايجابي

الحياد في اللغة . — الحياد في اللغة من حاد بمعنى مال أو انحرف أو ابتعد : كأن يكون هنالك طريق مرسوم وحاد عنه أي انحرف . وتقول : حاد عن جادة الصواب أي انحرف عنها ؛ أو ان هنالك خطأ معيناً وحاد عنه ولم يسلكه كما سلكه غيره . وفي هذه الحالة يكون الحايد ، من حاد ، قد رسم طريقه بنفسه ، ووقف عنده ، ولم ينحرف عنه .

وفي هذا الاتجاه يتفق المعنى العربي مع المعنى اللاتيني « نوتر »[١]، أي لا هذا ولا ذاك أو لا مع هذا أو ذاك .

الحياد القانوني . — ومن وجهة النظر الحقوقية ؛ وجهة القانون الدولي ، يعرف الحياد بأنه الموقف الذي تتخذه دولة مـا وتبقى بموجبه خارجة عن نطاق حرب بين دولتين أو فريقين من الدول . وهذا يعني أن الدولة ، التي التزمت الحياد ، تبقى محافظة على العلاقات السلمية مع جميع المحاربين دون تمييز . واتخاذ موقف الحياد يرجع إلى سببين :

١ — تنافس الفريقين المتحاربين وحرص كل منهما على عدم اعطاء الفرصة لفريق ثالث للتحالف العسكري مع الخصم .

٢ — رغبة الفريق الثالث غير المحارب باستمرار علاقاته السلمية مـع كل من الفريقين المتحاربين ، والافادة من هـذا الموقف الذي تمليه عليه مصالحه الذاتية ، كأن تكون مثلاً في تعاطي التجارة مع العدوين[٢] .

الحياد القانوني والعزلة . — واذا كانت هـــذه حالة الحياد القانوني القائم على السلبية ، فهناك سلبية أكبر وأوسع وفيها الكثير من عدم المبالاة والانانية والطمع والافادة من بلاء الآخرين .وهذه السلبية الواسعة هي مبـدأ العزلة السياسية الذي يجعل صلة الدولة بالمجموعة الدولية شبه منقطعة فلا تتأثر بالأحداث العالمية ، كالعزلة السياسية التي سارت عليها الولايات المتحدة الـتي أخذت بمذهب الرئيس جورج واشنطون منذ عـام

---

(١) نوتر Neuter .

(٢) راجع تقرير الوفد السوري في « **الحياد الايجابي** » الذي أعده الدكتور صلاح الدين الطرزي لمؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين ، دمشق ٧ — ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ . وقد طبعت أعمال المؤتمر باشراف نقابة المحامين في دمشق .

١٧٩٦ ، في خطاب وداعه إلى الشعب الامريكي عند انتهاء مدة رئاسته ، وظلت عليها حتى الحرب العالمية الأولى وكسرت نطاق العزلة وأخذ تدخلها بالتزايد منذ ذلك الحين في قضايا العالم الى أن وصل إلى ماوصل اليه اليوم .

ومثل هذه العزلة عزلة بريطانيا العظمى ، العزلة اللامعة ، التي اتبعتها منهمكة في قضايا التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومتناسية أو مهملة قضايا القضايا القارة الاوربية إلا قليلًا .

الحياد الدائم . — ولقد أقر مبدأ الحياد للمرة الأولى في مؤتمر فينّا عام ١٨١٥ حيث تم الاعتراف بحياد سويسرا الدائم ، وفي معاهدة لندن التي اعترفت بحياد بلجيكا الدائم . كما أقر مبدأ الحياد في مؤتمري لاهاي الاول في ١٨٩٩ والثاني في ١٩٠٧ دونما تغيير أو تبديل أو اضافة شيء جديد .

وحالة الحياد الدائم تكون إذا دخلت دولة ما كبلجيكا أو سويسرا في معاهدة مع دول أخرى تضمن لها بالا تعتدي عليها وأن تضمن سلامتها واستقلالها على أن تتعهد تلك الدولة بالا تشترك في حرب إلا في حالة الدفاع عن النفس ضد عدوان مسلح ، والا تأخذ على عاتقها تعهدات دولية تؤدي بها إلى الحرب ، أو أن تشترك في أحلاف عسكرية أو أي التزام دولي يجرها إلى الحرب . ومثل هذا الحياد الدائم يكون للحفاظ على التوازن السياسي للدولة ، أو لجعل الدولة المحايدة دولة حاجزة تفصل بين دولتين قويتين ، أو لأن المصالح الدولية تقتضي هذا الحياد الدائم للدولة المحايدة .

الحياد الايجابي . — الحياد القانوني ، كما رأينا ، حالة قانونية تفترض نشوب الحرب فعلًا لتبقى الدولة المحايدة بعيدة عنها . وهذا الحياد القانوني

هو الحياد التقليدي المتعارف عليه دولياً ، لاشيء منوط باشتعال الحرب . أما بعد أن أحدثت منظمة الأمم المتحدة وأقر ميثاقها ، فقد أصبح الحياد ضرورياً ولازماً في حالة السلام وفرضاً على الدول وبخاصة على الدول الحديثة الاستقلال التي تريد الحفاظ على استقلالها وتأمين رفاه وتقدم شعوبها والاسهام في خدمة البشرية . لأن الاشتراك في الأحلاف السياسية والعسكرية يعرضها لكثير من المخاطر ، كما يجعلها مخالفة لأحكام ميثاق الأمم المتحدة الذي ارتضته وقبلته وتحتمي به . ان هذا الحياد المطبق في حالة السلام والحرب الباردة التي تخفي وراءها أخطاراً كثيرة يسمى « الحياد الايجابي » .

في ٢٧ شباط ١٩٥٧ صدر بلاغ اقطاب العرب ووردت فيه هذه العبارة : « ان الدول العربية المجتمعة ، وقد ازدادت قوة بوعي شعوبها، وايماناً بسلامة أهدافها ، ورسوخ فكرتها ، لتؤكد ما سبق أن أعلنته عن عزمها على تجنيب الأمة العربية الحرب الباردة والبعد بها عن منازعاتها، والتزامها سياسة « الحياد الايجابي » محافظة بذلك على مصالحها القومية . وكذلك فان الدفاع عن العالم العربي يجب أن ينبثق من داخل الأمة العربية على هدي أمنها الحقيقي وخارج نطاق الأحلاف العسكرية » .

وفي اليوم نفسه تحدث الرئيس شكري القوتلي عن سياسة الحياد الايجابي بقوله : « وقد كان من حسن التوفيق أن اجتماع القاهرة قد أكد « الحياد الايجابي » بوصفه أسلم أساس للسياسة العربية التي تهدف إلى تجنيب الأمة العربية النزاع الغاشم بين المعسكرين الكبيرين . وانه لمما يدعو إلى التفاؤل أن مبادىء السياسة الحيادية لا تقتصر على نطاق القومية العربية بل تمتد إلى شعوب أخرى لا تمت للعربية بصلة ، اذ أن هناك

مئات من الملايين من شعوب العالم يؤمنون بسياسة الحياد الايجابي »[1].
ودرج اصطلاح الحياد الايجابي على نطاق واسع .

نشأت فكرة الحياد الايجابي بعد تشكيل الأحلاف العسكرية ونشوء الحرب الباردة ، وانقسام العالم إلى كتلتين : المعسكر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة ، والمعسكر الاشتراكي برئاسة الاتحاد السوفياتي . وكان رد البلاد التي خرجت حديثاً من قيود الاستعمار عليها مستلهماً من ميثاق الأمم المتحدة . فمن ذلك أن رئيس وزراء الهند البانديت نهرو دعم فكرة الحياد بالمبادىء الخمسة « البانش شيلا »[2] التي تبناها ونص عليها للمرة الأولى في الاتفاق الصيني - الهندي الموقع في ٢٩ نيسان ١٩٥٤ ، وهي كما يلي :

١ - الاحترام المتبادل لسلامة الاقليم والسيادة .

٢ - عدم الاعتداء .

٣ - عدم التدخل في الشؤون الداخلية .

٤ - المساواة وتبادل المنفعة .

٥ - التعايش السلمي .

ثم تبنى مؤتمر باندونغ ، من ١٨ إلى ٢٤ نيسان ١٩٥٥ ، هذه المبادىء الخمسة وأدخلها في قراراته العشرة التالية :

١ - احترام حقوق الانسان الأساسية واغراض ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة .

٢ - احترام سيادة جميع الأمم وسلامة أراضيها .

---

(١) راجع : محمد منير العصرة ، « سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز » ص ٩٣ - ٩٤ . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) بانش شيلا Panch Sheel .

٣ ـ الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبين جميع الأمم كبيرها وصغيرها .

٤ ـ الامتناع عن أي تدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر .

٥ ـ احترام حق كل أمة في الدفاع عن نفسها فردياً أو جماعياً وفقاً لميثاق الأمم المتحدة .

٦ ـ الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية لخدمة المصالح الذاتية لأي دولة من الدول الكبرى ، وامتناع أي بلد عن الضغط على غيره من البلاد .

٧ ـ تجنب الأعمال أو التهديدات العدوانية أو استخدام العنف ضد السلامة الاقليمية أو الاستقلال السياسي لأي بلد من البلاد .

٨ ـ تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية مثل التفاوض أو التوفيق أو التحكيم أو التسوية القضائية ... الخ .

٩ ـ تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل .

١٠ ـ احترام العدالة والالتزامات الدولية .

وما زالت هذه المبادىء تخرج على ألسنة السياسيين في جميع بيانات دول العالم الثالث التي تريد أن تكون لها سياسة خارجية مستقلة .

وفي الحقيقة ان التجارب المريرة ، التي عانتها البشرية من الحربين العالميتين والآلام المادية والمعنوية التي تحملتها والخسائر التي تجشمتها ، جعلت شعوب العالم الثالث ، مع من شاركها في رأيها وسياستها السلمية ، تعتقد بان الحرب إذا ما انفجرت واشتعل اوارها فان لهيبها لا يقتصر على الدول المتحاربة فحسب ، بل يمتد إلى الدول المحايدة أيضاً مع جميع النتائج التي

تنجم عن وقوع الحرب . فقد خرقت ألمانيا حياد بلجيكا مرتين ، ولم تحترم هذا الحياد ، وجعلت من المعاهدة قصاصة ورق . ولم ينفع الدول المحايدة حيادها وبقاؤها سلبية . وهذا ما حمل الدول المحبة للسلام ، أمام تشكل الأحلاف الكبرى ، على أن تلزم جانب الحياد ، والا تقف من الأحداث موقف المتفرج ، بل ان تقوم بما يمليه عليها وجدانها الانساني وواجبها كدولة حرة مستقلة عضو في المجموعة الدولية للحيلولة دون وقوع الحرب ، وتجنيب العالم لظاها ، وان تسعى السعي الحثيث في تقريب وجهات النظر في القضايا المختلف عليها بين الأطراف المتنازعة لدفع شر أعظم ؛ وأن تعمل جاهدة لوقف الحرب ، اذا ماوقعت الواقعة ، وتحقيق السلام . وهذا هو الجوهر الحقيقي لسياسة الحياد الايجابي . لأن الحياد في هذه الحال لم يمنع الدول المحايدة من أن تكون « متفاعلة » مع الأحداث وأن تقوم بالعمل الايجابي البناء ، مع بقائها بعيدة عن الحرب وساعية إلى السلام .

وهكذا نرى أن سياسة الحياد الايجابي تقوم على ثلاثة عناصر :

١ — عنصر الحياد، أي عدم الانحياز للأطراف أو الكتل المتنازعة في السلم وفي الحرب .

٢ — عنصر الايجابية ، وهو العمل على تخفيف شدة التوتر الدولي لدفع الحرب للحفاظ على السلام أو لوقف الحرب وحقن الدماء وعودة السلام.

٣ — عنصر السلام، وهو الهدف المنشود من سياسة الحياد الايجابي .

وهذه السياسة التي تتوخى أولاً وأخيراً المصلحة القومية بوضع أسس السياسة الخارجية وتفاصيلها ، وخير الانسانية في اقرار التعاون الاقتصادي والثقافي ، وتأمين السلام العالمي بعدم الاشتراك في الأحلاف العسكرية وحل

المنازعات الدولية بالطرق السلمية وتكافح الاستعمار وتسعى إلى تحرير الشعوب للخلاص منه لأن بقاءه يهدد السلام ؛ وباختصار ، ان هذه السياسة ، التي تقوم على الاستقلال في تطبيق أحكام ميثاق الأمم المتحدة بما يتفق وسير الانسانية نحو التقدم ، لاتكون مجدية إلا إذا تعاونت الدول التي تؤمن بها وتطبقها وساند بعضها بعضاً في حل قضاياها وحماية نفسها من أطماع الطامعين في بلادها وخيرات أرضها وخراب اقتصادها واعاقة تقدمها .

وفيما يلي مقررات مؤتمر الحقوقيين الآسيويين ـ الافريقيين في دمشق، من ٧ إلى ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٧ ، في تأييد الحياد الايجابي :

١ ــ ان الحياد الايجابي ، الذي يعني عدم الانحياز نهائياً إلى أي كتلة من الكتل المتصارعة في العالم ، هـو مبدأ قانوني من مبادىء الحقوق الدولية العامة الجديدة المتطورة ، وهو ينسجم تمــاماً مع روح ميثاق الأمم المتحدة وحقيقة أهدافه .

٢ ــ ان الحياد الايجابي يدعم السلام العالمي ويخفف من حدة التوتر الدولي ، لأن الدول التي تأخـذ به تنبذ الأحلاف والقواعـد العسكرية الأجنبية ، وتسعى ، على العكس ، إلى احلال الوئام بين الدول المتصارعة ، كما أثبتت ذلك فعلاً الاحداث الدولية في أيامنا الحاضرة .

٣ ــ ان الحياد الايجابي تعبير صادق عن حرية الدولة وكرامتها وحقها المطلق في التحرر من السيطرة والنفوذ والتدخل الاجنبي أيـاً كان مصدره ، وفي اتخاذ موقف العدالة الحقة في حال الصراع بين الدول .

٤ ــ ان الحيـاد الايجابي لا يتعارض أبداً مع واجب كل دولة في مساعدة الدول والشعوب المستضعفة للتخلص من نير الاستعمار وفي ايصالها الى ممارسة حقها في تقرير المصير .

٥ – ان الحياد الايجابي ينطوي على التعايش السلمي ، فالدولة الآخذة به لا تكن أي عداء مقصود لاي شعب من الشعوب المسالمة ، وانمـــا يحقق هـذا المبدأ التعاون الاقتصادي والثقافي غير المشروطين بقيود تحـد استقلال الدول وسيادتها ، ما دام هذا التعاون في سبيل تقدم الانسانية وازدهار الشعوب وتوطيد السلام في العالم .

وبناء على هذه المبادىء :

فان المؤتمر يدعم سياسة الحياد الايجابي ويناشد جميـع الشعوب والدول في العالم احترام هذا المبدأ .

عدم الانحيـاز

الانحياز في اللغة . – تقول حاز الشيء بمعنى ضمه وجمعه . والانحياز من انحاز فعل المطاوعة بمعنى مال . وتقول انحاز عنه أي عدل ، وانحاز اليه : مال . وعدم الانحياز يعني العدول وعدم الانضمام .

الانحياز في المصطلح السياسي . – والانحياز في المصطلح السياسي هو الانتماء والانضمام والمشاركة . وعدم الانحياز في المصطلح السياسي الدارج مظهر من مظاهر الحياد الايجابي . ولقد رأينا أن الحيـاد الايجابي يقوم على « التفاعل » مـع الاحداث العـالمية والسعي الحثيث لتحقيق السلام دون انحيـاز إلى أي من الكتلتين الكبيرتين المتصارعتين . ومفهومه في هذا المعنى ايجابي وحركي ، بينما يقوم عـــدم الانحياز على الامتناع عن الانضمام الى أي الكتلتين ومفهومه في هذا الاتجاه سكوني وسلبي .

والحياد الايجابي بالرغم من أنه في أساسه يقوم على عدم الانتماء الى أي من القوى المتصارعة ، إلا أن منطلقه ايجابي ويتسع لمشاكل العـالم

السياسية والقضايا الدولية الكبرى كتحرير الشعوب من الاستعمار والعمل على تحقيق تقدمها وازدهارهـا ورفاهها . أما عـدم الانحياز فمنطلقه سلبي ويقتصر على مناطق الصراع والحرب الباردة بين الكتلتين وعدم الاشتراك في الاحلاف العسكرية ومعاهدات الدفاع المشترك وكل مظاهر التنافس العظيم بين العملاقين .

نستنتج من هنا أن الحياد الايجابي أو عدم الانحياز خطة سياسية تريد كل منها تحقيق غاية واحدة مشتركة بينها . ولكن الحياد الايجابي يتضمن مفهومين :

١ - مفهوم قانوني يرتب على الدولة التي تأخـذ به حقوقاً وواجبات في المجتمع الدولي .

٢ - مفهوم سياسي يؤدي إلى هذا الموقف القانوني الذي تحدده قواعد القانون الدولي العام . وهذا يعني أن الحياد الايجابي ينتهي أخيراً الى عدم الانحياز لأن الحياد يقتضي عدم الانحياز .

أما عدم الانحياز فهـو مفهوم سياسي تأخذ به الدولة بارادتها الحـرة وبحقها في سلوك السياسة التي تراها مناسبة لمصلحتها القومية في علاقاتها مع الدول الاخرى . وهذا يعني أن عدم الانحياز ليس له مفهوم قانوني ولا يخول الدولة حقوقاً معينة أو يفرض عليها واجبات خاصة الا التزام موقف الحياد الذي تقفه الدولة المحايدة حال نشوب الحرب . ولذا فأثره لايظهر إلا بنشوب الحرب ، بينما يظهر أثر الحياد الايجابي في السلم ، في الحرب الباردة ، وفي الحرب الساخنة .

وإذا صرف النظر عن هذه الفروق الدقيقة فان الحياد الايجابي وعدم الانحياز يرميان إلى هدف واحد وهو تحقيق السلام ، ويتمم أحدهمـــا

الآخر ، لان عدم الانحياز مظهر من مظاهر الحياد الايجابي ، ولا يمكن أن يتصور حياد وانحياز لإحدى الكتلتين ، لأن الانحياز في هذه الحالة يفقد الحياد معناه ويحول دون تحقيق الغرض المراد من سياسة الحياد الايجابي وهو الوقوف في حالة الحرب موقف الحياد القانوني الذي ينتهي اليه الحياد الايجابي وعدم الانحياز .

سياسة عدم الانحياز . – عندما انتهت الحرب العالمية الثانية وأحدثت منظمة الأمم المتحدة ، وظهرت الدولتان الكبريان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، تعادي احداهما الأخرى مع الدول التابعة التي تدور في فلكها ، وأرادت كل منها السيطرة على بلاد آسيا وافريقية الواسعة التي كانت تناضل لكسر اغلال الاستعمار ، تراءى للكبيرين في هذه المرحلة ان الشعوب الصغيرة والضعيفة والفقيرة في هذه البلاد ليس أمامها إلا أحد اختيارين : فاما أن تنضم إلى هذه الكتلة ، أو تلك . وبدا أنّ كلاً من الدولتين الكبريين كانت متأكدة من ذلك . ولكنها صدمتا عندما انطلقت أصوات تصرح بجلاء بأن هنالك اختياراً ثالثاً : وهو عدم الانحياز . ولم تستطيعا تصديق هذه الاصوات المتعالية التي ما لبثت أن تعددت ونمت ، وقامتا تنددان بهذه السياسة فوراً وجهاراً .

أخذ التنديد بسياسة عدم الانحياز أشكالاً مختلفة حسب عقائدية الدولة المنددة : فالولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى شهرت بسياسة عدم الانحياز واعتبرتها مناصرة للشيوعية ومناوئة للاستعمار ، وأقبح من ذلك أنها لا أخلاقية أيضاً ، عند حد قول دالس . واعتبر الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية الأخرى الدول غير المنحازة عميلة واذناباً للامبرياليين والرأسماليين ، ووصف الزعماء غير المنحازين بأنهم امبرياليون بورجوازيون .

واختلط عدم الانحياز عند كتاب الغرب مع الحياد . ولكن زعماء

سياسة عدم الانحياز أوضحوا هذه السياسة في خطبهم ، فمن ذلك أن البانديت نهرو قال في ١٩٥٥ : « لقد توصلنا نوعاً ما إلى ميزان عندما كان من المحتمل أن يؤدي أي نوع من عدوان عظيم إلى حرب عالمية . وذلك بذاته عامل مانع . وسواء أوقع العدوان في بلد صغير أم في بلد كبير فانه ينزع إلى قلب ميزان العالم غير المستقر ، ومن المحتمل أن يؤدي إلى الحرب » .

· وأوضح الرئيس جمال عبد الناصر هذه السياسة في خطابه في الأمم المتحدة ، في ٢٧ ايلول ١٩٦٠ ، عندما قال : « انكم تعرفون أيها السادة ان الجمهورية العربية المتحدة تؤمن بسياسة عدم الانحياز وتتخذها أمامها ميزاناً لايحيد ولا يهتز . وما أظنني في حاجة إلى أن أعيد على مسامعكم قصة التضحيات التي بذلتها أمتنا العربية لتحافظ على عدم الانحياز ، ايماناً منا بأن ذلك أدعى إلى ضمان استقلالها من ناحية ، وأدعى إلى صيانة السلام من ناحية أخرى . ولقد رفضنا ، رغم كل المؤثرات ، أن نكون من أدوات الحرب الباردة ، وكذلك سعينا ماوسعنا الجهد وواتتنا الظروف لشرح هذه السياسة ادراكاً منا أن السلام لايتوافر بانقسام العالم إلى أجزاء متخاصمة أو كتل متباعدة لاصلة بينها غير الخنادق والاسلاك الشائكة تربض وراءها معدات العدوان وأسلحة القتل والتدمير ، وانما يتوافر السلام بأن تتسع جبهة اللقاء بين الشعوب ، وان يجري بينها الاتصال المنتج والتفاعل الخلاق على أوسع نطاق ممكن » .

ان عدم الانحياز ، بمنعه انتشار نفوذ احدى الدولتين الكبيرين في آسيا وافريقية ، يضع حداً لانقسام العالم إلى معسكرين متعاديين ويمكن الدول الصغرى من أن تصنع مصائرها بيدها وفي طريقها الخاص ، كما

يمكن هذه الدول والأمم المتحدة أيضاً من أن تلعب دوراً نامياً على الدوام في تطوير الأمم المستقلة حديثاً في آسيا وافريقية . ومن هذا الوجه كان عدم الانحياز على وفاق مع أحكام ميثاق الأمم المتحدة ، كما اعترف الأمين العام الراحل للأمم المتحدة ، همرشولد ، أثناء أزمة الكونغو . وهذا هو الدور الذي لعبته الأمم المتحدة في هذه الأزمة مع مساندة الدول غير المنحازة في آسيا وافريقية

ولقد كان التعبير « عدم الانحياز » معروفاً وسابقاً للتعبير « الحياد الايجابي » الجديد . يقول نهرو في عدم الانحياز : ماذا يعني الانضمام إلى كتلة من الكتل ؟ انه يعني أخيراً شيئاً واحداً : تخلَّ عن وجهة نظرك في قضية خاصة وتبن وجهة نظر طرف آخر في هذه القضية لكي ترضيه وتنال حظوته » . ولقد يبدو من هذا القول أن عدم الانحياز مرادف للاستقلال ، وان تكون منحازاً معناه ان تفقد استقلالك كلياً . ولكن وجهة النظر هذه لم يوافق نهرو عليها دوماً . ففي جواب على طلب من عضو « لوك صبها » أن على الهند أن تنسحب من كومنولث الأمم ، قال نهرو ، في ١٢ حزيران ١٩٥٢ : « على الامم أن تعمل بكرامة وقوة ، وتتبنى ما تعتبره الاتجاه السليم وتوالي . ونحن نقبل أن نكون مشاركين في حلف مع أي بلد ، ولكننا تجنبنا الاحلاف التي تورطنا ... وفيما يتعلق بنا ، نحن مستعدون لأن ندخل في معاهدة صداقة مع كل بلد في العالم ... وفي الحلف يأخذ الواحد شيئاً ما ويعطي بالمقابل شيئاً. ولذا يرتبط كل بلد لحد ما ، ولكنه يتخلى عن حريته في العمل في الحد الذي يرتكب جرماً بحق نفسه إذا ارتبط في حلف أو اتفاق . ومع ذلك فان الحلف ليس بحاجة إلى الوقوف في طريق استقلال البلد .

وبصورة معاكسة ، عندما قبلت الباكستان المساعدة العسكرية من

الولايات المتحدة في ١٩٥٤ ، صرح نهرو بأن هذه المساعدة تذهب إلى أصل قضية السلام بقدر ما تذهب إلى حرية بلاد عديدة في آسيا . ولقد توصلت هذه البلاد ، ومن ضمنها الهند ، الى الاستقلال حديثاً ، وتريد أن تحافظ عليه طويلاً بقدر ماهي أهل له وقادرة على حمايته والدفاع عنه . وقال أيضاً : « أستطيع أن أفهم ، ولو أني لا أوافق ، الأحلاف العسكرية بين الدول الكبرى ، ولكنني لا أفهم مواثيق عسكرية وأحلاف بين عملاق عظيم القوة وبلد قزم ضئيل . . ان ارتباط البلاد الصغيرة بأحلاف يعني في الواقع - وأقول هذا مع كل احترام لهذه البلاد - بأنها أصبحت تابعة جداً لبلاد هذه الاحلاف »[1].

وعلى مايبدو ، عند نشوء الحرب الباردة ، أن التعبيرين « عدم الانحياز » و « الحياد الايجابي » كان لهما مدلول واحد . ولكن التسمية كانت تختلف من بلد لآخر في البلاد الآخذة بسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز . ثم ان التداعي الوثيق بين تعبير « عدم الانحياز » وتعابير مثل « عدم العنف » و « عدم التعاون » و « عدم المقاومة » و « النيرفانا » (عدم الوهم) وكلها تدل على مفاهيم سلبية ، قد أسهم في سوء الفهم . ولكن وجهة النظر هذه تختلف عنها وجهة نظر نهرو الخاصة . وفي الواقع كان نهرو يستعمل نادراً هذا التعبير « عدم الانحياز » في خطبه الأولى في السياسة الخارجية ، حتى انه أبدى استياءه منها بسبب ما تتضمنه من معنى سلبي . ولهذا السبب نفسه فضل الرئيس جمال عبد الناصر وبعض السادة العرب عليه التعبير « الحياد الايجابي لما يتضمنه من معنى ايجابي . ولكن نهرو لم يحبذ هذا التعبير أيضاً بقوله : « حتى انني لا أحب ... الحياد

(١) راجع M. M. Rahman, *The Politics of Non-Alignement,* P. 35, Associated Publishing House, New Delhi, 1969

الايجابي ، كما أطلق في بعض البلاد ... » وفضل عنه هذه التعابير : « البقاء بعيداً عن الكتل » ، « السياسة المستقلة » ، « العلاقات الودية مع الجميع » الخ . وصرح مراراً بأن سياسته الخارجية غير سلبية وغير استكانية . فقد قال في ١٩٤٧ : « لقد أعلنا في العام الماضي أننا لا نريد أن نربط أنفسنا بأي فريق خاص . وهذا لايعني الحياد أو الاستكانة أو أي شيء آخر » . وفي ١٩٥٢ ، قال : « يمكنكم أن تسموه محايداً أو أي شيء تحبونه ، أما أنا فأحاول أن أرى كيف وكم هذه المحاولة أو الطريقة محايدة » . وفي ١٩٥٨ صرح بقوله : « عندما نقول ان سياستنا هي سياسة « عدم انحياز » انما نعني بوضوح عدم الانحياز إلى كتل عسكرية . انها ليست سياسة سلبية . إنها سياسة ايجابية ، وآمل أن تكون سياسة حركية . »[١]

وفي ١٢ آذار ١٩٥٦ ، صدر البيان المشترك لاجتماع الرؤساء العرب جمال عبد الناصر وسعود عبد العزيز وشكري القوتلي وورد فيه التعبير « عدم الانحياز » : « وانا نعقد عزمنا على تجنيب الأمة العربية نار الحرب الباردة والبعد عن منازعاتها والتزام سياسة « عدم الانحياز » تجاهها ، والمحافظة بذلك على مصالحها الأصيلة . وكذلك نعلن أن الدفاع عن العالم العربي يجب أن ينبثق من داخل الأمة العربية » .

كما أورد الرئيس جمال عبد الناصر عبارة « عدم الانحياز » في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر بريوني ، في ١٩٥٦ ، حين قال : « كما أننا وقفنا من الحرب الباردة ، التي اعترضت طريق التعاون الدولي خلال الحقبة الأخيرة ، موقفاً ايجابياً يقوم على الامتناع عن اتخاذ سياسة من شأنها توسيع الهوة بين المعسكرين وازدياد حدة التوتر الدولي ، فكانت سياسة « عدم

(١) راجع ، المصدر السابق ص ٧ .

الانحياز » وسيلتي إلى ذلك ... » . ولكن ، في سنة ١٩٥٧ ، بدأ التعبير « الحياد الايجابي » يأخذ مكانه في الخطب السياسية وفي المؤتمرات الدولية ودرج على الألسن .

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٨ ، استقبل الرئيس جمال عبد الناصر بعثة من رجال الصحافة الامريكية الذين زاروا مصر ، ودارت المناقشة حول مفهوم سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، وصرح الرئيس جمال عبد الناصر لاعضاء البعثة بأن هذه السياسة مستقلة وتنبع من المصالح الحقيقية للشعب المصري وتعتمد على مبادىء لخصها كما يلي :

١ — التفاعل السياسي مع الأحداث العالمية .

٢ — تأييد حق الشعوب في حريتها ومحاربة الاستعمار والرجعية والمحافظة على استقلال الشعوب واحترام سيادتها .

٣ — مقاومة تدخل الدول الكبرى في شؤون الدول الصغرى .

٤ — اقرار حق كل دولة في نظمها السياسية والاجتماعية .

٥ — مقاومة الأحلاف العسكرية والقواعد الحربية الأجنبية .

٦ — التعايش السلمي ونبذ الحروب وحل المشاكل الدولية بالوسائل السلمية .

٧ — اقامة العلاقات الدولية على أسس نظيفة [١] .

وهذه المبادىء مستلهمة من ميثاق الأمم المتحدة والمبادىء العشرة التي أقرها مؤتمر باندونغ . وان التعبيرين « الحياد الايجابي » و « عدم الانحياز » يدلان على معنى واحد وسياسة واحدة . وهنا يتفق مفهوم

(١) راجع : محمد منير العصرة ، « سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز » ص ١٠٢ — ١٠٣ .

نهرو ومفهوم السادة العرب . وقد جمعها سيادة أنور السادات في الكلمات التي عبر عنها في مؤتمر الشعوب في القاهرة ، في آخر ١٩٥٧ ، بإسم مصر رداً على الاتهامات التي وجهها الغربيون إلى « العالم الثالث » بأن عدم الانحياز يعني في الواقع فتح الطريق أمام تغلغل النفوذ السوفياتي في دول هذا العالم ، بقوله : « نحن المصريين نؤمن بالحياد وعدم الانحياز ، ونؤمن بأننا إذا اتبعنا هذا الخط فاننا نبعد شبح الحرب . ان علينا أن نعمل للتقريب بين الكتلتين ، وأن ننشىء منطقة سلام تفرض نفسها تدريجياً على العالم بأمره . ان الحياد الذي نؤمن به يعني أنه يجب أن نقف في معزل عن الكتل العالمية على أن نبذل جهوداً ايجابية للتقريب بينها . »[1] .

على أن التعبير الذي كتب له البقاء هو تعبير « عدم الانحياز » . فقد تبنته رسمياً دول « عدم الانحياز » في مؤتمر بلغراد في ١٩٦١ .

ومهما اختلفت التسميات فالمقصود من « عدم الانحياز » هو : « عدم الارتباط مع أي من المعسكرين العملاقين ورفض هيمنتها والرغبة في انتهاج سياسة مستقلة نابعة من ذاتية الأمة ومحققة لمصالحها ومصالح الشعوب في العالم ككل »[2] .

وفي الحقيقة ، ان الدولة صاحبة السيادة وذات الشخصية المستقلة التي تسلك سياسة عدم الانحياز ، أي لاتنحاز إلى احدى الكتلتين المتصارعتين ولا يقترن عدم انحيازها بأي نية أو قصد أو عمل من شأنه تعزيز أو مؤازرة احداهما على الأخرى ، وانما تستلهم سياستها من مصالحها الخاصة

---

(١) راجع مجلة « **الاسبوع العربي** » البيروتية ، العدد ٧٤٣ ، الاثنين في ٣ ايلول ١٩٧٣ .

(٢) راجع الدكتور محمد عزيز شكري « الدول العربية الخليجية والمجتمع الدولي » ص ٢٦ . الكويت ١٩٧٤ .

وأهدافها القومية وضميرها الانساني الحي ، وتسعى لخـير البشرية جملة لايمكن أن تعد دولة منحازة . وهي تستطيع والحالة هذه أن تذهب من هذا المنطلق الخالي من أي ارتباط وتمد يدها إلى الشرق أو الغرب، وتلتمس الخـير من أي يد أتى ، وتقبل المساعدات غير المشروطة ، وتشتري السلاح من هذا الجانب أو ذاك ، وتؤيد وجهة هذا الطرف إذا اتفقت مع وجهة نظرها دون أن تعتبر منحازة للطرف الآخر ، وتكافح الاستعمار وتناصر الشعوب المناضلة في سبيل حريتهـا واستقلالها ، ولا تكون مع كتلة على أخرى .

وهكذا نرى أن سياسة عدم الانحياز تقوم على ثلاثة عناصر :

١ - العنصر المادي ، وهـو عـدم الانحياز إلى القوتين الكبريين المتصارعتين .

٢ - العنصر المعنوي ، وهـو نية المؤازرة لترجيح كفة احـدى القوتين الكبريين على الأخرى .

٣ - العنصر الغائي وهو تخفيف حدة التوتر وتحقيق التعايش السلمي بين الدول ليسود السلام العالم .

مؤتمرات دول عدم الانحياز . - كان مؤتمر باندونغ محاولة هـامة قامت بها الدول الافريقية الآسيوية الحديثة العهد بالاستقلال لوضع أسس مشتركة لتحريرها الكامل من التبعية السياسية والاقتصادية . وقد أثيرت فيه مناقشات وهجمات عنيفة على كل من الكتلتين الكبريين ، ثم ساد الاعتدال أجواء المؤتمر ، وخلص إلى أن الاختلاف في العقائديات والنظم الاجتماعية لايمنع الوصول إلى التفاهم بين الدول . وانتهى بقرراته العشر التي اعتبرت أساساً ومنطلقاً لسياسة دول عدم الانحياز ونبهت اهتمام دول

العالم إلى « العالم الثالث » وقضاياه الحديثة . ثم عقدت عـدة مؤتمـرات كان منها توسيع وشرح مبادىء باندونغ وكيفية تطبيقها على صعيد السياسة ، مع عرض القضايا المطروحة على بساط البحث لكل بلد مشترك ، واستعراض لأهم القضايا الدولية . ولكن أهم هــذه المؤتمرات كانت مؤتمرات القمة الأربعة التي كانت تسبق بمؤتمرات تمهيدية تحضر أعمالها .

مؤتمر بلغراد (١ - ٦ ايلول ١٩٦١) . — لقد سبق هذا المؤتمر بمؤتمر بريوني (١٨ — ١٩ تمـوز ١٩٥٦) الذي ضم الرؤساء نهـــرو وجمال عبد الناصر والرئيس اليوغوسلافي تيتو . وفيه انضمت يوغوسلافيا إلى مجموعة دول عدم الانحياز . وأكد البيان الختامي لهـذا المؤتمـر أن سياسة عدم الانحياز ليست مقصورة على البلاد التي تحررت من الاستعمار الغربي بل تشمل أيضاً الدول الاشتراكية ، كيوغوسلافيا ، التي لا ترتبط بحلف وارسو أو بالمعسكر الاشتراكي .

وقد عالج مؤتمر بلغراد قضايا أوربية صرفة . وكان لأعمـــاله أثرها العميق على الرأي العام الاوربي ، اذ حاول الابتعاد عن روح العنف التي سادت بعض الوقت أجواء المؤتمـــرات السابقة عندما تعرضت للاستعمار والامبريالية ، وشرح المؤتمر أن مهمته الرئيسية والتاريخية هي العمل على صيانة السلام العالمي وارساء قواعـد دائمـة له ، وعالج موضوع التجارب والأسلحة النووية وقضية برلين ودور الأمم المتحدة ، وطرق حل الخلافات بين الشرق والغرب بالطرق السلمية . ونمّ المؤتمر ، بمعالجة هـذه القضايا الكبرى ، عن « ايجابية » العالم الثالث ، كما تعرض لتحليل العلاقـات التي تربط دول عدم الانحياز بعضها ببعض ، وأيد حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

مؤتمر القاهرة (٥ - ١٠ تشرين الأول ١٩٦٤) . — لقد عالج

هذا المؤتمر القضايا العالمية الكبرى وانتهى بها إلى اقرار « برنامج للسلام » و « التعاون الدولي » وأعلن عن دعمه الكامل للشعب العربي في فلسطين في نضاله للتحرر من الاستعمار الصهيوني والتمييز العنصري .

مؤتمر لوساكا (٨ - ١٠ ايلول ١٩٧٠) . - لقد سبق أن الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، وهو أحد أقطاب « عدم الانحياز » ، دعا إلى انشاء منظمة خاصة بدول عدم الانحياز تتولى تنسيق العلاقات بين دول المجموعة . ونجحت مساعيه في مؤتمر لوساكا ، عاصمة زامبيا ، وانشىء هذا الجهاز برئاسة الرئيس الزنبي كينيث كاوندا [١] . وطالب هذا المؤتمر بانسحاب اسرائيل فوراً من جميع المناطق العربية التي احتلتها بعد الخامس من حزيران ١٩٧٠ ، وأعلن احترامه الكامل لحقوق شعب فلسطين الثابتة كشرط مسبق للسلام في الشرق الأوسط . كما أعلن دعمه لنضال الشعب الفلسطيني في سبيل التحرر من الاستعمار والصهيونية ، وأوصى الأمم المتحدة باتخاذ وسائل بجدية ضد اسرائيل اذا استمرت في رفضها الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة . واتفق المشتركون على المبادرة لاتخاذ اجراءات مادية ناجعة ضد القوى التي تنتهك حرمة استقلال دول عـــدم الانحياز وسلامة أراضيها . وان على هذه الدول أن تتعاون وأن تجري مشاورات فيما بينها كلما دعت الضرورة لذلك .

مؤتمر الجزائر (٥ - ٨ ايلول ١٩٧٣) . - عقد هذا المؤتمر في « قصر الصنوبر » أو « قصر الأمم » وضم ٧٦ زعيماً مرموقاً يمثلون مليارين من البشر ، و ١٤ حركة تحرير منها منظمة التحرير الفلسطينية ، و ١٤ حركة تحـرير أفريقية ، وحركة تحرير بورتوريكو . وتأتي أهمية هـذا المؤتمـر من أنـه انعقد في وقت تطورت فيه العلاقات الدولية على

(١) كينيث كاوندا Kenneth D Kaunda .

صعيد الدولتين الكبريين ، وانتقلت من مرحلة التوتر إلى مرحلة المفاوضة ثم التفاهم والوفاق ، بما يجعل دول عدم الانحياز تفكر في أمرها وتطور سياستها تبعاً لهذا الاتجاه الجديد . فبينما كان اختلاف العملاقين في الماضي يدعو دول عـــدم الانحياز إلى تجنب الانضمام إلى احداهما أو الخضوع لمنطقة نفوذها ، وضع الوفاق ، الذي تمّ بعد اجتماع نيكسون بريجنيف في واشنطون ، مسؤولية جديدة على كاهل تلك الدول لتأخذ بعين الاعتبار هذا الواقع السياسي وتقف منه موقف الحيطة لئلا يكون على حسابها ، وقد علمتها التجارب أن التفاهم بين الدول الكبرى يكون دوماً على حساب الدول الصغرى والمستضعفة . وفي هـذا الصدد يقول سيادة الرئيس حافظ الأسد : « نحن مع السلام في العالم لأننا دعاة سلام صادقون ، ولكننا نؤكد على السلام العادل ، ونؤكد في الوقت ذاته أن الوفاق الدولي لا يمكن أن يكون على حساب الشعوب وحساب حقوقها في الحرية والتقدم وتقرير المصير وفي النضال من أجل هذه الحقوق إذا اغتصبت » .

« ان الشعوب بطبيعتها محبة للسلام ، ولكن قوى العدوان بطبيعتها أيضاً لاتقبل التسليم طوعاً بحقوق الشعوب ، ولا تقبل التنازلات مختارة عن مواقـــع السيطرة التي تمكنها من مواصلة استغلال الشعوب ونهب ثرواتها . وخلال الخمس عشرة سنة الاخيرة رأينا قوى الاستعمار والامبريالية تدفع بالعالم أكثر من مرة إلى حافة حرب شاملة نتيجة لتهديدها بالتدخل العسكري أو بممارستها العدوان فعلاً كلما شعرت أن مصالحها في خطر ومواقعها مهددة . ولكي يتحقق السلام لابد من وقف حروب العدوان التي تشنها القوى الاستعمارية والامبريالية ضد الشعوب المحبة للحرية »[١].

(١) راجع : جريدة « الثورة » السورية ، العدد ٣٢٠١ ، السبت في ٢٥ آب ١٩٧٣ .

وشملت بقية بنود جدول أعمال المؤتمر الامور التالية :

١ - الخطوط الكفيلة بالتصدي للاستعمار القديم والحديث .

٢ - الموضوعات المتعلقة بالامن والسلام العالميين .

٣ - قضايا التخلف والتنمية في دول العالم الثالث .

٤ - العدوان الامريكي في كمبوديا والوضع في الهند الصينية .

٥ - زيادة الدعم الفعال لحركات التحرر الوطني في افريقية .

٦ - التصدي التهديدات المواجهة لمـــوارد بعض الدول ونشاط الاحتكارات البترولية في هذا المجال .

٧ - تنسيق مواقف دول عدم الانحياز ونشاطها في الامم المتحدة .

٨ - المشاكل الاقتصادية وعلاقات الدول الغنية بالدول الفقيرة .

٩ - تدعيم دور الامم المتحدة وفعاليتها .

ويلفت النظر حقاً ظهور القضية الفلسطينية كقضية أولى في مؤتمـر الجزائر والاعتراف الواســـع بالثورة الفلسطينية طريقاً مشروعاً للشعب الفلسطيني ، وتحول افريقية عن اسرائيل . وقد صرح السيد ياسر عرفات الذي حضر مؤتمر الجزائر بقوله : « نتيجة للجهود العربية والفلسطينية التي بذلت في المدة الأخيرة من أجـل توضيـح القضية ؛ ونتيجة أيضاً لوعي افريقية للخطر الاسرائيلي الذي يهددها كما يهدد العرب ، باعتبارها الخطر الذي يهـدد سلام واستقلال افريقية ، لقد كان موقف الدول الافريقية يساراً ويميناً ووسطاً إلى جانب الثورة الفلسطينية وعلى أساس مبدئي »[1].

---

(١) راجع العدد ٧٤٥ من مجلة « الاسبوع العربي » البيروتية ، يوم الاثنين في ١٧ ايلول ١٩٧٣ .

وحقق المؤتمر كسباً آخره وهو أن الرئيس الكوبي كاسترو أعلن قطع العلاقات الدبلوماسية لبلاده مع اسرائيل ، وهذه البادرة هامة بالنسبة لشعوب أمريكا اللاتينية . وكما قال الرئيس الجزائري بومدين : « لقد تعرضت اسرائيل في مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر لهزيمة كبيرة ، ولم تكن هذه الهزيمة نتيجة النصوص التي أقرها المؤتمر فحسب ، وإنما هي نتيجة الوضع الذي ساد المؤتمر ازاء اسرائيل أيضاً . فلم يكن هناك دولة واحدة دافعت عن اسرائيل ونظرياتها » [١] .

ومن قائل ان المؤتمر نجح ، ومن قائل ان المؤتمر أخفق [٢] . وجهتا نظر تختلفان في المزايدة والمناقصة . وإذا اختلفت وجهات النظر بين السادة الأعضاء ، فقد ساد الاعتدال أخيراً ، لأن دول عدم الانحياز لابد وأن تتفق وتوحد جهودها في الدفاع عن قضاياها العادلة ومصالحها حيال الامبريالية الشرقية والامبريالية الغربية دونما تحيز لهذه أو تلك ، وإلا فقد عدم الانحياز معناه وانهار .

ومهما يكن ، فان الاعمال الخيرة قلما تأتي بالنتائج الطيبة المباشرة ، ودول عدم الانحياز تعلم أن الطريق أمامها طويل ، ولكنها لم تيأس . حسبها اليوم أنها وعت نفسها وقضاياها والمستقبل الذي تتطلع اليه البشرية قبل غيرها ، واذا تمسكت في الماضي بعدم الانحياز لتجنب أخطار الحرب بين الكتلتين ، فقد زاد حرصها عليه في الحاضر لأنها تواجه ، كما يواجه العالم معها ، مشكلة كبرى : وهي عمق الهوة بين كتلتين جديدتين أو عالمين

---

(١) راجع العدد ٧٤٦ من مجلة « الاسبوع العربي » البيروتية ، يوم الاثنين في ٢٤ ايلول ١٩٧٣ .

(٢) راجع المقال : « نتائج مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر » المنشور في ص ٩ من جريدة « السياسة » الكويتية ، يوم السبت في ١٥ ايلول ١٩٧٣ .

مختلفين : أكثرية فقيرة مستغلّة وأقلية غنية مستغلة ، أو بين « جنوب » محروم و « شمال » متخوم . وليس من مصلحتها فك الارتباط مع عدم الانحياز لأن ذلك يعيدها إلى ظلمات التبعية الأولى ، ويكفيها شرفاً انها كانت سباقة إلى هذه الرؤية قبل غيرها . يقول السيد الرئيس حافظ الأسد : « وانها لشهادة كبرى تؤكد جدوى عدم الانحياز وأهميته، أن نرى العالم يبتعد عن خطر تدمير ذاته ، وأن نرى أيضاً القوى الكبرى في هذا العالم تتجه في أوائل السبعينات إلى ما نادت به حركة عدم الانحياز في مطلع الستينات . أليس هذا دليلاً على ما تميزت به الحركة من سبق الرؤية في نظرتها إلى عالم مشرق بالسلم مطمئن بالعدل وبالكفاية . ولئن كان ما تحقق في هذا الاتجاه لم يأت نتيجة اسهام مباشر من قبل حركة عدم الانحياز ، فان ما تحقق كان انتصاراً لفكر هذه الحركة ودليلاً على بعد نظرها »[١] .

وصفوة القول ، ان دول « العالم الثالث » التي تحررت من الاستعمار لم تستقر بعد في حياتها الاستقلالية الحديثة ، وأمامها مشاكل كثيرة ومصاعب جمة ترجع في أصلها إلى افراط سكانها وتخلفها الاقتصادي . وقد أوجدت الظروف الجديدة فيما بينها تضامناً عبرت عنه بتفهمها لقضاياها المشتركة والمختلفة تماماً عن قضايا الدول الممتازة اقتصادياً التي تمثلها البلاد المتقدمة في العالمين الرأسمالي والاشتراكي . وان هدفها الأسامي من سياسة عدم الانحياز صيانة أمنها وتقدم بلادها والعمل لخير البشرية كافة .

---

(١) راجع خطاب السيد الرئيس حافظ الأسد في مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر ، وقد نشر في صحيفة « البعث » السورية ، يوم الجمعة ، ٧ أيلول ١٩٧٣ .

الفصل الرابع عشر

تقرير المصير

تمهيد

في غابر العصور المترامية في التاريخ كانت الحرب وسيلة تتخذهـا الأقوام القديمة لفرض ارادتها على الأقوام الضعيفة ، وكانت شريعة الغاب قانوناً يسمح للأقوياء ان يلتهموا الضعفاء . وكانت البشرية في فجر حياتها الحضارية فقيرة بالمثل العليا والمبادىء الأخلاقية الرفيعة والحقوق الوضعية التي تكفل حفظ النظام وتسوية العلاقات البشرية في المجتمـع ، وتحول دون استعباد الانسان لأخيه الانسان .

ولكن عجلة التطور سارت مع الزمن تطوي العصور وتحث الخطا الى ان وصلت بالبشرية الى ما وصلت اليه ، وعلمت الانسان ما لم يكن يعلم ، فنما الوجـدان الفردي والشعور الاجتماعي والوعي القومي ، واستيقظت شعوب مضطهدة مقهورة ظلت ترسف في السلاسل والاغلال قروناً مديدة ، ورأت الأخطار التي تتهددها ان بقيت على ما هي عليه من ذل وصغار ، فقامت ترفع الحيف عنها ، وتطالب بحقوقها المهضومة لتفرض وجودها ، وتنعم بحريتها السليبة وحقها الطبيعي ، وتحقق رسالتها الانسانية كغيرها من الشعوب التي تعيش في ظل العزة والكرامة الوطنية .

وتحت تأثير عوامل فكرية ، وروابـط اجتماعية ، وردود فعل

قومية ، قامت الشعوب المغلوبة على أمرها تلبي نداء الحرية المدوي في كل مكان بأن الناس ولدوا احراراً ويجب ان يعيشوا احراراً كما خلقهم الله احراراً . ولكن دروب الحرية مفروشة دوماً بالأشواك . ولا بد لكل من يسلكها من ان يكون مسلحاً بالفكر الواعي والايمان العميق والعزم الثابت والقدرة الماضية على تحمل المسؤولية ، لأن وعوثة الطريق قد تثنيه عن عزمه فيرجع القهقرى ولايصل الى مايريد . الا ان الأخذ بهذه الطرق والوسائل دفـــع الشعوب الى القيام بحركات قومية قلبت الأوضاع رأساً على عقب ، والهبت القلوب بهوى حار وعقائد راسخة ، فتحررت اقوام لبثت زمنـــاً طويلاً ترزح تحت نير الاستبداد واغلال الاستعباد وقيود التبعية ، وتوصلت الى تكوين وحدات قومية مستقلة استقلالاً تاماً ناجزاً . وستظل هذه الحركات تعمل عملها الى ان يزول كل استعباد على سطح الأرض ، وينعم كل شعب بحريته واستقلاله .

ولاشك في ان هذه الحركات التحررية - الاستقلالية كانت تسيرها الفكرة القومية كموجه ، والمبدأ القومي كمنهج للسلوك ، وان تبني هذا المبدأ القومي يدعو أي شعب من الشعوب بلغ مرحلة الأمة الى ان يحقق ذاته ويقرر مصيره أي يمارس الحق الذي تمارسه كل أمة في تقرير أمر سيادتها بنفسها دون ضغط او اكراه أو تدخـــل اجنبي مهما كان نوعه . وهذا القرار الذي تتخذه الأمة يكون إما طلباً للاستقلال التام الناجز السليم من كل شائبة ، أو في سبيل الاتحاد والاندماج مع دولة أخرى تصبح وإياها شيئاً واحداً . فهو اذن مبدأ يترك افراد الأمة ، لاي أمة ، يختارون الاسلوب او الاتجاه الذي يرتأونه محققاً لسيادتهم والحفاظ على شخصيتهم القومية وسلامة أرضهم .

حق تقرير المصير

ان حق تقرير المصير ، أي حق البت في أمر الشعب واستلام زمام هذا الأمر بيده ، هو الحق الذي يدخـــل في اساس الاستفتاء الشعبي لتقرير مصير الشعب ، وهو الحق الذي نادت به القوميات التي خضعت للحكم الأجنبي في سبيل تحريرها القومي

والبحث في حق تقرير المصير يقتضي معالجة الأمور التالية :

١ ـ مقومات حق تقرير المصير .

٢ ـ المراحل التاريخية لحق تقرير المصير القومي .

٣ ـ ممارسة حق تقرير المصير .

٤ ـ وسائل تنفيذ حق تقرير المصير .

مقومات حق تقرير المصير . ـ ان مقومات حق تقرير المصير هي القومية و الديموقراطية والسيادة : فالقومية تعني تحقيق الشخصية القومية بتكوين الدولة القومية . والديموقراطية هي حكم نفسها بنفسها ، أي حكم الشعب المتماسك والمترابط اجتماعياً نفسه بنفسه . والسيادة ان تكون الأمة سيدة نفسها فلا سيطرة لأمة أو اشراف دولة عليها . وهذا يعني ان الأمة بلغت مرحلة الدولة المستقلة وذات السيادة كسائر الدول المستقلة ذات السيادة .

واذا تأملنا في تاريخ الدول الحديثة ، وجدنا ان تشكلها بني على أساسين : الأول هو السيادة القومية ؛ والثاني هـــو المساواة بين هذه الدول التي تتمتع بسيادتها القومية . اما السيادة فقد كانت بيد الملوك والأباطرة والامراء . وفي اوربه ، التي بدأ فيها تشكيل الدول الحديثة

قبل غيرها ، في الأزمنة الحديثة ، نجد ان تركيز السلطة بدأ فيها منذ القرن الثالث عشر ، عندما انطلقت تباشير النهضة الاوربية الحديثة وكثر الاقبال على دراسة الحقوق الرومانية لتستخلص منها المبادىء والمؤيدات القانونية التي تدعم سلطة الملوك حيال الأمراء الاقطاعيين والمناوئين وتقوي هذه السلطة وتفرضها على الشعوب . وقد ظل هؤلاء الملوك يكافحون السلطات الاقطاعية الى ان قضوا عليها وانهار بناء العصر الوسيط وتربعوا على عروشهم . بيد ان هؤلاء الملوك اساءوا بدورهم استعمال السلطة واستبدوا بالأمور دون غيرهم ، واتجه منحنى السير في الحكم نحو الحكم الاستبدادي المطلق ، واخذ الملوك يدعون بأنهم يحكمون بموجب الحق الإلهي الذي خوله الله لهم . ولذا يعتبرون انفسهم غير مسؤولين أمام شعوبهم وانما هم مسؤولون أمام الله الذي خولهم السلطة .

وأخذت فلسفة القرن الثامن عشر المستنيرة بنور العقل توجه الأفكار وجهة أخرى ، وتسلط الأنوار على الشعب وحقه في حكم نفسه بنفسه ، بل وحقه في مقاومة الحكم الكيفي ، والتسلط الملكي . وكانت هذه الحركة الفكرية مقدمة لوضع أسس الديموقراطية ونموها في العصور الحديثة ، وما زالت تتسع وتنمو في القرن العشرين وتنتشر في اوربه وفي خارج اوربه ، بالرغم مما يصيب الديموقراطية من نكسات دورية ، بين فترة وأخرى ، الى ان أصبحت الديموقراطيـــة شعاراً من شعارات الحضارة الحديثة .

ولكننا اذا اخذنا الديموقراطية بمعناها الواسع ، لاعلى مستوى شعب وحكام وطنيين ، بل على مستوى شعب وشعب ، أمـــة وأمة ، أمة ودولة ، أمة محكومة ودولة حاكمة اجنبية عنها ، أمة خاضعة مقهورة

ودولة متسلطة ، محتلة ، مستعمرة ، وجدنا شعوباً فقدت كيانها السياسي كدولة ، وظلت تحتفظ بمقوماتها القومية من صلة ونسب ولغة مشتركة وعادات وتقاليد ودين وماض واحـــد وآلام واحدة وآمال واحدة ، ومصالح مشتركة وارادة مشتركة وغير ذلك من العناصر المقومة للقومية . فمن هذه المقومات المعقدة بعضها أو كلها خرج حق تقرير المصير القومي المعتمد على تبني المبدأ القومي الذي يرمي الى تأسيس الدولة القومية التي تحقق ذاتها بين الدول الأخرى على صعيـد العلاقات الدولية وفي اطار من السيادة والمساواة والاحترام المتبادل .

المراحل التاريخية . — يمكننا ان نقسم هذه المراحل الى ثلاث :

١ — مرحلة الثورة الفرنسية

٢ — المرحلة الامريكية

٣ — مرحلة الأمم المتحدة

مرحلة الثورة الفرنسية . — لقد تركت فلسفة الاستنارة ، فلسفة النور والعقل ، الفلسفة المستنيرة بنور العقل ، آثارها في النفوس الحرة الكريمة . وقام بتأثيرها الفكري حادثان عظيمان كان لهما اعمق الأثر في حياة الشعوب ، وهما : حرب الاستقلال الامريكية والثورة الفرنسية الكبرى . ولقد كان تأثير الثورة الامريكية مباشراً على امريكا . أما الثورة الفرنسية فكان تأثيرها مباشراً على اوربه وغير مباشر على آسيا وافريقية ، نظراً للصلة الوثيقة بين هاتين القارتين واوربه . لقـــد ادخلت الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ عنصر الفكر في سير الحوادث التاريخية وارادت ان تقيم الحق مكان الظلم والقوة . ونادت بحقوق الانسان ، والدفاع عن حريات الشعوب ، ولبت نداءها الجماهير . وانا لنجد في آثار المؤلفين والناشرين

من رجال الثورة مايشير جزئياً أو كلياً الى حق الشعوب في تقرير مصيرها . وفي ذلك يقول كادنو باسم اللجنـــة الدبلوماسية : « يجب الا يسمح بالانضمام الى فرنسا الا الى البلاد التي تطلب هذا الانضمام بناء على رغبة منها وحرية . لأن السيادة خاصة بجميع الشعوب ، ولا يمكن ان يكون هنالك اتحاد الا بموجب عقد صريح يتم بملء الحرية . وليس لشعب الحق في اخضاع شعب آخر الى قوانين عامة مشتركة دون رضى واضح من هذا الشعب » . ذلك لأن « كل شعب ، مهما كان صغيراً ، سيد شؤونه في بلده ، ومساو في الحق لاكبر الشعوب ، وليس لأحد ان يعتدي على استقلاله »

وقد نفذت الثورة الفرنسية في بداية عهدها هذه الأفكار والمبادىء لتكون منطقية مـــع مذهبهـا ، ودعت الشعوب الى تقرير مصيرها بنفسها عن طريق الاستفتاء الشعبي . غير ان الظروف السياسة والأهواء القومية أخرجت الثورة عن هذه المبادىء ، منذ ان تجاوزت حدود الأرض الفرنسية . حتى ان نابوليون ، وهو ابن الثورة ، كان يهزأ بالثورة ، وبحق الشعوب ، وبفرنسا ، في سبيل طموحه الشخصي . وهذا ماآثار عليه الشعوب والدول وفرنسا ايضاً، وآل الأمر أخيراً الى سقوطه وعقد مؤتمر فينّا عام ١٨١٤ — ١٨١٥ .

اتى مؤتمـر فينا ، أثناء تعديل خارطة اوربه السياسية على مائدة المؤتمر ، ببعض المبادىء الجديدة . فمن ذلك انه اطرح القوة كقاعدة لاكتساب حق من الحقوق ، واعتبر ان السيادة على بـلد من البلاد لاتخول بالفتح ، بل بالتنازل الارادي عنها من قبـــل سيدها الشرعي ، واخضع العلاقات الدولية الى قواعد العقل والعدل والاحترام المتبادل . ومن هنا يتبين لنا ان مؤتمر فينا لم يأخذ بحق الشعوب في تقرير مصيرها ،

وانما جعل هذا الحق خاصاً بسيد الدولة الشرعي من ملك أو امير او امبراطور . كما ان المؤتمر لم يحترم ، في ترتيباته السياسية ، حق الشعوب في سيادة نفسها ، بل الحقها بغيرها من الدول الكبرى ، وأرجع سادة اوربه المعزولين او المزاحين الى عروشهم ، ودعم هذه الرجعى بالقوة . وهكذا ساد « النظام الرجعي » اوربه ، وهدم مؤتمر فينا مابنته الثورة الفرنسية لصالح الشعوب من حق تقرير المصير .

المرحلة الامريكية . — يدخل في هذه المرحلة فترتان : فترة الرئيس مونرو ، وفترة الرئيس ولسون .

فترة الرئيس مونرو . — على اثر ثورة المستعمرات الاسبانية في امريكا اللاتينية على حكم نابوليون ، عندما غزا اسبانيا ، وعدم اعترافها بحكم اخيه يوسف بونابرت ، انقلبت ثورة هذه المستعمرات بالتالي الى ثورة ضد اسبانيا وحركة انفصالية أدت الى حرب استقلال . وكان الاستياء عاماً في هـــذه المستعمرات ، لأن ثورة الولايات المتحدة على انكلترا ، والثورة الفرنسية على النظام القديم الفاسد كانتا تشجعان الأماني الوطنية في المستعمرات الاسبانية . وتعقدت الحرب بسبب تدخل الدول الاوربية وتهديداتها ومزاعمها في امريكا ؛ الأمر الذي دفع رئيس الولايات المتحدة في ذلك الحين ، الرئيس جيمس مونرو ، الى ان يعلن تصريحه الشهير بـ « تصريح مونرو » في العام ١٩٢٣ ، الذي اوضح فيه السياسة الأمريكية حيال دول القارة الاوربية ، وتتلخص هذه السياسة بما يلي :

١ — ان القارة الامريكية قـــد وصلت الى درجة من الحرية والاستقلال لا يصح معها احتلال أي جزء من اراضيها من قبل احدى الدول الاوربية .

٢ — ان كل محاولة من الدول الاوربية لفرض نظمها السياسية على

أي جزء من اجزاء القارة الأمريكية يعتبر خطراً على أمن وسلام الولايات المتحدة ، ولذا لن تسمح بمثل هذا التدخل .

٣ - ان الولايات المتحدة لاتريد ان تتدخل في الشؤون الخاصة بدول اوربه ، ولاشأن لها بالحروب التي تقوم بين هذه الدول الا مايقتضيه حق الدفاع عن نفسها اذا وقع اعتداء على حقوقها أو أصبحت مصالحها مهددة تهديداً جدياً ، أو وجهت اليها اتهامات من احدى الدول الاوربية .

وهذا يعني ان « امريكا للأمريكيين » . وقد افاد هذا التصريح بصورة مباشرة الحركات الانفصالية التي قامت في امريكا الجنوبية على اسبانيا ، الوطن الأم ، واضطر نظام الضابطة الاوربية الى الافلاس في العالم الجديد وعدم التدخل بشؤون امريكا ، مما كان له أثره في العلاقات بين دول امريكا والروابط التي تربطها بأوربة .

ومن الواضح ان مبدأ مونرو ينطوي في ذاته على حق الشعوب في تقرير مصيرها ، ولو لم يتناول الشعوب الا بصورة غير مباشرة ، لأن مثل هذا المبدأ أملته المصلحة الامريكية قبل كل شيء . ومهما يكن فان هذا المبدأ سيكون له تأثيره على خلف مونرو البعيد وهو الرئيس ولسون الذي سيأخذ بـه ويوسعه ويعممه اثناء الحرب العالمية الاولى ويحاول تطبيقه ما استطاع لذلك سبيلاً .

فترة الرئيس ولسون . - عندما نشبت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، اشتركت فيها الولايات المتحدة . ولسنا بصدد العوامل التي دفعت هـــذه الدولة إلى الدخول في الحرب الى جانب انكلترا وفرنسا وحلفائها ، بل ان الذي يهمنا هو ان نبين المرحلة التي مر بها حق تقرير المصير .

في كانون الثاني ١٩١٧ ، وجـــه الرئيس ولسون الى الكونغرس الأمريـكي رسالة جاء فيها : « الرأي عندي أن تتفق الدول على قبول مبدأ مونرو وتعميم تطبيقه في جميـع أنحاء العالم بحيث لايصح لأمة أن تكره أمة أخرى على انتهاج سياستها ، وانما ينبغي أن يترك لكل شعب الحق في أن يقرر سياسته بنفسه ويرسم الطريق الذي يراه كفيلًا بأن يقوده إلى التقدم دون أن يكون عرضة بسبب ذلك لأي تهديد أو ارهاب أو حرج ، ودون أن يكون هناك فارق بين شعب ضعيف وشعب قوي . »

وفي ٢ نيسان ١٩١٧ ، أي في اليوم الذي صوت فيه الكونغرس على دخول الولايات المتحدة الحرب ، كان الرئيس ولسون قد وجه رسالة إلى الكونغرس قال فيها : « ان القانون شيء أغلى من السلام . ولذلك سنحارب دفاعاً عن المبادىء التي كانت دائماً أثمن من حبات قلوبنا . سنحارب من أجل الديموقراطية . وسنكفل لمن أذلهم الاستبداد الحق في أن يكون لهم رأي في توجيه حكوماتهم . سنحارب من أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرياتها ، ولنرسي في جميع أنحاء العالم مبادىء حكم القانون ، ذلك القانون الذي سيعيد السلام والامن لجميـع الشعوب ويجعل العالم كله عالماً حراً . »

وأوضح الرئيس ولسون أهداف الحرب برسالته الشهيرة التي وجهها إلى مجلس الشيوخ الامريكي ، في ١٨ كانون الثاني ١٩١٨ ، وفيها يعدد في ١٤ نقطة أسس السلام في المستقبل كما يريد أن يحققه . وانا لنجد في النقطة العاشرة والثانية عشرة والرابعة عشرة مايشير إلى حق تقرير المصير. ويقول الرئيس ولسون أيضاً : « ان هنالك مبدأً ضخماً يسود برنامجنا هو مبدأ العدالة لجميع الشعوب والقوميات وحقها في الحياة جنباً إلى جنب متمتعة بالحـــرية والامن سواءً أكانت قوية أم ضعيفة . واذا لم نوفق

لارساء أساس هـــذا المبدأ فليس في استطاعتنا بناء أي جزء من صرح العدالة الدولية . »

وفي تموز ١٩١٨ ، ألقى الرئيس ولسون خطاباً على ضريح واشنطون قال فيه : « ان الامم المتحدة تحارب من أجل أهداف لن يتحقق السلام إلا ببلوغها . ومن بين هذه الاهداف تسوية المشاكل سواء أكانت متعلقة بالاراضي أم بالسيادة ، أم بالعلاقات السياسية ، على أساس ضرورة قبول تلك التسوية قبولاً اختيارياً محضاً من جانب الشعب صاحب الشأن ، لاعلى أساس المصلحة أو المنفعة المادية التي يمكن أن تعود على شعب يرغب في تسوية أخرى لفائدة نفوذه وسياسته . اننا لانريد إلا سيادة الحق القائمة على رضى المحكومين أنفسهم ، هذه السيادة التي يؤيدها الرأي العام المنظم . »

هذا وتجدر الاشارة إلى أن الظروف ، التي تلت اعلان ولسون لمبدأ تقرير المصير ، قد أوضحت بأن هـــذا الاعلان لا يتضمن المناداة بالتحرر والانفصال ، وانما أراد أن يؤكد حقوق القوميات في حكم نفسها بنفسها ضمن كيان الدولة التي تنتسب اليها . كما يجب أن نعترف بأن نقاط الرئيس ولسون كانت دساتير عامة ومبهمة عن قصد ، وصعبة التكيف مع واقع الحال ، لأنها اتخذت احترام حقوق القوميات مبدأً أساسياً لها. ولكن هذه القوميات وجدت في عدة بقاع متداخلة ومختلطة بحيث يستحيل فيها وضع خط فاصل للتقسيم فيما بينها . ولذا فسحت نقاط ولسون مجالاً لتأويلات مختلفة . يضاف إلى ذلك أن الدول العظمى ، بعد الحرب ، وجدت نفسها أمام مطالب الأمم الصغيرة التي شاركتها في النصر . وكان بين هـذه الامم من لا يريد الاخذ بمبادىء ولسون ويحاول أن يفسرها تفسيراً يضع الحقوق التاريخية والمصالح الستراتيجية والاقتصادية فوق حقوق القوميات . وهذا مايفسر لنا التناقض الذي وقع فيه ولسون بين المبادىء

والحقائق الواقعية ، فضلاً عن أن واسون نفسه لم يكن ليسعى وبنفس القوة لتطبيق مبدأ تقرير المصير على كافة شعوب العالم على حـــد سواء وبدرجة واحدة من الاهتمام . فقد وجه معظم اهتمامه إلى شعوب أوربة وأهمل الكثير من قضايا أمم آسيا وافريقية .

أما دول الحلفاء فقد اعترفت أثناء الحرب مكرهة بحق الشعوب في تقرير مصيرها لتجرها إلى صفها وتفيد من مساعدتها ضد دولتي الوسط ، ألمانيا والنمسا ، وحلفائها . ولكن ما أن وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها وعاد السلام، الا وتنكرت هذه الدول لمن كانت تستدر عطفهم بالامس . وهكذا كان وضع العرب بعد هـــذه الحرب ، لان الدول الكبرى لم تحترم وعودها لهم ، وأقسى من ذلك أنها قسمت بلادهم إلى أجزاء واختصت كل واحدة منها بجزء ، بل وقسمت الجزء الواحد إلى عدة أجزاء . فأين هذه السياسة من احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها ؟

وفي الحقيقة ، ان الدول الظافرة طبقت مبدأ تقرير المصير حيث طاب لها تطبيقه ، ومنعته عن شعوب أخرى لان مصالحها الحيوية تغلبت على احترام حق الامم . وهذا ما أثار مشاكل جديدة تجمعت فوق المشاكل القديمة المعلقة ، وظلت تقلق بال الدول طـوال فترة ما بين الحربين ، ولاسيما بعد أن وعت مقدراتها وحقها في الحرية والسيادة القومية .

مرحلة الامم المتحدة . — وفي الحرب العالمية الثانية ، بعد أن شن هتلر هجومه على الاتحاد السوفياتي ، قابل الرئيس روزفلت البريطاني الاول ، ونستون تشرشل ، في ١٤ آب ١٩٤١ ، على ظهر الدارعـــة الانكليزية « برنس اوف ويلز » الراسية في جون الارض الجديدة ، ووقعا معاً ميثاق الاطلسي الذي يعتبر أول معلـم لتشكيل تضامن شعوب الاطلسي . وقد أكدت الدولتان ، في هذا الميثاق ، بأنهما لاتبغيان أي توسع أرضي أو

خلافه ، وتتعهدان بالا تحدثا أي تغير أرضي مضاد لاماني الشعوب ، وتعترفان بأن لكل شعب الحق في انتخاب شكل الحكم بحرية ، وتعلنان رغبتها في اعادة السيادة والاستقلال للدول التي تمتعت بها من قبل ثم سلبا منها . كما نص الميثاق على تأسيس نظام للأمن قائم على قواعد أوسع مما في عصبة الامم . واتجه التفكير لاحداث منظمة جديدة كل الجدة هي منظمة الامم المتحدة .

وبعد الحرب العالمية الثانية انعقد من ٢٥ نيسان الى ٢٥ حزيران ١٩٤٥ ، مؤتمر دولي في سان فرنسيسكو ووضع دستور المنظمة الجديدة او شرعة الأمم المتحدة . وأصبح هذا الميثاق ساري المفعول بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٥ ، هذا التاريخ الذي يعتبر ميلاد الأمم المتحدة .

ولقد اعلن موقعو شرعة الأمم المتحدة عن ايمانهم « بحقوق الانسان الأساسية في الكرامة وقيمة الشخص البشري ومساواة حقوق الرجال والنساء والأمم الكبرى والصغرى ، وبأنهم انصار الحريات الأساسية للجميع دون تمييز عنصر أو جنس او لغة او دين ، وبأنهم يؤكدون حق الشعوب في تقرير مصيرها » .

وان الفقرة الثانية من المادة الاولى ، التي تبين اهداف الأمم المتحدة . تتعلق في حق الشعوب في تقرير مصيرها وتنص على مايأتي :

« ان مقاصد الأمم المتحدة هي : انماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتساوي في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها ، وكذلك اتخاذ التدابير الاخرى الملائمة لتعزيز السلم العالمي »

كذلك اقرت المادة ٥٥ من الميثاق نفس المبدأ ايضاً . وجاء في

المادة ٧٣ في الفصل الحادي عشر المتضمن « تصريحاً يتعلق بالأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي » ماياتي :

« يقر اعضاء الأمم المتحدة ، الذين يضطلعون في الحال او في الاستقبال بتبعات ادارة اقاليم لم تنـــل شعوبها قسطاً كاملاً من الحـكم الذاتي ، بالمبدأ القاضي بان مصالح اهل هذه الأقاليم لها المقام الأول ، ويقبلون ، أمانة مقدسة في عنقهم ، الالتزام بالعمل على تنمية رفاهية أهل هذه الأقاليم الى أقصى حد مستطاع في نطاق السلم والأمن الدولي الذي رسمه هذا الميثاق . ولهذا الغرض :

أ – يكفلون تقدم هذه الشعوب في شؤون السياسة والاقتصاد والتعليم والاجتماع ، كما يكفلون معاملتها بانصاف وحمايتها من ضروب الأساءة ،كل ذلك مع مراعاة الاحترام الواجب لثقافة هذه الشعوب .

ب – ينمون الحكم الذاتي ، ويقدرون الأماني السياسية لهذه الشعوب حق قدرها ويعاونونها على انماء نظمها السياسية الحرة نمواً مطرداً ، وفقاً للظروف الخاصة لكل اقليم وشعوبه ، ومراحل تقدمها المختلفة . »

وقد رأت الدول الآسيوية والافريقية المستقلة والاعضاء في الأمم المتحدة ان الشرعة تتضمن اقـرار الأمم الموقعة واعترافها بحق الشعوب غير المستقلة بالاستقلال ، وان هيئة الأمم المتحدة وسيلة لتحقيق هذا الاستقلال . وعلى ضوء هذه الاعتبارات يكون حق تقرير المصير حقاً طبيعياً وداخلاً في صلب شرعة الأمم المتحدة . وان من واجب الدول الموقعة عليها ان تعمل على تطبيقه والتقيد به ، والا فهي مسؤولة عما يسبب موقفها السلبي من تهديد للأمن الدولي والسلام العالمي .

ووافقت الجمعية العامة في الامم المتحدة على اقتراح الكتلة الآسيوية –

الافريقية بدعوة المجلس الاجتماعي والاقتصادي ليطلب من الهيئة التي تعمل على وضع حقوق الانسان ، ان تدرس الطرق والوسائل التي من شأنها ان تضمن حقوق الشعوب والأمم في تقرير مصيرها ، وان تحضر التوصيات اللازمة من اجل بحثها في الاجتماع السادس للجمعية العامة .

وقبل العمل في هذه المقترحات كانت الدول الآسيوية — الافريقية قد تقدمت بطلب يقضي بأن تتخذ الجمعية العامة قراراً بادخال حق تقرير المصير القومي كمادة كاملة في ميثاق هيئة الامم المتحدة . وقبل الاقتراح بأكثرية ٣٦ صوتاً مقابل ١١ صوتاً وامتناع ١٢ عضواً عن التصويت .

وعلى أثر التوصيات التي قدمتها الجمعية العامة تبنت هيئة حقوق الانسان مبدأ تقرير المصير القومي لتضمه إلى ميثاق حقوق الانسان كما يأتي :

أولاً — يجب أن يكون لجميع الشعوب والأمم حق تقرير المصير ، أي أن يكون لها الحق في أن تقرر بحرية وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

ثانياً — يجب على جميع الدول ، بما فيها الدول المسؤولة عن ادارة الاقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والاقاليم الخاضعة للوصاية ، وكذلك الدول التي تتولى بأي صورة ممارسة هذا الحق نيابة عن شعب آخر ، أن تعزز تنفيذ هذا الحق في مناطقها ، وان تلتزم بالمحافظة على حسن سير تنفيذه من قبل الدول الأخرى وفقاً لشروط ميثاق الأمم المتحدة .

وبناء على اقتراح تقدمت به حكومة تشيلي أضيف الى هاتين الفقرتين من المادة ٤٨ من الميثاق الدولي لحقوق الانسان السياسية والمدنية فقرة ثالثة وهي :

ثالثاً - يجب أن يتضمن حق الشعوب في تقرير مصيرها السيادة التامة على ثروتها ومواردها الطبيعية . ولا يجوز بحال من الاحوال أن يحرم شعب من وسائله الخاصة بالعيش على أساس أي حقوق قد تزعمها الدول الاخرى .

ووافقت الجمعية العامة على هذه البنود الثلاثة جميعها . وبهذا أصبح حق تقرير المصير جزءاً من ميثاق منظمة الامم المتحدة ومن حقوق الانسان. وما من شك في أن ادخال حق تقرير المصير في ميثاق الامم المتحدة كان خطوة موفقة في سبيل اعطاء هذا الحق الصفة الحقوقية اللازمة . ومنذ ذلك الحين وحق تقرير المصير يلقى التأييد والاعتراف تلو الاعتراف في المؤتمرات الدولية والشعبية ، حتى أصبح حجة قوية تتمسك بها الشعوب غير المستقلة لتقرير مصيرها . ونذكر على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، المقررات التي اتخذها مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين ، في دمشق بين ٧ - ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وهي كما يلي :

« لما كان حق الشعوب في تقرير مصيرها حقاً طبيعياً ، ووضعياً ، ومعترفاً به في النصوص ، وذا شمول عام في المكان والزمان ؛ ولما كان هذا الحق في الواقع ، باعتباره ثمرة تطور تاريخي طويل دفعت الشعوب ثمنه غالياً ، قد نص عليه في نص دولي أساسي هو ميثاق الامم المتحدة الذي وقعت عليه كل الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة ؛ ولما كان هذا الحق يعطي لكل شعب القدرة على أن يدير شؤونه بكل حرية وسيادة ودونما اكراه ؛ ولما كان هـــذا الحق يعني أن مصير قطر من الاقطار تقرره ارادة الناس الذين يسكنونه وحدهم ؛ ولما كان هذا الحق وكل مقتضياته لم تجد حتى الآن تطبيقها الشامل المرغوب ؛ ولما كان

النظام الاستعماري انكاراً تاماً لهذا الحق ، وكان الاستعمار فوق ذلك ، وبحكم ماهيته جريمة في ذاته ومنبعاً للجرائم (كالحروب والمجازر وأعمال التعذيب ومحاولات القضاء على القوميات واذابة الكيان القومي لبعض الشعوب) ؛ وكان تطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها ، واحترام هذا الحق ، من شأنها تأمين الطمأنينة العالمية وتوطيد السلام ؛ ولما كانت بلاد كثيرة لا تستطيع حتى الآن أن تمارس حقها في تقرير مصيرها بنفسها؛ وكان حق الشعوب في تقرير مصيرها حقاً أساسياً من حيث طبيعته ، وكان لجوء الشعوب إلى استخدام القوة في الدفاع عنه أمراً مشروعاً ؛ لذلك كله ، فان مؤتمر الحقوقيين الافريقيين والآسيويين المنعقد في دمشق بين السابع والعاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، الامين لمبادىء الحق والعدل العامة ولروح مؤتمر باندونغ :

يؤكد من جديد ايمانه بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها وبأنه حق ذو شمول عام دائم ، ويطلب تطبيقه فوراً ودونما أي تحديد أو تقييد، على جميع الشعوب المحرومة منه ، ويشجب النظام الاستعماري بوصفه جريمة واعتداءً دائماً على الشعوب والافراد ، ويطلب من منظمة الامم المتحدة ، بوصفها حارساً يقظاً لميثاقها ولحق الشعوب في تقرير مصيرها ، أن تسهر باستمرار على تطبيق هذا الحق واحترامه في كل أرجاء العالم ، ويناشد الدول الاعضاء في مؤتمر باندونغ بوجه خاص أن تدعم هذا الحق وتفرض احترامه . »

والجدير بالذكر ان محرري ميثاق الامم المتحدة قد استنتجوا أن مبدأ « حق تقرير المصير » هو مبدأ مطلق ويجب أن يبقى هكذا دون أن يعلق بأي شرط أو قيد مهما كان نوعه . ولكن الدول التي مازالت مستعمرة وتدير أقاليم غير متمتعة بالحكم الذاتي وجدت أن مبدأ حق

تقرير المصير يقف عقبة في طريق استعمارها واستغلالها للشعوب التي تتحكم بمصيرهـا ، ولذلك حاولت أن تقيد هـذا المبـدأ المطلق بالشروط والقيود التي ترضاها أو تريد فرضها ، هذا مع العلم أن مقاصد الامم المتحدة كانت غير ذلك . يضاف إلى ذلك أن الدول الكبرى والمنظمات العسكرية والاحلاف الكبرى كثيراً ما حاولت التهرب من هذا الحق أو اللعب به في كل فرصة مواتية لها .

ممارسة حق تقرير المصير . — وبعد هذه التطورات التاريخية نستطيع القول ان للشعوب الحق في تقرير مصيرها . ولكن كيف تمارس الشعوب هـذا الحق ؟ ان الشعوب ليست حرة التصرف في أن تنفصل عن دولة كانت منضمة لها ومرتبطة بها ، أو أن تنضم إلى دول كانت منفصلة عنها ، دون التحقق من أن هذا الانفصال أو هذا الانضمام يعبر عن رغبة أكيدة ويتمشى مع قدرتهـا على مواجهة كافة النتائج المترتبة على ذلك وتحمل مسؤولياتها ، ودون النظر إلى النتائج الاقتصادية لهذا العمل بالنسبة للطرفين ، وبالنسبة لاستقرارهما الداخلي وأمنها العام ، وكذلك بالنسبة لمصالح الدول الاخرى أو المجموعة الدولية عامة .

ولا مرية في أن ممارسة حق الشعوب في تقرير مصيرها كثيراً ماتصطدم في الواقع بصعوبات مادية سياسية أو اقتصادية أو ادارية أو استراتيجية قد تتعارض مع رغباتها وتحول دون احقاق هذا الحق . فكيف تحـدد أمة من الأمم وما هي الضوابط التي يجب الاعتماد عليها في هذا السبيل ؟ لقد قيل ان هنالك ضوابط اقليمية وقومية . ولكن من العسير جداً ايجاد ضابط يمكن أن يكون مقبولاً دون منازع . هذا بالاضافة إلى أننا كثيراً ما نجد قوميات متباينة تعيش مختلطة بعضها ببعض بحيث يتعذر تكوين دول كبرى دون أن تشمل هـذه الدول أقليات كثيرة تخلق بدورها

ظروفاً عسيرة ، أو انشاء دولة في اقليم صغير تحيط به دول تناصبه العداء، أو اقامة دولة على حساب دولة أو دول أخرى ، كما هي حال اسرائيل التي أوجدها الاستعمار الامبريالي على حساب العرب. ان مثل هذه الدول أو الدويلات أو الكيانات على درجة عظيمة من الخطورة لأنها تظل بؤرة اضطراب وموئل قلق ومصدر خطر على الأمن الدولي والسلام العالمي .

وتقتضي ممارسة حق تقرير المصير ، قبل كل شيء ، استقرار الشعب على رأي موحد . واذا تيسر له ذلك فكيف يمكنه أن يعبر عن ارادته ؟ لقد جرى التعامل أن يكون ذلك بالاستفتاء الشعبي ، شريطة أن يحاط هذا الاستفتاء بالضمانات الكفيلة التي توفر حريته وسلامته ، كأن يكون التصويت سرياً وتحت اشراف لجنة دولية تتوافر فيها كل ضمانات الحياد، وان توضع تحت تصرفها قوات دولية لتساعدها على أداء مهمتها بغية ضمان حرية التصويت والحفاظ على الأمن العام .

والثابت أن الاستفتاء ، إذا لم يكن نزيهاً ومحاطاً بالضمانات الجدية الدولية ، يكون عرضة للتلاعب ، وتؤدي اساءة استعماله إلى تشويهه وإلى نتائج مغايرة لما يراد منه . والشواهد التاريخية على ذلك عديدة . فكثيراً ما استغل الطغاة والمستبدون عمليات الاستفتاء ووجهوها لصالحهم ، وليست الاستفتاءات التي أجراها نابليون في عصره والاستفتاءات التي تجري في عصرنا إلا شاهداً على ذلك .

وكذلك تتطلب ممارسة حق تقرير المصير من الشعب اعداداً للتعبير عن ارادته بحرية . وقد يبلغ الشعب هذه المرحلة ، ولكن المصالح الحيوية لتبرير سياسة الدول الكبرى والتسلط الاستعماري وبقاء الاستعمار ، كثيراً ما تحول دون نمو الشعوب المستعمرة والمغلوبة على أمرها ، كما هي الحال في دولة اتحـــاد جنوبي افريقية ، وفي المستعمرات البرتغالية في الوقت

الحاضر . ولهذه الأسباب كلها رأت لجنة حقوق الانسان أن تضيف المادة ٤٨ الى مشروع الميثاق الدولي لحقوق الانسان السياسية والمدنية التي تتضمن وسائل تنفيذ هذا الحق ومباشرته .

وسائل تنفيذ حق تقرير المصير . — ان الميثاق الدولي لحقوق الانسان السياسية والمدنية ، كما رأينا سابقاً ، يتضمن بنوداً تبين طريقة تطبيق حق تقرير المصير للأمم الواقعة تحت الوصاية ، ولكافة الشعوب الأخرى التي لاتحكم نفسها بنفسها سواء اكانت محمية أم مستعمرة، وذلك بتنمية الامكانيات الداخلية ورفع الأمة الواقعة تحت سلطتها أو وصايتها إلى المستوى اللائق لحكم نفسها بنفسها . وفي المادة ٤٨ الآنفة الذكر ماينص على التزام الدول المتعاقدة ، بما فيها الدول المسؤولة عن ادارة الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والاقاليم الخاضعة للوصاية ، بتقديم تقارير سنوية الى لجنة حقوق الانسان عن الاجراءات التي اتخذتها تنفيذاً للالتزامات المفروضة عليها والتي تنص على حق تقرير المصير ، وكذلك التزام الدول الوصية باجراء انتخابات واستفتاءات وغيرها من الطرق الديموقراطية مع التفضيل بأن يكون كل هذا تحت اشراف منظمة الأمم المتحدة بقصد تحديد الوضع السياسي لأي اقليم تحت ادارتها أو وصايتها . وتتم هذه الاجراءات بعد ان تقترحها لجنة حقوق الانسان وتوافق عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة .

ومكذا نرى ان حق تقرير المصير قد انتقل من مرحلة المبدأ الى مرحلة الحق الذي تطالب به الأمم في حركاتها التحررية ، وأن هذه المطالبة تأخذ بعين الاعتبار ارادة كافة افراد الأمة وليس جزءاً منها . وبعد ان تعتبر هذه الارادة العامة المشتركة يكون قرار الاكثرية هو القرار الشرعي الذي يبنى عليه حق تقرير المصير .

ولئن كان هذا الحق مايزال محور نزاع ومساومة بين الأمم الضعيفة

والأمم القومية ، بين الشعوب المستعمرة المتطلعة الى الحرية والسيادة القومية والشعوب المستعمِرة التي تريد الابقاء على احتلالها والحفاظ على استغلالها، فان خط السير في المطالبة مستقيم بالرغم من العقبات التي تحاول كسره أو عطفه أو تحويله . وستصل هذه الشعوب المكافحة الى الحياة الحرة والعيش الكريم والى تقرير مصيرها بيدها وبعون من الدول الحرة ، التي سبقتها في ميدان الحرية ، ومن الدول الحرة المخلصة لمبادىء ميثاق الامم المتحدة ومقاصدها ، ومن احرار العالم ، وهم في تكاثر ، لحسن الحظ ، يوماً بعد يوم .

ونتساءل أخيراً هل تقرير المصير سياسة أو موقف تتخذه الدول الكبرى في ظرف من الظروف وتوافق فيه على منح الاستقلال لشعب من الشعوب ، أو هو حق تنادي به الشعوب المطالبة بحريتها واستقلالها وتجاهد في سبيله لتحصل عليه ويعترف لها به ؟ الحقيقة أن وجهتي النظر مختلفتان . ان الدول الكبرى والدول الاستعمارية تجعل من تقرير المصير سياسة هبة أو منحة تمنحها عند ضغط الظروف لمن تشاء ، وتلمح بها حين تشاء ، وتريد ان تكون صاحبة القول الفصل بها لأنها تملكها . اما الشعوب غير المستقلة فتعتبره حقاً طبيعياً ، لأن الشعوب ، في الأصل ، نشأت حرة مستقلة كما خلقها الله وكما ارادها أن تكون ، ولكن المطامع البشرية اغتصبت هذا الحق الطبيعي عندما اعتدت الدول الكبرى على الشعوب الحرة وضمتها اليها أو استعمرتها . وما تبغي الشعوب لحق تقرير المصير والكفاح الذي تبذله الا في سبيل احقاق هذا الحق ووصولها الى الحياة الحرة المستقلة كما ولدت حرة . وما حصولها على الاستقلال الا اعادة هذا الحق الى نصابه والحرية الى أهلها . وما من شك في أن انتقال تقرير المصير ، من مرحلة المبدأ الى مرحلة الحق المكتوب في شرعة الأمم المتحدة ، يعتبر خطوة تقدمية كبرى في حياة الأمم والشعوب .

الخاتمة

باستسلام الالمان ، في ٧ أيار ١٩٤٥ ، واليابان ، في ٢ ايلول ١٩٤٥ ، انتهت الحرب العالمية الثانية بعد أكثر من ست سنوات كانت البشرية فيها فريسة الأهوال والمعارك والضغائن السياسية والعرقية . ووقع الظافرون ، في ١٠ شباط ١٩٤٧ ، معاهدات السلام في باريس مع الحلفاء الاوربيين لألمانيا المغلوبة دون أي تعبير ينم عن الرضى والارتياح بانتهاء الحرب وعودة السلام ، وبأن أبناءهم لن يكونوا عرضة للهلاك مرة أخرى في حرب ثالثة مدمرة مبيدة .

لقد ابتلي أبناء منتصف القرن العشرين أكثر من آبائهم في بداية هذا القرن في دمائهم ، وأكثر من ذلك في أرواحهم . وكانوا أكثر منهم وعياً بضعف السلام العائد بعد طول العناء وضرام الحرب حقاً لقد فقدوا الثقة وخامرهم سوء الظن والحذر ، وأصبحوا لا يصدقون ما يقال لهم . وهذا يرجع إلى الاسباب الآتية :

١ - ان السلام الذي فرضته المعاهدات في أعقاب الحرب العالمية الاولى كان ضعيفاً ، وكان يضمر في طياته بذور الحرب ، ولم يستطع حل المشاكل المعلقة ، فضلاً عن أنه أوجد مشاكل جديدة عسيرة الحل ، وكان لصالح الدول الاستعمارية الكبرى .

٢ - الفكرة التي تساور هذه الشعوب من أنها ستكون ضحايا جديدة للازمة الاقتصادية التي لم تضع الحرب العالمية الثانية لها حلاً نهائياً .

٣ ـ وإلى هذه الاسباب ، التي كانت ثمرة التجربة ، تضاف أسباب أخرى من ثمرة المعرفة . فقد كان الأبناء أكثر يقظة من آبائهم للقضايا السياسية والمنازعات العقائدية التي كانت تغذيها المنافسات الدولية والتيارات الفكرية المعاصرة المحركة العالم . وكانوا يعلمون حق العلم بأن الحرب لم تحل شيئاً . وإذا احتجب العداء ، الذي يضع الرأسمالية والشيوعية على طرفي نقيض ، لضرورة النضال المشترك ضد الخطر النازي ، فقد بدا عظيماً بعد الحرب وغير قابل للشفاء ، ومن الممكن ، في كل لحظة ، أن يتفجر عن نزاع مروع بالاسلحة النووية الجديدة وكارثة كبرى تقضي على البشرية . وكانت الحرب الأهلية التي اشتعلت في اليونان ، في ١٩٤٥ ، وضربة براغ ، في ٢٥ شباط ١٩٤٨ ، دليلًا على تصادم زعيمي المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي ببعضها عن طريق الدول الحاجزة قبل أن أوشكت الحرب أن تقع بينها عند أزمة برلين وحرب كوريا وغيرها .

وفي الواقع ، ان هذه الخلافات لم تؤد ، بالرغم من كل ذلك ، إلى حدها المنطقي وهو الحرب المكشوفة . وهذا يرجع لما يلي :

١ً ـ لأن قوة التدمير المتزايدة دون انقطاع للأسلحة النووية حرمت على مالكيها استعمالها عملياً تحت طائلة تدميرهم الذاتي .

٢ً ـ لأن بذور التفرقة التي ظهرت في داخل كل من التآلفين كان من المتعذر خنقها ، مما اضطر الدولتين الكبريين إلى تخفيف حدة النزاع خوفاً من مستقبل مظلم لايعرف مداه وفي الواقع ، حاولت الولايات المتحدة ، قبل كل شيء ، أن تبقي في طاعتها حلفاءها الاوروبيين أو الآسيويين ، الذين لم يستطع خروج فرنسا من حلف الاطلسي أو الاخفاق الذي لاقته في فيت ـ نام ، ان يدفعهم إلى التحرر كلياً من واشنطون .

وتمسك الاتحاد السوفياتي بالحفاظ على الاساسي من قواته ليبقي الديموقراطيات الشعبية في أوربة الشرقية في تبعية وثيقة سياسية وعسكرية واقتصادية، وبخاصة ليستطيع ، اعتباراً من سنوات الخمسين ، مجابهة الاطماع الارضية والمفاهيم العقائدية الثورية لصين الشعبية التي اعتبرتها موسكو خطرة عليها.

وهكذا بدأ نزاع سياسي للمواقع التي حددت في يالطا وبوتسدام في ١٩٤٥ ، ورأى هذا النزاع تفتحه في حركة الخلاص الكبرى من الاستعمار التي جرت البلاد التابعة في آسيا وافريقية إلى طرح وصاية « الوطن الام » الاوربي ، بعد أن شبت عن الطوق . غير أن حركيتها الديموغرافية وبؤسها الاقتصادي وأزمات النمو التي خلفها الاستقلال ومصالحها القومية دفعتها إلى الشعور بتضامنها مع دول أمريكا اللاتينية وتطبيق سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز بين الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية .

وفي الحقيقة ، يبدو النزاع صفة أساسية من صفات العصر ، لأنه لايكمن في التشكيك في العلاقات بين دولة ودولة ، بل يمتد أيضاً إلى صعيد النظم والاقتصاد والاجتماع بل والثقافة والدين . عدا عن أن الشعوب تنزع إلى أن تلقي على بنيات مابين الحربين مسؤولية الازمة الكبرى وابنتها الحرب العالمية الثانية .

ولذا أعيد النظر بالدساتير ، بل وبدلت بصورة عميقة بعد أن فكر بها تفكيراً جدياً . ووضعت المفاهيم الاقتصادية ، التي كانت موضع الشرف في بداية القرن ، موضع التشكيك من جديد . لأن أنصار الرأسمالية عزموا على التخلي عن ليبرالية القرن التاسع عشر الشاملة بعد أن أصبحت لاتتكيف مع متطلبات العالم المعاصر وحملوها توجيهية مخططة ، بينما اضطر الاقتصاديون الاشتراكيون ، باسم القدرة على انتاج الربح لجهاز الانتاج ، أن يدخلوا مفهوم الربح من جديد في نظام تسيير

المشاريع ، بعد أن أخرجه موجهو هيئات التخطيط في الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية إلى الأبد من حساباتهم واهتماماتهم . وأعاد ليبرمان وتابيتزنيكوف إلى الربح اعتباره في الاتحاد السوفياتي قبل أن يتصور الوزير التشيكوسلوفاكي اوتا سيك ، في ربيع براغ الموقت عام ١٩٦٨، تشكيكاً شاملاً لمبادىء وبنيات الاقتصاد الاشتراكي كما وجدت في بلاده .

ومن الواضح أن المبادىء والبنيات التي توجه التنظيم الاجتماعي قد تأثرت بحركة النزاع التي تدفع الرجال والشعوب إلى مشاركة متزايدة يوماً عن يوم في ثمار الانتاج وحماية أعظم كل يوم ضد أخطار الحياة اليومية في منظور المساواة الذي يذهب حتى التشكيك في النظم (المؤسسات) الموحدة بقوة ، بما في ذلك الملكية التي وجدت حقوقها محدودة بظهور مفهوم جديد : وهو مفهوم النفع العام . وهذه الحركة المندفعة إلى أقصى نقطة لها أدت ، في مجتمع الاستهلاك الحالي ، إلى نزاع شامل في مفهوم المجتمع نفسه في الحد الذي لايستطيع أعضاؤه ان يتخلصوا من الرؤيا المروعة النوويةالابالانصراف إلى اللذائذ الاصطناعية التي يوفرها لهم مجتمعهم ان فقدان التبرير المعنوي لهذا المجتمع يوضح السهام التي يمطره بها النقد الفلسفي والادبي والفني كالنقد الجامعي ، في ١٩٦٨ ، الذي ليس إلا تعبيراً أقصى لأزمة أوسع : أزمة الشباب غير المستقر الذي يبحث عن هذا المثل الأعلى الذي لايستطيع الانسان أن يعيش بدونه ولا يستطيع العالم المعاصر أن يقدمه له . ولذا فهو مسوق عبر الجامعة والاستاذ معاً ، إلى منازعة « الأسرة » ، و « الرئيس » و « الدولة » وحتى « الدين » الذي وجد نفسه مشدوداً

---

(١) ليبرمان Liberman .

(٢) تابيتزنيكوف Tapetznikoff .

(٣) اوتاسيك Ota sık .

بدوره في دائرة النزاع العام والخطير ، تحت تأثير ضرورة الحياة للتكيف مع عالم في طريق التطور المتسارع . هذا النزاع هو طابع عصرنا ويبدو أن هذا الطابع يهدد تدريجياً وبصورة خطيرة توازن البشرية ويضللها ، لأن هذه البشرية تتطلع في الواقع إلى النظام والاستقرار والسلام .

والآن ، مضت ثلاثون سنة ، على نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لتاريخ البشرية ، ولكنها تعتبر شيئاً كثيراً في نظر التقلبات العجيبة التي أثرت في كوكبنا الأرضي خلال هذا الدور . فبين انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتهاء الحرب العالمية الثانية ، حدث في التاريخ السياسي حادثان عظيمان وهما : افول اوربة ووصول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي إلى مرتبة الدول الكبرى ، بل العملاقة ، ودخل « العالم الثالث » المسرح السياسي ، وهو على مايبدو عليه من افراط سكان وبؤس وجوع ، ولكنه طموح ويريد أن يرفع الضنك عن أبنائه ، ويستغل خيرات بلاده ، ويشارك في الحياة الدولية .

وبصورة موازية ، تحولت الحياة الاقتصادية بشكل عميق على سطح الكرة ، كما تحولت الحياة السياسية بعد أن خرج الاتحاد السوفياتي من القمقم الذي أحكم الغرب سده بين الحربين العالميتين داخل الحزام الصحي . وقامت مجابهة مستديمة بين نظامي انتاج يعتمدان على مفاهيم متناقضة للحياة في داخل المجتمع ، ويحاول بعضها اليوم التغلب على التناقضات بفتح طريق ثالث وهو طريق المشاركة الذي حاول أن يسلكه في فرنسا الجنرال دوغول وأنصاره .

وتغيرت كذلك البنيات الاجتماعية - الاقتصادية التقليدية بهذه التجارب الجديدة ، وما زال النظامان الرأسمالي والاشتراكي اللذان يدعمانها

وافلين بالحياة ، وبخاصة النظام الرأسمالي . وخلافاً للآمال التي غذاها قوم أو المخاوف التي نماها آخرون ، استطاعت الرأسمالية أن تنجح في تنازع البقاء بتكييفها مع مسلمات الاقتصاد الحديث ، وأن تؤمن لنفسها ، وبشكل أفضل في حقل الزراعة ، وتيرة توسع متسارعة باستمرار لا تناقض شكلياً النتائج التي توصل اليها مالتوس في ركود الانتاج .

وما من شك في أن نهوض هذا الانتاج لم يكن ممكناً إلا بفضل استعمال طرق صنع جديدة ، واستخدام وسائل ميكانيكية جديدة كانت من ثمار الثورة العجيبة العلمية والتكنولوجية التي نقلت البشرية في الواقع ، في أقل من ربع قرن ، من عصر الكهرباء والمحرك ذي الانفجار إلى عصر الذرة والصواريخ عبر القارات وعلم الملاحة عبر الفضاء . وقد أسهم هذا التقدم على اختلاف أشكاله وألوانه في تغيير سلوك الانسان بصورة عميقة في علاقاته مع العالم . فقد تعلم كيف يعرف هذا العالم بشكل أفضل ، وبالتالي جرده من الأوصاف السحرية التي جعلته بغيضاً إلى أولاده .

وهو الآن يقظ على أمل العيش غداً في مجتمع الوفرة ، بيد أنه يجب أن يأخذ بعين الاعتبار أن البشرية ، باستثناء البلاد المصنعة في الغرب والاتحاد السوفياتي واليابان ، ترى خراب مستوى حياة أفرادها ، لأن ثلثي أبنائها يعيشان في حالة تفريط غذاء مستديم : فالزراعة ، في الواقع ، إلا في سنة ١٩٦٧ ، إذا كان محتوى تقرير منظمة الأغذية والزراعة دقيقاً ، تبدو عاجزة ، في جزء لأسباب فنية ، وفي جزء لأسباب اجتماعية ، عن تنمية انتاجها بوتيرة مشابهة لوتيرة نمو السكان . وهذا النمو السكاني ، الذي تخلص من كل عائق بتقدم الطب ، يؤمن حالياً ، وفي أقل من أربعين عاماً ، ضعف السكان ، بعد أن قفز تعدادهم من مليار وخمسمائة مليون نسمة في ١٩١٣ ، إلى ما يقارب أربعة مليارات اليوم .

والحدث العظيم في عصرنا هو أن هذه الثورة الديموغرافية تفوق ، بضخامة نتائجها المتوقعة ، كل أحداث نصف القرن الماضي ، وتهدد بغمر القارات الخمس بسد موجاتها البشرية المتلاحقة القوية يوماً عن يوم ولا تعرف الجزر مطلقاً ، وتولد في معظم بلاد العالم الثالث توترات متزايدة الخطورة ومثقلة بخلافات المستقبل ، وتدفع أكثر من دولة إلى تغيير سياستها المشجعة لكثرة النسل ، وتضطر روما ، نفسها، بعد الكنيسة البروتستانتية ، إلى أن تضع أمامها قضية شرعية ضبط الولادات التي لا يمكن الأمل بتحقيقها ، لضعف الايمان عند الجماهير المسيحية ، بممارسة العفة التي أعلن عنها البلاغ الحبري ، الحياة البشرية ، الصادر في تموز ١٩٦٨ ، بأنها الحل الوحيد الذي يتفق والمثل الأعلى الانجيلي .

وبهذه الحلول السياسية والاقتصادية والدينية ، التي تعطى لهذه القضية القائمة ، يتعلق ، في جزء كبير ، مستقبل سكان الأرض ، هذا المستقبل الذي تمسك الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمفاتيحه العسكرية على الأقل ما دامتا تحافظان على حصر الأسلحة النووية التي تملكها دولة عملاقة. وإذا كان بقاء الانسان منوطاً أخيراً بالحفاظ على توازن الارهاب بين واشنطون وموسكو فذلك أقل ما يكون من تناقض في تاريخ غني بالمفاجآت ، اللهم الا في حالة اليأس التي تكون فيها الرؤيا النووية المخرج الوحيد الذي يقدمه العلم الحديث لقضية افراط الاستيطان . ولكن أي مستقبل حزين لعالم نهم إلى السلام والحرية والوحدة !

ولكن لا داعي لليأس . ان البشرية على مسار تاريخها الطويل استطاعت أن تدبر أمرها وتجد حلولاً لمشكلاتها ، وإذا كان العلم الحديث قادراً ، إذا صحت الرؤيا النووية ، على ابادة البشرية ، كما يقول المتشائمون ، فانه قادر أيضاً على اعاشتها وتوفير الحياة الرغيدة لها كما يبشر المتفائلون .

١ ــ المصــادر

مصادر الدور من ١٩٤٥ الى ١٩٧٢

ان معرفة هذا الدور ، من ١٩٤٥ الى ١٩٧٢ تنضح بمطالعة الوثائق التي تصنع التاريخ والتي بنجمع الهام منها في الاقسام الثلاثة من المصادر المطبوعــة :

أ ــ مجموعات الوثائق

Odette VOILLIARD, Guy CABOURDIN, François-Georges DREYFUS, Roland MARX, *Documents d'histoire contemporaine,* t. II : 1851 - 1963 (Armand Colin, coll. U, 1964).

Paul REUTER et André GROS, *Traités et Documents diplomatiques* (P. U. F., coll. Thémis, 1959).

Claude-Albert COLLIARD, *Droit international, et Histoire diplomatique* (1815 - 1950), Paris, 2e édit., 1950.

Claude-Albert COLLIARD, *Actualité internationale et diplomatique* (1950 - 1956), Paris, 1957.

Jean-Marcel JEANNENEY, Raymond BARRE, Maurice FLAMANT et Marguerite PERROT, *Documents Economiques* (P. U. F., coll. « Themis », t. I, 2e édit., 1966; t. II, 2e édit., 1968).

ب ــ المصادر المطبوعة

ان مطالعة هذه النصوص يجب ألا ننسى مطالعة المجموعات الكبرى للوثائق الدبلوماسيه ، ولا مطالعة المذكرات والذكريات والآثار المذهبية لرجال السياسة الذين لعبوا دوراً أساسياً على مسرح التاريخ من ١٩٤٥ الى اليــوم .

١) مجموعات الوثائق

مجموعة المعاهدات والاتفاقات الدبلوماسية الدولية المسجلة أو المصنفة والمدونة فى مرجع امانة منظمة الامم المتحدة ، دورية ، ١٩٤٦ والسنوات التـالية .

المذكرات والدراسات الوثائقية :

ان المذكرات والدراسات الوثائقية ، التى نشرت تحت رعاية رئاسة مجلس الوزراء الفرنسية ، تنشر جزئيا او كليا وثائق رسمية عديدة جدا تعلق بفرنسا والبلاد الاجنبية. وان نشر اللوائح الشهرية واللوائح بحسب البلاد أو الموضوعات يساعد على التحري عنها بسهولة .

٢) المذكرات ، وثائق المذاهب أو التراجم

Harry S. TRUMAN, *Years of decision,* 1945, trad. franç. : *L'Année des décisions,* 2 vol. (Plon, 1955).

Dwight David EISENHOWER, *Mandate for change, the White House Years, 1953 - 1956* (trad. franç. : *Mandat pour un changement. Mes années à la Maison Blanche, 1953 - 1956.* (Paris, Laffont, coll. « L'Histoire que nous vivons » 1963).

Waging Peace, the White House Years, 1956 - 1961 (trad. franç. : *Bataille pour la paix. Mes années à la Maison Blanche, 1956-1961,* Paris, Edit. de Trévise, 1968).

Commission Warren, Rapport Warren, 26 vol., New York, 1964. (Rapport sur les circonstances de l'assassinat de J. F. Kennedy.)

Rapport de la commission Warren sur l'assassinat du Président Kennedy (Laffont, 1965, 2 vol.).

Anthony EDEN, *Mémoires, 1945-1957* (trad. franç. Plon, 1960, 2 vol.).

Konrad ADENAUER, *Mémoires,* t. I 1945-1953, t. II 1953-1956 (Hachette, coll. « Histoire », 1965-1967).

Joseph STALINE, *Les problèmes économiques du socialisme en U.R.S.S.,* (Paris, Editions sociales, 1952).

Joseph STALINE, *Le marxisme et les questions linguistiques* (Moscou, 1950).

Svetlana ALLILUYEVA, *Vingt lettres à un ami* (Edit. du Seuil, Paris-Match, 1967). (Ouvrage rédigé par la fille de Staline dont il contribue à préciser la personnalité mais dont le contenu est fort controversé par les autorités soviétiques.)

Vladimir DEDIJER, *Tito parle* (traduction française, Paris, Gallimard, 1953).

Mao TSO-TONG, *Ecrits choisis* (François Maspero, 3 vol., 1969); t. I, 1926-1937 (Editions de Pékin, 1966); t. II, 1937-1941 (id., 1967); t. III, 1941-1945 (id., 1968); t. IV, 1945-1949 (id., 1969).

Mao TSO-TONG, *Citations du Président Mao Tso-tong* (Le Petit Livre Rouge), édition en langues étrangères [français], Pékin, 1966.

Mao TSO-TONG, *La guerre révolutionnaire* (Union Générale d'Edition, Plon, 1962).

HO CHI MINH, *Œuvres choisies* (Edition française ou anglaise, Hanoï, 4 vol., 1960-1962); *Œuvres* (Librairie du Globe, 1961); *Action et Révolution,* 1920-1967 (U.G.E.), coll. « 10/18 », n° 413.

Çri Jawaharlal NEHRU, *Speeches,* Delhi, 1949-1958.

Gamal Abdel NASSER, *Philosophie de la Révolution* (1954).

Charles DE GAULLE, *Mémoires d'espoir* (2 vol., *Plon,* 1970 et 1971).

٣) مجموعات الاحداث :

André SIEGFRIED, Edouard BONNEFOUS, Jean-Baptiste DUROSELLE, *L'Année politique* (P.U.F., un volume par an depuis 1944-1945. Dernier volume paru, 1970 en 1971).

Journal de l'année : t. I, 1er juillet 1966-30 juin 1967; t. II, 1er juillet 1967 - 30 juin 1970 (Larousse, 1967, 1968, 1969 et 1970).

L'Année dans le Monde, collection « Notre Temps » (Arthaud, 1963 et années suivantes) (un volume par an depuis 1962. Dernier volume paru, 1969-1970 en 1970).

The statesman's yearbook, publié par S. M. STEINBERG, Londres, Macmillan, un volume annuel.

٢ — كتب التاريخ العـام

أ — الكتب المؤلفة :

Maurice CROUZET, *L'Epoque contemporaine,* « Histoire générale des civilisations » (P.U.F., t. VII, 1er édit. 1957, 5e édit. 1969).

Lucien GENET, *Cinquante ans d'Histoire : 1900-1950.* (Editions Tallandier, t. II, 1950; t. III, 1951).

René GROUSSET et Emile G. LEONARD, *Histoire Universelles;* t. III : *De la Réforme à nos jours.* Encyclopédie de la Pléiade, N.R.F. (Gallimard, 1re édit., 1958).

Marcel DUNAN (et Collaborateurs), *Histoire Universelle;* t. II : *Du XVIIe siècle à nos jours* (Larousse, 1960).

Marcel PACAUT et Paul BOUJU, *Le Monde contemporain, 1945-1968* (Armand Colin, coll. U, 1971).

Robert ARON et ses Collaborateurs, *L'Histoire contemporaine depuis 1945* (Larousse, 1969).

Roger CERE, *Entre la guerre et la paix* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 351, 1962).

Claude DELMAS, *La stratégie nucléaire* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1042, 1963).

Peter Calvocoressi, *World politics since 1945,* Second Edition, London, 1971.

Walter Consuelo Langsam and Otis C. Mitchell, *The World Since 1919* Eighth Edition the Macmillan Company, New York, Collier — Macmillan Limited, London, 1971.

R. D. Cornwell, *World in the twentieth century,* Longman, London, 1969.

George Lichtheim, *Europe in the twentieth century,* Weidenfeld and Nicolson, London, 1971.

Jacques Pirenne, *Les grands courants de l'Histoire Universelle,* vol. VII, de 1939 à nos jours edition de la Baconnière — Neuchatel, Albin Michel — Editeur, Paris, 1956.

Marcel Roncayolo, *Nos contemporains,* t. I et II, Bordas — Laffont, Paris, 1971-1972.

George A. Rothrock, *Europe : Abrief History,* Chicago, 1971.

Pierre Thibault, *Le temps de la contestation,* 1947-1969, Librairie Larousse, Paris, 1971.

D. C. Watt, *A history of the world in the 20th century,* Part I : 1899-1918, Pan Books Ltd., London, 1970.

Frank Spencer, *A history of the world in the 20th century,* Part II : 1918-1945 Pan Book Ltd., London, 1970.

Neville Brown, *A history of the World in the 20th century,* Part III, 1945-1968, Pan Books Ltd., London, 1970.

التـاريخ الدبلوماسي

١) العلاقات الدولية :

Jean-Babtiste DUROSELLE, *L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales* (P.U.F., coll; Nouvelle Clio, n° 38, 3e édit. 1970).

Jean-Baptiste DUROSELLE, *Histoire diplomatique de 1919 à nos jours.* (Dalloz, 5e édit. 1971).

Pierre RENOUVIN, Jean-Babtiste DUROSELLE, *Introduction à l'Histoire des Relations Internationales* (Armand Colin, 1964).

André FONTAINE, *Histoire de la guerre froide;* t. I : *De la Révolution d'octobre à la guerre de Corée* (Fayard, 1966).

André FONTAINE, *Histoire de la guerre froide;* t. II : *De la guerre de Corée à la crise des alliances,* 1950-1967 (Fayard, 1967).

٢) المنظمات الدولية :

Pierre GERBET, *Les Orgdnisations Internationales* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 792, 1963).

Charles CHAUMONT, *L'O.N.U.* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 748, 4e édit., 1964).

Marc MONTCEAU, *L'Organisation internationale du Travail* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 836, 2e édit., 1964).

Gilles Y BERTIN, *L'Investissement International* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1256, 1967).

Henri BONNET, *Les institutions financières internationales* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 44, 1966).

Louis DOLLOT, *Les relations culturelles internationales* (P.U. F., « Que sais-je ? » n° 1164, 1964).

Claude DELMAS, *Le Monde Atlantique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 771, 1958).

Herbert d'HEROUVILLE, *La Communauté économique atlantique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 396, 3ᵉ édit., 1964).

٣) قضايا السكان :

Marcel REINHARD et André ARMENGAUD. *Histoire générale de la population* (Domat-Montchrestien, 1961, dernière édition, 1968).

Robert SALOMON, *Les réfugiés* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 763, 1963).

Pierre GUILLAUME et Jean-Pierre POUSSOV, *Démographie Historique* (Armand Colin, coll. U, 1970).

٤) التاريخ الاقتصادي :

André PHILIP, *Histoire des faits économiques et sociaux de 1800 à nos jours* (Aubier-Montaigne, 2 vol., 1963).

Jean-Alain LESOURD, Claude GERARD, *Histoire économique des XIXᵉ et XXᵉ siècles;* t. I et II (Armand Colin, coll. U, 1963).

Christian AMBROSI et Max TACEL, *Histoire économique des Grandes Puissances à l'époque contemporaine,* 1850-1964 (Delagrave, 2ᵉ édit.. 1965).

Christian AMBROSI, Marcel BALESTE et Max TACEL, *Histoire et géographie économiques des grandes puissances à l'époque contemporaine;* t. I, 1967; t. II. 1ᵉʳ fascicule, 1968; 2ᵉ fascicule, 1969; 3ᵉ fascicule 1969.

Robert SCHNERB, *Libre-Echange et Protectionnisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1032, 1963).

Jean CHARDONNET, *Les conséquences économiques de la guerre* (1939-1946) (Hachette, 1947).

Jean CHARDONNET, *L'économie mondiale au milieu du XXᵉ siècle* (Hachette, 1951).

Walt Whitman ROSTOW. *Les étapes de la croissance économique* (Seuil, 1962).

Colin CLARK, *Les conditions du progrès économique* (P.U.F., 1960).

François PERROUX, *L'Economie du XXe siècle* (P.U.F., 4e édit., 1969).

Joseph LAJUGIE, *Les systèmes économiques* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 753, 5e édit., 1966).

Alain CHAZEL et Hubert POYET, *L'Economie mixte* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1051, 2e édit., 1965).

٥) التاريخ الاستعماري :

Henri GRIMAL, *La décolonisation (1919-1963)* (Armand Colin, Collection U, 1965).

Les Politiques coloniales. L'étude de ces dernières est abordée dans les ouvrages consacrés à l'histoire des grandes puissances coloniales : France, Belgique, Italie, Pays-Bas et Royaume-Uni.

٦) التاريخ الاجتماعي :

Alian TOURAINE, *La civilisation industrielle (de 1914 à nos jours)*; t. IV de la coll. : *Histoire générale du travail* publiée sous la direction de Louis-Henri Parias (Nouvelle Librairie de France, 1961).

Annie KRIEGEL, *Les internationales ouvrières* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1129, 1964).

Jacques DROZ, *Le socialisme démocratique (1864-1960)* (Armand Colin, coll. U, 1966).

Georges LEFRANC, *Le syndicalisme dans le monde* (P. U. F., « Que sais-je ? » n° 356, 1re édit., 1949).

Paul SILVESTRE et Paul WAGRET, *Le Syndicalisme contemporain* (Armand Colin, coll. U, 1970).

٧) تاريخ الافكار السياسية :

Jean TOUCHARD avec la collaboration de Louis BODIN, Pierre JEANNIN, Georges LAVAU et Jean SIRINELLI, *Histoire des idées politiques* (t. II. : *Du XVIII^{e} siècle à nos jours*) (P.U.F., coll. Thémis, 2^{e} édit., 1962).

٨) التاريخ الديني :

DANIEL-ROPS, t. X : *Ces chrétiens, nos frères* (Fayard, *Les grandes études historiques*, 1965).

Pierre PIERRARD, *Histoire de l'Eglise catholique* (Desclée et C^{ie}, 1971).

Jean-Baptiste DUROSELLE, *Histoire du catholicisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 365, 2^{e} édit., 1962).

Henry MARC-BONNET, *La Papauté contemporaire (1878-1953)* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 209, 1951).

Yves CONGAR, *Vatican II. le concile au jour le jour* (Edit. du Cerf, 1963-1966, 4 vol.).

Olivier CLEMENT, *L'Eglise orthodoxe* (P.U.F., « Que sais-je ? » n^{e} 949, 1961, nouv. édit. 1965).

Emile G. LEONARD, *Histoire générale du protestantisme* (P. U.F., t. III, 1964).

Emile G. LEONARD, *Histoire du Protestantisme* (P.U.F., « Que sai-je ? » n° 427, 1950).

Berthe GAVALDA, *Le mouvement œcuménique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 841, 1959).

٩) التاريخ الثقافى :

Raymond QUENEAU (sous la direction de), *Histoires des Littératures* (Encyclopédie de la Pléiade, Gallimard, 3 vol., 1955, 1956 et 1959).

Antoine ADAM, Georges LEMINIER, Edouard MOROT-SIR, *Littérature française*, t. II (Larousse, 1968).

René LALOU, *Histoire de la littérature française contemporaine de 1870 à nos jours*, t. II (P.U.F., 1953).

Geneviève BAZIN, *Histoire de l'Art de la préhistoire à nos jours* (éd. Charles Massin, 1953).

Louis HAUTECŒUR, *Histoire de l'Art* (Flammarion, 3 vol., 1959).

Hans TINTELNOT. *Du classicisme à l'art moderne*, t. XV et XVI, 2 vol., coll. « *Histoire de l'Art Payot* » (Petite bibliothèque Payot, 1966).

Robert MAILLARD (sous la direction de), *Dictionnaire universel de l'Art et des Artistes* (Fernand Hazan, 2 vol., 1967).

Norbert DUFOURCQ (sous la direction de), *La musique, les hommes, les instruments et les œuvres* (Larousse, 2 vol., 1964-1965).

١٠) تاريخ العلوم والتقنيات :

Fernand PERRIN, *Histoire des Sciences* (Lib. P. Beaudart, 1956).

Maurice DAUMAS (sous la direction de), *Histoire de la Science des origines au XX^e^ siècle* (N.R.F., Gallimard, Encyclopédie de la Pléiade, 1960).

René TATON (sous la direction de), *Histoire générale des sciences;* t. III : *La Science contemporaine*, vol. II : *Le XX^e^ siècle* (P.U.F., 1964).

Louis LEPRINCE-RINGUET, *La science contemporaine, Les sciences physiques et leurs applications* (Larousse, t. I, 1964; t. II, 1965).

Pierre DUCASSE, *Histoire des Techniques* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 126, 1955).

Pierre ROUSSEAU, *Histoire des Techniques* (Fayard, 1956). *Histoires des Techniques et des Inventions* (Hachette, 1967).

Maurice DAUMAS (sous la direction de), *Histoire générale des Techniques*, t. IV : *La civilisation industrielle* (P.U. F., à paraître).

Dominique DUBARLE O. P., *La civilisation et l'atome* (Les Editions du Cref, Plon, 1962).

٣ — أمريكا الانغلو — ساكسونية

أ — التاريخ العـام :

Pierre CHAUNU, *L'Amérique et les Amériques (de la Préhistoire à nos jours)* (Armand Colin, coll. Destins du Monde 1964).

Claude FOHLEN, *L'Amérique Anglo-Saxonne de 1815 à nos jours* (P.U.F., coll. Nouvelle Clio, n° 43, 4e édit., 1969).

Raoul BLANCHARD, *Le Canada français* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1098, 1964).

ب — تاريخ الولايات المتحدة .

René REMOND, *Histoire des Etats-Unis* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 38, 1959).

André MAUROIS, *Histoire des Etats-Unis* (Albin Michel, 1959, 2 vol.).

André MAUROIS, *Histoire du peuple américain* (Edit. Litt. de France, 1956, 2 vol.).

Frank FREIDEL, *Les Etats-Unis d'Amérique* (Sirey, 1966).

T. Harry WILLIAMS, Richard N. CURRENT, Frank FREIDEL, *A history of the United States (since 1865)*. New York (Alfred A. Knopf, 1963).

Henry PEYRET, *Les Etats-Unis* (P.U.F., coll. Le Monde a changé, 1961).

Marie-Louise HEERS et Eric BUCLOZ, *Les Etats-Unis contemporains* (Armand Colin, coll. U, 1970).

Y. H. NOUAILHAT, *Histoire des doctrines politiques aux Etats-Unis* (P.U.F., « Que sais-je ? » nº 1345, 1969).

Charles-Melchior de MOLESNES, *La carrière du président Kennedy et la vie politique américaine* (édit. Cujas, 1963).

Jean-Jacques SERVAN-SCHREIBER, *Le défi américan* (Denoël, 1967).

Shepard Bancroft CLOUGH, *Histoire économique des Etats-Unis depuis la guerre de Sécession* (P.U.F., 1953).

Louis FRANK, *Histoire économique et sociale des Etat-Unis de 1919 à 1949* (Aubier, 1950).

Louis FRANK, *Les Etats-Unis d'Amérique : Politique économique* (Sirey, 1966).

Harold Underwood FAULKNER, *Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique* (P.U.F., 1958, 2 vol.).

Melita OBRADOVITCH, *Les Récessions américaines d'après guerre et leur impact sur le reste du monde* (S.E.D.E.S., 1965).

John Kenneth GALBRAITH, *Le nouvel état industriel* (N.R.F., Gallimard, édit. française, 1967).

Claude FOHLEN, *Les Noirs aux Etats-Unis* (P.U.F., « Que sais-je ? » nº 1191, 1965).

Michel FABRE, *Les Noirs américains* (Armand Colin, 1967).

Martin Luther King, *Révolution non-violente* (Seghers, 1965).

٤ ـ أوربة واليابان

أ ـ تاريخ أوربة العام :

Lucien de SAINTE LORETTE, *L'idée d'Union fédérale européenne* (Armand Colin, 1955).

François GAY et Paul WAGRET, *Le Benelux* (P.U.F., « Que sais-je ? » nº 870, 3ᵉ édit., 1965).

Jean LECREF, *Histoire de l'unité européenne* (Gallimard, N. R.F., coll. Idées Actuelles, 1965).

François PERROUX, *L'Europe sans rivages* (P.U.F., 1re édit., 1954).

Charles MELCHIOR DE MOLENES, *L'Europe de Strasbourg* (Editions Roudil, 1971).

Pierre DUCLOS, *Le Conseil de l'Europe* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 885, 2e édit., 1964).

Jean de SOTO, *La C.E.C.A.* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 773, 3e édit., 1965).

Lucien de SAINTE LORETTE,*Le Marché Commun* (Armand Colin, 3e édit., 1963).

Jean-François DENIAU, *Le Marché Commun* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 778, 6e édit., 1964).

François CLERC, *Le marché commun agricole* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1125, 1re édit., 1963-1964).

Pierre MAILLET, *L'économie de la Communauté européenne* (Sirey, 1968).

Jean CHARDONNET, *Les grandes puissances, étude économique* (t. I : *L'Europe, France exceptée,* Dalloz, 4e édit., 1968).

ب ـ التاريخ القومي للبلاد الاوربية :

١) فرنسا :

أ ـ التآليف :

Louis-Henri PARIAS (sous la direction de), *Histoire du peuple français;* t. V, Jean-Marie MAYEUR, François BEDARIDA, Antoine PROST, Jean-Louis MONNERON, *Cent ans d'esprit républicain* (Nouvelle Librairie de France, 1958-1964).

Marcel REINHARD et Norbert DUFOURCQ, *Histoire de France*, t. II : *De 1715 à 1946* (Larousse, 1954).

Christian AMBROSI, *La France 1870-1970* (Masson, 1971).

Georges DUPEUX, *La société française 1789-1960* (Armand Colin, coll. U, 1964).

Maurice DUVERGER, *Les Constitutions de la France* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 162, 7e édit., 1961).

ب – التاريخ السياسي والاجتماعي :

Jacques CHAPSAL, *La vie politique en France depuis 1940* (P.U.F., coll. Thémis, 1966).

Jacques FAUVET, *La IVe République* (Arthème Fayard, 1959, édit. revue, 1963).

Alfred GROSSER, *La IVe République et sa politique extérieure* (Armand Colin, 2e édit. 1967).

Alfred GROSSER, *La politique extérieure de la Ve République* (Edit. du Seuil, 1965).

Jacques DROZ, *Histoire des doctrines politiques en France* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 304, 4e édit., 1963).

René REMOND, *La droite en France, De la Première Restauration à la Ve République* (Aubier-Montaigne, coll. Historique, 1963).

Claude NICOLET, *Le radicalisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 764, 2e édit., 1961).

Claude WILLARD, *Socialisme et communisme français* (Armand Colin, coll. U 2, 1967).

Georges LEFRANC, *Le syndicalisme en France* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 585, 1re édit., 1953).

Georges LEFRANC, *Le mouvement syndical de la Libération aux événements de mai-juin 1968* (Payot, 1969).

حـ ـ التاريخ الاقتصادي :

Yves TROTIGNON, *La France au XX^e siècle* (Bordas-Mouton, coll. Etudes supérieures, 1968).

André ARMANGAUD, *La population française dans la première moitié du XX^e siècle* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1167, 1965).

Jean-Marcel JEANNENEY, *Forces et faiblesses de l'économie française* (Armand Colin, 1960).

Pierre MAILLET, *La structure économique de la France* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 791, 3° édit., 1964).

André de LATTRE, *Politique économique de la France depuis 1945,* (Sirey, 1966).

Jean LECERF, *La percée de l'économie française* (Arthaud, 1963).

François PERROUX, *Le IX^e Plan française (1962-1965)* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 1021, 1962).

René SEDILLOT, *Du Franc Bonaparte au Franc de Goulle* (Calmann-Lévy, 1959).

André NEURISSE, *Histoire du Franc,* (P.U.F., «Que sais-je?» n° 1082, 2^e édit., 1967).

Charles BETTELHEIM, *Bilan de l'économie française* (P.U.F., 1946).

د ـ التاريخ الاستعماري :

Hubert DESCHAMPS, *La fin des Empires coloniaux,* (P.U.F « Que sais-je ? » n° 409, 3^e édit., 1963).

Gilles NERA, *La Communauté* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 428, 1960).

هـ ـ التاريخ الديني :

Aline COUTROT et François Georges DREYFUS, *Les forces religieuses dans la société française* (Armand Colin, coll. U, 1966).

٢) المملكة المتحدة :

Roland MARX, *Histoire du Royaume-Uni* (Armand Colin, coll. U, 1967).

André-J. BOURDE, *Histoire de la Grande-Bretagne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 282, 1961).

Marc CASATI, *Le Royaume-Uni au XX^e siècle* (C.D.U., 1965).

Marc CASATI, *Le Royaume-Uni de 1914 à nos jours* (S.E.D. E.S., 1967).

Jacques CHASTENET, *L'Angleterre d'aujourd'hui* (Calmann-Lévy, 1965).

Albert MABILEAU et Marcel MERLE, *Les partis politiques en Grande-Bretagne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1174, 1965).

Jean de SAILLY, *Politique économique du Royaume-Uni et du Commonwealth depuis la guerre* (Les Cours de Droit, 1962, 3 fascicules).

Jacques CROKAERT, *Histoire de l'Empire britannique* (Flammarion, 1947).

Henri GRIMAL, *Histoire du Commonwealth britannique* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 334, 1962).

François CROUZET, *L'Économie du Commonwealth* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 403, 1950).

٣) أوربة الشمالية ـ الغربية :

Jean DHONT, *Histoire de la Belgique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 319, 1963).

Maurice BRAURE, *Histoire des Pays-Bas* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 490, 1951).

Pierre JEANNIN, *Histoire des Pays Scandinaves* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 704, 2e édit., 1965).

٤) المانيا الغربيـــة :

Pierre GAXOTTE, *Histoire de l'Allemagne* (Flammarion, 1963, 2 vol.).

André DRIJARD, *L'Allemagne* (S.E.D.E.S., 1964).

Edouard VERMEIL, *L'Allemagne contemporaine, sociale, politique et culturelle (1890-1950)* (Aubier 1952 et 1953, 2 vol.).

Gilbert BADIA, *Histoire de l'Allemagne contemporaine* (1917-1962) ; t. II. 1933-1962 (Editions Sociales, 1962).

Serge BERNSTEIN et Pierre MILZA, *L'Allemagne, 1870-1970* (Masson, 1971).

Alfred GROSSER, *La République Fédérale d'Allemagne* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 1069,1964).

Alfred GROSSER, *La démocratie de Bonn (1949-1957)* (Armand Colin, 1958).

André MANNON et Léa MARCOU, *La République Fédérale allemande* (Fayard, 1967).

Jacques DROZ, *Histoire des doctrines politiques en Allemagne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1301, 1968).

Jean-François PONCET, *Politique économique de l'Allemagne occidentale* (Les Cours de Droit, 3 fascicules, 1963-1964).

Michel BEAUD, *La croissance économique de l'Allemagne de l'Ouest* (1949-1962) (édit. Cujas, 1966).

André PIETTRE, *L'économie allemande contemporaine* (Allemagne Occidentale) *1945-1952* (Edit. M. Th. Génin [Lib. de Médicis], 1952).

ه) بلاد الالب :

Jacques DROZ, *Histoire de l'Autriche* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 22, 3e édit. 1961).

E. ZOLLNER, *Histoire de l'empire autrichien des origines à nos jours* (Roanne, Horvath, 1968).

Charles GILLARD, *Histoire de la Suisse* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 140, 4e édit. 1964).

٦) بلاد البحر المتوسط :

F. G. BRUGUERA, *Histoire contemporaine ä Espagne* (1789 - 1950), (Ophrys, Gap, 1953).

Hugh THOMAS, *The Spanish civil war* (London, 1961) [tard. française].

Nicolas SVORONOS, *Histoire de la Grèce moderne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 578, 2e édit. 1964).

Georges BOURGIN, *Histoire de l'Italie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 286, 2e édit. 1957).

Jean REYNAUD, *Les partis politiques en Italies,* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1199, 1965).

Shepard Bancroft CLOUGH, *The economic history of modern Italy.* (Columbia University Press, 1964).

Pierre MILZA et Serge BERNSTEIN, *L'Italie, la Papauté, 1870-1970* (Masson, 1970).

ج — تاريخ اليابان :

Jean LEQUILLER, *Le Japon* (Coll. l'histoire du XXe siècle, Sirey, 1966).

Jacques CHEROY, *Où va le Japon ?* (Hachette, 1954).

Françoise PONS, *Un cas de développement sans inflation : le Japon* (P.U.F., 1963).

Hubert BROCHIER, *Le miracle économique japonais* (Calmann-Lévy, coll. Questions d'actualité, 1965).

Robert GUILLAIN, *Le Japon, 3e Grand* (Edit. du Seuil, coll. L'histoire immédiate, 1969).

٥ ـ العالم الشيوعي

أ ـ الاتحاد السوفياتي :

١) الكتب العامة :

Roger PORTAL, *Les slaves : Peuples et Nations (VIIIe-XXe siècle)*. (Armand Colin, coll. Destins du Monde, 1965).

Istran AGOSTON, *Le Marché Commun communiste. Principes et pratique du Comecon* (Paris, Minard, 1964).

٢) تاريخ الاتحاد السوفياتي :

Jean BRUHAT, *Histoire de l'U.R.S.S.* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 183, 6e édit., 1961).

Henri PEYRET, *L'U.R.S.S.* (P.U.F., coll. Le Monde a changé 1961).

Luca PIETROMARCHI, *Le monde soviétique,* traduit de l'Italien par Roger Hardy (Plon, 1964).

Histoire du Parti Communiste (Bolohevik) de l'U.R.S.S. (Edit. en langues étrangères, Moscou, dernière édit., 1964).

Révérend Père Henri CHAMBRE, *Le Marxisme en Union Soviétique. Idéologie et Institutions, leur évolution de 1917 à nos jours* (Edit. du Seuil, 1955).

Serge N. PROKOPOVICZ, *Histoire économique de l'U.R.S.S.* traduit par Marcel Body (Au Portulan, chez Flammarion, 1952).

Charles BETTELHEIM, *l'Economie soviétique* (recueil Sirey, 1950).

Robert BORDAZ, *La nouvelle économie soviétique (1953-1950)* (Grasset, enquêtes et documents 1960).

Alec NOVE, *L'Economie soviétique* (Plon, 1963).

Révérend Père Henri CHAMBRE *Union soviétique et développement économique* (Aubier, 1967).

ب ــ الديموقراطيات الشعبية ويوغوسلافيا :

René RISTELHUEBER, *Histoire des Peuples balkaniques* (Arthème Fayard, 1950).

Georges CASTELLAN, *La République démocratique allemande* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 964, 1961).

Georges CASTELLAN, *D.D.R., l'Allemagne de l'Est* (Edit. du Seuil, 1955).

Emile TERSEN, *Histoire de la Hongrie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 678, 1955).

Henry BOGDAN, *Histoire de la Hongrie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 678, 1966).

Ambroise JOBERT, *Histoire de la Pologne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 591, 1953).

Pierre BONNOURE, *Histoire de la Tchécoslovaquie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1304, 1968).

Henri PROST, *Destin de la Roumanie (1918-1954)* (Berger Levrault, 1954).

Marcel de VOS, *Histoire de la Yougoslavie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 675, 1955).

ج ــ الصين :

Robert LEVY, *La Chine* (P.U.F., coll. Le Monde a changé, 1964).

Jacques GUILLERMAZ, *La Chine Populaire* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 840, 1959).

Jacques GUILLERMAZ, *Histoire du Parti communiste chinois (1921-1949),* (Payot 1968).

René DUMONT, *Révolution dans les campagnes chinoises* (Edit. du Seuil, coll. Esprit « Frontière ouverte », 1957).

Robert GUILLAIN, *Dans trente ans la Chine* (Edit. du Seuil, Coll. L'histoire immédiate, 1965).

René DUMONT, *La Chine surpeuplée, Tiers-Monde Affamé* (Edit. du Seuil, Coll. Esprit « Frontière ouverte », 1965).

Robert GUILLAIN, *Six Cent millions de Chinois* (Julliard, 1956).

Roger LEVY, *Mao Tsö-tong* (Seghers, coll. *Les Destins Politiques,* 1965).

Stuart SCHRAM, *Mao Tsö-tong* (Textes traduits et présentés, Armand Colin, 1963).

٦ ـ العـالم الثالث

أ ـ الكتب العامة :

Josué de CASTRO, *Géopolitique de la faim* (Edit. Ouvrières, Paris, nouv. édit. 1962).

Yves LACOSTE, *Géographie du sous-développement* (P.U.F., Coll. Magellan, n° 2, 1965).

Yves LACOSTE, *Les pays sous-développés* (P.U.F., « Que saisje ? » n° 853, 4° édit., 1963).

François LUCHAIRE, *L'aide aux pays sous-développés* (P.U F., « Que sais-je ? » n° 1227, 1966).

Odette GUITARD, *Bandong et le réveil des peuples colonists* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 910,1961).

ب ــ التاريخ الاقليمي للعالم الثالث :

١) أمريكا اللاتينيــة :

Encyclopédie de l'Amérique Latine (P.U.F., 1954).

Pierre CHAUNU, *Histoire de l'Amérique latine* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 361, 1949).

Hugo D. BARBAGELATA, *Histoire de l'Amérique espagnole* (Armand Colin, 1949).

Cahier des Annales, n° 4, *A travers les Amériques latines* (Armand Colin, 1969).

Jean TOUCHARD, *La République Argentine* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 366, 1949).

Pierre MONBEIG, *Le Brésil* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 628, 1954).

Raymond AVALOS, *Le Chili* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 730, 1957).

François WEYMULLER, *Histoire du Mexique* (P.U.F., « Que sais-je ? »n° 574, 1964).

٢) آسيا الشرقية :

١ ــ الكتب العامة :

Jean CHESNEAUX, *L'Asie Orientale aux XIX^e^ et XX^e^ siècles. Chine-Japon-Inde-Sud-Est Asiatique* (P.U.F., Coll. Nouvelle Clio n° 45, 1966).

Hélène CARRERE D'ENCAUSSE et Stuart SCHRAMM, *le Marxisme et l'Asie 1853-1964* (Armand Colin, coll. U, 1965).

Roger LEVY, *La révolte de l'Asie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 496, 1965).

٢ ــ آسيا الجنوبية الشرقية :

Le THAN KHOI, *Histoire de l'Asie du Sud-Est* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 804, 1959, nouv. édit., 1967).

Achille DAUPHIN1MEUNIER, *Histoire du Cambodge* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 916, 1961).

Pierre FISTIE, *Singapour et la Malasie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 869, 1960).

Pierre FISTIE, *L'évolution de la Thaïlande contemporaine* (Armand Colin, Cahier F.N.S.P., n° 156, 1967).

André MASSON, *Histoire du Vietnam* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 398, 1960).

Philippe DEVILLERS, *Histoire du Vietnam de 1940 à 1950* (Edit. du Seuil, 3e édit., 1952).

Pierre MEILE, *Histoire de l'Inde* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 489, 1951).

R. GOPAL, *British rule in India, an assessment* (Londres, 1963).

Tibor MENDE, *L'Inde devant l'orage* (coll. Esprit « Frontière ouverte ». Edit. du Seuil, 1950).

Charles BETTELHEIM, *L'Inde indépendante* (Armand Colin, 1962).

Jean BRUHAT, *Histoire de l'Indonésie* (P.U.F. « Que sais-je? » n° 801, 1958).

François TESTA, *Le Pakistan* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 970, 1962, dern, édit. 1968).

Gaston WILLOQUET, *Histoire des Philippines* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 912, 1961).

Li OGG, *Histoire de la Corée* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1310, 1969).

٣ ـ افريقية والشرق الادنى :

أ ـ التاريخ العــام :

Jean GANIAGE, Hubert DESCHAMPS, Odette GUITARD et André MARTEL, *L'Afrique au XXe siècle* (Sirey, coll. Histoire du XXe siècle, 1966).

ب ـ افريقية البيضاء :

Charles-André JULIEN, *Histoire de l'Afrique Blanche des origines à 1945* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 4, 1966).

Jean-Alain LESOURD, *La République du sud* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 463, 1963).

جـ ـ الشرق الادنى :

André MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation VII-XXe* (Armand Colin, coll. Destins du Monde, 1968).

Dominique et Janine SOURDEL, *La civilisation islamique* (Arthaud, coll. Les Grandes civilisations, 1969).

Vincent MONTEIL, *Les Arabes* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 722, 1964).

Fernand J. TOMICHE, *l'Arabie Séoudite* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1025, 1962).

Jean-Pierre ALEM, *Le Proche-Orient Arabe* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 819, 2e édit., 1964).

Ferdinand L'HUILLER, *Le Moyen-Orient contemporain 1945-1958* (Paris, 1959).

Jean et Simone LACOUTURE, *L'Egypte en mouvement* (Edit. du Seuil, 1956).

Jean-Pierre ALEM, *Le Liban* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1081, 1963).

Robert MANTRAN, *Histoire de la Turquie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 539, 1952).

André CHOURAQUI, *l'Etat d'Israël* (P.U.F., « Que sais-je ? » 5e édit., 1967).

د — افريقية السوداء :

Marcel MERLE (sous la direction de), *L'Afrique Noire contemporaine* (Armand Colin, Coll. U, 1968).

Robert et Marianne CORNEVIN, *Histoire de l'Afrique des origines à nos jours* (Payot, 1964).

Robert CORNEVIN, *Histoire de l'Afrique* (t. Payot, 1966).

Henri BRUNSCHWIG, *L'avénement de l'Afrique Noire* (Armand Collin, 1963).

Philippe DECRAENE, *Le Panafricanisme* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 847, 1re édit. 1959).

Denise PAULME, *Les civilisations africaines* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 606, 1953).

Hubert DESCHAMPS, *Les Institutions politiques de l'Afrique Noire* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 549, 2e édit., 1965).

Dmitri Georges LAVROFF, *Les Partis politiques en Afrique Noire* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1380, 1970).

Vincent MONTEIL, *l'Islam Noir* (Edit. du Seuil, coll. Esprit, Frontière Ouverte, 1964).

Robert DELAVIGNETTE, *L'Afrique Noire française et son destin* (N.R.F., 1962).

Jean DROESSE, *Histoire de l'Ethiopie* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1393, 1970).

Robert CORNEVIN, *Le Dahomey* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1176, 1965).

Hubert DESCHAMPS, *Histoire de Madagascar* (Berger-Levrault, 3e édit., 1965).

Robert CORNEVIN, *Le Togo* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1272, 1967).

الفهرس

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

المقدمة

الفصل الاول

نهاية الاستعمار

الفصل الخامس

التطور الديني

الفصل السادس

الحياة اليومية

الفصل السابع

عصر العلم

الفصل الثامن

الانجازات العلمية المعاصرة

الفصل التاسع

حضارة العصر

الفصل العاشر

تفسير عصرنا

الفصل الحادي عشر

الدول الاوربية الاخرى

الفصل الثاني عشر

التمييز العنصري

الفصل الثالث عشر

الحياد الايجابي وعدم الانحياز

الفصل الرابع عشر

تقرير المصير

أسماء الأشهر في البلاد العربية

كانون الثاني	=	يناير
شباط	=	فبراير
آذار	=	مارس
نيسان	=	ابريل
أيار	=	مايو
حزيران	=	يونيه
تموز	=	يوليو
آب	=	اغسطوس
ايلول	=	سبتمبر
تشرين الأول	=	اكتوبر
تشرين الثاني	=	نوفمبر
كانون الأول	=	دسمبر



الموسوعة التاريخية الحديثة الموسوعة التاريخية الحديثة



تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة
تاريخ القرن السابع عشر
تاريخ القرن الثامن عشر
تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر
تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر
تاريخ القرن العشرين

١٩٠٠ ـ ١٩٤٥

التاريخ الدبلوماسي

١٩٤٠ ـ ١٩٥٨

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء